

التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

ابراهيم عليه السلام واوصياؤه

بين الكتاب و السنة

المجلد (٢٤)

آية الله العظمى الصادق الطهرانى

الفهرس

الفهرس ... ٥

المقدمة ... ٦

ابراهيم فى حججات مع المشركين ... ٧

ابراهيم فى حججات مع المشركين ... ١٤

اسوء حسنه فى ابراهيم ... ٤١

ابراهيم فى حججات مع المشركين ... ٤٧

تهديد صريح من ابراهيم لكسر الاصنام كحجة عملية ... ٥١

ابراهيم و ملكوت و السماوات و الأرض ... ٧١

محاجة ابراهيم مع الملك نمرود ... ١٠٦

ابراهيم و حرمة الاستغفار للمشركين ... ١١١

من بعد ما تبين انهم اصحاب الجحيم ... ١١١

...واتبع ملء ابراهيم حينئذ ... ١١٩

أرتى كيف تحير الموتى؟ ... ١٢٣

ابراهيم أمة ... ١٣٢

ابراهيم و البلد الامن ... ١٣٧

اول بيت وضع للناس فيه مقام ابراهيم ... ١٥١

ابراهيم بانى الكعبة المباركة ... ١٦٨

اسماعيل و ادريس و لوط (عليهم السلام) ... ٢٣٥

عاد و ثمود ... ٢٤٦

لوط (ع) فى رسالته الى قومه ... ٢٤٨

عذاب قوم لوط ... ٢٥٢

عذاب قوم لوط ... ٢٦٢

عذاب قوم لوط ... ٢٧٧
لوط عليه السلام ... ٢٩٧
شعيب(ع) فى رسالته ... ٣٠٨
رسالة شعيب (ع) ... ٣٣٩
شعيب ... ٣٦١
شعيب(ع) ... ٣٦٨
هود(ع) فى رسالته ... ٣٨٢
رسالة هود(ع) ... ٣٨٩
صالح (ع) ... ٣٩٨
واذكر عبدنا ايوب ... ٦٠٢
وايوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر ... ٦١١

المقدمة

والحمد لله حمداً كثيراً وصلى الله على محمد وآله الاخيار المنتجبين
فى هذا الكتاب تحديثات بالغه منبهه على ضوء القرآن الكريم والسنة المحمديه وسائر
كتابات الوحي عن ابراهيم الخليل(ع) ورسلى وانبياء و بعده ذوراً عن ساحتهم ما يمس من
كراماتهم المعصومه وفيه ذكريات من قصصهم عليهم السلام مع اهل الله وغيرهم فى
حججات بارعة بينة تذكرها بدقه واناقة مستوحات من القرآن العظيم.
«ولا ينبئك مثل جبر»

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

ابراهيم فى حججات مع المشركين

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦).

اذكروا أنتم المهتدون على آثار آباءكم المشركين تقليدا أعمى، اذكروا من زوايا التاريخ الرسالى بطولات الموحدين ورجولاتهم ضد الآباء المشركين «و، اذكروا من بين هؤلاء الأكارم، إبراهيم، وقد تربى فى جو الشرك على يدى أبيه آزر، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ، عصيانا جريئا على جو الشرك رغم أنه تربى فيه، حيث يحاج أباه: عمه أو جده لأمه - حججا بالتي هى أحسن فيغلب عليه! وأنتم دون حجج مع آباءكم على آثارهم تهتدون! رغم تواتر الحجج ضد أمتهم الشركية؟! وهب إن تقليد الآباء جائز أو يجب، أفليس إبراهيم أكرم الآباء فى العرب فلتقلدوه فى ترك تقليد الآباء، ثم تقلدوه فى أمة التوحيد واتباع الحجة على المحجة التى بها تهتدون! ثم هب إن لتقليد الآباء مبررا لأنهم آباء يحترمون، فهل الآباء القدامى أقرب إليكم فأوجب حرمة وأقرب وطئة إن تركتموهم؟ أم الأب الحاضر دون فصل حيث يربيك ويحملك على ما يريد؟ وإبراهيم مسيطر عليه بأب مشرك يصنع الأصنام، ويهدده فى ترك الأصنام، ولكنه يرفض باطل التقليد ولا يخاف ضغط المربى، ويتفجر فى وجهه بجдал بالتي هى أحسن سلبا لآلهة وإيجابا لله.

أم إن للقدمه حرمتها، فالقدامى يحترمون لأنهم قدامى أكثر من الجدد، ولماذا؟ أو لم يكن القدامى قبل ردح من الجدد، أم لا يكون الجدد بعد ردح قدامى، ثم ومن أكارم القدامى إبراهيم أبو العرب فليحترم - على أقل تقدير - لقدمته إضافة إلى حجته! هنالك تقليد مطلق أعمى دون أى دليل بإجمال أو تفصيل، ثم تقليد بصير بدليل مجمل، ومن ثم اجتهاد مطلق أماذا؟ وسبيل الحق هو التقليد بدليله، أم إذا استطاع اجتهاد مطلق بدليله.

و كيف يصح للإنسان العاقل أم والمجنون أن يرجح سبيلا على سبيل دون أى دليل؟ وإذا كان سلوك الآباء دليلا وليس به، فما ذا يصنع بآباء مختلفين فى سبلهم؟ فهل ترجح آباء على آباء دون أى دليل إلا أنهم آباء، أفليس الآباء الآخرون آباء! ام ليس أبوكم الأكبر إبراهيم من الآباء؟

فما ذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون؟.

إبراهيم يتربى فى جو محض فى الشرك، ولكنه لرفضه التقليد وتحرّيه عن دليل يواجه أباه المشرك وهو براءٌ مما تعبّدون: محض البراءة عن الشرك، حيث البراء مصدر، فهو براءة عن الشرك ومصدر لهذه البراءة، رغم تربّيه فى محض الشرك! فإبراهيم البراء مما يعبد هوّاءً ويتراشهم أبوه، لا يتابع أباه ولا يسايره لحظة ولو فى ظاهر الحال، إنه محض البراء وصراحه، لا يمارى ولا يدارى ولا يجارى أباه فى لفظة قول، أو لحظة بصر، أو لمحة فعل إلا «إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ. إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي (٢٧).

«إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي، خَلَقَنِي وَجَعَلَ فِى فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ فَطَرَتِ اللّٰهُ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، (٣٠: ٣٠) هذه الفطرة فيها الهداية الإجمالية التوحيدية، ثم الذى فطرنى فى هكذا سيهدين، هداية الوحي تكمله تفصيلية لهدى الفطرة لمن جاهد فى الله «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، (٢٩: ٦٩) وبين الهديين هدى متوسطة «الَّذِى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، (٢٦: ٧٨) أ ترى أن ذلك المشرك كان والده والأنبياء هم من أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة وأية دناسة أدنس من الإشراك بالله؟

كلّا: إنه كان عمه أوجده لأمه ولم يكن والده، إذ تبرء عن أبيه آزر لما تبين أنه عدو لله، ثم وهو يبنى البيت مع ابنه إسماعيل يستغفر لوالده:

«رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ، (١٤: ٤١) فحتى إذا لم يكن إبراهيم معصوماً - وهو من أفضلهم! - لم يكن ليستغفر لأبيه آزر، فاستغفاره لوالده يدلنا أنه غير آزر، وإلا كذب كلام الله تبرء منه، حيث يبرئه عن ذلك الاستغفار طول حياته.

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨).

دون ان يكتفى بحاضر النضال! ترى وما هى الكلمة الباقية فى عقبه؟ هل إنها الأولى: براءٌ مما تعبّدون؟ ولا تكفى توحيداً لله حيث تحمل الرفض المطلق لعبادة كل معبود حتى الله! أم هى الثانية: «إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي»: عبادة الله؟ وهى دون صلة بالكلمة الأولى ببراء وقد تحمل عبادة الله مع غيره، أم دون نفى مطلق لمن سواه! إذا فهى كلا النفي والإثبات: كلمة «لا إله إلا الله» ف «إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ» تعنى «لا إله»، و«إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي» تعنى «إلا الله»، مزودةً بدليل

فطرى: «الَّذِي فَطَّرَنِي، لاَ اللهُ، فقط، وآخر من هدى الفاطر فإِنَّهُ سَيَهْدِينِ! ولماذا فطرنى، دون فطَّرَ النَّاسَ، كما فى آية الفطرة؟ حيث الفطر درجات، منها المستورة بظلم الشرك والضلال، ومنها مشرقة فى درجات متوسطة، ومنها ما هى فى درجات عليا كالفطرة الإبراهيمية، إذا فحقَّ له فطرنى».

و لأن معنى الإشراك بالله هو أن يعبد غير الله مع الله كيفما كانت هذه وتلك ف «إِلاَّ الَّذِي فَطَّرَنِي، استثناء متصل ب «مِمَّا تَعْبُدُونَ، أم وإذا كان منفصلا وعله أنسب، حيث إن عبادة الله بين المشركين لا تليق بالله، ف «لا إلهَ إِلاَّ اللهُ، هى المعنى من الكلمتين السلبية والإيجابية وهما كلمة واحدة تامة.

و بطبيعة الحال ليست هذه الكلمة الباقية هى الأصوات المقطعة والحروف المنظومة فإنها لا تبقى وهى «كَلِمَةٌ بَاقِيَةٌ، ثم ماذا تفيد هذه الكلمة لو لا واقع المعنى والالتزام بها! وهل الضمير المستتر فى «جعلها، لإبراهيم لا لله؟ فهو مصدر الكلام هنا وركنه! وهو القائل «إِنِّي بَرَاءٌ ... إِلاَّ الَّذِي فَطَّرَنِي! وهو الموصى بها بنيه: «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (٢: ١٣٢)! فقد وصى بها ولده وأمرهم أن يتواصوا بها ما تناقلتهم الأصلاب وتناسختهم الأدوار! أم لله دون إبراهيم؟ حيث الوصية ليست جعلاً، فقد تخالف الوصية الإبراهيمية والجعل الباقى ثابت ليس بيد إبراهيم أم سواء إلاً لله! وإبراهيم وإن كان مصدر الكلمة هناك، ولكننا الهداية الإلهية فيها ليست له إلا من الله: «فإِنَّهُ سَيَهْدِينِ، فضلاً عن سواه من عقبه وهو لا يملكهم بعد ألا يملك نفسه! أم المعنيان معا معنيان، فقد جعلها الله كلمة باقية فى عقبه حتما لا حول عنه، ولكن بما زرعه إبراهيم فى القلوب بأمر الله، وبما دعى الله «وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» (١٤: ٣٥) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» (٣٠: ١٢٨) فإبراهيم عليه السلام عمل لله ودعى الله فى بقاء كلمة التوحيد فجعلها الله كلمة باقية فى عقبه: نسله وذريته، فلا يخلو نسله عن موحدين إلى يوم الدين.

ثم ومن أبرز الموحدين من نسله أئمة التوحيد وحملته الأعلون محمد صلى الله عليه وآله وعترته

الأطهرين، وإلى ذلك تنظر الروايات التي تفسر هذه الكلمة بالولاية العليا والعصمة الكبرى^١ لا أنها هي المعنى دون سواها، وإنما هي المصداق الأجل، هم الحملة الإبراهيميون لكلمة التوحيد، حيث حملوها أعرق وأعمق مما حملها إبراهيم عليه السلام!

فليست هنا بين الآيات لفظة الولاية حتى يرجع إليها ضمير «ها» في «جعلها»، وإنما ما قالها إبراهيم المختصرة المحتصرة في: «لا إله إلا الله! المتدرجة في درجات حسب درجات الموحدين! ومن في عقبه الموحدون درجات أعلاهم أئمة التوحيد الأعلون محمد صلى الله عليه وآله وخلفاء المعصومون عليهم السلام، وكما التمس لعقبه الإمامة فاستجيب لغير الظالمين» قال: «إني جاعلك للناس إماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» (٢: ١٢٤).

وقد تعنى روايات الولاية أن «ها» في «جعلها» راجعة إلى الهداية الإبراهيمية وفأئمة سيهدين، الضاربة إلى المستقبل تعنى هداية الولاية والإمامة الإبراهيمية، بعد هدايته قبلها بالوحي الكذبي خلقني فهو يهدين، فتلك الهداية المستقبلية باقية في عقبه في مثلث من ١ هدى موسى وعيسى التي علها كهدي إبراهيم وإمامته، ٢ ومن هدى من دونهم من الأنبياء الإبراهيميين كأبياء بنى إسرائيل وإسرائيل نفسه وأضرابه، ٣ ومن هدى من فوقهم كلهم وإمامته، كالهدى المحمدية صلى الله عليه وآله الثابتة في أهل بيت هذه الرسالة السامية إلى يوم الدين ف عقبه، يشمل العقب العام: كل من يأتي بعد إبراهيم عليه السلام من المكلفين حيث لا يخلون من كلمة التوحيد إلى يوم الدين، ثم العقب الخاص: ذريته من موحدين ومشركين، ثم الأخص: الأنبياء الإبراهيميون من إسحاق وإسماعيل، ثم أخص الخاص: الرسول محمد صلى الله عليه وآله وأله

^١ نور الثقلين ٤: ٥٩٦ ج ٢٣ وفي كتاب علل الشرايع بإسناده إلى أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ» قال: في عقب الحسين عليه السلام فلم يزل هذا الأمر منذ أفضى إلى الحسين ينقل من ولد إلى ولد لا يرجع إلى أخ وعم ولم يتم يعلم احد منهم الا وله ولد، وفيه عن معاني الاخبار عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية قال: هي الإمامة جعلها الله عز وجل في عقب الحسين باقية إلى يوم القيامة.

وفيه عن الاحتجاج للطبرسي عن النبي صلى الله عليه وآله حديث طويل يقول فيه في خطبة الغدير: معاشر الناس القرآن يعرفكم ان الائمة من بعده ولده وعرفتمكم أنه مني وأنا منه حيث يقول الله عز وجل «كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ» وقلت: لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما، وفيه عن المناقب لابن شهر آشوب الأعرج عن أبي هريرة قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الآية قال: جعل الإمامة في عقب الحسين وسيخرج من صلبه تسعة من الأئمة منهم مهدي هذه الإمامة، وفي أحقاق الحق ج ١٣ ص ٣٠٦ العلامة الشيخ هاشم بن سليمان في كتاب المحجة على ما في بناييع المودة ص ٤٣٧: اسلامبول روى حول الآية عن ثابت الشمالي عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال: فينا نزلت هذه الآية وجعل الله الإمامة في عقب الحسين إلى يوم القيامة وان للغائب منا غيبتين إحداهما أطول من الأخرى فلا يثبت على إمامته إلا من قوي يقينه وصحت معرفته.

المعصومون، وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، يخص العقب الأول والثاني.

و على أى الحالين فهذا وذاك من التأويل والتفسير بأعلى المصاديق وأجلاها دون منعة لسعة الكلمة كل موحد من نسل إبراهيم إلى يوم الدين - وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، فى ترجى رجوعهم إلى كلمة التوحيد تَوَدُّ الشَّمُول، فإن أئمة التوحيد هُوَاء لم يسبق لهم شرك حتى يرجعوا عنه إلى توحيد، فلعل هم، فى لعلمهم يخص المشركين ممن فى عقبه وسواهم وإن كان الصدر فى عَقْبِهِ، يزهر كأعلى مصداق فى صدور المعصومين منهم وبينهما متوسطون أما ذا؟

بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩).

بل، هنا إعراض عما علّه يفهم من «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ، أن كلمة التوحيد جعلت عريقة عميقة ثابتة فى عقبه، مندغمة فى كيانهم لا يتخلفون عنها خلاف من قبل ابراهيم، فالرسل الإبراهيميون منذ إسماعيل وإسحاق وإلى موسى وعيسى ومن بينهم من الرسل وسائر دعاة التوحيد رفعوا مشعله وأناروا مناره دون خمول وأقول اتصالا دونما انفصال.

بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ، ولكن هُوَاء المشركون حيث متّعوا وآباءهم وطال عليهم الأمد فقسست قلوبهم زمن الفترة الرسالية بين المسيح عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله .. هُوَاء من العقب الإبراهيمي تخلفوا عن تلك الكلمة الباقية وتعرقوا فى الشرك، حيث طال بهم العهد ومتعمهم الله جيلاً بعد جيل حتى طال عليهم العمر ونسوا مله ابراهيم، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة .. «حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ»، القرآن بعد غروبه زمن الفترة وجاءهم «رَسُولٌ مُّبِينٌ» للحق أوضح بيان لحد لم يسبقه سابق، وكأن من سبقه من رسل لم يكن فيهم مبين وكلهم فى حده مبين.

فهذا الرسول مبين بنفسه ومبين بكتابه ومبنى بمعجزاته، مبين بمن قبله فى بشاراته ومبين بشاهد منه فى تربيته: أَمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَالْكَافِرُ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ، (١١: ١٧)!

ابراهيم فى حججات مع المشركين

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ (٧١) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ (٧٢) فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ (٧٣).

و تلكم الأكتريه الضالّه دائبه فى الطول التاريخى والعرض الجغرافى، رغم تواتر الإنذار من المنذرين، فكان ضلالهم معمداً بعد التحذير والإنذار، فانظر، نظراً فى عمق الغابر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ، المصدقين منهم والناكرين:
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ (٧٤).

فهم بينهم لم تكن لهم عاقبه إلا الحسنى، رغم السائرين من مكذبين، او مصدقين قاصرين او مقصرين، حيث نالوا ما قصرُوا او قصرُوا شطرا فى الأولى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى! والاستثناء يعم ضل، والمنذرين، فإن للشيطان سبيلاً الى غير المخلصين مهما كان لمما أو كبيرة.

و من هنا استعراضات وجيزه لعاقبه المنذرين والمنذرين، من مخلصين وسائر الموقنين أو المكذبين، بادنا بأول المرسلين العظام نوح عليه السلام:
وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥).

نداء وإجابة مهما كان بينهما من بون كما تقتضيه الحكمة الإلهية، ومن ندائه فدعا ربّه أنى مغلوباً فانتصر... وَ حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَ دُسُرٍ. تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا (٥٤: ١٤) (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَاراً... مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً... وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً... (٧١: ٢٨) والجمع فى نادانا، والمجيبون، يعنى جمعيه الصفات جلالاً بسحق الكافرين، وجمالاً بنجاة الموقنين، فلنعلم المجيبون، لمن هو نعم العبد! ...

صدقت ربنا أنت أقرب من دعى وأقرب من يعطى فنعم المدعى ونعم المعطى ونعم المسوّل ونعم المولى أنت ربنا ونعم النصير!

^١ الدر المنثور ٥: ٢٧٨- اخرج ابن مردويه عن عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وآله إذا صلى في بيته فمر بهذه الآية «وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ» قال: صدقت ربنا ...

وَنَجِّينَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي
الْآخِرِينَ (٧٨).

هذه ثلاث إجابات لما دعا نوح عليه السلام بين نفى لغير أهله وإثبات لأهله، وأهله - هنا -
الآهلون للنجاة، من أهله في النسب وأهله في الإيمان، فلم ينج فيمن نجى ابنه وامراته وهما
أقرب أهله نسبياً، وقد نجى من آمن به مهما كانوا أبعد عنه في النسب، فإنما الأهل هنا أهل
الإيمان، سواء فيهم أقاربه وأغاربه: «قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ
سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ» (٤٠: ١١) (فَقَالَ رَبُّ إِنِّي أَنْبِئُكَ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» (٤٦: ١١).

ترى وإذا كان أهله أعم من ذريته فما ذا تعنى «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ» وابنه من ذريته و
قد هلك، والمؤمنون القلة غير ذريته وقد بقوا؟

فهل هم ذرية الإيمان كما أهله؟ فلما ذا التحول من أهله، إلى ذريته؟ علما تعنى ذرية أهله
فإنهم ذريته إيمانياً كما هم أهله: «ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا» فلم يكن
الباقيون بعد طوفان نوح إلا من انتسل من أهله وذريته المؤمنين وسائر من آمن معه.

وعل من آمن معه كانوا هم أو أكثرهم من ذريته، ف- «أهلك» في يونس مقابل «من آمن»،
تعنى الأقربين، والآخرون هم سائر ذريته!

أم إن المحمولين معه كانوا من ذريته وغيرهم، ولكننا الباقيين لم يكونوا إلا ذريته مهما
شملتهم النجاة عن الغرق؟ فلما ذا اختصاص البقاء ببعض المحمولين ولم يختصوا بالإيمان،
وعل منهم من كان أفضل من ذريته؟

علهم ماتوا في السفينة فلم تنسل لهم ذرية وكما يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله في روايات

^١ نور الثقلين ٤: ٤٠٥ ح ٣٦ علي بن ابراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يقول: الحق والنبوة والكتاب
والإيمان في عقبه وليس كل من في الأرض من بني آدم من ولد نوح قال الله عز وجل في كتابه «احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ
أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» وقال الله عز وجل أيضاً «ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ».

^٢ الدر المنثور - أخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وآله في
الآية قال: سام وحام ويافث. أقول وقد أخرج ما في معناه جماعة آخرون عن سمرة وأبي هريرة.

عدة، و هي توافق ظاهر آية الذرية.

ترى وماذا ترك عليه في الآخرين؟ ومن هم أولاء؟

علّ الآخرين هم سائر حملة الدعوة الرسالية بعد نوح من إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله ومن بينهم، وقد ترك الله وخلّد دعوته العالمية بين سائر الخمسة الذين دارت عليهم الرحي، فربط بينهم برباط الدعوة الوحيدة الموحدة، أو يعنى «تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، ترك الدعوة ضده لمكان علي، وكما ترك عليه سلاما في الآخرين.

سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٨٢).

فسلام عليه دائب في العالمين إلى يوم الدين دونما انقطاع لذكراه المجيدة الوطيدة الصامدة فإنه أول من انتهض في دعوة باهضة فائزة، بمقاساة أشد البلايا والفتن طول الدعوة، فله نصيب من كل خير وسلام إلى يوم القيامة! وإنه سلام من الله ومن أهل الله في العالمين، من الملائكة والجنة والناس أجمعين أم أيا من المكلفين، إِنَّا كَذَلِكَ الْوَاسِعُ الْفَاسِحُ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، ف- لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ.

و انه سلام جزاء الإحسان ل- إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ، إيمان السلام والتسليم فله السلام كما سلم، ومن ثم لمن معه وتابعه ثم، بعد ما نجيناه وأهله من الكرب العظيم، أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ، وهم غير أهله: وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِبِرَاهِيمَ (٨٣).

فإبراهيم ممن شايح نوحا في دعوة التوحيد، وفاقه فيها، فقد يشايح الأعلى الأدنى كما الأدنى يشايح الأعلى، أو هما يتساويان، فلا تعنى المشايعة لأحد تفضلا في المشايح عليه، إلا نفس التوافق في سلك واحد، ومن الأدنى شيعة موسى فاستغاثة الذي من شيعته على الذي من عدوه، (٢٨: ١٥) وشيعة علي عليه السلام، وان شيعة الحق قد تكون متاخرة في الزمان لا في المكانة كإبراهيم بالنسبة لنوح، وقد تتقدم في الزمان وتتأخر في المكانة كالنبيين أجمع بالنسبة لخاتم النبيين، وبهذا الاعتبار يعد إبراهيم في عداد شيعة علي عليه السلام وهذا تاويل^١

^١ تفسير البرهان ٤: ٢٠ ح ٢ شرف الدين النجفي قال روى عن مولانا الصادق عليه السلام انه قال قوله عز وجل «وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِبِرَاهِيمَ» اي ابراهيم من شيعة علي عليه السلام قال ويؤد هذا التأويل ما رواه الشيخ محمد بن الحسن بن محمد بن وهبان عن أبي جعفر محمد بن علي بن رحيم عن العباس بن

وذلك تفسير.

إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبِ سَلِيمٍ (٨٤).

و متى أصبح إبراهيم من شيعته نوح في دعوته المخلصة؟ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ، حين جاء كداعيته بِقَلْبِ سَلِيمٍ، عما سوى الله، خاليا عن حب غير الله والاتجاه إلى من سوى الله، تاماً في محبة الله، طاماً من يم معرفة الله! الذي يلقي الله وليس فيه أحد سواه^١، خاليا عن كل شك وشرك جلي أو خفي بالله، بريئاً عن كل تعلق بغير الله، في قمة عالية من توحيد الله والفناء في الله والبقاء بالله.

و إنه تعبير بسيط - لا تعقيد فيه - عن كافة معاني الإخلاص في الجوارح والجوانح، حيث القلب إمامها كلها^٢ فإذا سلم سلمت كلها على قدر سلامته، وهو يُوَيُّ على إجماله وجماله أوسع مما توَّيه تعبيرات هذه الصفات المتعاليات.

و إن مجيئه ربه بقلبه هو مجيئه بكل كونه وكيانه حيث القلب يقَلِّبُ كله، فقد جاء ربه متجلياً بكافة التريبات الربوبية بكل وجوده.

إبراهيم جاء ربه بقلب سليم ودعا العالمين إلى قلب سليم، وَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا

محمد قال حدثني أبي عن الحسن بن أبي حمزة عن أبي بصير يحيى بن أبي القاسم قال سأل جابر بن يزيد الجعفي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن تفسير هذه الآية «وَ إِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ» فقال ان الله سبحانه لما خلق إبراهيم عليه السلام كشف له عن بصره فنظر فرأى نورا الى جنب العرش فقال: إلهي ما هذا النور؟ فقيل هذا نور محمد صلى الله عليه وآله صفوتي من خلقي ورأى نورا الى جنبه فقال إلهي وما هذا النور؟ فقيل له: هذا نور علي بن أبي طالب ناصر ديني ورأى الى جنبهما ثلاثة أنوار فقال إلهي وما هذه الأنوار فقيل هذه نور فاطمة فطمت محبيها من النار ونور ولديها الحسن والحسين فقال إلهي وأرى تسعة أنوار قد صفوا بهم قيل يا إبراهيم هؤلاء الأئمة من ولد علي وفاطمة فقال إبراهيم إلهي بحق هؤلاء الخمسة الا ما عرفتني من التسعة فقيل يا إبراهيم أولهم علي بن الحسين وابنه محمد وابنه جعفر وابنه موسى وابنه علي وابنه محمد وابنه علي وابنه الحسن والحجة القائم ابنه فقال إبراهيم إلهي وسيدي أرى أنواراً قد أحرقوا بهم لا يحصي عددهم الا أنت؟ قيل يا إبراهيم هؤلاء شيعتهم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال إبراهيم وبما تعرف شيعته فقال:

بصلاة احدى وخمسين والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم والقنوت قبل الركوع والتختم في اليمين فعند ذلك قال إبراهيم اللهم اجعلني من شيعة أمير المؤمنين قال فأخبر الله في كتابه فقال: «وَ إِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ».

وفيه عن تفسير الإمام ابو محمد العسكري عليه السلام قال رجل لعلي بن الحسين يا ابن رسول الله انا من شيعتكم الخاص فقال له يا عبد الله فإذا أنت كبير ابراهيم الخليل عليه السلام إذ قال الله تعالى «وَ إِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ» إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبِ سَلِيمٍ» فان كان قلبك كقلبه فأنت من شيعتنا وان لم يكن قلبك كقلبه وهو طاهر من الغش والغل والا فانك ان عرفت ان بقولك كاذب فيه انك مبتلى بفالج لا يفارقك الى الموت او جذام ليكون كفارة لكذبك هذا، أقول وفيه روايات اخرى مفصلة في شروط الشيعة فراجع.

^١ . القمي في تفسيره قال قال: ...

^٢ . في الكافي بإسناده عن الامام الصادق عليه السلام: القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء.

يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، (٢٦: ٨٩) ومن مظاهر ذلك المجيء صراعه في حوار صارم وعملية صارمة في أوسع ميادين الشرك وأخطرها: إِذْ قَالَ لِلَّيْبِيِّ وَ قَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أِيفِكَا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧).

جولة خاطفة سريعة من حوارهِ، وإلى تجواله وسيعه عملية بين الأصنام، ما حمل عبادتها يتربصون به كل دوائر السوء.

في حين يراهم عاكفين على أصنام لهم يتساءلهم في هتاف وانعكاف إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها، مستنكرا تحجبهم عنها، ما ذا تَعْبُدُونَ، دون من ذا، ملمحا أنها لا تشعر! فما هي - إذا - حال عابديها؟

ثم وقبل أن يذكرها كما يلفظون، آلهة، يهدم صرح ألوهيتها في تخيلهم الهابط الخابط: أِيفِكَا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ، فكل آلهة دون الله إفاك مفترى، وكذب مختلق، لا تملك أية برهنة في عساكر البراهين! وفي بديلة، آلهة، عن إفاك - دون عكس - إشارة إلى أنها ليست إلا إفاك، فكل كيانه إفاك ليس إلا! وإذ تعبدون ما تنتحون، فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، كيف - إذا - تعبدونه وأنتم عابدوا خلقه، وكيف تلاقونه وأنتم به مشركون، وهو أقيح ظلم وأشنعه؟! و في جمع الخطاب، لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ، قطع للميزات والمفاصلات في المدعويين إلى الله لكل داعية قاطعة.

و أبوه هو عمه أو جده لأمه دون والده إذ فقدته في طفولته فقام عمه مقامه في كافة شئون الأبوة، فرغم أنه عاش جو الشرك داخل بيته وخارج بيته، يصبح أصرم محارب وأصرحه ضد هذا البيت والبيئة.

و إنه في حملته الصارمة العامة الشاملة بحاجة إلى خلق جو يسمح له بعد حجاج الكلام تحقيق حجاج العمل الجبار في كسر الأصنام، فما ذا يصنع - إذا - إلا أن يتأخر عن خروجهم لعيد لهم في اعتذار، بمكر صادق جبار، يجعله مع الأصنام دونما حاجز لكسرهم ولا صدام: فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩).

أترى كان به سقم؟ وما هي رباطه بنظرة النجوم؟ ...

و الله ما كان سقيما وما كذب^١

إنما عنى سقيما فى دينه مرتادا^٢

وهذه تقيّة التّوريّة أن تلفظ بأمر وتعنى خلاف الظاهر منه، فالكذب محرم على أية حال، وفى اضطرار التّقيّة^٣ لا تحل إلّا التّوريّة كما فعلها إبراهيم فى قوله: «إِنِّى سَقِيمٌ» والرواية القائلة أنه عليه السلام كذب^٤ مضروبة عرض الحائط، فإذا دار الأمر بين كذب إبراهيم و كذب الرواية عنه فكذبها أخرى من كذبه عليه السلام.

إنهم هموا بالذهاب خارج البلد إلى عيد لهم جامع، فطلبوا إليه مرافقتهم فأبى معتذرا: «إِنِّى سَقِيمٌ» وقد كان يهددهم بكسر أصنامهم:

«و تَاللّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَكُّوا مُدْبِرِينَ» (٥٧: ٢١) فهل تناسوا تهديده فى قبول عذره، أم استهانوا به أنه قوله جوفاء لا يتجرأ على تحقيقها؟ على أية حال قبلوا عذره، وهو عاقد عزمه على أن يهدم صرح آلهتهم ويقوّض عروش معبوداتهم بهذه الصراحة والجرأة المسبقة والاعتذار الملحقة، رأى ان حجته القولية وإن وضحت وضح الشمس فى رابعة النهار، ولكنها لا تثبت فى أراضى قلوبهم الجزز نباتا فأراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم، وحواسهم مع أفئدتهم فى تفهّم عقيدته عليهم يثوبون إلى رشدهم ويتوبون عن غيرهم.

^١ نور الثقلين ٤: ٤٠٦ ح ٤٦ فى روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال ابو جعفر عليه السلام عاب آلهتهم «فَتَنْظُرَ نَظْرَةً فِي التُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ» قال ابو جعفر: و الله ...

^٢ المصدر ح ٤٢ فى كتاب معاني الاخبار باسناده الى صالح بن سعيد عن رجل من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: قوله تعالى: انى سقيم فقال: ما كان ابراهيم سقيما و ما كذب انما عنى ...

^٣ المصدر ح ٤٥ عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال: النّقيه من دين الله قلت: من دين الله؟ قال: اي و الله من دين الله، و لقد قال يوسف أيتها العير انكم لسارقون و الله ما كانوا سرقوا شيئا و لقد قال ابراهيم انى سقيم و الله ما كان سقيما أقول هم سرقوا يوسف و هو غير ظاهر العبارة، و ابراهيم كان سقيما فى روحه عنهم و هو غير ظاهر العبارة، وفيه عن روضة الكافي عن أبي بصير قال قيل لأبي جعفر عليه السلام و انا عنده ان سالم بن أبي حفصة و أصحابه يروون عنك انك تكلم على سبعين وجها لك منها المخرج؟ فقال: ما يريد سالم منى؟ أ يريد أن أجيبى بالملائكة و الله ما جائت بهذا النبيون و لقد قال ابراهيم عليه السلام انى سقيم و ما كان سقيما و ما كذب.

^٤ فى التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢٦ ص ١٤٨ قال بعضهم ذلك القول عن ابراهيم عليه السلام كذبة و روى فيه حديثا عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال «ما كذب ابراهيم الا ثلاث كذبات» قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي ان يقبل لان نسبة الكذب الى ابراهيم لا تجوز فقل ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوي و بين نسبته الى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة ان نسبته الى الراوي أولى.

لذلك وهو يهدف الهدف العظيم يضطر إلى ادعاء العلة عن مصاحبته، ويتظاهر بالسقم وما كان سقيما في بدنه، وإنما كان سقيم النفس، كاسف البال، يتقطع فؤده حزنا على ضلال قومه المبين، ويتميز غيظا أنهم لم يلبوا نداءه ويصغوا إلى دعوته، أم وإضافة إلى سقمه هذا الحال ينظر إلى سقم استقبالي: إني سوف أموت^١ ولم أحقق بغيتي في تحقيق دعوتي، والموت في تحسر سقم على سقم! أم إني سوف أسقم، وهذه طبيعة الحال لكل إنسان أن يعرضه سقم ما في كل مستقبل ... أسقام كلها صادقة في حال واستقبال، في جسم أو حال، اللهم إنا سقم الجسم في الحال إذ لا رباط له بالنظر في النجوم.

و أما نظرته في النجوم، فليست إلى نجوم السماء روضة ظاهرة، وإنما نظر ... في وعلمها تضاهي حجاجه الاول، هذا ربّي، مسaire ظاهرة ومماشاء، وفقا لما كانوا يزعمونه من دلالات النجوم على ما ستحدث من أحداث مستقبلية، إذ كانوا يحسبونها من أرباب الأنواع، وهذه الأوثان تمثلها بمتناول أيدي عابديها، ولكي يقضى على هذه المزاعم الفاسدة بعد إذ جعل الأصنام جذاذا، وعلم النجوم تعليمه وتعلمه والبناء عليه محظور^٢ إلا فيما لا يعارض قضاء

^١ نور الثقلين ٤: ٤٠٦ ح ٤٣ في كتاب معاني الاخبار و قد روى انه عنى بقوله «إني سقيم» إني سأسقم و كل ميت سقيم و قد قال الله عز و جل لنبيه صلى الله عليه وآله: انك ميت اي ستموت.

^٢ نور الثقلين ٤: ٤٠٧ ح ٥٠ في كتاب جعفر بن محمد الدورستاني باسناده الى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال: إذا ذكر القدر فأمسكوا و إذا ذكر أصحابي فأمسكوا و إذا ذكر النجوم فأمسكوا، وفيه ٥١ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه قال له السائل: فما تقول في علم النجوم؟ قال: هو علم قلت مناقعه و كثرت مضاره لأنه لا يدفع به المقذور و لا يبقى به المحذور ان خير المنجم بالبلاء لم ينجم التحرز في القضاء و ان خير هو بخير لم يستطع تعجيله و ان حدث به سوء لم يمكنه صرفه و المنجم يضاد الله في علمه بزعمه أنه يرد قضاء الله عن خلقه، وفيه ٥٢ عن سعيد بن جبير قال: استقبل امير المؤمنين عليه السلام دهقان من دهاقين الفرس فقال له بعد التهنة يا امير المؤمنين عليه السلام تناحست النجوم الطالع و تناحست السعود بالنحوس و إذا كان مثل هذا اليوم وجب على الحكيم الاختفاء و يومك هذا يوم صعب قد انقلب فيه كوكبان و انقذ من برجك النيران و ليس الحرب لك بمكان قال امير المؤمنين عليه السلام و يحك يا دهقان المنى بالآثار المحذر من الأقدار ما قصة صاحب الميزان و قصة صاحب السرطان و كم المطالع من الأسد و الساعات في المحركات و كم بين السراري و الزراري؟ قال: سأنظر و أومى بيده الى كفه و أخرج منه أسطرلابا ينظر فيه فتبسم صلوات الله عليه و قال أ تدري ما حدث البارحة؟ وقع بيت بالصين و انفرج برج ماجين و سقط سور سر نديب و انهزم بطريق الروم بآرمينية و فقد ديان اليهود بابل و هاج النمل بوادي النمل و هلك ملك افرقية أ كنت عالما بهذا؟ قال: لا يا امير المؤمنين عليه السلام فقال: البارحة سعد سبعون الف عالم و ولد في كل عالم سبعون الف عالم و الليلة يموت مثلهم و هذا منهم و أومى بيده الى سعد بن مسعدة الحارثي لعنه الله و كان جاسوسا للخوارج في عسكر امير المؤمنين فظن الملعون انه يقول خذوه فأخذ بنفسه فمات فخر الدهقان ساجدا فقال امير المؤمنين عليه السلام ألم أروك من عين التوفيق قال بلى يا امير المؤمنين فقال انا و صاحبي لا شريقيون و لا غربيون و نحن ناشئة القطب و أعلام الفلك اما قولك انقذ من برجك النيران فكان الواجب ان تحكم به لي لا علي اما نوره و ضياءه فعندي و اما حريقه و لهبه فلهذا فذهب عني و هذه مسئلة عميقة احسبها ان كنت حاسبا.

وفيه ٤٩ في من لا يحضره الفقيه و روى عن عبد الملك بن أعين قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام اني قد ابتليت بهذا العلم فأريد الحاجة فإذا نظرت الى الطالع و رأيت طالع الشر جلست و لم اذهب فيها و إذا رأيت طالع الخير ذهبت في الحاجة فقال لي: تقضى؟ قلت نعم قال: احرق كتبك وفيه عن الاحتجاج ٥٣ روى انه عليه السلام لما أراد المسير الى الخوارج قال له بعض أصحابه ان سرت في هذا الوقت خشيت ان لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم فقال عليه السلام أ تزعم انك تهدي الى الساعة التي من سار فيها

وقدرا من محاسبات الخسوفات والكسوفات والزلازل فى احتمال دون قطع! نظر فى النجوم، ظاهرا، واستطلع منها متظاهرا انه سيسقم حين الخروج ام بعده، ام 'نظر فى النجوم، نظرة الإعتبار بأفولها وحراكها فحدوثها وعدم ألوهتها وربوبيتها، فسقم روحه وتأثر من ضلال عابديها، يضمير فى ضميره أن نظرة واحدة فى النجوم التى يحسبونها أرباب الأنواع تنبه الإنسان أنها مربوبة لرب السماوات والأرض، فيسقم روح الإنسان بأحاسيسه المفكرة العاقلة أن كيف يعبدها ذلك الجم الغفير من الناس.

و من شفاء ذلك السقم الحالى أن يكيد أصنامهم بعد أن يولوا مدبرين، وما كيده إلّا قوله 'إِنِّي سَقِيمٌ' حتى يتركوه، وأن 'جعلهم جذاذا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ'. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠).

'فَتَوَلَّوْا عَنْهُ' يعذرونه فى ترك مصاحبته، غير معتنين بشأنه، صاحبهم أم تركهم 'مدبرين' عنه استهانة به، وإلى عيدهم اعتناء بشأنه، ناسين أو متناسين أنه تهددهم بكيد أصنامهم، وما هو يكيدهم فى 'إِنِّي سَقِيمٌ' ويكيدهم 'ضَرْبًا بِالْيَمِينِ! فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣).

و الرّوغ هو الميل على سبيل الاحتيال والتخفى: 'فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ' (٥١: ٢٦) وقد كان لإبراهيم فى بيت الأصنام روغان، روغ 'إلى'، ذهابا إليها متخفيا، علّ هناك عيوننا تنظر 'فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ' من طعام قدمه هو أم كان حاضرا كما كانت سنتهم فى تقديم الأطعمة لآلهتهم، ولا بد لآلهة مجسمة وهى تماثيل ذوى الأرواح - لأقل تقدير حياة للأكل، إبقاء لها وبعدا عن موتها، فلما لم تحر جوابا قال 'ما لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ؟' آلهة أموات خرس لا يأكلون ولا ينطقون؟ فكيف هى إذا آلهة وهى أدنى كمالا من المألوهين؟ و هو حجاج على الآلهة بعد الحجاج على المألوهين، وله فيهما الحجّة البالغة ولا يملك إلّا قضاء واقعا على الآلهة لكى يظل المألوهون دون آلهة عليهم ينتبهون.

صرف عنه السوء و تخوف الساعة التي من سار فيها حاق به الضر فمن صدقك بهذا فقد كذب القرآن و استغنى عن الاستعانة بالله فى نيل المحبوب و دفع المكروه و ينبغى في قولك للعامل بأمرك ان يوليك الحمد دون ربه لأنك بزعمك أنت هديته الى الساعة التي نل فيها النفع و امن الضر ايها الناس إياكم و تعلم النجوم الا ما يهتدى به في بر او بحر فانها تدعو الى الكهانة المنجم كالكاهن و الكاهن كالساحر و الساحر كالكافر و الكافر في النار سيروا على اسم الله و عونته.

و من ثم روع، على، ذهاباً للقضاء عليها روعاً ثانياً عليها، ضَرْباً بِالْيَمِينِ! يرى جواً خالياً عن رصد العيون، فيدلف إلى أصنامهم فيجد باحةً قد اكتظت بالتماثيل وانتشرت في أرجائها الأصنام، فيخاطبها محترفاً لشأنها، شائناً لعبدتها، أ لا تَأْكُلُونَ. ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ، و أنى للجماذ أن يأكل أو ينطق، فأخذ يلطمها بيده، ويركلها برجله، وتناول فأساً وهوى عليها يكسرها جذر مذر ويحطمها، فَجَعَلَهُمْ جُذَاداً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، (٢١: ٨٥) فيسألوه عمن انتهك حرمة الآلهة ليرجعوا إلى أنفسهم ما هو، يَأْكُلُونَ ولا ينطقون فكيف يعبدون؟! ولقد كان حقاً ضَرْباً بِالْيَمِينِ، يمين القدرة ويمين الصدق ويمين الدين وباليمين الذي سلف منه: تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، ويا لها من معركة صاخبة صارخة أعماق أسماع التاريخ، مقتل الآلهة التي كانوا يعبدون، وقد شفى من نفسه سقما كان يشكوه: فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ (٩٤). وكيف أقبلوا إليه دون بيوتهم وأشغالهم ولا يعلمون ماذا فعل بالهتهم؟

عَلَّهُمْ تَسَامَعُوا بِالْخَبْرِ، أم خَمَّنُوا تحقيقا لتهدد إبراهيم، فلذلك أقبلوا إليه يزفون: يسرعون حاملين أصحابهم على الزفيف لمعرفة الحال بكل عجال، وهم جمع كثير هائج، وجم غفير مائج، وهو فرد واحد لا يخاف إلا ربه، فهو أقوى من هذه الكثرة وهم إليه يزفون: قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا أ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ. ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤْسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ لِأَنْ يَنْطِقُونَ. قَالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لَا يَضُرُّكُمْ أَفْ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ... (٢١: ٦٧):

قَالَ أَ تَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ (٩٦).

كيف تعبدون ما تنحتونها أنتم، عبادة الصانع للمصنوع والخالق للمخلوق؟ فإن حقت في هذا البين عبادة فلتعبدكم ما تنحتون! ثم لا عبادة في هذا البين، وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ الناحتون، وَ مَا تَعْمَلُونَ، آلهتكم التي تنحتون، فان الله صانع كل صانع وصنعتة!

^١ الدر المنثور ٥: ٢٧٩- اخرج البخاري في خلق افعال العباد و الحاكم و البيهقي في الأسماء و الصفات عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله ان الله ... و تلا عند ذلك «وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ».

تلك - إذا - عبادة تمجها الفطرة ويرفضها العقل وكافة الموازين العقلية وسواها! ويا لها من حجة بالغة دامغة قد صفعهم بها صفعة نبهتهم عن غفلتهم، وأيقظتهم عن غفوتهم، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون في أنفسهم قائلين «إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ» ليس «ما تعملون» هو نفس العمل أيا كان فإنه مخير لا مسير، وإنما هو حاصل العمل «ما تنتحون» وكل صنعة، فإن مادته مخلوقة، وأنتم بقدراتكم وأفعالكم مخلوقون، مهما بان خلق عن خلق تخييرا وتسييرا، ف- لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، ولو كان «ما تعملون» نفس العمل لكان جبرا فعذرا لعمل الأصنام وعبادتها، لا حجة عليهم في تنديدا! ثم خلق الأعمال تسييرا من الله لا رباط له إبطالا ل- «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ» وإنما هو التخيير، فهم باختيارهم ينتحون ويعبدون ما ينتحون!

هنالك دحضت مزاعمهم، وزيفت آمالهم، فلم يجدوا بدا وجاه حجته إلّا أن يحرقوه كما أحرق أكبادهم:

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨).
 قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ. وَ
 أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ،
 (٢١: ٧١).

فيا لبنانهم الجحيم وجحيم البنيان من أجاج النار، تتمثل فيه حرقه أكبادهم، فقد كان لأحدهم أن يحرقه بقليل النار، ولكنهم أجمعوا ليتشاركوا في حرقه كما أحرق أكبادهم جميعا، ولكنهم خاب سعيهم حيث جعلوا الأسفلين الأخسرين، وتلمع إبراهيم الخليل أكثر مما كان حجة عملية على حججه، كما عارضوه عمليا رغم حججه! وأين يذهب كيد العباد المهازيل أمام صيانة الله للخليل إلّا إلى أنفسهم في كل ترذيل بكل سفالة وخسار جهنم يصلونها وبس القرار! لقد كانوا بشركهم سافلين وخاسرين، فأصبحوا بدائرة السوء على إبراهيم أسفلين وأخسرين.

إذ دحضت حججهم عملية بعد دحضها قولية، خسارا إلى خسار وسفالا إلى سفال! ليس لحماقي الطغيان أمام دعاة الحق إلّا منطق السيف والنار، عند ما تعوزهم كل حجة وتخرجهم

كلمة الحق:

«ابنوا له بُنياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ! ولم تجر سنة الله على خرق العادات إلّا أحياناً تقتضيها الحكمة العالية كما في جحيم إبراهيم، وهذه حلقة أولى من قصص إبراهيم ومن ثم الثانية:»^١
وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهْدِينِ (٩٩).

أو لم يكن لحد الآن ذاهبا إلى ربه وقد جاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ؟ إن لذهابه هذا طرفا أول يتكفل السلب: لا إله، وكما جعلهم جذاذا، وطرف ثان هو الإثبات، إلا الله، وقد فرغ من لا إله، تقدمه الذهاب إلى ربه، ثم وأصل سيره إلى الإثبات، إلا الله، وقد تعنيه «إني ذاهب إلى ربّي ...» يقوله أمام جماهير المشركين الأسفلين بحجته الحاضرة الحاذرة الخارقة «يا ناراً كوني برداً و سلاماً على إبراهيم» ف- ذهابه إلى ربه بوجهه إليه عبادة واجتهادا وقربة إلى الله عز وجل،^٢ إنها هجرة في المكانة قبل المكان، يترك فيها أباه وقومه وأهله ووطنه وكل أوامر القرابة، هجرة كاملة من حال إلى حال، ومن كافة الأواصر التي قد تربطه بنفسها، تعبيرا عن كامل التجرد والإخلاص والاستسلام لربه.

أو لم يكن مهديا لحد الآن حتى «سيهدين»؟ للهدى مراتب فوق بعض، وكما تطلب دأبا: «اهدنا الصراط المستقيم» أم ولأنه تكلمه لحجابه أن الله هداه إلى أن «لا إله، ثم يهديه إلى إلا الله، وثالثه هدى الدعوة في فسحتها، وبأعوانها كإسماعيل وإسحاق قرى عينيه، وهي تتمثل في بلائه بإسماعيل كأعلى قمة: وقد يعطف قوله «إني ذاهب»... بما وعد آزر وموازيه

^١ ١. نور الثقلين ٤: ٤١٤ ح ٦١ في روضة الكافي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خالف إبراهيم قومه و عاب آلهتهم حتى ادخل على نمروذ فخاصمهم ...

وقال ابو جعفر عليه السلام عاب آلهتهم «فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ» و الله ما كان سقيما و ما كذب فلما تولوا عنه مدبرين الى عيد لهم دخل ابراهيم عليه السلام الى آلهتهم بقدم فكسرها إلا كبيرا لهم و وضع القدم في عنقه فرجعوا إلى آلهتهم فنظروا الى ما صنع بها فقالوا لا و الله ما اجترى عليها و لا كسرها الا الفتى الذي كان يعيبها و يبرأ منها فلم يجدوا له قتلة أعظم من النار فجمع له الحطب و استجاده حتى إذا كان اليوم الذي يحرق فيه برز له نمروذ و جنوده و قد بنى له بناء لينظر اليه كيف تأخذ النار و وضع ابراهيم عليه السلام في منجنيق و قالت الأرض يا رب ليس على ظهري احد يعيدك غيره و يحرق بالنار قال الرب ان دعائي كفيته، فذكر ابان عن محمد بن مروان عن ابي جعفر عليه السلام ان دعاء ابراهيم يومئذ كان: يا احد يا احد يا صمد يا صمد يا من لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا احد ثم قال توكلت على الله فقال الرب تبارك و تعالی كفيته فقال للنار «كوني برداً و سلاماً» قال فاضطربت أسنان ابراهيم من البرد حتى قال الله عز و جل «و سلاماً على إبراهيم» و انحط جبرائيل عليه السلام فإذا هو يجالس مع ابراهيم يحدثه في النار قال نمروذ: من اتخذ إليها فليأخذ مثل آله ابراهيم قال فقال عظيم من عظمائهم اني عزمت على النار ان لا تحرقه فأخذ عنق من النار سخره حتى أحرقه قال، فأمن له لوط فخرج مهاجرا الى الشام هو و سارة و لوط.

^٢ المصدر ٤١٩ ح ٦٤ في كتاب التوحيد عن امير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه ...

فى الشرك: «وَاعْتَرَلِكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَادْعُوا رَبّى عسى اّلا اكون بدعاء ربّى شقيًا، (١٩: ٤٨) فهنا يدعو ربه:

رَبِّ هَبْ لى مِنَ الصّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١).

هنا إبراهيم الوحيد وقد ذرف الثمانين بلا عقب يخلفه يستوهب ولدا من الصالحين، فيبشر بيكر ولده إسماعيل غلام حلِيم، ومن ثم يثنى بإسحاق نبيا من الصالحين، وقد يجاوب هذا الترتيب نص التوراة كما فى التكوين ١٦: ١٥-١٦: «فولدت هاجر لإبراهيم ابنا. ودعا إبراهيم اسم ابنه الذى ولدته هاجر إسماعيل»، وفيه ١٧: ١٥-١٦ (و قال الله لإبراهيم ساراي امراتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة، وأباركها وأعطيك ايضا منها ابنا

هنا يوصف إسماعيل بكر إبراهيم «بغلام حلِيم، وفى غيرها «صَادِقَ الْوَعْدِ، وهو فيهما منقطع النظير فى سائر القرآن: «وَادْكُرْ فى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًا، (١٩: ٥٤) وقد يثنى بحلمه أبوه إبراهيم: «إِنَّ إِبراهيمَ لَأَوّاهٌ حَلِيمٌ، (٩: ١١٤) (إِنَّ إِبراهيمَ لَحَلِيمٌ أَوّاهٌ مُّبِينٌ، (١١: ٧٥).

و ليس اختصاص حلِيم، بهما فى سائر القرآن إّلا لما برز من حلمهما القمّة فى ذبح إسماعيل مهما بطن لسائر النبيين، إذ لم يوقف أحد موقفه البلاء المبين:

فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعىَ قالَ يا بُنّى إِنَّى أرى فى الْمَمامِ اّنى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ ما ذا ترى قالَ يا اّبْتِ اّفْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنى إِِنْ شاءَ اللّهُ مِنَ الصّابِرِينَ (١٠٢).

إسماعيل بكر ولده، رسول نبى صادق الوعد حلِيم، والوالد يذرف التسعين وقد لا يولد له غيره، أم إذا ولد قد يغيره، وقد بلغ معه السعى فى حاجيات الحياة معنوية ومادية بما سعى له فيهما ودرّبه، فهو فى لمعان الكمال ونوسان الاستكمال، يورّ بذبحه لا لشيء منهما يستحقانه حتى يوجّه ذبحه بوجه ظاهر إّذ هذا لهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ! والرواية القائلة أن الذبيح هو إسحاق إسرائيلية تخالف نص القرآن إذ يبشره بإسحاق بعد قصة إسماعيل!

^١ اختلاف الروايات من الفريقين فى «من هو الذبيح إسماعيل ام إسحاق» تقطعه الآيات حيث البشارة بإسحاق تاتي بعد قصة الذبيح بكاملها، وهذه من الهرطقات الاسرائيلية ان إسحاق هو الذبيح لينحوا فضلا عن إسماعيل الى إسحاق، كما روى ابن بابويه بإسناده عن داود بن كثير الرقي قال قلت لابي عبد الله عليه السلام أيهما أكبر إسماعيل او إسحاق و أيهما كان الذبيح؟ فقال عليه السلام: إسماعيل كان أكبر من إسحاق بخمس سنين و كان الذبيح إسماعيل و كان مكة منزل إسماعيل و إنما أراد إبراهيم ان يذبح إسماعيل ايام الموسم بمنى ... اما تسمع لقول إبراهيم حيث يقول: رب هب لي من الصالحين، انما سأل الله عز و جل ان يرزقه غلاما من

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ، تَنَادَى بِمَعِيَةِ السَّعْيِ حَتَّى بَلَغَ، وَبِمَعِيَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ كَمَا سَعَى فِي دَعْوَتِهِ، فَلَيْسَ - فَقَطْ - أَنَّهُ بَلَغَ السَّعْيَ لِحَاجَاتِهِ الشَّخْصِيَّةَ مَهْمَا كَانَتْ شَاخِصَةً ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ، بَلْ مَعَ إِبْرَاهِيمَ فِي «ذَاهِبٍ إِلَى رَبِّي»، وَهُوَ لَمَّا عَمِلَ مِثْلَ عَمَلِهِ،^١ وَمِنْ بَلُوغِهِ مَعَهُ السَّعْيَ أَنَّ سَعَى مَعَهُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ بَعْدَ مَا طَافَا الْبَيْتَ، فَلَمَّا صَارَا فِي السَّعْيِ قَالَ يَا بَنِي إِئْتِنِي فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ...

فَقَدْ بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ وَلَمَّا يَتِمُّ الرِّحْلَةُ إِلَى رَبِّهِ وَالدَّعْوَةُ الْمَتَنَاصِرَةُ إِلَى دِينِهِ، وَلَمَّا يُولَدُ لَهُ أُمَّةٌ مُسَلِّمَةٌ لَكَ، وَهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَعَتْرَتُهُ الْمَعْصُومُونَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَقَدْ اسْتَجِيبَ فِي هَذِهِ الدَّعَاءِ كَمَا يَتَوَافَقُ لَهُ النَّصَّانُ مِنَ التَّوْرَةِ وَمِنَ الْقُرْآنِ: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسَلِّمَةٌ لَكَ ... رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ» ... (٢: ١٢٩).

و نص الاستجابة حسب الأصل العبراني في التوراة كالتالي:

«و ليشمعي شمعيتيها هينه برختي أوتو وهيفرتي اوتو وهيربتي أوتو بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد ونتيو لغوى غادل، (تكوين المخلوقات ١٧: ٢٠) -: «و لإسماعيل سمعته (إبراهيم) ها أنا أباركه كثيرا، وأنمييه كثيرا، وأثمره كثيرا، وأرفع مقامه كثيرا بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَآلِهِ عَشْرَ إِمَامَا يَلْدَهُمُ (إِسْمَاعِيلَ) وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً».^٢

بعد هذه وتلك يُوْر الخليل بذبح إسماعيل وليس ذبحا واحدا، إلّا وحيدا يجمع في جنباته ذبائح عدة أعلاها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَعَتْرَتِهِ، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَا ابْنُ الذَّبِيحِينَ!

الصالحين و قال في سورة الصافات: فبشرناه بسلام حلیم یعنی إسماعیل من هاجر قال ففدى إسماعیل بكبش عظیم فقال ابو عبد الله عليه السلام وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَ عَلِيَّ إِسْحَاقَ يَعْنِي بِذَلِكَ إِسْمَاعِيلَ قَبْلَ الْبِشَارَةِ بِإِسْحَاقَ فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ إِسْحَاقَ أَكْبَرَ مِنْ إِسْمَاعِيلَ وَ أَنَّ الذَّبِيحَ إِسْحَاقَ فَقَدْ كَذَبَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ مِنْ نَبَاهِمَا تَفْسِيرَ الْبِرْهَانِ ٤ : ٣٠ ح ٥ .

^١ نور الثقلين ٤ : ٤١٩ ح ٦٧ في عيون الاخبار عن الحسن بن علي بن فضال عن أبيه قال سألت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن معنى قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: انا ابن الذبيحين؟ قال: يعني إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام و عبد الله بن عبد المطلب، اما إسماعيل فهو الغلام الحلیم الذي بشر الله تعالى به إبراهيم «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» وَهُوَ لَمَّا عَمِلَ مِثْلَ عَمَلِهِ ...

^٢ المصدر ٤٢١ ح ٧٥٦ المجمع و روى العياشي باسناده عن يزيد بن معاوية العجلي قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام كم كان بين بشارة إبراهيم بإسماعيل و بين بشارته بإسحاق ... الى ان قال عليه السلام فلما رفع قواعده خرج الى منى حاجا و قضى نسكه بمنى و رجع الى مكة فطاف بالبيت أسبوعا ثم انطلق فلما صار في السعي قال ...

^٣ راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ٤٠ - ٤٣ تجد تفصيل هذه البشارة.

إذا فتسليمهما لهكذا ذبح دونما سوّل علة ولا خطرة ببال، إنه القمة العليا من التسليم وإنّ هذا لهو البلاء المبين! لو أمر إبراهيم أن ينتحر كان عليه أسهل من نحر إسماعيل، فقد أمر بذبح من يفوقه في الكيان بحب الهيمان، وأنه جد الرسول محمد وعترته، وقد بلغ معه السعى ووصل إلى ذلك السعى بمساع الهجرة الهاجرة بواد غير ذى زرع: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَوَادِ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ...» (١٤: ٣٧) ف- «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ!» وبالروعة الإيمان والطاعة والتسليم! قال يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

إني أرى، تلمح لتكرار الروايات وتأكدها في المنام، وروايات الأنبياء وحى^١ دونما ريب، فلما ذا يتروى في تحقيقها بعد الروايات الأولى، ويستنظر ابنه فيها، والوحى منذ نزوله ماض لوقته المقرر، صارم للموحى إليه؟

إنه ما رأى في الروايات صيغة الأمر بالذبح حتى يمضى فيه دون ترو، وإنما أنسى أذبحك دون أمرت بذبحك، ورواة الفعل لا تدل على الأمر وإنما تلمح لوقوعه، وفي الثانية تقوى هذه اللمحة، وفي الثالثة توصل لحد الأمر^٢ فان أفعال الأنبياء خيرات تفعل بالوحى «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ» سواء أ كانت في المنام أو اليقظة، ولأن ما في المنام صورة عن الواقع في اليقظة، فليحقق إذا في اليقظة سماحا أو رجحانا أم فرضا، وما لمح لإبراهيم بفرض الذبح المترائي إلا في رواه الأخيرة فقال «يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ».

... وقد تعنى «أرى، رواه واحدة متأكدة دون تكرار، وفي تبديل الماضي «رأيت» بالمستقبل «أرى، لمحة إلى أنه عاش رواه ذاكرها لها دون نسيان، وأن مفاد رواه باق إلى الحال وحتى يتحقق عمليا، ففي الماضي مجال التحول نسخا في الحال! ولأن ذلك الأمر كان بلاء مبينا لهما، لا - فقط - لإبراهيم، فليعرض على الذبيح كما عرض على الذابح، ولكي يسلم كما أسلم الذابح، دونما مفاجئة عليه فيما رآه! فلا يأخذه على غفلة وغرّة تنفيذها لما رأى، بل

^١ الدر المنثور ٥: ٢٨١ اخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قل قال رسول الله صلى الله عليه واله: ...

^٢ الفخر الرازي في تفسيره الكبير ٢٦: ١٥٣ و روى من طريق آخر انه رأى ليلة التروية في منامه كأن قائلا يقول ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله هذا الحلم ام من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما امسى رأى مثل ذلك فعرف انه من الله فسمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر و هذا هو قول اهل التفسير ... أقول من المحتمل صدقه إلا في شكه ام من الشيطان، و كما ذكرناه في المتن.

تحضيراً له لكي يرى ما رأى ولينال هو الآخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم، فإنه يحب لابنه ما يحبه لنفسه! وإنَّ هذا لهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ! ففى رُوَاهُ تلك بلاء، وفى عرضها على ابنه بلاء ثان، وفى تحقيقها بعد عرض ثلثة البلاء، فهى تفوق كل بلاء ابتلى بها إبراهيم طول حياته، ولأنها التالية لبلاء أبيه آزر وقومه، وبلاء النار وسائر البلاء، وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... (٢: ١٢٤) وتلك هى الكلمات العينية الدالات على قمة التسليم لرب العالمين! دون اللفظية التى يلفظها كل إنسان أيا كان وأياناً! إِنِّي أَرَى ... فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَى.

إِنِّي أَرَى، رُوَاهُ أَنَا أَرَاهَا صَادِقَةٌ وَأَرَى تَحْقِيقَهَا دُونَ تَرَوُّ وَمَهْلَةٌ، زَوَايَا ثَلَاثٍ مِنَ الرُّوَاهِ فَانظُرْ، نَظَرَ الْعَقْلِ وَالْبَصِيرَةِ، مَاذَا تَرَى، فِيمَا أَرَى بِكُلِّ تَرَوُّ وَمَهْلَةٌ! مَشَاوِرَةٌ مَا أَوْرَعَهَا وَأَرْوَعَهَا لِتَحْقِيقِ أَمْرٍ هُوَ بَظَاهِرِهِ إِمْرٌ، لَكِنَّهُ لَا مَرْدَ عَنْهُ وَلَا مَحِيدَ وَتَجْرَى سُنَّةَ الْمَشَاوِرَةِ حَتَّى فِيمَا لَا مَحِيصَ عَنْهُ لَغَرَضِ التَّمْحِصِصِ، وَكَمَا يُوَرِّى الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

«وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ، إِبْلَاغًا مَبْلَغَكَ فِي الْأَمْرِ، لَا تَبْلُغَا بِهِمْ إِلَى أَمْرٍ ثَابِتٍ بِالْوَحْيِ، حَيْثُ الْمَشَاوِرَةُ تَعْمُ التَّنَاصُرَ عِلْمِيًا وَعَمَلِيًا فِي أَمْرٍ، كَالْمَعْتَادِ مِنْهَا، أَمْ لِيَسْتَفِيدَ الْمَشِيرَ فِيمَا يَسْتَشِيرُ فَكَذَلِكَ الْأَمْرُ، أَمْ لِيَفِيدَ الْمَشِيرَ مَسْتَشِيرِهِ أَمِنْ ذَا تَمْحِصِصًا لَهُ وَتَدْرِييَا يَبْلُغُهُ مَبْلَغُهُ، وَهَكَذَا كَانَتْ مَشَاوِرَةُ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ! قَالَ يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ.»

كَأَنَّهَا كَانَتْ نَظْرَةً حَاضِرَةً دُونَهَا حَاجَةٌ إِلَى تَأَمُّلٍ وَفِكْرَةٍ، حَيْثُ بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ فَارْتَقَى فِي سَعْيِهِ إِلَى الْقِمَّةِ الَّتِي ارْتَقَى إِلَيْهَا إِبْرَاهِيمُ مِنْ قَبْلِ، فَتَجَاوَبَا فِي ذَلِكَ الْبَلَاءِ الْمُبِينِ ... أُنَّى أَدْبَحُكَ ... أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، وَهَذَا مَا تُؤْمَرُ، عِبَارَةٌ أُخْرَى تَفْسِيرًا لـ «إِنِّي أَرَى ...» فَقَدْ كَانَ أَمْرًا عَمَلِيًا دُونَهَا لَفْظَةً، وَوَحْيًا إِلَيْهِ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ يَرَاهُ الذَّبِيحُ فَكَيْفَ لَا يَرَاهُ الذَّبِيحُ؟! وَلَكِنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى صَبْرٍ خَارِقٍ وَتَسْلِيمٍ فَائِقٍ لَيْسَ فِي طَوْقِ الْإِنْسَانِ أَيَّا كَانَ، وَلَكِنَّكَ «سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ» مَشِيئةً التَّوْفِيقِ بَعْدَ مَشِيئةً التَّشْرِيعِ «مِنَ الصَّابِرِينَ» أَمَامَ أَمْرِكَ! وَفِي تَحْوِيلِ صَابِرًا، عَنْ خَاصَّةِ نَفْسِهِ إِلَى «الصَّابِرِينَ» حَيْثُ تَشْمَلُهُ وَسِوَاهُ، تَحْوِيلٌ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ بِالتَّفْرَدِ، إِلَى جَمْعِيَّةِ الرَّحْمَةِ، وَتَلْمِيحٌ أَدِيبٌ تَوْصِيَةٌ إِلَى أَبِيهِ بِالتَّصْبِرِ كَمَا هُوَ يَصْبِرُ وَأَيْنَ صَبْرٍ مِنْ صَبْرٍ! هُنَا

لا تأخذه بطولته ولا شجاعته واعتماد على همة ولا يرى لنفسه حولا ولا قوة إلا بالله، ويا للأدب الرائع ونبيل الإيمان وجزالة التسليم، وإلى المذبح بكل طوع وتعظيم:
 فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَ نَادَيْتَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقَتِ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥).

أو لم يسلمنا لحد الآن؟ ومن قبل كانا مسلمين بكل مراتبه! أجل ولكنه حاضر التسليم عمليا، بعد تحضيره نظريا، وأين القول من النظر؟ وأين النظر من العمل؟ تقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء الجهاد فحيدى حيادا! «فَلَمَّا أَسْلَمَا، ثم ماذا؟» و«تله صرعه للجبين، ثم ماذا؟ لا نجد بين إسلامهما وتلّه هنا حديثا، وهو مطوى يعرفه بطبيعة الحال كل عارف بالموقف والحال، ولا نجد ل- «فلما...» جوابا، وقد طوى عنه لأنه مدهش دون حدّ، وموحش لأى أحد. وها هنا كل إخلاص وإسلام، هنا كل إسلام وتلّ، واستسلام على التلّ، إسلام التلّ وتلّ الإسلام فى أرفع قمة من القلل، إسلام لا يفوقه إسلام. إنه ليس هو الشجاعة والجرأة ولا اندفاعه وحماسة فى الميدان، يقتل فيه المجاهد أو يقتل، ولكنه لا يقتل نفسه، بل أنفوس من نفسه: إسماعيله، وميدان التلّ فى منى إبراهيم عند جمره العقبة^١ لا مثيل له فى أى ميدان. علّه قال لأبيه بين إسلامه وتلّه: «لا تذبحنى وأنت ناظر إلى وجهى فترحمنى فلا تجهز على، يا أبت أشدد رباطى حتى لا أضطرب فتضرب عنى، واكفف عنى ثيابك كيلا يتضح عليها شىء من دمي فتراه أُمى فتحزن، أسرع مر السكين على حلقى بقوة...» فهذه وتلك أحاديث تروى وليس هنا إلا «فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ».

إنه ما تلّه على القفا مهما كان أبعد عن الانعطاف، وإنما «للجبين»، كما يفعل بالذبائح كلها، فأفضل الأعمال أحمرها.

«أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ، ولمّا يحقق فعله، رغم ما كمل ما لديه فلم يبق إلا عمل المديّة الواردة على عنقه، إذا بخطاب النسخ لما أمر؟ فإنه يجوز حين العمل ولمّا يتم إذا كان أمر الابتلاء لا أمر العمل، فقد نسخ أمر الذبح ولمّا يعمل:

^١ الدر المنثور ٥: ٢٨٠- أخرج احمد عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ان جبرئيل ذهب بإبراهيم الى جمره العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات فساخ ثم أتى به الى الجمره القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع فساخ فلما أراد ...

وَ نَادَيْتَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤُوفُ يَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥).
و من تصديقه الرؤوفُ، أَنِّي أَذْبَحُكَ، نعرف أنه اشتغل بذبحه، ولكننا المديّة وقعت بين أمر
الخليل ونهى الجليل: «الخليل يأمرنى والجليل ينهانى، صورة ثانية عن خرق العادة، ف «يا نارُ
كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، امر من الجليل خلاف كل التّأمر على الخليل و لينجوا فى
معركة صاحبة بين الحق والباطل، وَ صَدَقْتَ الرَّؤُوفُ يَا، هنا نهى من الجليل تخليصا ثانيا للخليل
هو أنبل وأعلى من خلاصه الأوّل، وفى الخلاصين له إخلص، وأين خلاص من خلاص
وإخلص من إخلص؟.

ماذا يدريك أمورا حصلت بين «تَلَّةٌ لِلْجَبِينِ» - «وَ نَادَيْتَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، إنها فوق المواصفة
والإدراك ولذلك يطوى عنه إلى أمر الخلاص «إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، لم يكن القصد
من أمر الذبح قتل البرىء، وإنما ظهور مدى الإخلص وقد ظهر بأعلاه، حيث تم الابتلاء
وطمّ، ولم يعد يبقى إلّا الجسد الذبيح والدم المسفوح ولم يكن بنفسه مقصودا، وإنما
بالإخلص فى تحقيقه وقد حصل:

وَ نَادَيْتَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤُوفُ يَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

لقد جدت يا إبراهيم بكل ما تملكه وفوقه، وجدت بإسماعيلك وهو أعز من نفسك وكل
نفسك، بكل هدوء وطمأنينة، فلم يبق هناك إلّا اللحم والدم، وهما ينوب عنهما أى ذبح من
لحم ودم هو رمز للفداء، وغذاء للفقراء.

لقد كانت هنا مشيئتان، ظاهرة بالذبح كما أمر الله تشريعا فى ابتلاء، وباطنة ألّا يذبح تكويننا
جزاء البلاء للمحسنين، فقد «أمر ابراهيم بذبح ابنه إسماعيل وشاء أن لا يذبحه ولو لم يشاء
أن لا يذبحه لغلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله...!».

أ ترى هناك تورية فى أمر الله؟ والله لا يورى، ولا يقول أمره ونهيه إلّا صراحا! كَلَّا إِنْ اللَّهَ
لا يورى.

^١ نور الثقلين ٤: ٤٢٠ ح ٧٢ فى كتاب التوحيد بإسناده الى فتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام حديث طويل و فيه يقول
يا فتح ان لله إرادتين و مشيئتين، إرادة حتم و إرادة عزم، ينهى و هو يشاء ذلك و يأمر و هو لا يشاء، أو ما رأيت أنه نهى آدم و
زوجته عن ان يأكلا من الشجرة و هو يشاء ذلك و لو لم يشأ لم يأكلا، و لو اكلا لغلبت مشيئتهما مشيئة الله و امر ابراهيم ...

و إنما يمكر الماكرين عن قوة، وليس منهم إبراهيم، ولم يكن امره إلّا صورة الذبح، أنّى أذبحك، وقد حصلت تلك الصورة، فليس للمكلف إلا فعل ما يؤر كما يستطيع، وقد فعل إبراهيم كما يستطيع، فَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا، فلم تكن هناك أية تورية!.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) بلاء يبين مدى تسليم المبتلى، ويبين أن إبراهيم تحقق له الإمامة الكبرى، حيث أتم به كلمات حمل لتدليلها على معانيها، التي تتوحد في غاية التسليم لرب العالمين:

وَ قَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨).

الذبح كسرا مصدر وفتح هو المذبوح، أ ترى بعد أن ذبح عظيم، هو المذبوح كبشا نازلا من الجنة رعى أربعين خريفا فيها؟^١ وهو ذبح وليس ذبحا، ثم وليس عظيما وجاه المفدى له مهما كان عظيما لأنه عطية الرب من الجنة، فأين إسماعيل الذبيح وأين هذا الكبش أيا كان من كبش التاريخ؟ ثم وليس لزام ذبح عظيم، وحدته، خلاف ذبح عظيم، حيث تشى إلى وحدته!

...

و لأن ذلك الكبش لم يكن هو - فقط - العظيم يأمر النبي صلى الله عليه وآله أن يخمر قرناه المعلقين على الكعبة المشرفة!^٢.

أم انه ذبح الذبيح العطشان الإمام الحسين عليه آلاف التحية والسلام؟ وهو أعظم من إسماعيل فكيف يفدى به لمن هو أدنى منه! ثم الذابح للحسين ليس هو الله ولا كان بأمر الله، فكيف إذا قَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ!؟.

قد يعنى «بذبح عظيم» سنة الذبح يوم الأضحى، فرضا للحاج في منى، ونفلا لغيره في غيرها،

^١ الدر المنثور ٥: ٢٨٤- اخرج البخاري في تاريخه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: هبط الكبش الذي فدى ابن ابراهيم من هذه الخيبة على يسار الجمره الوسطى، وفيه اخرج البيهقي عن عطاء بن السائب قال كنت قاعدا بالمنحر مع رجل من قريش فحدثني القرشي قال حدثني أبي ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال له ان الكبش الذي نزل على ابراهيم في هذا المكان. وفي نور الثقلين ٤: ٤٢٩ ح ٩٣ المجمع عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال سألته عن كبش ابراهيم عليه السلام ما كان لونه؟ قال: أملح أقرن و نزل من السماء على الجبل الأيمن من مسجد منى بجبل الجمره الوسطى و كان يمشي في سواد و يأكل في سواد و ينظر في سواد و يعبر في سواد و يبول في سواد.

^٢ الدر المنثور ٥: ٢٨٤- اخرج سعيد بن منصور و احمد و البيهقي في سننه عن امرأة من بني سليم قالت أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله الى عثمان بن طلحة فسألت عثمان لما دعاه النبي صلى الله عليه وآله قال قال صلى الله عليه وآله اني كنت رأيت قرني الكبش حينما دخلت الكعبة فنسيت ان أمرك ان تخمرهما فخرهما فانه لا ينبغي ان يكون في البيت شيء يشغل المصلين.

بادئة من ذلك الكبش وإلى كل ذبح فى منى إلى يوم الدين، ولا تنافيه الروايات القائلة أنه ذلك الكبش، حيث بدأت به سنة الأضحى.

إن فى تقديم الأضاحى يوم الأضحى، وهو مما ترك على إبراهيم فى الآخرين، فيه رموز عدة كل واحدة فى حدها عظيمة، فهو ذبح عظيم فى نفسه وفى مغزاه، فى جسمه وفى معناه، يفدى به إسماعيل العظيم، فهو أمثلة أولى للتضحية والفداء، والأضاحى كلها أمثاله إلا فى اللحم والدم! إن مناسك الحج كلها رموز، ويبدأ قسم منها من قصة إبراهيم فى ذبح إسماعيل كرمى الجمرات والأضاحى فى منحر منى إبراهيم يرمى الشيطان المتمثل فى صورة شيخ هرم عند الجمار الثلاث فى كل بسبع حصيات، حيث كان يعترضه ناصحا لكى يهدم صرح عزمه فى تضحيته، والسبع رمز إلى شيطانات سبع، والثلاث إلى شياطين ثلاثة.

الحاج يبدأ فى مناسكه بإحرامه من مكة المكرمة، ثم إلى عرفات ليستحكم معرفيات مستجدا لها، مستعرضا إياها فى زواياها الثلاث نفسا وخلقا آخرين وخالقا، ثم إلى المشعر الحرام، غريبة دقيقة لما استعرفه فى عرفات، وليستخلص سمينها عن غثها، شعورا أدق من عرفات، ومن ثم إلى منى ليطبق مناه فى كلا النفي والإثبات: «لا إله إلا الله، طردا ودحرا للشيطان بمختلف شيطاناته برمز رمى الجمرات، وإثباتا للرحمن برمز التضحية والفداء، ونقصا عن نفسه بحلق أو تقصير خلاصا عن نفسياته وإنياته، وإخلاصا لله، تهينة لها وتعبيدا لطريقها إلى طواف وسعى أماذا.

فلما يرجع من جبهة العقبة وقد رمى الشيطان الأكبر، ينحو نحو المنحر ليقدم أضحيته، وكما فعله إبراهيم بإسماعيل عليهما السلام، وفيها زوايا ثلاث لكل أهميتها وعظمتها، فهى إذا ذبح عظيم.. فالزاوية الأولى منها رمز التفدية للنفس فى الله، أننى يا رب - وبعد نفي الشيطان - حضرت نفسى للفداء فى سبيلك وبأمرك، ولأن الانتحار محرّم فى شرعتك، أقدم بديلا عنى فداء الأضحية: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، هَدِيَةٌ تَرْمِزُ إِلَى الْفِدَاءِ وَالتَّضْحِيَةِ: «وَ الْبُدْنَ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً...» (٢٢: ٣٧) ومن ذلك أنها تشعر بذلك الرمز.

و الثانية روة سيول الدماء والأشلاء حتى لا يهابها فى سبيل الله دفاعا وجهادا أن يقتل أو

يقتل، فإن لمعرض الدماء والأشلاء تأثيرا عميقا في استقبال المعارك الدموية في سبيل الله، وهذه ثانية الشعائر.

و الثالثة أنها معرض عريض لإطعام الجياع: فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمْ لِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٢٢: ٣٧) ... لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٢: ٣١).

ففى الهدى هدى معنوية فى بعدين «و لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ...» وهدى اقتصادية فى بعد واحد هو الركن الركين فى ظاهر الأمر، المأمور بها فى آيات الهدى: إطعام البائس الفقير، القانع والمعتر لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا، فإنها تنال الفقراء «و لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ» رمز الفداء وألأ يهاب الدماء والأشلاء! هكذا تصبح الأضاحى قياما للناس بسائر الشعائر والمناسك، وكما قام الخليل «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ...» (٥: ٩٧)

و هكذا «وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ» لو أن المسلمين ذبحوا كما يجب قياما لهم فى جنات روحية واقتصادية، لا أن يهدروا أتلال اللحوم تعفن جو العبادة فتحرق او تدفن والفقراء الجياع لا ينالهم منها إلأ قليل لا يعبأ به^١.

هكذا «و تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ» (١٠٨) تركا لذكر إبراهيم وذكره فى التضحية والفداء، لحد أصبح تقديم الضحية من فروض الحج فى منى، كما وأن إبراهيم شيخ الأنبياء يذكر بمناسبات هامة رسالية فى كتابات الأنبياء وفى كل حياتهم: سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠).

«سلام» من الله «على إبراهيم» و«سلام» من المتروك عليه من أهل الله «على إبراهيم» سلاما عليه قولا، وتسليما له فعلا، وكل سلام من أهل السلام ما بقى الدهر «على إبراهيم» و«كَذَلِكَ نَجْزِي

^١ لقد فصلنا القول حول حكم الاضاحى فى منى بعدا عن كل إسراف و تبذير فى كتابنا اسرار- مناسك و ادلة حج باللغة الفارسية فراجع، و كذلك فى سورة الحج.

المُحْسِنِينَ، طول الحياة في هذه الأدنى وفي الآخرة إلى دار السلام.
 و تلك بشاره أولى لإبراهيم بإسماعيل غلام حلیم حيث بلغ معه السعی وحلم في البلاء
 المبين ومن ثم ثانية:
 وَ بَشِّرْنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَ بَارَكْنَا عَلَيْهِ وَ عَلَى إِسْحَاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا
 مُحْسِنٌ وَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣).
 فبشارته بإسحاق ثانيتهما، وبعد أن ولد إسماعيل وترعرع وبلغ معه السعی وتذبح، وقد
 تتطلب هذه لأقل تقدير ثلاثة عشر من السنين، فهناك غلام حلیم ما أحلمه لإسماعيل، وهنا
 نبيا من الصالحين لإسحاق، وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا: إسماعيل وإسحاق، مُحْسِنٌ وَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ،
 ومن أحسن المحسنين من ذرية إسماعيل محمد وعترته المعصومون، ومن أظلم الظالمين من
 ذرية إسحاق الصهاينة المجرمون، وإلى عرض موجز عن جموع من النبيين:

اسوة حسنه في ابراهيم

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ:
 إنهم لن ينفعوكم وإن كانوا مؤمنين، فكيف ينفعونكم وهم كفرون؟
 فوشائج القرابة المتأصلة في كيانكم، المشتجرة في زوايا قلوبكم، إنها قد تنسيكم ما يتوجب
 عليكم في ظل الإيمان بالله، فإنه الوشيحة الدائبة التي لا انقطاع لها ولا فصال، لا بد أن
 تنسى المؤمن سواها من الوشائج على طول الخط، فكل وصال إلى فصال، يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ
 بَيْنَكُمْ، إلا وصال في الله واتصال بالله، وعلى المؤمن أن يتأسوا في صمود وشيحة الإيمان
 بالرعي الأعلى ليذوبوا سائر الوشائج ولا يذابوا فيها.
 قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا
 تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَأَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
 وَخَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ مَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا
 وَ إِلَيْكَ أُنَبِّئُكَ وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ:
 الأسوة كالتدوة، هي الحالة التي يكون عليها الإنسان في اتباع غيره، إن حسنا أو قبيحا،

ولذلك تقيد هنا وأشباهه بـ «حسنه».

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا، (٣٣: ٢١) فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ تعم أحواله وأفعاله وأقواله، وهى أشمل وأكمل من الأسوة بإبراهيم، وإنما أمرنا هنا بأسوة حسنة في إبراهيم بما كان منه في آزر (عمه أو جده لأمه)، ولم يكن هكذا للرسول ﷺ، وأسوة إبراهيم - هذه الخاصة - تخصص بغير قوله لأبيه:

لَأَسْتَفِرَّنَّ لَكَ، ربي، وأسوة الرسول ﷺ تلکم الشاملة نافذة المفعول دون استثناء، فأين أسوة من أسوة؟! قَدْ كَانَتْ لَكُمْ... توحى بأن هذه الاسوة لها كينونة عريقة مسبقه فى المؤمنين، حسب التشريع الإسلامى، وكما هى شريطة الإيمان دوماً وخريطة مستملكات الإيمان كذلك: «التولى فى الله - التبرى فى الله، وشيخته مشيجه بقلوب المؤمنين».

ففى إبراهيم والذين معه: الإبراهيميون فى هذه السنة السنية، سواء أ كانوا معه فى عصره، أم بعده بعصور، وإلى زمننا، وإلى يوم الدين، فإن النص «وَالَّذِينَ مَعَهُ» مما يوحى بالمعية غير المتقيدة بزمان ولا مكان، لا «و الذين كانوا معه، لکی يختص بالغابرين، وبهذا المعنى يكون محمد ﷺ والمسلمون الذين معه إبراهيميين، مهما سبقه الرسول الأقدس ﷺ فى هذه السنة حقها ومظاهرها، فإن المعية لها درجات، قد يكون المعطوف أقوى من المعطوف عليه، كما ان آية الاسوة فى محمد ﷺ الشاملة، تشهد - بقرنها بآية الاسوة فى إبراهيم الخاصة المقيدة - تشهد له بهذه الأفضلية، إنها شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال غرسها شيخ النبيين إبراهيم الخليل عليه السلام مهما سبقه البعض ممن لحقه كالرسول الأقدس محمد ﷺ! إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، براءة بريئة عن كل شين ورين، صامدة فى وجه القرايات الكافرة، قاطعة وشائجها مهما تشجرت واستطالت وحتى الأبوة والعمومة، لحد الكفر بهم و نكرانهم كأن لا قرابة «كَفَرْنَا بِكُمْ، كفر البراءة^١ والنكران والمفاصلة، لا كفر الايمان، إذ ما كانوا مؤمنين بهم مسبقا حتى

^١ اصول الكافي بلسناده عن أبي عمرو الزبيرى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل، قال عليه السلام: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه إلى أن قال و الوجه الخامس من الكفر كفر البرائة و ذلك قول الله عز وجل يحكى قول إبراهيم «كَفَرْنَا بِكُمْ...».

يكفروا بهم عن إيمانهم لا حقاً، وَبَدَا بَيِّنَاتٌ وَبَيِّنَاتٌ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَخَدَّةً، فالإيمان هنا هو نهاية العداء وبداية الولاء، فإذا آمنوا زال هناك كفران: كفرهم بالله، وكفر المومنين بهم براءة وعداء.

إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ... قاله قبل أن يتبين له انه عدو لله، لا تحتل هداية، إذ أمره بهجره مليا: قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا، (١٩: ٤٦) هنا يستلهم ابراهيم من هجره مليا: مدة طويلة، لا دائما، انه يتروى فى أمره فيها، فقد تجوز هدايته، لذلك يسلم عليه ويعدده الاستغفار: قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا، (١٩: ٤٨) فوعد الاستغفار مربوط باحتمال الاهتداء، فلما طال الأمد وظن ابراهيم انه اهتدى حقق وعده: «وَاعْفِرْ لِي يَا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ، استغفر له وهو بعد حتى ظن انه اهتدى، أو سوف يهتدى، وكان فيما مضى من الضالين المعاندين، ولما تبين له انه عدو لله تبرء منه كما فى آية الاعتذار حيث تفسر آية الاستغفار: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ، (٩: ١١٤).

فليس وعد الاستغفار فى آيته، إلا نتيجة احتمال الاهتداء المشيرة إليه آية الاعتذار: (عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ): موعده آزر التى وعددها ابراهيم بقوله: (وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) لا التى وعددها ابراهيم آزر بدافع القرابة فإنها محظورة قطعا كما فى آية الاعتذار والاستغفار.

فالمحرم قطعا هو الاستغفار ووعدده للمشركين من بعد ما تبين انهم أصحاب الجحيم، ولا يتبين هكذا إلا ممن ثبت عداءه للحق بعد ما جاءه كمن صرح بهم القرآن ومن تثبتنا عليه ذلك ولا نحتمل هداية.

و أما المشرك المرجو هدايته، كآزر فى ظن ابراهيم، إذ أمره بهجره مليا، الملهم لترويه فيه، فقد يجوز الاستغفار له قبل هدايته، وكما فعل ابراهيم.

و إذ لم يكن فى استغفاره لآزر محظور، فلما ذا الاستثناء فيه عن أسوة ابراهيم؟ علّه رعاية

الواقع، فإن أزر كان عدوا لله لا يستحق الاستغفار، مهما أخطأ إبراهيم في ظنه وكان معذورا، ولم يكن استغفاره محظورا، فالأسوء تشمل حق العلم والواقع، وحاشا لله أن يأمرنا بأسوء تخالف الواقع، مهما كان صاحبها معذورا ظن الواقع، ولكنها محظور حسب الواقع.

إبراهيم يعد أباه الاستغفار مشفعا له بأنه لا يملك من الله إلا الافتقار: (وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ): لا قبول الاستغفار، ولا أن تأهل الاستغفار، إنما دعاء معه رجاء: (رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) تسليم لله بلا حدود، وتسلم لأمره بلا قيود، سمة إيمانية بارزة في إبراهيم طول حياته، ولأنه يحتمل مكيدة أبيه في ملامح وعده من هجره الملى، يلود بربه أن ينجيه: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ:

يستغفر ربه لو جعل فتنة للكافرين كما جعل في فتنته لآزر في استغفاره، فسنادا الى عزته تعالى يسأله الخروج عن الفتنة، وإلى حكمته المغفرة لو افتتن، فيا لهذه العبودية الخالصة من سمو وعلو! ومع ذلك كله تستثنى هذه الفتنة المغفورة، غير العامدة، عن اسوته: إِبْرَاهِيمَ... فيا للرسالة الإسلامية من نزاهة تفوق الرسالة الإبراهيمية! إذ لا ترضى من الأسوء إلا الحسنه علما وواقعا، لا السيئه - ولم تكن في إبراهيم - ولا بينهما: حسنة في ظنه، سيئه معذورة كما فعله إبراهيم، إنما حسنة خالصة: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ:

فيا لها من تربية رابية على الابراهيمية الحنيفة، تختص الأمة الإسلامية، إذ تستخلص لهم خالص التربيات عبر الرسائل كلها، كما ان رسالتها خالصة الرسائل كلها، أو انها الرسالة الإلهية وحدها، وما سواها إنما تحضر لها وتهيئ كبذرات لإنماءاتها لمن كان يرجوا الله، أن يلاقه في الدنيا والآخرة معرفيا ورضوانا، وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ، وهو آخر المطاف وغايته، وَ مَنْ يَتَوَلَّ، عن هذه الرسالة، فيتولى مناوئها ممن يترصدون له و يترصدون، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ: غنى عن إيمانكم، وهو يحمد على أية حال، توليتم له أو توليتم عنه، سواء، ولكنه لا يرضى لعباده الكفر¹.

¹ من صحاح الأحاديث القدسية: «يا عبدي! انكم لن تبلغوا ضرري فتضروني و لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبدي! لو ان أولكم و آخركم و إنكم و جنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبدي! لو ان أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبدي! لو ان أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم قاموا

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.
تلميح بفتح مكة المكرمة بصيغة الترجى: «عسى الله: هنا موضع رجاء لكم، لا ان الله يرجوا،
وإنما يرجى المؤمن بما كانوا يأملون عليهم لتحقيقه يعملون، وهو بشارة لفتح مكة، الذى
سبب دخول الناس فى دين الله أفواجا:

طوعا أو كرها، ف «عسى، هنا وفى أمثاله حتم من الله، يكلل بالرجاء، ولكى يحيى المؤمنون
حياة الرجاء، ليكونوا دائبى الحراك والسعى لتحقيق الرجاء، «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى!»
عسى الله أن يعوضكم عن أرحامكم المشركين، بأرحام لكم مؤنين فى مكة، منهم، ومن
سواهم بقرابة مستقبله، فيجعل بينكم مودة «وَاللَّهُ قَدِيرٌ» على تحقيق هذه الأمانة، «وَاللَّهُ غَفُورٌ»
للمشرك إذا آمن «رَحِيمٌ» له، وللمؤمن، المتقاربين نسبا أو صهرا.

و لقد وقع هذا الأمل بعد أمد قصير، ان فتحت مكة، فأسلمت قريش، ووقفت مع المهاجرين
والأنصار تحت لواء التوحيد، مهما كان فيهم منافقون.

و هكذا يعالج الإسلام وشائج القرابات، ولكى يتخطاها إلى وشيجة الإيمان، خطوات
وخطوات، ولكى يجتمع الجميع فى حزب الله، والاخوة فى الله، فى جو عطر رائع لا خبر
فيه عما سوى الله، «وَاللَّهُ قَدِيرٌ» وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ! من مظاهر المودة الموعودة بفتح مكة
تزويج النبى ﷺ ام حبيبة بنت أبى سفيان حيث أصبحت من أمهات المؤمن، رغم ما
كان من أبيها من عدااء عارم.

ابراهيم فى حججات مع المشركين

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦.

إذ قال، تحدّد قومه المخاطبين هنا بقومهم الحالى الحضور عند قوله، ولأن القالة هذه هى
قالة الرسالة الابراهيمية، فقومه - إذا - هم قومه الرسالى، فعلى حملة شرعته حملها الى كافة

فى سعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من عندي إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر، يا عبادي! إنما
هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله، و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه تفسير روح البيان
للحقي ج ٩ ص ٤٧٩.

المكلفين عرض المكان وطول الزمان لهذه الرسالة السامية، وكما هي طبيعة الحال فى كل رسالة عالمية لمن دارت عليهم الرضى من اولى العزم من الرسل.

و هذه القالة الإبراهيمية هى القالة الرسالية لكافة المرسلين، وهى الأمر بعبادة الله وحده و تقواه وحده، ذلكم، الله، خير لكم، ممن سواه فى عبادته وتقواه، إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، و تعرفون الحق عن الباطل، و تعلمون، ان الله هو الحق المبين، فمن يعلم انه الله كيف ينحو الى سواه؟ و اين هنا، وحده، ولا حصر تخصص به التقوى والعبودية؟ عله لأنهم ما كانوا يعبدون الله حتى مع شركائهم زعما منهم انه لا يعبد إلا بشفعاء عنده، فإذا صحت عبادته دون واسطة فقد بطلت عبادة من سواه، معه أولا معه، حيث الفرع ساقط بوجود الأصل!

أم لأنهم ضروب عدة، منهم هوّاء الذين يوحدون العبادة لما سواه، فيورون بتحويل عبادتهم الى الله توحيدا لعبادة الله، ومنهم من يعبدون مع الله سواه، وليست هذه عبادة لاثقة لله، فليعبده كما تحق وليست إلا توحيد العبودية له دون سواه! ام ان اعبدوا الله اثبات لعبادته عقائدية وعملية، ثم، و اتقوه، نفى لعبادة غيره عملية أو عقائدية، فمن يعبد مع الله سواه لم يتق الله، و تقوى الله تحلق على كل سلبية تقتضيها عبادة الله، كما أن اعبدوا الله، محلقة على كل الإيجابيات فى عبادة الله، والايجابية القمة فيها أن يوحد فى عبادته، كما السلبية القمة ألا يشرك به سواه، إذا فهى صيغة اخرى عن لا إله إلا الله، فى قالب الأمر والنهى بالترغيب والترهيب! ثم الآية التالية تكفل صراحة تلك السلبية الملمحة من، و اتقوه، بصورة مبرهنة بينة:

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧.

انما، هنا تحصر عبادتهم فى، أوثانا، وهى تماثيل خشبية أم حجرية أماهيه من جمادات، مما يبين انهم كانوا- فقط- عبدة الأوثان وهى أنذل العبادات وارذلها بين كل ما يعبد من دون الله، ان يعدلوا بها عن عبادة الله.

و ليس فحسب ان تعبدوها بل، وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا، خلقا لما تنتحون، ثم أنتم تعبدون ما تخلقون، وإفكا فيها انها شفعائهم عند الله، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وأمثالها من مختلفات

الزور والغرور التي يخلقونها فيما يعبدون، وما ذا يملكون لكم حتى تعبدوهم؟ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا، وَأَصْنَامًا أَمْ حَيَوَانًا وَطَوَاقِيَّتًا أَمْ أَيَا كَانَ حَتَّى النَّبِيِّينَ وَالْمَلَائِكَةَ الْمُقْرَبِينَ، وَالْجَامِعَ لَهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهُمْ كُلُّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا، بَلْ وَأَنْفُسَهُمْ، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ، أَيَا كَانَ، وَاعْبُدُوهُ، لِأَنَّ اللَّهَ الْخَالِقَ الرَّازِقَ، وَاشْكُرُوهُ، بِمَا يَرْزُقُ، فَانكُم إِلَيْهِ، لَا إِلَى سِوَاهُ، تَرْجِعُونَ، وَإِنَّ الرِّزْقَ هُوَ مَشْغَلَةُ النَّفُوسِ فِي الْأَكْثَرِيَّةِ الْمَطْلُوقَةِ، تَعْبُدُ مِنْ تَرَاهُ رَازِقًا، فَكَيْفَ أَتَمُّ تَبْغُونَ الرِّزْقَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَتَتْرَكُونَ الرَّازِقَ وَهُوَ اللَّهُ، فَهُوَ الْمَبْدُءُ وَهُوَ الْمَتَهَى وَهُوَ الرَّازِقُ لَكُمْ فِيهِمَا وَبَيْنَهُمَا، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ، مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ أَمْ لَمْ تَكْسِبْ، وَعِنْدَ، هُنَا دُونَ، مِنْ عَلَّهَا إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنِيَةِ الرِّزْقِ وَوَلَدَ نَيْتِهِ عِنْدَهُ، مَهْمَا كَانَتْ لَهُ أَسْبَابٌ مِنْهَا يَرْزُقُ الْمَرْزُوقِينَ، سِوَاءَ أَمَا كَانَتْ اخْتِيَارِيَّةً أَمْ سِوَاهَا، فَلِيَطْلُبَ الْمَرْتَزِقَ الرِّزْقَ مِنْ أَيِّ سَبَبٍ عِنْدَ اللَّهِ، لَا عِنْدَ سِوَاهُ.

أَمَّنَ الْعَقْلُ أَنْ يَتْرَكَ الرَّازِقَ وَيَبْغِيَ الْوَسِيطَ أَنْ يَطْلُبَهُ مِنَ اللَّهِ، فَتَعْبُدُونَهُ حَتَّى يَطْلُبَ؟ وَلَا وَسِيطَ فِي طَلْبِ الرِّزْقِ، وَلَا يَمْلِكُونَ هُوَ طَلْبًا لَهُ مِنَ اللَّهِ، وَلَا أَنْ يَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَحَتَّى لَوْ مَلَكُوا طَلْبًا مِنَ اللَّهِ فَعِبَادَتِكُمْ إِيَّاهُمْ دُونَ اللَّهِ يَقْطَعُ عَنْكُمْ رِزْقَ اللَّهِ وَشَفَاعَتَهُمْ - الْمَرْعُومَةُ - عِنْدَ اللَّهِ، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ - وَهَكَذَا نَرَى كَيْفَ يَفْنَدُ أَوْثَانَهُمْ فِي كُلِّ زَوَايَا الرُّبُوبِيَّةِ، فَذَاتِيَّةً أَنَّهُمْ، أَوْثَانًا، لَا تَعْقِلُ، وَصِفَاتِيَّةً أَنَّهُمْ لَا تَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِلَّا أَنْكُمْ، تَخْلُقُونَ، لَهَا، إِفْكَاءَ، وَأَفْعَالِيَّةً أَنْ، لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا، أَيَا كَانَ، وَالْعِبَادَةُ قَدْ تَعْنَى كِمَالِ الذَّاتِ، أَمْ كِمَالِ الصِّفَاتِ، أَمْ كِمَالِ الْأَفْعَالِ، وَهِيَ مَسْلُوبَةُ الْكِمَالَاتِ، إِذَا، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ، كَلَهُ، فَمَا أَحْمَقُكُمْ إِذْ تَنْحُونَ نَحْوَ الْفَقِيرِ اللَّاشِيءِ وَتَتْرَكُونَ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ؟! وَهَذَا نَدْرَسُ أَنَّ طَلْبَ الرِّزْقِ عِنْدَ اللَّهِ كَعِبَادَةِ اللَّهِ إِشْرَاكَ بِاللَّهِ، يُعَذَّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ٢١.

لَهُ الْمَشِيئَةُ الْعَادِلَةُ فَيُعَذَّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَالْمَشِيئَةُ الْفَاضِلَةُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَإِلَيْهِ لَا إِلَى سِوَاهُ، تُقْلَبُونَ، عَنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَى الْأُخْرَى، لَا فَقَطْ قَلْبًا لِحَيَاةٍ إِلَى حَيَاةٍ، بَلْ وَقَلْبًا عَنْ ظَاهِرِهَا إِلَى بَاطِنِهَا، وَعَنْ اخْتِيَارِهَا إِلَى اضْطِرَارِهَا، وَعَنْ أَعْمَالِهَا إِلَى نَتَائِجِهَا، وَعَنْ كُلِّ مَا تَطْلُبُهُ الْأُولَى، إِلَى طَلْبَاتِ الْأُخْرَى، وَهُوَ اللَّهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى، - وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ، (١٠: ٣٠).

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٢٢. إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ، شئتم أم أبيتم إذ أنتم لا تغلبون، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، رَبِّكُمْ، لا في الأولى أَلَّا تَقْلَبُوا، ولا في الأخرى أَلَّا تَعَذَّبُوا، فالأرض والسما صيغة أخرى عن الكون كله هنا وهناك، فلا تعجزون الله تفلتا عن ملكه: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَبَطَعْتُمْ أَنْ تَتَّقُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاتَّقُوا لَا تَتَّقُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ، (٥٥: ٣٣) ولا تعتسا عن ملكته وإرادته: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ، يَلِي أُمُورَكُمْ هُنَا وَهُنَا، وَلَا نَصِيرٍ، يَنْصِرُكُمْ عَنْ بَأْسِ اللَّهِ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَنْسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٣. كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أَفَاقِيَّةً وَأَنْفُسِيَّةً، الدالة على ربوبيته الوحيدة غير الوهيده ولقاء لثواب الله، أُولَئِكَ، البعيدون عن منافذ المعرفة الربانية، يَنْسُوا مِنْ رَحْمَتِي، في الدنيا والآخرة، فالْمُؤْنُ بِآيَاتِ اللَّهِ ولقائه لا يياس من رحمة الله، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، هو أبد الخلود في الجحيم.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٤.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ، بعد هذه الحجج البالغة، إلا، جواب كل أحق نكد: «أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ، بأية قتله، أو حرقوه، وهي شر قتله، إذ حرق أكبادهم حين كسر أصنامهم، إذا فحرقه بحرقه، ولكن، فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، في ذلك المسرح الخطير قائلاً: «يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، (٢١: ٦٩).

هنا «اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ، وفي أخرى، قَالُوا حَرِّقُوهُ، (٢١: ٦٨) وعلّ الجمع انهم عزموا في البداية على قتله، ثم على إحراقه لأنه أشد وأنكى، أم كانوا مفترقين بين قتله وحرقه، فتغلبت الفرقة الأخرى، وعلى أية حال عزموا على إحراقه فألقوه في الجحيم.

إِنَّ فِي ذَلِكَ، الحجاج، وخلفيته اللجاج، آيات، ربانية، لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، أية لكون الرب، وآية لكان الربوبية، وآية للرسالة الصادقة، وآية للعاقبة الصادقة، آيات مع بعض وتلو بعض لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا.
 وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ
 بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ٢٥.

تهديد صريح من ابراهيم لكسر الاصنام كحجة عملية

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ٥١.

«من قبل، هنا قد يعنى - فقط - من قبل موسى وهارون، ولكنه إيضاح للواضح حيث القبلية
 الزمنية لإبراهيم واضحة لدى الكل!».

فقد تعنى - فيما عنت - القبلية الرتيبة وأوليتها بالنسبة لموسى مهما شملت الزمنية، وكما عبر
 عن الرسول صلى الله عليه وآله بأول العابدين فقد «أوجس في نفسه خيفة موسى» ولم يوجس ابراهيم
 حين وضع في المنجنيق^١ وابتلى بابتلاءات لم يبتل بها موسى، وهذه من قبلته الرتيبة على
 موسى.

أم وقبلية في حياته، ان رشده في الدعاية الصامدة التوحيدية كان قبل إمامته ورسالته، حيث
 كان في حضانه أزر وهو بعد طفل، لم يبلغ مبلغ الرجال ولا الشباب، فقد بزغت دعوته هذه
 منذ بزغت حياته العقلية الطفولية، وذلك الرشده هو من عطيات الله.

«وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ، ولم تكن عطية مجانية فوضى، بل وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، انه
 يوقى ويكفى أمانة الله».

إذا فليس رشده الموقى من لدنا من قبل، فوضى جزاف، بل انه حل محلّ اللائق اللابق، و
 ذلك هو الرشده الرشيد لمن يبتعثه الله رسولا الى خلقه، انه يصنعه بعينه ورعايته، ما يعبد
 طريقه الى الرسالة، منذ أصلاب الآباء وأرحام الأمهات حتى الولادة والطفولة والغلمة البالغة
 والكهولة والشيخوخة، فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا، ولكي ياهل لحمل

^١ بحار الأنوار ١٢: ٣٥ عن إسماعيل بن الفضل الهاشمي قال سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن موسى بن عمران عليه السلام لما
 رأى حبالهم وعصيهم كيف أوجس في نفسه خيفة و لم يوجسها ابراهيم عليه السلام حين وضع في المنجنيق و قذف به في النار؟ فقال:
 ان ابراهيم عليه السلام حين وضع في المنجنيق كان مستندا الى ما في صلبه من أنوار حجج الله عز و جل و لم يكن موسى
 عليه السلام كذلك فلماذا أوجس في نفسه خيفة موسى و لم يوجسها ابراهيم.

الامانة الكبرى، متعبا نفسه فيها.

و هذه الآية بما بعدها حلقة رسالية شاخصه في ميادينها تحلق على تاريخها مقسمة الى مشاهد متتابعة بينها فجوات، بادئة بسابق الرشد لإبراهيم في ذلك المسرح الصريح الجريء «وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ» وباستعداده لحمل الامانة الكبرى التي حملها المرسلون، وهو صاحب الرأية في الطبيعة:

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ٥٢.

و ان بين قالة لأبيه آزر وقالة لقومه ردح من الزمن، إذ قال لأبيه وهو تحت حضائنه وكفالتة ولما يبلغ مبلغ الرجال والشباب ليخوض خضم المجتمع حتى يكون له قوم، مهما كان القال نفس القال، لوحدة المجال، وداء الشرك العضال.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، (١٩: ٤٣)

- «و إذ قال إبراهيم لأبيه آزر أ تتخذ أصناماً آلهة إنى أراك و قومك فى ضلال مبين» (٦: ٧٤). والتماثيل هى الأشباه، إذ كانوا يعملون الصور المجسمة الشبيهة بذوات الأرواح، وهى أشباح بلا أرواح، وكيف يعكف ذوو الأرواح لما يصنعونه من غير ذوات الأرواح، وهم لإن يعبدوا لها أخرى من أن يعبدوها، لأنهم أولاء صانعوها.

و فى إنجيل القديس برنابا الحوارى حوار بين ابراهيم وأبيه آزر نذكر منها هنا مقتطفات.

و «ما هذه التماثيل، استجواب فيه تزييف آلهتهم التماثيل، أجسادا بلا أرواح يعكف لها ذوو الأرواح؟!»

قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ٥٣.

^١ الفصل ٢٦: ٢٥ (كان ابراهيم ابن سبع سنين لما ابتدأ ان يطلب الله فقال يوما لأبيه يا أبته من صنع الإنسان .. (٤٦): اي شيء تشبه الآلهة (٤٧)؟ أجاب يا غبي اني كل يوم اصنع إليها أبيعها لآخرين لاشترى خبزاً و أنت لا تعلم كيف تكون الآلهة (٤٨) و كان في تلك الدقيقة يصنع تماثلاً (٤٩) فقال هذا من خشب النخل و ذلك من الزيتون و ذلك التمثال الصغير من العاج (٥٠) انظر ما أجمله الا يظهر كأنه حي (٥١) حقا لا يعوزه إلا النفس (٥٢) أجاب ابراهيم إذا يا أبى ليس لآلهة نفس فكيف يهبون الأنفاس (٥٣) و لما لم تكن لهم حياة فكيف يعطون إذا الحياة (٥٤) فمن المؤد يا أبى ان هواء ليسوا هم الله .. ٥٧ ان كانت الآلهة تساعد على صنع الإنسان فكيف يتأتى للإنسان ان يصنع آلهة (٥٨) و إذا كانت الآلهة مصنوعة من خشب فان إحراق الخشب خطيئة كبرى (٥٩) و لكن قل لي يا أبته كيف و أنت قد صنعت آلهة هذا عديدها لم تساعدك الآلهة لتصنع أولادا كثيرين فتصير أقوى رجل فى العالم ...».

قالوه عذرا لمكوفهم القاحل الجاهل على هذه التماثيل كسنة قومية محترمة بين الأقسام، وذلك تحجر عقلانى داخل القوالب التقليدية الميتة، وتنازل عن العقلية الانسانية بل والحيوانية، التى لا ترضى تذلا أمام الأذل الأردل، المصنوع للعباد نفسه وأضرابه.

قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٥٤.

فالضلال المبين، الذى يبين انه ضلال انه ليس ليتبع مهما كان سنة الآباء، وليست عبادة الآباء لأنهم آباء بالتى تكسب هذه التماثيل قداسة وقيمة، حيث القيم تنبع من الواقع المتحرر الطليق، سواء عرفها الآباء ام جهلوها، وليست مفتعلة تصيح سننا متبعة مهما تواترت بين الآباء.

قَالُوا أَ جِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللَّاعِبِينَ ٥٥.

و مجرد استفهامهم هذا دليل تجردهم عن الحق، وعن اى برهان لما هم عليه، فانه سؤل المززع العقيدة، حيث لا يطمئن الى ما هو عليه، تيه يتخبط فيه من لا يدينون دين الحق، انحسارا وتخلفا عن حكم الفطرة، وانحصارا بالاحكام التقليدية القالحة الجاهلة.

أَ جِئْنَا بِالْحَقِّ، الناصع كما تدعيه، أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ، بعقائدنا، تبديلا لها الى اخرى من اضربها، ام من اللاعبين بالحق حيث تظهر الباطل بمظهر الحق.

و قد يعنى من الحق فيما يعنى «الجد، بقرينة اللاعبين، هل أنت مجد فيما تقول ام لاعب، حيث الجد خلاف الآلهة بعيد عن عيش جو الإشراك.

قالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٥٦.

بل جئت بالحق بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ، لا هذه التماثيل التى أنتم خلقتموهن، وقد فطر الله الخلق كله بفطرة التوحيد، ومنه الإنسان المفطور على ذلك، وانا، المفطور على ما فطرهن على ذلكم، الحق الناصع «من الشاهدين» والسماوات والأرض هى كلها بمن فيهما وما فيهما على ذلكم من الشاهدين، شهادة فطرية وعقلية وكونية اما هيه، ولا تملك اية حقيقة هكذا شهود فى كمها وكيفها، ما يملكه التوحيد من شهود، حيث الكون كله شهوده دون إبقاء، الا من تنازل عن فطرته وعقليته.

و علّ فطرهن، جمعا دون فطرهما، لكى تشمل معهما هذه التماثيل، فهو- إذا- رب للعبادين

والمعبودين سواه، فكيف يعبدون سواه؟.

فلست انا- فقط- الذى جاء بالحق فى التوحيد، بل الكون كله، ولست أقوله دون ايمان كالذين جَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ. بل اشهد به كما يشهد الشاهدون، فلست انا من اللاعبين، بل جنتكم بحق مبین.

هذه شهادة ابراهيمية على التوحيد وانه الحق الجدد، وبالتالي يثبثها بالواقع الذى توعدده.
وَ تَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ٥٧.

موقف جرىء ما أجرأه وأجرأه على يديه، أمام تلك الحشود المحتشدة المشتركة، تاركاً ما اعتزمه من كيد الأصنام، الأكيد، مبهما دون إفصاح، مما يضخم أبعاد الوعيد، وكأنهم نظروا الى وحدته دون ناصر فوهدهته لو اعتزم، فلم يأخذوا وعيده بعين الإعتبار، سناداً الى قوتهم وضعفه، لذلك لم يرجعوا له جواباً، فلو كان لبان حيث الموقف موقف البيان.

كيد مؤد لاصنامكم بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، كما ولّوا وتركوه، تهوينا لكيد المعتمز وتوهينا لحقه المخترم وقبولاً لعذره الكائد المكتتم، فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، (٣٧: ٨٩):

فلما هموا بالذهاب الى عيد لهم، طلبوا اليه ان يرافقهم فأبى عن الانسلاک فى سلكهم بعذره العاذر: إِنِّي سَقِيمٌ، دونما سقم ظاهر، إلا سقم النفس واضطراب الحال وكسوف البال، حيث كان يتقطع حزناً على اشراكهم، ويتميز غيظاً لأنهم لم يلبوا ندائه، وقد عقد عزمه ان يهدم صرح آلهتهم التى ألهتهم ويقوض عرشهم، لما رأى الحجة القولية لا تنفع فأراد ان يشرك أبصارهم ببصائرهم، وحواسهم مع افئدتهم علهم الى رشدهم يثوبون وعن غيهم يتوبون:

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ٥٨.

خلى الجو من رصد العيون، فدلف الى أصنامهم فوجد باحة قد اكتظت بالتماثيل وانتشرت فى ارجائها الأصنام فخاطبها محتقراً لشأنها، ألا تأكلون! ما لكم لا تنطقون، وأنى للحجارة ان تأكل او تنطق، فأخذ يلطمها بيده ويركلها برجله وتناول فأساً وهوى عليها يكسرها ويحطمها حتى جعلها جذاذاً الا كبيراً لها فى أجسادها، ليجعلها جذاذاً فى قلوب عابديها بذلك الواقع، بعد ان جعلها جذاذاً من ذى قبل ب، ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون، جذاذات ثلاث

تجتث جذور الخرافة الشركية لو كانوا يعقلون.

فلقد كاد أصنامهم ب «إِنِّي سَقِيمٌ. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، حَى خَلَى الْجَوَ لَمَا اعْتَزَمَ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ جَذَاذًا: قَطْعًا مَكْسُورَةً مَفْتَتَةً مَهْشَمَةً، إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ، يَرَأْسُهُمْ كَأَنَّهُ إِلَهَ الْآلِهَةِ، لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، حَيْثُ الْمَوْقِفُ يَتَطَلَّبُ رَجُوعًا إِلَى كَبِيرِهِمْ كَمَا تَهْتَمُّ فِي جَعْلِهِمْ جَذَاذًا فَيَسْأَلُونَهُ كَيْفَ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَهُوَ حَاضِرٌ فَلَمْ يَدْفَعْ عَنِ صَغَارِ الْآلِهَةِ، أَمْ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُمْ جَذَاذًا لِيَبْقَى فِي الْمَيْدَانِ وَحْدَهُ كَمَا هُوَ قَضِيَّةُ الْحَالِ فِي تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ لَوْ كَانُوا يَشْعُرُونَ:

و لعلى بعضهم على بعض! ثم رجوعا الى ابراهيم الذى تركوه لحاله وهو المتهم الثانى إذ لا حول ولا قوة لكبيرهم، ومن ثم رجوعا الى الله بعد انتباهه هنا وهناك، وضمير المفرد الغائب فى «اليه، يتحمل الرجوع الى كل من الثلاثة على الأبدال، حيث الكل من بنود الرجاء لإبراهيم وقد حصل على الأولين تماما، وعلى الأخير بعضا حيث زلزل اركان تقاليدهم العمياء. ٣٢١ وبالفعل رجعوا إلى المعبد، وبدل ان يرجعوا إلى أنفسهم ان الآلهة لا تغلب، إذا فما هى بالآلهة، حيث الخرافة قد عطلت أنفسهم عن انسانية التفكير، وبدل ان يرجعوا إلى كبيرهم ثم إلى ابراهيم فالى الله، فإذا هم يتساءلون فيما بينهم حائرين.

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ٥٩.

حكما على من فعل هذا أيا كان «إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ، بلا اى عذر ولا عاذر، حيث التغلب هكذا على الآلهة، وكسرها عن آخرها إلا .. ان ذلك هو الظلم العظيم والضمير الحطيم فلنفتش عن الظالم أيا كان اهو كبيرهم ام هو ابراهيم؟

قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبرَاهِيمُ ٦٠.

و هنا «سمعنا» دون: رأينا او سمعناه وفتى، دون رجلا، ثم «يُقَالُ لَهُ إِبرَاهِيمُ» دون ابراهيم، هى توهينات ثلاث لكاسر الأصنام، تجهيلا لأمره وتصغيرا لشأنه وتعريضا به انه «فتى» شاب وهذه الجراءة الظالمة هى من فعل الشباب، مجهولا لا يعرف «يُقَالُ لَهُ إِبرَاهِيمُ» كأنه أسمعته المستعار، او ان معرفة اسمه عار، ام انه فى الأصل مجهول الاسم والرسم ليس له اى مقدار حتى يعرف بيننا باسم او رسم، فانه مجهول حيثما دار.

و هى هى دأبة دأبة عائبة لمن يراد توهينه وتهوينه مهما كان فعله عظيما، اشعارا بانه فى

نفسه صغير صغير، مهما ارتكب الكبير الكبير.

فَتَى يَذُكُرُهُمْ، بسوء، وانه سوف يكيدهم فقد كادهم بالفعل، و«ابراهيم، رفعا فاعل، يقال، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون» ٦١.

فلقد تقاطرت الوفود، وتكاثر الجمع إلى أجساد الآلهة وأجداتها، كل يرغب في القصاص من ابراهيم، فجاءوا به وسط الجمع الزاخر بالقمع القاهر، وأخذوا يحاكمونه استجوابا عن الطامة الواقعة، أمام الجماعة المتغيظة التي تحرق الإرم حنقا وغيظا.

فأتوا به، إتيانا جاهرا، على أعين الناس، حيث يعاينونه في نفس المشهد وقبل ان تتفرقوا، لعلهم يشهدون، يشهدونه من هو هذا الجرىء، ويشهدون عليه انه الفتى الذي كان يذكرهم، ف «يشهدون، إقراره على فعلته، ثم «يشهدون، نكاله بفعله، كيلا يطمع طامع بعد فى فعلته، اجتنانا لجذور هذه الضغينة الشكيمة بالآلهة، ولكي يرتاح عابدها بما يشهدون من نعمته.

شهادات اربع عليها معنى كلها حيث يتحملها اللفظ والمعنى، فإن «يشهدون، الأجرد عن متعلقات، تعم كافة المتعلقات من شهادة نفسه وإقراره وعذابه والشهادة عليه انه هو لا سواه.

قالوا أ أنتَ فعلتَ هذا بالهتنا يا إبراهيم ٦٢.

استفهام استنكار للأخذ بالإقرار حتى يشهدوا إقراره، ليكون فى عزمهم على تحريقه إعدارهم، وآلهتنا، دون الآلهة، كاعتراف منهم انه كان ينكرهم.

و ابراهيم الذى اصطنع ذلك الجو الحاشد، والمسرح السائد، تراه ماذا عليه فى الاجابة عن ذلك السؤال العضال، حتى يحقق مأوله؟.

فهل يصارح بالواقع كما وقع: «أنا فعلت، وفى ذلك تهديم لصرح الحجاج، وتعجيل منهم لكل عقوبة ولجاج، فيصبح ما صنعه باطلا يرجع الى بوار، فلا حجة تحصل، ولا الرسول يبقى بل ينكل، حتى ان بقى فما فائدة بقاءه فى حياة الرسول دون تحقيق لحجته، بل والناكرون للتوحيد يزدادون لجاجا حين يرون آلهتهم جذاذا دونما حجة، تجعلها جذاذا بها بعد جذاذاها فى أجسادها!.

أم يقول كذبا بل فعله كبيرهم، باتا فى قوله، والكذب فشل وخلل فى الرسالة، وسوء سابقة للرسول، فلا يعتمد على أقواله وان كان الكذب مصلحيا، ولماذا يكذب والحق يملك كل

حجج الصدق دونما حاجة الى أى كذب! والرواية القائلة انه كذب مطروحة او موهّ، لمخالفتها الآية ومسها من ساحة الرسالة الصادقة^١.

عليه فى ذلك المسرح المصرع ان يأخذ امرا بين امرين تكون فيه نهتم بحجة قارعة قاصعة فى عاجله، قبل ان يعزموا عليه نعمة لأجله، وقد فعل فنسب الفعل فى ظاهر الحال الى كبيرهم لكيلا يهجموا عليه دون امهال ولا مجال، ثم جعل هذه النسبة فى شرطية مشتملة على حجتين:

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ٦٣.

لِىَّ فى الصدق ما أحراه بساحة الرسالة الصادقة، حجة تجعلهم فى لجة، «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا .. إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» - «فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» فقد و الله ما فعله كبيرهم وما كذب ابراهيم، انما قال فعله كبيرهم هذا ان نطق وان لم ينطق فلم يفعل كبيرهم هذا شيئا^٢. وهذه طبيعة الحال فى الآلهة الناطقة الحية ان كبيرهم يصرع شركاءه ليتوحد هو بالألوهية: «وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ» (٣٣: ٩٤).

ثم «إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» فهم أخرى ان يسألوا من فعل بهم هذا، إذا «فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» ولا تسألونى أنا، شرطية صادقة باهرة تحمل حججا قاهرة: فأسئلوهم هل قتلهم كبيرهم ام سواه، ولا بد لهم من اجابة «إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» فاذا لا ينطقون فما هم بالآلهة، ولو نطقوا فليس إلّا كبيرهم فعله قضية التغالب فى آلهة عدة، دون عبيد كأمثال ابراهيم.

فعدم نطقهم، وجعلهم جزاذا بفعل ابراهيم، هما برهانان اثنان انهم أضعف من احد من العباد

^١ الدر المنثور ٤: ٣٢١ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكذب ابراهيم فى شيء قط الا فى ثلاث كلهن فى الله: قوله انى سقيم و لم يكن سقيما، و قوله لسارة أختى و قوله بل فعله كبيرهم هذا و فيه عن أبي سعيد ان النبي صلى الله عليه وآله قال: يأتى الناس ابراهيم فيقولون له اشفع لنا الى ربك، فيقول: انى كذبت ثلاث كذبات فقال النبي صلى الله عليه وآله ما منها كذبة الا حل بها عن دين الله، قوله: انى سقيم بل فعله كبيرهم هذا و قوله لسارة انها أختى. أقول: لقد صدق فى: انى سقيم كما بيناه فى آيته، حيث سقم روحه فى ضلالهم، ثم فى الحديث الثانى تضاد، فان لم يصلح ابراهيم للشفاعة لأنه كذب، فهو كذب غير معذور، و ان كان معذورا فى كذبه فتركه للشفاعة غير مشكورا!

^٢ نور الثقلين ٣: ٤٣١ عن تفسير القمي فى الآية: فقال الصادق عليه السلام و الله فقيل كيف ذلك؟ فقال: انما قال ... أقول: ان كانوا راجع الى كلتا الجملتين: فعله فاسألوهم ..

فكيف يعبدهم العباد.

فلقد فسحت هذه الشرطية المجملة الجميلة تلك المجالات الفاسحة لاحتجاج ابراهيم على من حضر من عبدة الأصنام، ولا شك ان اجتماع القوم فى صعيد واحد كان أمنية ابراهيم التى طالما جاشت نفسه بها وتوخاها ليقيم عليهم الحجة جميعا.

و يا لها من تهكم ساخر يهزءهم هزء ويهزهم هزأ، حيث يحمل برهانا صارحا صارخا فى الحشد انها ليست بالهة إذ لا تنطق ولا تحافظ على أنفسها، فضلا عن أن تنطق بصالح عبادها، والحفاظ على مصالحهم.

و هنا نرى تلك الأنفس الفالته عن عقولها، المتخبطة فى كل حقولها، ترجع الى أنفسها عند الجواب الحاسم القاصم:

فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ٦٤.

بادرة خير فى أنفسهم الخاوية ان يحكموا بظلمهم أنفسهم دون ابراهيم، حيث «أنتم» تحصر «الظالمون» فيهم، تبرئة لساحة ابراهيم عن الظلم فيما فعل، بل هو العادل فيما فعل حيث رجعنا إلى أنفسنا واشعرنا بظلمنا أنفسنا.

فاتحة فيها بارقة الأمل كما تفأل: «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ» تفتحا لبصائرهم لأول مرة فى حياتهم المشركة، وتدبرا فى ذلك السخف الذى كانوا عنه صادرون، والظلم الذى كانوا هم فيه سادرون، وقد قالوا من قبل «مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ» فما مضى إلّا أونات حتى حكموا على أنفسهم: «إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ» وما أحلاه كلمة حق على لسان المبطل بحجة رسالية وامضة كهذه، تجعل حججهم داحضة وتراهم «فقالوا» كل لآخر؟ والكل غرقى فى لجة الحجة! ولم يكونوا ليصارحوا بهذه النكسة أمام ابراهيم! ام كل لنفسه فى نفسه؟ وهذه قضية الموقف، وأنفسهم، دون «بعضهم الى بعض» كما «اقبل بعضهم على بعض يتلاؤمون» قالوا يا وَيَلْنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ» (٦٨: ٣١) دون «على أنفسهم».

وقد تعنى «أنفسهم» هنا ما عنته «فأقتلوا أنفسكم» رجوعا لكل الى نفسه، ثم الى الآخرين دون مصارحة تعرف، فى لمحات وإشارات فيما بينهم، ولكن ابراهيم وهو شيخ العارفين عرف رجوعهم الى ذات أنفسهم فضلا عن اشاراتهم لمن سواهم، ومن ثم أدركتهم الحيرة وعقد

الحصر ألسنتهم فأطرقوا بروهم منكرين واستجمعوا شارد عقولهم:

ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤْسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هُوَ لِأِيَّ يَنْطِقُونَ ٦٥.

و يا لها من نكسة على الرؤوس بعد رجعة الى النفوس، ثم قاله صارخة بتأكيد الخطاب لَقَدْ عَلِمْتَ ما هو لِأِيَّ يَنْطِقُونَ، ارتكاسة مثلثة الزوايا بحجة واحدة فى المسرح كان فيها مصرعهم لو ظلوا متبهيين، وهذا وصف ما لحقهم من الخضوع والاستكانة والإطراق عند لزوم الحجة وقد شبهوا بالمتردى على رأسه، تدويخا بنصوع البيان، وإبلاسا عند وضوح البرهان.

و هنا ينتهز الداعية الواعية بكلمتين كالميتين كحجة اخيرة فيها كل تأنيب على ضلالتهم:

قَالَ أَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لَا يَضُرُّكُمْ ٦٦ أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ ٦٧.

أَ تَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ، (٣٧: ٩٦) فعبادة الإله، اما هى لاستجراء نفع وليست هى نافعة لأنفسها فضلا عن عابديها، ام لاستدفاع ضرر، وليس هى ضارة، بل متضررة كما جعلت جذاذا، ام لكمال ذاتى وان لم تنفع او تضر، وهى ميتة لا تشعر، أم وحتى لو كانت تشعر فكيف تعبد وهى لا تنفع ولا تضر، أف لكم، تضجرا وتبرما لصنيعكم، «وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، فقد ضعف الطالب والمطلوب، أَ فَلَا تَعْقِلُونَ؟»

و انها قاله فى حالة تفتضيها قضاء حاسما، استعجابا من السخف الذى يتجاوز كل مألوف و يتجاهل كل معروف، فضربة صارمة قاضية عليهم يفيقون، ام يفعلون كما يشتهون.

هنا لك احترقوا بما فعل، فاخذتهم العزة بالإثم، تجاهلا عما قالوه، وتغافلا عما فعلوه ف:قَالُوا حَرِّقُوهُ وَ انصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فاعِلِينَ ٦٨.

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ، (٣٧: ٧٩) تحريقا عريفا كما احرق أكبادهم حيث جعل آلهتهم جذاذا كونا وكيانا، وجعلهم جذاذا فيما كانوا يعتقدون، فلم يجدوا بدا إلا ان يولّوا وهم لا يولّون، او يعكسوا امر الحرق عليه وقد فعلوا زعم انهم قاهرون.

و يا لها من آلهة كالحة ينصرها عبادها بعد جذاذها! وذلك التحريق هو فى الحق تحريق لأحداث الآلهة بعد جذاذها، ان لا حول لها ولا قوة، حيث هى بحاجة الى نصره عبّادها، وليسوا لينصروها ولو احرقوا ابراهيم!

قالوا، وافتعلوا ما بمكانتهم من ببيان الجحيم، فلما القوه فى الجحيم أصبحت جنه بقالة
تكوينية:

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ٦٩.

و هنا يطوى السياق الحال بين القالين، مما يلوح ان لم يكن لإبراهيم مقال آخر معهم، ولا
مقال مع آخر، وإنما هى الحال والله يرى الحال على أية حال.

فى هذه الحالة المحرجه يروى النبى صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عليه السلام قال: لما أخذ نمرود
ابراهيم ليلقيه فى النار قلت يا رب عبدك و خليلك ليس فى أرضك احد يعبدك غيره، قال
الله تعالى: هو عبدى أخذه إذا شئت، ولما ألقى ابراهيم عليه السلام فى النار تلقاه جبرئيل عليه السلام
فى الهواء وهو يهوى الى النار فقال: يا ابراهيم لك حاجة؟ فقال:

اما إليك فلا، وقال: يا الله يا احد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد
نجنى من النار برحمتك، فأوحى الله تعالى الى النار: كوني بردا وسلاما على ابراهيم^١.

اجل، اما إليك فلا واما الى رب العالمين فنعم^٢.

قلنا، هنا وفى اضرابها من الأمور التكوينية هى الارادة القاطعة الإلهية، فالذى قال للنار كوني
حرقا وايلاما، هو القائل هنا «كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا» والنار هى النار، وقد تلمح له «على إبراهيم»،
إذا فلم تبرد النار حتى تتحول عن ماهية النار، بل بقيت نارا حارة إلا على ابراهيم، ولو لم
يقل «سلاما» بعد «بردا»، لأثلجت ابراهيم ببردها، ولكنها البرد السلام فأصبح ابراهيم كأنه فى

^١ بحار الأنوار ١٢: ٣٩ بسند عن أبي عبد الله عليه السلام قال اختبرني أبي عن جدي عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل قال: ...
وفيه ٣٥ عن الرضا عليه السلام قال: ان ابراهيم لما وضع في كفة المنجنيق غضب جبرئيل عليه السلام فأوحى الله عز و جل: ما يغضبك
يا جبرئيل! قال: يا ربّ خليلك ليس من يعبدك على وجه الأرض غيره سلطت عليه عدوك و عدوه فأوحى الله عز و جل اليه:
اسكت انما يعجل العبد الذي يخاف الفوت مثلك، فاما انا فانه عبيد أخذه إذا شئت قال: فطابت نفس جبرئيل فالتفت الى ابراهيم
عليه السلام فقال: هل لك حاجة، فقال: اما إليك فلا، فاهبط الله عز و جل عندها خاتما فيه ستة أحرف «لا اله الا الله- محمد رسول الله-
لا حول و لا قوة الا بالله- فوضت امري الى الله- أسندت ظهري الى الله- حسبي الله» فأوحى الله جل جلاله اليه ان تختتم بهذا الخاتم
فاني اجعل النار عليك بردا و سلاما.

أقول و ليس هذا الا خاتما بيد خاتم حيث ابراهيم عليه السلام أصبح تجسيدا لهذه الكلمات.

^٢ و فيه عن تفسير القمي مثله الا فيما نقلناه و قبله: هو عبيد أخذه إذا شئت فان دعاني أجبتة فدعى ابراهيم بسورة الإخلاص: يا الله
يا واحد يا احد يا صمد يا من لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا احد نجنى من النار برحمتك.

روضة خضراء معتدلة الهواء، اصطيفائية الفضاء^١.

فما يروى انه ما انتفع أحد بها ثلاثة ايام وما سخنت ماءهم^٢.

كأنه هباء وهراء، حيث النار الابراهيمية كانت تحرق غيره فضلا عن كل نار سواها، ولو بردت النيران كلها لتواترات فوق كل ما حدث في تاريخ الإنسان! ثم لم يكن إذا فى برد النار على ابراهيم آية معجزة لو ان النيران بردت كلها، بما فى ذلك البرد الشامل من ضرر على سكنة الأرض دونما فائدة لهذه الآية الخارقة إلّا بآئدة تقضى على كونها آية قضية الشركة بينها وبين سائر النار.

هذه آية إلهية ابراهيمية دون شك، لا تتحمل أى تأويل يجعلها خارجة عن خارقة، مثل أن تخلى ابراهيم عن كل ما سوى الله حتى عن نفسه جعله لا يشعر بحرق النار، حيث أحرقتة ولم يشعر أو لم تحرقه قضية الانقطاع عن حياة البدن؟.

و لكنها حالة ابراهيمية تقتضى البرد والسلام، لا القالة الربانية، وهى على أية حال لا تقتضى البرد مهما اقتضت زوال الحرّ، فان قصارى هذه الحالة أّلا يتأثر بحر النار، لا ان تبدّل بردا وسلاما!.

و كالقول ان فى ذلك تضادا فى النار لحالة واحدة، انها محرقه كل محترق سوى ابراهيم، وكما أحرقت وثاقه الملقى به فى النار ولم تحرق نفسه.

^١ نور الثقلين ٣: ٤٣٦ عن كمال الدين و تمام النعمة عن مفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال سمعته يقول أ تدري ما كان قميص يوسف عليه السلام قال قلت: لا قال ان ابراهيم عليه السلام لما أوقدت له النار نزل اليه جبرئيل بالقميص و البسه إياه فلم يضر معه حر و لا برد و فيه عن النبي صلى الله عليه وآله ان نمرود الجبار لما القى ابراهيم فى النار نزل اليه جبرئيل بقميص من الجنة و طنفسه من الجنة فألبسه القميص و أقعده فى الطنفسة و قعد معه يحدثه.

١. فى الدر المنثور عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ان ابراهيم حين القي فى النار لم تكن فى الأرض دابة لا تطفى عنه النار غير الوزغ فانه كان ينفخ على ابراهيم فامر رسول الله صلى الله عليه وآله بقتله!

وفى بحار الأنوار ١٢: ٣٨ بسند عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما قال الله عز و جل: يا نارُ كُونِي بَرْدًا و سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ» ما انتفع احد بها ثلاثة ايام و ما سخنت ماءهم و رواه مثله عن أبي جعفر الباقر عليه السلام و فيه: لم يعمل يومئذ نار على وجه الأرض و لا انتفع بها احد ثلاثة ايام ...

أقول: و يقابلها المروي فيه عن الرضا عليه السلام قال: لما رمى ابراهيم فى النار دعا الله بحقنا فجعل الله النار عليه بردا و سلاما» و المروي عن الباقر عليه السلام فى حديث ٤٠ فنزل جبرئيل يحدثه وسط النار قال نمرود من اتخذ إليها فليتخذ مثل آله ابراهيم فقال عظيم من عظمائهم إني عزمت على النيران أّلا تحرقه قال: فخرجت عنق من النار فأحرقتة ...

^٢ الدر المنثور ٤: ٣٢٢- اخرج ابن أبي شيبه و ابن جرير و ابن المنذر عن كعب قال: ما أحرقت النار من ابراهيم إلا وثاقه و فى نور الثقلين ٣: ٤٣٩- القمي عن الصادق عليه السلام فى حديث النار فإذا هم بإبراهيم مطلقا من وثاقه ...

و ليس فى نسيبئ الإحراق تضاد التناقض حتى يكون من المحال، وما سواه ممكن بجنب القدرة الإلهية على أية حال، كما الزمهير فى النار والنار معه لا يتناحران.
أو انه ألبس قميصا من صنيع الله هو ضد الحرارة^١ ولا بأس به حيث الخارقة الإلهية لا تحرق ضوابط العلية والمعلولية، وانما تقفزها قفزة لا يستطيعها إلا الله، ولكن القميص ضد الحرارة لا يمنع المواضع الخارجة عنه، فعلى أية حال كوتت النار على ابراهيم بردا وسلاما بما أراد الله بقميص وغير قميص!.

وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ٧٠.
فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ، (٣٧: ٩٨).

هم 'أرادوا به كيدا، ليحرقوه إحراقا لدعوته، واجثاا لدعايته 'فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ' إحراقا لأكبادهم فى ذلك المسرح الصارح الصارح حيث يسمعه كل العالمين.
وَ نَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ٧١.

لقد ضرب السياق عن مصير ابراهيم بعد البرد السلام صفحا، وقضية الحال ان الطاغية لم يسطع ان ينكل به بعد حيث أرغم فى أشد نكاله به، و نجينا، هنا إجمال عن نجاته من يد الطاغية، نجينا، من بابل نمرود، و لوطا، من سدوم وهى 'الْقَرْيَةُ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ، (٧٤) نجينا هما 'إلى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ، وهى القدس الشريف او الفلسطين ككل وهى الشام فى إطلاقها العام، الشاملة للأردن وسوريا ولبنان.
وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ ٧٢.

هذه الوهبة المباركة بجمعية الصفات، اللامحة لمجموعة من الرحمات، هى 'نافلة': زائدة على سائر هباته الموهوبة، هبة منفصلة بعد متصلة، هى استمرارية للكيان الابراهيمى على طول خط الرسالة العظيمة الاسرائيلية التى تضم الوفا موفاة من النبيين والمرسلين.
و قد تعنى 'نافلة'، - فيما عنت - نسبة إلى 'إسماعيل'، فانه اول وهبة زمنية ورتيبا: 'فأرادوا به

^١ بحار الأنوار ١٢: ٤٠ تفسير الإمام ١١٥ قال الإمام قال النبي صلى الله عليه وآله في احتجاجه على اليهود بمحمد وآله الطيبين نجى الله تعالى نوحا من الكرب العظيم، و برد الله النار على ابراهيم و جعلها عليه بردا و سلاما و مكنه في جوف النار على سرير و فراش وثير لم ير ذلك الطاغية مثله لأحد من ملوك الأرض و أنبت من حواليه من الأشجار الخضرة النضرة النزهة و غمر ما حوله من انواع النور بما لا يوجد الا في فصول اربعة من السنة.

كيدا فجعلناهم الأسفلين. وقال انى ذاهب الى ربي سيهدين. رب هى لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعى ... وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين، (٣٧: ٩٨-١١٧).

إذا وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ، تحقيق لسؤاله فى سوِّله: «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ» وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن فى ذريتهم من رسل وأئمة ونبين، فهذه الهبة تحلَّق على كافة الرسالات والقيادات المعصومة منذ إسماعيل وإسحاق ويعقوب إلى كافة المرسلين الاسماعيليين والاسرائيليين، وهاتان الرسالتان هما كل خطوط الرسالات الإلهية منذ ابراهيم الى يوم الدين.

و يا لها من هبة عظيمة قائمة الأصول، منتشرة الفروع، حيث تشمل كافة الرسالات والإمامات، اصالة فى الاسماعيلية المحمدية مهما كانت خاتمتها، وفرعا فى الإسحاقية الاسرائيلية، مهما كانت من بدايتها، هكذا:

وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣).

و «هم» فى ذلك الجعل العظيم: ابراهيم وإسماعيل ومحمد والمعصومون من عترته، كذلك وإسحاق ويعقوب والمرسلون من عترته، مهما اختلفت درجات الإمامة والهداية بأمر الله بينهم، فمنهم أئمة اربعة من اولى العزم من الرسل محمد و ابراهيم وموسى وعيسى، ثم الاثنى عشر المحمديون، وهم فى درجته العليا إلَّا الوحى، ومن ثم إسماعيل وإسحاق والرسل الاسرائيليون.

فحين يفسر «هم» بأئمتنا المعصومين^١ فهو تفسير باصدق المصاديق وأعلاها بعد الرسول

^١ نور الثقلين ٣: ٤٤١ فى كتاب المناقب عن النبي صلى الله عليه وآله حديث طويل فى فضل علي وفاطمة عليهم السلام و فيه قال صلى الله عليه وآله: و ارزقهما ذرية طاهرة طيبة مباركة و اجعل فى ذريتهما البركة، و اجعلهم أئمة يهدون بأمرك الي طاعتك و يأمران بما يرضيك و فيه فى اصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ان الأئمة فى كتاب الله عز و جل امامان قال الله تبارك و تعالى «وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» لا يأمر الناس، يقدمون ما امر الله قبل أمرهم و حكم الله قبل حكمهم قال: و جعلناهم أئمة يدعون الى النار- يقدمون أمرهم قبل أمر الله

و حكمهم قبل حكم الله و يأخذون بأهوائهم خلاف ما فى كتاب الله، و فيه و فى العيون عن الرضا عليه السلام فى حديث الامامة قال: ثم أكرمه الله عز و جل يعنى ابراهيم بان جعلها يعنى الامامة فى ذريته و اهل الصفوة و الطهارة فقال عز و جل: وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ» فلم تزل فى ذريته يرثها بعض عن بعض قرنا قرنا حتى ورثها النبي صلى الله عليه وآله فقال الله جل جلاله: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ

محمد صلى الله عليه وآله وبعدهم هم كافة الرسل الإبراهيميين.

«و جعلناهم، هوُاء المصطفين - ككل - من ذكروا هنا ومن يذكروا، أئمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، فكما جَعَلْنَاهُمْ أئمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، كذلك هم يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، فان بأمرنا، متعلق بكليهما، فالإمامة المجعولة بأمر الله، هي الهادية بأمر الله، هدى معصومة من امامة معصومة لا قصور فيها ولا تقصير:

فليست الإمامة الهادية بأمر الأمة شورى وسواها، ولا بأمر الإمام معصوماً وسواه، وانما الإمامة بجعل الله، وهدايتها بأمر الله لا سواه وحتى رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ لا يسمح له ان يجعل إماما معه أم يخلفه بعده.

و «يهدون» يعم التكوينية وهي الإيصال الى الهدى، الى جانب التشريعية وهي الهدى نفسها، فهم يهدون الناس بشرعة الله بأمر الله، ويهدونهم توفيقاً للهدى بأمر الله، فلا هم أنفسهم يهدون تشريعياً ولا تكوينياً، وانما هم اداة رسالية بيانا لشرعة الله، وإيصالا الى هدى الله: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» (٢٨: ٥٦) ف «أَلَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» (٣: ١٢٨) وكما ان كلتا الهدايتين للأئمة رسلا وسواهم، هما بوحى الله وامره، كذلك «فَعَلَّ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءَ الزَّكَاةِ، حَيْثُ «أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ..» لا - فقط - كيف يفعلون؟ فانه وحى الشرعة، بل نفس ما يفعلون، فانها بوحى الله، عصمة و تسديدا من الله، وليس ذلك الوحي فوضى جزاف دونما صلاحية لهم مسبقه، بل «وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ، قَبْلَ مَثَلِ الْوَحْيِ، حَتَّى اسْتَحْقَوْهُ فَاصْطَفَاهُمْ اللَّهُ لَهُ رَسَالِيَا أَمْ سِوَاهُ.

بإبراهيم للَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» فكانت خاصة ... وفي تفسير البرهان ٣: ٦٥ ابن بابويه بسند متصل عن زيد بن علي قال كنت عند أبي علي بن الحسين عليه السلام إذا دخل عليه جابر بن عبد الله الأنصاري فيبينما هو يحدثه إذ خرج اخي محمد من بعض الحجر فأشخص جابر ببصره نحوه ثم قال يا غلام أقبيل فأقبيل ثم قال أدبر فأدبر فقال شمائل رسول الله صلى الله عليه وآله ما اسمك يا غلام؟ قال: محمد قال: ابن من؟ قال ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إذن أنت الباقر عليه السلام فاتكى عليه و قبل رأسه و يديه ثم قال يا محمد ان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لك السلام، قال: و على رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل السلام و عليك يا جابر بما فعلت، ثم عاد الى مصلاه فأقبيل يحدث أبي و يقول ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي يوما يا جابر إذا أدركت ولدي محمدا فاقراه مني السلام اما انه سمي بي و أشبهه الناس بي علمه علمي و حكمه حكمي سبعة من ولده أمناء معصومون أئمة ابرار السابع منهم مهديهم الذي يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت جورا و ظلما ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله: و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا و أوحينا إليهم فعل الخيرات و اقام الصلاة و إيتاء الزكاة و كانوا لنا عابدين.

وفيه محمد بن العباس .. عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال عليه السلام يعني الأئمة من ولد فاطمة عليها السلام يوحى إليهم بالروح في صدورهم ثم ذكر ما أكرمهم الله به فقال: فعل الخيرات.

هذه هي الامامة المعصومة لا تجعل إلا بأمر الله، كما هدايتهم للناس بأمر الله بنص خاص، ولتكن كذلك الإمامة غير المعصومة في أية درجة من درجاتها بأمر الله، ان تنطبق على النصوص الواردة في شروط الامامة، حيث القيادة الروحية هي من اختصاصات الربوبية، فلا تصلح لمن سواه إلا بامر.

وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَرِيْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ٧٤.

علّ «حكما» هو حكم القيادة الروحية، و «علما» علمها بماذا يقود وكيف يقود وهذه هي الإمامة والقرية، هي سدوم وتعمل الخبائث، مؤثا قضية ادب اللفظ، حيث حلقت خبائث أهلها جوها تماما لحد كآنها كانت تعمل الخبائث، ثم وانهم، مذكرا قضية المعنى وهم عاملوا الخبائث «كانوا قوم سوء فاسقين»... نجيناها الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، فكان مع ابراهيم وفي حضن رسالته وإمامته، مع انه ايضا كان اماما لأمة.

وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ٧٥.

و هكذا يكون دور كل صالح في ميزان الله انه يدخله في حرمة قدر صلاحه وصلوحه، رحمة في النشآت الثلاث، والرحمة الأخيرة هي حق الخلاص.

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ٧٦.

و نوحا، ومن بعده عدة من هوءاء الأئمة، منصوبين إعرابا لأنهم منصوبون كسائر الأئمة في جعلناهم أئمة.

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٣٧: ٧٥) نادانا، بقوله «رب انى مغلوب فاتتصر»... و

حملناه على ذات ألواح ودسر، تجرى بأعينا جزاء لمن كان كفرا (٥٤: ١٤)

و الكرب العظيم، هو الغم الشديد والهم المديد من تماديهم فى الطغيان، وهو الطوفان

الشامل، كما و اهله، أهل كقرينة على ثانى الكربين، ومنهم من آمن معه فى غير اهله، و

أهلك إلا من سبق عليه القول و من آمن و ما آمن معه إلا قليل... (١١: ٤٠).

و نصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ٧٧.

و لأن نوح من اولى العزم من الرسل، فشرعته عالمية تحلق على كافة المكلفين، إذا

فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ، يستغرق كافة المكذبين به فى الكرة الأرضية كلها.

ابراهيم و ملكوت و السماوات و الأرض

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَأُ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَ كَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّكْرِ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَ حَاجَّةً قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانِ وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ نُوْحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَ مِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِبْرَاهِيمَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطًا وَ كَلَّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَ مِن آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُوَ فَقَدْ وَّكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)

هذه أربعة عشر آية هى بجملتها تتناول موضوعا متصل الفقرات فى بناء العقيدة، تعريفا شاملا عريفا عريفا بالألوهية الحققة الحقيقية وحق العبودية الصالحة وما بينهما من صلوات، تعالجها هذه الآيات فى أسلوب قصصى.

و هذا الدرس البالغ لقمته، فيه عرض لموكب الإيمان الرسالي منذ نوح إلى خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وآله طالعا في مطلعته مشهد رائع للحجة الإبراهيمية الراسمة لحكم الفطرة السليمة، تحرياً عن رب العالمين، هو بظاهرة تعلم في سيرة التعليم إذ كان موحداً منذ بزوغه، لم يكفر به - ولن - طرفه عين:

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرَأَ تَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤):
 هنا «أبيه أزر، ولا ثانية لها في القرآن إلا «أبيه، دون «أزر، والقصد منه غير والده كما هو المتأكد من آيات عدة، فقد بدأ قومه ومنهم أزر المسمى بـ «أبيه، بالتنديد على عبادة الأصنام، أ تَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، ورغم الحظر عن الاستغفار للمشركين يعده الاستغفار حين يتلمح من كلامه معه انه في حالة التحري: «قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَ أَهْجُرْنِي مَلِيًّا. قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا، (٤٨: ١٩) ولقد أنجز له وعده قبل ان يتبين له انه عدو لله: «وَ اغْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ، (٢٦: ٨٦) إذ ما كان للنبى و الذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين و لو كانوا أولى قُربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. و ما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدّها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم، (٩: ١١٤).

ذلك، فقد تبرء منه حتى آخر عمره وانجاز أمره، ولكنه نسمعه حين يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل يدعو لوالديه: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ، (١٤: ٤١). إذا فوالده هنا غير أبيه هناك، فهو عمه دون والده، ولا جده من أمه لأنه أيضا والده، وإلا لكان نقضا لعصمة الخليل والخليل حيث أنبا: «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَقَضِيَّةٌ طَلِقَ التَّبَرُّوًّا أَلَّا يَسْتَغْفِرَ لِأَزْرٍ، فلما استغفر لوالديه في آخر عمره ونهاية أمره وقد تبين أن أزر عدو لله نتأكد أن والده غير المعنى بأبيه!.

^١ كما في ٩: ١١٤ و ١٩: ٤٢ و ٢١: ٥٢ و ٢٦: ٧٠ و ٣٧: ٨٥ و ٤٣: ٢٦ و ٦٠: ٤.

^٢ راجع لتفصيل المبحث الى آية التوبة ١١٤ و الممتحنة (٤) ج ٢٨: ٢٧٥ و ابراهيم (٤١) ج ١٣ و مريم (١٦: ٣٣٣) تجد قولاً فصلاً حول أن أزر لم يكن والده عليه السلام، و وجه التعبير بالأب عن غير الوالد في آيات عدة.

و ... أ تَتَّخِذُ أَصْنَامًا مَنكُورَةً، هِيَ مِنْ صِنْعِ الْمَصْنُوعِينَ، تَتَّخِذُهَا «آلَهُةً»، كَمَا اللَّهُ، إِشْرَاكَ لَهَا بِاللَّهِ، «إِنِّي أُرَاكَ وَ قَوْمَكَ، التَّابِعِينَ لَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، يَبِينُ ضَلَالَهُ لِأَصْحَابِ الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ». هنا «أصنامًا، منحوتة بأيديهم وما أشبهه من المصنوع، تنكير لنكير الأصنام، تنكيراً فطرياً و عقلياً بل وحسباً لاتخاذها آلهة، فهو استفهام انكارى بأشده، منقطع النظير بأشده، يستأصل الأصنام وأضرابها عن كافة شؤن الألوهية.

وَ كَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ (٧٥):

و كذلك، البعيدة المدى، العميقة الصدى لملكوت الأصنام وما شابهها من السماوات والأرض نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ...، حيث استطاع أن يتغلب في كل حقول الحجاج مع أبيه ومع قومه ومع نمرود الطاغية ليكون .. «وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ» ونتيجة لهذه الإرادة الربانية، فَلَ مَا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ...

أجل، وكلما زادت روعة ملكوت الكون وكيانه تعلقاً بالله، زاد الرائي يقيناً أكثر بالله، فلأن التعلق بالله درجات، فملكوته أيضاً في أنفس معتقديها درجات، كلما كان السلب أقوى و أعمق كان الإيجاب - على ضوءه - أعمق وأقوى، بل ولا نصيب للخلق في معرفة الله إلا مجالات السلب، ف لا إله، تنفى الألوهة عن كل الكائنات بحذافيرها، ثم «إلا الله تثبت حق الألوهة له تعالى، ولكن ما هو وما هي صفاته وأفعاله؟ لا نصيب له هنا إلا السلب، موجود يعنى ليس بمعدوم، عالم يعنى ليس بجاهل وهكذا الأمر .. ف «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ، إِيَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ».

و هنا تساؤلات عدة حول هذه الآية، منها ما هي الملكوت، وأخرى ألم يكن إبراهيم قبل هذه الروعة من الموقنين بالله، وإذا فكيف كان يوبأه وقومه بشركهم أنهم في ضلال مبين، وثالثة بما ذا يعطف العاطف في «و ليكون ... ولا معطوف عليه ظاهراً يعطف عليه؟».

قد يكون المعطوف عليه «ليحتج على المشركين، كأصل في حجاجه «وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ، الأولين في تلك الآراء الملكوتية، إيقاناً فوق إيقان فإيماناً فوق إيمان، حيث الإيقان فالإيمان درجات حسب درجات روعة الملكوت، فما أريه إبراهيم من الملكوت له جانبان اثنان ثانيهما وهو الأعمق «لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ، والأول وهو الممكن تفهمه لمتحرى الحق فقر

الكائنات كلها إلى ربها، وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِّنِينَ، الرسالين وهم أفضل الرسل والنبين، لا كلّ الموقنين بل الموقنين القمّة كإبراهيم عليه السلام.

ذلك، ولروّة الملكوت خلقيا- وهي مفروضة على كلّ السالكين إلى الله- درجات، وروّة الفطرة، وروّة العقلية الإنسانية على ضوء الفطرة والروّة الحسية والعلمية، وروّة بالوحي يكملها كلها، كما ولكلّ درجات، فليست روّة الملكوت- إذا- نسقا واحدا وشكلا فاردا، ومن ثم روّة خالقية ربانية علميا وقيوميا خاصة بالله.

و النظرتان الأوليان إلى ملكوت السماوات والأرض هما المفروضتان على كافة المكلفين، ذوى الفطر والعقول، والأبصار والبصائر، وقد يندد بمن لا ينظر بها إلى الملكوت: «أ وَ كَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ...» (٧:١٨٥) و هذه هي الملكوت العامة التي يجب النظر إليها بعين الفطرة والعقلية الإنسانية، بعين البصر ثم البصيرة.

و هذه الروّة لا تتجاوز علما ما بماهية الكون من تعلقه بالله، فلا إله إلّا الله، ثم هناك روّة علمية وقيومية تختص بالله وهي روّة أخص الخاص: «فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، (٣٦: ٨٣) «قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ»، (٢٣: ٨٩).

هذه وتلك ملكوتان بينهما بون كبير، ثم بينهما وسيطة تختص بإراءة الوحي، وهي روّة الخاص، كروّة إبراهيم ملكوت السماوات والأرض^١ فإيقانه أيضا هو المناسب لروّةه، إيقان بعصمة ربانية ليس كسائر الإيقان الحاصل بفطرة وعقلية إنسانية مهما بلغت ما بلغت من قممها، فإنها ليست لتصل إلى عصمة طليقة تحصل بإرادة الله، المعبر عنها ببرهان الرب: «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، (١٢: ٢٤) اللهم إلّا كنموذج تصديقا لروّة

^١ نور الثقلين ١: ٧٣٢ عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كسطله عن الأرض و من عليها و عن السماء و من فيها و الملك الذي يحملها و العرش و من عليه و فعل ذلك كله برسول الله صلى الله عليه وآله و أمير المؤمنين عليه السلام و فيه عن كتاب الاحتجاج حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وآله يقول فيه: يا أبا جهل أما علمت قصة إبراهيم الخليل عليه السلام لما رفع في الملكوت و ذلك قول ربي «وَ كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ...» قوى الله بصره لما رفعه دون السماء حتى ابصر الأرض و من عليها ظاهرين و مستترين».

الملكوت^١ وبقدر ما يتقى العبد ربه يرزق رَوْهُ للملكوت، ولكنها على أية حال ليست إلّا دون العصمة الرسولية والرسالية في هذه الروّة، وكما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: طوبى للمساكين بالصبر وهم الذين يرون ملكوت السماوات والأرض^٢، وقال صلى الله عليه وآله: لو لا تكثير في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع وقد قال تعالى: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ».

وعن الصادق عليه السلام: لو لا أن الشياطين يحمون حول قلوب بنى آدم لرأوا ملكوت السماوات والأرض.

و هنا في ارادة إبراهيم ملكوت السماوات والأرض نتائج عدة رسولية ورسالية، أهمها المذكور هنا: «وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِّنِينَ، فإنه المحور الأساس في بناء الرسالة رسوليا ورساليا. وهذه الإراءة لإبراهيم - هنا - الخاصة بمعرفة الله كما تناسب محتده، تثنى في أخرى هي الإيقان بحقيقة المعاد: «إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَ لَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي... (٢: ٢٦٠) وقد كان موقنا أنه تحيي الموتى، ولكنه هنا يتطلب الإيقان ب «كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى» إيقانا معرفيا بفعل الرب على قدر دون كل الأقدار الخاصة بالله إبراهيم الخليل كان عارفا ربه الجليل «من قبل» وعله منذ ولاده:

«وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٢١: ٥٢) والحجة التالية عرض لموقف الفطرة والعقلية السليمة بمعرض قومه المشركين، نبهة لهم لعلم يذكرون.

اجل «وَكَذَلِكَ نُرِي إِرَاءَهُ تَوَاصِلَةً لَا انْقِطَاعَ لَهَا، ولأنها أصل العصمة الربانية لإبراهيم

^١ نور الثقلين ١: ٧٣٠ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب جابر بن يزيد قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ...» فرفع أبو جعفر عليه السلام بيده وقال: ارفع رأسك فرفعته فوجدت السقف متفرقا و رمق ناظري في تلمة حتى رأيت نورا حار عنه بصري فقال: هكذا رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، وانظر إلى الأرض ثم ارفع رأسك فلما رفعته رأيت السقف كما كان ثم أخذ بيدي وأخرجني من الدار واليسني ثوبا وقال: غمض عينيك ساعة ثم قال: أنت في الظلمات التي رأى ذو القرنين ففتحت عيني فلم أر شيئا ثم تخطى خطا فقال: أنت على رأس عين الحياة للخضر ثم خرجنا من ذلك العالم حتى تجاوزنا خمسة فقال: هذا ملكوت الأرض قال غمض عينيك وأخذ بيدي فإذا نحن بالدار التي كنا فيها و خلع عني ما كان البسنيه فقلت فداك كم ذهب من اليوم؟ فقال: ثلاث ساعة.

^٢ نور الثقلين ١: ٧٣٣ عن الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال النبي صلى الله عليه وآله...

الخليل، فلا تعنى 'نرى' إراءة لاحقة، ولا- فقط- حكاية حال ماضية، بل هي إرادة استمرارية طول عمره ولا سيما في طائل أمره الرسالي، إراءة تحلق على كيانات العصمة رسلا وأئمة يخلفونهم، ولا سيما محمد صلى الله عليه وآله والمعصومون من عترته عليهم السلام¹.

كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، بما فيهما من أصنام وأوثان وطواغيت وسواها من الكائنات، فإن رُوهُ حق الخلق وحقه رُوهُ لحق فعل الخالق قدرها، مهما كانت الروهُ الطليقة خاصة بالله، فلا يعرف نفسه كما هو إلّا هو، ثم من يعرفه نفسه بما يريه من ملكوت خلقه، فإن ملكوته نفسه لا ترى إلّا لنفسه، وكما يروى عن أول العارفين والعبادين: «ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك».

صحيح أن رُوهُ الفطرة الأصيله، غير المحجوبة، هي أصل الروهُ، ثم رُوهُ العقل الذي يتبناه هي فصل الروهُ عن إجمالها، ولكنها مع رُوهُ العلم والحس لا تكفي عصمة طليقة في أصل الروهُ وفصلها، اللهم إلّا قدر ما كلف العباد بما وهبوا من طاقات للمعرفة، ولو لا أن الشياطين....

فإبراهيم الخليل هو من أولئك المعصومين الأكارم الذين أراهم الله ملكوت الكائنات بأسرها كما يمكن لمخلوق، مهما كانت هذه الإرادة أيضا درجات، من علم اليقين إلى عين اليقين وإلى حق اليقين، كما ولكل درجات.

و لأن صور الروهُ الملكوتية للكون والمكون درجات، فقد رأى محمد صلى الله عليه وآله ربه في أحسن صورة² رُوهُ معرفية بقلبه وكما رأى من آيات ربه الكبرى ببصره وبصيرته في

¹ المصدر في الخرائج و الجرايح عن ابن مسكان قال: قال ابو عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: «وَ كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ . . .» قال: كَشَطَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ السَّمَاوَاتِ حَتَّى نَظَرَ إِلَى مَا فَوْقَ الْأَرْضِ وَ كَشَطَتْ لَهُ الْأَرْضَ حَتَّى رَأَى مَا تَحْتَ نَجْمِهَا تَخَوْمِهَا وَ مَا فَوْقَ الْهَوَى، وَ فَعَلَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَ إِنِّي لَأَرَى صَاحِبِكُمْ وَ الْأئِمَّةَ مِنْ بَعْدِهِ فَعَلَّ بِهَمِّ مِثْلَ ذَلِكَ، وَ سَأَلَهُ أَبُو بَصِيرٍ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كَمَا رَأَى ذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ قَالَ: نَعَمْ وَ صَاحِبِكُمْ وَ الْأئِمَّةَ مِنْ بَعْدِهِ». وفيه عن كتاب الخصال عن يزداد بن ابراهيم عن حدثنا من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول قال امير المؤمنين عليه السلام و الله لقد أعطاني الله تبارك و تعالى تسعة أشياء لم يعطها أحدا قبلي خلا النبي صلى الله عليه وآله: فتحت لي السبل و علمت الأسباب و اجري لي السحاب و علمت المنايا و البلايا و فصل الخطاب و لقد نظرت في الملكوت بإذن ربي جل جلاله فما غاب عني ما كان قبلي و ما يأتي بعدي...».

² في الدر المنثور اخرج احمد و ابن جرير و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن عبد الرحمن بن عائش الخضرمي عن بعض اصحاب النبي صلى الله عليه وآله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: رأيت ربي في احسن صورة فقال: فيم يختصم الملاء الأعلى يا محمد! قلت: أنت اعلم أي رب فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي قال فعلمت ما في السماوات و الأرض ثم تلا هذه الآية: «وَ كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ ...»

معراجِه، وَ لَقَدْ رَأَهُ نَزَلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى، (٥٣: ١٨).

و لأنّ كَذَلِكَ نَرِي... تحمل إراءة دائمة لإبراهيم وهذه الحجة طرف من أطرافها فليست هذا ربي، تصديقا ولا شكًا فإنهما ينافيان الإيقان دون العصمة فكيف يجتمعان مع إيقان العصمة؟، كما وأن تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، دليل أنها من إراءة الملكوت، ولم تكن حجة على نفسه، لسابق توحيدِه وسابغُه.

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ (٧٦):

موقف حاسم جازم من مواقف حجاجه على المشركين في حفلة سماوية، فلئن قضى على ألوهة آلهة السماء- التي هي الأصيلة عند عبديها، وأصنام الأرض ليست إلًا ممثلة لها، كما هي تمثل إله السماوات والأرض- فهو القضاء بأحرى على آلهة الأرض.

ذلك وكما له موقف آخر في حفلة أرضية مع آلهة الأرض فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، وكذلك مواقف أخرى تشبها لوحدة الإله لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ.

في ذلك الحجاج نرى حسما لألوهية النجم والقمر والشمس، مما يدل على أن الخليل يحاج هنا عبدة الأجرام السماوية، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا، وهو أوّل ظاهرة من الكواكب بداية الليل، فهي الزهرة، قال هذا ربي، على الإنكار والاستخبار، لا التصديق والإخبار أو

أقول: «صورة» هنا هي كما تناسب رؤية الرب وهي الصورة العليا المعرفية، ويده تعالى هي يد الإراءة للملكوت، فأين صورة من صورة وإراءة من إراءة؟

^١ نور الثقلين ١: ٧٣٥ في عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء و بسند متصل عن علي بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله أليس من قولك من الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فأخبرني عن قول الله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي» فقال الرضا عليه السلام: ان إبراهيم صلى الله عليه وآله وقع على ثلاثة اصناف صنف يعبد الزهرة و صنف يعبد القمر و صنف يعبد الشمس و ذلك حين خرج من السرب الذي أخفى فيه «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ» رأى الزهرة قال هذا ربي على الإنكار و الاستخبار، فلما اقل الكوكب «قال لا أحب الأفلين» لأن الأول من صفات المحدث لا من صفات القديم «فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي» على الإنكار و الاستخبار فلما اقل قال لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين، يقول: لو لم يهديني ربي لكنت من القوم الضالين فلما أصبح رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر من الزهرة و القمر على الإنكار و الاستخبار و الإقرار فلما أفلت قال للأصناف الثلاثة من عبدة الزهرة و القمر و الشمس «يا قوم أني بريء مما تشركون أني وجهت وجهي للذي فطر السماوات و الأرض خنيقا و ما أنا من المشركين» و إنما أراد إبراهيم بما قال ان يبين لهم بطلان دينهم و يثبت عندهم ان العبادة لا تحق لمن كان بصفة الزهرة و القمر و الشمس و انما تحق العبادة لخالقها و خالق السماوات و الأرض و كان ما احتج به على قومه ألهمه الله و آتاه كما قال الله تعالى: «و تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ» فقال المأمون: «الله درك يا الحسن».

سَوَّلَ الْإِنْكَارَ، بل على المجازاة فى الحجَّة التى توغل الخصم فى الحجَّة، كيف وقد أرى ملكوت السماوات والأرض، ورمى أباه أزر وقومه المشركين من قبل بضلال مبين، ومن بعد «إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، دون «برئت، أو مما تشرك، ثم «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، دون «لا أشرك، فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ... إنه غاب فى نفسه وغاب عن الخلق. فمن ذا الذى يرمى ربوبية إذا كان الرب يغيب، لا- إنه ليس ربا حيث الرب لا يغيب، وإنه منطلق الفطرة بعيدا عن الجدليات المنطقية والفلسفية المصطلحة، منطلق يفهمه كل ذى فطرة سليمة.

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَاذِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧):

و هذا هو شأن المتحرى عن ربه الذى عرفه بفطرته وعقليته انه الوجود الطليق الذى لم يزل ولا يزال فلا أقول له ولا أية حركة، فلإنه يعرف ربه يسأله ملتصقا فى تحريره لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ الذين ضلوا عن ربه فى التيه، ضلالا عن ميثاق الفطرة!

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَاذِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفْلَحَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨):

فلأن هذا أكبر فعلة لا يأفل كما أفل صاحبه، فَلَمَّا أَفْلَحَتْ، ثم لم يجد أكبر منها فاستأصل- إذا- فى ذلك الحجاج ربوبية أجرام السماء، قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، أنتم بالله و لست أنا منكم.

و علّ هذا، هنا بدل «هذه، رعاية ل «ربي، ورعاية لهم تماشيا منهم فى ربوبية الشمس فقد عنى «هذا، الكائن النير «ربي».

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩):

«إنى، متأكدا دون ارتياب «وجهت، منذ عرفت نفسى لا فحسب من الآن «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ، بكلّ وجوهه واتجاهاته، لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، حيث المحدودية والأقول دليل الإنفطار، والفطرة المتحرية عن الله لا يصدق محدودا أفلا أنه هو الله، فكما الفطرة تتحرى عن الفاطر

^١ نور الثقلين ١: ٧٣٦ فى تفسير العياشي عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام فى قول إبراهيم صلوات الله عليه «لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ» اي: ناسيا للميثاق و رواه مثله عنه عليه السلام مسعدة.

غير المنفطر، كذلك الخلق المنفطر دليل على الفاطر غير المنفطر، تجاوبا بين كتابي الآفاق والأنفس في توحيد الله.

و هنا «فطر» لمحّة لامعة إلى قضية دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأنها تحكم بانفطار الآفلين، فانفطار المنفطرين دليل فطر الفاطر وما أحسنه دليلا! فقد فطر الله الإنسان على معرفته، وفطر الكائنات دليلا على ربوبيته، وهى كلها آياته: «سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ...».

فإبراهيم الخليل يصوّر هنا في حجاجه صورة التحرى عن ربه في مظهر الشاكّ بديلا عمّن كانوا يعبدون هذه الإجرام، ف «هذا ربي» هى من مقاتلهم وهو ينقلها لينقلهم منها إلى الذى فطر السماوات والأرض.

فمهما كانت «هذا ربي» إشراكا ممن يعتقدده، فلم يكن من إبراهيم شرك وإنما كان فى طلب ربه وهو من غيره شرك^١، وإنه من فكر من الناس فى مثل ذلك فإنه بمنزله^٢.

فالشك المتحرى عن يقين هو شكّ مقدّس فيعتبر من الإيمان، والشك المدنس هو الجامد الجاحد دون أى تحرر إلّا تجريا على الحق المرام.

ثم إن هذه الطريقة هى أقرب إلى الدعوة والإنصاف فى الحجاج، وأبعد عن الشغب والاعتساف، وليس كذبا محرما لأنه فى مقام الإصلاح والإنصاح عن الحق المرام، ثم وقصد الاستنكار وإن لم يظهر يخرجه عن الكذب إلى التورية حيث ورى بصورة الإخبار و القصد هو الاستنكار.

ثم وهذه الأفولات الثلاث كانت براهين على بطلان ثالوث الربوبية للنجم والقمر والشمس بحكم الفطرة الحكيمة الحاكمة فى كلّ قليل وجليل.

فلأن الفطرة تحب الكمال المطلق حبا فى حقل الربوبية، ولا تجد مطلوبها فى هذه الكائنات،

^١ نور الثقلين ١: ٧٣٧ من تفسير القمي و سنن أبو عبد الله عليه السلام عن قول ابراهيم «هذا ربي» أشرك في قوله: هذا ربي؟ فقال: لا. بل من قال هذا اليوم فهو مشرك، و لم يكن ...

^٢ المصدر ٧٣٨ فى تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال فى ابراهيم عليه السلام إذا رأى كوكبا قال: إنما كان طالبا لربه و لم يبلغ كفرا و انه من فكر ...

فليكن مطلوبه خارجا عن عالم الحس والحيطه العقلية.

فإبراهيم المتحرى عن ربه فى مجاله الحوار، لما لا يجده فى كوكب يلمع ولا فى قمر يطلع، ولا فى شمس تسطح، فبأحرى لا يجده فيما دون هذه المشرقات مهما شرق وغرب، فهو واجده فى فطرته أنه لا حد له ولا أفول، فليس هو ماله حد وأفول.

و هكذا يلتقى إبراهيم عصاه فى حران بين عبدة الأصنام عساه يجد آذانا مصغية وعقولا ناضجة غير معقولة بطوع الهوى، فاختار لرشدهم حجاج التجاوب بين الفطرة والعقل والإحساس، فلما جنّ عليه الليل، وستره ظلامه رأى، كوكبا، مما كانوا يعبدون، فجاراهم فى زعمهم دون مجابهة عنية، حاكيا مقالهم «هذا ربى، كأنه صلوات الله عليه منهم، لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين، أى: ناسيا للميثاق طريق فى الحوار طريف حكيم، ومنهج فى الحجاج قويم، وهذه أدعى إلى إنصاتهم لمقاتله فإنها مقاتلتهم، ثم كرّ على المقالة من طريق خفى ينبئ عن سداد رأيه ونفاذ بصيرته، فلما أفل هذا الكوكب تحت الأفق فنفقده فلم يجده، وبحث عنه فلم يره قال «لأحبّ الأفلين»

فكيف يكون الإله أفلا غافلا عن خلقه، فذاتية الأفول دليل على ذاتية الحاجة والحدوث، والفطرة الإنسانية تتطلب إليها لا يأفل ولا يغفل، بل هو إله لا أزلى أبدى لا أول له ولا آخر وهو الأول والآخر.

فلما رأى القمر بازغا، وهو أسطح نورا من ذلك الكوكب ومن كل كواكب السماء، وأكبر منه حجما قال هذا ربى، تدرجا فى تحريره إلى الحق المرام وهو الكمال المطلق ومطلق الكمال، استدراجا لهم واستهواء لقلوبهم تمشيا بأقدام الفطرة فى تحريرها، فلما أفل هذا الأنور والأكبر كما الأصغر، قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين، عما فطروهم عليه من معرفة اللامحدود، تبيانا أن الله هو مصدر الهدى ومانح التوفيق لها عن الردى، فلما رأى الشمس بازغة، يتألق نورها وينبعث منها شعاعها وقد كست الأفق جمالا وملأت الأرض زينة ودلالا، قال هذا ربى هذا أكبر، فلأنه أكبر قد لا يأفل والفطرة متحرية عن الكبير الذى لا يصغر، فلما أفلت، كسائر الأفلين حكم على جماعة عبدة الكواكب وأمثالها من الأفلين - وكل الكائنات أفلة مهما اختلفت المظاهر - حكم عليهم بالإشراك وبراءته عنه، قال يا قوم إننى برىء مما

تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ بِكُلِّ وُجُوهِهِ الْفَطْرِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَالْقَلْبِيَّةِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَفَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا مَعْرُضًا مِمَّا تُشْرِكُونَ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

أَجَلٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ، وَمَنْ قَبْلَ الَّذِينَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي، وَفِي أُخْرَى لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، هِيَ عَسَاكِرُ مِنَ الْبَرَاهِينِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْتَقِدُ مَا كَانَ يَكْفُرُ بِهِ: «هَذَا رَبِّي، فَإِنَّمَا كَانَ مَجَارَاهُ فِي حِجَابِهِ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَجْرَهُمْ إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ.

ذَلِكَ، وَليست الربوبية المنكورة لغير الله ربوبية الخالقية حيث المشركون لا يعتقدون في خالقية ما يشركونه بالله، وإنما يعتقدونه في ربوبيات تتفرع عن ربوبية الله، أم إن الله خالق والربوبية مخولة إلى بعض خلقه.

وإبراهيم عليه السلام في هذه الحجة يستأصل الربوبية بأصلها وفصلها عما سوى الله، أن الرب الآفل كيف يكون ربا ودوام المربوبين لزامه دوام الربوبية وهو لا يناسب أقول الرب. ذلك وكما يلمح له «هذا ربِّي، لا رب العالمين، حجاجا مع هؤلاء الذين يربون هذه الأشياء في حقول خاصة من الربوبيات، دون الربوبية المحلقة على كل شيء فإنهم لا يعتقدونها في غير الله مهما فصلوا عنه الربوبية، فإن لهم شركاء متشاكسين في مختلف الربوبيات.

و في رجعة أخرى إلى هذه الآيات نقول: أصل الحجة في إبطال ربوبية هذه الأجرام هو أقولها وصغرها بمعنى محدوديتها، والآفل غير محبوب للفطرة كإله مهما كان محبوبا في غير حقل الربوبية قضية الضرورة المعيشية.

فذا تية الأقول ذاتا وصفات وأفعالا، المحلقة على كافة الكائنات هي التي تسلب عنها الربوبية، وتخلع عنها رداء الربانية: «لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ».

وانها تجمع في نفسها خط المواصلة مع المشركين وأضرابهم وخط المفاصلة، مواصلة حيث خطت في كتاب الفطرة والعقلية السليمة والحس السليم والعلم السليم، ومفاصلة حيث تخلف المتخلفون عن ذلك الخط المواصلة في حاضر العقيدة والعمل، ف «لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ» نبهة لهم ككل تعرفهم خطأهم فيما هم عليه من الإشراك بالله.

يقول في الخطوة الأولى من حجاجه «لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ» والكوكب الآفل نموذج منهم، وجمع

العاقِل هنا ليجمع الآلهة العاقلة إلى غير العاقلة فتضم كل ما سوى الله ومن سوى الله. و في الخطوة الثانية لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي، فالهداية التامة هي حصيلة الاهتداء بالفطرة وسائر الآيات الآفاقية والأنفسية، ومدّ الهدى الربانية، فكما الضال عن هدى الفطرة في ضلال، كذلك المهتدى بها غير المود بهدى الله، فهنا يقول إبراهيم عليه السلام حاكيا عن كتاب الفطرة، إننى أتحرى عن ربي جادا كادا دون فتور فليهدنى ربي بما اهتديت ف الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ، (٤٧: ١٧).

و في الخطوة الثالثة زيادة هذا أَكْبَرُ، والفطرة ناحية في حبها منحى الأكبر فالأكبر، وهى فى عمق حبها فى حقل الربوبية تحب الكبير المتعالى عن كل أفول، فلما لم يجد فى الشمس بغيته من الحب الفطرى للكمال اللامحدود، وهى أعظم شارق فى المنظر، فهناك البراءة التامة عن كل شارق وغارب، وكل متحرك ومتغير محكوم بعوامل، مسيرة تحت رحمة حوامل، ف يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ.

فالتصرم زمانيا أفول، والتغير أفول، والحركة أفول والتركب أفول، فالكائنات كلها آفلة فى مثلث كيانها، قبل تكوينها وبعد زوالها وهى حال كونها آفلة عن حق الوجود والوجود الحق إذ لا تملك لأنفسها شيئا.

و فطرت الله التى فطر الناس عليها تتحرى عن الكمال المطلق ومطلق الكمال الذى ليس له حد ولا زوال ولا أى أفول.

و ذاتية الأفول فى الكائنات تحت رحمة مربعة الحالات زمانا وحركة وتغيرا وتركبا، هى برهان قاطع لا مرد له لفقرها عن بكرتها وأسرها تحت طائل القدرة الخارجة عنها بأسرها، وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، (٥١: ٥٠). فحين نجد واقعا من هذه الأربعة وإمكانية منها فى كائن فهو- إذا- محكوم بالإمكان والحدوث وكل أفول هو قضية الحدوث.

و ليس لا أحب الأفلين، محصورة فى حصار العقلية العامة، بل هى تحلق على كافة العقول ساذجة وناضجة، كما هو قضية الواجهة العامة للدعوات الرسالية، حيث تواجه كل العقول فى كل الحقول.

و أحسن كلام وأجمله ما يشتمل على الحصص الثلاث، فحصة الخواص هنا عناية الإمكان من الأفول، وحصّة الأوساط عناية مطلق الحركة الدالة على الإمكان والحدوث، و حصّة العوام هو- فقط- الأفول الغروب.

و لا يرد على عامّة «الأفول» أن الله الذى يستدل لكونه وتوحيده بأفول الكائنات هو أيضا آفل: «غائب» لا يرجى حضوره، حيث البون بين فى هذا البين، فأفل الخلق هو ذاتى الأفول حتى عن نفسه، وهو متحول فى أفوله، وليس أفوله إلّا من ذاته.

و لكن الله سبحانه ليس أفلا بأى من هذه وسواها من أبعاد الأفول، فهو ظاهر لذاته وظاهر لخلقه بآياته، وما غيابه عن الخلق فى كنهه إلّا لقصورهم دونه، فغيب الذات له سبحانه- خلاف أفول غيره- دليل ألوهيته، وظهور ذوات الممكنات كأفولها هما دليل مألوهيتها.

فالأفول بعد الظهور كما الظهور عد الأفول هما دليل الحدوث قضية الحركة التى هى أبرز ملامح الحدوث، وأما الغائب فى ذاته الظاهر بآياته فليس أفلا بل هو الظاهر الباطن والباطن الظاهر «يا من هو اختفى لفرط نوره، الظاهر الباطن فى ظهوره.

ذلك إضافة إلى محدوديتها الحاكمة كبرهان ثان على أفولها، ولا ينبئك مثل خبير.

و هذه الحجّة الإبراهيمية تستأصل الربوبية أصلية وفرعية عن كافة الكائنات المخلوقة، فلا تحويل لشأن من شؤن الربوبية إليها ولا تخويل، ولا لعباد الله المخلصين إذ لا ولاية لهم تكوينية ولا تشريعية، بل هى- فقط- ولاية شرعية بإذن الله، فلا تأثير لهم فى الكون إلّا بأمر الله ومشيتته.

و هذه من أنجح الحوار مع الناكرين أن يتبنى ما يعتقدونه حجر الأساس فى الحوار ثم يقضى عليه بما ينقضه، ومن ثم حوار يتبنى ما يعتقد الطرفان، ثم حوار يتبنى فقط ما تعتقده أنت المحاور، فالثالثة ساقطة على أية حال، والأولى ناجحة على أية حال، والوسطى عوان بينهما.

ذلك لأنه ليس نجاح الحوار- فقط- فى قوتها، بل وقبلها فى الحصول على جو الاستماع لها والإصغاء إليها، فالخطوة الأولى فى نجاح الحوار محاولة المحاور لكامل إصغاء محاوره لقوله، ثم المحاولة فى إتقان الحجّة وإيضاح المحجّة.

و هنا نسمع ابراهيم الخليل يبدأ بما يقوله خصمه «هذا ربي»، ثم ينقضه بنقصه وأفوله الذى لا يناسب ربوبيته، وكما حاج عبدة الأصنام الأرضية أن كسرها وجعل الفأس على كبيرها خلقا لجو التساؤُ بناء على معتقدتهم فى ألوهيتها حيث أجاب عن «مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَا...؟» ب «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ»، (٢١: ٦٣) فعله .. ان كانوا ينطقون، فأستلوهم إن كانوا ينطقون..

و كما تماشى مع قوله نمرود: «أَنَا أَحْيَى وَ أَمِيتُ، انتقالا إلى حجة أظهر، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ...» دون أن يصر على الحجة الأولى ببيان أوضح إذ لم يجد فى نمرود بحاشيته تلك الذكاء اللائقة لتفهم الحجة الأولى، حيث القصد من الحجج إفهام الخصم إفحامه كما يفهم بلا لجج.

فالحجة مهما كانت بالغة، يجب أن يحتج بها بلغة يفهمها المحاج له، فلكل مقال مجال كما لكل مجال مقال، رعاية لكمال القول تجاوبا مع كمال المقول له.

و ليست هذه الحجج حججا عامية تقنع - فقط - العوام، بل هى حجج صارمة ناتجة من إراءة الملكوت، فمن الملكوت قضاء الفطرة السليمة «لا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ» فى حقل الربوبية، ولا أحب، هذه لا خلاف فيه بين المحبين ولا تخلف عنه، فهو أقوى حجة بين الحجج، فحين تقل الحجج أو تكلّ يأتى دور حجة الفطرة التى لا نكير لها.

لذلك يعتبر القرآن «فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، انهَا الدِّينُ الْقَيِّمُ» التى لا تفلت عنها مهما تلفت عنها كثير، فهى أقوى من كافة الحجج المنطقية والعقلية والعلمية والحسية أماهيه من حجة.

و لا حجة لأية حجة إلّا ما تتبنى حكم الفطرة الكائنة عند الكلّ، والمقبولة لدى الكلّ، ولأن شرعة الله لا تختص بحقل الفلاسفة والعلماء العقليين والحسيين، فلتكن محتجة بأقوى الحجج وأعمها وأتمها وهى حجة الفطرة، مهما يزودها بسائر الحجج رعاية لمختلف القطاعات من المكلفين.

و إنما احتج بالأفول دون البزوغ وكلاهما مشتركان فى ذاتية الحركة المستلزمة للحدوث؟ لأن دلالة الأفول أظهر ونصيب العوام من حجته أبهر، ثم ولا أحب، لا يتعلق صراحا بالبزوغ،

إنما هو الأفل ف لا أحب، بصورةً طليقةً تجتث كلَّ حبٍ ليست إلّا لأفل أو ميت، دون بازغ أوحى، فمهما لم يتعلق بهما الحب المطلق، فقد يشملهما مطلق الحب وهو مدار الحياة المعيشية، كما أن الحب المطلق مدار الحياة الايمانية، فعلى مدار حب الله وضوءه يحب المؤمن وسائل عيشته الايمانية.

ثم الأفل - على أية حال - انتقال من قوة إلى ضعف، وعبدة الأجرام السماوية الذين كان يحتج عليهم ابراهيم، هم كانوا يرون قوة لها لنورها وبهورها وعظيم تأثيرها، فحين تأفل هذه الظاهرة الزاهرة فقد فلتت الوهيتها المزعومة لديكم.

فإذا احتج بالبروغ كانت حجة عليه من ناحيه مهما كانت له من أخرى!

ذلك، وأخيرا، إني وجّهتُ وجّهِي ...، وهو وجه الفطرة كأصل، ثم الوجوه التي تتبناه كوجه العقل والصدر واللب والقلب والفؤاد، نفسيا، ووجوه الحس بدنيا وكما أمرنا، فأقيم وجّهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ...

ولما ذا، للذي، دون إلى الذي، كيلا تلمح إلى، إلى غاية مكانية أماهيه من غايات محددة محدودة، فكما، أقيم وجّهَكَ لِلدِّينِ، لا إلى الدين، كذلك، لِلذِي فَطَرَ... وجه لزام للفاطر، تلازم المنفطر مع الفاطر.

فهناك توجيه لوجه الإنفطار للفاطر، ووجه العبودية للمعبود، ووجه التربية للرب، فلا يبقى وجه للعبد إلّا وهو واجب التوجيه لله الواحد القهار.

وحصيلة البحث هنا أن مراتب الإيقان والإيمان بالله هي قضية مراتب رُوّة الملكوت، فللرُوّة الفطرية نصيبها من إيقان إيمان، ثم للرُوّة العقلية المستوحاه منها، ثم المزودة بالرُوّة الحسية والعلمية، ثم بروّة الوحي العام، ومن ثم بإرادة خاصة ربانية للمخلصين من عباده كمحمد صلى الله عليه وآله وإبراهيم واضرابهما، لكل من هذه قضاياها من إيقان وإيمان.

ف كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ، على طول خط حياته الرسالية بما قبلها، وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، القمة بإراءة الملكوت الربانية الخاصة الحاتة على المعرفة التوحيدية القمة السامقة.

وَ حَاجَةٌ قَوْمُهُ قَالَ أ تَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠):

و. بعد ذلك الحجج القاطع القاصع ما ازدادوا إلا اللجاج فالاعوجاج إذ حاجته قومه في الله بعد ما جاءهم الهدى وتبين لهم الحق، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا. قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ، أَنْ أَشْرِكَ بِهِ كَمَا تَشْرِكُونَ، وَتَخَوَّفُونَنِي عَمَا تَشْرِكُونَ كَمَا تَخَافُونَ. وَقَدْ هَدَانِ، رَبِّي فَأَنَّى تَوَكُّونَ، أَمْ إِنْكَآ آلهةٌ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ؟. وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ: إِشْرَاكِكُمْ وَلَا مَا تَشْرِكُونَهُ بِاللَّهِ، لَا أَخَافُ .. إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا .. أَخَافُهُ، فَمَنْ خَافَ اللَّهَ أَخَافَ اللَّهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ أَخَافَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَ هُنَا يَخَوَّفُونَهُ مِنْ غَضَبِ الْآلهةِ فَإِنَّهُ عِنْدَهُمُ السَّبَبُ الْأَوَّلُ لِعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهَا، مَهْمَا كَانَ لَهُمْ مِنْهَا - كَذَلِكَ - رَجَاءُ الرَّحْمَةِ.

ذلك، وكما الإنذار في الحقول الرسالية يحتل الموقع الأول الذي يعم من يُونُ إِلَى مَنْ لَا يُونُ، حَيْثُ إِنْ تَأْتِيَ التَّبَشِيرُ أَقْلُ بِكَثِيرٍ مِنْ تَأْتِيرِ الْإِنذَارِ.

و هنا الإجابة عن حجتهم تنحل إلى أمور:

١- (وَقَدْ هَدَانِ، فَحَصَلَتْ لِي حِجَّةُ الْحَقِّ فِيمَنْ أَعْبَدَهُ، فَلَا أَخَافُ غَيْرَهُ.

٢- (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، فَهُوَ الَّذِي يَنْجِينِي عَنِ الْمَخَافِ بِسَعَةِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ.

٣- (وَ كَيْفَ أَخَافُ ..، فَحَتَّى إِذَا صَحَّ الْخَوْفُ عَنِ الْآلهةِ فَكَيْفَ أَتْرَكَ الْخَوْفَ عَنِ إِلَهِ الْآلهةِ فَقَطْ دُونَهَا؟!.

هنا وَقَدْ هَدَانِ، هِيَ أَقْوَى الْحِجَجِ، فَإِنْ مِنْ شَوْنِ الرَّبوبيَّةِ هِيَ هِدَايَةُ الْمَرْبُوبِينَ، وَقَدْ هَدَانِ، رَبِّي بِحِجَّتِهِ، وَ لَيْسَتْ عِنْدَكُمْ حِجَّةُ الْهَدْيِ مِنْ آلِهَتِكُمْ، فَنَفْسُ الْهَدْيِ هُنَا وَالِاسْتِغْنَاءُ بِهَا عَمَا سِوَى اللَّهِ، هُمَا حِجَّتَانِ مَطْوِيَتَانِ فِي، وَقَدْ هَدَانِ، إِضَافَةٌ إِلَى أَنْ الْحَاصِلُ عَلَى بَغْيَتِهِ بِحِجَّتِهِ لَيْسَ لِي تَحْرَى بَعْدَ عَنِ حَقِّ هُوَ عَارِفُهُ، فَهَذِهِ حِجَجٌ ثَلَاثٌ مَطْوِيَةٌ فِي، وَقَدْ هَدَانِ، وَقَدْ تَفَرَّعَتْ عَلَيْهَا الْحِجَّتَانِ الْأَخْرِيَانِ فَهِيَ - إِذَا - خَمْسُ حِجَجٍ.

و هنا إِذَا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا، مِنَ الْخَوْفِ عَمَا تَشْرِكُونَ بِاللَّهِ، حِجَّةٌ سَادِسَةٌ، أَنْ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ أَخَافَ الْآلهةَ - وَلَنْ يَرُدَّ - فَذَلِكَ - إِذَا - خَوْفُ بِإِرَادَتِهِ دُونَ إِرَادَتِهَا، فَيَرْجِعُ حِجَّةٌ أُخْرَى عَلَى رَبوبيَّتِهِ دُونِهِمْ!.

«وَسِعَ رَبِّي» الذي رباني هكذا ورب العالمين كلا على قدره «كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا» فعلمه محيط بكل شيء فلا تخفى عليه خافية ولا تدق عنه غامضة، فكل الأشياء عنده وامضة، فلا يصيبني أمر كما تزعمون، فربي هو الواسع علما فهو يذود عنى.

ف «وَسِعَ رَبِّي» تختلف عن سائر السعة، فإنها من سعة المحدود على المحدود، حيث تطلق على الأجسام وأشباهها التي فيها الضيق والاتساع والحدود والأقطار، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فإنما هي سعة ربوبية علمية كما هنا، وسعة في كافة مراحل القيومية كما في غيرها.

وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١):

فهذه ضابطة عالمه عاقلة في كل الأعراف أن اتباع الحق لا يخيف، واتباع الباطل مخيف يحيف، وأنتم الأغبياء تعاكسونها حيث ترجون أن أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله، وقد نزل سلطانا على توحيديه ولم ينزل أى سلطان على ما تشركون.

«فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ» واقعيا وفي أى من الحقول «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أن الحق أولى من الباطل اتباعا وتخوفا من تركه.

و هكذا تنجلي الفطرة وتتجلى في ضفة الإيمان ولا سيما المتأيدة بوحي الله بإراءتها ملكوت السماوات والأرض.

و هكذا تنحرف فتنجرف في ضفة الكفر المعاند، ومن الفاصل بينهما التحرى عن الحق فى الأولى والتجرى على الحق فى الثانية.

إن الفطرة حين تنحرف وتضل ثم تتمادى فى ظلالها وتتسع الزاوية الهاوية وتبعد نقطة الانطلاق على ممشاها عن نقطة الابتداء ومحطة الانتهاء، إذا يصعب عليها أن تتوب وتثوب إلى الحق المرام الذى هو قضيتها كما فطر الله.

هناك وجدان لله بكل الوجود والوجود كله، فكيف يخاف غير الله من وجد الله؟ وكيف لا يخاف من لم يجد الله؟ ما ذا فقد من وجد الله وما ذا وجد من فقد الله؟

أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج

إلى دليل يدل عليك .. عميت عين لا تراك عليها رقبيا وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً!^١

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢):
و كما الإيمان درجات، كذلك الأمن الناتج عنه درجات أعلاها ل «الَّذِينَ آمَنُوا» بالله ورسالاته، وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ: عقيدى كإشراك بالله، ف «ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» (١٠٦: ٢) ولا عملى كأى عصيان، فإن «بظلم» تحلق على كافة أنواع الظلم التى تناحر عقيدة الإيمان أو عمل الإيمان.

«أولئك، الأكأارم، لَهُمُ الْأَمْنُ» كله، وَهُمْ مُهْتَدُونَ، كامل الاهتداء.
و ذلك الإيمان الأمن الطليق هو الحسنه الطليقة: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مَنْ فَزَعَ يَوْمَئِذٍ أَمْنُونَ» (٢٧: ٨٩) وهم المتقون: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ» (١٥: ٤٦): «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ... يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ» (٤٤: ٥٥).
أجل إن «المؤمنين المهيمنين العزيز الجبارين» يؤمن هو «المؤمنين المتقين عن كل بأس وبؤ يوم الدنيا ويوم الدين، ولأن الإيمان والتقوى وترك الظلم درجات، فكذلك الأمن الناتج عنه درجات، ولأن قضية الإيمان الأمن تطبيق قضاياه ككل، فى حق التوحيد والنبوه والمعاد وفروعها، وفى حق كافة المسؤوليات الإيمانية فردية وجماعية، فقد تشمل «بظلم» كل انتقاص من أى من هذه البنود الإيمانية.

خلطا «بشك»^٢ ككل، أو خلطا لولاية الإيمان رساله وخلافه^٣ أو خلطا لعمل صالح بطالح، أو خلطا لنية صالحه بغيرها، أم أى خلط خارج عن قضية الإيمان.

فليس كل من وقع عليه اسم الإيمان كان حقيقا بالنجاة مما هلك به الغواة، ولو كان كذلك لنجت اليهود مع اعترافها بالتوحيد وإقرارها بالله ونجى سائر المقربين بالوحدانية من إبليس

^١ من دعاء الإمام الحسين عليه السلام فى عرفات يوم عرفة.

^٢ نور الثقلين ١: ٧٤٠ فى اصول الكافي باسناده الى أبى بصير قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية «... بظلم» قال: «بشك».

^٣ فيه عن المصدر عنه عليه السلام فى «بظلم» قال: «بما جاء به محمد من الولاية و لم يخلطوها بولاية فلان و فلان».

فمن دونه في الكفر...!

و تفسير «بظلم»^٢ أنه «بشرك، تعبير عن أنحس الظلم وأتعسه، أم يوَّال بأى شرك جلى أو خفى، عقيدى أو عملى، وأما عبادة الأوثان فلا يخلط مع إيمان أيا كان، فإنما هو دون عبادة الأوثان: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» والعبارة الصالحة لغاية الشرك هي الشرك نفسه، أم ولأقلّ تعبير «بالظلم، دون «بظلم، الشاملة لكلّ ظلم. ذلك، أو أنه يعنى من «الأمّن، مطلق الأمّن، لا الأمّن المطلق وقد تحمله الآية تأويلا، وقد يروى عن النبى صلى الله عليه وآله «إنما هو الشرك، انه قال: «من ابتلى فصبر وأعطى فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفر «أَوْلَيْكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ»^٣.

إذا فحين يعنى من «الأمّن، الأمّن المطلق ف «بظلم، تعم كلّ ظلم، وهذا هو ظاهر التنزيل، وأما حين يعنى منه مطلق الأمّن ف «بظلم، تعنى أظلم الظلم وهذا من باطن التأويل.

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣):

و تلك، البعيدة المدى، العميقة الصدى، الباهرة الهدى، من حجج التوحيد حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ، على ضوء إراءته ملكوت السماوات والأرض، وتلك درجة لا ينالها إلا من أخلصه الله مهما كانت درجات حيث نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ: فمن الدرجات التى أوتىها إبراهيم الخليل من ربه الجليل النبوة ثم الرسالة ثم النبوة ثم الإمامة، وقد أوتى معها رُؤًة ملكوت السماوات والأرض حجة لتوحيد الله، وملكوت إحياء الأموات اطمئنانا لقلبه بهذه المعرفة القمّة وهى عين اليقين بحقيقة الإحياء، وإخمادا لنار نمروذ، درجات سبع فى أصولها وفيها

^١ المصدر فى الاحتجاج عن امير المؤمنين عليه السلام حديث طويل و فيه «و أما قوله: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» و قوله «وَأَنَا لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» فإن ذلك كله لا يعنى إلا مع الاهتداء و ليس .. و قد بين الله ذلك بقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» و بقوله: «الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَامِهِمْ وَ لَمْ نُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ».

^٢ الدر المنثور عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله و أينا لا يظلم نفسه؟ قال: انه ليس الذي تعنون الم تسمعوا ما قال العبد الصالح «إِنَّ الشَّرْكَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ»؟ إنما هو الشرك. أقول: الشرك المرسوم و هو عبادة الأوثان خارج هنا عن «ظلم» مهما كان اظلم الظلم، حيث الايمان و ان فى ادنى درجاته لا يجتمع مع هذا الشرك.

^٣ المصدر فى الشعب عن سنجرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ... ثم سكت فقيل له يا رسول الله صلى الله عليه وآله ما له؟ قال: «أولئك...».

مزید بتقاسیمها، ثم فی الأخری درجات اخری هی أحرى بكونها درجات.
و قد تلمح جمیعہ حجتنا، لجامعیة الحجة الربانیة التي أوتیها إبراهيم لما تحتاج إلى حجة من
محجة.

۱- ولأن الرب لا یؤی حجة لمربوبه النبی ذی الدرجات، فیها تشکک لتوحیده.

۲- ومن ثم هی علی قومه.

۳- ثم «إتی أراکَ وَ قَوْمَكَ فِی ضَلَالٍ مُّبِينٍ، قبل إلقاء الحجة.

۴- وَأَلْتَنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي، ضمن إلقاءها.

۵- وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، كحالة دائبة لإبراهيم.

۶- ثم «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

۷- ومن قبل «لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هَذِهِ
الْتِمَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، (۲۱: ۵۲).

هذه العساكر السبعة مجندة لأن هذا ربي، منه في حجاجه لم تكن إلّا مجاراة على الإنكار
والاستخبار، دون تصديق وإقرار، «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ»: «حكيم، في حجته لا يتخللها شك
وريبه، ولا تغلب بأية حجة، «عليم، بإلقائها في موأية ظروفها.

وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ نُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ
أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۸۴) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ
عِيسَى وَ إِبْرَاهِيمَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (۸۵) وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطًا وَ كُلًّا فَضَّلْنَا
عَلَى الْعَالَمِينَ (۸۶):

هنا يذكر ثمانية عشر من الأنبياء^۱ من ذرية إبراهيم إلّا نوح، من أجداده، وهو نفسه حجر
الأساس في ذلك التعريف العريف، وترك ثمانية، منهم من هم من جدوده وهم آدم
وإدريس، أم سواهم كهود وصالح، ومنهم من هو إمام الأئمة في سلسلة الرسالات وهو

محمد صلى الله عليه وآله.

^۱ الدر المنثور ۳: ۲۸ عن قتادة و هم الأنبياء الذين قص الله على نبيه الثمانية عشر الذين قال الله «فبهداهم اقتده».

و ترى كيف لم يذكر إسماعيل كأول وهبة لإبراهيم وهو بكر ولديه، وقد تأخر فى الشطر الثالث من هذه الشطرات الثلاث الرسالية، وهو جد محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وآله؟.

لقد ذكر إسماعيل اثني عشر مرة فى القرآن، فى ثلاث منها يذكر هو- فقط- مع إبراهيم دون إسحاق^١ وفى خمس يتقدم على إسحاق مع إبراهيم^٢ وفى أربع يذكر دون إبراهيم وإسحاق عليه السلام^٣ وهنا مرة يتيمه يتقدم- بفصل أنبياء على إسماعيل- إذا فليس فى تأخير ذكره تأخير عن متحده الرسول، فمن الملاحظ أن ترتيب المقامات الرسالية هنا غير وارد كما تأخر نوح أوّل اولى العزم عن إسحاق ويعقوب، وتأخر موسى وعيسى عن تأخر عنهم وهما أفضل منهم^٤.

فهنا الترتيب غير مراعى لا زمنا ولا رتبة، وإنما القصد عرض موكب رسالى بمختلف الدرجات والأزمنة، هم كلهم إلّا نوح من الوهبة الربانية لإبراهيم عليه السلام، اللهم إلّا وهبة فى سلسلة الجدود فإن، وهبنا، لا تختص بوهبة الذرية.

و قد تقدم إسحاق فيمن تقدم هنا كمرّة يتيمه على إسماعيل حيث القصد ذكر الأنبياء الإسرائيليين من ولد إسحاق، فليتأخر إسماعيل إلى أخريات ذكرى النبيين هنا، ولأنه- فقط- جد آخر النبيين، كما ولم يذكر هنا محمد صلى الله عليه وآله لأنه المحور الأساس فى هذه الذكريات، فإنهم له تقدمات، ثم ويخاطب فبهداهم اقتده.

فذلك الترتيب- على غير ترتيب الحد الرسولى وزمنه- ترتيب قاصد لا يعنى رتبة زمنية أم رسالية، فمن المقصود هنا- فيما قصد- عرض موكب الأنبياء الإسرائيليين بمعرض الكتابيين حتى يأنسوا إلى ذكراهم، وعلّ فى تقديم داود وسليمان ويوسف تذكيرهم بسابغ نعمة الملك إلى نعمة الرسالة فى الأنبياء الإسرائيليين، ومن ثم يذكر موسى وهارون كأصل

^١ كما فى ٣: ١٢٥ و ١٢٧ و ١٣٣.

^٢ كما فى ٢: ١٣٦ و ١٤٠ و ٣: ٨٤ و ٤: ١٦٣ و ١٤: ٣٩.

^٣ فى ١٩: ٥٤ و ٢١: ٨٥ و ٣٨: ٤٨ و هنا إسماعيل و اليسع.

^٤ الدر المنثور ٣: ٢٨ عن قتادة و هم الأنبياء الذين قص الله على نبيه الثمانية عشر الذين قال الله «فبهداهم اقتده».

الرسالة الإسرائيلية، ومن ثم «زَكَرِيَّا وَ يَحْيَىٰ وَ عِيسَىٰ» حسب الترتيب الرسالي بما كان الأولان تقدمه للأخير، ثم إسماعيل بن إبراهيم يتأخر حتى لا تحصل لهم حزازة وابتعاد، ويذكر من بعد اليسع ويونس ولوط وقد كان لوط نبيا مع إبراهيم وإسماعيل ابنه ثم اليسع ويونس بعدهما.

ذلك، وقد تتحل بهذه الآية بعض المسائل التي هي من معارك الآراء بين النافين والمثبتين أن ابن البنت يعتبر من ذرية والد البنت أم لا؟ فقد تقولت جماعة أنه لا، وهي قوله ناشئة من الجاهلية التي ما كانت تعتبر البنت من الذرية فضلا عن ابنها، واستند لذلك إلى الشعر الجاهلي^١ والرواية الجاهلية القائلة أن أبناء البنات من الأدياء ف «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ»^٢. و لا ينقضى العجاب من هؤلاء الذين يستندون إلى مثل هذه الرواية المخالفة لنص القرآن و الموافقة لسنة جاهلية، ولا سيما بشبه ضرورة إجماعية!

هنا يعد عيسى عليه السلام في عداد ذرية إبراهيم وليس إلّا ابنا لحفيدته مريم عليها السلام، وهكذا يحتج أئمتنا عليهم السلام أنهم من ذرية محمد صلى الله عليه وآله فكيف يكون عيسى بن مريم عليها السلام - على بعده البعيد عن إبراهيم عليه السلام - من ذرية إبراهيم، وليس الأئمة منذ الحسنين عليها السلام

^١ هو «بنونا بنو أبنائنا و بناتنا بنو هن أبناء الرجال الأباعد.

^٢ وسائل الشريعة ٦: ١٨٨ مرسل الكليني عن العبد الصالح في حديث طويل قال: و من كانت امه من بني هاشم و أبوه من سائر قريش فان الصدقات تحل له و ليس له من الخمس شيء فان الله يقول: «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ» .. أقول: و نحن نقول ادعوا هؤلاء المختلفين لمثل هذه الرواية لأبائهم، فكيف يعتبر أبناء البنات من الأدياء؟ فهل الحسنان عليهم السلام من الأدياء؟! ف «ما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأقواهم و الله يقول الْحَقَّ ..» يقول صاحب الجواهر في ١٦: ٩١ عن هذه المرسلة في كتب المحمدين الثلاثة يكفي اتفاقهم على روايته جبرا لإرساله فضلا عن شهادة النظر في متنه و التأمل فيه و فيما اشتمل عليه من الأحكام المخالفة لمن جعل الله الرشد في خلافهم و عن عمل كافة الأصحاب عداه به- المرتضى- و ان ذكر في بعض الكتب مستندا غيره الذين فيهم من لا يعمل بالقطعيات. أقول: و الموجود في اخبار الخمس هو الآل و الذرية و العترة و ذوي القرابة و اهل بيت النبي صلى الله عليه وآله و يقول في الجواهر بعد النقص و الإبرام في استحقاق الخمس للمنتسبين بالأمهات الى هاشم أو إلى الرسول «و من هنا كان الاحتياط في ترك أخذه الخمس و الزكاة و إن كان الأقوى في النظر ما عرفت- يعني عدم استحقاق الخمس لهذه المرسلة الغربية- ثم يشنع على صاحب الحدائق بقوله: لكن المحدث المزبور قد بالغ في اختيار ذلك لاختلال طريقته مشددا للإنكار على الأصحاب بتسجيع شنيع و خطاب فضيع حتى انه تجاوز ما يجب عليه من الآداب مع حفظه السنة و الكتاب. أقول: و طبيعة الحال في نصاب الخمس يقتضي استيعابه لكل المنتسبين الى الرسول أو الهاشم باب أوام و بذلك يحتل اصحاب الخمس القسم العظيم، و إذا اختص بالمنتسبين بالآباء فقد نسأل كيف يختص نصف الخمس من كل الإفادات بعشر الفقراء ثم الزكاة التي معدلها ١٠٠/٦ من تسعة من الأموال تقسم بين ٩٠/١٠٠ من الفقراء.

على قريهم إلى محمد صلى الله عليه وآله من ذريته^١؟.

لقد ذكر من ذكر هنا وأشير إلى غيرهم بـ«مثلث»: «وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ» بعد، واختص لكل شطر من الشطرات الثلاث المذكورة مواصفة خاصة، فالأولى: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» وللتانية: «كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ» وللتالثة: «وَكَأَنَّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ».

هكذا يظهر في بادئ الأمر، ولكن الثلاث مشتركة في هذه الثلاثة، فـ«كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» دون «نجزيهم» يعمم الجزاء لكل النبيين، ثم «كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ» تشمل معهم من قبلهم وكلا من الصالحين المذكورين بعد وغير المذكورين، ثم «وَكَأَنَّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ» يشمل كل الشطرات الثلاث ومن سواهم من المفضلين.

وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧):

و بعضا من آباءهم وذرياتهم وإخوانهم، أيضا هم من الموهوبين لإبراهيم عليه السلام اللهم إنا نوحا ومن آباءه آدم وشيث وإدريس، ومن ذرياته الأنبياء الذين كانوا قبل إبراهيم، اللهم إنا في سعة نطاق هذه الوهبة لتشمل الآباء إلى الذرية.

فلأن الأثرة الساقطة من النبيين هم من ذرية إبراهيم فقد يصح «وَهَبْنَا لَهُ» بل وكما تصح هذه الوهبة له في غير ذريته فإنهم من شدات سلسلة النبوة الربانية في تاريخ الرسالات ككل، فإنها وهبة لكل منهم مساندة ومساعدة في هذه الدعوة الرسالية، ولا سيما إبراهيم عليه السلام لأنه عمود في موكب الرسالات إنا خاتم المرسلين.

هنا «وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» تعم كافة الرسل عن بكرتهم، فإنها قضية كل رسالة ربانية.

وإنما نكر «صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» دون تعريف، خلاف «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» لأنه مشترك فيه بين كافة المهديين الرساليين، وهم درجات في «صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

^١ في الدر المنثور ٣: ٢٨ - اخرج ابن أبي حاتم عن أبي حرب بن أبي الأسود قال أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال بلغني أنك تزعم ان الحسن و الحسين من ذرية النبي صلى الله عليه وآله تجده في كتاب الله و قد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده، قال: أ لست تقرأ سورة الأنعام «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ... وَ يَحْيَى وَ عِيسَى» قال: بلى، قال: أ ليس عيسى من ذرية إبراهيم و ليس له أب؟ قال: صدقت. وفي الدر المنثور ١: ٧٤٣ في عيون الأخبار في جواب موسى بن جعفر عليه السلام عن سند آل هارون الرشيد عن معنى الذرية قال: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ... وَ يَحْيَى وَ عِيسَى» من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ قال: ليس لعيسى أب، فقلت: إنما الحق بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام و كذلك ألقنا بذراري النبي صلى الله عليه وآله من قبل امنا فاطمة سلام الله عليها.

و أما الصراطُ المُستقيمُ، فهنا الاجتباء، تقدمه للهدى إلى صراط مستقيم، حيث الجباية هي الجمع الجيد الجاد، ومنه جباية الخراج، ويُجيبُ إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ، (٢٨: ٥٧).
و هنا مثلث من الاجتباء تعنيه، وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ.

١- اجتباء كلِّ في نفسه ونفسياته أن جمع الله متفرقاته ومتشقاته، إخلاصا لظفرته وعقليته وحسّه، إخلاصا شخصا.

٢- ثم اجتباءه من بين نظراءه تفضيلا فضيلا.

٣- ثم اجتباء الكلِّ بين العالمين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، موكب رسالي مجتبي بين العالمين من الجنة والناس ومن سواهم من المكلفين أجمعين.
و من ثم «و هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فلكلِّ هدى على حده، وللكلِّ هدى رسالية هي قضية رسالته في أبعادها.

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨):
ذلك، التوحيد الحق دون أية ممارات ومجارات أو أنصاف حلول بينه وبين الشرك، ذلك، فقط «هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ، الله، من يشاء، الهدى فيشاء له الهدى» (من عباده، «و لَوْ أَشْرَكُوا، على فرض الحال، لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانوا يعملون، حال توحيدهم، إذ لا فارق في إحباط الإشراك بين سابق سابق سابق وسابق خانق ما حق، ولكن:

أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ التُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُوَ لَأَنْ يَفْقَدَ وَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩):

أ ترى «هم، في آتيناهم، هم المذكورون هنا بأسمائهم؟ ومن غير المذكور منهم من هم أهم منهم محتدا كالرسول الأعظم محمد ﷺ.

إنهم «هم، و مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ، ومحمد ﷺ هو رأس الزاوية، فهم الموكب الرسالي العالى، الجامع بين مثلث «الكتاب وَ الْحُكْمَ وَ التُّبُوَّةَ، فليس كلِّ رسول نبيا،

١. عن تفسير العياشي عن العباس بن هلال عن الرضا عليه السلام أن رجلا أتى عبد الله بن الحسن فسأله عن الحج؟ فقال له: هذا جعفر بن محمد عليه السلام قد نصب نفسه لهذا فاسأله فأقبل الرجل إلى جعفر عليه السلام فسأله فقال له: قد رأيتك واقفا على باب عبد الله بن الحسن فما قال لك؟ قال: سألته فأمرني أن أتيتك و قال: هذا جعفر بن محمد عليه السلام قد نصب نفسه لهذا فقال جعفر عليه السلام، أنا من الذين قال الله في كتابه «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ»، سل عما شئت فسأله الرجل فأنبأه عن جميع مسأله.

ولا كل نبي له كتاب، فهم - إذا - الرعيل الأعلى من الرسل الجامعين لهذه الميزات الثلاث: كتاب شرعة مهما كانت فرعية كسائر كتابات السماء غير ما لأولى العزم منهم، والحكم روحياً وزمناً مهما صدّ الكثير منهم عن مظاهر الحكم الزماني، والنبوة وهي هنا الرفعة بين المرسلين. ولقد جمع هذا المثلث في حقل النبوة الإسرائيلية: «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتُّبُوَّةَ، (٤٥: ١٦) واختص من بينهم المسيح بقول فصل: «ما كان لبشر أن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ... (٣: ٧٩). و. أخص الخواص في هذا الحقل الثلاثي هو الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وكما تدل عليه آيات كآية الميثاق: «وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ، (٣: ٨١).

هو الرهط الكرام هم حقيقة حقّة قديمة امتدت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها نبي بعد نبي، رسالة واحدة وأمة واحدة مهما اختلفت صور من طقوسها العملية عبادية وسواها.

أُولَئِكَ ... فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُوَ لَأٍ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ:

بها، هنا تعنى مثلث الكتاب والحكم والنبوة، فإن يكفر بها هو لاء، الكفرة الأنكاد من قوم لد، فقد وكلنا بها، إيماناً بها، قوماً ليسوا بها بكافرين، وهم غيرهم من الناس، كالأنصار المدنيين، ومنهم من أسلم من الفرس وقد مدحهم رسول الله صلى الله عليه وآله فيمن مدح في مختلف المجالات، ومن أقواله فيهم: «رحم الله إخواني ... ومنهم - كأفضلهم - أصحاب المهدي عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه، وسائر المؤمنين به.

فالدولة المهديّة العالمية هي الموكلة بصورة مطبقة مطلقاً بالإيمان والتطبيق لهذه الرسالة السامية، فهي بشارة للمؤمنين بها على طول الخط «إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ. وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ».

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِّلْعَالَمِينَ (٩٠): و ترى الرسول إلى الرسل ورأس زاوية الرسالة والنبوة والإمامة كيف يور أن

يقتدى بهؤلاء النبيين الذين هم بأجمعهم أدنى منه في كل شيء؟.
هنا هداهم الله، تختص المقتدى به بهدى الله، التي يحملها أنبياء الله، تبييننا أن الرسل موكب واحد في حمل هدى الله، ليس أحد منهم بدعا فيها اللهم إلا في ميزات بدرجات تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ..

و من هداهم الربانية عدم سؤلهم أجرا على أعباء الرسالة، ف قل، أنت الحامل الأخير لشرع الله لا أسئلكم عليه أجرا، اقتداء بسنة الرسالات الإلهية مهما كان المقتدى أقوى هدى من كل الرسل في كل الرسالات، ف إن هو الرسول، و إن هو القرآن، إنا ذكرى للعالمين، وليس للذكرى أجر فانها واجب أهله.

ذلك، وبصورة عامة لا طريق للأكياس من المؤمنين أسلم من الاقتداء، لأنه المنهج الأوضح والمقصد الأصح قال الله تعالى لأعز خلقه محمد صلى الله عليه وآله: «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده، فلو كان لدين الله مسلك أقوم من الاقتداء لندب أوليائه وأنبياءه إليه، ف أحسن الهدى هدى الأنبياء،^٢ لأنها هدى الله.

فلما يور رسول الهدى صلى الله عليه وآله ان يقتدى بهدى الذين هداهم الله، فأحرى لسواه وأوجب أن يقتدى بهدها فإنها أفضل الهدى وأكملها فانها خاتمة الهدى الرسالية من الله، ثم الذين يحملون هداه الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

محاكاة ابراهيم مع الملك نمرود

آيات ثلاث تحمل هامة العقيدة، لا سيما سر الموت والحياة، والتعريف بالله الذى يملكهما دون سواه، تعريفا فى حجاج قانع، وبيان للواقع، فلها صلة بآية الكرسى المقررة لصفات ربانية هى الأصل فى الإمامة والإحياء، كسائر الأفعال الربانية الخاصة بالله لا سواه.
فالآية الأولى تعرض حوارا بين ابراهيم والذى حاجه فى ربه، طيا عن ذكر اسمه ادراج

^١ فى مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام و لا طريق ..

^٢ نور الثقلين ١ : ٧٤٤ فى تفسير القمي خطبة له صلى الله عليه وآله، و فيه عن النهج «فاقتدوا بهدى نبيكم فانه أفضل الهدى».

الرياح، تصغيرا لكيانه، ولأن اسمه لا يزيد فى شكلية الحوار وحصيلتها والعبرة بها، فلندرس ذلك الحجاج اللجاج من الذى حاج بكل نبراتها، تذرعا الى قوة الحجاج الإبراهيمية لحد قُبِهَتِ الَّذِي كَفَرًا!

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ

أَلَمْ تَرَ، يا رسول الهدى! ام ويأكل من رأى تلك الحجاج فى تاريخ الرسائل! استنكارا بتشيع وتفضيع على الذى حاج، وتعجيبا عجيبا لمن يرى او يسمع ذلك الحجاج، وحمق اللجاج من ناحية، وعمق الحجاج من أخرى.

الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ: رب ابراهيم كما هو الحق المعترف هو به، ورب الذى حاجه كما هو الواقع المنكور لديه، فانه رب العالمين، مصدقين له او ناكرين، إذا فضمير الغائب راجع إليهما على البدل، وما أجمله جمعا كما هو داب القرآن الفنى الخاص فى تأدية المعانى الواسعة، ولماذا حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ؟: «أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ!» وتراه هو ملك ابراهيم الذى آتاه الله روحيا وكما أتى بعض ولده وآله زمنيا، ام روحيا وزمنيا وكما يقول: «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكَاً عَظِيماً، (٤: ٥٤) تأويلا لآل ابراهيم بإبراهيم وآله ومُلْكَاً عَظِيماً، يجمع كلتا القيادتين: الروحية والزمنية، مهما انفرد البعض منهم بإحداهما، حيث جمعنا لآخرين كداود وسليمان ويوسف ومحمد ﷺ وأخيرا القائم المهدي من آله عليهم السلام.

ولقد سبقت آية الملك هذه آية الملك الروحي الرسالى المحمدي: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا

مما يمحور الملك الروحي، فليس الملك الزمنى إلا على هامشه وتحت إشرافه، وليس الملك المتخلف عن القيادة الروحية إلا سلطة مغتصبة إبليسية.

و مما يرجح هنا ملك ابراهيم ادبيا هو اقربيته مرجعا من الذى حاجه.

ذلك! ولكن ل «أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، لا تمت بصله كسبب لمحاخته ابراهيم، إذ كان ناكرا لله، فضلا عن ملك آتاه الله ابراهيم كقيادة روحية، ولم تكن زمنية ملموسة مصدقة!.

و قد يوجه ذلك الملك هنا بما نجاه الله من نار نمrod: «قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ. وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ، وَ نَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ... وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ...» (٢١: ٧٣) وكما يروى ان الحجاج كان بعد إلقاءه فى النار^١.

فتلك النجاة، الخارقة لكل العادات، الحارقة لنمrod وزمرته، إنها طرف طريف من ذلك الملك الروحى، الذى لا يوجد فى اى ملك زمنى منفصل عن الوحى، ولا سيما منعزل عن حق الملك كنمrod.

فقد تميز نمrod غيضا، فتحيز فرصة أخرى بحجاجة اللجج، تعمية لتلك الخارقة الكبرى، و تدجيلا عليه مرة أخرى فحاجة فى ربه، وفى النهاية «فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ» مرة أخرى بعد الأولى، فلا السلطة الزمنية النمرودية قدرت على إحراقه، ولا حجاجة اللجج سيطرت على دماغه وإحراقه، فنجاه الله سليما فى كلتا المرحلتين، ثم هم أولاء الانكاد الأوغاد، فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ! وقد تعنى «أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ» وقد يقربه ادبيا انه هنا محور الكلام، ف «أَنْ آتَاهُ، تعلق حجاجة بما آتاه الله، مهما كان أبعد مرجعا.

ثم القيادة الروحىة لا تسمى ملكا مهما كانت هى حق الملك وحقيقته، حيث الملك ظاهر فى واقع السلطة الملموسة، والسلطة الروحىة على واقعها ليست ملموسة، بل وهى دوما تعيش تحت ضغوط السلطات الظالمة الزمنية.

و لكن كيف «آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، ولا يُوِّى ملك الله إلا من يحق له ويستحقه؟.

إن إيتاء الملك هنا تكوينى وليس تشريعى وبينهما عموم من وجه: تكوينى لا تشريعى كما هنا، بمعنى انه لا يمنع الله عن الملك مهما منعه تشريعا حيث الدار دار الإختيار.

ثم تشريعى لا يوافق التكوين كالقيادات الروحىة فى المعصومين، أئمة ونبين، الذين صد بينهم وبين سلطاتهم الزمنية، الشيطانات المدروسة من اصحاب السلطات الزمنية.

ثم الجمع بينهما كالذين ذكرناهم من ذى قبل، فداود عليه السلام ومن أشبهه جمع له القيادتان.

^١ عن المجمع و اختلف فى وقت هذه المحاجة قيل: بعد إلقاءه فى النار و جعلها عليه بردا و سلاما عن الصادق عليه السلام.

ثم تكويني يوافق التشريع ولكنه ليست قيادة رسالية، كمثل طالوت الذى آتاه الله الملك دون نبوة، فان قضية توحيد الأفعال ان لله تعالى دخلا فى كل خير او شر دون إجبار، ومنها الملك: **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٣: ٢٦).

فإتيان الملك لمن يحق له نبيا وسواه اعتلاء، وإتيانه لمن لا يستحقه ابتلاء، وكل من الاعتلاء والابتلاء بملك وسواه انما هو من الله لا سواه، دون استقلال لأحد فى ملك وسواه.

ثم هنا «أَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» تعليل بما يناحر ذلك الحجاج اللجاج، فبديلا عن أن يشكر ربه ان آتاه الله الملك، أخذته زهوه الملك وعزته فأخذ يجادل فى الله: **وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ**. **وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ** (٢: ٢٠٦).

و الجمع بين المحتملين أجمل واجمع، حيث القرآن حمال ذو وجوه فاحملوا الى احسن الوجوه، وهو هنا وسواه مما أشبهه، الجمع بين المعانى التى يحتملها ادب اللفظ وحذب المعنى!.

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ.

أ ترى - وذلك بازغة الحجاج من ابراهيم - فأين البداية من الذى حاجه؟

إنها - لسخافتها كاسمه - أدرج درج الرياح، وقد يلوح من **قال إبراهيم** ... ان نمرود ادعى الربوبية لنفسه ثم قال له: ومن ربك أنت لأرى أينا أقوى وأحرى بالربوبية، فعرف ابراهيم ربه بأهم اختصاصات الربوبية:

رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ: إحياء لكل الميئات التى تحق الحياة، وإماتة للأحياء التى تحق الممات، نباتية وحيوانية وانسانية وملائكية أماهيه.

فالإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان أمامنا على طول الخط، المعروضتان للإحساس والعقل دونما وقفه، وهما فى نفس الوقت من الأسرار المحيرة للعقول فى كل الحقول، لا يتمكن العاقل ومن دونه أن يسندهما إلّا الى الخالق المتعالى عن عجز المخلوقين.

اننا لا نعرف شيئا عن حقيقة الحياة والموت على الإطلاق حتى الآن، اللهم الا مظاهر لهما،

فإنلزم- إذا- ان نهى مصدرهما الى قوة ليست من جنس القوى المحكومة بالموت والحياة وهو الله الحى الذى لا يموت.

ولماذا هنا 'يحيى' قبل 'و يميت'، وفى كثير سواها 'يميت ويحيى'؟ لأن هذه فى مقام إثبات الحياة بعد الموت، ونمرود ناكرا اصل المحيى والمميت فضلا عن اليوم الآخر، إذا فلا يناسبه إلا 'يُحْيِي وَ يَمِيتُ' الذى هو ملموس لكل أحد.

ثم ومن هوّ الذين أحياهم الله هو نمرود نفسه، وتراه يرى نفسه أحياء بنفسه؟ وكذلك سائر الأحياء، فلا مجال له ان يدعى لنفسه الإحياء، ولكنه أخذ يلوى قصة الإحياء والإماتة بتوسعة تسعه وسواه من النماردة وسواهم:-

قالَ أَنَا أُحْيِي وَ أَمِيتُ.

ويكأنه هو المحيى والمميت ككل، إذ لم يعطف قوله بقول ابراهيم اشراكا لنفسه بالله فى الإحياء والإماتة، بل 'انا ... دون 'و انا ...

فحتى وان عطف نفسه بالله فى ذلك لم يكن إحياءه وإماتته فعلة ربانية، فان كل احد له سلطة ما على آحاد بإمكانه ذلك الإحياء والإماتة، ان يقتل غير المحكوم عليه بالقتل، ثم يبقى المحكوم عليه به كما فعله نمرود، وقد يروى انه قال له ابراهيم: أحي من قتلته إن كنت صادقا!

ذلك! فضلا عن ان يكون له- فقط- كل إحياء وإماتة بكل صورهما، فمن هو المحيى له نفسه- إذا- إلا الله، ثم ومن هو المحيى والمميت حقا- ككل- إلا الله، وما مثاله إلا تقديما لما يقدر عليه كثير أمثاله ودونه بكثير.

وهنا لم يكن من الصالح الرسالى فى ذلك الظرف الهرج والمرج من السلطة النمرودية، الحاجة للعقول والحلوم، ان يترسل فى جدل حول المعنى من الحياة والموت، والقصد من الإحياء والاماتة، مع غبى قوى يمارى ويداور فى تلك الحقيقة الهائلة.

ولكيلا يأخذ نقضه الناقص الجاهل القاحل مأخذه من أوهام هاوية من شعبه، ممن تبهره

¹ . عن المجمع و قد روي عن الصادق عليه السلام ...

سلطته الزمنية فيحسب باطله حقا، ينتقل من هذه الحجة المحتاجة الى تفهم، إلى حجة أخرى لا تحتاج إلى تفهم، وإنما يكفيها الحس مهما كان حيوانيا ف:
 حقيقة ملموسة كونية هي بمرأى ومعلم ذوى الأبصار، دون ان تتخلف ولا مرة يتيمة، يكفى لإدراكها حيونة الإبصار مهما كانت من انسان او حيوان، فلا مجال - إذا - للحيونة النمرودية ان تحول بينها وبين دلالتها على الله، ولا مجال فى أية ممارسة.

ابراهيم وحرمة الاستغفار للمشركين

من بعد ما تبين انهم اصحاب الجحيم

ما كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤).

هنا روايات مختلقة قضية العصبية العمياء المذهبية أن رسول الله صلى الله عليه وآله استغفر لعمه وأبويه المشركين وقد ماتوا مشركين، فلكى يمس من كرامة أبوى النبى صلى الله عليه وآله وأبى على عليه السلام مسوا من كرامته هو صلى الله عليه وآله أن خالف أمر ربه فى ذلك الاستغفار الاستهتارا!

فلقد نهاه الله تعالى أن يستغفر للمنافقين فى آيات عدة مضت، فضلا عن المشركين الرسميين الذين ماتوا على إشراكهم بالله، واستحال غفرانه لهم بقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، (٤: ٤٨) و(١١٦) فكيف - إذا - يستغفر النبى صلى الله عليه وآله للمشرك معارضا لما قرره الله من سلبية الغفران فى حقل الشرك؟.

وترى كيف يفترى على رسول الهدى صلى الله عليه وآله الذى يعارض المشركين وهو مأمور بالإعراض عنهم: «اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» (٦: ١٠٧).

ففى هذه وفى مكيات أخزى أمر بمفاصلة المشركين والإعراض عنهم، وعدم الاستغفار لهم، ثم هو يستغفر لوالديه اللذين ماتا مشركين؟! أم ولعمه أبى طالب الذى مات مشركا؟! كلاً، إن المشرك هو المفترى على الرسول تلك التخلفه النكراء، والمفترى على عمه وعلى والديه

الذين ماتوا موحدين، أنهم ماتوا مشركين!

فوا عجباه بينما يقول الله: **إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**، (٤: ٤٨) رغم ذاك يسمح رسول الله صلى الله عليه وآله لنفسه أن يستحل - لأبويه و عمه المشركين - الجنة باستغفار لهم؟! داخلا في أنصار هؤلاء الظالمين!

و بينما الله يحرم مادة من حاد الله ورسوله، وأحد الإشراك بالله ونكران رسوله: **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ... لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...** (٥٨: ٢٢) رغم ذاك يواد الرسول أبويه و عمه خروجا بذلك عن الإيمان بالله واليوم الآخر!؟

و بينما الله يقول: **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**، (٩: ٢٨) **(وَ الرَّجْزَ فَاهْجُرْ)**، (٥٤: ٥) رغم ذاك يقرب الرسول أقرباء المشركين إليه ويستغفر لهم!

و حين يقترف أمثال هذه الذنوب العظام فكيف يقول الله عنه **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**، (٣٣: ٢١) وهي أسوة طليقة غير محدودة، بينما يحدد الأسوة بإبراهيم بغير استغفاره لأبيه وهو معذور في استغفاره له: **لَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ مَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ**، (٦٠: ٤) ومن قضايا البراءة - الأصلية - ترك الاستغفار لمن يتبرأ منه حيث هنا **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ**، ومن قبل استغفر له ولما يتبين له أنه عدو لله، حيث لمع له ولمح قوله: **وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا**، كأنه يعده فرصة مليا ليكفر في أمره عله يجدد أمره، فاعتبره وعدا للإيمان فوعده الاستغفار ثم استغفر له ولما يتبين له أنه عدو لله.

فما لهم أولاء المفترين على الله وعلى رسوله، أنه استغفر للذين ماتوا مشركين، تخلفا عن شرعة الإيمان بالله، فضلا عن رسالة الله!

أم كيف يفترى على رسول الهدى صلى الله عليه وآله أنه كان يستغفر لأبويه و عمه المشركين! وهم ماتوا في العهد المكي، يستغفر طوال تسع سنين أو يزيد حتى نزلت هذه الآية في السنة

التاسعة، و هو كان منهيًا عن موادتهم والاستغفار لهم منذ بداية الدعوة؟! و حين يبرر هنا استغفار إبراهيم لأبيه أنه كان قبل ما تبين له أنه من أصحاب الجحيم، فكيف يبرر - بعد - استغفار محمد صلى الله عليه وآله لأبويه وعمه بعد ما تبين له أنهم من أصحاب الجحيم إذ ماتوا مشركين؟!.

أجل، ما كان للنبيِّ و الذين آمنوا أن يستغفروا للمُشركين و لو كانوا أولى قُربى من بعد ما تبينَ لهم أنهم أصحابُ الجحيم، - ف ما كان، تضرب إلى أعماق الماضي تحريما عريقا لذلك الاستغفار الاستهتار، فلا سبيل - إذا - للمفترى على النبي صلى الله عليه وآله أن يقول: إنما حرم من بعد ما استغفر، ولو كان حلا من ذى قبل لم يعتذر لإبراهيم فى استغفاره أنه ما كان يتبين له أن أباه من أصحاب الجحيم، و ما كان، ضاربة إلى أعماق الزمن الرسالى، أن النبوة والإيمان يمنعان من الاستغفار للمشركين على مدار الزمن الرسالى دونما استثناء، حيث علق السلب بوصف النبوة والإيمان، وكما يدل عليه الإستدراك لإبراهيم وليس معنيا بشخص النبي هنا.

إذا فكيف يستغفر النبي صلى الله عليه وآله لأبويه وعمه الميتين على الشرك وقد تبين له من ذى قبل أنهم من أصحاب الجحيم! ثم كيف يعتذر لإبراهيم ولا يعتذر لمحمد صلى الله عليه وآله وهو أول العابدين وأفضل النبيين؟!.

و حين يعد الله الميتين على الشرك أليم العذاب فى مئات الآيات، فالاستغفار لهم - إذا - يعنى أن يخلف الله وعده وهو خارج عن أدنى الآداب الإيمانية فضلا عن الأدب الرسالى لمن هو فى أعلى قمم الرسالة.

و تبين كون المشرك ومن أشبهه هو من أصحاب الجحيم قد يكون بتبين الله كالذين يقول عنهم: «سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذِرهم لا يؤمنون، أم بموتهم وهم مشركون. فالمشرك - فضلا عن سواه من الكفار - الذى يرجى إيمانه، أم لم يتبين أنه يموت مشركا ليكون من أصحاب الجحيم، إنه يجوز أن يستغفر له فضلا عن المتحرى عن إيمان، أو الذى يلح بوعدة الإيمان، وهكذا يعتذر ربنا لإبراهيم عن استغفاره لأبيه: «و ما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعده وعدّها إياه، و تراها موعده لإبراهيم وعدّها إياه؟ والموعده

المحرمة لا تبرر إيفاءها! أم هي موعده أبيه وعدّها إياه؟ ولا تتبين موعده من «وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا» وحتى لو أنها كانت تتبين موعده منها، فلأنها لا واقع لها فلا يصلح إخبارا بها من الله أنه «وَعَدَهَا إِيَّاهُ!».

إنها موعده إبراهيم وعدّها إياه بقوله «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا» إذ تلمح لمحّة التحرى عن إيمان من قوله «وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا» (١٩: ٤٦) وعلى هامشها موعده أزر إياه أن يتحرى.

فلو أنه مصرّ على رجمه حيث قال «لأرجمنك» ما كان يقول دون فصل «وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا» إذا فملىّ الهجر دون دوامه، وهيمان إبراهيم لإيمان أزر، هما خيلا إليه أنه يعنى بملىّ هجره مىّ تفكيره وترويه فيما يدعوه إليه^١ فلذلك أم وللعطف عليه أن يهديه الله بما يستغفر له، وعده أن يستغفر له فور وعده الذى خيل إليه^٢: (قال سلامّ عليك سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا، (٤٧) ثم استغفر له- ولما يتبين أنه كاذب فى لمحّة الوعد-: «وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ» (٢٦: ٨٦).

و لأن وعد الاستغفار وتحقيقه ما كان حقا فى الواقع مهما كان هو معذورا فيهما، فقد خرج فيه إبراهيم عن أن يوسى: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ... إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» (٤: ٦٠) وإن كان قاصرا فى العلم «أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ» حيث القاصر لا يوسى فى قصوره كما المقصر، ومهما كان القاصر معذورا دون المقصر، ولكن الله ليس ليأمر أن يوسى إمام فيما هو قاصر.

وهكذا تبرر ساحة إبراهيم عن خاطئ الاستغفار لأبيه أنه استغفر له بما وعده إياه وفلما تبين له أنه عدو لله، فهو من أصحاب الجحيم تبرأ منه، فلم نسمعه بعد حتى آخر عمره و خلاص أمره أن يستغفر له، اللهم إنا لوالديه حين كان يرفع القواعد من البيت وإسماعيل بقوله: «رَبَّنَا

^١ نور الثقلين ٢: ٢٧٥ فى تفسير القمي فى الآية قال: قال إبراهيم لأبيه: إن لم تعبد الأصنام استغفرت لك، فلما لم يدع الأصنام تبرأ منه إبراهيم.

^٢ المصدر فى تفسير العياشي عن إبراهيم بن أبى البلاد عن بعض أصحابه قال قال أبو عبد الله عليه السلام: ما يقول الناس فى قول الله عزّ وجل: «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ» قلت: يقولون: إبراهيم وعد أباه ليستغفر له قال: ليس هو هكذا وإن إبراهيم وعده أن يسلم فاستغفر فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه، أقول: وعده يعنى أزر أن يسلم ..

اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب، (١٤: ٤١).

ذلك، والأب هو أعم من الوالد، فقد يعنى العم كما: قالوا نعبُدُ إلهَكَ وإلهَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإِسحاقَ إلهًا واحدًا، (٢: ١٣٣) حيث يعد إسماعيل من آباء يعقوب وهو عمه. أم جدا لأم حيث يعد عيسى، عليه السلام من ذرية إبراهيم... وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَرَكَرَبًا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ، (٦: ٨٥).

فلأن جد الأم والد كما جد الأب فضلا عن الوالد، دون العلم إذ ليس والدا بأى وجه، فالقصد من أبيه، غير والده فى مثلته، إنما هو عمه.

و إنما عبر عن عمه فى ثمانية موارد ب «أبيه، تأسيرا إلى المحتد القمه التوحيدية لإبراهيم حيث تربى فى جو الشرك وبيت الإشراك، وتحت الولاية التربوية لآزر الذى كان مكان والده، ولم يتأثر بوصمة الشرك، بل وعارض آزر معارضة صارحة صارخة دونما أية مساهلة.

ذلك، وقد يسمى بالأب من لا صلة له نسبية بأولاده، كما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله قوله لعلى عليه السلام: «أنا وأنت أبوا هذه الأمة فمن عقنا فعليه لعنة الله، أنا وهو أبوا هذه الأمة، أنا وأنت أبوا هذه الأمة!».

و لو أن والده فى «والدى، هو أبوه آزر، لكان فى ذلك مس من كرامة العصمة الربانية حيث أخبر تعالى أنه: «تَبَرَّأ مِنْهُ، والاستغفار ينافيه! وهكذا العصمة الإبراهيمية حيث كانت براءته مفروضة فتركها مرفوض فى شرعة الله.

فقد كان إبراهيم يستغفر لوالديه عند رفع قواعد البيت وهو فى أخريات عمره الطويل، ومات أبوه آزر فى شبابه، فلا يعنى من «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ، أباه آزر وقد تبين له- من ذى قبل- بموته مشركا أنه من أصحاب الجحيم^٢ (إِنَّ إِبرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ، أواه إلى الله راجعا إليه عن

^١ ملحقات إحقاق الحق ٤: ١٠٠، ٢٢٧ و ٧: ٢١٦ و ١٥: ٥١٨-٥١٩ و ٥: ٩٥ و ٢٠: ٢٣٠.

^٢ نور الثقلين ٢: ٢٧٤- أبو إسحاق الهمداني عن الخليل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: صلى رجل إلى أجنبي فاستغفر لأبويه و كانا ماتا فى الجاهلية فقلت تستغفر لأبويك و قد ماتا فى الجاهلية؟ قال: فقد استغفر إبراهيم لأبيه، فلم أدر ما أورد عليه فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وآله فأنزل الله «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبرَاهِيمَ...» قال: لما مات تبين أنه عدو لله فلم يستغفر له.

خطأه غير العائد، حلیم، مع أبيه المشرك حتى يلتقط من «وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا، أنه واعدته التحرى عن الحق، فالأواه هو كثيره الأوه واللَّهَبُ والتَّلَهَّبُ فى الدعاء، والرجوع إلى الله^١. فقد تعنى «مَوْعِدَةٌ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ، كلتا الموعدين، الأولى موعدة آزر إبراهيم أن يتحرى، والثانية موعدة إبراهيم آزر لنفس الموعدة أن يستغفر له، بفارق أن موعدة إبراهيم كانت واقعة دون آزر، وقد استغفر له، ثم لما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ولم يستغفر له، وإنما استغفر لوالديه وللمؤمنين رافضا أباه آزر، وأما أن تعنى - فقط - وعد إبراهيم إياه، فهو لا يبرر الاستغفار، إنما يبرره عدم تبنيه أنه عدو لله حسب النص، ثم آزر هو أقرب مرجعا أدبيا كما هو أقرب فى مليا، وعدا مليا.

و هنا المختلقة الزور أن الآية ليست لوالدى، بل هى لوالدى، إسماعيل وإسحاق والحسن والحسين عليهم السلام^٢ إنها ليست إلّا من المجاهيل الذين لا يتدبرون القرآن، ففيما تبدو لهم ظاهرة بدائية من آية أنها تخالف ما يعتقدون يبتدرون بقرينة تحريف الآية بكل توسع وسخاء حمقاء، والله تعالى منهم ومن أمثالهم من المختلقين الزور براء. و ما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شئ عليم^٣ (١١٥).

هنا هداهم، بما اهتدوا فليس ليضل قوما، إلّا إذا ضلوا، وهدى الله هى الهدى الكاملة حتى يبين لهم ما يتقون، على ضوء هداه، ف يعرفهم ما يرضيه وما يسخطه^٤.

^١ تفسير الفخر الرازي ١٦: ٢١١ بروى أن زينب تكلمت عند الرسول صلى الله عليه وآله بما يغير لونه فأنكر عمر فقال صلى الله عليه وآله: دعها فإنها أواهة قيل يا رسول الله صلى الله عليه وآله وما الأواهة؟ قال: الداعية الخاشعة المتضرعة، وفي الدر المنثور ٣: ٢٨٥ عن جابر أن رجلا كان يرفع صوته بالذكر فقال رجل لو أن هذا خفض صوته فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: دعه فإنه أواه وفيه عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لرجل يقال له ذو الجادين إنه أواه وذلك أنه كان يكثر ذكر الله والدعاء، وفيه عن أبي ذر قال: كان رجل يطوف بالبيت ويقول في دعائه: أوه أوه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه لأواه.

^٢ نور الثقلين ٢: ٢٧ في تفسير العياشي عن جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ» قل: هذه كلمة صحفها الكتاب إنما كان استغفاره لأبيه عن موعدة وعدا إياه وإنما كان «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ» يعنى إسماعيل وإسحاق والحسن والحسين والله أبنا رسول الله صلى الله عليه وآله!.

^٣ نور الثقلين ٢: ٢٧٦ في كتاب التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: حتى يعرفهم .. وفيه عن أصول الكافي عن شاهديه بن عبد الله الجلاب قال: كتب إلى أبو الحسن عليه السلام في كتاب: أردت أن تسأل عن الخلف بعد أبي جعفر عليه السلام وقلقت لذلك فلا تنعم فإن الله عز وجل لا يضل قوما بعد إذا هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وصاحبكم بعدي أبو محمد ابني وعنده ما تحتاجون إليه يقدم ما يشاء الله ويؤر ما يشاء ما ننسخ من آية أو ننسها قد كتبت بما فيه بيان وقناع لذى عقل

فإن ضلوا بعد هداه وبيانه أضلهم جزاء وفاقا بما ضلوا.

و «ما كان» تحلّق هذه السلبية على فسيح زمن التكليف، فحين فلما تبيّن له أنّه عدوّ لله تبرّأ منه فلم يستغفر له بعد، أ فبعد ذلك بردح كبير من الزمن يستغفر له؟.

ولماذا يطلب الغفر - فقط - يوم يقوم الحساب، وموقفه الأخرى قبل يوم الحساب، يوم الدنيا ام فى البرزخ؟ علّه لأنه أخرج المواقف وأحوجها الى الغفر، ثم وقد يغفر يوم الدنيا ثم يرجع المغفور له مذنباً، ام يغفر فى البرزخ مؤتاً، لأنه ليس موقف العذاب الفصل، ثم يعذب يوم الحساب ام يغفر له، إذا فهامة الغفر وعامته هى «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ».

ام ان «يَوْمَ الْحِسَابِ» يشمل يومى البرزخ والمعاد مهما اختلف حساب عن حساب.

...واتبع ملة ابراهيم حنيفاً

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤).

و تلك - إذا - هى حياة طيبة لا غبار عليها كما فى أخرى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (١٦: ٩٧)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) (٢١: ٩٤).

فلا فارق بين ذكر وأنثى فى كيان العمل وقدر الجزاء إلا بقدر الإيمان وعمله، كما لا فارق بين أمة وأمة فى أصل الجزاء بقدره، ولا يُظلمون نقيراً.

و قد نفت «لا يُظلمون نقيراً» ما كان يخيل - من اللأسواء بين العاملين الصالحات أو الطالحات - إلى هواء الطائفين فى أمانيهم الكاذبة الخواء، وما خيل من الفارق بين ذكر و أنثى كما كانت تزعمه القدامى الهنود ومصر وسائر الوثنيين أن النساء لا ثواب على حسناتهن أم هو أقل، أو أن الكرامة والعزة هما فقط للرجال كما زعمته فرقة من اليهود والنصارى، ويزعمه مجاهيل من المسلمين وسواهم.

يقظان.

ثم «مِنَ الصَّالِحَاتِ، تَبَعِيضًا دُونَ تَحْلِيْقٍ عَلَى كُلِّ الصَّالِحَاتِ تَوْسِعَةً رَبَّانِيَةً لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، (٢: ٦٢).
و لو انحصر دخول الجنة بالموثوقين العامل كل الصالحات لكانت الجنة خالية إلا عن شذر قليل هم المقربون والسابقون، وانحسرت حتى عن العدول من الموثوقين فإن لهم لهما. ذلك، وليست الجنة - مع الوصف - لأهلها على حد سواء، فقد يخرج من النار إلى الجنة، أو يدخل الجنة بلا نار ولكنها على حدّه ومستحقه، «وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا». وَ مَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥).

والدين هو الطاعة، فمن حسن الطاعة الموافقة العلمية والعقيدية لحق الله وشرعته، ومن ثم حسن الموافقة العملية الصالحة المتبينة بالإيمان والنية الصالحة، ف «مَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ، جَارِحَةً وَجَانِحَةً، وَهُوَ مُحْسِنٌ، فِي كِلَا الْوَجْهَيْنِ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، مَوْحِدًا حَنِيفًا، مَعْرُضًا عَمَّا يَخَالَفُ التَّوْحِيدَ الْحَقَّ وَحَقَّ التَّوْحِيدِ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، كَأَنَّهُ خَلَّ فِي رَبِّهِ حَيْثُ أَسْلَمَ لَهُ وَجْهَهُ ٣٥٧ بِكُلِّ وَجْهٍ، نَاسِيًا نَفْسَهُ وَنَفْسِيَّاتِهِ، ذَاكِرًا رَبَّهُ عَلَى أَيْةٍ حَالٍ.

ذلك «وَمَنْ يُسَلِّمُ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ، (٣١: ٢٢) وقد يروى عن رسول الهدى قوله صلى الله عليه وآله لما سئل عن الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^١.

ومن خلة إبراهيم خليل الرحمن ما بدا منه حين علّق على المنجنيق فجاءه جبريل عليه السلام فقال: كلفني ما بدا لك قد بعثني الله لنصرتك فقال: بل حسبي الله ونعم الوكيل إني لا أسأل غيره ولا حاجة إلا إليه»^٢.

^١ في المجمع في هذه الآية وروى أن النبي صلى الله عليه وآله سئل عن الإحسان فقال ...

^٢ نور الثقلين ١: ٥٥٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وآله يقول فيه قولنا: أن إبراهيم خليل الله فانما هو مشتق من الخلة أو الخلة فأما الخلة فانما معناها الفقر والفاقة وقد كان خليلاً إلى ربه فقيراً وإليه منقطعاً وعن غيره متعففاً معرضاً مستغنياً وذلك لما أريد قذفه في النار فرمى المنجنيق فبعث الله إلى جبرئيل فقال له: أدرك عبيدي فجاءه فلقبه في الهواء فقال: كلفني ما بدا لك قد بعثني الله لنصرتك فقال: بل حسبي الله ونعم الوكيل إني لا أسأل غيره ولا حاجة إلا الله فسماه خليله أي فقيره ومحتاجه والمنقطع إليه عن سواه إذا لم ينقطع إليه لم يكن خليله وإذا لم يعلم بأسرار لم يكن خليله؟

فقد سماه الله خليله لأنه لم يسأل أحدا شيئا قط ولم يسأل شيئا قط فقال لا^١.
 ذلك! و لئن اتخذ الله إبراهيم خليلا فقد اتخذ الله محمدا صلى الله عليه وآله حبيباً^٢ وأبن حبيب من
 خليل! ولأن الخلّة درجات فخلّة الحبيب محمد صلى الله عليه وآله أعلى الدرجات^٣ وقد قال الله:
 لأوترن حبيبي على خليلي ونجبي^٤.

و لقد كانت هذه حلقة صارحة صارمة في إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل
 والجزاء، ذات الأهمية الكبرى في تصليح العقيدة من ناحية وفي استقامة العملية من أخرى.
 ذلك، ولأن الكون كله لله خلقاً وتديراً فهو العادل كل العدل فيه بلا منازع ولا رشى.

أرتى كيف تحير الموتى؟

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَ لَكِن لِّيَطْمَئِنَّ
 قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ
 يَا تَيْنِكَ سَعِيًّا وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠.

وفيه في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من العلل بإسناده إلى الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام
 قال سمعت أبي يحدث عن أبيه عليه السلام انه قال: انما اتخذ الله عز وجل إبراهيم خليلا لأنه لم يرد أحدا و لم يسأل أحدا قط غير الله.

^١ المصدر ٥٥٥ في الكافي عن معاوية بن عمار عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنا إبراهيم عليه السلام كان أبا
 أضياف فكان إذا لم يكونوا عنده خرج يطلبهم و اعلق بابيه و أخذ المفاتيح يطلب الأضياف و انه رجع إلى داره فإذا هو برجل او
 شبه رجل في الدار فقال يا عبد الله بإذن من دخلت هذه الدار؟ قال دخلتها بإذن ربها يردد ذلك ثلاث مرات فعرف إبراهيم انه
 جبرئيل فحمد ربه ثم قال: أرسلني ربك الى عبده من عبيده يتخذ خليلا قال إبراهيم فأعلمني من هو أخدمه حتى أموت؟ قال: فأنت
 هو، قال: مم ذلك؟ قال: لأنك لم تسأل أحدا ...

^٢ المصدر في الاحتجاج عن النبي صلى الله عليه وآله حديث طويل في مكالمة بينه و بين اليهود و فيه قالوا: إبراهيم خير منك، قال: و لم
 ذلك؟ قالوا: لأن الله تعالى اتخذ خليلا، قال النبي صلى الله عليه وآله: أن كل إبراهيم عليه السلام خليلا فأنا حبيبه محمد.

^٣ الدر المنثور ٢: ٢٣٠- أخرج الحاكم و صححه عن جندب انه سمع النبي صلى الله عليه وآله يقول قبل أن يتوفى: أن الله اتخذني خليلا
 كما اتخذ إبراهيم خليلا.
 وفيه أخرج الطبراني عن سمرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أن الأنبياء يوم القيامة كل اثنين منهم خيلان دون سائرهم،
 قال: فخيلي منهم يومئذ خليل الله إبراهيم.

^٤ المصدر عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اتخذ الله إبراهيم خليلا و موسى نجيا و اتخذني حبيباً ثم قال و عزتي
 لأوترن حبيبي على خليلي و نجبي.
 أقول: و لئن اصطفى الله إبراهيم بالخلّة و موسى بالكلام فقد اصطفى محمدا صلى الله عليه وآله بالرؤة و هي المعرفة القمة التي لا تسامى
 و لا تساوي و هي مقام «أو أدنى» بعد «دنى».

هذه مرحلة ثالثة هي القمة في الإبقاء بالإحياء بعد الموت، حيث تحمل سؤلاً عن كيفية الإحياء وإجابة عنها، حيث النص «كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، عناية الى كيفية فعله تعالى ...» والكيفية من فعل الله عز وجل متى لم يعلمها العالم لم يلحقه عيب ولا عرض في توحيدته نقص،^١ دون «كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، سؤلاً عن الكيفية الظاهرة لكل ناظر كما كان لعزير، وليس الإستدراك في «أَوْ لَمْ تُؤْمِنِ، إلا إعلاناً صارخاً للسامعين أن ليس سؤلاً هذا نتيجة عدم الإيمان فانه «بلى، إيماناً صارماً بعلم اليقين وعين اليقين، فإنما يقصد إلى حق اليقين:

«وَلَكِنْ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي، اطمئناناً يتم فيه الإيمان ويطم قلب صاحب الإيمان، وكأنه هو الذي أحى الموتى عارفاً حقيقة إحياءه، اللهم إنا ما يختص بالله سبحانه من علم الإحياء - التام - الذي قضيته القدرة التامة على الإحياء، حيث العلم المحيط بشيء يساوق القدرة عليه.

وقد تعنى «بلى» - فيما عنت - إيمانه بخلته لله، المرجوة له من قبل الله، وقد كان استجابته في إحياء الموتى آية له بينة^٢ ولكنه لا تلائم الآية مهما لا تعارضها، حيث ان آية الخلقة حسب الرواية هي إحياء الموتى بطلبه ومرآه، لا والكيفية المتطلبة هنا «كَيْفَ تُحْيِي».

هذا - وهو على آية حال لم يكن شكاً من إبراهيم في أصل الإحياء، فانما تطلب حق اليقين بروة كيفية الإحياء، فان واقع العلم بأفعال الله محبوب عن خلقه الا بعض من اصطفاه لهذه المنزلة الرفيعة، إظهاراً له من غيبه: «عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» (٧٢: ٢٧) فقد ارتضى إبراهيم لإراءه غيبه في إحياء الموتى كما ارتضى سائر

^١ في معاني الاخبار عن الصادق عليه السلام في الآية في حديث قال: و هذه آية متشابهة ومعناها انه سأل عن الكيفية! ...

^٢ نور الثقلين ١: ٢٧٥ في محاسن البرقي عنه عن محمد بن عبد الحميد عن صفوان بن يحيى قال سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله لإبراهيم: «أَوْ لَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَى وَ لَكِنْ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي» أ كان في قلبه شك؟ قال: لا - كان على يقين ولكنه أراد من الله الزيادة في يقينه، وفيه ٢٨١ عن الكافي عن القمي عن محمد بن عيسى عن يونس عن الحسين بن الحكم قال: كتبت إلى العبد الصالح عليه السلام أخبره اني شك و قد قال إبراهيم عليه السلام: «رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى» و انا أحب ان تريني شيئاً، فكتب عليه السلام ان إبراهيم كان مؤمناً وأحب ان يزداد إيماناً و أنت شك و الشاك لا خير فيه.

^٣ المصدر في عيون الأخبار متصلاً عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون يابن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى قول الله عز وجل وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى - الى ان قال: فأخبرني عن قول إبراهيم عليه السلام: «رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَى وَ لَكِنْ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي؟ قال الرضا عليه السلام ان الله تعالى كان اوحى إلى إبراهيم أني متخذ من عبادي خليلاً ان سألتني إحياء الموتى أحببت، فوقع في نفس إبراهيم عليه السلام انه ذلك الخليل فقال: «رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَى ... قَالَ فَخُذْ ...»

المصطفين لغيب الوحي، ولكن ذلك الغيب ميزة لإبراهيم فيه عن سائر درجات الوحي، فان
«مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ، لَا يَفِي إِلَّا النَّاحِيَةُ الرَّسَالِيَّةُ الْمَتَطَلِبَةُ وَحَى الرَّسَالَةُ كَأَصْلِ، دُونَ سَائِرِ
الْغَيْبِ، اللَّهُمَّ إِلَّا الْمَرْتَضَى الْأَعْلَمُ وَالْأَعْلَى رَتْبُهُ فِي كُلِّ غَيْبٍ بِالْإِمْكَانِ إِرَاءَهُ لِمَرْتَضَى.
فَإِذَا أَرَى إِبْرَاهِيمَهُ الْخَلِيلِ كَيْفَ يَحْيِي الْمَوْتَى بِمَا سَأَلَ، فَقَدْ كَانَ يَرَى مُحَمَّدَةَ الْحَبِيبِ ذَلِكَ
الْكَيْفَ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَ، وَكَمَا رَفَعَهُ فِي مَعْرَاجِهِ إِلَى الْقِمَّةِ الْمَعْرِفِيَّةِ الْمُنْقَطَعَةَ النَّظِيرِ حَيْثُ «ذَنَا
فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى».

فلنضرب الرواية المختلقة - المناسبة إليه الشك في إحياء الموتى - عرض الحائط، ذودا عن
ساحة الرسالة القدسية، وتنزيها للخليل على هامش الحبيب^١.
و لقد ضمنت كيفية إحياء الموتى عجاب جمع الأجزاء المتفرقة كما كانت أول مرة، فكما ان
بعد الزمان هناك لم يكن بمبعد لاعادة الميت كما كان، كذلك أبعاد المكان ام أية أبعاد
ليست لها اي إبعاد لإحياء الموتى.

فحين تضل أجزاء في أجزاء - عنا - ليست لتضل عن مميت الأحياء ومحييها: «وَقَالُوا أِذَا
ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى
رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (١١: ٣٢) فقد زود إبراهيم في إحياء الموتى الى روه الكيفية لأصل
الإحياء، روه جمع الاجزاء التي ضلت بعضها الى بعض^٢.

و تراه كان مشتبهها بشبهه الأكل والمأكل كما تلمح الرواية؟ كلا! حيث الجواب، فَخَذُ أَرْبَعَةً
مِنَ الطَّيْرِ ... ليس فيه خلطهن بعد تقطيعهن، مهما تستفاد من ذلك الإحياء - ضمينا - الإجابة
الوافية عن الشبهة.

^١ الدر المنثور ١: ٣٣٥ - عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ
تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ ... و يرحم الله لوطا لقد كان يأوي الى ركن شديد، و لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت
الداعي»!

^٢ نور الثقلين ١: ٢٨٠ في روضة الكافي متصلا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما رأى إبراهيم عليه السلام ملكوت السموات و الأرض
التفت فرأى جيفة على ساحل البحر نصفها في الماء و نصفها في البر تجيء سباع البحر فتأكل منها فتشدها بعضها على بعض فيأكل
بعضها بعضا و تجيء سباع البر فتأكل منها فيشدها على بعض و يأكل بعضها بعضا فعند ذلك تعجب إبراهيم عليه السلام
رأى و قال: رب ارني كيف تحيي الموتى؟ قال: كيف تخرج ما تناسل التي أكل بعضها بعضا، «قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَى وَ لَكِنْ
لِيُظْمِنَنَّ قَلْبِي» يعني حتى أرى هذا كما رأيت الأشياء كلها، قال فخذ أربعة ...

و قد يقرب أن تطلبه هذا كان بمرأى نمرود بعد تدجيله فى حجاجه، لكى يريه إبراهيم ان القصد من إحياء الموتى هو ما يريد ربه لا ما افتعله نمرود وكثير مثله يفعلون مثله.

فقد تطلبه فى ذلك الموقف الحرج المرج بالنسبة لأهل الموقف، لكى يريهم عدم وهن حجاجه، وان انتقاله الى اخرى لم يكن إلا لغباوة نمرود وتجاهله عن حقيقة الأمر.

و قد يبعده ان ذلك المجال العجبال ما كان يسع فسحة ذلك الإحياء، إمالة للطير إليه، ثم جعل أجزاءهن المتفرقة على كل جبل، ثم دعوتهن ليأتينه سعيا، اللهم إنا لمن واجه واقع القصة على طولها وطولها! ولكن، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ ...، يبعده ثانية فان بابل ليست تحمل جبالا، فقد كانت القصة بعد انتقاله الى سوريا الأردن.

او انه سأله تعالى تساءلا عنه من قومه، ليروا بأمر أعينهم كيف تحيى الموتى، ولكن تحيى، تمنع ان يكون هو السبب، فإنما ذلك من هوامش السبب والأصل هو رَوْهُ الملكوت.

و قد يجمع الى كل هذه أن إحياء الموتى بدعائه ثم دعوته كان من آيات رسالته، تقوية للمؤمنين، وحجة بالغة على الناكرين.

و على اية حال لم يكن هنا او هناك شك فى إحياء الموتى حتى يطلب بعيانه بيانه وانتقال الى اليقين، فهناك، أنى، سوَّلا عن زمانه دون أصله، وزمان الإحياء مجهول لدى الكل، و هنا كيف، سوَّلا عن كيفية وليس الا بعد العلم بأصله، والعلم بالكيفية محجوب عن الكل.

فقد زود سائل، أنى، بروَّه العين لأصله بعد العلم به، ثم سائل، كيف، بروَّه الكيف فوق أنه وأصله، وسائر النتائج إيجابية وسلبية انما هى طوارئ على إجابة الكيف، وفى، وِإِذْ قَالَ ...، تلميحة لطيفة ان المخاطب ب، الم تر ... او كالذى، عرف كل الثلاث كأنه حاضر لديها، الم تر ... إذ قال إبراهيم، سمعا لقاله، وروَّه لحاله، ومشاهدة للكيف الذى تطلبه، دون سوَّله، فقد حلق على ذلك المثلث البارع من مراتب العلم وزيادة هى من ميزات اول العابدين وآخر النبيين.

و ترى ما هو موقف العاطف فى، أ وَ لَمْ تُؤْمِنْ؟ إنها تبرءه لساحة الخليل أَلَا يُوْنُ بوعد الجليل، فان، أ وَ لَمْ تُؤْمِنْ، تشعر بإمكانية عدم إيمانه، ولكن الواو تعطف الى محذوف معروف، أنك بعد ما آمنت بالبينات، أ وَ لَمْ تُؤْمِنْ، كما ترجوه وبه تظمنن؟ قال بلى، آمنت

«وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، بِحَقِّ الْيَقِينِ، حَظْوَةٌ مِنْ حَيْطَةٍ عِلْمِيَّةٍ بِ «كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، كَمَا يُمْكِنُ لغيرِكَ يَا رَبِّ، فَمَا ذَلِكَ السُّؤَالُ إِلَّا لِسُؤَالِ التَّشْوِيفِ إِلَى مَلَاسَةِ سِرِّ الصَّنْعَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَمَلَاسَةِ الْمَلَكُوتِ: «وَكَذَلِكَ نُرَى إِبرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ، إِنَّهُ أَمْرٌ وَرَاءَ الْإِيمَانِ بِالْبِرْهَانِ وَالْبِرْهَانُ لِلْإِيمَانِ، إِنَّهُ تَطَلُّبٌ لِرُؤْيُ السِّرِّ الرَّبَّانِيِّ فِي كَلِمَةِ التَّكْوِينِ كَمَا يُسْمَحُ لِمِثْلِ الْخَلِيلِ مِنْ عَطْفِ الْجَلِيلِ، فَلَا تُحِيلُهُ اسْتِحَالَةُ الْحَيْطَةِ عَلَى الْمَلَكُوتِ، فَانْ لَهَا مَرَا حِلَّ تَخْتَصُّ قَمَتَهَا بِاللَّهِ تَعَالَى وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا.

صحيح انه هو- فقط- عالم الغيب ولا يظهر على غيبه أحدا، ولكن قد يستثنى من ارتضى إلا من ارتضى من رسول، قد يظهره على غيب له دونما يختص بساحته تعالى. ٢٥٢
«قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ... هُنَا نَتَعَرَّفُ إِلَى أبعادِ «تُحْيِي الْمَوْتَى، وَانْهُ لَمْ يَكُنْ- فقط- لغرضِ رُؤْيُ أصلِ الإحياءِ، بل وكذلك رُؤْيُ جمعِ مختلفِ الأجزاءِ من مختلفِ الأمواتِ، فلو ان كان القصد هو أصل الإحياء لكان يكفي من الطير واحد ثم الزائد زائد باند، إذ لا يتعلق بالزائد فائد ولا عائد، وفصيح الإجابة وبلغها إنما هما في إجابة وفق السؤل.
فقد زود الخليل عليه السلام- إذا- بمزيد إراءة الملكوت لإحياء الموتى أصلا وفصلا، وهو القول الفصل هنا في الإجابة عن «كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى».

كما وان في «الطير، ميزة عن غيرها في تلك الإراءة البارعة، فكما الطير تطير أحياء، كذلك نجعلها تطير أمواتا حيث «يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا، وَذَلِكَ أبداع من تطاير اجزاء أية دابة.
و مما لا بد منه في «اربعة، ان تكون من صنوف أربعة، ولكي تصبح في «فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ، متخالطة بعضها ببعض، فيصبح إحياءهن ورجعهن الى ما كن أول مرة، دليلا ناصعا على ان الخلط في خلط ليس ليخلط على الله تمييز الأجزاء في الإحياء.
فقد تفضل عنا أجزاء حيوان في مثله، ثم يضلان في ثان ثم ثالث ثم رابع، ولكنها ليست لتفضل عن الله تعالى شأنه، كيف وهى لا تفضل عن ملك الموت فانه يتوفى الأرواح والأجساد دونما زلة ولا ضللة، بإذن الله، ثم ترجع كما كانت بإذن الله!

فَخُذْ ... فَصْرُهُنَّ إِلَيْكَ ... صرهن، من صار يصور صوراً، مال، وحيث تعديت ب إلى، فهي الإمامة، وقد تأتي بمعنى القطع والفصل.

و قد يجوز ان تعني صرهن، كلا الإمامة والقطع، فهي في الأولى لازم وفي الثانية متعد، و قد عنى هنا منها الجمع، ف إليك، نص في الإمامة، وبضمها القطع بمعناه الآخر، فقد جمع فيها بين إمالة الطير الأربعة إليه ثم تقطيعها، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا. فقد استفاد تقطيع الطير هنا من صرهن، ثم من، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا، حيث الجزء لا يطلق على كل واحدة من الطير، وانما أجزاء المجزأة بالتقطيع.

و لماذا الإمامة قبل التقطيع؟ انها لمعرفة شاملة بها حتى يعرفها بعد الدعوة انها هيه بأعيانها دون غيار، كما وان في تلك الإمامة أنسا لها به عليه السلام لا ينسى بالإماتة، ولولا ذلك الأنس لما أجابت دعاءه أن يَا تَيْنَكَ سَعِيًّا، فانما الناتج عن إحيائها - وهو فعل الله - أن تحيي فتطير حيثما شاءت، دون جهة خاصة يعينها ابراهيم الخليل عليه السلام.

فقد تلمح فَصْرُهُنَّ إِلَيْكَ، ان احياءهن لم يكن من فعل ابراهيم، وكما انه تطلب من ربه أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، لا أحيى الموتى.

و كما توَّده، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تَيْنَكَ سَعِيًّا، حيث الدعاء الموجه إليهن - كطير - لا الموجه إلى أجزائهن، دليل أمره بدعائهن بعد إحياءهن، فهن يَا تَيْنَكَ، دعاء سعيا، حيث انسن بك من ذى قبل، وترى كل جبل، تعنى كل جبل الدنيا؟ وهو تكليف بالعسير العسير، دون ان يحوى يسيرا من الحكمة في هكذا عسيرا!

إنها بطبيعة الحال هي الجبال المحيطة به في الأفق الذي كان يعيش فيه، اربعة او عشرة أماهيم، والاستدلال ب جزء، هنا ان الجزء عشر في عرف القرآن، مبنى على تأكد العشرة من

¹ في لسان العرب: رجل أصور: مائل مشتاق، صرت إلى الشيء: أملت، في رأسه صور اي ميل، و في صفة مشبهه صلى الله عليه وآله كان فيه شيء من صور اي ميل- اي إذا جد به السير لا خلقة، و في حديث عمر: نتعطف عليهم بالعلم قلوب لا تصورها الأرحام اي لا تميلها، و في حديث ابن عمر: إني لأدني الحنظل مني و ما بي إليها صورة أي ميل و شهوة تصورني إليها، و في حديث عكرمة: حملة العرش كلهم صور، و هو جمع أصور و هو المائل العنق لثقل حملته.

² لسان العرب: و صرت الشيء أيضا قطعته و فصلته، قال العجاج: صرنا به الحكم و أعياء الحكما و في حديث مجاهد: كره ان يصور شجرة مثمرة، و الصوار القطيع من البقر.

كل جبل، وألا يأتي الجزء في سائر القرآن لغير العشر، وقد أتى للسبع: لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (١٥: ٤٤) فهم - إذا - سبعة اصناف، لكي تختص كل باب من السبعة بصنف منهم، وكما أتى لجزء طليق يعم كل جزء من الكل: وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانَ لَكَفُورًا مُبِينًا (٤٣: ١٥).

إذا فلا مجال للاستدلال بالجزء الأول على كونه العشر مهما ثبت ان الجبال هناك كانت عشرة، فالروايات المنسوبة الى أئمة اهل البيت عليهم السلام ان 'جزء' هي العشر بصورة مطلقة^١، إنها مختلفة لا يعنى منها إلا التجديل عليهم وتجهيلهم بأمثال هذه السنادات المدخولة اللهم الا بتأويل^٢ (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ: 'عزيز، فيما يريد، غالباً على أمره أيا كان 'حكيم، فى تحقيق مراده، دونما فوضى جزاف، ثم 'اعلم، هنا ليس علماً عن جهل، بل هو مزيد علم وكما أمر الرسول صلى الله عليه وآله: «وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا، وهناك الله علم ابراهيم علماً بما أراه كيف يحيى الموتى.

و إذا يستجاب ابراهيم الخليل عليه السلام فى 'كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، فبأحرى ان يستجاب الائمة من اهل بيت الرسول عليهم السلام، أن يحيى لهم بعض الموتى فى مقام المقارعة^٣ وهم مجتازون علم

^١ نور الثقلين ١: ٢٨١ فى الكافي متصلًا عن عبد الرحمن بن سبابة قال: ان امرأة أوصت إليّ و قالت: ثلثي يقضى به ديني و جزء منه لفلان فسألت عن ذلك ابن أبي ليلى فقال: ما أرى لها شيئاً ما ادري ما الجزء فسألت عنه أبا عبد الله عليه السلام بعد ذلك و خيرته كيف قالت المرأة و بما قال ابن أبي ليلى فقال: كذب ابن ابن ليلى لها عشر الثلث ان الله عز و جل امر ابراهيم عليه السلام فقال: اجعل على كل جبل منهن جزء و كانت الجبال يومئذ عشرة فالجزء هو العشر من الشيء. و رواه عنه عليه السلام مثله معاوية بن عمار استدلالاً بالآية، و عن ابان بن تغلب قال قال ابو جعفر عليه السلام الجزء واحد من عشرة لأن الجبال عشرة و الطيور اربعة.

و فيه ٢٧٨ عن العياشي عن عبد الصمد قال: جمع لأبي جعفر المنصور القضاة فقال لهم: رجل أوصى بجزء من ماله فكم الجزء؟ فلم يعلموا كم الجزء و شكوا فيه فأبرد بريداً إلى صاحب المدينة ان يسأل جعفر بن محمد عليه السلام رجل أوصى بجزء من ماله فكم الجزء فقد أشكل ذلك على القضاة فلم يعلموا كم الجزء فان هو أخبرك به و الا فأحمله على البريد و وجهه إلي فأتى صاحب المدينة أبا عبد الله عليه السلام فقال له: إن أبا جعفر بعث إلي ان أسألك عن رجل أوصى بجزء من ماله و سأل من قبله من القضاة فلم يخبروه ما هو و قد كتب إلي ان فسرت ذلك له و إلا حملتك على البريد إليه فقال ابو عبد الله عليه السلام هذا فى كتاب الله بين ان الله يقول- لما قال ابراهيم:

رب أرني كيف تحيى الموتى- الى قوله:- كل جبل منهن جزء، و كانت الطير اربعة و الجبال عشرة يخرج الرجل لكل عشرة اجزاء جزء واحدا ...

^٢ بل يقال ان الجزء مهما كن طليقا لأي جزء حين لا يحدد، ولكنه حدد فى القرآن بالسبع و العشر فحين لا نجد سبيلا لتحديد الجزء فى وصية و سواها فالمرجع هو القرآن و قضية الاحتياط فى الوصية ان تأخذ بأقل الجزئين.

^٣ نور الثقلين ١: ٢٧٦ عن العيون فى باب استسقاء المأمون بالرضا عليه السلام بعد جري كلام بين الرضا عليه السلام و بعض اهل النصب من حجاب المأمون فغضب الحاجب عند ذلك فقال بابن موسى لقد عدوك طورك و تجاوزت قدرك ان بعث الله تعالى بمطر مقدر وقته لا يتقدم و لا يتأخر جعلته آية تستطيل بها و صولة تصول بها، كأنك جئت بمثل آية الخليل ابراهيم عليه السلام لما أخذ رؤس الطير و دعا أعضاءها التي كان فرقها على الجبال تأتيه سعياً و تركب على الرؤس و خفقن و طرن بإذن الله عز و جل فان كنت

الكيفية، لأنهم يسأمون محمدا صلى الله عليه وآله وقد خصتهم آية التطهير بخاصة الطهارة المطلقة المتميزة عن كل طهارة لأي طاهر من العالمين من الملائكة والجنّة والناس أجمعين.

ابراهيم أمّة

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٢٠.

التعبير عن رجل واحد بأمّة هو منقطع النظير في القرآن، فإنّ الأمّة الرجل فما فوقه،^١

أ تراه يختص بوصف أمّة، لأنه بوحدته كان يحمل إيمان أمّة؟ والنبي صلى الله عليه وآله أحرى منه في هذا المعنى ولم ترد له وصفه بأمّة لا في كتاب ولا سنة! أم لأنه كان الوحيد في بداية امره موحدا لله^٢ فكأنه - إذا - أمّة موحدة، على ما كان له من صمود على توحيد الله في مختلف

صادقا فيما توهم فأحیی هذين و سلطهما عليّ فان ذلك يكون حينئذ آية معجزة فأما المطر المعتاد خلت أنت أحق بان يكون جاء بدعائك من غيرك الذي دعا كما دعوت و كان الحاجب أشار الى أسدين مصورين على مسند المأمون الذي كان مستندا اليه و كانا متقابلين على المسند فغضب علي بن موسى الرضا عليه السلام و صاح بالصورتين: دونكما الفاجر، فافترسناه و لا تبقىّ له عينا و لا أثر فوثبت الصورتان و قد عادتنا أسدين فقتلوا الحاجب و رضاه و هشماه و اكلاه و لحسا دمه و القوم ينظرون متحيرين مما يبصرون، فلما فرغا أقبلّا على الرضا عليه السلام و قالوا: يا ولي الله في ارضه ماذا تأمرنا ان نفعل بهذا أ نفعل به فعلنا هذا- يشيران إلى المأمون- فغشي على المأمون مما سمع منهما فقال الرضا عليه السلام قفا فوقفا ثم قال الرضا عليه السلام صبوا عليه ماء ورد و طيبوه ففعل ذلك به و عاد الأسدان يقولان:

أ تأذن لنا ان نلحقه بصاحبه الذي أفيناه؟ قال: لا- فان الله عز و جل فيه تدبيرا هو ممضيه، فقالوا: ماذا تأمرنا؟ فقال: عودا إلى مقركما كما كنتم، فعادا إلى المسند و صاروا صورتين كما كانتا فقال المأمون: الحمد لله الذي كفاني شر حميد بن مهران يعني الرجل المفترس، ثم قال للرضا عليه السلام يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الأمر لجنكم رسول الله صلى الله عليه وآله ثم لكم و لو شئت لنزلت عنه لك، فقال الرضا عليه السلام لو شئت لما ناظرتك و لم أسألك فان الله عز و جل قد أعطاني من طاعة ساير خلقه مثل ما رأيت من طاعة هاتين الصورتين، الا جهال بني آدم فإنهم و ان خسروا حظوظهم فلله عز و جل فيه تدبير و قد امرني بترك الإعراض عليك و اظهار ما أظهرته من العمل من تحت يدك كما امر يوسف بالعمل من تحت يد فرعون مصر، قال: «فما زال المأمون ضئيلا الى ان قضى علي بن موسى الرضا عليه السلام ما قضى».

وفيه ٢٨١ في الخرايج و الجرايح و روى عن يونس بن ظبيان قال: كنت عند الصادق عليه السلام مع جماعة فقلت: «قول الله لإبراهيم عليه السلام فخذ أربعة من الطير...»

أ كانت أربعة من اجناس مختلفة او من جنس واحد؟ قال: تحبون أن أريكم مثله؟ قلنا: بلى، قال: يا طاوس فإذا طاوس طار الى حضرتك ثم قال يا غراب فإذا غراب بين يديه ثم قال يا بازي فإذا بازي بين يديه ثم قال يا حمامة فإذا حمامة بين يديه ثم امر بذبحها كلها و تقطيعها و نشف ريشها و ان يخلط ذلك كله ببعضه ببعض ثم أخذ برأس الطاوس فقال يا طاوس فرأيت لحمه و عظامه و ريشه تتميز من غيرها حتى التصق ذلك كله برأسه و قام الطاوس بين يديه حياً ثم صاح بالغراب كذلك وبالبازي و الحمامة كذلك فقامت كلها حياً بين يديه.

^١ الدر المنثور ٤: ١٣٤ - اخرج ابن مردويه عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما من عبد يشهد له امّة الا قبل الله شهادته و الامّة الرجل فما فوقه ان الله يقول: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً...» وفي نور الثقلين ٣: ٩٣ عن الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: و الامّة واحدة فصاعدا كما قال الله سبحانه:

^٢ المصدر في تفسير العياشي عن سماعة بن مهران قال سمعت عبدا صالحا يقول: لقد كانت الدنيا و ما كان فيها الا واحد يعبد الله و لو كان معه غيره إذا لاضافة اليه حيث يقول: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» صبر بذلك ما شاء الله ثم ان الله أنسه بإسماعيل و إسحاق فصاروا ثلاثة و رواه مثله القمي عن أبي جعفر عليه السلام و ذلك انه على دين لم يكن عليه احد غيره فكان امّة واحدة ...

اجواء الشرك بالله، منذ تربيته في حضن آزر عمه، ثم في مواجهة نمرود الطاغية.
 ام لأنه أول بان جاهر باهر متجاسر لقواعد التوحيد، ولذلك يورّ الموحدون بعده وهذا
 النبي «أَنْ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»؟
 الأمة فعلة، فهي مرة من الأم: القصد والأصل، فهي قصد واحد ومقصد واحد، ولذلك تسمى
 كل جماعة تربطهم عقيدة واحدة او قصد واحد أمة، فإبراهيم - إذا - أمة فاعلية ومفعولية،
 فاعلية لأنه بوحدته كان موحدًا، ومفعولية حيث أوّم به فأصبح إمامًا في شرعة التوحيد،
 مهما فاقه بعض من اتبعه كهذا النبي والمعصومين من عترته معه.
 «قانتا لله»: خاشعا خاضعا متطامنا في كل أقواله وأحواله وأفعاله «حنيفا»: معرضا عما يخالف
 الحق «وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» في أية دركة من دركاته بدركاتهم، بل كان موحدًا حق
 التوحيد في كافة درجاته.

نجد في هذه وثلاث أخرى بعدها عشرة كاملة من أوصاف إبراهيم الخليل عليه السلام أو لاها «كَانَ
 أُمَّةً» وأخراها «أَنْ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» - ولأنه امام يقتدى به في ملّة التوحيد - وقد حملت
 آية الأمة ثلاثا منها والسبع الأخرى:

شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتِبَاهُ وَ هِدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي
 الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ ١٢٣.

ف «شاكرا» هي حالته على أية حال، ولأنعمه، نعم كافة النعم الربانية، فلذلك «اجتباها» على من
 سواه «وَ هِدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» نبوءة ورسالة ونبوءة وإمامة وخلّة أمّا هيه من هدى ربانية.
 ولماذا «لأنعمه» جمع قلّة دون «نعمه»: جمع كثرة؟ حيث الشاكر نعمة الله مهما بلغ من الشكر
 ذروته ليس ببالغ إلّا ذرته «وَ إِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا» فضلا عن شكرها، ثم و ادب
 العبودية الصالحة يعني معنى القلّة، استصغارا للشكر، واستعظاما للنعم بنعمته، وكما يقول
 أول الشاكرين والعابدين «ما عبدناك حق عبادتك».

فعلى الجملة «وَ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَيَاةً حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» وهو الصلاح
 القمة كما هو للأئمة بين المرسلين كنوح وموسى والمسيح ومحمد صلّى الله عليه وآله على درجاتهم.

و فى كونه من الصالحين تحقيق لدعوته «رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِنِي بِالصَّالِحِينَ» (٢٦: ٨٣) فالملحق اليه هو حقا الرسول محمد صلى الله عليه وآله وآله المعصومون، فإنهم أئمة فى كافة الدرجات مهما تأخروا عنه فى الولادات وكما يقول الرسول صلى الله عليه وآله: «كنت نبيا وأدم بين الماء والطين».

ثم، بعد هذه المراحل التسع لإبراهيم الخليل، «أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا حَنِيفًا أَنْتَ كَمَا هُوَ وَزِيَادَةٌ تَنَاسَبَ مَحْتَدِّكَ الرَّسَالَى، وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

أ ترى رسول الهدى وهو فى أعلى قمم العبودية والمعرفة الرسالية يتبع ملة إبراهيم، وهو رسول اليه وولى عليه كما هو على سائر النبيين: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (٣: ٨١)

؟! النص يأمره باتباع ملة إبراهيم دون اتباعه نفسه، وما هو إلا مشيه على صراط مستقيم فى كونه حنيفا وما كان من المشركين وسائر المواصفات العشر وذلك رأس الزاوية فيها، و: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَ لِيُؤْمِنُوا» (٣: ٦٨).

فلم يكن هذا النبي من متبعي إبراهيم، بل هو اولى اولياءه، السائر مسيره وإلى مصيره فى ملته، مهما كان اسبق منه فى ذلك السباق، حيث سبق كل الرفاق بين العالمين أجمعين.

و كيف يكون فى إبراهيم شخصه أسوء لخاتم المرسلين وَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ... (٦٠: ٤) - والحال انه لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا، (٣٣: ٢١).

فإبراهيم الذى لا يوسى للمسلمين بهذا الخصوص، كيف يوسى لرسول الهدى على وجه العموم، اللهم الا أسوء ملته وهى شرعة التوحيد، وهى أسوء فى صراط الله.

و ذلك تعريض عريض على الذين كانوا يظنونهم يتبع ملة اليهود أو النصارى وكما فى مصارحة قبلها «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولا كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين» (٦٧) (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، (٩٥).

فكلما فى الأمر هو اتباع ملته دون شخصه، وملته هى ملّة التوحيد الناصع الخالص، ومتبعوها درجات قدر المتابعات، دون فضل لسابق على لا حق الا فى سباق الدرجات.

ذلك ثم لا طريق للأكياس من المومنين أسلم من الاقتداء لأنه المنهج الأوضح ... فلو كان لدين الله تعالى سلك أقوم من الاقتداء لندب أوليائه وأنبياءه اليه،^١.

و فى مسرح الشرعتين: الإبراهيمية والإسلامية نرى توافقات جذرية واخرى فرعية لا نجدها بين أية شرعتين سلبيا وايجابيا ف: **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٢٤.**

فليس حكم السبت أصلا سائرا بين الشرائع الإلهية لكى يكون له دور فى الشرعة الاسلامية المشابهة للشرعة الابراهيمية.

و ترى ما هى مادة اختلافهم فى السبت حتى جعل عليهم السبت جزاء على اختلافهم فيه؟ فهل عرض عليهم كعطلّة اسبوعية واختلفوا فيه فجزاهم كلهم بما جعل؟ وهم متفقون فى عطلته مهما تخلف جماهير منهم عن أحكامه، وجعل السبت فى حكم الشرعة التوراتية ليس إلا بعد ما اختلفوا فيه، ف **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ!** ام اختلفوا فيه ردا للجمعة المعروضة عليهم، فأعرضت ثلثه وقبلت قلته فجعل عليهم عطلة عن العمل بديل الجمعة، وحرّم عليهم فيما حرم صيد الحيتان فاختلفوا فيه ايضا، ولا عطلة فى اية شرعة تحرم فيه الطيبات الا هذه جزاء بغيهم واختلفهم؟

وقد يروى عن النبى صلّى الله عليه وآله نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم يوم الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا والنصارى بعد غد،^٢.

و خماسية الآيات فى سبتهم تندد بهم فيما فعلوا به وافتعلوا: **وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آخَذُوا**

^١ مصباح الشريعة عن الامام الصادق عليه السلام مستندا الى هذه الآية و فى نور الثقلين ٣: ٩٤ فى محاسن البرقي عن عباد بن زياد قال قال لي ابو عبد الله عليه السلام يا عباد ما على ملة ابراهيم احد غيركم، وعن تفسير العياشي عن عمر بن أبي ميثم، قال سمعت الحسين بن علي عليه السلام يقول: ما احد على ملة ابراهيم الا نحن و شيعتنا و سائر الناس منها براء.

^٢ الدر المنثور ٤: ١٣٤- أخرجه الشافعي فى الام و البخاري و مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وآله ...

مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٢: ٦٥) (كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ، (٤: ٤٧) وَ قُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا، (١٥٤) (وَ سَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ، (٧: ١٦٦).

فقد اختلفوا في السبت رفضا لما عرضه الله واقترحا لسبتهم فجعل عليهم، ثم فسقوا واختلفوا فسبت عنهم في سبتهم صيد البحر فعتوا فاخذهم بعذاب بئيس. إذا فليس السبت من الشرعة الابراهيمية حتى تستمر.

ابراهيم والبلد الامن

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنِّي هُنَّ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَ مَا نُعْلِنُ وَ مَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)

آيات سبع تختصر في دعاء ابراهيم الخليل كل ما سأل في منحدر عمره وخاتمة أمره، انسان ذاكر شاكر لنعمت الله، يدعو ربه في بيته العتيق، بمشهد خاشع يظلمه الشكر وتشيع فيه الضراعة ويتجاوب فيه الدعاء في نعمة رحية تتموج ذاهبة الى السماء: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا...» مما يلمح بكون مكة بلدا حينذاك، وترى كيف يكون واد غير ذي زرع بلدا ولم يعمر بعد؟ علّه لأنه أم القرى مهما كان وقتئذ واديا غير ذي زرع، فهو بلد قبل عماره وبعده، قبل

بناء البيت وبعده، ولكنه قبل بناء البيت يدعو له كأنه ليس بلدا: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، (٢): (١٢٩) وقد يعنى جعل الأمن فيه حال كونه بلدا حيث جعل مركب يكفيه آمنا، امرا حديثا ولم يكن من ذى قبل.

و قد يلوح اختلاف الدعائين فى عديد من بنودهما انهما فى ظرفين، مهما اشتركا فى جهات أخرى فمن «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي، فى ابراهيم نعرف أنها السفرة الاولى الإبراهيمية حين أخذ اليه إسماعيل الرضيع وأمه.

و من «إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ، فى البقرة نعرف انها الاخرى حين كبر إسماعيل لحد إمكانية المساعدة معه لرفع القواعد من البيت، ف «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا، هى دعائه قبل بناء البيت بسنين، ولا اقل من عشر ام زاد، فهل انه كان بلدا حينذاك و لم يكن بعده بسنين بلدا حيث الاول «هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا، والآخر «هذا بَلَدًا آمِنًا؟.

انه فى الاول كان بلدا واقعيا مهما كان واديا غير ذى زرع، ام فى الحق بلدا لأنه يحمل مظاف الموحدين، وهو فى المستقبل عاصمة الرسالة الاسلامية، ثم هو فى الثانى كما الاول ام زاد، ولا ينافيه «هذا بَلَدًا آمِنًا، حيث المشار اليه هو البلد، والجعل هنا لثانى المفعولين ان يجعله آمنا دون اصل البلد.

ثم دعاءه هنا تنقسم الى قسمين بينهما لأقل تقدير عشر سنين، ف «إِنِّي أَسْكَنْتُ...هى فى سفرته الاولى ومعه إسماعيل الرضيع، ثم «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ... هى بعد مبلغ إسماعيل الحلم لحد يساعده فى رفع القواعد، وفى قوله «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ...لمحة انه لم يولد بعد إسحاق وإلا كان ضمن ما يدعو.

و ترى «آمنا، فى تلك الدعاء تعنى الأمن تكويننا؟ وقد نرى خلافه طول تاريخه كما لم يأمن

فيه الرسول صلى الله عليه وآله حيث ضرب وهتك وحوصر وأخرج حتى أخرج، لحدّ لا أُقسِمُ بهذا البلدِ، وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ، حيث استحلت حرمة في هذا البلد، كما والحسين عليه السلام خرج منه خائفا يترقب، ولحد الآن لا نرى أمنا واقعا فيه حيث السلطات المسيطرة فيه لا تبقى ولا تذر حرية للحجاج والمعتمرين وسائر الوافدين، حتى في تطبيق واجباتهم حسب مذاهبهم الإسلامية، كما وقد هدم البيت واحرق خلال التاريخ الاسلامي فضلا عما قبله، فأين - إذا - امته تكويننا؟.

ام أمنا تشريعيا؟ وهو يعم طول الزمان وعرض المكان ان شرع الله الأمن في تشاريعه كلها، وشرعه الله مؤنّة كلها.

ام إنه أمن زائد على سائر البلاد؟ وكذلك هو آمن كما نراه في محرمات الإحرام وسائر مناسك الحج والعمرة، وفي غيرهما للوافدين والقاطنين، فلذلك يختص بانه بلد آمن فيه آياتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، (٣: ٩٧) (أ) وَلَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا، (٢٩: ٦٧) (أ) وَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، (٢٨: ٥٧) (سِيرُوا فِيهَا لِيَالِيٍّ وَ أَيَّامًا آمِنِينَ، (٣٤: ١٨).

هذا - ومن مخلفات هوى الأفتدة والثمرات اليه طائف من الأمن تكويننا، فقد جمع فيه الأمان فَبَأَىٰ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ! ثم الأمن هذا يعم امن الروح والجسم عن كل ما يصيبهما، ومن ذلك الأمن عن عبادة الأصنام وكما حصل منذ الهجرة إلى المدينة، وكذلك الأمن عن العذاب وكما هو حاصل منذ تكونها حتى الآن والى يوم القيامة.

«وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» .. «بني» قد تجمع كل الانسال الناسلة من ابراهيم يوم دعى والى يوم الدين، وكيف يدعو «و اجنبنى» وهذه المجانبة هي من التكاليف المختارة للعالمين؟ لأنها بدوامها وكمالها بين محاولة بشرية حسب المستطاع، وبين توفيق رباني لولاه لكانت الحواجز الآفاقية والأنفسية تعرقل دون تحقيقها أم ثباتها وتكاملها، لذلك يتطلب من الله ان يجنبه وبنيه بعد ما اجتنبوا وكما نقول «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

و هل استجيب في بنيه كلهم؟ طبعا لا، إلا من آمن منهم، وكما دعى «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»، (٢: ١٢٤) فليس جنب تسييرا على مجانبة عبادة الأصنام، بل توفيقا لمن

آمن، فان الخير كله بيديه والشر ليس اليه.

ولماذا «بنى» دون من آمن ككل؟ انه تطبيق لأمر الله: «فُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا» (٦٦: ٦) وقاية بدعاء بعد وقاية بسائر السعى، ومن ثم سائر المومنين «وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ» وقد تعنى «بنى» ولد ابراهيم وإسماعيل وإسحاق.

ولماذا «بنى» بعد «و اجنبنى» دون المومنين اجمع، او من بنيه، او الناس أجمعين؟ .. انه تطبيق لترتيب التربية فى الدعوة كما قال الله: «فُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا» (٦٦: ٦) (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (٢٦: ٢١٤) ابتداء بنفس الداعية فى بعدى التحقيق والدعاء للمزيد، ثم الأقرباء والأنسباء، ثم سائر الناس.

وقد يعنى من «بنى» الأنبياء من ذريته كإسماعيل وإسحاق وذريتهما، وكما تلمح له «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» إسلاما لهم كما لهما، ام وفوقه كما فى محمد صلى الله عليه وآله وعترته المعصومين عليهم السلام.

ولماذا «الأصنام» فقط وعبادة الطواغيت اشر واطغى؟ لأنها أعم حيث يعبدها المستضعفون المضللون بطواغيتهم الدعاء إليها مهما كانوا هم معبودين لهم كوساط فى تلك العبادة. ففرعون نفسه ونمرود واضرابهما كانوا يعبدون أصناما كما كانوا يعبدون، فالأصنام اشمل صيغة تعم كل معبود سوى الله، هكذا، ام وهى أعم من أدناها النفس الامارة بالسوء، وأعلاها الطواغيت، وهذا المثلث هو الأصنام مهما اختلفت دركاتهما، كما وان عبادة الله - ايضا - درجات.

ولماذا «و اجنبنى» ضما لنفسه فى بنيه وهو صون بالعصمة الإلهية عما دون ذلك فضلا عن عبادة الأصنام؟ انه طلب للثبات على شرعة التوحيد، كما يطلب الرسول صلى الله عليه وآله ضمن سائر المكلفين «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

و درجات ذلك الجنب تختلف حسب درجات المجنبيين كدرجات الهداية الإلهية حسب المهتدين.

رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦).

نسبة الإضلال الى الأصنام وهى لا تعقل لأنها مادة الضلال، وهو بين زوايا ثلاث ثابتهما

المضلل نفسه حيث يتقبل الضلال، وثالثها المضلل حيث يدعو الى الضلال، فيصح نسبة الإضلال إلى كل واحدة منها كما إليها كلها، وقد ينسب الى الله حين لا يمنع عن الضلال تسييرا ام توفيقا، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ، فلو لا مادة الضلال لم يكن هنالك دور لضال ولا لإضلال، ولو لا تقبل للضلال فلا دور لآخرين، كما لو لا المضلل فلا دور لمادة الضلال وتقبله اللهم إلا قليلا في هذا الأخير.

كما ان الله لو منع أيا من هذه الثلاث لم يوجد هناك ضلال، فنسبة المضل الى اى من هذه الثلاث وحتى الى الله، صالحة، بفارق انه من الله عدل، ومن المضلل والمضلل ظلم، وفي مادة الضلال كالأصنام لا عدل ولا ظلم الا إذا كان هو المضلل نفسه، فمادة الضلال «الأصنام، تضل، كما الضال يضل نفسه بتقبل الضلال، والمضلل يضلله بدعايته، والله يضل به بعد ما ضل حيث يتقبل، وعند ما ضل حيث لا يحول بينهما.

ثم «فَمَنْ تَبِعَنِي، يعم اتباعه في اصل التوحيد وسائر الشرعة الإلهية عقيدية وعلمية وتطبيقية، مهما كان متابعه في مثلثة المنازل، ممن هو فوقه كالرسول محمد صلى الله عليه وآله ام مثله كسائر اولى العزم، ام دونه كسائر النبيين والمرسلين وسائر المؤمنين، وهم كلهم اولى الناس به: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا، (٣: ٦٨) فقد يعنى «الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ، أمثاله فى ولاية العزم، ام اصحاب المنازل الثلاث كلهم تعميما قبل تخصيص، وعله اولى، مهما كانت متابعة هذا النبى فى اصل السلوك والمسلك لا فى رتبته و كما فى «الَّذِينَ آمَنُوا، فقد يعم «فَمَنْ تَبِعَنِي، متابعيه من ولده وسواهم، فَإِنَّهُ مِنِّي، وان بعدت لحمته، كما «وَمَنْ عَصَانِي، يعم العصاة من ولده وسواهم - فليس منى - وان قربت لحمته.

إذا ف «وَمَنْ عَصَانِي، يعم كافة العصاة لشرعة الله، المجانين سلوكه ومسلكه، سواء أ كانوا ملحدين او مشركين، ام موحدين عصاة متخلفين عن عملية الايمان كلا او بعضا، وبذلك تنحل المشكلة العويصة فى «فَأَنْتَكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» - «وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتَعَهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بئسَ المصيرُ، (٢: ١٢٦) (ما كان للنبي و الذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ... من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، و ما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعددها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ...، (٩: ١١٤).

فان الاستغفار لأصحاب الجحيم محرم فى شرعة الله ولا سيما للمشركين، فكيف يرجو ابراهيم لمن عصاه وأشرك، فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، غلطة ذات بعدين ثانيهما التحقق من غفر الله ورحمته؟. و الجواب ان «عصانى، يعم كل عصيان وقد يستثنى الإشراك بالله ممن مات مشركا، واما العصاة فى غير الإلحاد والإشراك، ام المشركون التائبون، فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» مهما كانت هنالك شروط، وهنا الخليل الحنون تبدو سمته العطفة حين لا يطلب الهلاك لمن عصاه من نسله وسواه، فلا يستعجل لهم العذاب بل ولا يذكر العذاب، وانما يكلهم الى غفران الله ورحمته، ويلقى على الجو ظلال الرحمة والمغفرة، حيث يتوارى ظل المعصية!.

فبرحمته يهدى من ضل منهم ان شاءوا، وبغفره يغفر العصاة من المهديين وسواهم، كمن أشرك ثم تاب.

هنا «وَمَنْ عَصَانِي، يفصل بينه وبين كافة العصاة مهما كانوا من ولده الأقربين، فليسوا- إذا- من اهله، كما هناك «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، تجعل كافة المؤمنين من اهله، فانما هى آصرة التقوى أهلة لتجعل أهلها أهلا، والطفوى قاحلة مستأصلة لكل اهل عن أهليته: يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ» (٢٣: ٢٧).

فمواصلة التقوى لا تعرف وتميز قريب اللحمة عن بعيدها، كما مفاصلة الطغوى لا تفرق بين قريبها وبعيدها وكما يروى عن رسول الهدى محمد صلى الله عليه وآله «ان ولى محمد من والى الله ورسوله وان بعدت لحمته وان عدو محمد من عادى الله ورسوله وان قربت لحمته، فلا يصدق ما اختلق عليه الصالحون لله والطالحون لى».

هنالك بين الناس ناس وأشباه ناس ونسناس، فالمعصومون- على درجاتهم- هم الناس و أشياءهم هم أشباه الناس، وسائر الناس هم نسناس، وقد شملت الآية الطوائف الثلاث!

^١ نور الثقلين ٢: ٥٤٧ فى روضة الكافي ابن محبوب عن عبد الدين غالب عن أبي عن سعيد بن الميت قال سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول: ان رجلا جاء الى امير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرني ان كنت عالما عن الناس و عن أشباه الناس و عن النسناس فقال امير المؤمنين عليه السلام يا حسين أجب الرجل فقال الحسين عليه السلام اما قولك أشباه الناس فهم شيعةنا و هم موالينا و هم منا و لذلك قال ابراهيم عليه السلام «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي»... أقول وفي حديث آخر سأله عليه السلام رجل عن الناس فقال للحسن عليه السلام أجبه فقال: نحن الناس و شيعةنا أشباه الناس و سائر الناس نسناس ثم أقول: و هذا التقسيم الثلاثي تستفاد من كلام الحسين عليه السلام مهما كان ظاهر الجواب عن أشباه الناس، فالناس- إذا- هم الناس، و سائر الناس لا ناس و لا أشباه ناس، فهم- إذا- نسناس. وفيه عن امالي الطوسي باسناده الى عمر بن يزيد قال قال ابو عبد الله عليه السلام يا بن يزيد أنت و الله من اهل البيت، قلت: جعلت فداك من آل محمد صلى الله عليه وآله ص؟ قال: اي و الله من أنفسهم، قلت: من أنفسهم جعلت فداك؟ قال: اي و الله من أنفسهم يا عمر أما تقرأ كتاب الله عز و جل: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» او ما تقرأ قول الله عز اسمه: «فَمَنْ

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧).

«من ذريتي» هو إسماعيل واهمه، فقد تدخل الزوجة في نطاق الذرية اعتبارا بالتبعية، كما و «لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ» هنا تدل عليه، حيث لم تكن له هناك من ذرية الولادة إلا إسماعيل عليه السلام. و «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ...» عرض له بتطبيق ما امر به، استعطافا بجماع الصفات من ربوبيته «ربنا» حين يرى واديا غير ذي زرع، وذلك عند انصرافه بعد إسكانهم لما بلغ كدى وهو جبل بذي طوى...!

«بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» وبطبيعة الحال ولا ضرع لأنه غير ذي زرع، لعدم ظهور الماء، وتوفر الرمال والصخرات، فلا يصلح - إذا - لزرع او ضرع، وبطبيعة الحال لا يهوى اليه الناس، وعلى اية حال «إِنِّي أَسْكَنْتُ...» بأمرك على إمره.

«عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ» محرما في تملكه لغير الله فانه بيت عتيق، فمحرما لحرمة التعرض له والتهاون به، وكما جعل من حوله حرما شاسعا حفاظا على مكانته وحرمته، حمى يحومه،

تَبَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ كَغُفُورٍ رَجِيمٌ» أقول وقد تظافرت الروايات في هذا المعنى عن الرسول صلى الله عليه وآله و أئمة أهل بيته عليه السلام.

١. نور الثقلين ٢: ٥٤٨ - القمي حدثني أبي عن النضر بن سويد عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ان ابراهيم عليه السلام كان نازلا في بادية الشام فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غما شديدا لأنه لم يكن له منها ولد و كانت تؤوي ابراهيم في هاجر و تغمه فشكا ابراهيم عليه السلام ذلك الى الله عز و جل فأوحى الله اليه: انما مثل المرأة مثل الضلع العوجاء ان تركتها استمتعت بها و ان أقمته كسرتها. ثم امره ان يخرج إسماعيل و امه عنها فقال: يا رب الى اي مكان؟ قال: الى حرمي و امتي و أول بقعة خلقتها من الأرض و هي مكة فانزل الله عليه جبرئيل عليه السلام بالبراق فحمل هاجر و إسماعيل و ابراهيم عليه السلام عليها و كان ابراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر و نخل و زرع الا و قال: يا جبرئيل الى هاهنا الى هاهنا؟ فيقول جبرئيل: لا- امض امض حتى و افي مكة فوضعه في موضع البيت و قد كان ابراهيم عاهد سارة ألا ينزل حتى يرجع اليها فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجرة فألقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها فاستظلوا تحته فلما سرحهم ابراهيم و وضعهم و أراد الانصراف عنهم الى سارة قالت له هاجر: يا ابراهيم لم تدعنا في موضع ليس به أنيس و لا ماء و لا زرع فقال ابراهيم: الله الذي امرني ان أضعكم في هذا المكان حاضر عليكم ثم انصرف فلما بلغ كدى .. فقال: ربنا

وفيه عن الفضل بن موسى الكاتب عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: ان ابراهيم عليه السلام لما اسكن إسماعيل و هاجر مكة و دعها لينصرف عنها بكيا فقال لهما ابراهيم ما بيكيكما فقد خلفتكما في أحب الأرض الى الله في حرم الله، فقالت له هاجر: يا ابراهيم ما كنت ارى ان نبيا مثلك يفعل ما فعلت- قال: و ما فعلت؟ قالت: إنك خلفت امرأة ضعيفة و غلاما ضعيفا لا حيلة لهما بلا أنيس من بشر و لا ماء يظهر و لا زرع قد بلغ و لا ضرع يحلب! قال: فرق ابراهيم و دمعت عيناه عند ما سمع منهما فاقبل حتى انتهى الى باب بيت الله الحرام فأخذ بعضادتي الكعبة ثم قال: «اللهم اني أسكنت من ذريتي ..» قال ابو الحسن عليه السلام: فأوحى الله الى ابراهيم: ان اصعد أبا قبيس فناد في الناس: يا معشر الخلائق ان الله يأمركم بحج هذا البيت الذي بمكة محرما من استطاع اليه سبيلا فريضة من الله، فمد الله لإبراهيم في صوته حتى اسمع به اهل المشرق و المغرب و ما بينهما من جميع ما قدر الله و قضى في أصلاب الرجال من النطق و جميع ما قدر الله و قضى في أرحام النساء الى يوم القيامة فهناك يا فضل و جب الحج على جميع الخلائق و التلبية من الحاج في ايام الحاج هي إجابة لنداء ابراهيم عليه السلام يومئذ بالحج عن الله.

ومحرما لم يزل منذ خلق الله الأرض، عزيزا ممتعا متمنعا يهابه كل جبار وكما امتنع من طوفان نوح ومن اصحاب الفيل حيث جعل كيدهم فى تضليل، ومحرمًا على زائريه الوافدين او القاطنين فيه ما لا يحرم على سواهم فى سلوب من الإحرام ومحرماته، ومحرمًا قتل اللاجئين اليه والقتال عنده الا إذا اقتضت الضرورة.

لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ، فانه قبله المصلين، والمحور الرئيسى لإقام الصلاة، وهو اول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين.

و فى إقام الصلاة كما يحق إقام للدين كله، وقد «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ، قِيَامًا فى كل ما تتطلبه شرعة الله، فى صلاة عبادة وفى صلوات فى ذلك الجسم الغفير والجمع الوفير بتلك الصور الوضوء الجامعة للمسلمين المستطيعين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله.

ف لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ، ليست لتختص بالصلاة كصلة فردية بين العبد والمعبود، بل وكافة الصلوات فى كافة الحاجيات الإسلامية القائمة بين المصلين فى مناسك الحج والعمرة، العبادية السياسية الحركية، دون انعزالية فى تقشف عبادى جاف، تفكيكا للدين عن السياسة وللسياسة عن الدين، فى حين ان الدين هو السياسة والسياسة الصالحة هى الدين دون فكاك إلاً بافتكاك الدين عن حالته القيادية.

ثم إن إقام الصلاة عند البيت المحرم- وهو قبله المصلين، ومولد الوحي ومهبطه، وعاصمة الرسالة القدسية الاخيرة- ان ذلك يجعل مكان البيت أسوء للموسنين وقدوة للمقتدين، فإقام الصلاة فيها أقوم من غيرها إقاما لها بين جموع المسلمين.

«فَجَعَلَ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، والهوى هو النزول من عل إلى انخفاض كالهبوط، مبالغة فى صفة الأفتدة- وهى هنا القلوب المتفتدة بنور الهدى- مبالغة بالنزوع الى المقيمين بذلك المكان، فالهوى- إذا- هو انزعاج الهاوى من مستقره الى ذلك المكان لمكانته.

و قد جعل الله أفتدة من الناس تهوى إليهم، من استطاع منهم اليه سبيلاً ومن لم يسطع هوىا فى بعدى التكوين والتشريع، فمن لا يستطيع يهواه كمن يستطيع.

و انما «أَفْتِدَةٌ مِنَ النَّاسِ، دون «أفتدة الناس، ليحور على محوره كل الناس؟ لان من الناس

نسناس، ففى هوى افندتهم اليه هويه عن موقفه، وزوال لأمنه، واطاحة بكرامته، والناس هنا هم المسلمون المستطيعون فرضا ونفلا: «وَ أذُنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ».

اما انه لم يعن الناس كلهم، أنتم أولئك ونظراءكم.^١

«وَ ارزُقَهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ، ومن أهمها ثمرات القلوب،^٢ ثم وسائر الثمرات، حيث تحمل إليهم من الآفاق وقد استجاب الله له حتى لا يوجد فى بلاد الشرق والغرب ثمرة لا توجد فيها حتى حكى انه يوجد فيها فى يوم واحد فواكه ربيعية وصيفية وخريفية وشتائية.^٣

لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، نعمة الأمن وهوى الافئدة ورزق الثمرات، يشكرون، فى ذلك البلد الآمن وسواه، وقد نرى فى ذلك التعبير العبير رفرقة ورقة تصور القلوب رفاة مجنحة، وهى تهوى الى البلد الآمن واهله حيث تهواه، فى ذلك الوادى الجذب اليابس، حيث يندى برقة القلوب ورفرتها.

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨).

هنا «ما نخفى» يعنى عن أمثالنا، «وَمَا نُعْلِنُ» لأمثالنا، فكل ذلك لك علن، وبصيغة سائغة عامة «وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ» دون «شياء» إذ قد يعلم شىء ويخفى منه شىء، ف «من شىء» يستأصل فى هذا السلب «ما يخفى» كل شىء بكل شئته وكافة جوانبه ونواحيه فى اى زمان او مكان وأيا كان «وَمَا يَخْفَى ... فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» ولأن الأرض والسما هما عبارة اخرى عن الكون كله، فذلك حيطه مستغرقة للكون كله.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩).

^١ نور الثقلين ٢: ٥٥١ فى تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام «أَفْنَدَةُ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» اما انه .. و انما مثلكم فى الناس مثل الشعرة البيضاء فى الثور الأسود ..

^٢ المصدر فى عوالي اللئالي قال الصادق عليه السلام فى تفسير الآية هو ثمرات القلوب.

^٣ المصدر عن العوالي و قال الباقر عليه السلام ان الثمرات .. أقول: علن حتى حكى- الى- شتائية، من كلام الراوي فان الامام لا يحتاج فى أمثال هذه الأمور البسيطة الى النقل و هو يشهد الحرمين سنويا أكثر من غيره.

إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي، فِي الْبِدَايَةِ كَانَتْ فِي طُفُولَةِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ... هِيَ فِي رَجُولته وَقَدْ رَزَقَ بَعْدَهُ إِسْحَاقَ، فَبَيْنَ الدَّعَائِينَ بُونَ بَيْنَ الطُّفُولَةِ وَالرَّجُولَةِ، وَكَمَا بَيْنَ «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ... وَكَذَلِكَ الْبُونَ - عَلَيْهِ - بَيْنَ «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا، أَنَّهُ حِينَ اسْكَنَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ فِيهِ، وَبَيْنَ «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا». هُنَا لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ، تَلْمَحُ أَنَّهُ سَأَلَهُ تَعَالَى أَنْ يَهَبَ لَهُ ذُرِيَةً فَوْهَبَهُ، وَهَبَهُ الذَّرِيَّةَ عَلَى الْكِبَرِ وَتَقْضَى الْعَمْرَ وَقِضَاءَ الْأَمْرِ أَنَّهُ أَوْقَعَ فِي النَّفْسِ، فَانْهَاطَ امْتِدَادًا، وَمَا أَجَلَ الْإِنْعَامَ بِهَا عِنْدَ شَعُورِ الْإِنْسَانِ بِقَرَبِ الْأَجْلِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَتْ ذُرِيَةٌ طَيِّبَةً، وَلِذَلِكَ يَشْفَعُ دُعَاؤُهُ بِإِصْلَاحِ ذُرِّيَّتِهِ بَعْدَ إِصْلَاحِهِ نَفْسَهُ.

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠).

أَوْ لَمْ يَكُنْ شَيْخَ الْأَنْبِيَاءِ وَامَامَ الْمُرْسَلِينَ مُقِيمَ الصَّلَاةِ، حَتَّى يَتَطَلَّبَ فِي مَنْحَدَرِ عَمْرِهِ وَنَهَايَةِ امْرِهِ «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ؟ أَجَلَ، وَلَكِنَّهُ يَتَقَاضَى إِقَامَ الصَّلَاةِ فِي قِمَّةِ الْإِسْلَامِ وَالتَّسْلِيمِ وَكَمَا فِي شَطْرِ آخِرِ مِنْ دُعَاؤِهِ: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ...» (٢): (١٢٨).

دُعَاءُ بَارِعٍ، ضَارِعٍ خَاشِعٍ، يَضُمُّ فِيهِ إِلَى نَفْسِهِ «مِنْ ذُرِّيَّتِي» إِذْ يَرَى أَنَّ كُلَّ ذُرِّيَّتِهِ لَا يَسْتَأْهِلُونَهُ، وَمَا أَلْطَفَهُ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَأَعْطَفَهُ، حَيْثُ تَضُمُّ فِي جَنَابَتِهِ كُلَّ مَدَارِجِ التَّسْلِيمِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِأَنَّ الْبَيْتَ مُحَطَّ إِقَامِ الصَّلَاةِ، فِيهِ وَمِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، حَيْثُ يَقِيمُونَ وَجُوهَهُمْ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَفِي إِقَامِ الصَّلَاةِ إِقَامَ لِكَاثَةِ الصَّلَاتِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ وَسَائِرِ الْعِبَادِ.

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١).

أُتْرَى «لِوَالِدِي» مُحْرَفٌ عَنِ «لِوَالِدِي إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ»؟ أَمْ هُمَا «آدَمُ وَحَوَا» فَإِنَّ أَبَاهُ آذَرَ كَانَ

^١ نور الثقلين ٢: ٥٥٢ عن المجمع وقرأ الحسين بن علي و أبو جعفر محمد بن علي «و لولدي» وعن العياشي عن أحدهما مثله باضافة يعني إسماعيل و إسحاق و فيه عن جابر قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوَالِدِيَّ» قل: هذه كلمة صحفها الكتاب، انما كان استغفاره لأبيه عن موعده وعدها إياه و انما كان «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوَالِدِيَّ» يعني إسماعيل و اسحق، و الحسن و الحسين و الله ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله. أقول و هذه فريفة جاهلة قاحلة على الإمامين عليه السلام و ليست الا من خلفيات جهالات من رواتها، إذ لم يعرفوا المعني من «والدي» و لم يمعنوا النظر في هذه الآيات.

مشركا ومات مشركا فهو من اصحاب الجحيم، وما كان للنبي و الذين آمنوا أن يستغفروا
 للمشركين ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أصحاب الجحيم، وما كان
 استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.. (٩: ١١٤)
 أ فبعد ما تبرأ منه وبعد كبره وتكامله في محتد النبوة يكذب ربه في تبرأ منه فيدعو له في
 ختام دعواته؟.

و لكن «الدى» ليست لتخص آدم وحواء وله آباء وأمهات منذ والديه إليهما هم كلهم
 مؤنون! ومنهم من هم أفضل منهما كنوح عليه السلام.

و «ولدى» تخريج فيه تهريج وتخريج لموقف القرآن ذودا عن موقف ابراهيم دون تأمل في
 مغزى الآية! وتهريج موقف القرآن اهرج واحرج من تهريج ابراهيم القرآن! ثم الوالد أخص
 من الأب، فانه يعمه والجد للأم، والعم، والوالد يخص من ولدك، فقد كان - إذا - والده غير
 أبيه، صيانة للعصمة الابراهيمية وأحرى منها العصمة الإلهية عن صراح الكذب:

اول بيت وضع للناس فيه مقام ابراهيم

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥).

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ، في كل قال وأنتم كاذبون، فان كنتم صادقين انكم على مله ابراهيم فاتبعوا
 مله إبراهيم حنيفاً، فلا تشركوا بالله فانه ما كان من المشركين، بالله في أى شأن من شؤن
 الربوبية.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ
 إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ
 فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

إعلان صارخ في هذه الإذاعة القرآنية - العالمية - بأولية مطلقة لبيت الله الحرام، ردا على

^١ المصدر عن العياشي عن ذكره عن أحدهما عليهما السلام انه قرأ «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ» قال: آدم و حواء، أقول و التعارض بين
 الروايتين في لفظ الآية دليل قسور الفهم عن معناها.

شطحات يهودية أن القدس أقدس منه^١ فليكن هو المطاف والقبلة وكما كان فى فترة، والأصل على مدار الزمن الرسالى هو الكعبة المباركة قبله ومطافا للعالمين! «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ .. (٢: ١٤٢).

يذكر البيت الحرام فى ساير القرآن عشرين مجردا كما هنا، وثلاثا منسوبا فيها إلى الله، وثلاثا أخرى إلى الناس، مما يدل على أنه ليس لله بيتا كما للناس، فهو للناس بيت قبله ومطاف ومعتكف، والله بيت يعبد فيه، فهو بيت الله وبيت الناس^٢.

و هنالك مواصفات لهذا البيت العتيق فى عدة آيات، منها هنا سبع، عدد السموات السبع والأرضين السبع والأسبوع السبع والطواف بالبيت وبالصفاء والمروة السبع، والجمرات السبع، كما وان عدد أبواب الجحيم سبع تسكر بسبعى الطواف وسبعات الجمرات.

١ (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ...

علّ الصلة القريبة لهاتين الآيتين بما قبلهما- ولا سيما واتبعوا ملة إبراهيم حنيفا- أن من أهل الكتاب معترضين على الرسول صلى الله عليه وآله إذا تأمر باتباع ملة إبراهيم فكيف تستقبل الكعبة و تطوف حولها ونحن نقدرى القدس وهو كعبتها وشرعتها من شرعة إبراهيم؟ فجاء الجواب: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ ... وكذلك الآيات التى تقول إن إبراهيم هو الذى رفع القواعد من البيت.

الأول هو السابق الذى لا يسبقه أو يقارنه مثل له فى الممكنات، أم ولا يتأخر هو عنه كما الله تعالى، حيث هو الأول لا ثانى له والآخر لا أول قبله:

«هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (٥٧: ٣) والأول هنا هو من الأول إذ له أمثال بعده مهما كانت درجات، كما هو فى الدرجة القمة العليا، لا يساوى او يسامى. و «بيت» كمطلقة هو مكان البيتوتة والرياحة، بدنيا او روحيا او هما معا، فسواء أ كانت أرضا

^١ الدر المنثور ٢: ٥٣- أخرج ابن المنذر و الأزرقى عن ابن جريح قال بلغنا أن اليهود قالت بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء و لأنه فى الأرض المقدسة فقال المسلمون بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وآله فنزلت «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ»- إلى قوله: «فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» و ليس ذلك فى بيت المقدس «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» و ليس ذلك فى بيت المقدس «وَرَبُّهُ عَلَى النَّاسِ جَبَّارٌ» و ليس ذلك فى بيت المقدس.

^٢ الثلاث الأولى هي «وَطَهَّرَ بَيْتِي» ٢٢: ٢٦ (أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي) (٢: ١٢٥) (عِنْدَ بَيْتِكَ الْوُحُوشُ) (١٤: ٣٧) و الثانية هنا «أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ» و «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ» (٥: ٩٧) (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا) (٢: ١٢٥).

ملساء، ام وعليها بناية، فليشمل أرض الكعبة وهي مكان البيت كما يشملها بعد عمارتها.
 و الأولى هنا مطلقة تطم الزمنية والمكانية^١ وفي المكانة، مهما كان القصد من **بَيِّتٍ وَضِعَ**
لِلنَّاسِ بيوت العبادة^٢ فالواضع هو الله، والموضوع لهم هم كل الناس، فلا بيت يضعه الناس،
 بالإمكان ان يوضع لكل الناس دونما اختصاص.
 إلّا انه يشمل بيوت الناس بجنب بيوت الله، فهو الأول زمانا إذ وضعه الله للناس قبل كل
 وضع وموضوع له، حين دحى الأرض من تحتها.

^١ هنا روايات متواترة بشأن هاتين الأوليين ففي الدر المنثور ٢: ٥٢- أخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت ثم مهدت منها الأرض .. وعن أبي جعفر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: إن الله بعث ملائكته فقال: ابنوا لي في الأرض بيتا على مثال البيت المعمور وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور (رواه بلفظه الرازي في تفسيره ٨: ١٥٢ و التبيان بتفاوت يسير ١: ١٥٧ و بوجه أبسط الخازن ١: ٢٥٢ عن علي بن الحسين عليه السلام و الأزرق في أخبار مكة عن أبي جعفر عليه السلام عن أبيه عن علي بن الحسين عليه السلام ١: ٣٥ و حسين بن عبد الله بإسلامه في تاريخ الكعبة ٤٠).

وروى الكليني في الصحيح عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أراد الله عز و جل أن يخلق الأرض أمر الرياح فضرب متن الماء حتى صار موجا ثم أزيد فصار زبدا واحدا فجمعه في موضع البيت ثم جعله جبلا من زبد ثم دحى الأرض من تحته و هو قول الله عز و جل: **إِن أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ .. و قَالَ تَعَالَى و الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا و رَوَاهُ سَيْفُ بِنِ عَمِيرَةَ عَنِ أَبِي بَكْرٍ الْحَضْرَمِيِّ عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ (انظر الكافي (١٦) و الفقيه ٢: ١٥٤ و الأخبار الدالة على دحو الأرض من موضع الكعبة كثيرة انظر العياشي ١: ١٨٦ و البرهان ١: ٢٩٧ و نور الثقلين ١: ٣٠٣ و الوسائل الباب ١٨ من أبواب مقدمات الطواف ٢٩٧ و ٢٩٨ و الدر المنثور ١: ١٤٥- ١٤٧ و الطبري ٤: ٨ و أخبار مكة الأزرق ١: ٣١).**
 و البيت في هذه الأحاديث هو مكان البيت، فله الأولوية المطلقة على كل بيت كما روى العياشي عن عبد الصمد بن سعد قال أراد أبو جعفر أن يشترى من أهل مكة بيوتهم أن يزيد في المسجد فأبوا عليه فأرغبهم فامتنعوا فضاق بذلك فأتى أبا عبد الله عليه السلام فقال له: **إِنِّي سَأَلْتُ هَؤُلاءِ شَيْئًا مِنْ مَنَازِلِهِمْ وَ أَفْنِيَتِهِمْ لَنَزِيدَ فِي الْمَسْجِدِ وَ قَدِ مَنَعُوا ذَلِكَ قَدْ غَمَنِي غَمًا شَدِيدًا فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَعْمَكَ ذَلِكَ وَ حَجَّتْكَ عَلَيْهِمْ فِيهِ ظَاهِرَةٌ، قَالَ: وَ بِمَا أَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: بَكْتَابِ اللَّهِ، فَقَالَ:**
فِي أَيِّ مَوْضِعٍ؟ فَقَالَ: قَوْلَ اللَّهِ «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِيكَّتُهُ» قَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ هُوَ الَّذِي بِيكَّتُهُ فَإِنْ كَانُوا هُمْ نَزَلُوا قَبْلَ الْبَيْتِ فَلَهُمْ أَفْنِيَتُهُمْ وَ إِنْ كَانَ الْبَيْتُ قَدِيمًا قَبْلَهُمْ فَلَهُ فَنَاءٌ فَدَعَاهُمْ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِهَذَا فَقَالُوا لَهُ: اصْنَعْ مَا أَحْبَبْتَ.

و فيه عن الحسن بن علي النعمان قال: لما بني المهدي في المسجد الحرام بقيت دار في تربع المسجد فطلبها من أربابها فامتنعوا فسأل عن ذلك الفقهاء فكل قال له: أنه لا ينبغي أن تدخل شيئا في المسجد الحرام غضبا فقال له علي بن يقطين يا أمير المؤمنين إني أكتب إلى موسى بن جعفر عليه السلام لأخبرك بوجي الأمر في ذلك فكتب إلى والي المدينة أن يسأل موسى بن جعفر عليه السلام عن دار أردنا أن ندخلها في المسجد الحرام فامتنع عليها صاحبها فكيف المخرج من ذلك؟ فقال ذلك لأبي الحسن عليه السلام فقال أبو الحسن عليه السلام فلا بد من الجواب في هذا؟ فقال له:

الأمر لا بد منه فقال له أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم إن كانت الكعبة هي النازلة بالناس فالناس أولى بفنائها و إن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها، فلما أتى الكتاب إلى المهدي أخذ الكتاب قبله ثم أمر بهدم الدار فأتى أهل الدار أبا الحسن عليه السلام فسأله أن يكتب إلى المهدي كتابا في ثمن دارهم فكتب إليه أن أرخص لهم شيئا فأرضاهم.
 و أما ما بروى عن علي عليه السلام أن رجلا قال له: أهو أول بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت و لكنه أول بيت وضع للناس مباركا فيه الهدى و الرحمة و البركة و أول من بناه إبراهيم عليه السلام ثم بناه قوم من العرب من جرهم ثم هدم فيناه قريش فقد يعني من المتأخر عن بيوت عمارة البيت لإمكانه (رواه في البرهان ١: ٣٠١ عن ابن شهر آشوب عنه عليه السلام و أخرجه السيوطي عن ابن المنذر و ابن أبي حاتم من طريق الشعبي عنه عليه السلام و الرازي في تفسيره ٨: ١٥٤ و الأزرق في أخبار مكة ١: ٦١ و ٦٢ عنه عليه السلام بوجه أبسط.

^٢ الدر المنثور ٢: ٥٣- أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و ابن جرير و البيهقي في الشعب عن أبي زر قال قلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى ..

إن مكان البيت هو الأم لسائر الأمكنة الأرضية، كما مكة هي أم القرى من الناحية الرسالية، فليلبت بمكانه أمومتان اثنتان، فهو «أم القرى» في كافة الجهات، حيث دحيت كل شرعة إلهية - كأصل - منها، كما دحيت الأرض كلها من تحتها.

و الوضع هنا تكويني وتشريعي، وللناس، تعم جميع الناس طول الزمن الرسالي، مطافا للطائفين وقبله للمصلين، وكما نرى قبور النبيين وسائر الصالحين قبل الإسلام تجاه الكعبة المباركة دونما استثناء، في القدس نفسه وفي الخليل ودمشق ولبنان وإيران أم أيا كان من بلاد تضم قبور هؤلاء الكرام، وكما حجه النبيون اجمع^١ فهذا أقدس بيت على الإطلاق، فان واضعها هو الله الجليل، والمهندس هو جبرئيل، والباني هو الخليل والتلميذ إسماعيل، لذلك ف «المقام بمكة سعادة والخروج منها شقوة»^٢ و هي «دعامة الإسلام»^٣، و الصلاة فيه تسوي الف الف صلاة^٤ والطواف به صلوة، والمقام عنده فيه الفضيلة الكبرى، كما الصوم في رمضان مائة الف^٥.

^١ في روضة المتقين ٤: ٩٧ قال أبو جعفر عليه السلام أتى آدم عليه السلام هذا البيت ألف أتية على قدميه منها سبعمائة حجة و ثلاثمائة عمرة و كان يأتيه من ناحية الشام و المكان الذي يبني فيه الحطيم ... وفيه ١١٤ في الموثق كالصحيح عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: مر موسى بن عمران عليه السلام في سبعين نبيا على فجاج الروحاء عليهم العباء القطوانية يقول: لبيك عبدك و ابن عبدك .. وفيه في الحسن كالصحيح عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مر موسى النبي صلى الله عليه وآله بصفاح الروحاء على جمل أحمر خطامه من ليف عليه عياتان قطوانيتان و هو يقول: لبيك يا كريم لبيك- قال: مر يونس بن متى بصفاح الروحاء و هو يقول: لبيك كشاف الكرب العظام- قال: و مر عيسى بن مريم بصفاح الروحاء و هو يقول: لبيك عبدك ابن أمك و مر محمد صلى الله عليه وآله بصفاح الروحاء يقول لبيك ذا المعارج لبيك.

^٢ الدر المنثور ٢: ٥٣- أخرج الأزرقى عن عطاء بن كثير رفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله: المقام ...

^٣ المصدر- أخرج الأزرقى و الطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: هذا البيت دعامة الإسلام من خرج يؤ هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضمونا على الله إن قبضه أن يدخله الجنة و إن رده أن يرده بأجر أو غنيمة.

^٤ كما في الوافي عن الغيبة ٨: ١٠ قال صلى الله عليه وآله الصلاة في مسجدي كألف صلاة إلا في المسجد الحرام فإنه كألف صلاة في مسجدي.

^٥ الدر المنثور ٢: ٥٣- أخرج الأزرقى و الجندي و البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله من أدرك شهر رمضان بمكة فصامه كله و قام منه ما تيسر كتب الله له مائة ألف رمضان بغير مكة و كتب له كل يوم حسنة و كل ليلة حسنة و كل يوم عتق رقبة و كل ليلة عتق رقبة و كل يوم حملان فرس في سبيل الله و كل ليلة حملان فرس في سبيل الله و له بكل يوم دعوة مستجابة.

لقد رسم الخط حول مكان البيت وبناه آدم الصفي^١ ورفع القواعد منه الخليل الوفي، ووضع الحجر الأسود في مكانه الآن بعد خرابه هذا النبي صلى الله عليه وآله ويظهر عنده متكئا ظهره على جداره القائم المهدي عليه السلام فأما القرى هي العاصمة الإسلامية الكبرى كما كانت لرسول الهدى صلى الله عليه وآله وهي على طول خط الرسالات أم القرى لا تساوى ام تسامى.

و لماذا، «وُضِعَ لِلنَّاسِ، وَهُوَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ، أَجْمَعِينَ، مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ وَمِنْ سِوَاهُمَا مِنَ الْمَكْلُفِينَ أَجْمَعِينَ؟».

علّه لأنهم هو المحور الأساس في التكوين والتشريع، والجنّة هم على هامش الناس ثم لا خبر لنا عن سائر العالمين.

لَلَّذِي بِيَكَّةَ ...

و لماذا، لَلَّذِي بِيَكَّةَ، دون «الكعبة»، وهي أخصر، او «مكة»، وعلّها أظهر؟ علّه إذ قد تسمى غيره «كعبة»، مهما أصبحت بعد علما له! وأن «الكعبة»، تختص بالمبنى عليه تلك البناية، وِلَلَّذِي بِيَكَّةَ، تشملها قبل البناية وبعدها، والأولية الزمنية بالنسبة لبيوت العبادة المبنية ليست للكعبة المشرفة، وإنما لمكان البيت وبالنسبة لكافة البيوت عبادة وسواها، مبنية وسواها.

ثم «بكة»، من البك وهو الدفع حيث يدفع عنها من يقصد تهديمها هتكا من الطغاة اللئام لم يقصدها جبار بسوء الا اندقت عنقه^٢.

و هو الزحام لأنه مزدحم بالحجاج والمعتمرين، والأول يخص البيت والثاني محطّ البيت مهما عم الزحام كل البلد الحرام، ف «انما سميت مكة بكّة لان الناس يتباكون فيها»^٣.

^١ روضة المتقين ٤: ١١٦ روى أبو بصير في الموثق عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن آدم هو الذي بنى البيت و وضع أساسه و أول من كساه الشعر و أول من حج إليه ثم كساه تبع بعد آدم الأنطاع ثم كساه إبراهيم الخصف و أول من كساه الثياب سليمان بن داود عليه السلام، أقول: فالبيت الحرام هو قبل القدس بقرون فإن أول من خط بيت المقدس و اتخذ مسجدا داود عليه السلام و بناه سليمان من بعده فشقاد بنيانه و فسح أعطانه و جاء في الخبر أنه أصاب بني إسرائيل على عهد داود طاعون أسرع فيهم و ذهب بعلمتهم فخرج داود بالناس إلى موضع بيت المقدس فدعى الله سبحانه أن يرفع عنهم ذلك الموتان فاستجيب له فاتخذ ذلك الموضع مسجدا تبركا به و تعظيما له و بدأ بيناته فنودي قبل أن يستتمه بأوصى إلى سليمان عليه السلام باستتمامه فعملته من بناء سليمان حقائق التأويل للسيد الشريف الرضي.

^٢ في الموثق عن أبي جعفر عليه السلام كانت تسمى بكّة لأنها تبتك أعناق الباغين إذا بغوا فيها.

^٣ نور الثقلين ١: ٣٦٧ في كتاب العلل بإسناده إلى العرزمي عن أبي عبد الله عليه السلام ...

و لأنها يبتك بها الرجال والنساء والمرأة تصلى بين يديك وعن يمينك وعن شمالك ومعك ولا بأس بذلك إنما يكره في سائر البلدان،^١ ولأن الناس يبك بعضهم بعضاً فيها بالأيدي،^٢ لا لبكاء الناس حولها وفيها،^٣ لاختلاف «بكة» عن «بكي» في أصل اللغة والمعنى.

و أما «مكة» فهي من المك: الدحو والتحريك، حيث مكّ الله الأرض من تحتها، وعلّ اختصاص «بكة» بالذكر هنا دون «مكة»، وهما تعنيان البلد الحرام، للتأشير إلى أن مظهر البركة والهدى فيها للعالمين بادي من أذان الحج من بانها الخليل، مهما كانت قبلة ومطافاً قبله.

و قد تعنى «مكة» البلد الحرام كله، أو الحرم كله، و«بكة» هي موضع البيت، أو موضع الحجر الذي يبك الناس بعضهم بعضاً.

٢-٣ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ عَلَهِمَا حَالَانِ لِمَرِيعِ الْمُتَعَلِّقَاتِ: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ: مُبَارَكًا وَ هُدًى - وَضَع:

مباركا وهدى - للناس: مباركا وهدى - للذي بيك: مباركا وهدى، بركات بعضها فوق بعض وهدايا منذ وضعه الله إلى يوم الدين.

ثم «مباركا» اسم مفعول من بارك، والبرك هو في الأصل ثبات الشيء ويستعمل في كل فضل وفيض ماديا أو معنويا أو هما معا ف «ان للحق دولة وللباطل جولة، فهذا البيت مبارك ثابت النفع دون زوال، ومنه استقرار العبادة فيه واليه والطواف حوله دونما نسخ وتحوير.

و في الأصل العبراني ٦: ٦-٦: بارك ركع - سجد - أحنى الركبة، و: ٦: ٦-٦: برک بارك - مَجَّد - رَحَّب - حَنَّأ - هَنَّأ، و: ٦: ٦-٦: براكاه مباركة - تهنئة - تحية - تسبيح.

و البيت الذي بيك فيه كافة البركات مادية ومعنوية: «حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، (٥٧: ٢٨) (وَ ارزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ... (٢: ١٢٦).

^١ المصدر ٣٦٧ عن العلال بسند متصل عن الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام قال: ..

^٢ المصدر ٣٦٧ عن العلال بسنده إلى عبيد الله بن علي الحلبي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام لم سميت مكة بكة؟ قال: ..

^٣ المصدر ٣٦٦ عن العلال و بسنده إلى عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام لم سميت الكعبة بكة؟ فقال: لبكاء الناس حولها و فيها أقول: و هذا من المختلقات.

و من أهمها البركات الجماعية ثقافية وعقيدية وسياسية واقتصادية أماهيه، فانه: «قياماً للناس - ومثابة وأمنا ..، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ أَرْبَابُهُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ أَرْبَابُهُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ أَرْبَابُهُمْ ... (٢٢: ٢٨)»
و تراه كيف يكون «مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ» وحتى المسلمين لم يتبركوا به ويهدتوا كما يحق فضلا عن سائر العالمين؟.

إن بركته وهداه للعالمين فرض وواقع، فرض لمن استطاع اليه سبيلاً، وواقع لغير المستطيعين من المسلمين، لو ان الأولين حجّوه كما يجب شاهدين فيه منافع لهم وللكتلة المؤمنة، ثم واقع بصورة أوسع حيث تأس الدولة الإسلامية العالمية على كاهل الكون ايام المهدي القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف.

ذلك! ولأن للناس، هنا طليقة غير محدودة بناس دون ناس، نتأكد أنه «وُضِعَ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ دُونَ طَائِفِيَةٍ أَوْ أَقْلِيمِيَةٍ أَوْ عُنْصُرِيَةٍ لِنَاسٍ الْبَيْتِ كَمَا فِي سَائِرِ الْبَيْتِ».

ثم «وضع» دون «بنى» للتدليل على كل وضع فيه تكوينيا وتشريعيا وبركة وقبله ومطافا وعبادات أخرى، وسائر البيوت لا أولية لها في هذه الأوضاع ولا تسامى او تساوى الكعبة المباركة على الإطلاق.

كما وان صيغة المجهول مع «الناس» نائبا للفاعل دليل ان الفاعل الواضع ليس من الناس، إذا فذلك وضع تكويني وتشريعي من الله تعالى في اولية طليقة حقيقة بالأولوية الطليقة تشريعا وتكوينيا.

٤ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ...

و تراها فقط «آيات» تخرق العادات، دالة على الله بوحدانيته، فما هيه؟

و لم يذكر هنا إلا «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» وهي آية واحدة!

أم هي علامات مورات الى الأفضلية القمة المرموقة لهذا البيت بالنسبة لأى بيت؟ وقد لا تسمى العلامات - فقط - آيات، ولم تأت بمعنى العلامة إلا التي فى الشعراء «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ» (١٢٨).

أم هي آيات تشريعية تخصه، وتكوينية خارقه، وسواها علما لاختصاصه بين سائر البيوت بكل هذه الآيات؟ كأنها هيه جمعا بين المحتملات.

و نجد في مثلث الآيات المذكورات: «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ - وَ مَنْ دَخَلَهُ... - وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ، تَأْشِيرًا عَشِيرًا إِلَى كُلِّهَا، ف «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» تَكْوِينِيَّةٌ، وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، تَعْمَهُمَا وَ التَّشْرِيْعِيَّةُ، وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ، تَشْرِيْعِيَّةٌ، وَ التَّكْوِينِيَّةُ مِنْهَا تَعْمُ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ وَ مَطْلُقُ الْعِلْمَةِ.

ف آيَةُ تَشْرِيْعِيَّةٌ مُنْقَطَعَةٌ النُّظَيْرُ تَدُلُّ عَلَى أَوْلَيْتِهِ التَّشْرِيْفِيَّةِ، وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ، وَلَمْ يَضَعْ اللَّهُ بَيْتًا عَلَى مَدَارِ الزَّمَنِ الرَّسَالِي، يَفْرُضُ حُجَّهَ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا إِلَّا الْكَعْبَةَ الْمَشْرُفَةَ.

وَ أُخْرَى هِيَ فَرْضُ الْأَمْنِ لِمَنْ دَخَلَهَا زَائِدًا عَلَى مَا سِوَاهَا مِنْ بِيُوتِ اللَّهِ وَسِوَاهَا.

وَ ثَالِثَةٌ تَحْرِيْمُ الصَّيْدِ وَقَطْعُ الشَّجَرِ فِي حَرْمِهَا دُونَ سِوَاهَا، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ مَحْرَمَاتٍ وَوَأَجِبَاتٍ فِيهَا وَفِي إِحْرَامِ حُجَّهَا وَعَمَرْتِهَا.

وَ آيَةُ تَكْوِينِيَّةٌ خَارِقَةٌ الْعَادَةُ هِيَ الرَّابِعَةُ مِنْ آيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ بَكَ مِنْ قَصْدِهِ بِسُوءِ كَمَا حَصَلَ فِي أَصْحَابِ الْفِيلِ: «أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ!؟» وَمَا هَدَمَ حِينَما هَدَمَ تَوْهِينًا كَأَصْحَابِ الْفِيلِ.

وَ خَامِسَةٌ هِيَ مَوْضِعُ قَدَمِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْحَجَرِ الْمَوْجُودِ فِي الْمَقَامِ حَيْثُ هُوَ الْآنَ، إِذْ أَثَرَتْ قَدَمَهُ الْمُبَارَكَةَ حِينَ بَنَى الْبَيْتَ وَحِينَ أَدَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ^١.

وَ سَادِسَةٌ إِنْ الطَّيُورُ الْمَحْلُوقَةُ عَلَى فِضَاءِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، تَكَسَّرَ عِنْدَ وَصُولِهَا إِلَى فِضَاءِ

^١ فَمَا زَالَتِ الْكَعْبَةُ عَلَى بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى جَدَّهَا بَنُو جَرَاهِمَ ثُمَّ الْعَمَالِقَةُ ثُمَّ قَرِيْشٌ، ثُمَّ هَدَمَتِ الْكَعْبَةَ بِالسَّبِيلِ رَابِعَةَ قِيلِ الْبِعْتَةِ بِخَمْسٍ.

وَ كَانَ الْبِنَاءُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ حَتَّى تَسَلَطَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى الْحِجَازِ فِي عَهْدِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ فَحَارَبَهُ الْحَصِيْنَ قَائِدُ يَزِيدَ بِمَكَّةَ وَ أَصَابَ الْكَعْبَةَ بِالْمَنْجْنِيْقِ فَانْهَدَتْ وَ أَحْرَقَتْ كَسُوْتَهَا وَ بَعْضَ أَخْشَابِهَا ثُمَّ انْكَشَفَ عَنْهَا لَمُوتِ يَزِيدَ فَرَأَى ابْنَ الزُّبَيْرِ أَنْ يَهْدِمَ الْكَعْبَةَ وَ يَعِيدُ بِنَاءَهَا فَآتَى لَهَا بِالْجِصِّ النَّقِيِّ مِنَ الْيَمَنِ وَ بِنَاهَا بِهِ وَ كَانَ فَرَاغُهُ مِنْ بِنَائِهَا ١٧ رَجَبَ ٦٤ هَجْرِيَّةً.

وَ هَذِهِ الْإِصَابَةُ لَمْ تَكُنْ قَاصِدَةً إِلَى هَدْمِ الْبَيْتِ وَ هُنَاكَ حَرْمَتُهُ، وَ إِنَّمَا هِيَ مِنْ مَخْلَفَاتِ هَذِهِ الْحَرْبِ الظَّالِمَةِ، وَ لَوْ كَانَتْ قَاصِدَةً مَا أَصَابَهُمْ.

ثُمَّ هُنَا رِوَايَاتٌ صَحِيْحَةٌ أَنَّ الْبَيْتَ لَمْ يَغْرُقْ فِي طُوفَانِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا فِي الصَّحِيْحِ عَنِ سَعِيدِ الْأَعْرَجِ عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيْقُ لِأَنَّهُ أَعْتَقَ مِنَ الْغُرُقِ وَ أَعْتَقَ الْحَرَمَ مَعَهُ كَفَّ عَنْهُ الْمَاءُ رَوْضَةَ الْمُتَّقِيْنَ ٤: ٤.

ثُمَّ لَمَّا تَوَلَّى عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الْخِلَافَةَ بَعَثَ الْحِجَاجَ بْنَ يُوْسُفَ قَائِدَهُ فَحَارَبَ ابْنَ الزُّبَيْرِ حَتَّى غَلِبَهُ فَقَتَلَهُ وَ دَخَلَ الْبَيْتَ فَأَخْبَرَ عَبْدَ الْمَلِكِ بِمَا أَحْدَثَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ فِي الْكَعْبَةِ فَأَمَرَ بِإِرْجَاعِهَا إِلَى شَكْلِهَا الْأَوَّلِ فَهَدَمَ الْحِجَاجُ مِنْ جَانِبِهَا الشَّمَالِي سِتَّةَ أُنْرَعٍ وَ شِبْرًا وَ بَنَى ذَلِكَ الْجِدَارَ عَلَى أَسَاسِ قَرِيْشٍ، وَ هَذِهِ خَامِسَةٌ.

وَ لَمَّا تَوَلَّى السُّلْطَانُ سُلَيْمَانَ الْعُثْمَانِيَّ سَنَةَ ٩٠٦ غَيْرَ سَقْفَهَا، وَ لَمَّا تَوَلَّى السُّلْطَانُ أَحْمَدَ الْعُثْمَانِيَّ سَنَةَ (١٠٢١) أَحْدَثَ فِيهَا تَرْمِيمًا، وَ لَمَّا حَدَّثَ السَّبِيلَ الْعَظِيْمَ سَنَةَ (١٠٣٩) هَدَمَ بَعْضَ حَوَائِطِهَا الشَّمَالِيَّةِ وَ الشَّرْقِيَّةِ وَ الْغَرْبِيَّةِ فَأَمَرَ السُّلْطَانُ مَرَادَ الرَّابِعِ مِنْ مُلُوكِ آلِ عُثْمَانَ بِتَرْمِيمِهَا، وَ لَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى الْيَوْمِ (١٤٠٥) هَجْرِيَّةً، وَ لَمْ تَعْمُرْ إِلَّا دَاخِلِيًّا سَنَةَ (١٤٠٠) زَمَنِ الْمَلِكِ خَالِدٍ. فَلَا نَجْدَ فِي تَارِيْحِ الْكَعْبَةِ تَهْدِيمًا قَاصِدًا هُنَاكَ لِحَرْمَتِهَا إِلَّا مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ، وَ قَدْ جَعَلَ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ!

^٢ فِي حَسَنَةِ ابْنِ سَنَانَ أَوْ صَحِيْحِهِ عَلَى الْأَصْحَحِ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ «فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» مَا هَذِهِ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ؟ قَالَ: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ قَامَ عَلَى الْحَجَرِ فَأَثَرَتْ فِيهِ قَدَمَاهُ، وَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ وَ مَنْزِلُ إِسْمَاعِيلِ.

الكعبة، اللهم إلاً شاردة ماردة، فقد تراها- ككل - ممتعة من العلو على البيت الحرام، فلا يطير طائر إلا حوله من غير ان يعلو فوقه وقد تناصر الخبر وتواتر الأثر بذكره.

و لقد شاهدت أنا عند مقامى بمكة المكرمة فى سنتين من سننى هجرتى من شر الطاغوت الشاه عليه لعنة الله، شاهدت مقصدا تلك الآية البينة، فرأيت امتناع الطير من التحليق فوق البيت، حتى لقد كنت أرى الطائر يدنو من مكان سحيق ومنزع عميق فى أحد طير أنه و أمدّ خفقان جناحه حتى أظن انه قد قطع البيت عاليا عليه وجائزا به، فما هو إلا ان يقرب منه حتى ينكسر منحرفا ويرجع متيامنا او متياسرا فيمر عن يمين البيت او شماله، كأن لافتا يلفته او عاكسا يعكسه، وذلك من أطراف ما شاهدته هناك وجربته، اللهم عد بى الى بيتك واجعلنى فيه من أنصار مهديك القائم عجل الله تعالى فرجه، وكما رجوته حين أقمت فيه ولكن الله قضى امرا كان مفعولا.

و سابعة هى بئر زمزم حيث نبع فوارا أرتزيا منذ مس إسماعيل عقبه على أرضه، ولا يزال نابعا يزيد ولا ينقص، ثم وماءه لا يتسنه على طول المكوث مكشوبا على أية حال.

و ثامنة هى قصة الخليل عليه السلام لما أمر فى المنحر بذبح ابنه إسماعيل، فأخذ يضغط على المديئة ولكنها لا تقطع حيث «الخليل يأمرنى والجليل ينهانى».

و تاسعة هى ترك الذباب والبراغيث فى منى يوم الأضحى ويومين بعدها، وأرضها مليئة بالأشلاء العفنة والتنتة، فلا تجد أية موية فيها!

و عاشره هى حصى الجمار التى تؤذ من المشعر الحرام بالملايين الملايين سنويا، وليس سبيل ماء ولا مهب رياح شديدة! ثم ترى ذهاب تلك الحصى وخلو مواضعه منه على كثرة الرامين به واجتماعه فى مواضعه.

و حاد يعشرها انها تجبى إليها ثمرات كل شىء، والبلد الحرام نفسه كان قاحلا لا ماء فيه ولا كلاء، وحتى الآن وهما فيه قدر الحاجة لا ثمرات فيه من نفسه إلا من كل أكناف العالم.

و ثانى عشرها الأمن النسبى فيه - مهما شذ فيه للأمن - حيث الحروب وإراقة الدماء بعيدة عنه اكثر من غيره بكثير، ولحدّ لا تجد فيه افتراس السباع فضلا عن غيرها، كما وهو من احكامه تشريعا.

فترى الوحش والسباع إذا دخلته وصارت فى حدوده لا تقتل بعضها بعضا، ولا يُوَى بعضها بعضا، ولا تصطاد فيه الكلاب والسباع سوانح الوحوش التى جرت عاداتها بالاصطياد لها، ولا تعدو عليها فى أرض الحرم كما تعدو عليها إذا صادفتها خارج الحرم.

فهذه آية عظيمة من آيات الله البينات فى هذا البيت المبارك تدل دلالة عظيمة على أن الله تعالى هو الذى أبان هذا البيت بذلك من سائر بقاع الأرض، حيث حال بين السباع فيها وبين مجارى عاداتها وحوافز طباعها وعمل النفوس السليطة التى ركبت فيها حتى تمنع من موقعة الفرائس وقد اكتثبت لها وصارت أخذ أيديها، بل وتأنس بأضدادها وتأنس الأضداد بها!.

و قد تعنى «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» كل هذه الآيات لأنها فى مقامه الكعبة حيث رفع قواعدها، ومقامه الواضع قدمه عليه حيث موضع قدمه، ومقامه الزمزم حيث مقام اسماعيله بأمه، ومقامه المنحرف ومنى، فكل هذه يصدق عليها مقام إبراهيم، زمان قيامه ومكانه وأصل قيامه بما قام، وإنما خص بالذكر أمن المقام وفرض حج البيت، كنموذجين من الآيات التكوينية والتشريعية.

كما وان مقام ابراهيم أيا كان لهذا البيت المبارك هو من الآيات البينات لفضله على القدس وما سواه من البيوت المقدسة طول الرسالات، حيث ترى موضع قدم الخليل فى الصخرة حيث ألان الله سبحانه له أصلاها بعد الصلابة وخلخل أجزاءها بعد الكثافة حتى أثرت قدمه فيها راسخة وتغلغلت سانحة كما يتغلغل فى الأشياء الرخوة والأرض الخوارة.

فلذلك البيت فضله المنقطع النظير، لا يخلو قريبا من طائف او مصل، ولا بعيدا من مستقبل له فى صلاة وسواها، آناء الليل وأطراف النهار، فان قضية كروية الأرض دوران الآفاق فتداوم أوقات الصلوات الخمس فى كل الأوقات دونما استثناء.

و «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» ادبيا قد يكون مبتداء خبره المحذوف منها، او بدلا من «آيات» مع «من دخله» - والله ... او عطف بيان.

ه وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا

أ تراه أمنا شرعيا؟ ولا يخص البيت! فكل داخل فى بيت وسواه وخارج عنه آمن فى شرعة الله إذا لم يستحق خلاف الأمن كالجانى!.

ام امنا واقعيا؟ ولم يأمن فيه سيد الشهداء الحسين بن على عليهما السلام وكثير مثله تقتيلا او نفيا

وتشريدًا! فكيف يكون الأمن من ميزات بين البيوت وسواها من مدخل او مخرج؟!.

وقد سأل ابراهيم أمته: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا...» (٢: ١٢٦) فاستجيب له: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا» (١٢٥)!

قد يعني «أمنًا، أمنًا زائدا على سواه شرعيا وواقعا كما هو الواقع طول تاريخه المجيد، ولم يختص به أصل الأمن بنوعيه، وإنما أصبح أمنه الخاص فيهما من ميزاته.

فالكعبة آمنه كما هنا، والحرم الحاوى لها ولمكة كلها آمن: «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا» (٢٨: ٧٥) ولكن أين أمن من أمن.

فالداخل في الكعبة أو المسجد الحرام آمن مهما كان مجرما، ولكن يضيّق عليه فى المأكّل و المشرب حتى يخرج فيقام عليه الحد، إلّا إذا جنى فى نفس المسجد الحرام أو الكعبة المباركة فيقام عليه الحد فيما جنى^١ والكعبة المباركة هى منقطعة النظر فى ذلك الأمن كما فى سواه.

ثم «أمنًا، يعم بأس الآخرة إلى الدنيا وبأحرى، إلّا إذا دخل غير تائب عما اقترف، غير خارج عن معصية الله وهو فى حرم الله، فانه ناقض أمنه، لأنه ناقص فى دخوله^٢.

^١ الدر المنثور ٢: ٥٥- أخرج البيهقي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ من دخل البيت دخل في حسنة و خرج من سيئة مغفورا له وفيه أخرج البيهقي في الشعب عن جابر قال قال رسول الله ﷺ من مات في أحد الحرمين بعث آمنا- وفيه عن سلمان قال قال رسول الله ﷺ من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي و جاء يوم القيامة من الأمنين. وفي نور الثقلين ١: ٣٦٨ عن علي بن عبد العزيز قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك قول الله «ففيه آيات بيّنات مقام إبراهيم و من دخله كان آمنا» فقد يدخله المرجى و القدرى و الحرورى و الزنديق الذي لا يؤن بالله؟ قال: لا و لا كرامة! قلت: فمه جعلت فداك؟ قال: من دخله و هو عارف بحقنا كما هو عارف به خرج من ذنوبه و كفى هم الدنيا و الآخرة. وفيه عن أمالي الصدوق بإسناده إلى النبي ﷺ عن جبرئيل عن ميكائيل عن إسرافيل عن الله جل جلاله حديث طويل و فيه يقول في حق علي عليه السلام: و جعلته العلم الهادي من الضلالة و بأبي الذي أوتى به منه و بيّتي الذي من دخله كان آمنا من ناري. وفيه في الكافي بسند متصل عن عبد الخالق الصيقل قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية فقال: لقد سألتني عن شيء ما سألتني أحد إلا من شاء الله، قال: من أم هذا البيت و هو يعلم أنه البيت الذي أمره الله عز و جل به و عرفنا أهل البيت حق معرفتنا كان آمنا في الدنيا و الآخرة.

وفيه عن القمي بسند متصل عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أردت دخول الكعبة فاغتسل قبل أن تدخلها و لا تدخلها بحداء و تقول إذا دخلت: اللهم إنك قلت: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» فأمني من عذاب النار ... وبإسناده إلى سعيد الأعرج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا بد للضرورة أن يدخل البيت قبل أن يرجع، فإذا دخلته فادخله بسكينة و وقار ثم أنت كل زاوية من زاويه ثم قل: اللهم إنك قلت: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» فأمني من عذاب يوم القيامة.

^٢ روى الحلبي في الحسن عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله عز و جل «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» قال: إذا أحدث العبد جنابة في غير الحرم ثم فرّ إلى الحرم لم يسع لأحد أن يأخذه في الحرم و لكن يمنع من السوق فلا يبايع و لا يطعم و لا يكلم فإنه إذا فعل ذلك يوشك أن يخرج فيؤذ و إذا جنى في الحرم جنابة أقيم عليه الحد في الحرم لأنه لم يرجع للحرم حرمة، أقول و بمضمونه أخبار متظافرة قد يصح دعوى التواتر فيها معنويا.

و أمن الداخل فى الكعبة او المسجد الحرام آمن من الداخل فى مكة او الحرم، ولم يأت
«أمنًا، لداخل إلّا هنا، ثم «بلدا- او- حرما أمنًا».

و قد يقال ان ضمير الغائب فى «دخله، راجع- فقط- الى البيت، فلا أمن إذا إلّا للداخل فى
نفس البيت، دون المسجد الحرام فضلا عن الحرم كله؟».

لكن المرجع الأقرب الصالح لرجوعه إليه هو «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» ويسع الحرم كله، إضافة الى
آيات أمن مكة، والحرم كله وتظافر الروايات ان المأمن هو الحرم كله^١.

و القول ان «فيه، راجع الى البيت، فمقام ابراهيم لا بد وان يكون- فقط- فى نفس البيت ف
«من دخله، يعنى مقام ابراهيم وهو نفسه فى البيت فلا يعنى الحرم كله؟».

قد يجاب عنه إضافة الى ما قد مناه أن «فيه، تعنى فى البيت بما يتعلق به وهو الحرم كله، كما
«ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» لا يعنى انه نفسه محل الذبح.

ثم وليس من المتعود دخول نفس البيت إلّا للخصوص من الزائرين، دون العامة فضلا عن
المجرمين.

و كذلك «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» ليس داخل البيت نفسه، حتى القدر المتيقن منه وهو الحجر المقام
فضلا عن سواه من مقامه الواسع.

ثم «كَانَ آمِنًا» دون «أمن، وهى أخصر، قد تلمح لعمق الأمن وثباته الى يوم الدين، ف «كان،
تضرب الى عمق الماضى، و«أمنًا، الشامل لمثلث الزمان يستجرّ الأمن الى عمق المستقبل،
فقد يأمن داخله عما مضى من ذنوبه وما يأتى إلّا ان يحدث حدثا يبطل دخوله فى البيت.

و ترى «من دخله، يخص الناس دون الحيوان؟ وأمن الإنسان- بطبيعة الحال وبأحرى- أمن
للحيوان، ف «من، هنا يشمل كل ذى روح إنسانا وحيوانا^٢ ثم وسائر آيات أمن الحرم لا

^١ كما فى حسنة عبد الله بن سنان قال سألته عن الآية البيت عنى أو الحرم كله؟ قال: من دخل الحرم مستجيرا من الناس فهو آمن
من سخط الله و من دخله من الوحش و الطير كان آمنا أن يهاج أو يؤى حتى يخرج من الحرم التهذيب ٥: ٤٤٩ و الفقيه ٢: ١٦٣ و
الكافي ١: ٢٢٨ و الوافي ٨: ١٧ و الوسائل الباب ١٤ من أبواب مقدمات الطواف ح ١٢.

^٢ نور الثقلين ١: ٣٧٠ عن العلال بسند متصل عن ابي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن طير أهلي أقبل فدخل الحرم؟ قال: لا يمس لأن
الله عز و جل يقول: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا». وفيه عن الفقيه و سأل محمد بن مسلم أحدهما عليهما السلام عن الظبي يدخل الحرم؟ فقال: لا يؤذ و لا يمس لأن الله يقول: و من دخله
كان آمنا.

تخص الإنسان: «حَرَمًا آمِنًا....»

أو يصح ان يكون حرم الله آمنا للإنسان وليس آمنا للحيوان وهي أحوج إلى الأمن؟! ثم الأمن مطلق يعم النفس والعرض والمال، فلا يطالب المديون في الحرم ولا يروّع!

٦ وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ...

اللَّام في الله، ليست للارتفاع إذ لا يتتفع الله من حج العباد وسواه من فعالهم، وإنما لاختصاص العهدة على الناس لله، ف «على الناس» ليست لتثبت - فقط - فرض الحج على الناس، بل هو مع العهدة الثابتة عليهم، فلا تسقط بتركه ولا بالموت إذا استطاع إليه سبيلاً لوقت ما وتركه دون عذر.

و «الناس» هنا كل الناس من مختلف الملل والنحل دونما تمييز، وكما أمر إبراهيم الخليل بأذانه العام: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ...» (٢٢: ٢٧) وآية ثالثة مدنية «وَأْتُمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ...» ولكنها لا تخاطب إلّا من يحج، أم هو شاغل بأداء مناسكه، حيث الإتمام لا يصح إلّا فيما اشتغلت به.

و لقد أذن النبي كما أمر في أخريات العهد المدني قبيل الفتح، مرة للمسلمين حيث أمر المؤمنين ان يؤنوا^٢ واخرى للمل للستة.

فلما نزلت آية الحج هذه جمع الرسول صلى الله عليه وآله أهل الأديان الستة المسلمين والنصارى واليهود والصابئين والمجوس والمشركين فخطبهم وقال: «ان الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا فأمن به المسلمون وكفرت به الملل الخمس وقالوا لا نوّن به ولا نصلى إليه ولا نحجه فأنزل الله تعالى قوله: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ».

^١ المصدر في الكافي بسند متصل عن سماعة بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن رجل لي عليه مال فغاب عني زمانا فرأيتُه يطوف حول الكعبة أفتقاضاه مالي؟ قال: لا- لا تسلّم عليه ولا تروعه حتى يخرج من الحرم.

^٢ فروع الكافي ١: ٢٣٣ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أقام بالمدينة عشر سنين لم يحج ثم أنزل الله سبحانه: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ...» فأمر المؤمنين أن يؤنوا بأعلى أصواتهم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله يحج في عامه هذا فعلم من حضر المدينة و أهل العوالي و الأعراب. أقول: و آية الأذان و الاستطاعة مدنيّتان، فلم يكن تأخير للحج عن فرضه، و حتى لو كان فلجهاً أمنيةً أماهيه، و الرسول أعرف بتكليفه من كل عارف!

ابراهيم بانى الكعبة المباركة

ثلاثة عشر آية تحوم حوم الحج فى البعض من هامة مناسكه، والتوجيهات العقائدية والسياسية اما هيه مما يقصد من هذه العبادة الجماهيرية السياسية القيادية، ولكى يتبنى دولة الإسلام قوية صامدة عالمية، رباطا تاماً بين الكتلة الموثقة فى ارجاء المعمورة لِيشهدوا منافع لهم.

فلذلك ترى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، يختص بالذكر بعد سَبِيلِ اللَّهِ، كأصدق مصداق شاخص يتجسد فيه سبيل الله، وهى سبيل صالح الإنسان بما يصلحه إصلاحاً جماعياً جمعياً فى كافية الجنبات.

صحيح ان سائر الفرائض الإلهية كلها سبل الله ولكنما الحج تجمع بين كافة السبل قضية مناسكها الهامة التى تجمع مجموعها فى عبودية جماهيرية حركية عالمية:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءِ الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ٢٥.

فكما الإسلام بضوابطه هو لكافة المسلمين، كذلك قبلة الإسلام وعاصمته: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فقد جعله الله للناس - وطبعا المسلمين منهم - فإنهم الذين يقصدونه كسبيل الله الموحد بينهم - جعله لهم حال انه «سواء العاكف فيه و الباد، سكنا وعبادة، فلا يفضل عاكف فيه على باد، وذلك لأنه المعكف والمطاف والقبلة لكل المسلمين على حد سواء، بيت عتيق طليق لا يملكه احد سوى الله، وقد جعله الله لعباده «سواء العاكف فيه و الباد» فكل ترجيح لعاكف على باد لحاضر على مسافر، ولمواطن على سواه، كل ذلك الحاد فيه بظلم، نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ».

لا يعنى «العاكف، فقط المعتكفين فى المسجد الحرام كعبادة معروفة حيث العبارة الصالحة عنه المعتكف، ولا «الباد، غير المعتكف، بل هما «المقيم والذى يرحل» سواء اعتكفا ام أحدهما ام لا، وعلّ التعبير بالعكوف للتأشير إلى مدى المسوّلية الهامة على عواتق المقيمين بمكة المكرمة، أن عليهم حياة العكوف والعبودية فيها بكل رقابة.

و طبعا لا يعنى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، هنا نفس المسجد إذ لا يقيم فيه المقيم ولا البادى، بل هو

مكة المكرمة كلها او الحرم كله، تعبيرا بأقدس مكان فيه، كما وذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، (٢: ١٩٦) ليست لتعني نفس المسجد فانه ليس مسكنا للأهلين، وذلك عناية في التعبير عن البلاد المقدسة ان يذكر الامكنة المقدسة فيها.

و ليس ذلك الصدّ - فقط - عن المسجد الحرام، فانه صدّ عن المناسك كلها، وليس في المسجد الحرام إلا شطر منها، إذا فالمسجد الحرام هنا هو امكنة المناسك كلها، الحرم وما والاها من عرفات ومشعر ومنى.

و قد يقال ان «فيه» في «سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ» تتعلق ب «سواء» ف «سواء فيه»: نفس المسجد «العاكف» في مكة او الحرم، و الباد، الا ان «العاكف» اقرب تعلقا ومعنى، فان كانت «فيه» متعلقة بسواء لكانت الصيغة الصالحة «سواء فيه العاكف والباد».

او ان «الْعَاكِفُ فِيهِ» هو المعتكف كعبادة خاصة، ولكنه لا يقابله الباد، فرب باد يعتكف. إذا ف «سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ» تسوّى بينهما في بيوت مكة، فهي مباحة للباد كما العاكف؟ فلا تؤذُ أجره من زوار البيت والا فلا سواء، وكما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله: «مكة مباحة لا توجر بيوتها ولا تباع رباعها»^١

و«من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا»^٢

وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله و«ابو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى اسكن»^٣

ومن كتاب لعلى عليه السلام الى قثم بن عباس وهو عامله على مكة، و«أمر أهل مكة ان لا يأخذوا عن ساكن اجرا فان الله سبحانه يقول «سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ» والعاكف المقيم به والبادى الذى يحج اليه من غير اهله»^٤.

^١ الدر المنثور ٤: ٢٥١ - اخرج ابن مردويه عن ابن عمران النبي صلى الله عليه وآله قال: ...

^٢ المصدر اخرج الدار قطني عن ابن عمران رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ...

^٣ المصدر اخرج ابن أبي شيبة و ابن ماجة عن علقمة بن نضلة قال: ...

^٤ نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي عن الإمام علي عليه السلام: ... وفي نور الثقلين ٣: ٤٨٠ عن قرب الاسناد للحميري باسناده إلى أبي جعفر عن أبيه عن علي عليه السلام كره إجارة بيوت مكة و قرء «سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ» وعن تهذيب الأحكام موسى بن القاسم عن صفوان بن يحيى عن حسين بن أبي العلاء في الصحيح قال ذكر أبو عبد الله عليه السلام هذه الآية فقال: كانت مكة ليس على

و الصد عن المسجد الحرام كسائر الصد عن سبيل الله هو الصد عن ان يعبد الله فيه بخاصة المناسك وعامة العبادة، ومن الصد عنه التمييز بين العاكف فيه والباد، ومنه تملكه روحيا او زمنيا، والسيطرة الخاصة عليه الا تنظيما ادبيا بين جموع الوافدين عاكفين ام بادين. و كما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله «يا بني عبد مناف من ولى منكم من امور الناس شيئا فلا يمتنع أحدا طاف بهذا البيت او صلى اية ساعة من ليل او نهار»^١ فكلما يرغب فى المسجد الحرام او يور فيه او يندب لا يجوز الصد عنه. و هل ان تلك التسوية تقتضى ألّا تملك دور مكة المكرمة؟ علها لا، إذ يجوز ان تملك على ذلك الشرط ألّا يمنع الحجاج من سكنها زمن الحج.

هنا بيت الله، فلا يعبد فيه الا الله، وكل عباد الله فيه على سواء، ومهما اختلفت درجاتهم روحية وزمنية، فلا ينبغي لأحد ان يختص فيه بكرامة وحرمة زائدة، اللهم الا بتقوى الله، و لكنها ايضا ليست لتميز عباد الله فى بيت الله بشأن من شؤن عبادة الله مكانا او مكانة او زمانا ام أيا كان، فان «سواء العاكف فيه و الباد تحلق على كافة التسويات من حيث كون المسجد الحرام سبيل الله.

ثم الإلحاد فيه يعم كل ميل عن الحق، عامة فى كل الحقول، وخاصة فى حقل المسجد الحرام بما له من حرمان خاصة، فيشمل كل عصيان وظلم فى مثلثه، بحق الله او بحقك وبحق الناس.

وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ، - لا فقط - من يعمل فيه أو يلحد فيه - تجتث عن هذه الساحة المباركة كافة

شيء منها باب و كان أول من علق على بابه المصراعين معاوية بن أبي سفيان و ليس ينبغي لأحد أن يمنع الحاج شيئا من الدور و منازلها و روى مثله فى العلق عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله عز و جل «سواء العاكف فيه و الباد» فقال لم يكن ينبغي ان يصنع على دور مكة أبواب لأن للحاج ان يزلوا معهم فى دورهم فى ساحة الدار حتى يقضوا مناسكهم و ان أول من جعل لدور مكة أبوابا معاوية و عن الكافي روى مثل ما فى التهذيب باختلاف يسير.

وفى تفسير البرهان ٣: ٨٤ عن الحميري بإسناده عن جعفر عن أبيه عن علي عليه السلام ان رسول الله صلى الله عليه وآله انتهى اهل مكة عن إجارة بيوتهم و ان تعلقوا عليها أبوابا و قال: سواء العاكف فيه و الباد. و قال: و فعل ذلك ابو بكر و عمر و عثمان حتى كان فى زمن معاوية.

وفى الصحيح عن حفص البخترى عن أبي عبد الله عليه السلام قال ليس ينبغي لأهل مكة ان يجعلوا لدورهم أبوابا و ذلك ان الحاج ينزلون معهم فى ساحة الدار حتى يقضوا حجهم التهذيب ٥: ٤٦٣ و رواه مرسلا فى الفقيه: ٣: ١٢٦.

^١ تفسير الفخر الرازي ٢٣: ٢٤ قال عليه السلام: ...

التخلفات عقائدية وعملية وحتى فى النية والطوية ولمن لم يصل إلى الحرم رعاية لقداسة الموقف فانه اقدس مقدس فى الكون كله بأسره وعن بكرته، فكما من الإلحاد فى المسجد الحرام تهديمه وعودا بالله، او الإشراك بالله، كذلك كل تخلف عن شرعة الله، حيث يتضاعف فى المسجد الحرام وفى الحرم كله ومنه الصيد فى الحرم لا سيما حالة الإحرام، وارتكاب محرمات الإحرام حاله، ودخوله الحرم بلا إحرام الا لمن استثنى، بل واحتكار الطعام فى الحرم الحاد فيه،^١ و على الجملة كل ظلم يظلم به الرجل نفسه بمكة من سرقة او ظلم احد او شىء من الظلم فانى أراه إلحادا ولذلك كان ينهى ان يسكن الحرم.^٢

و لا فحسب فيه، بل ومن يرد فيه قبل ان يوافيه وان لم يصله فضلا عن وصوله بما أراد، وباحرى من يرد فيه وهو فيه ولم يحقق ما أراد، وهذه من ميزات قبله الإسلام، ان الارادة السيئة بمجردا فى غيرها لا تؤذ بشىء، ولكنها فيها مأخوذة مهددة بعذاب اليم، فضلا عن تحقيقها فيها! وقد يتوسع «مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ، الى غير الإنسان من حيوان كسباع الطير إذا صارت فى الحرم»^٣.

و هل يتحصن بالحرم عن اجرام فيه ام خارجه؟ كلا! فانه ليس ملجأ للمجرمين، بل ونفس التحصين بالحرم الحاد،^٤ فانه حرم للمؤمنين، دون المجرمين.

اللهم إلا تحصينا مؤتا مشروطا لمن جنى فى غيره ثم لجأ اليه فانه يضيق عليه فى مأكله و مشربه حتى يضطر للخروج عنه فيقام عليه الحد، واما الجانى فى نفس الحرم فيقام عليه الحد

^١ الدر المنثور ٤: ٣٥١- اخرج البخاري فى تاريخه و عيد بن حميد و ابو داود و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن يعلى بن امية عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ... و اخرج مثله البيهقي فى شعب الايمان عن ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ...

^٢ نور الثقلين ٣: ٤٨٢ فى كتاب علل الشرايع بسند متصل عن أبي الصباح الكناني قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية قال: ... أقول: و الراويات بذلك مستقيمة.

^٣ المصدر عن العلل عن أبي عبد الله عليه السلام قيل له: ان سبعا من سباع الطير على الكعبة لا يمر به شىء من حمام الحرم الا ضربه، فقال عليه السلام: انصبوا له و اقتلوه فانه قد الحد فى الحرم.

^٤ جامع أحاديث الشيعة ١٠: ٩٢ ح ٢١١- يب ٥٧٩ احمد عن ابن محمد الحسن بن علي الوشاء عن بعض أصحابنا يرفع الحديث عن بعض الصادقين عليه السلام قال: التحصين بالحرم الحاد.

فى نفس الحرم ،لأنه لم يدع للحرم حرمة^١.

و على اية حال فكل الظلم فى الحاد^٢ بل وارادته ايضا من الإلحاد فىه.

و ترى ما هو موقف 'بظلم' بعد 'بالحداد' وكل الحاد ظلم؟ عل الباء فى 'بالحداد' للملابسة، تعنى ملابس الإلحاد فىما يريد، وفى 'بظلم' للسببية، تعنى إلحادا ظالما، عله هنا بحق الناس حىث 'سواءً العاكف فىه و الباد'، وكما بحق الله وأدناه الظلم بالنفس، ام انهما حالان ل 'يرد'، والمفعول محذوف لىتناول كل متناولته، انحرافا بظلم.

ام ان 'بظلم' بدل عن 'بالحداد'، تعنى ارادة ملابسة بظلم أيا كان، فانه الحاد، اكبارا لاي ظلم يراد فىه انه الحاد، وان كان ظلما بالنفس فضلا عن سواها، ام انها كلها معنىة مهما تفاضلت. و كل ذلك لسيادة منقطعة النظر فى ذلك الموقف العظيم، فانه قبله الإسلام ومطاف المسلمين، فلىقدس عن كل الحاد وكل ظلم وكل ما لا يرضاه الله تعالى، منطلقا لكافة الأبعاد الإسلامية السامية^٣.

فكما ان المسجد الحرام هو اقدس مكان فى الكون كله، فلىكن كل عاكف فىه او باد واقدس ممن سواه بواقع القداسة ام- لأقل تقدير- بحراسة وقيئة، تصنىعا لنفسه وتصنىعا لآخرين.

و هكذا يسبق الإسلام سبقا بعيدا عرىقا بإنشاء واحة السلام ومنطقة الأمان، ودار الإسلام المفتوحة لأهل السلام والإسلام، مهددا هو اء الذين يريدون اعوجاجا فى هذا المنهج القويم المستقيم بعذاب اليم 'و من ىرد فىه بالحداد بظلم نذقه من عذاب اليم'. و عل ذلك التعقيب يكفى جوابا عن 'إن الذين كفروا، كما هو جواب ل 'من ىرد فىه بالحداد'، فلا حاجة إلى تقدير، ام انه لوضوحه بعظم عذابه لىس بحاجة إلى جواب حىث يعرفه البسطاء فضلا عن اولى الألباب.

^١ تفصىل البحث راجع إلى تفسىر آية «و من نخله كان آمنا» فراجع.

^٢ كما رواه أصحابنا مستقىضا كصحىة ابن أبى عمىر عن الصادق عىه السلام ان كل ظلم فىه الحاد، و مثلها غىرها.

^٣ جامع أحادىث الشىعة ١٠: ٩٣ فى الرضى عىه السلام فمن هم لمعصىة اى فى مكة و لم يعملها كتب عىه سىنة لقوله تعالى: و من ىرد فىه بالحداد بظلم نذقه من عذاب السعىر» و لىس ذلك فى بلد غىره.

و لقد ذكر المسجد الحرام فى اربعة عشر موضعا بمختلف المناسبات ثم مسجد ومساجد اخرى بنفس العدد، ويا لها توافقا بين عديد الذكر للمسجد الحرام وسائر المساجد، وفقا فيهما لعدد المعصومين الأربعة عشر، فإنهم من شروط المسجد الحرام سبيلاً إلى الله، وتقبلاً لفريضة الله.

و لماذا يعطف هنا المستقبل، و يصدون، على الماضى «الَّذِينَ كَفَرُوا»؟

علّه للتأشير إلى استمرارية صدهم منذ كفرهم الماضى، اضافة إلى كل صادّ عن سبيل الله فى المستقبل على مر الزمن فإنهم يكفرون و يصدون، فلا يكفى - إذا - وصدوا، حيث لا يشمل استقباله واستمراره، فهم بعكس التعبير ك «الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ.. وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦.

«وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَ آمَنَّا وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَ وَّعَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢: ١٢٥).

«وَ إِذْ بَوَّأْنَا، كأنه قبل ان يبنى البيت، لمكان «مَكَانَ الْبَيْتِ، دون - فقط - «البيت، فقد جعله الله له بواء مباءة: مرجعا يرجع إليه إسكانا من ذريته، وعمارة للبيت، وطوافا به، فلان الأولين يختصان به، لذلك يختص هو بتلك المباءة، أن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً، نهيا صارما يحلّق على كافة دركات الإشراك بالله حتى الرئاء وما دونه.

لا فحسب نفسك بل «وَ طَهَّرْ بَيْتِي، عن مظاهر الإشراك وملامحه وعمن يشرك بالله، إخلاء لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ..

صيغة «بَيْتِي، مصوغة لخصوص الكعبة المشرفة، اضافة تشريفية ما أشرفها، مهما كانت كل مساجد الله بيوت الله، إلّا ان الكعبة إمام البيوت كما هى أمام البيوت.

هنا وفى «أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي» (٢: ١٢٥) وَعِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، (١٤: ٣٧) الكعبة فيها بيت الله، لأنها

مبأء العبادۃ لله، ثم فى ثلاث اخرى^١ هى بيت الناس لأنها معبد الناس ومطافهم، فهى إذا بيت الله وبيت الناس، ثم وفى عشر هى الاخرى «البيت» اشارة إلى بيت الله وبيت الناس. فهو بيت الله حيث يعبد فيه الله وهو قبلة المصلين لله، وهو بيت عتيق لم يكن ولن يكون فى ربة غير الله.

و هو بيت الناس، فإنهم هم الذين يبيتون فيه ويستقبلونه ويطوفون به لله، إذا فهو بيت الناس كما هو بيت الله مهما بان البون بين الانتسابين كالبون بين الناس وبين الله. ثم الطهارة المأمور بها ظاهرية عن كافة الأنجاس والأقذار، وبأحرى باطنية عن الإشراك بالله فى مربع «الطواف والقيام والركوع والسجود» كالتمة المعنية من توحيد الله فى عبادته. فكما ان هو^٢ عليهم تطهير بيوت قلوبهم وافكارهم ومظاهر أبدانهم وملابسهم واعمالهم حتى يصلحوا لحج هذا البيت، كذلك «طَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَ...» ومن تطهير ذلك البيت ان تكون عمارته بصدق النية وطهارة الطوية: «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ...» (٩: ١٠٩) و كما منه تنحية المشركين عنه^٢.

و ترى من هم «الطائفين والقائمين» حيث «الرُّكْعِ السُّجُودِ» هم المصلون؟ فهل الطائفون هم من يطوف البيت، والقائمون هم القائمون فى الصلاة، فهو والركع السجود تعبيرات ثلاث عن الصلاة؟

و «الرُّكْعِ السُّجُودِ» يكفى تعبيرا عن الصلاة، فإنهما تعينان عبادة تحويهما قضية ردفهما دون عطف، وهما معا لا يوجدان إلا فى الصلاة، وقد عطا بالقائمين دليلا على مفارقتهما إياهم! ولو كانت الثلاثة هم المصلين فصحيح العبارة عنهم «القائمين الركع السجود» ردفا دون عطف قضية وحده العبادة، رغم ان ضم «القائمين» لا يفيد زيادة معنى! ثم وذكر «العاكفين» فى آية البقرة بديلا عن «القائمين» هنا مما يحتم انهم هم العاكفون المقيمون فى مكة المكرمة، فالطائفون هم البادون، الحاضر للطواف دون الإقامة.

^١ (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ...» (٣: ١٦) و «جَعَلَ اللَّهُ الْكعبةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ» (٥: ٩٧) (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا» (٢: ١٢٥).

^٢ تفسير القمي ص ٣٢ عن الصادق عليه السلام نح عنه المشركين.

و تأييدا ثالثا قرن السواء فى غاية التطهير، بالسواء بين العاكف والباد، فكما لم يميزوا فى البداية فكذلك الأمر فى النهاية، هناك «لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ» وهنا «لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ» فالطائفون هم الزائرون، والعاكفون هم القائمون، والركع السجود هم المصلون، مهما شمل الطائفون كل الطائفين حوله، والعاكفون من يعتكف فيه وسواه.

فقد جعل الله هذا البيت للناس سواء العاكف فيه والباد فى كل شعائر الحج، ولذلك امر ابراهيم ان يطهره للناس سواء الطائفين والقائمين بعكس الترتيب هناك كيلا يتقدم مقيم على مسافر ولا مسافر على مقيم تحقيقا للتسوية حتى فى التعبير.

ثم الأمر بتطهيره لا يخص ابراهيم الخليل، بل هو مستمر إلى يوم الدين، كما التسوية المجعولة المرمية إلى يوم الدين.

و ذكر «الرُّكْعِ السُّجُودِ» مقيما او مسافرا بعد «الطائفين والقائمين» مسافرا او مقيما، لطواف البيت وسواه من مناسك الحج والعمرة، بصور لنا صلاة الطواف بعده، مع ان «الطواف بالبيت بمنزلة الصلاة»!

فليكن ذلك البيت العتيق بالمسجد الحرام والحرم كله، اطهر بيت فى الكون كله، متخليا عن كل مظاهر القذارة والرجاسة، متخليا بكل مظاهر الطهارة والقداسة، بعيدا عن كافة المفارقات والتمييزات لاي مقيم او مسافر، فى طواف وصلاة وسواهما من مناسكه.

و هنا «الرُّكْعِ السُّجُودِ» دليل جواز الصلاة فى جوف الكعبة المشرفة، فانها اصدق مواضع «بيتي» حين يشمل المسجد الحرام، وتأويل «الرُّكْعِ السُّجُودِ» بكونها فقط امامها قبله عليل خارج عن التحصيل.

و اما الطائفون الزوار والقائمون المقيمون، فهم بين طائف ومصل، ومعنى الطواف هو التطواف حوله، فالداخل فيه السائر فى حوالبه لا يسمى طائفا بالبيت العتيق^١.

^١ الدر المنثور ٤ : ٣٥٤- اخرج الحاكم عن ابن عباس قال قال الله لنبيه: و طهر بيتي للطائفين و القائمين و الركع السجود قال: طواف قبل الصلاة وقد قال رسول الله صلى الله عليه واله: الطواف بالبيت بمنزلة الصلاة إلا ان الله قد أحل فيه المنطق فلا ينطق الا بخير.

^٢ البحار ٩٦ : ٤٨- ٥٠ عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: لما اوحى الله إلى ابراهيم عليه السلام ان طهرا بيتي للطائفين و العاكفين و الركع السجود، اهبط إلى الكعبة مائة و سبعين رحمة فجعل منها ستين للطائفين و خمسين للعاكفين و أربعين للمصلين و عشرين للناظرين.

و اما الآية، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فهى للخارجين عن الكعبة والمسجد الحرام، حيث امر به الرسول صلى الله عليه وآله والمؤمنون معه فى المدينة المنورة.

وَ أَدْنُ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧.

و ترى من هو المخاطب المأمور هنا بالأذان بالإعلان بالحج؟ أهو - فقط - ابراهيم الخليل عليه السلام وهو دعوى دون دليل إلا سبق الخليل بأمر قبله: «وَطَهَّرَ بَيْتِي، والآيات التالية المخاطبة للحاضرين ومن يلحقهم مستقبلين تطارد ذلك الاختصاص، لا سيما وان ذلك الخطاب، فى الناس، كل الناس كقضية حقيقية تحلق على كافة المكلفين إلى يوم الدين، فحتى إن كان خطابا لإبراهيم، فهو كأول من يحمله إلى الناس دون اختصاص، والخطابات الشرعية للناس دائمة ما دام الناس إلا ان يأتى نسخ او تبديل، وليس فى القرآن دليل على اى تبديل بالنسبة لذلك الخطاب بكل ما يضمنه من مضامين.

ام هو خطاب لخصوص الرسول محمد صلى الله عليه وآله وهو بعيد عن السياق حيث سبق الخطاب ابراهيم الخليل وهو اول بان للبيت، فهو - بطبيعة الحال - اول مؤن للحج، مهما يستمر حتى الرسالة الاخيرة بأكمل صورة وسيرة.

حقا انه خطاب أولا لإبراهيم كأذان اول، ثم للرسول محمد صلى الله عليه وآله كأذان ثان، مهما كان بينهما عوان على طول خطوط الرسائل منذ ابراهيم حتى محمد عليهما السلام.

و مجرد ذكره هنا مجردا عن احد المخاطبين دليل الشمول، ثم الرسول صلى الله عليه وآله أخرى من يشمله كما نتلمح او نتصرح من خطابات تالية، فَكُلُّوا مِنْهَا وَ أَطْعَمُوا ... وَ أَحَلَّتْ لَكُمْ ... إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ .. فَاجْتَنِبُوا .. وَ اجْتَنِبُوا .. لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ، ومن ثم «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ... فَالهِكَمَ آلَهُ وَاحِدًا - امه واحدة! - وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ ..

¹ فروع الكافي ١: ٢٣٣ صحيحة معاوية بن عمار عن ابي عبد الله عليه السلام قال: ان رسول الله صلى الله عليه وآله اقام بالمدينة عشر سنين لم يحج ثم انزل الله سبحانه «وَ أَدْنُ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ...» فامر المؤمنين ان يؤنوا بأعلى أصواتهم بان رسول الله صلى الله عليه وآله يحج في عامه هذا فعلم به من حضر المدينة و اهل العوالي و الاعراب ...
أقول: و لا تنافيه الرواية القائلة ان المأمور به ابراهيم عليه السلام حيث الأمر يحلق كافة الرسل منذ ابراهيم حتى محمد صلى الله عليه وآله.
«و اذن» امر صارم «فى الناس بالحج» و هو زيارة البيت حجا او عمرة، و «ياتوك» دون «ياتونك» هو جواب الأمر، فذلك أمر بأمر، أمر أن يأمر الناس بالحج، مقمًا للمشاة على الركب «ياتوك رجالا» جمع راجل و هو المائتي «وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ» و هو اى مركوب مهزول، ضميره الجوع او المرض، و قد أهمل هنا اى مركوب قوي مزين مرمول، مما يدل على ان الرحلة فى أصلها - فضلا عن سلميها - ليست شرطا فى فرض الحج.

لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ... فَكُلُوا مِنْهَا وَ اطْعَمُوا ... كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... وَ لَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ، (٢٨: ٣٧).

ثمانية عشر خطابا فى مناسك الحج تحملها آيات عشر بعد آية الأذان تعم الحاضرين من المسلمين وإلى يوم الدين، كيف نتجاهلها باختصاص خطاب الأذان بأصل الحج لإبراهيم الخليل، اللهم الا بتأويل عليل وتدجيل.

و هذه ضابطة ثابتة فى فقه القرآن، أن كل امر او نهى فيه لاي رسول، يبقى امرا او نهيا لكل المرسل إليهم، اللهم إلّا ببرهان قاطع من القرآن نفسه ينسخه او يحدده، حيث الرسالة واحدة، والمرسل إليهم امه واحدة، اللهم إلّا فى بعض مظاهر العبودية وسواها حسب المصالح، فما لم يثبت نسخ من الكتاب لحكم مذكور فيه فهو ثابت، ولا سيما مثل أذان الحج الذى هو بطبعه زمنى يشمل كافة الأمم، مهما تكامل فى الامه الاخيره.

فمن المضحك المبكى اعتذار بعض المتفقهين عن الآية- بعد الإذعان بدلالاتها- على انها خلاف الشهرة العظيمة او الاطباق، وخلاف الرواية المشترطة الراحلة فى استطاعة الحج، فلا يعمل بها! وترى ما هو شأن الشهرة او الرواية امام تصريح الآية، وهى غير منسوخة بل مودّه مبيته بأية الاستطاعة، فمن استطاع مشيا او على كل ضامر دون حرج او مشقة لا تستطيع، فهو ممن استطاع اليه سبيلا، ومن لا يستطيع لا راجلا ولا راكبا فهو ممن لا يستطيع اليه سبيلا.

و الرواية المفسرة للاستطاعة بالزاد والراحلة تقول «فإذا كان صحيحا فى بدنه مخرى سربه له زاد وراحلة فهو ممن يستطيع الحج،^١ لا هو المستطيع للحج، سلبا لاستطاعة من لا يحتاج إلى زاد وراحلة.

^١ فى الكافي ٤: ٢٦٧ و التهذيب ١: ٤٤٧ و الاستبصار ٢: ١٢٩ سأل حفص فى الصحيح أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز و جل «وَرَبِّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» ما يعنى بذلك؟ قال: من كان صحيحا فى بدنه مخرى سربه له زاد و راحلة فهو ممن يستطيع الحج. أقول: و الرواية المطلقة فى ذلك محمولة على الأكثر إذ ليست لتعارض نص آية الأذان كما رواه الصدوق فى التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام فى الآية ما يعنى بذلك؟ قال: من كان صحيحا فى بدنه مخرى سربه له زاد و راحلة.

و اشتراط الزاد والراحلة فى الاستطاعة هو طبيعة الحال فى الاكثريه الساحقه الساكنين فى كل فح عميق، واما القريبين إلى مكة المكرمة، غير المحتاجين إلى راحلة، فهم ممن يستطيعون الحج دون راحلة، كما المحترفين فى سفر الحج يستطيعونه دون زاد حاضر، فانما الاستطاعة- دون حرج او مشقة زائده غير متحملة- هى فقط شرط الوجود، إلا ان الاكثريه الساحقه او المطلقة لا يستطيعونه إلا بزاد وراحلة.

لذلك ترى آية الأذان تطلق «رجالا، ثم تقيد، و«على كل ضامر، ب «يأتين من كل فح عميق، وطبعا لا يركب الضامر إلا من يحتاج إلى ركوبه لعمق فحه أم ضمور قوته.

فالأصل فى أذان الحج هم «رجالا، وهم- فى الأكثر- الذين يأتون من كل فح قريب، ثم «على كل ضامر، وهم- فى الأكثر- الآتون من كل فح بعيد، ومن ثم على كل ركوب مستطاع، قويا فى جسمه، سريعا فى مشيه، حيوانا ام سفينة ام سيارة ام طائرة.

و قد يتعكس الأمر، فمن ساكن فى فح قريب لا يستطيع المشى فهو- إذا- غير مستطع دون راحلة، وآية الاستطاعة لا تشترط إلا اصل الاستطاعة، بزاد وراحلة ام دون زاد وراحلة، راحلة ضامرة ام عامرة، وقد استفاضت السنة فى افضلية الحج ماشيا على الركوب لمن يستطيعه وكما يروى عن النبى صلى الله عليه وآله: ان الملائكة لتصافح ركاب الحجاج وتعتنق المشاء¹ وذلك خاص بطبيعة الحال بمن لا يحشره امر أهم كالرسول صلى الله عليه وآله حيث القيادة الرسالية لا تسمح له ان يصرف شطرا بعيدا من أوقاته فى أداء ندب كالحج ماشيا واما الائمة الذين حجوا مشاء لمرات ومرات فلم يكونوا بمنصب القيادة الحاضرة حيث اغتصب عنهم.

و على اية حال فهنا فى تقديم «رجالا، دليل تفضيل الحج ماشيا، وتفضيل المشاء الذين لا يملكون راحلة ضامرة، ثم تفضيل الركب الضامرة على الركب العامرة، مما يوضح تماما ان ليست الاستطاعة بادية من المال على اية حال، فليس المستطيعون هم الأغنياء بالركب الفاخرة، بل هم غير مذكورين فى عديد المستطيعين حتى فى المرحلة الآخرة، لولا آية

¹ الدر المنثور: ٤: ٣٥٥- اخرج البيهقي عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله ...

الاستطاعة الشاملة لهم في اطلاقها الظاهرة، وليست الاستطاعة الا القوة^١ دون حاضر الزاد والراحلة، فقد لا يقوى رغم حضورهما وقد يقوى دونهما، فان كان له بعض الزاد وبامكانه تحصيل البعض الآخر في الطريق فهو ممن له زاد، فان كان يطيق ان يمشى بعضا ويركب بعضا فليحج^٢ حيث المدار على اصل الاستطاعة وهي تختلف حسب مختلف الظروف والامكانيات، ومن الناس من يمكنه المشى كلا وتحصيل الزاد في الطريق او المقصد، فهو ممن استطاع اليه سبيلاً، وتفصيل الاستطاعة يختص بأيتها الثانية.

إذا ف حجة الإسلام واجبة على من أطاق المشى من المسلمين ولقد كان اكثر من حج مع النبي صلى الله عليه وآله مشاء^٣.

و لان الحج هو قصد البيت لزيارته، فهو يعم طواف الحج والعمرة، وهما كالظرف والمجرور إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فمثل «أَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ» مكان افتراقهما، واما آية الأذان واستطاعة الحج فهما في اجتماعهما.

ذلك الأذان الاعلام الإعلان لحج البيت منذ ابراهيم حتى الرسول محمد صلى الله عليه وآله فما يزال وعد الله يتحقق منذ ابراهيم إلى اليوم والغد، وما تزال افئدة من الناس تهوى إلى البيت الحرام، وترف اليه، يتقاطرون إلى ذلك البيت العتيق من كل فج عميق من فقراء وأغنياء من استطاع اليه سبيلاً.

^١ جامع الأحاديث ١٠: ٢٤٦ ح ٧٤٦ عن المحاسن عن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال سأله حفص الأعمور و انا اسمع فقال جعلني الله فداك ما قول الله: و لله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً؟ قال: ذلك القوة في المال و اليسار.

^٢ لمصدر ٢٤٩ ح ٧٥٤ عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في آية الاستطاعة ما السبيل؟ قال: ان يكون له ما يحج به، قال قلت: من عرض عليه ما يحج به فاستحى من ذلك اهو ممن يستطيع اليه سبيلاً؟ قال: نعم ما شأنه يستحى و لو يحج على حمار ابتر فان كان يطيق ان يمشى بعضا ويركب بعضا فليحج، أقول و قد وردت بذلك روايات مستفيضة.

^٣ المصدر ٢٥١ ج ٧٦٣ باب ٤٤٩ ص ١٤٠ الحسين بن سعيد عن فضالة بن أيوب عن فقيه ١٧٤ معاوية ١- بن عمار قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل عليه دين أ عليه ان يحج؟ قال: نعم ان حجة الإسلام .. شاة و لقد مر رسول الله صلى الله عليه وآله بالبكراع الغميم فشكوا اليه الجهد و الطاقه في فقيه و العن فقال: شدوا أزركم و استبتنوا ففعلوا ذلك فذهب عنهم، أقول و رواه مثله في بعض نسخ فقه الرضوى و في ج ٧٦٥ بإسناد متصله عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله عز و جل و لله على الناس ... قال عليه السلام يمشي ان لم يكن عنده قلت لا يقدر على المشي قال يمشي و يركب قلت لا يقدر على ذلك قال يخدم القوم و يخرج معهم، وفيه (٧٦٦) عن عبد الرحمن بن الحجاج قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام الحج على الغني و الفقير؟ فقال: الحج على الناس جميعا كبارهم و صغارهم فمن كان له عذر عذره الله.

و لماذا تلك الفريضة الجماهيرية العالمية، وهنا لك فرائض اخرى لا تضم ذلك الحشد الكبير؟:

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يُذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ٢٨.

ذلك لان الحج مشهد المنافع العامة لعموم المسلمين، ومسرح الفوائد والعوائد الجماهيرية التي تكفل كيان الإسلام وشوكة المسلمين، وقد قدمت هنا على ذكر اسم الله وهو خالص العبادة التي يُوَى بها إعلانا وإسرارا، أفرادا وجماعات، ولكنها في ذلك المسرح كمشهد المنافع جماعية جماهيرية، مما يدل على أن هنا لك منافع تختلف صوريا عن ذكر اسم الله، هي التي تبني قوائم شرعة الله في بلاد الله.

هنا يبدأ بشرطة الإمامة الابراهيمية، وهي الابتلاء العظيم، إمامة لها شروطها وظروفها الخاصة كنباس شامل لإمامة الرسالة ورسالة الإمامة على طول الخط.

ذلك- وليعلم بنو إسرائيل، ألا يرثوا الإمامة من إبراهيم كسائر الميراث الذي لا شرط فيه إلا قرابة الدم واللحم على شروطها، فانما هي على شرط التوفية الشاملة لكل الابتلاءات الربانية وترك المظالم كلها مهما لم يكن من ذريته، أم كان منهم من إسرائيل، ام كان من بنى إسماعيل حين تنقض شروط الإمامة في بنى إسرائيل:

وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ١٢٤.

إبراهيم، مذكورة في سائر القرآن (٦٩) مرة في (٢٥) سورة وهي لغة سريانية قد تعنى أب الجماعة الكثيرة وقد قرأت بأشكال تسعة^١ أثبتها وأضبها إبراهيم، حسب متواتر القرآن.

^١ و الثمانية الأخرى هي: «إبراهيم- إبراهيم- إبراهيم- إبراهيم- إبراهيم- إبراهيم- إبراهيم- إبراهيم» و الظاهر ان هذه كلها اللفظ القرآن سريانية أم عبرانية، و المعربة الصحيحة هي «إبراهيم»، و قد فسرت بتفسير عدة ك «أب رحيم» برىء من الأصنام هام الى ربه- الشديد النظر- و الأولان بعيدان لأنها سريانية لا تفسر بتجزئات عربية، رغم ان ذلك خلاف التجزئة أيضا، فأين أب من أب و ابن راهيم من رحيم! مهما عنت الأب الرحيم من غير هذا التحليل، و قد يعني الأب العالي كما في قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست، يعني أب الجماعة الكثيرة التكوين ١٧- ٤ و ٥:

«أما أنا فهذا عهدي معك و تكون أبا لجمهور من الأمم ٤ فلا يدعى اسمك بعد إبراهيم بل يكون اسمك إبراهيم لأنني أجعلك أبا لجمهور من الأمم ٥ و اثمرك كثيرا جدا و أجعلك أمما».

و هنا نعرف ان «أب» في السريانية هو الأب و «راهم» هو جمهور الأمم.

و لماذا هنا «إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ» تقديمًا للمفعول وهو مفضول؟ علّه اختصاصًا له بذلك الابتلاء، ام ولان «ربه» لا مجال له ادبيا لو لا تأخيره إلّا تحريرا له ك «ابتلى رب ابراهيم إياه فتقصان فى ادب اللفظ، ام «ابتلى رب العالمين - او - الله - ابراهيم، فتقصان فى حدب المعنى حيث القصد بيان ربوبية خاصة فى ذلك الابتلاء.

و هنا ابتلاء ربانى خاص لإبراهيم الخليل يبتليه به ربه فى أخريات حياته كما تلمح له «مَنْ ذُرِّيَّتِي» فقد كانت له ذرية بعد الإياس: «قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ» (١٥: ٥٥) فلما وهب له ذريته قال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ» (١٤: ٤١).

ثم ومن أهم الكلمات التى ابتلى بها فأتىها بعد نفس الإمامة هى قصة ذبح إسماعيل وهو بكر ذريته: «قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ... إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ» (٣٧: ١٠٦)!

إذا فقد كان ابتلاءه بكلمات فأتىهن، وكان ذلك فى أخريات حياته النيرة، مهما شملت «كلمات» طول حياته النيرة التى كانت كلها ابتلاءات بكلمات مهما كانت درجات ف «مَنْ ذُرِّيَّتِي» تشمل ذريته من إسماعيل كما من إسحاق.

و الابتلاء الربانى هو الامتحان الاختبار ليظهر بإتمامه مكنون اللبابة والياقة، إما للمبتلى و المبتلى أمامه كما فى الخلق، أم دون الأوّل كما للخالق فانه يعلم السر وأخفى، وقد يكون الابتلاء من خلفيات اعتداء الناس قضية إيمانك او سواه، او من نتائج تخلفك عن شرعة الله.

ثم وليس الابتلاء الربانى الايمانى إلّا فى أمور صعبة ملتوية معقدة، لا يسطع لها إلّا الأشداء الأقوياء، ويسقط دونها الضعفاء.

و إذا كان المبتلى هو الرب فالبلية هى الأشد حسب مختلف الأهداف منها بدرجاتها، ولأن الإمامة الرسالية هى القمة المرموقة من درجات الكمال، فالابتلاء الهادف إليها، المحضّر لها،

^١ و من ذلك ابتلاءه بابيه أزر و نمرود و سائر المشركين، و من أبرز بلاه هنا إلقاءه فى النار و قول جبريل له: أ لك حاجة و جوابه: أما إليك فلا، و علّ فوقه بلاه ابتلاءه بذبح اسماعيله عليهم السلام.

هى أصعب البليات وأنسبها لهذه الدرجة العليا.

و هنا «ربه» دون «رب العالمين» أما شابه، مما تلمح صارحة صارحة أن هذه البلية بكلمات هى بلية ربانية كما تناسب الساحة الإبراهيمية وسماحتها وكما يسطع له ويليق به دونما إطاقه تزيل الطاقة.

و هى مناسبة لتلك الإمامة الخاصة التى هى فوق الرسالة والنبوة حيث جعلت له بعدهما. أ ترى - إذا- ما هى الكلمات؟ أ هى - فقط - كلمات لفظية حملت عليه ليقولها؟ وليست فيها تكلفات وبليات! فكثير هو الذين يكثرون من كلمات طائلة - أية كلمات - وليس لهم فيها ابتلاء، ولا هم أهلون لمعانيها ومغازيها، ولا أنهم مطبقوها! ثم التلطف بهذه الكلمات ليس إتماما لها: فأتمهن، بل هو «قالهن» أما شابه.

أم هى - فقط - أعمال شاقة لا يسطع لها إلّا أقوياء بالإيمان؟ وصحيح التعبير عنها وفصيحه هو «الأعمال» أو «الصالحات» أما شابه دون «كلمات»!

علها هى كلمات الله التشريعية: الأمر والنهي، الخاصة بموقف الابتلاء الإبراهيمي، التى يخلف إتمامها الإمامة بإذن الله؟ ولكن «فأتمهن» بضمير جمع العاقل قد لا تناسبها!

أم هى - فقط - تطبيق هذه الكلمات بما فيها تحمل الإمامة وذبح إسماعيل فتحقق ضمير العاقل؟ إضافة الى مواد عاقلة فى سائر ابتلاءه فانها من متوجات كمال العقل واللب.

قد تعنى «كلمات» هنا كلا الأمرين الأمرين، فاستماع تلك الكلمات التشريعية ولا سيما شرعة الإمامة، الحصيلة عن سائر الكلمات، إنه ابتلاء، وتقبلها دون تعنت وسوّل ابتلاء، وتطبيقها ابتلاء، كما وقصة أمره بذبح إسماعيل «إنّ هذا لهو البلاء المبين» تشمل مثلث الابتلاء، الذى لا يخلد بخلد اى مبتلى.

فإبراهيم: كلمة الله، توجهت إليه كلمة الله - وهى أمر الله - أن يذبح إسماعيل كلمة الله، وذبحه هو كلمة الله، الدالة على قمة التسليم لله، كما وتحمل الإمامة من عليا هذه الكلمات، وهنا «فأتمهن» لائحة بهذه الكلمات، فقد أتم استماع الأمر، والايمان به، والتسليم له، ثم وتطبيقه.

ذلك! كما ومن الكلمات كلمات الله العليا الأربعة عشر المحمديون «أتمهن» إلى القائم اثنا

عشر إماما تسعة من ولد الحسين^١.

و الإتمام فى ميزان الله- إن صح التعبير- هو إله الإتمام، الذى ليس فوقه إتمام. إذا فكل الابتلاءات الإبراهيمية طول حياته النيرة تشمله كلمات، وهى الدالات على العناية القمة التربوية الربانية فيما أمره ربه ونهاه، والدالات على قمة التسليم قلبيا إذ سلم له، والدالات على تمام التسليم وكما له إذ طبقها، وأتمهن، هنا كما تعنى أن الله أتم هذه الكلمات فى ابراهيم تأييدا وتسديدا، كذلك تعنى أن ابراهيم أتمهن حسب الطاقة البشرية مزودة بعصمة ربانية، ويقابله تركهن، أو انتقصهن، لا! بل أتمهن، كما أراه الله منه، وأتمهن الله تميما لناقص الإرادة البشرية بعصمة إلهية.

قال إني جاعلك للناس إماماً.

هنا قال، دون فقال: تفريرا للإمامة على إتمام الكلمات، لأن إتمامها ليس إلا ظرفا صالحا لجعل الإمامة، لا نتيجة ضرورية مفرعة عليه، أم ولأن من هذه الكلمات هى كلمات جعل الإمامة: إني جاعلك للناس إماماً- ومنها قوله: ومن ذريتي، ثم جوابه: قال لا ينال عهدى الظالمين.

فإن الإمامة ولا سيما هذه الكبرى ابتلاء عظيم بمسئوليتها الكبرى، ثقيلة على من يحملها، عظيم حملها بحملها، ولكن ابراهيم عليه السلام أتمها وأتى بها كما أريد منه. ثم إني جاعلك... مما يدل على انحصار جعل الإمامة بالله، وانحصاره عن سواه، وجاعلك إماما... حيث اسم الفاعل عامل فى مفعوليه هنا، دليل انه جعل فى الحال، حيث الفاعل الماضى لا يعمل، واما الاستقبال فهو مجاز يحتاج إلى دليل وصدق المشتق بمادته ليس إلّا بصادق واقعها فى الحال.

و الإمامة بإطلاقها هى القيادة الحقة كما هنا او الباطلة كما جعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ، وليس المعنى منها فى ذلك الجعل ما دون العصمة من القيادة فان ابراهيم معصوم حينه

^١ نور الثقلين ١: ١٢٠ فى الخصال عن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: سألته عن الآية ما هذه الكلمات؟ قال: التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه و هو انه قال: يا رب اسألك بحق محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين الا تبت على فتاب الله عليه أنه هو التواب الرحيم، فقلت له يا ابن رسول الله فما يعنى عز و جل بقوله فأتْمَن؟ قال: أتمهن إلى القائم ...

بأعلى درجات النبوة، وان الله لا يجعل قيادة روحية بانتصاب لمن هو دون العصمة، فانه قد يخطأ او يقصر او يقصر، فكيف يأتمنه الله على قيادته للناس؟!.

بل وليست هذه الإمامة هنا هي الرسالة او النبوة، فإنهما مجعولتان له ماضيتان، ونفس إني جاعلك، وحيا دليل على حاضر الوحي رسالة ونبوة، فكيف يجعله صاحب وحي وهو رسول، كما وهو الآن في مختتم عمره وقد آتاه الله الحكم والنبوة في شبابه: «رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ الْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ» (٢٦: ٨٣) - (وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ، (١٩: ٤١) وذلك حين كان فتى وهو يحارب الآلهة المزيفة وعبادها:

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩).

فلأن الإمامة هنا هي بعد كامل العبودية والنبوة والرسالة والنبوة والخلقة^١ حيث تخطأها إلى القمة مرحليا كلاً تلو الأخرى، إذا فهي الإمامة بين المرسلين دون سائر الناس فحسب، حيث الإمامة الرسالية على الناس كانت له سابقة، فلتكن الإمامة الحاصلة بعد إتمام كلماتها هي الإمامة على المرسلين كما هم على سائر الناس.

فكل رسول - غير اولى العزم الذين دارت عليهم الرحي - هو إمام أمته، وولى العزم فوّه هو إمامه، مهما كان في زمنه أم يأتي بعده، فقد جعل الله كلاً من اولى العزم إماما لسائر الرسل والنبیین.

فموسى إمام وكتابه إمام، وطبعا لكافة الرسل الإسرائيليين إلاً المسيح عليه السلام: أ فَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَ يُتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً... (١١: ١٧).

ثم الرسل الإسرائيليون بين الإمامين: موسى والمسيح، هم كذلك أئمة لمن دونهما: «وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ. وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ» (٢١: ٧٣) (وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى

^١ تفسير البرهان ١: ١٤٩ عن الكافي بسند متصل عن زيد الشحام قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ان الله تبارك و تعالى اتخذ ابراهيم عبدا قبل ان يتخذه نبيا و ان الله اتخذ نبياً قبل ان يتخذه رسولا و ان الله اتخذ رسولا قبل ان يتخذه خليلا و ان الله اتخذه خليلا قبل ان يتخذه إماما، فلما جمع له الأشياء قال: «إني جاعلك للناس إماماً» قال: فمن عظمها في عين ابراهيم «قال و من ذريتي قال لا يتال عهدى الظالمين» قال: لا يكون السفية إمام التقى. أقول: «نبيا» هنا تولى الى النبوة فيعدها الرسالة ثم لم يذكر النبوة بعدها اكتفاء بالخلقة.

الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ، (٣٣: ٢٤).

وهنا مرتبة ثالثة من الإمامة الرسالية تحلق على ولاية العزم وما دونها من رسالات هي
الإمامة المحمدية السامية، المنقطعة النظر بين ملاء العالمين، من الملائكة والجنّة والناس
أجمعين، كما بيّنها هكذا أمثال قوله تعالى:

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا
مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ
فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ.

محمد صلى الله عليه وآله اضافة إلى أنه إمام سائر المكلفين، كذلك هو إمام المرسلين والنبیین، وإمام
على اولى العزم من الرسل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، كما وهو امام على الأئمة الإثنى
عشر من عترته المعصومين سلام الله عليهم أجمعين، وامام على كافة الكروبيين.

ف إني جاعلك للناس إماماً، تعنى الإمامة الوسطى، دون العليا المحمدية، ولا الدنيا الرسالية
لغير من دارت عليه الرحي من الرسل.

اجل! وإنما لا تعنى أية إمامة رسالية بدرجاتها، لکی تطرد رسالة آدم عليه السلام إذ ظلم بما أكل
من الشجرة فغوى، لا ينال عهدى الظالمين، يعنى عهد الإمامة الوسطى كما لإبراهيم، وباحرى
العليا كما لمحمد صلى الله عليه وآله دون سائر الإمامات فى سائر الرسالات وأدناها رسالة آدم وقد
عصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، (٢٠: ١٢١).

ف عهدى، هنا هو ذلك العهد الخاص، دون أى عهد كان، فعهد الفطرة الإنسانية- المعبر
عنها بفطرت الله- يناله كل إنسان، وعهد العقلية الإنسانية يناله كل عاقل، وعهد الشرعة
الإلهية يناله كل مؤمن، وعهد الرسالة الإلهية لا يناله إلا المصطفون مهما سبق لهم ظلم ما
ك آدم، ثم عهد الإمامة بين المرسلين لا ينال الظالمين، مهما كان ظلما سابقا مغفورا.

وحتى إذا عنت عهدى، كل إمامة فى مثلها- شاملة لرسالة آدم- لم تكن الظالمين، تعم
ماضية الحال، بل هى حسب الوضع والاستعمال تعنى الحال والاستقبال، فليكن من يجعل
إماما غير ظالم حال جعله وحتى آخر عمره.

أ ترى آدم الذى ظلم بما عصى، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى، هل هو طى هذه المراحل
تشملة «الظالمين» وصفا ماضيا بدّل إلى تمام العدل والاصطفاء؟!.

إذا فلتشمل «المشركون» كل الموحدين الذين كانوا مشركين، ثم آمنوا وأصبحوا من المقربين
كسلمان آمن شابهه من أفاضل المومنين.

و كما «الظالمين» حالا عند جعل الإمامة خارج عن «عهدى» كذلك «الظالمين» استقبالا، بمناسبة
العهد الخاص الربانى الواجب ذكره على اية حال.

بل وكذلك «الظالمين» ماضيا حين يكون فاحشا كالشرك، ام أيا كان حين تكون الإمامة
المطلقة التى تقتضى الاصطفاء المطلق بين ملا العالمين.

فكما لا ينال عهد الإمامة الوسطى مثل آدم عليه السلام على عصمته حين اصطفاه بالرسالة،
فبأحرى ألا ينال أمثال الخلفاء الثلاث، أن يحملوا الإمامة القمه عن الرسول صلى الله عليه وآله.

فالإمامة التى هى عهد خاص ربانى هى القيادة الروحية، مهما حملت - واقعا كما هو
شرعيا - القيادة الزمنية.

فمهما عنون الخلفاء الثلاث ثم الائمة الرابع بعنوان الإمام، فهم ليسوا أئمة يحملون شرعة الله
بذلك الانتصاب الخاص بعهد خاص.

ثم «عهدى» هنا - وإن على القدر المتيقن - هو عهد الامامة الإبراهيمية وهى بعد المحمدية
فضلا عنها، والظالمين، بعد «فأتمهن» هم المنتقصون الكلمات المبتهى بها، و لان الابتلاء
لإبراهيم بتلك الكلمات يحلق على كل حياته، فإتمامها كذلك حذو النعل بالنعل.

فكل من انتقص كلمة من هذه الكلمات طيلة حياته، انتقاصا فى عدتها ام عدتها، فى مادتها
ام هيئتها، فقد يعد من «الظالمين» الذين لا ينالهم «عهدى» هذا.

و من أشر الانتقاص هو الإشراك بالله، فكيف يجعل إماما - بهكذا إمامة أم فوقها وهى
المحمدية - من عبد وثنا ردحا عظيما من عمره.

فمهما لم تدل «الظالمين» على الماضى، إلّا الانتقاص فى تلكم الكلمات المحلقة على مثلث
الزمان، يمنع منعاً باتا عن جعل تلك الامامة الكبرى.

و لم تقل «ينال عهدى العادلون» لأن العدل مهما كان ظرفا لتأهل الإمامة لم تكن لزامه

الإمامة، فقد اكتفى بالشرط السلبي وهو عدم انتقاص الكلمات في مثلث ازمته الحياة، حيث يراد هذه الإمامة الخاصة.

إذا فكيف يحل الإمامة المحمدية وهي المطلقة القمة، من عبد وثقنا فيما مضى، لا وحتى آدم الذي عصى ربه فغوى، ولا ذا النون إذ ذهب مغاضبا ...

فنادى فى الظلمات، إني كنت من الظالمين، ولا موسى ب' إني ظلمت نفسي، فضلا عن الخلفاء الثلاث الذى لا يسوون شسع آدم عليه السلام!

ثم لا يتألم عهدى الظالمين، لا يستلزم انه يناله غير الظالمين بصورة مطلقة، وانما هو سلب لأهلية هذه الامامة عن الظالمين، لا واثبات للزوم الإمامة لغيرهم، فهم إذا من هو كإبراهيم ام فوجه، وقد تحققت الامامة فوق الإبراهيمية لمحمد صلى الله عليه وآله وعترته المعصومين اللهم إنا لفاطمة عليه السلام حيث اكتفى بعصمتها.

فإنما أبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة فصارت فى الصفوة^١، وهم المصطفون حين جعل الإمامة حتى الموت، مهما زادت الصفوة العليا صفوة فى ماضيها، كما فى حالها واستقبالها بأدلة أخرى.

أجل قد يمنع الظلم الماضى من عهد الإمامة إذا كان من كبائر الإثم والفواحش ومن أكبرها و أفحشها الإشراف بالله مهما كان مغفورا بالإيمان، ولكنه ليس مغفورا لمنصب الإمامة، فان الاصطفاء، وقاعدة إمكان الأشراف، يمنعان انتصاب من كان مشركا لمنصب الإمامة، مهما أصبح من أعدل العدول، كما والغضاضة الشركية السابقة تمنع المأمومين على الائتمام بذلك الإمام، مهما صحت الصلاة خلفه، وصح قضاءه وشهادته أما ذا سوى القيادة الروحية العليا وهى إمامة الأمة^٢.

^١ تفسير البرهان ١: ١٥٠ عن الكافي بسند متصل عن عبد العزيز بن مسلم فى حديث فضل الامامة قال: كنا مع الرضا عليه السلام يمر - الى ان قال عليه السلام: - ان الامامة اجل قدرا و أعظم شأننا و أعلى مكانا و امنع جانبا و ابعده غورا من ان يبلغها الناس بعقولهم او ينالوها بأرائهم و يقيموا اماما باختيارهم، ان الامامة لله عز و جل خص بها ابراهيم الخليل بعد النبوة و الخلة مرتبة ثالثة و فضيلة شرفه بها و أشاد بها ذكره فقال عز و جل إني جاعلك للناس إماما فقال الخليل مسرورا بها «و من ذريتي» قال الله تبارك و تعالى لا يتألم عهدى الظالمين فأبطلت هذه الآية ...

^٢ روى الشيخ فى اماليه بسند متصل عن عبد الله بن مسعود و الشافعي ابن المغازلي فى المناقب على ما فى تفسير اللوامع ١: ٦٢٩ - بإسناده يرفعه اليه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله و كيف صرت دعوة ابراهيم أبليك؟ قال: اوحى الله عز و جل الى ابراهيم إني جاعلك للناس إماما فاستخف ابراهيم الفرح فقال يا رب و من ذريتي مثلي، فأوحى الله عز و جل اليه ان يا ابراهيم اني لا

ثم «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» تنفى عن مثل آدم عهد الإمامة المعنى بـ «عهدي» فليس يكفى فى ذلك العهد حاضر العدالة، بل وماضيها كما فى حاضرها، حتى تحل فى ظرف ظريف طريف حفيف فى مثلث الزمان لكل أبعاد العدالة.

مطلق الإمامة الشامل لإمامة الجماعة وإمامة القضاء وإمامة التقليد، لا يقتضى هذه المرتبة القمة من الاصطفاء، ولا تعنى الإمامة فى الآية مطلقها الشامل لها، بل هى الإمامة المطلقة لمكان للناس، دون اختصاص بحقل او ناس خاص، كما وأنها فيها بعد الرسالة و النبوة.

فمن يحمل قيادة الأمة الاسلامية ككل بعد إمام الائمة محمد صلى الله عليه وآله ليس إلّا من أصفى الأصفياء كما محمد صلى الله عليه وآله فى قمتهم على الإطلاق، فكيف يصح أن تشمل هذه الإمامة من عبد صنما، كما وإِئْتَى جَاعِلُكَ، تختص جعل ذلك العهد باللّه، والخلفاء الثلاث بعد الرسول لم يكونوا منتصبين من قبل اللّه، ولا هم أصفياء الامة ككل، يجمع الامة الإسلامية ككل!

ثم النسبة بين هذه الإمامة والنبوة عموم من وجه، فقد يكون نبيا وليس هكذا إماما، كآدم و من فوّه من غير اولى العزم، أم يكون إماما وليس نبيا ولا رسولا، كالأئمة الإثنى عشر المحمديين، ام هو إمام ونبي كالخمسة أولى العزم، ام هو إمام الأنبياء والأئمة ككل وهو محمد صلى الله عليه وآله.

و لان أئمة اهل البيت عليهم السلام يحملون الإمامة فهم أفضل من سائر اولى العزم عليهم السلام وقد تدل على ذلك آية التطهير وما أشبهه.

و ترى الخليل تطلب من ربه الإمامة المجعلولة له للبعض من ذريته:

«وَمِنْ ذُرِّيَّتِي؟» علّها هى إمامة مطلقة لا مطلق الإمامة كما وانها قضية الموقف:

أعطيك عهدا لا أفي لك به، قال: يا رب ما العهد الذي لا تفي به؟ قال: لا أعطيك عهدا الظالم من ذريتك، قال يا رب و من الظالم من ولدي لا ينال عهدك؟ قال: من سجد لصنم من دوني لا اجعله إماما ابدا و لا يصلح ان يكون اماما، قال ابراهيم: و اجنبي و بني ان نعبد الأصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس، و من ثم قال النبي صلى الله عليه وآله فانتهدت الدعوة إلي والى اخي علي عليه السلام يسجد أحد منا لصنم قط فاتخذني الله نبيا و عليا وصيا تفسير البرهان ١: ١٥١.

وممن أخرجه عن ابن مسعود المير محمد صالح الترمذي الكشفي فى مناقب مرتضوي ص ٤١، روى عن الحميدي عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله ما ترجمه انه قال: ان دعوة ابراهيم الإمامة لذريته لا تصل إلّا لمن لم يسجد لصنم قط و من ثم جعلني الله نبيا و عليا وصيا لي.

إِنِّي جَاعِلُكَ ... إِذَا فِ «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» تجتث كل دركات الظلم، ناحية منحى كل درجات العدل فى حياة الإمام كلها، وذلك منطبق على أئمة المرسلين بعده: موسى والمسيح ومحمد عليهم السلام، آمن حذى حذوهم من أئمة الإسلام المعصومين، فلا تشمل - ولأقل تقدير - مثل آدم، الذى عصى ربه قبل رسالته فغوى، مهما اجتباه ربه - بعده - فتاب عليه وهدى.

و من ميزات هذه الإمامة أن ليس يختص وحيها بالعلوم والمعارف بل وفعل الخيرات، كما والهداية بأمر الله تكوينيا وتشريعا، فكما هم مهتدون بأمر الله فيهما، كذلك هم هادون بأمر الله فيهما، وهم عاملون الخيرات بوحي الله:

«وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ» (٢١: ٧٣).

و إطلاق القول «وكانوا لنا عابدين» ضاربا الى كل أبعاد الماضى - وهى قبل الإمامة - ذلك الإطلاق يخرج كمثال آدم عليه السلام.

و فى رجعة أخرى إلى آية الابتلاء: «و اذكر يا إمام أئمة الهدى، الرسول المصطفى، اذكر، ذكرى من ابراهيم الخليل عليه السلام كأفضل مثل من أمثولات الإمامة بالابتلاء، ولكى تكون على أهبه لابتلاء أشد وأقوى لإمامة هى أشمل وأنبى وأعلى، اذكر اذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات ...»

فربك يتليك بكلمات ويجعلك للناس إماما على العالمين أجمع - كما جعله!.
«فأتمهن» ابراهيم وأتمهن» ربه، وأين إتمام من إتمام، وكذلك الله يتم لك وتتمه أنت، و اين كلمات من كلمات.

«قال إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» وقد جعلت أنت إماما على النبيين «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ...»

«قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي» وكما قال موسى «وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي» ولكن الله جعل لك من ذريتك أئمة يحملون أمانة إمامتك ككل وكما يبدو من آية التطهير، الجاعلة طهارتك القمة لأهل بيت رسالتك القدسية وهم الائمة الإثنى عشر عليهم السلام.

و قد تعنى بكلمات، قسما منها يناسب الإمامة الإبراهيمية، ولمحمد صلى الله عليه وآله كل الكلمات

لأن إمامته هي كل الإمامات: «فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ» (٧: ١٥٨) إيماناً علمياً وعقيدياً وعملياً في كل الحقول المعرفية والعملية، دون إبقاء لكلمة يبتلى بها إلا وأتمها كأتمها حتى نال الإمامة الكبرى.

ولئن نال الخليل مرتبة الإمامة بعد العبودية والرسالة والنبوة والخلة كما تناسب إمامته، فقد نال الحبيب الإمامة الكبرى بعد أن أصبح أول العابدين:

«قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدًّا فَاْنَا أَوْلُ الْعَابِدِينَ» ثم أصبح آخر النبيين ورسولاً إليهم أجمعين: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ...» ثم حبيبا لرب العالمين لحد يحلف بعمره ربه «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» (١٥: ٧٢) كما ويحلف بنفسه «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...» (٤: ٦٥).

و ترى الخليل - بعد - يتطلب من ربه إمامته للبعض من ذريته دون شرط إلا أنهم من ذريته؟ وذلك بعيد عن مقام الخليل أمام ربه الجليل، وقد ابتلى هو نفسه بكلمات، فكيف يدعو لذريته دون ابتلاء!

«وَمِنْ ذُرِّيَّتِي» ليست لتعلق - فقط - ب «إِنِّي جَاعِلُكَ...» بل وقبلها ب «ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ» إذا فلدعاه بعدان اثنان، أن يبتلى ربه من ذريته - كما هو - بكلمات، ثم يجعله بإتمامهن إماما، فأضاف ربه إليهما بعدا ثالثا «قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» فلا يصلح الظالم أن يبتلى بكلمات تلك الإمامة حتى يجعل إماما.

و ترى ابراهيم الخليل عليه السلام هو بعد كأضرابه من النبيين، حكمت عليه رغبة امتداد الإمامة في ذريته فسألها لهم ربه؟ ولا وراثته فيها، ولا تقدم لها فيهم لأنهم - فقط - ذرية!

نقول هنا: إضافة إلى أن امتداد الشخصية - زمنية او روحية أما هيه؟ - هو رغبة فطرية، أودعها الله في فطرت الإنسان، تنمية للحياة، ومضيا في طريقها المرسوم، وقد قرر الإسلام على أساسه شرعة الميراث وسائر الإختصاص في حقل التربية مادية ومعنوية: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» - «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَاراً» نقول إضافة إلى ذلك إنه استدعاء بشروط، دونما فوضى جزاف، ودون سلب لغير ذريته، ومن ثم فدعاه - كسائر فعلة - إنما هو بإذن ربه ودعاه - قضية التسليم المطلق لساحة الربوبية وقد عرف وحيا من ربه ان من ذريته من

إسماعيل من يأهل لتلك الإمامة.

و كما فى دعاءه رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ...

(٢: ١٢٨) وما البعد الثالث لتحقيق ذلك الدعاء: «لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ، إلاً توضيحاً لسائر الأجيال فى هذه الإذاعة القرآنية العالمية، وليس تفهيماً لإبراهيم، العارف شروطاً تلك الإمامة الكبرى كما لمسها فى نفسه.

فطالما يدعو إبراهيم إمامته للبعض من ذريته، ولكنه يشترط شرط إتمام نفس الكلمات، مما لا يحصره فى ذريته، اللهم إلاً بما أوحى إليه ربه، إلاً يصلح لشروطاتها إلاً بعض من ذريته كمحمد وعترته المعصومين عليهم السلام أجمعين.

و هنا «من ذريتي، لا تعنى إلاً البعض منهم، وهم بين عادل وظالم، فتراه أراد الظالمين منهم فقط ترجيحاً للمفضول على الفاضل! ام عنى الفريقين؟

و «من، بعض! فهو- إذا- يعنى العدول منهم- ولأقل تقدير- حالة الإمامة، ولا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ، أخرجت كل ظالم منتقص كلمات الابتلاء، ماضياً او مستقبلاً فضلاً عن الحال، فلم يشمل عهد الامامة كل العدول حال الجعل، بل هم العدول فى مثلث الزمان لقمة العدالة وهى عدم الانتقاص فى الكلمات المبتلى بها هكذا إمام.

وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَ عَهْدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥).

«البيت، هنا هو البيت العتيق: الكعبة المشرفة، والجعل هنا تشريفي تشريعي، وواقعي تكويني، فى مثابته وأمنه، فما هى «مثابة، وما هو «أمناء».

«مثابة، هى فى الأصل المثوبة اسم لمكان «البيت، ام ومصدراً ميميا، ام وعلى هامشهما اسم زمان، فان لإتيانه حجا زمان خاص، والتاء للمبالغة، فالبيت مصدر لكل صادر بكل معانى «مثابة، كما هو ملجأ لكل حائر سادر، فهو «مثابة، مصدراً وزماناً ومكاناً.

و لقد أتت «مثابة، فى مختلف المناسبات لمعان عدة، فلا تختص بواحدة دون أخرى، وقضية الإفصاح البليغ فى مذهب الفصاحة البالغة، ان يُوْى باللفظ قدر المعنى المرام، لا زائداً على المعنى ولا ناقصاً عنه، وخرافة استحالة استعمال لفظ واحد فى اكثر من معنى واحد تنحل

فى ألفاظ الكتاب والسنة بأن للقائل مقام جمع الجمع فلا مشكلة له فى هكذا استعمال جامع بين شتات، وذلك من اختصاصات الكتاب والسنة، اختصارا فى التعبير، وعناية للمعنى الكثير.

كما وتنحل فى اصطلاح من يقوم لما يستعمله من ألفاظ كل المعانى الصالحة فى اللغة، دون حاجة الى لحاظها ردف بعض حتى يحيله قوله تعالى «ما جعلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فى جَوْفِهِ».

فمختلف التفسير لمثابه مختلف عن تفسيرها المعنى منها دون أية حجة لواحد من معانيها، وهى:

١ المقام - ٢ المرجع - ٣ المجتمع - ٤ الممتلى - ٥ الملجأ - ٦ الماتى متواترا - ٧ المقبل - ٨ المتاب - ٩ محل الثواب - ١٠ المنتبه - ١١ المستقى - ١٢ مجتمع الماء ...

و بضرب مثلث الصيغة من «مثابه»، إلى المعانى الإثنى عشر تصبح معانيها المعنوية ستة وثلاثين مهما اختلفت عنايتها فى درجات، واين هى من معنى واحد لا دليل له، وهو فى نفس الوقت خلاف الفصيح بل وغير صحيح!

اجل إنه ١ مقام الإسلام ومنطقه، ومقام المسلمين بكل انطلاقاتهم الحيوية السامية.

٢ ومرجعهم حيث يرجعون اليه فى مشاكلهم الروحية والجماعية أماهيه؟
لا يقضون منه وطرا!

٣ ومجتمعهم «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى ما رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ... اجتماعا عن كل التفرقات والتفرقات.

٤ وممتلى مجدهم بجمعه الحافل الكافل لحل كل المشاكل بتشاور وتجاوز ملء بما يغنيهم.
٥ وملجؤم فى مخاوفهم عن مفازاتهم فى سياساتهم الزمنية والروحية، وسائر حاجياتهم الحيوية.

٦ يأتونه متواترا فى حجهم وعمرتهم دونما انقطاع، قطاعات عظيمة من مختلف الألسن و

^١ كما يروى عن باقر العلوم عليه السلام تفسيراً لمثابه: يرجعون اليه ...

الألوان من مشارق الأرض ومغاربها، من كل فج عميق.

٧ مقبلين اليه زيارة له، واستقبالا فى صلواتهم وسائر عباداتهم، استقبالا لقبيلته الواحدة.

٨ ومتابهم عن ذنوبهم فردية وجماعية، فإنهم فيه من ضيوف الرحمن وحاشاه ان يرجعهم خائبين!

٩ ومحل ثوابهم إذ يثيبهم الله بزيارته حقها كما وعد عباده الثائبين اليه الثائبين.

١٠ ومتبها لهم عن كل غفلاتهم وغفواتهم، وليشعروا ماذا عليهم فى مسئولياتهم الإسلامية الهامة.

١١ ومستقى لهم من تروية ماء الحياة فى كل حقولها الروحية والمادية، من مشارف بئر العظيم، بدلاء التضامن والتعاقد الأخوى الاسلامى.

١٢ ومجتمع مياه الحياة فى كافة الجنبات: العلمية- العقيدية- الأخلاقية- العبادية- الاقتصادية- السياسية والعسكرية أماهيه.

ذلك هو كيان جعل البيت فى الأساس، يجمعها قياماً للناس: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ» (٥: ٩٧) ومباركا وهدى للعالمين: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا...» (٣: ١٦).

و «الناس» كل الناس هم المحور الأساس فى مثابة البيت وأمنه والقيام فيه وبركته وهداه، مما يلمح أن الحج فريضة إنسانية تصلح الحيوية الجماهيرية.

«و آمنا، هنا دون «آمنا، كما ل «مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، مما يدل على خالص الأمن والسلام فيه، آمنا فى شرعة الله اكثر من كل بيت، وآمنا واقعيا ليس فى اى بيت، مهما يوجد فيه خلاف الأمن من متخلفين، ولكنه اقل بكثير من غيره على طول الخط.

و البيت هنا «مثابة وآمنا، لا يخص الكعبة المباركة- مهما كانت هى الأصل فيهما- بل والمسجد الحرام والحرم كله كما «هَدْيًا بِالْبَيْتِ الْكَعْبَةِ، وَحَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا، تشهد على هذه الشمولية.

ثم «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، تأمر الحجاج والمعتمرين- الطائفين والعاكفين والركع السجود- تأمرهم ان يتخذوا من مقام ابراهيم مصلى أمرا تشريعا بعد أمنه تكوينا و تشريعا،

فما هو مقامه المأمور باتخاذ مصلى منه؟.

يأتي مقام ابراهيم في ثانية: «فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ» (٣: ٩٧) مما تلمح - بين معانيها - وتلمح ان «آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» كلها مقام ابراهيم، وقد ذكرنا في مسرحها اثنتى عشرة آية، من أبرزها - المعروف بينها عند الكل - هو مقام ابراهيم - موضع قدمه من الحجر الموجود في المقام حيث هو الآن، إذ أثرت قدمه المباركة حين كان يرفع القواعد من البيت، وحين أذن في الناس بالحج^١.

ذلك الحجر نزل في مثلث الحجر - كما يروى - من الجنة^٢ وكما لمقام ابراهيم أبعاد، كذلك اتخاذ مصلى منه له أبعاد، أوسعها مقام البيت ككل، فانه مصلى لكافة المصلين في هذه المعمورة وسواها، مصلى واسع ابتداء من البيت نفسه وإلى كل أنحاء العالم.

ثم في مقام الحجر فان الصلاة فيه مفضلة على غيره من كل أنحاء البيت، ثم المسجد الحرام كله، ثم مكة كلها، ثم الحرم كله، ثم المشاعر كلها، فانها كلها مقام ابراهيم.

ول «من» - في «مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ» بالنسبة لخصوص المقام - موقعها الدلالي فقها لهندسة «مصلى» فلم يقل «في» لأنه لا يكفي مكانا لصلاة، ولا لمصل واحد فضلا عن مئات الآلاف، ولا «اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» حتى يصبح كالبيت يصلى حوله من كل الأطراف، مهما جعل البيت دبرا، ولا «الى مقام ابراهيم، وكيف يجعل خلف المصلى».

و إنما «مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ» فهي ابتدائية تبين مبتداء لركعتى الطواف أنه حد المقام - وطبعا حيث هو الآن وكما كان - وليست تبعيضية فان كل المقام لا يسع لمصل واحد فضلا عن بعضه

^١ في حسنة ابن سنان او صحيحه - على الأصح - قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام «فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» ما هذه الآيات البيئات؟ قال: مقام ابراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه، و الحجر الأسود و منزل إسماعيل. وفي الدر المنثور ١: ١١٨ - اخرج ابن ماجة و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن جابر قال: لما وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يوم فتح مكة عند مقام ابراهيم قال له عمر يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا مقام ابراهيم الذي قال الله: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى قال: نعم.

^٢ المجمع روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام انه قال: نزلت ثلاثة أحجار من الجنة مقام ابراهيم و حجر بني إسرائيل و الحجر الأسود، و في الدر المنثور ١: ١١٩ - اخرج الترمذي و ابن حبان و الحاكم و البيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الركن و المقام ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما و لو لا ذلك لأضاء ما بين المشرق و المغرب، و اخرج البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الركن و المقام من ياقوت الجنة و لو لا ما مسهما من خطايا بني آدم لأضاءنا ما بين المشرق و المغرب و ما مسهما من ذي عاهة و لا سقيم إلا شفى.

ولجموع المصلين!.

ذلك بيان ظريف لمبتداء الصلاة الخاصة - دون كل صلاة - فقد يشمل خلف المقام وجانبه حياله، ما صدق انه «مِنَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، مهما كان خلفا وحيالا بعيدا لإطلاق «من مقام، ثم المنتهى - طبعاً - هو منتهى المسجد الحرام، وإن كان الأقرب منه فالأقرب أقرب فى تطبيق الأمر، إلّا أن مختلف الظروف والحالات لها مختلف الأبعاد ل «مِنَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ». و مستفيض النقل عن الرسول صلى الله عليه وآله وأئمة اهل بيته عليهم السلام عنه، ليس إلّا عند المقام، وخلف المقام،^١ وهما بيانان ل «مِنَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ»، فلا يتجاوز المقام الى البيت فانه ليس «من مقام، علما أن البيت هو القبلة فى المسجد الحرام، إذا ف - «من مقام، تعنى الصلاة الى البيت، فكيف تتجاوز قدام المقام الى البيت؟.

و لان خلف المقام أقرب مقاما فى «من مقام، الى المقام، فليقدم على جانبى المقام، ولكلّ منهما مقامات حسب مختلف المقامات.

ولقد رأوا «أبا الحسن موسى عليه السلام يصلى ركعتى طواف الفريضة بحيال المقام قريبا من ظلال المسجد لكثرة الناس»^٢.

و ذلك «مِنَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، بعيدا عنه قضية الضرورة، مهما بعد عن «عند المقام، فضلا عن

^١ فمما روي في «خلف المقام» ما في الدر المنثور ١: ١١٨ - أخرج مسلم و ابن أبي داود و ابو نعيم في الحلية و البيهقي في سننه عن جابر ان النبي صلى الله عليه وآله رمل ثلاثة أشواط و مشى أربعا حتى إذا فرغ عهد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ثم قرأ: و اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى

وفيه ١٢٠ - أخرج الحميدي و ابن النجار عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله من طاف بالبيت سبعا و صلى خلف المقام ركعتين و شرب من ماء زمزم غفرت له ذنوبه كلها بالغة ما بلغت وفيه أخرج الأزرقى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله المرء يريد الطواف بالبيت أقبل يخوض الرحمة فإذا دخله غمرته ... فإذا فرغ من طوافه فأتى قام ابراهيم فصلى ركعتين دبر المقام خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه ...

أقول: لا تجد فيما يروى عنه صلى الله عليه وآله إلا خلف المقام او دبره. وفي التهذيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ليس لأحد ان يصلى ركعتين طواف الفريضة الا خلف المقام لقول الله تعالى: وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ان صليتهما في غيره فعليك اعادة الصلاة. وفي الكافي ٤: ٤٢٣ و التهذيب ١: ٤٨٥ حسنة معاوية بن عمار او صحيحته «إذا فرغت من طوافك فانت مقام ابراهيم عليه السلام و صل ركعتين و اجعله أماما ...»

وفي التهذيب عن أبي عبد الله الأزارى سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل نسي ان يصلى ركعتين طواف الفريضة في الحجر؟ قال: يعيدهما خلف المقام لان الله يقول: وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى يعني بذلك ركعتي طواف الفريضة.

^٢ كما في الكافي ٤: ٤٢٣ - في الصحيح عن الحسين بن عثمان رأيت أبا الحسن موسى عليه السلام يصلى ...

وفي التهذيب ١: ٤٨٦ - (قريبا من الضلال لكثرة الناس).

و قد يشملهما «عند المقام» مع رعاية الترتيب كما في خبر زرارة: «لا ينبغي ان يصلى ركعتي طواف الفريضة إلا عند مقام ابراهيم» (الكافي ٤: ٤٢٤ و التهذيب ١: ٤٨٥).

«خلف المقام، حيث المدار هو صدق من مقام».

و هو يشمل كل أضلاع المقام سعة المسجد الحرام إلّا ضلعه القبلي، ثم وخلف المقام، يشمل كل مساحة الضلع الخلفي حتى آخر المسجد الحرام، مهما لم يشمل عند المقام، كل السطح اليميني واليسارى.

فخلف المقام نص فى جعل المقام أماما كإمام، وعند المقام يعمه وحيال المقام برجاحة الخلف، إذا فخلفه هو الاول ما صدق الخلف، ثم حiale ما صدق الحيال، وأجمل تعبير عنهما «من مقام».

فمن الأضلاع الاربعة للمقام يبقى الضلع المواجه للكعبة حيث لا يصح ان يتخذ مصلى إذ يستلزم استدبار الكعبة، ثم الأضلاع الثلاثة الاخرى هى بين الأخرى فالأخرى كلها «من مقام إبراهيم» فى كونها مصلى الأقرب منها فالأقرب الى المقام حيث هو المبتدء فيها، ما صدق انه من مقام، والخلف والحيال البعيد عن المقام، مهما بعدا عن خلف المقام وحياله حسب النصين ولكنهما داخلان فى «من مقام» حيث المنتهى هو آخر المسجد الحرام إذ لم يذكر هنا منتهى آخر، فلو كان لذكر كالمبتدء!

و ترى إن نسي الصلاة خلف المقام حتى قضى مناسكه كلها او بعضها، عليه ان يرجع فيصلى خلف المقام؟ طبعا نعم إن أمكن «يرجع إلى المقام فيصلى ركعتين»^١، و ان كان ارتحل فإنى لا أشق عليه ولا أمره أن يرجع ولكن يصلى حيث يذكر^٢. ذلك لإطلاق الأمر «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ، لِلنَّاسِ كَمَا الذَّاكِرُ، خَرَجَ مَوْقِفِ الْمَشْفَقَةِ وَالْحَرَجِ، إِذْ لَا عَسْرَ فِي الدِّينِ وَلَا حَرَجٍ، وَإِنْ كَانَ الْأَحْوَطُ الْجَمْعَ بَيْنَ أَنْ يَصْلِيَهُمَا

^١ كما فى الكافي ٤: ٤٢٦ و الاستبصار ٢: ٢٣٤ و التهذيب ١: ٤٨٦ صحبة ابن مسلم عن أحدهما عليه السلام قال: «سئل عن رجل طاف طواف الفريضة و لم يصل الركعتين حتى طاف بين الصفا و المروة ثم طاف طواف النساء و لم يصل أيضا لذلك الطواف حتى ذكر و هو بالأبطح؟ قال: يرجع الى المقام فيصلى ركعتين».

^٢ كما فى التهذيب ١: ٤٨٦ و الاستبصار ٣: ٢٣٥ صحبة أبي بصير سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل نسي ان يصلى ركعتي طواف الفريضة خلف المقام و قد قال الله: «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ حَتَّى ارْتَحَلْتُمْ؟ فَقَالَ: إِنْ كَانَ ارْتَحَلْتُمْ ...»

حيث يذكر، وأن يستنيب^١ لادائهما عند المقام، ام وإذا رجع في سفره أخرى يقضيهما.
 فالأصل المرجع - ككل - هو على أية حال، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًّا، ما أمكن دون
 عسر ولا حرج، والجمع بين صلاة الأصيل والوكيل يجمع بين مختلف الدليل.
 و هنا ويلات من مختلفات الروايات ان فلانا وفلانا سألوا النبي صلى الله عليه وآله لو اتخذنا من مقام
 ابراهيم مصلى فنزلت، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًّا! ويكأن الله يتبع في وحيه إلى
 رسوله أهواء فلان وفلان، فهما أخرى بالاتباع وأعرف من الرسول صلى الله عليه وآله استصلاحا
 لركعتي الطواف^٢.

و كما يهرف فيما يخرف، كان المقام إلى لزق البيت فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله
 صلى الله عليه وآله لو نَحَيْتَهُ عن البيت ليصلى إليه الناس ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فأَنْزَلَ اللهُ: «وَ
 اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًّا»^٣

كلًا! إن المقام هو المقام الآن كما كان دون تحوّل ولا تحويل ولا تحويل في تحويل، كما
 البيت هو البيت، والمشاعر هي المشاعر، والحرم هو الحرم.

و لأن المطاف يتسع حسب اتساع الطائفتين - والى خلف المقام بقليل او كثير - فحتى لا
 تكون فوضى الصدام بين الطائفتين والمصلين، قد تلمح، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًّا، -
 دون صلّوا، او ما أشبه - تلمح بأن المصلي من المقام مرحليّ لجمهرة المصلين كما المطاف،
 فليتقدم المطاف على المصلي، وعلى المصلين أن يتخذوا من مقام ابراهيم مصليّ إلى آخر
 المسجد الحرام بصورة مقررة محسوبة على الجميع، حيث لا يضيق المطاف على الطائفتين.

فالإسلام بكل مقرراته نظام، ولا سيما في القرارات الجماعية تحسبا دقيقا رفيقا لسلامة
 التطبيق في كل جليل ودقيق، وموُمر الحج هو من أدق التنظيمات الجماعية الإسلامية

^١ في التهذيب عن ابن مسكان قال: حدثني من سأله عن الرجل ينسى ركعتي طواف الفريضة حتى يخرج؟ فقال: يوكل، قال ابن مسكان وفي حديث آخر: ان كان جاوز ميقات أهل ارضه فليرجع وليصلهما فان الله تعالى يقول وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًّا.

^٢ الدر المنثور ١: ١١٩ - اخرج الطبراني و الخطيب في تاريخه عن ابن عمر ان عمر قال يا رسول الله صلى الله عليه وآله لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى فنزلت: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًّا وفيه خرج عبد بن حميد و الترمذي عن انس قال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله لو صلينا خلف المقام؟ فنزلت ...

^٣ المصدر ١١٩ أخرج ابن أبي دواد عن مجاهد قال: ...

السلمية يَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ، - قِيَاماً لِلنَّاسِ.

فليكن المطاف والمصلى بحيث لا يكون صدام واحتدام بين الطائفين والمصلين، فليراع المصلون كتلة الطائفين، كما على الطائفين رعاية كتل المصلين، مع تقدم الأولين حسب الحاجة الضرورية لصالح الطواف من متسع المطاف.

و لو أن المطاف احتل - يوماً ما- المسجد الحرام كله، وطبعاً في واجب الطواف، فليقرر لكل من الطواف والصلاة موعد يكفيه، باستثناء أمام المقام الى البيت فانه مطاف على أية حال، وليراع واجب كل من الطواف وصلاته، تقديماً على تطوعه، ولا يجوز إشغال المصلى خلف المقام مع الزحام - كما المطاف - تقديماً للفرض على النفل كما قدمه الله¹.

ثم وفي رجعة اخرى الى الآية مسائل:

الاولى: لو تحوّل المقام الى غير مقامه الآن، لم تتحول الصلاة خلفه عما خلفه كما كان حيث المقام لا يختص بذلك الحجر القابل للتحويل، بل هو مقامه من أرض المسجد الحرام الى تخوم السماوات والأرض، وكما الكعبة المباركة والمسجد الحرام، والحل والحرام، حيث الظاهرة الآن على الأرض هي علامات، وليست هي - فقط - الأصل في مسرح الأحكام.

الثانية: المأمور بالصلاة خلف المقام أم عنده هو هو المكلف بطوافها، فلا يستتبع فيها مهما كلف الأمر، إلا إذا لا يسطع أن يأتي بالأمر، عذراً يسقط عنه أصالة الأمر، إذا فإلى الاستتابة، كالمغشى عليه والميت ومن أشبهه، فإجادة القراءة وسائر الواجبات والأركان وإن كانت مفروضة في تطبيق الأمر، إلا أنها لا تسمح للاستتابة، قصوراً عن الإجابة أم تقصيراً فيها.

ثم الاستتابة في الواجبات هي خلاف الأصل حتى عند الضرورة حيث تسقط الفريضة عندها، اللهم إلا بدليل، ولا دليل على الوجوب او السماح في استتابة لصلاة الطواف إلا لمن يعذر بنفسه عنها، في نفسه، ام لأنه خارج لا يسطع على العودة.

الثالثة: لا يجوز له طواف واجب ما لم يعرف واجبات ركعتيه كواجباته، إلا إذا ضاق وقت الطواف، فان طاف في سعة الوقت ولا يعرف واجب الصلاة آخرها حتى يعرفها تعلماً، ام

¹ راجع كتابنا- اسرار مناسك و ادلة حج- باللغة الفارسية، و فيما أوردناه من الفروع كفاية كأصول لأحكام صلاة الطواف.

يقتدى في ركعتي الطواف، فان صلاهما مخلًا بصحتها أعادها بعد تعلمها ان أمكن، فان كان خرج ام في تعلمه حرج، صلاهما حيثما كان واستتاب.

فالأمر الذي لا بد منه هنا كضابطة أن عليه نفسه ركعتي الطواف كما الطواف، فلا استنابه هنا او هناك إلّا عند الضرورة، وليس منها عدم معرفته كيف تَوُى الصلاة؟.

الرابعة: لا تجب في ركعتي الطواف رعاية عدم تقدم النساء على الرجال، قضية تضييقها مكانا وزمانا، ففي رعاية المكان والزمان، الى رعاية عدم التقدم حرج فلا وجوب.

و أخيرا ذكر مصلى المقام مما يدل على ان صلاة الطواف فريضة كسائر ما يذكر من فرائض الحج في القرآن، ولكنها ليست ركنا كسائر أركانها.

ثم والتفصيل الى سائر المفصلات المخصصة لهذه الفروع، فانما علينا ان نلقى إليكم الأصول وعليكم التفريع!

ثم وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، مفسرة في نظيرتها: «وَطَهَّرَ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» (٢٢: ٢٦).

فالركع السجود فيهما هم المصلون - ككل - طائفا او عاكفا او قائما، ثم الطائفون هم المسافرون لقرنهم في آية الحج بالقائمين، ام هم أعم منهم ومن يطوف بالبيت وعله أصلح، حيث التعبير عن خصوص المسافرين بالطائفين هو أوسع من معناها، كما والعاكفين - عله - أعم من المقيمين والمعتكفين في المسجد الحرام والقاعدين فيه، فقد شملت الآيتان كل عابد في المسجد الحرام، مسافرا او مقيما، معتكفا او طائفا او مصليا ام جالسا فإنه أيضا عبادة، والتطهير المأمور به هو - ككل - تعبيد الكعبة المباركة بما حولها لهو العباد، إزاحة لمعالم الشرك، وإراحة للموحدين بمعالم وطقوس التوحيد، فيعم تطهيره عن كل الأرجاس ظاهرة وباطنة.

و قد تلمح «طهرا... بأولى وأحرى إلى طهارة نفوس هو»، وطهارة ملابسهم وأبدانهم، و

^١ نور الثقلين ١: ١٢٣ عن تفسير القمي في الآية قال الصادق عليه السلام يعني نح عنه المشركين، و قال: لما بنى ابراهيم البيت و حج الناس شكك الكعبة الى الله تبارك و تعالى ما تلقى من أنفاس المشركين فأوحى الله إليها قرى كعبتي فاني ابعث في آخر الزمان قوما ينتظفون بقضبان الشجر و يتخللون.

طهارتهم عن الأحداث، فمثلت الطهارة قد تعنى ضمن المعنى من «طهرا»^١.
و لان أظهر مصاديق «بتي»- الموسع إلى المسجد الحرام- هو نفس الكعبة المباركة، فقد يظهر من الآية جواز الصلاة في جوف البيت، وأما الطواف فلا يشرع إلا حول البيت لنص آخر «وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» وكيفما توجهت في جوف البيت كنت متجها الى القبلة لأنه كله قبله من داخله كما هي من خارجه، اللهم إلا من يقوم على أشرف سطح البيت فليست صلاته إلى القبلة فلا تصح، إلا مستقبلا لسائر الأشراف.

و ليس معنى «حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» إلا الخارجين عن البيت والمسجد الحرام، حيث الشطر هو الجانب، وهي تعنى شطر المسجد الحرام.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦).

هنا «هذا بَلَدًا آمِنًا» لا تعنى انه لم يكن حينذاك بلدا، حيث المفعول الثاني «آمنا» يكفى لجديد الجعل، ف «هذا» إشارة الى البلد كما في ابراهيم «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا» (٣٥).

فقد تطلب أمنه في حقلى التكوين والتشريع كما شرحناهما في آية «ابراهيم»- ثم «وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ينضاف الى اهله المؤمنين «وَمَنْ كَفَرَ» ولكن رزقه بدعائه ليس لينجيه من عذاب الله حيث «فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا» وكل متاع الدنيا قليل!

ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» وقد يكون الطائف من ثمرات الحرم كما دعى الخليل فأعطاه الجليل الطائف لتكون من رزق الحرم^٢.

^١ المصدر في كتاب العلل بسند متصل عن عبيد الله بن الحلي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام أ يعتسلن النساء إذا اتين البيوت؟ قال: نعم- ان الله عز و جل يقول: ان طهرا بيتي للطائفين و العاكفين و الركع السجود، فينبغي للعبد ألا يدخل إلا و هو طاهر قد غسل عنه العرق و الأذى و تطهر.

^٢ تفصيل البحث عن موقفى الدعائين نجده في تفسير آية ابراهيم.

^٣ الدر المنثور ١: ١٢٤- اخرج الأزرقى عن محمد بن المنكدر عن النبي صلى الله عليه وآله «لما وضع الله الحرم نقل له الطائف من فلسطين» أقول: قد يعنى من ذلك النقل وضع مماثل لقرية فلسطين فيه حيث الطائف يشبهها في جوها و منظرها و ثمارها، و في نور الثقلين ١: ١٢٤ عن العلل عن ابن مهزيار عن الرضا عليه السلام في الطائف: أ تدري لم سمي الطائف؟ قلت لا، قال: ان ابراهيم عليه السلام دعى ربه ان يرزق اهله من كل الثمرات، فقطع له قطعة من الأردن فأقبلت حتى طافت بالبيت سبعا ثم أقرها الله عز و جل في موضعها، فانما سميت الطائف للطواف بالبيت.

ثم «الثمرات» تعم ثمرات القلوب الى ثمرات القوالب كما يروى عن أئمة الهدى عليهم السلام^١.
ولقد تصبغ دعاء ابراهيم لأهل البلد الحرام بما صبغهُ الله من قبل «لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»
إفادته له من هذه العظة البالغة، محترسا في دعائه محددا المرزوقين من اهله بمن آمن وقد
تبرء من قبل من المشركين «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» (٩: ١١٤).

و لكن يبقى هنا مجال السؤال: هل إن طلب الرزق للمشرك ضمن المؤمن، هو من
الاستغفار له؟ طبعاً لا! ولكنه استرحام قد يحوم حوم الاستغفار.

فانما حصر الخليل دعائه في المؤمن حائطة على مرسوم الدعاء، ولكيلا يكون مطلقاً يقيد
كما قيّد «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي» وقد حصره عن حصره الجليل، ولأن هذا الرزق ليس ليختص
بالمادى منه المؤمن قال «وَمَنْ كَفَرَ...» ولكن كيف؟

إنما «فَأَمَّتْهُ قَلِيلًا»، ثم الرزق الآخر وهو الروحي الإيماني يختص بالمؤمنين، وكما اختص
عهد الإمامة بغير الظالمين، وقد يروى أن الرسول صلى الله عليه وآله دعى لأهل المدينة كما دعى
ابراهيم لأهل مكة^٢.

ذلك وإلى رسم راسم لمشهد تنفيذ الخليل بإسماعيل لأمر الجليل بإعداد البيت وتطهير
«لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ»:

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧.
قد تعنى «الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ» أن ليس البيت هو القواعد والبنيان، مهما كانت منه، إذا فالبيت
هو المربع الخاص من سطح الأرض، ثم من فوقها إلى السماء السابعة، وكذلك من تحتها،
عمود مستقيم يربط أعلى النقط من الكون إلى أدناها، وقد يصدقه ما يروى عن الرسول

^١ الدر المنثور ١: ١٢١- أخرج احمد عن أبي قتادة ان رسول الله صلى الله عليه وآله توضعاً ثم صلى بأرض سعد بأرض الحرة عند بيوت
السقيا ثم قال: اللهم ان ابراهيم خليلك عبدك و نبيك دعاك لأهل مكة و انا محمد عبدك و رسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك
ابراهيم بمكة، أدعوك ان تبارك لهم في صاعهم و مدهم و ثمارهم، اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، و اجعل ما بها من
وراء الخمر، اني حرمت ما بين لا بينها كما حرمت على لسان ابراهيم الحرم.
- وفيه اخرج مسلم عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: اللهم ان ابراهيم عبدك و خليلك و نبيك و اني عبدك و نبيك و انه
دعاك لمكة و اني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة و مثله معه، و فيه اخرج الطبراني في الأوسط عن علي بن أبي طالب
عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ... و اجعل مع البركة بركتين.

^٢ الدر المنثور ١: ١٢٨- أخرج الأزرقى عن ليث بن معاذ قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله هذا البيت ...

«هذا البيت خامس خمسة عشر بيتا سبعة منها فى السماء وسبعة منها إلى تخوم الأرض السفلى، وأعلها يلى العرش البيت المعمور، لكل بيت منها حرم كحرم هذا البيت لو سقط منها بيت لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السفلى، ولكل بيت من أهل السماء ومن أهل الأرض من يعمره كما يعمر هذا البيت»^١.

و قد يعنى البيت المعمور - حيث يلى العرش - السدرة المنتهى، التى انتهى إليها الرسول صلى الله عليه وآله فى معراجة، مجتازا «مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» - إلى سائر بيوت الله فى السماوات والأرضين - «إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى»، وهو البيت الأقصى فى أقصى الكون فى السدرة المنتهى. وهكذا يحق لخاتم النبيين وأشرف الخلق أجمعين أن يطوف البيوت الخمسة عشر بأهلها، وكما قال صلى الله عليه وآله عن سفرته هذه: «رأيت فى كل سماء ميادين فيها خلق كثير...».

لقد رفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل بما بوء له ربّه مكان البيت: «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، (٢٢: ٢٦).

بوأه له بما أوحى إليه هندسة المكان ليرفع القواعد عليه كما هندسه ربّه. إذ لم تكن له - حينذاك - قواعد ولا أعلام، إلا بذلك الإعلام من الله الملك العلام! و ان هذا البيت المبارك - قبل ان يضع ابراهيم القواعد منه - كان بيتا بأعلام أحيانا ودون

^١ عن الصادق عليه السلام يعنى من ثمرات القلوب اي جهنم الى الناس ليثوبوا إليهم تفسير البرهان ١: ١٥٤. وعن الباقر عليه السلام ان الثمرات تحمل إليهم من الأفاق و قد استجاب الله له حتى لا توجد في بلاد المشرق و المغرب ثمرة لا توجد فيها حتى حكي انه يوجد فيها في يوم واحد فواكه ربيعية و صيفية و خريفية و شتائية (تفسير بيان السعادة ١: ١٤٥).

^٢ الدر المنثور ١: ١٢٦ - اخرج الديلمي عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله فى الآية قال: «جاءت سحابة على تربيعة البيت لها رأس تتكلم ارتفاع البيت على تربيعة فرعاه على تربيعةها. وفي نور الثقلين و عن الصادق عليه السلام ان إسماعيل عليه السلام لما بلغ مبلغ الرجال امر الله ابراهيم عليه السلام ان يبني البيت فقال: يا رب فى اي بقعة؟ قال: فى البقعة التى أنزلت بها على آدم القبة، فأضاء لها الحرم فلم يدرك ابراهيم فى أي موضع يبنيه فان القبة التى أنزلها الله على آدم كانت قائمة الى أيام الطوفان فلما غرقت الدنيا رفع الله تلك القبة و بقي موضعها لم يغرق و لهذا سمي البيت العتيق لأنه أعقق من الغرق فبعث الله جبرئيل عليه السلام فخط له موضع البيت فانزل الله عليه القواعد من الجنة و كان الحجر لما أنزله الله على آدم أشد بياضا من الثلج فلما مسته ايدي الكفار اسود، فبنى ابراهيم عليه السلام البيت و نقل إسماعيل الحجر من ذي طوى فرفعه فى السماء تسعة أذرع ثم دله على موضع الحجر فاستخرجه ابراهيم عليه السلام و وضعه فى الموضع الذى هو فيه الآن فلما بنى جعل له بابين، بابا الى المشرق و بابا الى المغرب يسمى المستجار ثم ألقى عليه الشجر و الأذخر و علقت هاجر على بابه كساء و كان معها و كانوا يكتسون تحته.

أعلام أخرى، كيف لا وإنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِيَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٣:٩٦).
فإبراهيم عليه السلام ليس إلَّا أوَّلَ بَانٍ لِقَوَاعِدِهِ، بما بوأه ربه من مكان البيت، وقد كان بيتا منذ آدم،
مطافا له ولذريته، بل ومنذ كانت خليقة على وجه الأرض ووجوه السماوات السبع
والأرضيين السبع.

«رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، مَا نَرْفَعُ مِنْ قَوَاعِدِ الْبَيْتِ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ، دَعَاءَنَا سِرًّا أَوْ جَهْرًا، الْعَلِيمُ، بِنْيَاتِنَا
وَطَوِيَّاتِنَا، وَالْعَلِيمُ، سَوًّا نَا، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا أَفْطَرَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ صَمْنَا وَعَلَى
رِزْقِكَ أَفْطَرْنَا فَتَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»^١.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨.

و تراهما لما يسلمنا بعد لربهما حتى يسألانه «وَاجْعَلْنَا...؟» إن الإسلام المسوَّل هنا هو غاية
التسليم، وهي لا تحصل إلَّا بعد العروج الى معارج الإيمان. ومما استجاب لهما ربهما عن
سوء الإسلام: «فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (٣٧: ١٠٣).

و لذلك الإسلام درجات تدرج إبراهيم الى ما دون العليا منها، فان محمدا أوَّل من اسلم:
«قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أكونَ أوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» (٦: ١٤) حيث الأولية هنا ليست لتكون زمنية وقد كان
قبله مسلمون كإبراهيم وإسماعيل ومن أشبهه، فهي أولية في الدرجة، والإيمان من الإسلام
بمنزلة الكعبة الحرام من الحرم قديكون في الحرم ولا يكون في الكعبة، ولا يكون في الكعبة
حتى يكون في الحرم^٢.

و لذلك الإسلام ميّزات عن مطلق الإيمان وسماوات، فلا يلبس الإسلام بظلم أو مشرك مهما
لبسهما الإيمان: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ» (٦: ٨٢) (وَمَا
يُؤْمِنُ مِنْ أَكْثَرِهِمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ).

^١ الدر المنثور ١: ١٣٧- أخرج الدار قطني عن ابن عباس قال كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ...

^٢ في الكافي عن سماعة عن الصادق عليه السلام: ...

و لقد قورن مطلق الايمان بمقارنات الظلم والشرك والفساد والعصيان، ولم يقارن بشيء منها ذلك الإسلام، فلذلك يعدّ من ميزات المرسلين دون الإيمان فانه لكل المؤمن بدرجاتهم. لذلك يطلب الخليل الى ربه الجليل ان يجعله وإسماعيل مسلمين له، بعد كل درجات الإيمان ودرجات من الإسلام.

ثم يتطلّب من ربه ،وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا، ذريتي من إسماعيل ،أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وهم أهل بيت الرسالة المحمدية، فالرسول فيهم هو محور الدائرة، وذووه المعصومين هم الأشعة، فلأن إبراهيم تطلّب لهم أصل الإسلام لا درجته، لم يمنع سوّله أن يكون محمد أوّل المسلمين. و لقد أسلم إبراهيم لدرجة قبل هذا الوقت: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، ثم يتطلب بعده إسلاماً أرقى ،رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ ... فهو كما الإيمان درجات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ...، ولو أنه إسلام قبل الإيمان أم إسلام الإيمان، لم يكن يسأله من ربه، بل كان يفعله لأنه من فعله، فإنما الإسلام المسوّل هنا هو قمة التسليم بما آمن وأسلم، توفيقاً من الله.

و هكذا نرى ذلك الإسلام أنه من حصائل الإيمان، كل درجة منه حصيلة درجة منه فإنهما كلّاً درجات:

ف ،إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ، (٣٠: ٥٣) (وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ، (٥: ١١١).

كما ويوصى المصطفين من عباده أن يكونوا من المسلمين: ،إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، (٢: ١٣٢).

ثم ولا تسمع أحدا من النبيين يورّ بالإيمان، اللهم إلّا بالإسلام، اللهم إلّا شذرا فى عرض ايمان المؤمن بعرض الرسول تليفاً رقيقاً بينهما: ،آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ، على أن إيمانه هنا ليس بالله، بل بما أنزل إليه، طمأنة للمؤمنين.

و لا تجد الله يذكر أحدا منهم بخير أفضل من الإسلام ،ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً و لكن كان حنيفاً مسلماً، (٣: ٦٧) و تراهم - دوماً - يورون بالإسلام و مرتبطون بالإسلام!.

فذلك بدرجاته إسلام، وقبله الإيمان بدرجاته، ثم قبلهما إسلام لما يصل إلى القلب فلم يصل لحد الإيمان: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ، (٤٩: ١٤) وابن إسلام من إسلام؟!.

وهنا «مِنْ ذُرِّيَّتِنَا» تختص دعاء الخليل بأمة مسلمة لله من ذرية ابراهيم من إسماعيل، فلا تشمل الأمة الإسرائيلية حتى المسلمة منهم لأنهم من إسحاق، دون إسماعيل، ولا كل المسلمين إذ ليسوا كلهم ولا جلهم من إسماعيل، أ تراهم بعد هم كل بنى هاشم فإنهم من ذرية إسماعيل، وكيف تعمهم ذلك الدعاء لإسلام ردف إسلام ابراهيم؟ وفيهم عصاة بغاة طغاة! ولئن خصت بعدولهم فليس كل العدول مسلمين بذلك المعنى الرفيع، ثم لماذا تختص بهم وممن سواهم مسلمون أرقى واجل من جلهم؟.

إذا فهم مسلمون خصوص من ذرية إسماعيل، والمعصومين الاربعة عشر عليهم السلام^١ أم هم أصدق مصاديقها، وسائر الأمة المسلمة من ولد إسماعيل هم على هامشها؟ إلّا إسلاما أدنى مما لإبراهيم وإسماعيل والمحمديين المعصومين، هو إسلام يحصل على ضوء الصمود والرقى فلما ذا يسأله لها ولهم من الله.

فلا بد- إذا- أنه إسلام العصمة القمة المرموقة ولما يصلا اليه إذ يرفعان القواعد من البيت. وهكذا تكون «وَتُبَّ عَلَيْنَا» فإنها ليست توبة عليهم من عصيان، بل هي توبة رجوعا عليهم برحمة خاصة تضمن لهم كامل الإسلام.

فقد يتوب الله على عبد يتوب إليه عن ذنب كما في آدم «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى، (٢٠: ١٢١).

او يتوب على عبد رجوعا برحمة خاصة تعصمه وتسده عما لا يحمد، لولاها لكاد أن يقتربها او يقتربها حيث تكل الطاقات البشرية كما في يوسف «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، (١٢: ٢٤) وفي محمد صلى الله عليه وآله:

^١ نور الثقلين ١: ١٣٠ في الكافي بإسناده الى أبي عمر و الزبيرى عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه ... ثم اخبر عن هذه الامة و ممن هي و انها من ذرية ابراهيم و ذرية إسماعيل من سكان الحرم ممن لم يعبدوا غير الله قط الذين وجبت لهم الدعوة دعوة ابراهيم و إسماعيل من اهل المسجد الذين اخبر عنهم في كتابه انه «أذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا».

«وَلَوْ لَا أَنْ تُبْنِيَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا» (١٧: ٧٤) وهكذا يكون - دوما - توبة الله على أصفى المصطفين.

ثم «وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا، قَدْ تَعَمَّ الْإِرَاءَةُ الْمَعْرِفِيَّةُ إِلَى إِرَاءَةِ فَهِيئَةٍ، فَحِينَ يَرِينَا اللَّهُ مَنَاسِكَنَا كَمَا هِيَ، كَانَ بِامْكَانَاتِنَا تَطْبِيقَهَا كَمَا هِيَ، فَتَصْبِحُ حُجَّةً مَقْبُولَةً مَشْكُورَةً مَجْبُورَةً، وَقَدْ تَعَمَّ «مَنَاسِكَنَا، مَصْدَرًا مِيمِيًّا وَاسْمَ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَالْإِرَاءَةُ الْمَعْرِفِيَّةُ تَنَاسَبُ الْأُولَى.»
وَكَانَ «تُبُّ عَلَيْنَا، هِيَ مِنَ الظُّرُوفِ الصَّالِحَةِ لِ «أَرْنَا مَنَاسِكَنَا، إِرَاءَةً لِمَلَكُوتِهَا، بَعْدَ هَذِهِ التَّوْبَةِ الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَى الْمَلَكُوتِ.»

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩.

هناك «أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ، كَانَتْ ظَرْفًا ظَرْفًا لِبَلُورَةِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ السَّامِيَّةِ هُنَا بِدَعَاءِ ثَانٍ، وَلَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ دَعَاءَهُ فِي إِسْمَاعِيلِ كَمَا فِي الْأَصْلِ الْعِبْرَانِيِّ مِنْ تَكْوِينِ التَّوْرَةِ:
(١٧: ٢٠): (وَلِإِسْمَاعِيلَ شَمْعَتِيخَا هِينَهُ بَرُخْتِي أُوتُوا وَهِيْفَرْتِي أُوتُوا وَهِيْرَبْتِي أُوتُوا بِمُئِدٍ مُئِدٍ شَنِيمٍ عَاسَارٍ نَسِيْتِيمٍ يُولَدُ وَنَتِيْبُو لَعُوِي غَادِلٍ،-:

«وَلِإِسْمَاعِيلَ سَمْعَتِه: - اِبْرَاهِيمَ - هَا أَنَا أَبَارِكُهُ كَثِيرًا وَأَنْمِيهِ وَأَثْمِرُهُ كَثِيرًا وَارْفَعْ مَقَامَهُ كَثِيرًا بِمُحَمَّدٍ وَاثْنِي عَشَرَ إِمَامًا يُلْدُهُمْ إِسْمَاعِيلُ وَاجْعَلْهُ أُمَّةً كَبِيرَةً.»
وَفِي التَّكْوِينِ ٢١: ١٢ (... وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لِأَنَّهُ نَسَلُكَ.»

وَقَدْ سُمِّيَ إِسْمَاعِيلُ بِهِ لِأَنَّهُ مَسْمُوعُ الرَّبِّ فِي وِلَادَتِهِ وَفِي نَسْلِ أُمَّةٍ مُسْلِمَةٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.
وَفِي الْأَصْلِ الْإِنْقَلُوسِيِّ مِنْ «نُبُوْتِ هَيْلِد: وَحَى الطِّفْلِ: شَبُوبَاهُ شَابَاهُ بَهِيَا شَعَطَا بَا لِأَرْعَابَتِيَا وَوَرَهَابَاهُ دَعْبِدَا تَشُوبَاهُ وَيَرْحَمُ إِبَا طَابَا عَلَ بُوخْرَا حَبِيْبَا:
يَأْسُرُ أَعْدَاءَهُ - مُحَمَّدَ الْمَذْكُورَ قَبْلَ - فِي سَاعَةٍ جَيِّدَةٍ فِي أَرْضٍ مَرْغُوبَةٍ وَيَرْحَمُهُ اللَّهُ هُنَاكَ اجَابَةً لِدَعْوَةِ اِبْرَاهِيمَ لِإِسْمَاعِيلِ.»

ذلك - ثم نجد التوراة تبشر في آيات أخرى ان ذلك الموعود من ولد قيدر بن إسماعيل في

عدة تصريحات^١.

وقد يروى عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «انا دعوة ابراهيم»^٢.

وانى عند الله فى أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينة وسأنبئكم باول ذلك دعوة أبى ابراهيم وبشارة عيسى بى وروا أمى التى رأت وكذلك أمهات النبيين يرين»^٣.

^١ منها ما فى اشعيا ١٤٢: ١- ٢٠... لتشد البرية ومدنها والخطائر التى يسكنها قيثار وليرنم سكان الصخرة وليهتفوا من رؤس الجبال (١١) ليؤوا المجد لله ويخبروا بحمده فى الجزائر (١٢).
هذه بشارة لنبي من قيثار و «هو الولد الثانى لإسماعيل» (تك ١٣: ٢٥) و «أبوه من أشهر قبائل العرب وبلادهم الجزيرة العربية» (اشعيا ٢١: ١٦).

فالصرخات التى تسمع من اهل قيثار وترنماتهم من الصخرة وهتافاتهم من رؤس الجبال كل ذلك تصريحات لطيفة بشأن الرسول المبعوث من نسل قيثار ابن إسماعيل، ترنمات من اعالي جبال مكة و عرفات و منى و المشعر الحرام فى حج البيت.
و فى الآية (١٠) منها: انشدوا للرب نشيدا جديدا تسبيحة له من اقاصي الارض يا هابطي البحر و يا ملاء و يا أيها الجزائر و سكانها.

و النشيد الجديد هو الشريعة الجديدة المحلقة على كل الجزائر من ذلك النبي الإسماعيلي، و فى بعض التراجم (هذه ترجمة القسيس اوسكان الارمني فى ترجمته لكتاب اشعيا المطبوعة ١٧٣٣ فى مطبعة انتوني بورتولي و قد ألفها فى ١٦٦٦- اي قبل ٦٧ سنة من طبعها) تأتي هذه الآية هكذا: يسبحون الرب تسبيحا جديدا و يبقى اثر سلطانه بعده و اسمه «احمد» (٨٩).

و فى اشعيا ٦: ١- ٢٢) توصيفات لمكة المكرمة بالكعبة المباركة و هذا الرسول المكي قائلا:
قومي استتيري فان نورك قد وافى و مجد الرب أشرق عليك ١ ها ان الظلمة تغطي الارض والد ججور يشمل الشعوب و لكن عليك يشرق الرب و يترانى عليك مجده ٢ فتسير الأمم فى نورك و الملوك فى ضياء اشراقك ٣ ارفعي طرفك الى ما حولك و انظري كلهم قد اجتمعوا و أتوا اليك بنوك من بعيد

يأتون و تحملين بناتك فى حضنك ٤ حينئذ تنظرين و تتهللين و يخفق قلبك و يرحب إذ تنقلب إليك ثروة البحر و يأتيك غنى الأمم ٥ كثرة الإبل تغشاك بكران مدين و عيفة. كلهم من «شبا» يأتون حاملين ذهبا و لبانا يبشرون بتسابيح الرب ٦.

كل غنم قيثار تجتمع إليك و كباش نبايوت تخدمك. تصعد على مذبحي المرضي لذي و أمجد بيت جلالى ٧ من هواء الطائرين كالسحاب و كالحمام الى كواها ٨ ان الجزائر تنتظرنى و سفن ترشيش مستعدة منذ الاول ان تأتي ببنيك من بعيد و معهم فضنتهم و ذهيبهم لاسم الرب إلهك و لقدوس إسرائيل لأنه قد مجدك ٩ و بنو الغرباء بينون أسوارك و ملوكهم يخدمونك لأنى فى غضبي ضربتك و فى رضاي رحمتك ١٠ و تفتتح أبوابك دائما لا تغلق نهارا و لا ليلا ليؤى إليك بغنى الأمم و تحفر إليك ملوكهم ١١ لان الامة و المملكة التى تتعبد لك و الأمم تخرب خرابا ١٢ مجد لبنان يأتي إليك السرو و السنديان و الشربين لزينة مقدسي و أمجد موطنى قديمى ١٣ و بنو الذين عنوك يفدون إليك خاضعين و يسجد لأخامص قدميك كل من ازدرارك و يدعونك مدينة الرب ١٤ و بما أنك كنت مهجورة متروكة فلم يكن أحد يجتاز فيك ساجعلك فخر الدهور و سرور كل جبل فجبل ١٥ و ترضعين لبن الأمم و ترضعين ثدي المملوك و تعلمين أنى أنا الرب مخلصك و فاديك عزيز يعقوب ١٦ اتي بالذهب بدل النحاس و اتي بالفضة بدل الحديد و بالنحاس بدل الخشب و بالحديد بدل الحجارة و اجعل ولائك سلاما و مسخريك عدلا ١٧ لا يسمع من بعد بالجور فى أرضك و لا بالدمار و الحطم فى تخومك بل تدعين اسوارك خلاصا و أبوابك تسبيحا ١٨ لا تكون الشمس من بعد نورا لك نهارا و لا ينيرك القمر بضيايه ليلا بل الرب يكون لك نورا ابديا و إلهك يكون فخرك ١٩ لا تغرب شمسه من بعد و قمره لا ينقص لأن الرب يكون لك نورا ابديا و تكون ايام مناحتك قد انقضت ٢٠ و يكون شعبك كلهم صديقين و الى الأبد يرثون الارض. هم فرح غرسى و عمل يدي الذى أتمجد به ٢١ القليل منهم يصير ألفا و الصغير يصير امة عظيمة. انا الرب أعجل ذلك فى ميثاقه ٢٢.

^٢ الدر المنثور ١: ١٣٩- اخرج ابن سعد فى طبقاته و ابن عسكار من طريق جويبر عن الضحاك ان النبي صلى الله عليه وآله قال: انا دعوة ابراهيم، قال: و هو يرفع القواعد من البيت:
ربنا و ابعت فيهم رسولا منهم ... حتى أتم الآية.

^٣ المصدر اخرج احمد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي فى الدلائل عن العرياض بن سارة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إني عند الله ...

وفيه اخرج احمد و ابن سعد و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي عن أبي امامة قال قلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله ما كان بدء أمرك؟ قال: دعوة ابراهيم و بشرى عيسى و رأت امي انه يخرج منها نور أضاعت له قصور الشام.

وَإِبْعَثْ فِيهِمْ، هذه الأمة المسلمة من ذريتنا رُسُولا مِنْهُمْ، وكلهم نور واحد فإن: أولنا محمد
آخرنا محمد وأوسطنا محمد وكلنا محمد صلوات عليهم أجمعين.

رُسُولا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ، تكوينية: آفاقية وأنفسية، وتدوينية: قرآنية وكتابات أخرى.
ولماذا، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، هنا، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ،
في ثلاث أخرى أ ترى تعليم الكتاب والحكمة هو المقدم على التزكية كما هنا، ام هي
المقدمة عليها كما في الثلاث الأخرى، ام هما صنوان لا يتفاضلان، فهما متعاضدان مع
بعضهما البعض متقارنان؟ فلما ذا تتقدم التزكية ثلاثة أضعاف تقدم التعليم عليها؟.

علّ الأضعاف في التزكية للتأشير إلى أهميتها، حيث التعليم ذريعة الى التزكية فهي رأس
الزاوية في محاولات الرسالة، فلو أمكنت التزكية دون تعليم لما كان ضرورة، وهما صنوان
متعاملان، كلما ازداد التعليم المعرفة ازدادت التزكية، وكلما ازدادت التزكية ازداد العلم
والمعرفة ف العلم نور يقذفه الله في قلب من يريد ان يهديه..

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
الصَّالِحِينَ ۝١٣٠.

«مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ» هي توحيد الإسلام وإسلام التوحيد لوجه الله، ولا يرغب عنها إلا من سفه
نفسه: حملا لها على خفة العقل والإدراك، فالنفس الانسانية فطريا وعقليا راغب الى هذه
الملة المسلمة الحنيفة، فلا يرغب عنها إلى سواها إلا من حمل نفسه على التنازل عن ذاتيتها،
استخفافا بها وتغرّبا عنها.

«وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا» بقره الاصطفاء فانه من أصفى الأصفياء «وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
الصَّالِحِينَ» كما تطلبه يوم الدنيا «وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ» وسعى له سعيه، ومتى اصطفيناه في
الدنيا؟:

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسَلَّمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ ۝١٣١.

^١ و هي: كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمُ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ٢: ١٥١
وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ
لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣: ٦٤) وَ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ
كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٢: ٦٢).

وَعَلَّه إِسْلَامَهُ بِفِعْلِهِ لَمَّا أَمَرَ بِهِ قَبْلَ إِسْلَامِهِ الْمَطْلُوبِ مِنْ رَبِّهِ حِينَ دَعَا، وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ....
 فهناك إسلام قضية كمال الإيمان، وهنا إسلام قضية الأمر الخاص، وعله لأمر خاص كما
 «أَسْلَمْنَا وَتَلَّهَ لِلْجَبِينِ»، ثم إسلام بعدهما تطلبها إذ يرفعان القواعد من البيت، وقد يجمع مراتب
 الإسلام حديث قدسي يذكر عيشا أهني وحياء أبقى¹.

وَ وَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ ١٣٢.

بها، لا مرجع صالحا لها إلا «مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ» دون الإسلام لذكوريته، ثم وهذه هي ملء الإسلام
 في توحيد العقيدة والعمل.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَ
 إِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٣.

هنا في ذكر إسماعيل في عداد آباء يعقوب دليل السعة في لغة الأب فهي تختلف عن الوالد،
 فأبوه آزر في آيات ليس والده، لا سيما وانه تبرء من آزر، فَلَئِمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ،
 ثم نراه في أواخر عمره يدعو لوالديه «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ» إذا فوالده غير أبيه.

و إنه لمشهد عميق التدليل - في لحظات الموت - على عمق عقيدة التوحيد بين آل ابراهيم،

¹ في البحار عن ارشاد الديلمي قال الله سبحانه يا أحمد هل تدري اي عيش اهني و أي حيوة أبقى؟
 قال: اللهم لا- قال: اما العيش الهنيء فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكرى و لا ينسى نعمتي و لا يجهل حقي، يطلب رضائي في
 ليله و نهاره، و أما الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا و تصغر في عينه و تعظم الآخرة عنده، و يؤر هواي
 على هواه و يبتغي مرضاتي، و يعظم حق نعمتي، و يذكر عملي به، و يراقبني بالليل و النهار عند كل سيئة او معصية، و ينقي
 قلبه عن كل ما اكراه، و يبغض الشيطان و وساوسه و لا يجعل لإبليس على قلبه سلطانا و سبيلا، فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حبا حتى
 أجعل قلبه و فراغه و اشتغاله و همه و حديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي و افتح عين قلبه و سمعه حتى
 يسمع بقلبه و ينظر بقلبه إلى جلالتي و عظمتي، و أضييق عليه الدنيا، و أبغض اليه ما فيها من اللذات و أحذره من الدنيا و ما فيها
 كما يحذر الراعي على غنمه مراتع الهلكة، فإذا كان هكذا يفر من النار فرارا و ينقل من دار الفناء إلى دار البقاء، و من دار
 الشيطان إلى دار الرحمن، يا أحمد و لأزينة بالهيبه و العظمة فهذا هو العيش الهنيء و الحياة الباقية، و هذا مقام الراضين فمن
 عمل برضائي ألزمه ثلاث خصال: أعزفه شكرا لا يخالطه الجهل، و ذكره لا يخالطه النسيان، و محبة لا يؤر على محبتي محبة
 المخلوقين، فإذا أحببني أحببته و افتح عين قلبه إلى جلالتي، و لا أخفي عليه خاصة خلقي، و أناجيه في ظلم الليل و نور النهار حتى
 ينقطع حديثه مع المخلوقين و مجالسته معهم، و أسمع كلامي و كلام ملائكتي، و أعزفه السر الذي سترته عن خلقي، و ألبسه
 الحياء حتى يستحيي منه الخلق كلهم، و يمشي على الأرض مغفورا له.
 و اجعل قلبه واعيا و بصيرا، و لا أخفي عليه شيئا من جنة و لا نار، و أعزفه ما يمر على الناس في القيامة من الهول و الشدة و ما
 أحاسب به الأغنياء و الفقراء و الجهال و العلماء، و أنومه في قبره، و أنزل عليه منكرا و نكيرا حتى يسألاه، و لا يرى غم الموت
 و ظلمة القبر و اللحد و هول المطلع، ثم انصب له ميزانه و أنشر ديوانه، ثم أضع كتابه في يمينه فيقرأه منشورا، ثم لا أجعل بيني
 و بينه ترجمانا، فهذه صفات المحبين، يا أحمد اجعل همك هما واحدا، و اجعل لسانك لسانا واحدا، و اجعل بدنك حيا لا يغفل أبدا،
 من يغفل عني لم أبال في أي واد هلك.

فيعقوب- وهو رأس الزاوية في بيت إسرائيل- لا يوصى عند احتضاره بمال، ولا يشغله بال،
إلا ذلك الأمر الجلل فهو المبتدء وهو الآمل، فهو- فقط- تركته وتركه آباءه، قضية كبرى لا
تشغله عنها سكرات الموت، بل هي تشغله عما سواها.

«ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي، اختِبار حاسم تظهر فيه مدعى الدعوة التوحيدية لهم طول حياته
الرسالية، يتلوه جواب حاسم «نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَ...» أن إلها جميعا إله واحد، خلاف المشركين
الذين لكل منهم إله أو آلهة، ثم «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» لا فقط مقرون وإنما سلام له قلبا وقالبا.
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤).

«تِلْكَ أُمَّةٌ» موحدة مسلمة «قَدْ خَلَتْ» فخلف من بعدها خلف أضعوا ملتها الوحيدة الموحدة
المسلمة، وتخلفت عن شرعة الله المرسومة بينها، ف «لَهَا مَا كَسَبَتْ» من خير «و لكم» الخلف
المتخلف «ما كَسَبْتُمْ»- «و لَا تُسْأَلُونَ» أنتم «عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» كما و هم لا يسألون عما كنتم
تعملون، كما «و لكم» المسلمين «ما كَسَبْتُمْ...» أمم ثلاث لكل ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

و ليست الأمة في ميزان الله أمة الجنس والإقليم والعنصر والتراب والدم، فإنها موازين
لحيوة الأمم، أم وإنسانيتها المنفصلة عن شرعة الله، وإنما هي جماعة ذات قصد واحد:
خيرا أو شرا، مهما اختلفت أجناسهم وأواصر الأنساب والقربان فيما بينهم.

أجل- إنها أمة دينية وليست أمة طينية، وعلى هذا القياس فالكتلة الموحدة المسلمة من آل
إبراهيم «أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ» ثم الكتلة الكافرة من آل إبراهيم أمة «و لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ»
وكذلك المسلمون، من آمن منهم حق الإيمان ومن لم يؤن، فلكل حساب حسب
الصالحات والصلحات، دونما فوضى جزاف بحساب القوميات والعنصريات أم سائر
الصلوات غير الروحية.

وَ قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥).
قالت اليهود: «كونوا هودا تهتدوا» وقالت النصارى: «كونوا نصارى تهتدوا» فكل يتمسك
بطائفة خاوية عن «مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» فمجرد كونك من أولاء أم هو «اء» يكفيك هدى! قل،

^١ الدر المنثور ١: ١٤٠ عن ابن عباس قال قال عبد الله بن سوريا الأعرور للنبي صلى الله عليه وآله: ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتدي، و قالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله فيهم ...

لا هذا ولا ذاك «بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، لا نسل إبراهيم كإبراهيم - إسرائيل و سواها - وإنما «مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» هذه هي الهدى دون سواها، أيا كنت في أصلك ونسلك، في وصلك وفصلك، وقد يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه وآله قوله: بعثت بالحنيفية السمحة^١، وترى الحنافة لما تكفى هدى لأنها الإعراض عما يخالف الحق، ويقابله الجنف، فلما ذا - إذا - «وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»؟.

علّه لأنهم تمسكوا بظاهر الحنيفية وانتساب النسب إلى إبراهيم الحنيف، فلكى يسد عليهم كل ثغرات الجنف تحريفا لمعنى الحنف يصرّح «وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» وقسم من اليهود والنصارى مشركون.

ولقد وصف حنيفا، وصف إيضاح ب «مسلمًا، فى أخرى: «ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولا لكن كان حنيفًا مسلمًا» وما كان من المشركين، (٣: ٦٧) مما يلمح أنهم كانوا يتذرعون بصيغة حنيفا، لإلصاق أنفسهم إلى إبراهيم، وكأن حنيفا، لقب يلقب به نسل إبراهيم أيا كانوا، فجاء «مسلمًا» - وما كان من المشركين، كإيضاح يخيب آمال المشركين الحنفاء الجنفاء!

فلان الملة الإبراهيمية هي الناصعة بين الغابرين فى خالص التوحيد، المعروفة لدى الخواص والعوام، لذلك فيعلن بملته الوحيدة الكبرى بين أهل الملل الثلاث وسواهم من الموحدين - رفضا لكل الفواصل المختلفة - من لدن إبراهيم إلى موسى والمسيح وإلى خاتم النبيين

صلى الله عليه وآله:

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ مَا أوتىَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ مَا أوتىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦).

قولوا، أيا كنتم من الملل، سلسلة موصولة متواصلة من ملل كتابية «آمَنَّا بِاللَّهِ» كأصل هو رأس

^١ الدر المنثور ١: ١٤٠ - أخرج احمد عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «و فيه عن ابن عباس قال قيل يا رسول الله صلى الله عليه وآله أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة، و عن سعد بن عبد الله بن مالك الخزاعي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أحب الدين إلى الله.

ذلك معاكسة لما كان يزعمه اليهود والنصارى أنهم الأصل في الوحي.

و كما أن «أنزل» أعم من الإيتاء والإعطاء، كذلك «أوتى» أعم من الوحي وسواه، فهذان التعبيران لسلسلة الرسائل الحاملة للوحي - عليها - للتدليل على أن النازل إلى المرسلين ليس عطية لهم فهم مالكوها، بل هو إيتاء كأمانة ووديعه مرجوعة بعد تطبيقها، فتلك الوحدة الكبرى بين الرسل والرسالات في أصول الدعايات والاتجاهات، هي القاعدة المتينة الرصينة للتصور الإيماني المسلم السليم، السائرة في كل الدروب على هدى ونور، التي تجمع كل الشعوب - بلا تمييز - على درب الإسلام التام والسلام العام، مفتوحا للناس جميعا وكل العالمين في مودة ووثام، ذلك هو الإيمان الإسلام السليم أيا كان وأيان ومن أى كان:

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧).

«آمَنُوا بِمِثْلِ...» دون «آمَنُوا بما آمَنتُم به»، تنازل في درجات الإيمان، فإنهم لم يكونوا مؤمنين بمثل ذلك الإيمان المجرد عن حسابات دخيلة فيه، فكيف يدعون إلى نفس ذلك الإيمان المجرد، إلّا قفزه لا تناسب سليم الدعوة والدعاية.

فليؤمنوا أولا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ، إيمانا بكل ما أنزله الله على رسله دون تمييز، ثم وذلك الإيمان المجرد يجرحهم بطبيعة الحال إلى نفس ما آمَنتُم به من رسالة الإسلام، حيث الإيمان السليم بالوحي الكتابي، يجذب الى الإيمان بمحور الوحي: القرآن العظيم، ولا يعنى بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ، مثل الله الذي آمَنتُم به، حتى تسقط «مثل» عن لفظ القرآن^١ إذ ليس كمثل شئ، بل هو مماثلة في أصل الإيمان، لا الذي يؤن به، إيمانا بالله كما آمَنتُم، وإيمانا برسالات الله كما آمَنتُم.

وَإِنْ تَوَلَّوْا، عن مثل هذا الإيمان فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ، تقسيم لبلد الإيمان الى شقين: إسرائيلي وإسماعيلي، وذلك شقّ لوحدة الدين والإيمان، وخروج عن واقع الإيمان إلى اللإيمان، أم هو أنحس - أحيانا - من الكفر المطلق!

^١ الدر المنثور ١: ١٤٠ عن ابن عباس قال: لا تقولوا «فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ» فان الله لا مثل له، و لكن قولوا: فان آمنوا بالذي آمنتم به، وفيه عن أبي جمره كان ابن عباس يقرأ: فإن آمنوا بالذي آمنتم به.

إِذَا فَسَّيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ، بعد ما أديت واجب الدعاء وبالغ الدعوة، فالله هو الكافي لا سواه، فلا ترج في سدّ ثغراتهم إلّا إياه «وَهُوَ السَّمِيعُ» لحواركم حول الدين، و«السَّمِيعُ» للدعائك وسوّل لك حفاظا على الدين «العليم» بما يصلحك ويصلح هذا الدين، ف «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» (٥: ١٠٥) وكل ما فى البين حقا ولا حول عنه هو: صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨).

آية فريده فى صبغة التعبير، عرضا جامعا لما يتوجب الالتزام به على كل العالمين، فما هى «صِبْغَةَ اللَّهِ» حتى نصطبغ بها او نلتزمها؟ وليست لله صبغة يمكن الاصطباغ بها، ولا أية صبغة!

«صِبْغَةَ اللَّهِ» هى من إضافة الفعل الى فاعله، كخلق الله وروح الله وأخلاق الله وشرعة الله أم أى فعل لله، وهى كفطرت الله أدبيا ومعنويا مهما كانت أعم منها ومن سائر الصبغة، تكوينية وتشريعية، فهى مفعول مطلق نوعى تعنى صبغا خاصا إلهيا لقبيل الإنسان وسائر المكلفين، مما للإنسان فى أصله خيار كمتابعة الفطرة والعقل والشرعة الإلهية، أم ليس له خيار كأصل الفطرة، أمّا يقدم سببه كتطبيق ماله خيار ثم الله يهديه كما اهتدى.

و إضافة الفعل إلى فاعله كما هنا تقدّر «من» النشوية، أى: صبغة ناشئة من الله كسائر خلق الله.

فليست من إضافة الصفة الى موصوفة تقديرا ل «فى» ان تكون هذه الصبغة فى الله كسائر صفاته الذاتية، ام «ل» حيث تعم ما تعنيه «من - و - فى».

ففى ذلك المثلث من تقادير الجار المحذوف لا تصلح هنا إلا «من» إذ ليست لذات الله صبغة وحتى المعنوية، حيث الصبغة حالة خاصة من الصبغ وليست له تعالى حالة دون أخرى إذ لا حدّ لذاته وصفاته حتى تصبغ بصبغة! وإنما المعنى منها ما صبغ به خلقه.

و لقد صبغ الله الناس كلهم بصبغة الفطرة، ثم العقلية التى تتبناها، ثم شرعة من الدين الهادية لهما، الشارحة لأحكامهما، الشارعة سبيلهما الى الخير المرام، ولقد اختصرت فى: «أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا نُنزِلُ لَهُمْ تَقْوَاهُمْ» (٤٧: ١٧).

ثم وهى «الإسلام»^١، والولاية فى الميثاق^٢: إسلاما لله ورسله وكتبه، وولاية توحيدية ورسالية أما هيه من ولايات إسلامية، كل على درجاته.

وقد تتعلق صبغة الله، بكل من «أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»- اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ- نَعْبُدُ إِلَهَكَ....- بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ- «أَمَّنَّا بِاللَّهِ...» «أَمَّنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ»- والكل راجع إلى الإسلام والولاية فى الميثاق فى ذلك المثلث البارع الذى هو كيان الإنسان كإنسان: فطرت الله- العقل- شرعة الله!.

صبغة سابقة على كل صبغة لأنها صبغة الله وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ، كما صبغنا- فى مثلث الفطرة والعقلية والشرعة- بعبادته السليمة عن كل إشراك ودون أى عراق.

و يا له من تعبير منقطع النظير، يتصيح أولاب صبغة الله، أمرا إلزاميا من الله، بمواصفه غالية تجعلها فى أعلى قمم الحسن والجمال، وثانيا بإقرار المصبوغين بها «نحن المسلمون المحمديون له، لا لسواه عابدون، لا نعبد إلا إياه، كحصيلة بارزة لصبغة الله. فحذار حذار فى دين الله وشرعته عن كل صبغة غير إلهية فى قال او حال او فعال على أية حال، فى تكوين او تشريع أم أية صبغة ربانية.

و كما الصبغة المادية تظهر على المصبوغ كأولى المظاهر، كذلك الصبغة الروحية من طبعها الظهور فى كافة المظاهر الحيوية الإنسانية، وقد سميت بصبغة الله عناية بتلك الظاهرة فى مظاهر الأقوال والأفعال، كما هى فى كامنات العقائد والأحوال، فكل إناء بما فيه يرشح، فالفطرة- وهى أعمق أعماق الإنسان- لما تصبغ بصبغة الله، فلتصبغ- على آثارها- النفس بكل جنودها ومراحلها الخيرة: عقلا وصدرا ولبا وقلبا وفوؤدا، ومن ثم فى كافة الحواس ومظاهرها فى كافة الحقول، والقلب الفوؤد هو المحور الأصيل كإمام الأئمة فى مملكة النفس الإنسانى، حيث القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس

^١ تفسير البرهان ١: ١٥٧ يروي تفسير «صبغة الله» بالإسلام عن عبد الله بن سنان و حمران و محمد بن مسلم و أبان و عبد الرحمن بن كثير كلهم عن أبي عبد الله عليه السلام قال «الصبغة هي الإسلام».

^٢ المصدر عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام فى الآية قال: صبغ المؤمن بالولاية فى الميثاق.

والحواس أئمة الأعضاء..

و كل صبغة دون صبغة الله هي صبغة إبليسية مهما اختلفت دركاتها، كما والصبغة الإلهية-
في حقل التكوين والتشريع والتكليف، والواقع الحاصل بينها- درجات.

أجل صبغة الله، لا الصبغة اليهودية والنصرانية أما هي من المختلقات الزور والغرور التي
هي من صبغ الغرور، وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا!.

و كما أن فطرت الله، آية يتيمة، كذلك صبغة الله، وهي أعم منها وأتم وأطم حيث تعم كل
صبغة ربانية تكوينية او تشريعية، ما بالإمكان الالتزام له أو تحصيله حتى يصبح صاحبها من
أهل الله وخاصته وخيرته وحزبه، اللهم اجعلنا منهم بحقهم.

قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ
مُخْلِصُونَ(١٣٩).

فلما ذا المحاجة في الله: في ذاته وصفاته وأفعاله، في وحيه وآياته، لماذا المحاجة فيه بين
من يرّبه دون نكير حسب الأصل الكتابي وصبغة الله، ثم، ولنا أعمالنا، دونكم، ولكم
أعمالكم، دوننا كما، وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ، دونكم؟.

إن المحاجة في الدين هي حصيلة أحد أمرين: الاختلاف فيمن يعبد، وَ هُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ، او
الاختلاف في: أى الأعمال أصلح وأقرب الى الرب، وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لا فحسب
حتى نستوى فيها بل، وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ، معرفيا وعبوديا دون إشراك، فلما ذا- إذا-
تجاجوننا؟! ولقد كانت اليهود والنصارى- كل- يختص الرب بنفسه بأصرة النبوة الإلهية
المزعومة او النبوة الممتازة المدعاة، فرد عليهم هذه التهوسة العمياء بأن ربوبيته- كأصل-
هي بيننا وبينكم على سواء، ثم ونحن نختلف فى مدارج الزلفى إليه حسب الأعمال

^١ الدر المنثور ١: ١٤١ عن قتادة قال: ان اليهود تصبغ أبناءها يهود و ان النصارى تصبغ أبناءها نصارى و ان صبغة الله الإسلام
و لا صبغة احسن من صبغة الله الإسلام و لا أظهر و هو دين الله الذي بعث به نوحا و من كان بعده من الأنبياء.
وفيه أخرج ابن مردويه و الضياء في المختارة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: ان بني إسرائيل قالوا يا موسى هل يصبغ
ربك؟ فقال: اتقوا الله فناداه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك فقل نعم ان اصبغ الألوان الأحمر و الأبيض و الأسود و الألوان كلها
في صبغتي و انزل الله على نبيه «صبغة الله...» أقول: و لكنها لا تعنى صبغة الألوان اللهم إلا هامشا كخلق الله و منه الاصباغ
كلها، حيث الصبغة هيئة خاصة من الصبغ فلا تعنى- مبدئيا- كل صبغ.
و النصارى يشتغلون بصبغ أولادهم في سابع الولادة مكان ختان المسلمين، يغمسهم في الماء الأصفر المسمى عندهم بالمعمودية،
و هو اسم ماء غسل به المسيح عليه السلام، فمزجوه بماء آخر و كلما استعملوا منه جعلوا مكانه ماء آخر.

والإخلاص فيها، فمن هو أخلص منا لله معرفيا وعمليا؟.

ثم إذا اختصت الهدى والزلفى بمن كان هودا او نصارى، فما بال إبراهيم الخليل أهو كما نحن - فى زعمكم - بعيد عن الهدى وأنتم به تنتسبون وتفتخرون؟:

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدِهِ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١).

لقد كان هودًا قبل اختلاق اليهودية والنصرانية، فهل كانوا - بعد - هودا أو نصارى؟. و عجبا من حمقهم فى عمقهم أنهم كانوا يتفوهون بهذه الفرية الوقحة على هوداء الرسل الكرام! وتراهم ماذا يظنون بهوداء؟ أهم ضلال لأنهم ليسوا هودا أو نصارى، أم هم هودا أو نصارى؟ ثم الله مشتبه فى أمرهم، وإنما يعرف الهدى هودا او نصارى! قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ؟

و لقد كنتموا شهادة إلهية تحمل بشاره محمدية: كتماننا عن أسرها، أم تحريفنا فى لفظها ومعناها لحسرها عن معناها وأسرها عن محتواها فهم أظلم وأطغى. تلك، الكتلة الرسالية والرسولية الصالحة، إسرائيلية وسواها، أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، ومضت بإسلامها وأعمالها، لها ما كَسَبَتْ، دونكم، وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ، دونهم، وَلَا تُسْئَلُونَ، أنتم - أيا كنتم - عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى - ولا تزر وازرة أخرى.

اسماعيل وادريس ولوط (عليهم السلام)

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤).

لم يذكر إسماعيل فى (١٢) موضعا يذكر فى القرآن، بمشروح أحواله إلا هنا، إلا شذرا أنه «من الصابرين»، (٢١: ٨٥) (الأخيار، (٣٨: ٤٨) (وَ كَلَّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ، (٦: ٨٦). فمن صبره وخيره، قال يا أبتِ افعلْ ما تُؤْمَرُ سَجَدْنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، (٣٧: ١٠٢)

كما وهو من صدق وعده ربه ومن ثم مع الخلق^١ وحقيق له صدقه فى صبره، وصبره فى صدقه، وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا^٢، فإسماعيل هذا هو ابن ابراهيم عليه السلام جد الرسول محمد صلى الله عليه وآله لا سواه وكما فى سائر الاثنى عشر موضعا، فلو كان غيره لم يتفضل عليه بهذه الفضيلة ولقرنت به قرينه تميزه عن إسماعيل فى سائر القرآن! وَ كَانَ يَأْتُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥).

فى مواصفات إسماعيل رسالة النبوة هى فى القمة، وصدق الوعد والأمر باقام الصلاة وإيتاء الزكاة هى من أهم فروعها الرسالية، وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا، تكريس لحالاته كلها، فى نفسه وأهله ومن أرسل إليهم والناس أجمعين، كان فى هذه كلها عند ربه مرضيا، وهى قمة المقامات عند الله مهما كانت لها درجات.

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧).
لم يذكر إدريس فى سائر القرآن الا هنا وفى الأنبياء: «وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ» (٨٥) فله مواصفات اربع: صديق نبي من الصابرين ومرفوع الى مكان على.
تعرفنا من ذى قبل الى صديق نبي، لإبراهيم، وان كان بينه وبين إدريس بون حيث الصديق النبي درجات، ولكنه قبل نوح يحتل المكانة العليا بين المرسلين^٤ فلم يذكر بالنبوة أحد بين

^١ نور الثقلين ٣: ٣٤٢ ح ٩٩- اصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: انما سمي إسماعيل صادق الوعد لأنه وعد رجلا في مكان فانتظره سنة فسماه الله عز وجل صادق الوعد ثم ان الرجل أتاه بعد ذلك فقال له إسماعيل: ما زلت منتظرا لك! و رواه مثله في العيون عن أبي الحسن الرضا عليه السلام.
أقول: هذا الحديث فى ان إسماعيل هو ابن ابراهيم ظاهره كظاهر القرآن، و اما انتظاره سنة فبعيد عن كافة الموازين حيث الوعد لا يتجاوز ساعات او يوما بكامله، و زائد الانتظار زائد فى كل الموازين، و لا سيما لرسول نبي يترك دعوة الرسالة فيثبت فى مكان الوعد سنة دونما جدوى حتى لمن لا شغل له.

^٢ الدر المنثور ٤: ٢٧٣- اخرج مسلم عن وائلة ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ان الله اصطفى من ولد ابراهيم إسماعيل و اصطفى من ولد إسماعيل كنانة- أقول: كنانة من أجداد النبي صلى الله عليه وآله.

^٣ نور الثقلين ٣: ٣٤٢ ح ١٠١ فى كتاب علل الشرايع فى باب العلة التي من أجلها سمي إسماعيل بن حزقيل صادق الوعد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ان إسماعيل الذي قال الله عز وجل فى كتابه «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ..» لم يكن إسماعيل بن ابراهيم بل كان نبيا من الأنبياء بعثه الله عز وجل الى قومه فأخذوه فسلخوا فروة رأسه و وجهه .. أقول و هو لا يناسب ظاهر القرآن ..

^٤ الدر المنثور ٤: ٢٧٤- اخرج ابن المنذر عن عمر مولى غفرة يرفع الحديث الى النبي صلى الله عليه وآله قال: ان إدريس كان نبيا تقيا زكيا و كان يقسم دهره على نصفين: ثلاثة ايام يعلم الناس الخير و اربعة ايام يسيح فى الأرض و يعبد الله مجتهدا و كان يصعد من عمله وحده الى السماء من الخير مثل ما يصعد من جميع اعمال بني آدم...
و تتمم الحديث طويلا و كما هنا أحاديث اخرى فيها ما لا يناسب ساحة النبوة الصديقة.

آدم ونوح وحتى آدم نفسه، إذا فإدريس أفضل من آدم ومن بعده الى نوح. ثم «وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا، دليل معراجہ عليه السلام لمكان «مكانا، دون مكانة، وقد عرفت مكانته ب «صِدِّيقًا نَبِيًّا» وقد يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله انه السماء الرابعة^١ رفع إليها كما رفع عيسى عليه السلام ويروى أنه كان خياطا^٢.

و إذ يرفع إدريس مكانا عليا فقد رفع محمد صلى الله عليه وآله مكانا أعلى الى سدره المنتهى، ومكانة أغلى «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى.

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، وكما رفع ذكره في الملاء الأعلى: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ، وكما يذكر إدريس الصديق في كتابه بلغته السريانية هذه المكانة العليا لأهل بيت الرسالة المحمدية صلى الله عليه وآله:

يقول بعد عرض عريض في حوار بين آدم وبينه حول «من هو أفضل الخليفة، فإذا أنا «آدم، بأشباح خمسة باهرة في العرش في غاية العظمة والجلال والحسن والضيء والبهاء والجمال والكمال حيث حيرتني أنوارهم فقلت رب! من هو؟ فأوحى الى أنهم أشرف خلقى والوسطاء بينى وبينهم..

إنى لهو يوه أنا لبرين وارخ لا الشماى ولا أل ارعا ولا الپردس ولا الكيهن ولا الشمس ولا السع:

لولاهم لما خلقتك، يا آدم، و لا السماء ولا الأرض ولا الجنة ولا النار ولا الشمس ولا القمر، قلت «آدم: ما هى اسماء هو؟ الأكارم؟ قال: انظر الى العرش ترى: - «پارقليطا، (محمد صلى الله عليه وآله «إيليا: على عليه السلام «طيطه: فاطمة (عليها السلام) «شپر: حسن «شپير: حسين.

^١ المصدر اخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله و رفعناه مكانا عليا قال: في السماء الرابعة و عن انس بن مالك عنه صلى الله عليه وآله مثله و في نور الثقلين ٣: ٣٤٩ ح ١٠٨ عن علل الشرايع باسناده الى عبد الله بن يزيد بن سلام انه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله و قد سأله عن الأيام: فالخميس؟ قال: هو يوم خامس من الدنيا و هو يوم أنيس لعن فيه إبليس و رفع فيه إدريس، و فيه عن تفسير القمي عن النبي صلى الله عليه وآله في معراجہ: ثم سعدنا الى السماء الرابعة و إذا فيها رجل فقلت من هذا يا جبرئيل؟ فقال: إدريس رفعه الله مكانا عليا فسلمت عليه و سلم علي و استغفرت له و استغفر لي.

^٢ نور الثقلين ح ١١٠ عن الكافي عن عبد الله بن ابان عن أبي عبد الله عليه السلام قال في حديث طويل يذكر فيه مسجد السهلة: اما علمت انه موضع بيت إدريس النبي عليه السلام الذي كان يخيط فيه؟

هليلوه لت اله شوق مَنى محمد أنوى داله،-: «هللوني فانه لا إله إلا أنا ومحمد رسولى،

فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ ٢٦.

«آمن له، ليست لتعنى ما تعنيه «آمن به- آمن معه- آمنه، فكل من هذه الأربع تعنى ما تخصصه من معنى حسب نوعية التعدية كما هي قضية الفصاحة.

ف «آمن به، هي كأصل الإيمان هو الإيمان بالله، وكوسيط هي الإيمان برسول الله، من أمته ككل امة، ومن رسل برسول كمحمد صلى الله عليه وآله «لَتَوَكَّلْ مَن بِهِ وَتَنصُرْتَهُ»، (٣: ٨١) فليس يُوْن رسول برسول حيث الرسالة هي بنفسها ايمان بالله دون وسيط، اللهم إنا تجاه محمد و هو رسول الرسل، وآمنه، جعله فى امن هو خاص بالله وهو «الْمَوْكَلُ مِنَ الْمُهَيَّمِ...» وهو مجازيا ان تُوْن خائفا عما يخاف، لا أن تجعله فى أمتك كما الله.

و «آمن معه، تعنى معية الايمان بالله كما الإسلام معه أَسَلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، (٢٧: ٤٤)

- «وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ»، (١١: ٤٠).

و «آمن له، هو ايمان بالله لرسول يدعو إلى الله، ايماننا لصالح الموكب الرسالى أن يصبح من أعواد الرسالة وأعضاء الرسول، بعد ما كان مَوْكَلًا بالله، وهكذا كان لوط (عليه السلام) مَوْكَلًا بالله، وبعد أن تعرّف إلى الرسالة القمة لإبراهيم الخليل آمن له احتسابا لنفسه بإيمانه السابق من ذلك الموكب الرسالى السامى، كما «فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ»، (١٠: ٨٣) بعد ما ربطوا ايمانهم هذا بأن يرووا الله جهرة: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، (٣: ٥٦).

فقد كانوا مَوْكَلِينَ بالله غير مَوْكَلِينَ لرسول الله موسى، ولا مصدقين فى الطور ان الله هو الذى يكلمه حتى يروه جهرة يكلمه فحصل ما حصل.

^١ طبع كتاب إدريس عليه السلام باللغة السريانية فى لندن ١٨٩٥ و هذه البشارة فى ص ٥١٤-٥١٥ منه ينقله المغفور له ملا محمد صادق جديد الإسلام فى كتابه أنيس الاعلام- و قد فصلناه فى كتابنا «رسول الإسلام فى الكتب السماوية ص ١٣١ عربية و فى كتابنا «بشارات عهدين» باللغة الفارسية ص ٢٢٩.

و هذه الذرية هي الموننة من قبل بالله، وهنا آمنوا لموسى أن انضموا إلى موكبه الرسالي، وهنا تنحل المشكلة العضال في ايمان لوط، أن كيف أرسل مع إبراهيم وكان مشركا من ذى قبل؟ فانما أرسل معه بعد ما آمن معه وكان موننا بالله! و قال، عله لوط، اننى مهاجر إلى ربى، مهاجر، أم إنه ابراهيم نفسه كما فى أخرى: اننى ذاهب إلى ربى سيهدين، (٣٧: ٩٩) ولأن كل رسول مهاجر إلى ربه فى رسالته بل وكل مونن، فقد تعنى، فقال لوطا و ابراهيم، ولكنه مهاجر مع ابراهيم كما آمن معه، مهاجرة بمعيته كرسالته معه دونما انفصالية فى ذلك المثلث البارع، ايماننا ورسالة و مهاجرة إلى ربه فى سبيل تحقيق الايمان الرسالى و الرسالة الايمانية، وعلى حد المروى عن الرسول صلى الله عليه وآله سيهاجر خيار أهل الأرض هجرة بعد هجرة إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام^١.

إن المهاجرة الإبراهيمية ما كانت فحسب عن وطنه إلى غيره، بل انها مهاجرة عمن سوى الله بكل كيانه، ومنها مهاجرة قومه بعد أن لم يبق له رجاء ان يفتوا إلى الهدى على أية حال، ولقد عوضه الله عن هذه المهاجرة الرسالية، ذرية تمضى فيها رسالات الله منذ إسماعيل وإسحاق ويعقوب وإلى كل الرسل الإسرائيليين وخاتم المرسلين، وهنا المذكورون هم الأولون فى آيات عدة ثم الرسول محمد صلى الله عليه وآله: اتل ما أوحى إليك... (٤٥):
و وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ٢٧.

و هبة ربانية منقطعة النظير «و جعلنا فى ذريته النبوة» ومن المذكورين هنا صراحا «إسحاق و يعقوب» وبأحرى إسماعيل جد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وهو بكر ذريته كما هو صراح آيات اخرى، «و آتينا أجره فى الدنيا» فى نصره رسالية مستمرة فيه وفى ذريته الرسل «و إننا فى الآخرة لمن الصالحين» السابقين والمقربين منذ آدم الى خاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين.

و لوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٢٨) أ إنكم

^١ الدر المنثور ٥ : ١٤٤ - اخرج ابن عساکر عن ابن عمران النبي صلى الله عليه وآله قال: ...

لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
 اثْنَا بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَ
 لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ
 (٣١) قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ
 (٣٢) وَ لَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قَالُوا لَا تَخَفْ وَ لَا تَحْزَنْ إِنَّا
 مُنْجِيوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا
 مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَ إِلَى مَدْيَنَ
 أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
 (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ
 لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)
 وَ قَارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ مَا كَانُوا
 سَابِقِينَ (٣٩) فَكَلَّمْنَا بَدْنَهُ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ
 مِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
 يَظْلِمُونَ (٤٠)

وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ٢٨.

لقد كانت فاحشة اللواط في قومه لحدًا تطلبت النهي والتنديد في بازغ الرسالة قبل النهي عن
 الإشراك بالله، وكما نراه في كل الآيات التي تذكر رسالة لوط عليه السلام.

و الفاحشة، هي كل معصية متجاوزة حدها كما أو كيفا أو فيهما، تجاوزا حد العصيان ام الى
 غير العاصي ام فيهما، واللواط بينهم كان فاحشة ككل، إذ أصبح سنه فيهم مستمرة متداولة،
 وما سبقكم، ليست في أصل اللواط، بل في السباق فيه والهرعة الجماهيرية إليه، وأحد من
 العالمين، تعنى عالم الإنس والجن وسواهما من المكلفين، لا كأفراد، بل جماعات وكتلات،
 فاحشة منقطعة النظر هكذا بين العالمين.

أ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا
 أَنْ قَالُوا اثْنَا بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٢٩.

إتيان الرجال هنا معروف أنه اللواط، فأما «وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ» الواقعة بين إتيان الرجال وإتيان المنكر الذى يشملها وسواه، هذا قد يعنى كل سبيل مأمور بسلوكه ومنها سبيل تشكيل العائلة، فإتيان الرجال أحيانا قطع أحيانى لهذه السبيل، وأما إتيانهم كعادة مستمرة منحصره فى شهوة الجنس، فهو قطع باتٍ لسبيل الإيلاد، فقد كان فاحشة متجاوزة إلى هذه السبيل، قاطعة لها عن بكرتها، مما يضخم بعد الفاحشة لأبعد الحدود، ثم «تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ» ومنه منكر اللواط يجعله فى ثلوث منحوس ما أنحسه:

لواط يقطع به سبيل الإيلاد ويؤى به فى النادى المجتمع.

ثم من السبيل هى سبيل المارة قطع السلب للأموال والأعراض، وقطع الاستجلاب للفاحشة، كما من المنكر كل المنكرات القرينة لهذه الفاحشة المعلنة الجماهيرية من رقص وموسيقا وميسر وخمر واضرابها من منكر.

فالزنا على فحشاءها لا تقطع السبيل كأصل قاطع، إذ قد يجتمع مع الإيلاد السفاح الإيلاد من النكاح، أم وإذا اختص بالسفاح فليس قطعاً إلا لسبيل الحل من الإيلاد دون قطع قاحل يجتثّ النسل عن بكرته.

و لكن تعود اللواط يقطع سبيل الإيلاد، وسبيل تأسيس العائلة عن بكرته، هدرنا لنطف الرجال دون اى انتاج، إذا فهو أفحش من الزنا، كما وحدّه أحدّها منها، وقد أمطرت قوم لوط بحجارة من سجيل: «قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ» (٥١: ٣٣). و اللواط تخلف قاحل عن الفطرة، فقد تفسد الفطرة بتجاوز حد الاعتدال مع المرأة فهى فاحشة داخله فى نطاق الفطرة مهما تخلفت فيها عن الشرعة، وأما اللواط فهو انخلاع عن شرعة الفطرة وشرعة الدين معا، وفساد فى التركيب العضوى، تخلفاً عن خط الحياة الجنسية عن بكرتها.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا، قَوْلُهُ التَّحْدَى السَّافِرِ السَّاحِرِ، أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ الَّذِي تَعْدُنَا، إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فى دعواك تبجحا فى وجه الإنذار، ما لا ينتظر فيه أوبة ف: قال رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ٣٠.

و هى قالة الإستنصار فى حالة الاضطراب وقد استضعفوه، فلا دواء لدانهم إلّا الكى، نصره

على كفرهم وتحديهم الساخر أن يسخر منهم عذاب الله، فإذا هو بيشرى العذاب:
وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىِ بِالْبَشْرِىِ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا
ظَالِمِينَ ٣١.

حيثُة مبشرة إلى إبراهيم لأنه الذى تدور عليه رحي هذه الرسالة، وما لوط إلا فرعا منها فى
قضاء سدوم، وقد برهنوا إهلاكهم لهم بأنهم كانوا ظالمين، مستمرين فى ظلمهم المتهتك
لكل ستر ربانى على الحرمات، ظلما بالرسول وظلما بالرسالة، ظلما بالفطرة وظلما بالإنسانية
ككل.

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ٣٢.
إِنَّ فِيهَا لُوطًا، إخبار فى تساءل حياة على حياته، واطمئنانا بنجاته، وهم طمأنوه بنجاته
وأهله إلا امرأته إذ كانت من الغابرين.

و قد يعنى من ذلك الاستعفاء عن قوم لوط لكرامته وهو فيهم كما فى هود، فلما ذهب عن
إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ. يا إبراهيم
أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)
ف لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم ...!

و الغابر هو الماكت بعد مضى ما هو معه، إذ مكثت فى الظلم مع ما مضى عليها من عمر
طائل وما معها من جو الوحي والتنزيل، وذلك مما يضحّم الجريمة، إذا فهى من الغابرين فى
العذاب إذ كانت من الغابرين فى سبب العذاب.

وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا
مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ٣٣.

و لما ذا سيء بهم وضاق بهم ذرعاً، وهم رسل الله، حاملين بشاره العذاب من الله؟ لأنه ما

^١ نور الثقلين ٤: ١٥٧ فى الكافي بسند عن أبي زيد الحماد عن أبي عبد الله عليه السلام فى تفصيل القصة فقال لهم إبراهيم: لما ذا
جنتم؟ قالوا فى إهلاك قوم لوط، فقال لهم: ان كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونهم؟ فقال جبرئيل عليه السلام: لا- قال: فان كان فيها
خمسون؟ قال: لا- قال: فان كان فيها ثلاثون؟ قال: لا- قال: فان كان فيها عشرون؟ قال: لا- قال: فان كان فيها عشرة؟ قال: لا- قال:
فان كان فيها خمسة؟ قال: لا- قال: فان كان فيها واحد؟
قال: لا- قال: إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيها وأهلها إلا امرأته كانت من الغابرين» قال الحسن بن علي عليه السلام: لا
اعلم هذا القول إلا و هو يستبقيهم و هو قول الله عز و جل «يجادلنا فى قوم لوط».

عرفهم إلا أنهم شباب صباح ملاح، وهو يعلم شنشنة قومه، فجيئتهم اليه - إذا - جيئة فجيئة خوفاً من قومه المجرمين:

و إلى م تعطف وقالوا، وهي استئناف لقولهم هنا؟ إنها عطف على محذوف من قولهم معروف من هود:

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هُوَ لَبِئْسَ مَا تَنَاتَى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ .. قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ. فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَآمَطْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ. مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِيَعِيدٍ. (٨١: ١١-٨٣) ولما ذا أصاب امرأته ما أصابهم ولم تكن فاعلة فحشاءهم؟ لأن الدال على الشر كفاعله، وقد كانت تدلهم على ضيوف لوط وسواهم، إضافة الى كونها مشرقة فاستحقت ما استحقه.

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ٣٤.

و ذلك الرجز هو حجارة من طين، مسومة عند ربك للمجرمين كما فصلت في هود وسواها. وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣٥.

و آية بيئة، من قرية سدوم، تبين أنها كانت حتى زمن نزول القرآن بيئة ظاهرة للمارة كما، و إنما لبسبيل مقيم، (١٥: ٧٦) (و إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَ بِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ، ٣٧: ١٣٧)

و لكنها اليوم مجهولة لا أثر عنها معروفًا، وعلها غمرت في بحر لوط، ولا يعنى تركها أنها متروكة للناظرين مع الأبد.

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ ٣٧.

أخاهم، هنا قد تعنى أخوة النسب أو السبب إلى جانب الأخوة المواطنة والإنسانية، إشارة إلى أنه كان عشيرهم عمرا من قبله، معروفًا عندهم بالأمانة والصلاح، مما تزيد حجة الآية

الرسالية نصوعا ونضوحا.

وحصيلة دعوته الرسالية هي عبادة الله لا سواه ورجاء اليوم الآخر على ضوء الإيمان، ثم «و لا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، أيا كان الإفساد فيها وأيان، والعمدة في إفسادهم بعد العقيدى منه هو البخس في المكيال والميزان، إفسادا اقتصاديا تتهدم به العيشة الجماعية، خلقا للطبقية العارمة الظالمة، فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ، بديارهم، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ: قاعدين باركين على الأرض ميتين.

عاد و ثمود

وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ٣٨.

و ليس فقط يزین سوء الأعمال فيرونها حسنا، بل وحسنا حيث يزینها لهم أكثر مما هي، فيغترون بها ولا يبألون بما يعتریهم من سوء:

«و لا يغرنك تزینه الطاعات عليك فانه يفتح لك تسعة وتسعين بابا من الخير ليظفر بك عند تمام الماء، فقلبه بالخلاف والصد عن سبيله والمصادة باستهوائه»^١.

فكلما يزینه الشيطان من أعمال خيرة وشريرة، هي ذريعة للصد عن السبيل، فحذار حذار من تزینه وتسويله كيلا تقعوا في فخه وأنتم تحسبون انكم تحسنون صنعا وأنتم مستبصرون تطلبون البصيرة، وتعمى عليكم المسالك بما زين لكم الشيطان أعمالكم، فأنتم - إذا - من الأخسرین اعمالا «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا».

وقد تعنى «وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ، أن عادا و ثمود كانوا قبل أن زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل، كانوا على بصارة وهدى فطرية وعقلية، أم وشرعية، إلا أنها ما كانت ناضجة قويمه، وعلى أية حال فمسرحة التزيين من الشيطان خطر خطير، لا ينجو منه إلا من عصمه الله وهداه، وهو التارك هوإه إلى هداه إلى الله «وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى

^١ مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام بعد ان ذكر الشيطان: ...

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ٣٩.

ذلك الثالث المنحوس، القارونية الفرعونية الهامانية، فاستكبروا في الأرض، كل على حده ومدّه، استكبار الثراء والسلطة الملكية والوزارة الفرعونية، ولكنهم مهما زمروا وأبرقوا وأرعدوا وعربدوا، ما كانوا سابقين، على مشيئة الله:

فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠.

فكلا، من هوّاء واضرابهم في الاستكبار، أخذنا، ه، بذنبيه، هنا، وأخذهم في الأخرى أخزى، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً، وهم قوم لوط:

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ (٥٤: ٣٤) فالحاصب - إذا - حجارة من طين، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم ثمود، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ (٥٤:

٣١) ومنهم عاد: وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (١١: ٩٤) ومنهم أصحاب ياسين بانطاكية إذ

٥٧ كذبوا المرسلين: «إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ» (٣٦: ٢٩) (وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، كَقَارُونَ، فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ، (٢٨: ٨١) (وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا، كَقَوْمِ

نوح وفرعون.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ، بما أخذهم بذنوبهم، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، لم يظلمهم الله ولا هم ظلموا الله وإنما ظلموا أنفسهم بما استكبروا فأخذوا هنا اخذة طفيفة بما ظلموا.

وهذه العذابات الأربع: بالصيحة وهي هواء متموج سريعة الإيقاع، قرعاً لالذان وإلى الأعماق، وبالحواصب: حجارة من طين تتبدل نارا بسرعة الإرسال، وبالخسف: غمرا في

التراب، وبالإغراق في الماء، هذه هي العناصر المخلوق منها الإنسان وهي الأربعة الشهيرة مهما كانت كل واحدة تشمل على جزئيات وذرات، فقد أخذوا عذابا بما خلقوا من رحمة،

وما عذابهم إلّا صورة واقعية من اعمالهم ف «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟»

فهو ٴاء هم الذين اتخذوا من دون الله أولياء، أصناما وأوثانا وطواغيت، وإليكم مثلا واحدا في هوانهم هو العنكبوت، فكما بيته أو هن البيوت كذلك بيوت الإشراك أيا كانت هي كبيت العنكبوت:

لوط(ع) في رسالته الى قومه

وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَسَاءُتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَ مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤).

يأتي لوط، في (٣٧) موضعا في (١٤) سورة، وهنا إجمال عن دعوته بمحورها السلبي: «أ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ»، مما يدل على أن هذه النكرى لم يسبق لها نظير في زمن أى بشير ونذير أن تصبح عادة متجاهرة متعوده كما الزواج، فى غابر الجاهليات والهمجيات، اللهم إلا فى جاهلية القرن العشرين حيث تمضى كمادة قانون فى البارلمان البريطانى!.

ذلك المراس لفاحشة اللواط بكل حراس واكتراس، المنقطع النظر فى تاريخ الإنسان، مما جعل محور التنديد فى هذه الرسالة الفرعية استنكارا لها وحوارا متواصلا بشأنها كما نجدهما بطيات آياتها.

وهنا «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ»، يعنى الإسراف الذى ينددهم به لوط فى اللواط، تجاوزا حد الفاحشة إلى ما لا حد لها، حيث يريقون الشهوة ويبعثونها فى غير موضع الإخصاب^١، فهى

^١ لقد فصلنا القول حول حرمة إتيان النساء من أدبارهن على ضوء قوله تعالى: «بَسْأْوُكُمْ حَرْتُ لَكُمْ فَأْتُوا حُرَّتْكُمْ أَنْى شِئْتُمْ» ٢: ٢٢٣ و هذا هو الذى أمركم الله سماحا لأنه بعد حظر حيث وعد قبلها: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» (٢٢٢) و أوردنا متواتر الأثر عن النبي صلى الله عليه وآله ان المأثية من دبرها هي اللوطية الصغرى ، و مما ورد فى ذلك ما فى الدر المنثور ٣: ١٠٠- أخرج ابن أبى شيبه و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقي فى سننه عن علي عليه السلام انه قال على المنبر: سلوني، فقال ابن الكوا: توى النساء فى أعجازهن؟ فقال علي عليه السلام: سفلت سفل الله بك ألم تسمع إله قوله «أ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ». و رواه عنه عليه السلام فى تفسير العياشي عن يزيد بن ثابت، أقول: فاحشة إتيان الرجال من أدبارهم لا تعنى إلا الإفراغ فى غير موضع الإخصاب، فهى محرمة فى النساء كما فى الرجال مهما اختلفت دركات الفحشاء فيها، و هكذا المساحقة لأنها عملية غير مخصصة و كما أخرجها فى الدر المنثور عن أبى حمزة قالت قلت لمحمد بن علي عليه السلام: عذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم؟ قال: الله أعدل من ذلك استغنى الرجل بالرجال و النساء بالنساء، أقول: و هكذا العادة السرية فإنها فى غير إخصاب، و لا ينافى فى ذلك

مجرد شهوة شاذة متخلفة، غريبة عن الفطرة الإنسانية بل والحيوانية.

تلك جاهلية في القرون الغابرة، وإذا نحن بجاهلية القرن العشرين في أوروبا وأمريكا حيث ينتشر فيهما وما أشبه ذلك الانحراف الجنسي الشاذ انتشارا ذريعا دون أي مبرر إلا الإباحية الطليقة المطبقة.

و من الجاهليات المتحضرة التي تبيح ذلك الشذوذ الجنسي هي دعوى عريضة توجهها الصهيونية العالمية: أن احتجاب المرأة هو الذي ينشره؟ ولكن شهادة الواقع تعكس الأمر أن خلاعة النساء وتعريهن مما يشجع على ذلك الشذوذ، ففي أوروبا وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الطليق بين الجنسين، يتسافدون كما تسافد البهائم وليس هناك أحد يقول لأحد مه.

ثم نرى أن فاحشة اللواط يرتفع معدلها بارتفاع معدل فاحشة الزنا بحرية الجنسين الطليقة، لحد تجاوزت إلى حرية الاكتفاء لكل جنس بجنسه، ذكر مع ذكر وأنثى مع أنثى، بل ومع الحيوان أيضا، ومن أراد واسع الاطلاع على تلك الحرية البشعة فليقرأ «السلوك الجنسي عند الرجال، والسلوك الجنسي عند النساء، في تقرير «كنزى» الأمريكي.

ذلك، ولكن الأجهزة الدعائية المضللة لا تزال تردّد هذه الأكذوبة:

أن العادة السرية واللواط وما أشبه مسنودة إلى حجاب المرأة، لتؤى ما تريده بروتوكولات صهيون ووصايا موتمرات للمبشرين من دور دائر مائر للبربرية الجنسية دون حدود.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ، وهنا يصبح

حل ملاعبة النساء حين تمنى لأنها في طريق إتيانهم، كما و أن الإفراغ منهن ما لم يكن لغرض انقطاع النسل مسموح حيث الباب باب الإخصاب و ليس يجب الإخصاب من بابه على الدوام، - إنما الممنوع انقطاع النسل كما في عيون الأخبار في باب ما كتب به الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان و علة تحريم الذكران للذكران و الإناث للإناث لما ركب في الإناث و ما طبع عليه الذكران، و لما في إتيان الذكران للذكران و الإناث للإناث من انقطاع النسل و فساد التدبير و خراب الدنيا.

وفي الدر المنثور حول حرمة اللواط عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن من أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط، و عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: أربعة يصبحون في غضب الله و يمسون في سخط الله قيل من هم يا رسول الله؟ قال: المنتهبون من الرجال بالنساء و المنتهبات من النساء بالرجال و الذي يأتي البهيمة و الذي يأتي الرجل.

وفيه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل و المفعول به و عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: لعن الله سبعة من خلقه فوق سبع سماوات فردد لعنته على واحدة منها ثلاثا و لعن بعد كل واحدة لعنة، قال: ملعون ملعون من عمل قوم لوط ملعون من أتى شيئا من البهائم ملعون من جمع بين امرأة و ابنتها ملعون من عق والديه ملعون من ذبح لغير الله ملعون من غير حدود الله ملعون من تولى غير مواليه،

و عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من عمل عمل قوم لوط فارجموا الفاعل و المفعول به، و عن عائشة أنها رأَت النبي صلى الله عليه وآله حزينا فقالت يا رسول الله و ما الذي يحزنك؟ قال: شيء تخوفته على أمتي أن يعملوا بعدي عمل قوم لوط.

التطهر سببا لإخراج المتطهرين من قريتهم حتى يخلو جوها للملوثين الدنسين، وذلك منطلق الجاهلية في كل حين، من الجاهلية الغابرة إلى جاهلية القرن العشرين، حيث تطارد المتطهرين كيلا تراهم يخالفونهم في انغماسهم وانطماهم في خضم الشهوات والمنكرات، ليتم الجو ويطم ما هو يطلبونه من المستنقعات العفنة.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ، من هذه القرية القذرة، إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ، القذرين ثم «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا، من العذاب التباب، فَأَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ، الذين أجمروا ثمرات الحياة وقطعوها قبل إيناعها فأفسدوها عن بكرتها، وهنا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين المجرمين، جزاء لهم وفاقا وتبصرة للمتبصرين، ثم:

عذاب قوم لوط

سورة الأعراف (٧): الآيات ٨٦ الى ٣٠١

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أ
فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا
ضَحَى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أ وَ
لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَ مَا وَجَدْنَا
لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بَايَاتِنَا إِلَى
فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ
إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى
أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا
تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ
(٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١)
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُفْسِرِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧)

تسليات و تثبيات لخاطر النبي الأقدس صلى الله عليه وآله باستعراض أحاديث عن النبيين مع أقوامهم،
و ما لا قوه من أذى و لاقت أقوامهم من لظى، ابتداء بحديث ابراهيم لأنه شيخ المرسلين:
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ملائكة دخلوا عليه كأناسي فاعتبرهم ضيفا آدميين،
فقال عنهم الله ضيفا كما حسبهم إبراهيم عليه السلام أو انهم كانوا ضيفا حقيقيين وان كانوا
ملائكة اعتبارا أن الداخل على الإنسان ضيف وان لم يأكل أو ليس ممن يأكل، توسيعا فى
معنى الضيف.

و هَلْ أَتَاكَ كاستفهام بشأن تفخيم أمر القصة، فإن هذا الحديث يضم من فخائم الأمور
عظام، وَالْمُكْرَمِينَ: عند الله إذ أرسلهم الى خليله:

وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ... (١١: ٦٩)

و مكرمين عند ابراهيم إذ أكرمهم قبل أن يعرفهم، تدليلا على مدى حقوق الضيف وان كانوا منكورين لا يعرفهم المضيف.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ: يرد عليهم تحيتهم بأحسن منها كما توحى به الجملة الاسمية: قَالَ سَلَامٌ بخبرها المحذوف، الدالة على الدوام، بعد ما أوحى جملتهم الفعلية، فَقَالُوا سَلَامًا، بسلام غير دائم.

ثم يضيف الى اضافتهم فى هذه التحية الحسنى، إضافة لهم عملية، وهو ينكرهم ولا يعرفهم: فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ دون أن ينتظر تعريفهم بأنفسهم أو ينظر فى أمرهم: فقد أدى واجبه الأول أن رد تحيتهم بالحسنى، والثانى تقديم أدب من آداب اللقاء الإيمانى: التعارف بين المتلاقين، أن يعرف كل نفسه ويتعرف إلى الآخر، فضيفه المكرمون كانوا يعرفونه وهو لا يعرفهم، ولكنه عاملهم كمن يعرفهم.

و الثالث المبادرة إلى إحضار الطعام قبل أن يعرفوا أنفسهم، فى مثلث الإضافة المحترمة أخيرا أن راع إلى أهله فجاء بعجل سمين فما لبث أن جاء بعجل حنيذ (١١: ٦٩) عجل - سمين - حنيذ! وهو يروغ للمجىء به الى أهله!

فالروغ طلب بضرب من الاحتيال والتخفى، مما يوحى كأنه لم يكن لدى أهله إلا عجل واحد، أو إلا سمين واحد لا يرضون بذبحه بسهولة، ولضيف غير معروف! يجىء به حنيذا: مشويا بين حجرين نظيفين، يقربه كله إليهم، وهو طعام عشرات، وهم كانوا ثلاثة فيما يقال، يكفيهم كتف من هذا العجل!

فإلى هنا لا يظهر منه مخلفات من نكرانه لهم إلا فى البداية فى قوله: قَوْمٌ مُنْكَرُونَ اللهم إلا كل تجليل وتجميل يستحقه كل ضيف عزيز معروف جليل، إلى أن:

فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (١١: ٧٠) فالوجس هو الصوت الخفى، والإيجاس إخفاء الصوت فى النفس، مما يدل أنه كان خوفا خفيا أو مشارفا كما تعنيه الوجس، وإنما استشعر منهم الخوف، إما لأن عدم الأكل من طعام المضيف، ولحد لا تصل أيديهم اليه، ينبئ عن نية شر و خيانة، أو يلمح فيهم شيئا غريبا فى نوعه، فحتى لو كانوا شعبانين، عليهم أن يمدوا أيديهم ليأكلوا

ولو قليلا، أو يسفروا عن عذرهم بعد تقريب الطعام إليهم، فإذا لم تصل أيديهم إليه، ولم يعتذروا، إذا فحق لإبراهيم - وهو يعيش بين أعداء له كثير - أن يخافهم، ولكنه أوجس منهم خيفته، رعاية لهم، إلا أن ملامح الوجه بطبيعة الحال تسفر عن الخيفة الموجسة، مهما حاول الخائف في إيجاسه، فلما عرف انهم عرفوا ما أوجسه، بادر بإظهاره، ولكى لا ينافقهم فى واقعه، وليظهره على أمرهم، حتى يعرف واجبه تجاههم بعد ما قام به من واجبه، ف قال إنا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢: ١٥) مصارحة بالحق ما أحلاها، دون مسايرة بايجاس الخليفة، التى قد تخلف آثارا سيئة، حتى خبروه عن حالهم بما يحمل له بشارتين:

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ: - قَالَ إنا مِنكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إنا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٢: ١٥) نَكَرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إنا أُرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ (١١: ٧٠).

هنا وهناك نرى شيخ المرسلين كيف يضيف ضيفه المنكرين قبل أن يعرفهم، لحد يكرمهم كما يرضى الله، إذ يعبر عنهم ب ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ.

ثم لما يرى منهم ما يخيفه يخفيه عنهم مغبة تكرمهم، وألا يتأثروا بما يعرف من عجيب أمرهم، ثم لما عرفوا الخيفة الموجسة فى نفسه من ملامحه، أبرزها لهم قال إنا مِنكُمْ وَجِلُونَ: نستشعر منكم الخوف فإن أمركم مريب، فهذه الخيفة الموجسة لم تكن خوفا ثابتا، وانما استشعارا يعنيه الوجل، وما أعدل إبراهيم إذ لم يحصل له من أمرهم المريب واقع الخوف، وإنما مشارفته المسائلة، لا عداة لهم وامتهانا، وانما بغية ظهور الحال وعلاجها، وقد عولجت بالبشارتين، أن عرفهم رسل ربه المكرمين، فاستبشر بغلام عليم، والقضاء على قوم لوط المجرمين.

وَ بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ: بشارة بإسحاق من زوجه العجوز العقيم ساره، بعد أن بشره ربه قبل ذلك بغلام حليم فَبَشَّرْنَا بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (٣٧: ١٠١) من هاجر وهو إسماعيل، قال أ بَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمِ تَبَشَّرُونَ. قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ. قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (١٥: ٥٦).

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرِّهِ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ

الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ: - وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ
وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ. قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.
(١١: ٧٣).

ان دور ابراهيم فى هذه البشارة كان استبشارا حملة على استفسار بشأنه خاصة على أن
مَسَيَّى الْكِبَرُ دون زوجه العجوز العقيم، ولم يكن سوَّله أ بَشَّرْتُمُونِى إنكارا لقدرة الله، قنوطا
من رحمة الله، إذ حكم هو بضللال القانطين، وانما استعظاما للبشارة، وهل إنها حقا من الله؟
وهوَّاء هم رسل الله؟ فلما قالوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ اطمأن قائللا وَا مَنْ
يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ.

و اما زوجه فقد استغربت هذه البشارة وتعجبت منها فى مثلث الاستبعاد:

(عجوز ١ عقيم ٢ .. وهذا ٣ بعلى شيخا)؟ قالته لما سمعت البشارة: فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ:
فى صباح شديد فَصَكَّتْ وَجْهَهَا: لظمت وجهها، وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ؟ فانها بغتت وفوجئت
بهذه البشارة وفندت منها صيحة الدهشة، وصكت وجهها صكة الوحشة، إذ لم تكن تتوقع
هكذا بشارة!.

قالوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ، بما يحكم العليم، بما يريد رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ
عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ولقد نفذت رحمة الله الخاصة هنا فى ثالوث الاستحالة
بحساب الإنسان، فلم يمنع عقمها المزدوج: عَجُوزٌ عَقِيمٌ ولا شيخوخة بعلمها الخليل عن نفاذ
امر الجليل.

هذه البشارة كانت بحق اسحق وفى مثلث الاستغراب، واما التى كانت بحق إسماعيل قبل
إسحاق فلم تحمل خارقة للعادة، إذ لم تكن زوجه لا عجوزا ولا عقيما، ولا هو شيخا لحد
الإياس، ولذلك نراه يبتدء هو بالطلب: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ..
(٣٧: ١٠١).

قالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ توحى هذه المقالة أن ابراهيم لم يعد بشارته
فى عداد خطب المرسلين، فانه الأمر العظيم الذى يكتر فيه التخاطب، ما يوحى بأنهم أكثروا

معه الحوار ليهيئوا الجو لبيان أمرهم العظيم: وَ بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ وَعَلَهُ بَدَايَةُ الْحَوَارِ، فلتستكن نفس الخليل بما أرسل به المرسلون عن الجليل.

فقد زال عنه روع اول، ثم ابتلى بروع ثان أروع هي قصة العذاب على قوم لوط فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (١١: ٧٥) مما يدل أنهم بدؤوا بتعريف أنفسهم، ثم البشارة، ثم الحوار مقدمة الخطب، ثم التصريح بالخطب إذ سألهم:

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ. قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ: وهم قوم لوط، ترى ما هو الدافع لاطلاع إبراهيم بهذا الخطب، ورسالة العذاب كانت على قوم لوط؟! لأن إبراهيم كان رسولا على لوط والنبين معه وبعده الى موسى، فحفاظا على كرامة القيادة العليا الرسالية، لا بد وان يبدأ له بما يراد للقيادات الجزئية، وعلى الأقدام.

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْسِرِينَ:

ترى ما هو دور ابراهيم في هذا الإنذار بعد الاستبشار؟ هل يسكت راضيا عن تعذيبهم مهما كانوا مجرمين، وبعد ان رضى الله وأراد؟ ام يغتنم الالتماس، لعل الله يستجيب له لأنه ليست ارادة حتم؟ .. إنه يجادل ربه فيهم بالحسنى التماس العفو وتأخير العذاب: يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ فحلّمه يدفعه الى الجدال، ولكنه بعد ان يعرف حتم الارادة الالهية فأواه منيب، حلّم عن المجرمين ما دام الأمل، أواب منيب الى الله إذا زال الأمل: يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (١١: ٧٦) كما ونجد نفس الحلم في لوط: وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَ قَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) إلا بعد ما تبين له كما تبين لإبراهيم من قبل، و هكذا يكون دور الرسالات مع الأمم المتخلفة، حنونة حلّيمة إلا إذا خاب الأمل وجاء أمر الرب وخسر هنالك المبطلون. حِجَارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْسِرِينَ. وهي منضود، إنها حجارة تخلق من تحجر الطين، المعبر عنها بصيغة آخر ب. سجيل: فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ، (١٥: ٧٤) ... مَنضُودٍ. مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ (١١: ٨٢).

و كما أرسلت على أصحاب الفيل، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، (١٠٥: ٤) وهو معرب (سنگ

كل) الفارسية: حجر الطين، فهل ان حجر الطين أصلب وأقوى من سائر الحجر وكيف؟! وبما أنه متحجر عن طين في ضغوط جوية أو تحت الأرضية، وفي حرارة خارقة، إذا فلا بد وأنه أصلب من سائر الحجر، دون الطين الذي يتحجر بمرور الزمن، ويتعامل الموافقات فانه أوهن من الحجر الأصل ولا شك.

و السجيل هذا قد يرسل على المجرمين من الفضاء، من مقاذف الكواكب التى ترمى إلى الشياطين، فالمحترقة منها فى الأجواء هى الشهب والنيازك النارية، والواصله منها إلى الأرض هى الأحجار السماوية التى قد ترمى إلى المجرمين، فهى باحتراقها فى الجو، وتبدل قسم من سطوحها الخارجية الى الرماد، ومرورها على المياه والرطوبات، ثم رجعها الى الحالة الصلبة الحجرية تحت عامل الحرارة والسرعة، بعد ذلك تتصلب، وعلها أكثر مما كانت، حين انفصالها عن مقاذفها، وهذه صورة من صور اصطناع حجارة من طين.

و قد يكون مرسلا من باطن الأرض، حجارة بركان ثائر يقذف بالحمم الطينى من جوف الأرض، ترسل من قاذفات البراكين، إلى جماعة من المجرمين.

و قد يكون مصطنعا من غبارات منتشرة بين الأرض والسماء، من الأرض أو السماء، تتحجر تحت ضغوط جوية وموافقات ومنها الحركة والحرارة والرطوبة والرياح.

و أيا كان سجيل المجرمين، فليكن أصلب حجر وأقواه وأشدّه إيقاعا وكما فى قصة أبايل، المرسله على أصحاب الفيل ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول ترى كأنها قنابل ذرية لا تبقى ولا تذر.

ثم السجيل «مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» كما هنا، «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ» كما فى هود ١١: فلتكن محضرة قرب الظالمين، ومعلمة للمسرفين، دون فوضى فيها ولا فى إرسالها، ولا المرسل بهم، والمرسل إليهم، وزمان الإرسال ومكانه، وقدر الظلم والإسراف: مسومة: معلمة عند ربك للمسرفين: المجاوزين الفطرة والعقل والدين، ومعلمة للظالمين: المنتقصين، عل كل طائفة منها لها علامة تخص طائفة من الظالمين المسرفين، أو أن كل واحدة منها تحمل علامة لكل منهم، فهى مسومات، كما أن المسرفين دركات، لكل ما يستحقه من سجيل وأصل التسويم هو فى تسويم الخيل للحرب، أى تعليمها بما تتميز بها من خيل العدو،

شبهت بها هذه الحجارة لأنها معلمة بعلامات تدل على مكروه المصابين، بإرسال هذه للهلاك كإرسال تلك للعراق.

و هي كذلك منضودة: ركاما بعضها فوق بعض، إن في السماء أو في باطن الأرض ... جنود ربانية تصدر عن مصدر العزة فتذل المسرفين الظالمين.

و لقد كان أمطار السجّيل تتمه التدمير بعد الصيحة: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ، (١٥:٧٥) وترى كيف ابتداء العذاب؟:

فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: وهم آل لوط إلا امرأته، فقومه ت أمروا في إخراجهم تخلصا منهم: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ، (٢٧:٥٦): إخراج مهانة، ولكن الله تكفل لهم إخراج كرامة: فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ، (٢٧:٥٨) .. كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ، (٧:٨٣) أجل - أهله - آله فحسب، كانوا من المؤمنين الذين وجدهم الله: ٣٣١ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: هم آل لوط أنفسهم وكان الخروج ليلا ... فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ، (١١:٨١) (و أمضوا حيث تَوَّأَمَرُونَ، (١٥:٦٥).

وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ وَالآية هي تدميرها التي تضم آيات، والخائفون العذاب الأليم هم المؤمنون: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ. وَ إِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُقِيمٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (١٥:٧٧).

فالمتوسمون وهم المتأثرون يستفيقون من آيات سدوم، فالمؤمنون يزداد إيماناً، ومن غير المؤمنين من هم يؤنون، ومنهم من يتأملون.

عذاب قوم لوط

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىَ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩).
علّ هذه «البشرى» هى بشرى إبراهيم وزوجه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، لمكان
«فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ...» ثم «وَجَاءَتْهُ الْبَشْرِىَ» فقد لا تعنى بشرى العذاب لقوم لوط حيث يأتى
خبرهم لمّا أرسل الرسل إلى لوط، ثم البشرى بعيدة عن العذاب إلّا تهكما للمعذبين، وهنا
البشرى لإبراهيم ولوط عليهما السلام.

ذلك، وقد تعنى هذه البشرى بضمناها بشرى العذاب فإنها بشارة لإبراهيم ولوط لقومه
المجرمين، تعنيها عنايةً ضمنية، ولكن لا شاهد لها من هذه الآيات إلّا احتمالاً صالحاً للعناية
الضمنية، ثم وآيات الحجر تصرح ببشرى العذاب بعد بشرى الولادة فهما إذا معنيان.
«قَالُوا سَلَامًا» وهو التحية السليمة الإسلامية التى امر بها المسلمون لله «قَالَ سَلَامٌ» وقد قدر هنا
وهناك «عليك وعليكم» فإن قول «سلام» هو الصيغة الصالحة التى تعنى السلام على، ف
«سلام» بمجردا دون عناية «عليك أو عليكم» لفظياً أو مقامياً لا جواب له، وقد قدر فى «سلام»
من إبراهيم إضافةً إلى «عليك» زيادةً مأمورةً محبورةً لمكان «إِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ
مِنْهَا أَوْ رَدُّوْهَا».

ثم ولا يشترط فى أصل الإجابة ونوعيتها معرفة المسلم عليك وكما لم يعرف إبراهيم هوّاء
الرسول بدايةً مجيئهم حتى عرفوه أنفسهم فعرّفهم، فللسلام إجابةً من أى كان وأيان، مهما
كان لها موقعها الأرقى حين يعرف المسلم بمحتده الأرقى^١.

^١ البحار ١٢: ١٦٨ عن النجاشي عن أبي يزيد الحمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله بعث أربعة أملاك بإهلاك قوم لوط: جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وكروبييل فمروا بإبراهيم وهم متعممون فسلموا عليه ولم يعرفهم ورأى هيئة حسنة فقال: لا يخدم هوّاء إلا أنا بنفسى وكان صاحب أضياف فشوى لهم عجلاً سمينا حتى أنضجه ثم قرّبه إليهم فلما وضعه بين أيديهم ورأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة فلما رأى ذلك جبرئيل حسر العمامة عن وجهه فعرّفه إبراهيم فقال له: أنت هو؟ قال: نعم، ومرت امرأته سارة «فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ» قالت ما قال الله وأجابوها بما فى الكتاب فقال إبراهيم: فيما جنّتم؟ قالوا: فى هلاك قوم لوط، فقال لهم: إن كان فيها مائة من المؤمنين أ تهلكونهم؟ فقال جبرئيل: لا، قال: إن كانوا خمسين؟ قال: لا، قال: إن كانوا ثلاثين؟ قال: لا، قال: فإن كانوا عشرين؟ قال: لا، قال: فإن كانوا عشرة؟ قال: لا، قال: فإن كانوا خمسة؟ قال: لا، قال: إن فيها لوطاً؟ قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، ثم مضوا، و قال الحسن بن علي: لا أعلم هذا القول إلا وهو يستيقهم وهو قول الله «يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ».

فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ: سمين مشوى على حجارة الرضف المحماء، وهكذا يواجه الضيف، وقبل أن يعرفوا أو يعلم أنهم جائعون، فإن ذلك أدب الأريب، وإرب الأديب فى إضافته أيا كان الضيف، أن يحضر له مائدة قدر الإمكانية غير المحرجة فور ورده.
فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ (٧٠).

و هنا «أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ» رغم أدب الضيف، إذ عليه أن تصل يده إلى مائدته مهما كان شعبانا، احتراما للمضيف، فإن فى عدم وصول أيديهم إليها اختراما له، فلم يقل «لَا يَأْكُلُونَ» فقد تصل أيديهم إلى المائدة احتراما دون أكل ماكن أم يعتذرون، ولكى يعلنوا أنهم جاءوا بخير، فحين لا يأكلون ولا تصل أيديهم إلى مائدته، فقد يلمح أنهم جاءوا بشر، فلذلك «نكرهم» نكرانا بمظهر نكرانهم «وَ أَوْجَسَ» إخفاء «منهم» فى نفسه «خِيفَةً» ولكنما الخيفة الموجسة ليست لتوجس عنمن يخاف منه لظهور ملامحة منه ومن الموقف، فلمحة من «أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ» وأخرى من الحالة المتغيرة من الخيفة الموجسة، هما تكفيان لعرفان الخيفة.

فالذى لا يأكل الطعام أم لا تصل يده إليه عند الإضافة، إنه يريب إشعارا بأنه ينوى خيانة أو عذرا حسب تقاليد أهل البدو، بل والمتحضرين، وأهل الريف البسطاء يتخرجون من خيانة الطعام، أن يخونوا من أكلوا معه وفى بيته، فإذا لم تصل اليد إلى طعامهم فقد يعنى أنهم ينوون شرا، أم- لأقل تقدير- لا ينوون خيرا.

ذلك، ولم يكن الإيجاس إلّا فى البداية إذ صرّح بخيفة فى النهاية كما فى الحجر: «قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ» (٥٢).

ذلك وقد يروى أنه قال لهم كلوا فقالوا: لا نأكل حتى تخبرنا ما ثمنه؟ فقال: إذا أكلتم فقولوا: باسم الله، وإذا فرغتم فقولوا: الحمد لله، فالتفت جبرئيل إلى أصحابه وكانوا أربعة رئيسهم جبرئيل فقال: حق لله أن يتخذ هذا خليلا!

ذلك، وهنا «امرأته قائمة» حيث «أقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم».

^١ البحار ١٢: ١٦٨ عن تفسير العياشي عن عبد الله بن عبد الله بن أبي هلال عن أبي عبد الله عليه السلام ... أقول: وهذه رواية أخرى تذكر قيل هذه الجملة طول القصة المذكورة من ذي قبل.

قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٥١: ٣٠).

فضحكت، متعجبة من عظم الموقف في بشارتها، فصكت وجهها منها.

لذلك قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، برسالة العذاب كما يدل عليها، يُجادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، وليس في المسرح صراح خبر من العذاب.

وَامْرَأَتُهُ قَانِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١).

و تراها ضحكت، بشرى العذاب المستفادة من، أرسلنا إلى قوم لوط، أم بشرى الولادة؟ قد تلمح فضحكت، المفرعة على، إنا أرسلنا إلى قوم لوط، أنها ضحكت مستبشرة ببشرى العذاب، كما، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، توّرشى الولادة، والضحك من التعجب حيث تعجبت من هذه البشرى عذابا ورحمة^١ وترى بعد ضحكت، تعنى حاضت؟ وقد يضحك الأدب الصالح من ذلك الضحك الكالغ أن يعنى الحيض! ثم لا رباط لحيضها بشرى العذاب ولما تبشر بالولادة، فأية صلة بين بشرى العذاب وحيضها؟^٢

فيا للضحكة الحائضة من فاضحة واضحة ليس ليصدقها إلا من لا يعرف عن أدب اللفظ والمعنى شيئا ولا فيئا.

ذلك، ولكن بشرى الولادة كانت قبل بشرى العذاب كما تبينها آيات الحجر: «وَبَشِّرْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ. قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ. قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ. قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ. قَالَ وَمَنْ يَمْتَنُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ. قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ. قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ. إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا لَمَنِ الْغَابِرِينَ» (١٥: ٦٠).

^١ البحار ١٢: ١٤٩ قل أبو جعفر عليه السلام في سرد القصة «فضحكت» يعني: فتعجبت من قولهم.

^٢ البحار ١٢: ١٥٦ عن تفسير القمي دون إسناد إلى معصوم كما هوذا به كثيرا ما، في سرد القصة: وجاءت سارة في جماعة معها فقالت لهم: «ما لكم تمتعون من طعام خليل الله؟ فقالوا لإبراهيم: لا تؤل- أي: لا تخف «إنا أرسلنا إلى قوم لوط»، ففزع سارة وضحكت أي: حاضت وقد كان ارتفع حيضها منذ دهر طويل فقال الله عز وجل: «فَبَشِّرْ نَاهَا بِإِسْحَاقَ..» وفي معاني الأخبار بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: فضحكت: قال: حاضت.

فقد كانت بشرى الولادة قبل بشرى العذاب، وقد ضحكت امرأة إبراهيم قبلهما حيث تأخرت بشرى الولادة عن ضحكها، فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ، فلم يكن ضحكها - إذا - إلا لمجىء المرسلين الحاملين بطبيعة الحال بشرى، والمترقبة القريبة منها بشرى العذاب، كما المستبعدة الغريبة هي بشرى الولادة:

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣).

قالت، «بعد ما بشرناها... وهذه القولة هي طبيعة الحال من عجائز أمثالها لا سيما مع شيخوخة البعولة» قالت «ألد وأنا عجوز»، وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا؟ فكيف يأتي ولد من والدين عجوزين لا يأتي منهما ولد بطبيعة الحال، وهو عجيب - لو خلى وطبعه - حقا فالمرأة ينقطع طمثها عادة في حالة من سنيتها معينة معنية بطبيعتها، فلا تحمل، ولكن لا عجب من قدرة الله وعنايته عجابا يستبعد معه وعده المحتوم.

قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، الذي نحمله بشاره بذلك الميلاد، وليس يعجز عن تحقيق أمره مهما عجزت العادة الجارية المستمرة في الإيلاد، وليس ذلك فوق ولادة المسيح دون والد ولا يساميهما! فالعادة ٣٥٠ تجرى بأمر لا يعنى أنها سنة لا تتبدل، وخارق العادة سنة متميزة خاصة في عامة السنة، وكلاهما مما سنه الله.

ثم وَرَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، الرسالي، رحمة وبركة مميزة خارجة عن المتعودة الجارية، فكما الرسالة رحمة مميزة، كذلك مثل هذه الولادة متميزة عن سائر الولادات. إِنَّهُ حَمِيدٌ، في رحمته وبركاته «مجيد»، في عطياته.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥).

هنا يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، إذ بشر بعدابهم من «أرسلنا إلى قوم لوط» وقد تعنى هذه المجادلة غير المجادلة، استرحام الاستعفاء عن هوان المجرمين، عليهم يتوبون ويشوبون إلى ربهم، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ، في خلقه «أواه»: كثير الرجوع إلى ربه «منيب»، إليه عما ربما يخطأ كمثل هذه المجادلة الملتجأة غير الملجأة.

فالحليم الذى يحتمل أسباب الغضب وموجباته فيصبر ويتأنى ولا يشور، وهو يحتمل أن شفاعته عند ربه تفيد، والأواه: الذى يتضرع فى دعائه واستدعائه، يستدعى ربه متضرعا عله يجيبه، والمنيب: المسرع إلى ربه محتجلا مما قصر أو قصر عله يعفو عنه، هذا الحليم الأواه المنيب أخذ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، ومثلث المواصفات الجميلة مما يدل على أن هذه المجادلة لم تكن مجالدة، وإنما هى استبقاء إياهم إن أمكن.

يا إبراهيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦).

أَعْرِضْ عَنْ هَذَا، الأمر، ل، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ، المحتوم بعذابهم، أمرا غير مردود، ثم «وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ، إِذْ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ» (٦: ١٤٧)¹.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧).

هناك إبراهيم يوجس منهم خيفة حيث رأى أيديهم لا تصل إلى طعامه، وهنا لوط «سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا، حيث يخاف عليهم قومه الهاتكين الفاتكين حيث يهرعون إليه» وقال هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ: شديد البلاء².

و لأن الذرع هو مقياسه الأطوال، من أصل الذراع: العضو، حيث كان يقاس به، فضيق الذرع هو عجزه عن القياس، كناية عن انسداد كل الحيل عليه فى ذلك المضيق العصيب، و كما قال لَوْ أَنْ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ (٨٠).

فهو الرسل على جمالهم المنقطع النظير، وهم بهيئة الذكور، إنهم بطبيعة الحال يضاق بهم

¹ البحار ١٢: ١٦٣ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما جاءت الملائكة في هلاك - قوم لوط مضوا حتى أتوا لوطا و هو في زراعة له قرب المدينة فسلموا عليه فلما رأهم رأى هيئته حسنة و عليهم ثياب بيض و عمام بيض فقال لهم: المنزل؟ قالوا: نعم، فتقدمهم و مشوا خلفه فندم على عرضه عليهم المنزل فالتفت إليهم فقال: انكم تأتون شرار خلق الله و كان جبرئيل قال الله له: لا تعذبهم حتى يشهد عليهم ثلاث شهادات، فقال جبرئيل: هذه واحدة، ثم مشى ساعة فقال: إنكم تأتون شرار خلق الله فقال جبرئيل: هذه ثنتان، ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التقت إليهم فقال: إنكم تأتون شرار خلق الله، فقال جبرئيل: هذه ثلاث ثم دخل و دخلوا معه منزله فلما بصر بهم امرأته أبصرت هيئته حسنة فصعدت فوق السطح فصفت فلم يسمعوا فدخننت فلما رأوا الدخان أقبلوا يهرعون إليه حتى وقفوا بالباب فقال لوط: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي» ثم كابروه حتى دخلوا عليه قال: فصاح جبرئيل يا لوط دعهم يدخلوا، قال: فدخلوا فاهوى جبرئيل إصبعيه و هو قوله: فطمسنا أعينهم ثم قال جبرئيل: «إنا رسل ربنا لن يصلوا إليك».

² الدر المنثور ٣: ٣٤٤ - أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن بشر الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن الناس كانوا أنذروا قوم لوط فجاءتهم الملائكة عشية فمروا بناديهم فقال قوم لوط بعضهم لبعض لا تتفروهم و لم يروا قوما قط أحسن من الملائكة فلما دخلوا على لوط عليه السلام أودوه عن ضيفه فلم يزل بهم حتى عرض عليهم بناته فأبوا فقالت الملائكة: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، قال: رسل ربي؟ قالوا: نعم، قال لوط: فالآن إذا.

كل ذرع، حيث تضيق على لوط كل المجالات للحفاظ عليهم، إذ جرب قومه أنهم هارعون لا يسدهم صاد، ولا يصدهم ساد عما هم إليه يهرعون، إذا:

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨).

الهرع هو السوق بعنف وتخويف، ف يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ، بمعنى يساقون إليه بعنف وتخويف، و تجهيل الفاعل - وكأنه غيرهم - تبين لخطر الموقف كأنهم يساقون إليه دونما إختيار منهم، والفاعل بطبيعة الحال هو الشره الغالب والفرح المتآلب وكأنهم ساقطون فى أيديهم، منساقون إلى ما يهون.

وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، كلها، هار عين إليها غارقين فى أغوارها، وهذا هو الذى ساء لوطا بضيوفه وضاق بهم ذرعا، متوقعا يومه العصيب.

لقد رأى لوط حمى حارقة من شهوة الجنس ووطأته فى وجنات قومه الهارعين إليه، المندفعين إلى داره، يتهددونه فى ضيفه بكرامته، فحاول فى إيقاظ فطرتهم، إيعاظا لحاجتهم الطبيعية المشروعة، ولم تكن حاضرة اللحظة الخطرة المستعجلة إلا بنات له غير مزوجات فعرضهن للزواج^١ بديلات عن ضيفه ف: قَالَ يَا قَوْمِ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ، من أولاء الذكور، تنازلا فى أصل الطهارة، فَاتَّقُوا اللَّهَ، عن دنس اللواط المحرم فى شرعة الله وشرعة الإنسان السليم، وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي، كمحذور ثان، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ، بأى رشد وإن كان إنسانيا مهما لم يكن شرعيا.

أجل هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ، بكل معانى الطهر، نفسيا وحسيا حيث يلين الفطرة النظيفة، نظافة فطرية خلقية دينية وإنسانية.

ذلك، وقد يقال بناتى، هنا تقصد أنث سدوم الخليات، حيث الرسول فى قوم هو أب لهم بل وأحرى منه، وقد يؤدده أن بناته عليه السلام ما كن كافيات لهؤلاء الجمع اللهم إلا اشتراكية وإباحية فى الجنس وعودا بالله، ومن المعلوم المؤدد أن بناته لم يكن بعديد هؤلاء حتى

^١ بنور الثقلين ٢: ٣٧٩ عن الكافي عن علي بن إبراهيم بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام فى قول لوط عليه السلام: «هؤلاء بناتى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ» قال: عرض عليهم التزويج.

يكون عرضهن لهم منعة عما ينوون، ولذلك لم يردوا عليه فيما ردوا أن عديدهن لا يساوي عديدا.

و عل الأرجح عناية الجمع في ذلك الجمع أن قصده من «بناتي» كافة البنات الخليات بمن فيهن بناته، وهنا تقطع كافة الأعذار من البين كما قطعت ولم يبق إلا عذر غادر غير عاذر: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ.

فلا حاجة- إذا- إلى نكران أن لم يكن له إلا بتان حسب التوراة، أم اللجوء إلى احتمالات أخرى، مثل أنه عرض بتيه أو الثلاث أما زاد لتراوح الزواج بينهن! أو أن القصد إلى أزواجهم أنفسهم^١، فإن «ما لنا في بناتك من حق» تطارده، وعل تصديقه ل «بناتي» وهم لا يصدقونه أبا للأمة، يخصصهن بخاصة بناته، عرضا لهن إلى زواج سليم، فإنها كل ما يملكه من قضاء شهوة الجنس ثم هناك حليات أخرى يكفين بغية الحاجة للبقية الباقية.

ثم ترى في عرض بناته عليهم للزواج وهم يطلبون الأدبار، لمحمة أو دلالة على سماح إتيان النساء من أدبارهن؟ قد يقال: نعم لنفس الطلب^٢، ولكنه لا حيث المطلوب من النساء بطبيعة الحال المتعوده هو الفروج دون الأدبار، فحتى إن كان القصد عرضهن للزواج لأدبارهن فليس هذا إلا ترجيحا للأخف حرمة على الأشد.

و لو أنها دلت على أصل الحل في أدبارهن فهو إذا من شرعة إبراهيم، والظاهر من الكتاب و السنة حرمتها كحرمة اللواط وكما فصلناه على ضوء «نساؤكم حرت لكم فأتوا حرتكم أنى شئتم» (٢: ٢٣٣) حيث الحرثية فيهن ليست إلّا من طريق القبل دون الدبر، ثم إنه قطع السبيل، وكما في اعتراض لوط على قومه فيه «وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ».

وهنا روايات عن الرسول صلى الله عليه وآله وعن الأئمة من آل الرسول صلى الله عليه وآله تحرم إتيانهن من أدبارهن^٣.

^١ البحار ١٢: ١٥٧ عن تفسير القمي حدثني أبي عن محمد بن عمرو رحمه الله في قول لوط: «هؤلاء بناتي» قال: عنى به أزواجهم و ذلك أن النبي هو أبو أمته فدعاهم إلى الحلال و لم يكن يدعوهم إلى الحرام، فقال: «أزواجكم هن أظهر لكم...».

^٢ نور الثقلين ٢: ٣٨٧ في تهذيب الأحكام عن أبي الحسن عليه السلام سئل عن إتيان- المرأة من خلفها قال: أحله آية من كتاب الله عز وجل قول لوط: «هؤلاء بناتي هن أظهر لكم» و قد علم أنهم لا يريدون الفرج.

^٣ في المستفيض عن النبي صلى الله عليه وآله في التي يؤى من دبرها: هي اللوطية الصغرى.

ذلك، ولكن لا حياة لمن تنادى، ف الْعَمْرُكَ إِيَّاهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ، (٧٣: ١٥) فلا تلمس العظة الحكيمة الفطر المنحرفة المريضة، والقلوب الخائنة المقلوبة الآسنة، والعقول المعقولة بطوع الهوى الآفئة، حيث:

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُنَّ مَا نُرِيدُ (٧٩).

ما، هنا قد تعنى كلا الموصولة والنافية، ف لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ هو الفروج، و إنك تعلم ما نريد، من أدبار الذكور، فلم يبق في الدور مجال لنا في بناتك وغيرهن من أناث، أو ليس لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ، إذ لا نشتهيهن، فالحق للإنسان هو فقط ما يريده لا ما يحتمل عليه ولا يريده، ثم لا حق لنا فيما يخالف سنتنا حيث نأتى الرجال شهوة من دون النساء، ومن ثم لا حق لنا في بناتك وليست بيننا صلة الزواج، واحتمال أخير بناء على أن المعنى من «بناتي» أزواجهم أنه «ما لنا في بناتك» على الهزء منه «من حق» إذ لا نشتهيهن، وإنما لنا حق اللواط إذ نشتهيهن.

و تراه وهو يأمرهم بتقوى الله يعرض بناته للسفاح؟ وأية طهارة فيه حتى يكن هنّ أظهر مما هم يريدون! أم تراه يعرض لهم النكاح المحظور فإنهم كفار وبناته مسلمات؟ ولم تثبت حرمة المسلمة على الكافر في شرعة إبراهيم، كيف وقد كانت حلالاً له بداية الإسلام، فقد زوج النبي ﷺ بنتاً له من أبي العاص بن الربيع وهو كافر قبل الهجرة، ثم نسخ بعدها. و لئن كان محرماً في شرعة إبراهيم فهو أخف حرمة من اللواط، وفي دوران الأمر بينهما وحتى الزنا يرجح سائر المحرمات الجنسية على اللواط:

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠).

لو، هنا للترجي المتحسر والتحسر المترجى، أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً، أصدكم عما تنوون «أو آوى إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ، يصدكم عما تريدون، وكم، هنا قد تعم الملائكة الضيوف إلى هواء الهارين. و هنا «آوى» متعدية قد تعنى أن يُوَى ضيوفه الكرام إلى ركن شديد، لا- فقط- يأوى هو إلى ركن شديد، حيث المهمة الحاضرة هنا هي الحفاظ عليهم إذ القصد السوء موجه إليهم،

وفي البحار ١٢: ١٦٧ عن تفسير العياشي عن يزيد بن ثابت قال: سأل رجل أمير المؤمنين عليه السلام أ يوى النساء في أدبارهن؟ فقال: سفلت سفلك الله ما سمعت الله يقول: أ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَفَعَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ.

دون الحفاظ على نفسه إذ لم يقصدوه في نفسه.

و تراه كيف يأوه لفقد قوة له أو مأوى ركين شديد؟ واللّه تعالى وتقدس له ركن شديد هو مأواه في رسالته وعلى أية حال!

علّه يعنى من قوة، قوته المعطاء من اللّه، ولم تكن له تلك القوة الظاهرة الظاهرة، ثم يعنى من رُكْنٍ شَدِيدٍ، اللّه، حيث الانقطاع التام إلى اللّه والتوكل على اللّه ليسا إلا بعد تقديم كافة القوات التى هبها اللّه للمتقطع إليه، المتوكل عليه، وما أحسنه المروى عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «رحم اللّه لوطا كان يأوى إلى ركن شديد يعنى اللّه تعالى ..!»

و قد تعنى «رُكْنٍ شَدِيدٍ»- بين قوته فى نفسه وقوة اللّه- عشيرته الغيب عنه وكما يروى عن على عليه السلام أنه خطب فقال: عشيرة الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته، إنه إن كف يده عنهم كف يدا واحدة وكفوا عنه أيديا كثيرة مع مودتهم وحفاظتهم ونصرتهم، حتى لربما غضب الرجل للرجل وما يعرفه إلا بحسبه وسأتلوا عليكم بذلك آية من كتاب اللّه تعالى فتلا: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ، قال عليه السلام: «و الركن الشديد العشيرة فلم يكن للوط عليه السلام عشيرة فوالذى لا إله إلا هو ما بعث اللّه نبيا بعد لوط إلا فى ثروة من قومه»^٢.

فلقد اسقط لوط فى أيديه وأحس ضعفه وضغطه، وهو غريب بين قومه، نازح إليهم من بعيد لا عشيرة له تحميه^٣، فانفجرت شفثاه بما انفجرت فقال ما قال، موجهة قائلته إلى الملائكة الشباب الصباح الوجوه «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً، أخلصكم بها عن هذه الحالة العصبية، وإلى هوّاء الهارعين «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً، لأصدكم عما تنوون ولحلت بينكم وبين ما هممتم من الفساد وأردتموه من ذنوب فحشاء، والحذف هنا أبلغ لأنه يوهم المتوعد بعظيم الجزاء

^١ الدر المنثور ٣: ٣٤٤- أخرج جماعة عن أبي هريرة في قوله: «أو آوى إلى ركن شديد قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: ..

^٢ المصدر أخرج أبو الشيخ عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال: .. أقول: و ذيل الخطبة «فو الذي ..» مروى عن النبي صلى الله عليه وآله بطرق عدة و منها ما فسر فيه «رُكْنٍ شَدِيدٍ» ب «اللّه».

^٣ البحار ١٢: ١٥٢ عن أبي جعفر عليه السلام أن رسول اللّه صلى الله عليه وآله سأل جبرئيل كيف كان مهلك قوم لوط فقال: إن قوم لوط كانوا أهل قرية لا ينتظفون من الغائط ولا يتطهرون من الجنابة نجلاء أشحاء على الطعام و ان لوطا لبث فيهم ثلاثين سنة و إنما كان نازلا عليهم و لم يكن منهم و لا عشيرة له فيهم و لا قوم ...

وغلظ النكال، وبصرف وهمه إلى ضروب العقاب ولا يقف به عند جنس من أجناس المخوفات المتوقعات.

ذلك، فليس مخرج قول لوط هذا على ما ظنه من لا معرفة له وقدح فيه بأنه لم يأو إلى الله سبحانه، لأن لوطاً إنما أراد فيما أراد الأعوان من قومه والأركان المستند إليهم من قبيلته في الله وهو يعلم أن له معونة الله سبحانه أشد الأركان وأعز الأعوان، إلا أن من تمام إزاحة العلة في التكليف حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وقرب المعاضد والمرافد. ثم القصد من «أوى إلى ركنٍ شديدٍ» هو الله تعالى شأنه العزيز فإنه هو مأواه على أية حال، ولكنه أراد مأوى في خاصة حالته المزرية وماسة حاجته المردية، فقد أوى إليه فنجاه بما نجاه.

فحين وصلت حالته إلى هذه المزرية الضارعة، الضائقة الفائقة الضيق^١ وأوى إلى ركن الله الذي لا يتخلى عن أوليائه، كشف الرسل له عن ذلك الركن الحاضر ف:

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدًا إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١).

لِإِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ، إِلَيْكَ فَهَمَّ - إِذَا - لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ، بسوء من الوصول إلينا بما ينوون، فهم لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ، بأى إذى أو لظى وإساءة وفضيحة.

و ترى كيف لن يصلوا إليك؟ أنه كما قال الله تعالى: «وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنَّا فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي (٥٤: ٣٧) إِذَا ف لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ، حيث لا يرونك ولا ضيفك، ولأنهم رسل ربك وليسوا ذكرا من العالمين حتى يصلوا إليهم وصولهم إلى هواء^٢.

^١ نور الثقلين ٢: ٣٨٧ في العلل بإسناده إلى ابن مسعود قال: احتجوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما بال أمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة و الزبير و عائشة و معاوية؟ فبلغ ذلك عليا عليه السلام فأمر أن ينادي الصلاة الجامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد الله و أتنى عليه ثم قال: معاشر الناس إنه بلغني عنكم كذا و كذا؟ قالوا: صدق أمير المؤمنين عليه السلام قد قلنا ذلك، قال: إن لي بسنة الأنبياء أسوة فيما فعلت قال الله تعالى في محكم كتابه: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، قالوا: و من يا أمير المؤمنين؟ قال: أولهم إبراهيم - إلى أن قال - ولى بابن خالته لوط أسوة أن قال لقومه: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكُنٍ شَدِيدٍ» فإن قلتم أن لوطاً كانت له بهم قوة فقد كفرتم و إن قلتم لم يكن له بهم قوة فالوصي أعذر.

^٢ البحار ١٢: ١٦٦ عن أبي جعفر عليه السلام قال - فيما ذكر من قصة لوط المفصلة - و قد تدافعوا على الباب فكسروا باب لوط عليه السلام و طرحوا لوطاً فقال له جبرئيل: «إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ» فأخذ كفا من بطحاء فضرب به وجوههم و قال: شأهت الوجوه فعمي أهل المدينة كلهم فقال لهم لوط يا رسل ربي بما أمركم فيهم، قالوا: أمرنا أن نأخذهم بالسحر قال: فلي إليكم حاجة، قالوا: و ما حاجتكم؟

فَإِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ، تبشيرا بإهلاكهم عن بكرتهم، تقليصا لهم بأسرهم، وتخليصا لك عن أسرك بينهم، فَأَسْرٍ بِأَهْلِكَ، كلهم بقطع من الليل، مظلمة ولا يلتفت، وراه منكم أحد إلا امرأتك، حيث تلتفت راجعة إلى قومك فلا تمنعها، بل وألفتها ف إنه الشأن الشائن هنا هو أنه يصيبها ما أصابهم، من الكفر والنكران، فمصيبتها ما يصيبهم من عذاب الرحيم الرحمان وَإِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ؟.

فالسرى هو السير ليلا، فقطع من الليل علّه الليل الأليل وهو أظلمه، ثم لا يلتفت، نعم الالتفات حين السرى أم ضمنه، فقد تعنى عدم التربص والتريث والتعويق إلى عدم اللفتة إلى الورا، ثم أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ، تفريج بهيج عن كرب لوط عليه السلام المكروب المنكوب إنعاشا لنفسه النفيسة عن هذه الحالة التعيسة البئيسة، تقريبا لموعدهم هلاكهم مع مطلع الصبح ثم يفعل الله بهم ما فعل بركنه الشديد الركين المكين كما أوى إليه من ذى قبل.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣).

جاء أمرنا، من الوعد إلى تحقيقه، جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وهو إلى عالى المدينة وسافلها، عالى أهلها حيث سفلوا عن علوانهم بالعذاب المهين، كما جعلت أعالى المدينة حيث مساكن أهلها الأعالى، جعلت أسافلها، ثم وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ، نضدها الله لإمطار هو الأوغاد الأنكاد وأمثالهم، مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ، معلمة لهم، وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ، أمثالهم، ببعيد، وحقيقة التسويم هى العلامات التى يعلم بها الفرسان والأفراس فى الحرب للتمييز بين الشعارات، والتفريق بين الجماعات، وهكذا كانت فرسان العذاب لقوم لوط إذ كانت معلمة معلنة تختص بقبيل الظالمين حضورا ومستقبلين.

أجل، ولا تختص هذه الممطرة المزمجرة المدمرة بهؤلاء الأنكاد البعاد، بل هى تعم كل الظالمين أمثالهم، فهى - إذا - قريبة غير غريبة، وتحت الطلب العادل، فعند الحاجة تطلق

قال: تأخذونهم الساعة، قالوا يا لوط إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب لمن يريد أن يؤذ، فخذ أنت بناتك و امض و دع امرأتك، قال أبو جعفر عليه السلام رحم الله لوطا لو يدري من معه فى الحجرة لعلم أنه منصور حين يقول: «لو أن بكم قوة أو أوى إلى ركن شديد» أي ركن أشد من جبرئيل معه فى الحجرة قال الله عز و جل لمحمد صلى الله عليه واله: «وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» أي من ظالمي أمثلك إن عملوا عمل قوم لوط.

فتصيب أهلها.

فيا لسدوم الصدوم من صدام صدام مع رسول الحق، فصادمها عذاب من الله الحق، وليعلم الظالمون أنهم منكوبون لوقت ما مقرر في حكمة الله، «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ ببعيدٍ، أيا كانوا وأيان، وإن كانوا من الأمة المسلمة الأخيرة مهما اختلفت شكلية العذاب.

عذاب قوم لوط

تذليل لما سبق وتقدمة لما يلحق بالنسبة للصالحين والطالحين، يتضمن نماذج من رحمة الله وعذابه، ممثلة في بشرى ابراهيم بسلام عليم، وإنذار قوم لوط واصحاب الأيكة والحجر وما حل بهم من عذاب اليم:

نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠).

هنا نبا الرحمة يتقدم نبا العذاب جريا على أصله الموعود: «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ،

فهى تشمل المتقين، بطبيعة الحال، والطاغين إذا اقتضت الحال ان يثوبوا الى ربهم قبل فوات المجال، فما دام يصح الغفران عدلا او فضلا لم يكن للعذاب مجال، إلا إذا كان الغفران ظلما بالمتقين، وعبثا للطاغين، وتسوية بين المحسنين والمسيئين.

و النبا هو خبر ذو فائدة عظيمة وعائدة جسيمة، فنبأ الرحمة فائدة لمن يستحقون الرحمة، و نبا العذاب تحذير لهم عن التورط في استحقاق العذاب، و حجة على الغاوين غير الأوين الى ربهم.

و قد ينبى «عبادى، ان محور الرحمة والغفران هو ربة العبودية ابتداء من العقيدة وانتهاء الى العمل، فما لم يتحول عبد الشيطان الى عبد للرحمن لم يستحق تلك الكرامة الغالية.

و نبا الرحمة والغفران اضافة الى تقدمه ذكرا متأكد فى البيان بمثلث التأكيد «أنى - أنا - الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» حيث اللام الداخلة على الوصفين لها دلالتها على تأكيد.

ثم نبا العذاب الأليم اضافة الى تأخره ذكرا لم يصرح فيه بالنبا إلا عطفًا على نيا الرحمة، ولا فيه ما فى الرحمة إذ لم يقل: «انى انا المعذب ..» تدليلا على اصالة الرحمة ما أمكنت، و هامشية العذاب إذا وجب عدلا من أحكم الحاكمين.

فهى - إذا- أرجى آية فى الذكر الحكيم بعد آية الزمر: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ». (٥٤).

آيتنا تلك تجعلنا بين الخوف والرجاء دون فوضى جزاف لا فى الرحمة ولا فى العذاب، وقد يعنيه المروى عن رسول الهدى لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لجمع نفسه!

فليعلم العبد القدرين جميعا حتى يجمع نفسه متورعا من الحرام، غير قانظ من رحمة الله، لا مستهتر لا يرعوى، ولا آيس غوى.

وَبَنِيهِمْ عَنِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢).
«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ. فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ. فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ». (٥١: ٢٨).

و بنيتهم، نبأ الرحمة الخارقة للعادة، البارعة لنبى الرحمة، عن ضيف إبراهيم الخليل، انباء مختصرا غير محتصر، فالذاريات بما معها من آيات تفصله تفصيلا، إذ دخلوا عليه، فجاء دونما استئناس ولا تعريف بأنفسهم أما يقصدون، وإلا فكيف قال إنا منكم وجلون؟ فانما قالوا سلاما، وهو عليه السلام رد عليهم السلام، قال سلام قوم منكم وجلون، لا نعرفهم!

و هنا نتأدب بالأدب الرسالى، وهو واجب تكريم الضيف وتقديم الإضافة الميسورة له مهما كان منكرا لا نعرفه ولم يستأنس معنا من ذى قبل.

و «سلاما» بعد قالوا، ليس فقط صيغة السلام، وإلا كان «سلام»، كما فى جوابهم، فقد يكون: كلاما سلاما، او قولا سلاما ام اى سلام يحق على الوارد ان يقوله ومنه تحية السلام، وحتما

^١ الدر المنثور ٤: ١٠٢- اخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن ابي حاتم عن قتادة فى الآية. قال: بلغنا ان نبى الله صلى الله عليه وآله قال: ... وفيه «اطلع علينا رسول الله صلى الله عليه وآله من الباب الذي يدخل منه بنوا شيبه فقال ألا أراكم تضحكون ثم أدير حتى كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال: انى لما خرجت جاء جبرئيل فقال، يا محمد ان الله يقول لم تقنط عبادي: نبى عبادي ..

^٢ راجع الفرقان ٣٦: ٣٢٤- ٣٣١- تجد فيه تفصيل القصة.

كانت في قولهم سلاما، وإلا لما كان له الجواب 'سلام، وعليكم المحذوفة، وهنا تتأدب بأدب الدخول للضيف المكرمين مهما كانوا منكرين، ومنه واجب السلام قولا وفعلا، فإذا دخلتم بيوتاً فسلكوا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة، (٢٤: ٦١).

ثم قال إنا منكم وجلون، لم يكن إلا بعد 'سلام قوم منكرين، وبعد ما قدم لهم ما قدم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة، (١١: ٧٠) وليكن إيجاس الخيفة والوجل مسنودا الى سبب ظاهر، دون انهم - فقط - قوم منكرون! فلا تحل اية تهمة على من لا تعرفه بسند انك أنت لا تعرفه، وحتى إذا صدر منه ما يخيف فلا توجس منه خيفتك، بل أظهر هاله مصارحا كما صرح ابراهيم: إنا منكم وجلون، مصارحة بالحق ما أحلاها، دون مسaire محايرة بايجاس الخيفة، وقد تخلف تبعات سيئة شئت ام أبيت.

قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم (٥٣).

و نفس البشارة بهذه الخارقة الغريبة لمحة صارخة مصارحة انهم لم يكونوا بشرا، بل هم ملائكة يحملون وحى الله اليه في هذه البشرى السارة بغلام عليم، ومن قبل فى إسماعيل، فبشرناه بغلام حليم، (٣٧: ١٠٧) وطبعاً لا حلم صالحاً دون علم.

و فى الصافات، وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين، (١١٢) ف 'عليم، هنا تعنى علم الوحي النبوة؟ 'وامراته قائمة فضحكك فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، (١١: ٧١)'.
قال أ بشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون (٥٤).

مس الكبر ضعفا في القوة جنسية وسواها من ناحية، وامراته سارة، عجوز عقيم، (٥١: ٢٩) من اخرى، عقم مثلت الزوايا بين الزوجين! هذا الذي يحيره فى هذه البشارة، فبم تبشرون، استبعادا لها عن صدقها، فعلهم - إذا - ليسوا ليحملوا وحى الله فى هذه البشرى، وكما هم فى ظاهر حالهم ليسوا بملائكة! فقد لا تكون بشارة بالحق، فلم يكن - إذا - استغرابا من قدرة الله، ولا قنوطا من رحمة الله، فلما:

قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين (٥٥).

^١ نور الثقلين ٣: ٢٠ و فى تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام فى حديث طويل: و الغلام العليم هو إسماعيل من هاجر .. أقول و هذا خلاف نص الآيات فى بشارة ابراهيم و لا سيما الاخيرة.

صدّقهم حينذاك، ونفى عن نفسه القنوط ناسبا له الى الضالين، وهو من اهدى المهتدين.
قَالَ وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦).

استفهام انكارى كتعريض بالملائكة، أ تنسبونى الى القنوط من رحمة ربي وليس إلّا للضالين؟ فما كان استعجابى لبشراكم استبعادا رحمة ربي، وقنوطا منها، وانما ترددا هل إنها من ربي؟ وكيف اطمئن الى حالهم الملائكية من قالهم، طبعاً هو بوحى من الله، فما كان يعرفهم وهم فى صورة البشر إلّا بوحى وقد انكرهم فى البداية، ثم اطمئن الى بشراهم بما عرفه الله إياهم.

فالضالون عن الله هم الذين لا يستررحون روحه ورحمته، ولا يستشعرون رأفته ورعايته، فاما القلب الندى بالايمان، الموصول بالرحمن، فلا يأس من رحمة ربه مهما كانت غريبة خارقة، ومهما كان هو فى شدة مدلهمة يغيب معها الأمل فى ظلام الحاضر، ف إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، مهما كانت بعيدة عن المسيئين.

فالقنوط من رحمة الرب خروج عن الحالة الوسطى الايمانية: بين الخوف والرجاء، وتهمه على الرب وسوء ظن به^١ انه عاجز ام ضنين ام غير رحيم، فمهما كانت الرحمة غالية، والعبء غير لائق لها، ولكن الرب اهل للرحمة إذا كان العبد أهلا للرحمة، ف الفاجر الراجى لرحمة الله أقرب منها من العابد القنط^٢ حيث الفاجر الراجى قد ينجو برجائه فيصلح، والعابد القنط لا ينجو مهما عبد فيفسد، فالقنوط من رحمة ربه ضال عن ربه معرفة وعملا، إذ لم يعرفه بالقدرة والرحمة الواسعة، فلا يعمل عمل الراجى، إذا أذنب لا يرجو غفرانه، وإذا أطاع لا يرجو مزيده! وهكذا انسان ضال عقائديا وعمليا، واين ابراهيم شيخ المرسلين من هواء الضالين؟.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧).

الخطب هو الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب والحوار، وكيف عرف ان لهم خطبا غير ما

^١ نور الثقلين ٣: ٢٢ عن التوحيد للصدوق باسناده الى معاذ بن جبل حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وآله يقول فيه: قال الله يا بن آدم باحساني إليك قويت على طاعتي و بسوء ظنك بي قنطت من رحمتي.

^٢ الدر المنثور ٤: ١٠٢- اخرج الحكيم الترمذي فى نوادر الأصول عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ...

بشروا؟ عليهم قدموا أمورا بعدها تدل على أمر عظيم غيرها، فلذلك يسألهم استفهاما واستعلاما بعد ما تأكد انهم مرسلون، وهم بدأوا ببشارة الغلام العليم، لتهيأ الجو لبيان الخطب العظيم، حتى تخف دهشته، ثم وهذه البشارة يكفى لها منهم واحد، فلما ذا ذلك الجمع إلا لخطب غيرها، مهما كانت هي منها.

قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠).

صحيح ان رسالة العذاب كانت على قوم لوط المجرمين، ولكن ابراهيم امام عليه وعلى قومه، فحفاظا على كرامة القيادة العليا الرسالية، لا بد وان يخبر أولا ماذا يقصد لقيادة جزئية وهنا بين المستثنى منه والمستثنى مقالة لإبراهيم إذ استوحش من عموم العذاب: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ عِلْمٍ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ» (٢٩: ٣٢). (قَالُوا إِنَّا .. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» (٥١: ٣٤) أ ترى ابراهيم لم يحر كلاما مع ربه بعد ما سمع ذلك الخطب الجلل؟ اجل فلما ذهب عن إبراهيم الروغ وجاءته البشري يجادلنا فى قوم لوط. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ» (١١: ٧٦).

قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا، كأصل فى هذه الرسالة مهما حملت لك بشارة إلى قوم مجرمين أجرموا وقطعوا ثمار الحياة الانسانية، حيث قطعوا أنسالهم بما تعودوا من إتيان الرجال إناكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء وتقطعون السبيل، وهذا من أنحس الإجرام.

أرسلنا، لنرسل عليهم حجارة من طين...، إلا آل لوط، وهم لوط وأهله الأهلون للنجاة من أقارب أم اغارب، وهم كل من آمن به. إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ، لا لقرابة ونسبة فلذلك إلا امراته قدرنا إنها لمن الغابرين، الماضين فى المستثنى منهم فى لنرسل عليهم.

والغابر - لغويا - هو الماكت بعد مضى من هو معه، وهو هنا يعم مكوث العمر انها كانت عجوزاً فى الغابرين، (٣٧: ١٣٥) ومكوث أمر الكفر حيث ظلت كافرة وقد مضى من معها من اهله عن الكفر وآمنوا به كلهم أجمعون، وكذلك غابر كلمة العذاب التى حقت على

الكافرين.

و قد رنا، هنا يعم تقدير عمرها، وتقدير كفرها، ثم تقدير عذابها، تقديرا دون تسيير فى أوسطها حيث اختارت هى الكفر: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ، ثم الاخيرة هى من مخلفاته، وتقدير غابر العمر إملال وامهال لفسح المجال علها ترجع عن غيرها، ام تطول حجة الله عليها فيطول عذابها جزاء وفاقا.

ذلك عرض العذاب على آل لوط فى لقياهم لإبراهيم وقد جادل وسمع الجواب.

ثم من عند القائد الأعظم الى صاحب لواء فى رسالته الجزئية ليخبروه بذلك الخطب:

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢).

آل لوط، هنا هم لوط واهله، وهو شخصا محط لهذه الرسالة، لذلك هو الذى قال إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، وهنا نصدق تماما أن «سلام على آل ياسين، يعنى ياسين: محمدا وآله المعصومين، وكذلك سائر الآل إلا ان تدل قرينة على خروج الأصل لاختصاصه كما نصلى على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله».

وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ، (٢٩: ٣٣)

و هذه دلالة منفصلة ان «منكرون، فيه ضيق ذرعه، ولكونهم بصورة غلمان مرد حسان وهو يعرف شأن قومه الشائن بحق الغلمان، لذلك طمئنوه من أنفسهم وقالوا، ما قالوه. و قد يعنى «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، فيما يعنيه، انى لست لأصدقكم فانكم غير معروفين، لذلك استدرکوا و:

قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكُمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤).

و هنا يصدقون مرة ثانية فى خطبهم بنفس النمط الذى صدقهم ابراهيم، إلا ان هنا بين النكران والعرفان امرا فادحا إمرا: «وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ..»

فلو كان يعرفهم عند مجيئهم لما استوحش قائلًا، فَلَا تَفْضَحُونِ، فانما عرفهم بعد ما خرجوا ام عنده ثم العذاب، فى له من موقف حرج مرج امام هو: المرسلين قبل ان يعرفهم، فهو فى حيرة بين واجبه لضيغه وضعفه عن حمايتهم فى وجه قومه المجرمين، فجاءه التوكيد بعد

توكيد يطمئنه بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ.

و بِالْحَقِّ، هنا الوعد الحق على قومه، ثم امر الإسراء، وطبعاً بعد ان عرفهم:
فَأَسْرٍ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أذْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ
تُورُونَ (٦٥) وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوَ لَاءٍ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦).
السرى - كما فصلناها فى الأسرى - هو سير الليل، ثم «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» يُوَدِّد ليله ام ويعنى
أليل الليل وأظلمه، «قطع من الليل، من أواخره حيث العيون نائمة، والأجواء ناعمة ملائمة.
وَ اتَّبِعْ أذْبَارَهُمْ، سرا فى مَوْرُهُم أجمعين، لكيلا يبقى احد منهم إلا سائراً، او يتلصقاً تلقنا الى
ارض الوطن لحاجة وسواها، فتفلتتا عن موكب الخلاص، ام تفاقلا عن السرعة اللازمة، بل: وَ
لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ، الى الوراء نظراً فضلاً عن وقفة، او رجعة، إِلَّا امْرَأَتَكَ، (١١: ٨١) حيث
المنظر المنتظر عاجل هائل قد يبعث لقطع الحراك، ام لفتور عن العراك و امضوا، فى ذلك
السرى ليلاً «حَيْثُ تُورُونَ»، فان أمامكم هدى ربانى، مهما كان إمامهم لوط أم رسل الوحي.
هذا ولذلك الموكب الناجى بشرى القضاء على المجرمين، نجاتهم أولاء أجمعين: وَ قَضَيْنَا
إِلَيْهِ، لوط، و حيا صارما مقضيا لا قبل له «ذَلِكَ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ وَهُوَ: أَنَّ دَابِرَ هُوَ لَاءٍ،
المجرمين «مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ» ... وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ
مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ، (١١: ٨١) (فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ، (٦: ٤٥).

و قطع دابرهم لا يعنى - فقط - قطع حياتهم عن بكرتهم، بل وكل ما دبروه وادبروه من
حاجيات الحياة، حيث «جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَ آمَطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ» (١١:
٨٢) فما أبقى ذلك الأمر لهم كيانا ولا كائنا إِلَّا دَمْر.

نرى السياق يقدم ذلك المساق لعظمه، بارعا للمؤمنين وقارعا للكافرين، ولكى لا يفاجأ
القارئ بما يفجع من الحالة الهائلة لآل لوط لما جاء اهل المدينة الى ضيفه يهرعون:

وَ جَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧):

«وَ جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ...»

(١١: ٧٨): يساقون بعنف وتخويف حيث هم سيقه الشيطان، وهم «يستبشرون، بما تسامعوا

من الضيف الواردين يستبشرون، بالعثور على شبان بمختلف الجمال الرائع فهم إليهم هارعون.

فاجعة فاجئة بشعة منقطعة النظر في تاريخ الحيوانات والشهوات الشاذة، المريضة العريضة، اهل مدينة يهرعون مستبشرين الى بيت النبوة السامية ليرتكبوا ابشع الجرائم اللأإنسانية بحق ضيف النبي الكريم، لا يكاد يتصور لو لا وقوعه!
فحتى لو كانت هذه العملية طبيعية او شرعية، يختجل الإنسان ان يأتي بها جهارا، وهوّاء النحسون النجسون يتجمعون للحصول عليها جهارا وهي ابشع الشذوذات الجنسية المتخلفة، حالة من الارتكاس والحماة الحيوانية عديمة النظر، هم يتلمظون عليها، هارعين مستبشرين إليها!.

و ترى «أهل المدينة» هم كلهم رجالا ونساء وأطفالا؟ طبعاً لا! إلا رجالا يأتون الذكران. و هم كلهم ام جلهم لحد يعبر عنهم ب «أهل المدينة» دون «من أهل المدينة».
فما هو دور لوط في هذه الجيئة الفجيعة، وليست له قوة ظاهرة قاهرة مدافعة؟:
قال إن هوّاء ضيفي فلا تفضحون (٦٨) و اتقوا الله و لا تحزون (٦٩).
قال يا قوم هوّاء بناتي هنّ أطهر لكم فاتقوا الله و لا تحزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد، (١١: ٧٨).

هنا يستحث لوط حسهم الإنساني، ويستثير رواسب المروءة والحياء إن هوّاء ضيفي فلا تفضحون، فللضيف حق تجب رعايته على أية حال، وللمضيف حق وجاه ضيفه ألسا يفضح ولا يخزي، فحتى لو كانت هذه العملية النكراء مباحة، فالتهجّم على بيتي وحمل ضيفي على ما يكرهون محرمة في شرعة الانسانية، وكيف يأمرهم بتقوى الله وهم كافرون بالله؟ علّه لجوء ٢١٨ الى اقل قليل من معتقدهم بالله، انه الله مهما كان له شركاء، وهذه العملية محرمة في شرعة الله وفي شرعة الناس، فلا اقل من انكم من الناس، لكم ما لسائر الناس من عطف انساني وسنة متبعة عند الناس، ولا اقل انكم تعترفون بالله الذي حرم هذه العملية النكراء «فلا تفضحون. و اتقوا الله و لا تحزون! قالوا أ و لم ننهك عن العالمين (٧٠).
قالوا .. وهم يوبون لوطا بدل ان يتأنبوا، كأنما هو الجاني إذ خالف مناهيهم ومنها عن

العالمين، فالواو هنا تعطف الى محذوف من قبيل المذكور: الم نهك عن الأمر والنهي فينا، و عن التطهر بيننا وعن. «أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ» الذين نرغب فيهم ضيوفا لك وسواهم ان تمنعنا عنهم، ونهيناك ان تضيف أحدا من العالمين حتى لا نهرع إليهم عندك، إذا فأنت السبب في هذه الهجمة الجماهيرية إذ هيأت لها جوها، فأنت أنت المقصر فى هذا البين ونحن الواصلون هنا الى بغيتنا!

قالَ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١).

«بناتى، طبعا هن من صلبه، دون تجوز فى التعبير ان يريد بنات المدينة كلهن، او الخليات من الأزواج، وتأكيذا للحقيقة قولهم «لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ» (١١: ٧٩) فإنهم لم يكونوا ليوّنوا ان اهل المدينة ولده تنزيلا كما قيل حتى تكون بناتها بناته حسب هذا القيل، إذا فهن بناته صليبا دون ريب.

ثم «إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» تعنى ان كنتم ولا بد فاعلين فعل الجنس فهو اء بناتى وقد خلقهن الله لحظوة الجنس!

و ترى لوط النبى يعرض بناته ليفجر بهن الفجرة؟ عرضا لما هم عنه معرضون! لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِيَّاكَ لَتَعْلَمُنَّ مَا نُرِيدُ، (١١: ٧٩)؟.

كلا! انه عرض يلائم عرض النبوة السامية فى ذلك المسرح المهرج المهرج، فحتى لو كان عرضا للسفاح لكان أهون مما هم يريدون من اللواط ولكنه - بطبيعة الحال - عرض للنكاح: «هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ».. (١١: ٧٨) ولا طهارة فى السفاح فضلا عن كونه أظهر؟، اللهم إيا ان يعنى من «اطهر» هنا ادنى حرمة ودناءة، والتخفيف عن الحرمة هو من واجبات الداعية، وهو يعلم انهم لا يأتون إيا حراما لواط ام سفاحا لا حللا ونكاحا.

ثم إنكاح المسلمة للكافر وان كان محرما فى شرعة الإسلام، ولكنه كان محللا قبلها، بل وفى بداية الإسلام قبل الهجرة وقد زوج النبى ﷺ من أبى العاص بن الربيع وهو كافر قبل الهجرة!، ثم حرم بآية البقرة «وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا»، وقد تلمح له آية الممتحنة «وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ» (١٠) بالاولوية القطعية فى تزويج المونة بالكافر.

و حتى لو كان محرما فى شرعة ابراهيم - ولوط من أمته - لكان نكاحا محرما تكليفيا لا

وضعيًا وهو ادنى حرمة من السفاح، كما السفاح ادنى من اللواط، وفي دوران الأمر بين محظورين يُوذُذُ باخفهما، ولا ريب ان بناته ام سائر البنات المَوُونَات هن أخف حرمة على أية حال من اللواط^١ ومما يلمح له عرض البنات للذين يريدون اللواط حلية إتيان النساء من أدبارهن ولا ناسخ لها في^٢ القرآن والسنة ليست لتنسخ القرآن، ولا فرق بين حكم القرآن صراحة اسلاميا، ام نقلا عن شرايع سابقة، في عدم تقبل النسخ، إلا أن ينسخه القرآن نفسه، ولا نسخ لجواز إتيان النساء من أعجازهن، وقد نسخت حلية التناكح بين المَوُونَة والكافر، فأية لوط - إذا - منسوخة من هذه الجهة، كما نسخت حلية التناكح بين مَوُون و مشركة، فأية امرأة نوح وامرأة لوط منسوخة من هذه الجهة.

و على اية حال انه هتاف للفطرة الانسانية مهما كانت دخيلة غير سليمة لعلها تستيقظ في هذا العرض لعرض النبوة السامية.

و لكننا القوم المرضى هم غارقون في سعارهم وشعارهم المتهتك اللعين، ولحد القول:
لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢).

فهم لا يفيقون ولا يسمعون هواتف الفطرة، وعواطف الانسانية، والشرعة الإلهية، لا وحتى الفطرة الحيوانية السليمة، دائبون في سكرتهم، غارقون في سعرتهم، يعمهون، تشبيها للمتلدد في غمرات الغي، بالمتردد في غمرات السكر، حيث يترددون في غيهم، ويتسكعون في ضلالهم!

لعمرك، هنا قسما بحياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يخصصه في سائر القرآن دون سائر النبيين^٣ فهو فضيلة له خاصة لا يدانيه فيها ولا يساميه احد من العالمين، ولا نجد قسما إلهيا في القرآن بهذه الدرجة السامية إلا «و ربك، فانها فوقه بغير حساب.

لعمرك، وأنت في أعلى عليين، انهم، وهم في أسفل سافلين لَفِي سَكْرَتِهِمْ، بسعار حيواني،

^١ تفصيله الى سورة هود فلا نعيد

^٢ راجع آية الحرث في البقرة حيث رجحنا فيها الحرمة.

^٣ الدر المنثور ٤: ١٠٢ اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ما حلف الله بحياة احد الا بحياة محمد قال: لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون و حياتك يا محمد!

وثورة جنسية متخلفة في أسفل دركات البهيمية «يعمهون»: يترددون حائرين مائرين.
وقد يعنى العمر فتحا ما هو أوسع من العمر ضما، انه حياته صلى الله عليه وآله فى كافة النشآت
وليس لها انقطاع، فانه ممن شاء الله ألا يصعق فى الصعقة العامة: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ
مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» (٣٩: ٦٨).

أ ترى بعد انه خطاب للوط عليه السلام ولم يخاطب إمامه ابراهيم عليه السلام هكذا ولا إمامهما محمد
صلى الله عليه وآله! فلعمره صلى الله عليه وآله إنه ليس «لعمرك»، إلا له، حيث الخطابات القرآنية هى بطبيعة الحال
موجهة إلى الرسول صلى الله عليه وآله إلا بقرينه قاطعة هى هنا فاقدة، بل ولا لمحة هنا لخطاب غيره،
فلم يقل «قالوا» حتى يكون الخطاب من الملائكة وهو بطبيعة الحال فى هذا المجال للوط
عليه السلام وانما «لعمرك» دون «قال» أو «قالوا».

وقد بدأت الإنبئات موجهة إليه صلى الله عليه وآله من ذى قبل «تَبَّى عِبَادِي ...» وَتَبَّتْهُمْ ... وكل ما
هنالك فيما بعد هى مواد الإنبئات للرسول صلى الله عليه وآله والى قوله تعالى «لعمرك» فأين لوط
ومن فوق لوط فى ذلك المسرح مخاطبا ب «لعمرك»!؟.

وما يصنع لوط بهوًا السكارى العمهين «قالَ لَوْ أَن لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ.
قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ بِهِ لَكَ ... فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا
سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ. مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ
بَبَعِيدٍ» (٨٣: ١١): فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤).

«فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ» بعد ما أسرى باهله بقطع من الليل «مشرقين» داخلين هوًا الحماقى فى
شروق الشمس، وآل لوط عنهم بعيدون لا يرون العذاب ولا يحسونه!
فهناك «الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ» عذابا فى البداية «فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا» تدميرا كاملا عن بكرتها،
فما أبت الصيحة عاليا إلا أسفله، ثم «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ» - فهل ترى لهم من
باقية؟.

وهذه الصيحة نموذجة يسيرة من صيحة الإماتة فى قيامة التدمير، تجعل عالى المدينة
سافلها، ولكى لا تبقى منهم باقية «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ» وكما فى اصحاب الفيل

واضرابهم من اهل السجيل.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥).

الوسم هو التأثير، والسمة هي الأثر، ف «المتوسمين» هم المتأثرون بتأثير، الناظرون المتفكرون المعبرون، والمتفكرون المتبصرون فأول المتوسمين رسول الله صلى الله عليه وآله ثم امير المؤمنين عليه السلام من بعده ثم الحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين عليهم السلام الى يوم القيامة...^٢.

و التوسم فرع الإيمان والتقوى، فهو درجات كما الايمان درجات ولحد القمة المحمدية

^١ الدر المنثور ٤: ١٠٣- اخرج البخاري في تاريخه و الترمذي و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن السنن و ابو نعيم معا في الطب و ابن مردويه و الخطيب عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ» قال: المتفرسين وفيه اخرج الحكيم الترمذي و البزار و ابن السنن و ابو نعيم عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ان لله عبدا يعرفون الناس بالتوسم. وفي نور الثقلين ٣: ٢٤ عن بصائر الدرجات عن أبي جعفر عليه السلام قال: ليس مخلوق الا و بين عينيه مكتوب مؤن او كافر و ذلك محجوب عنكم و ليس محجوبا عن الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله ثم ليس يدخل عليهم احد الا عرفوه مؤن او كافر ثم تلا هذه الآية: ان في ذلك لآيات للمتوسمين. و رواه مثله عن أبي عبد الله عليه السلام: و في آخر عنه عليه السلام قال: نحن المتوسمون و السبيل فينا مقيم.

^٢ نور الثقلين ٣: ٢٤ عن عيون اخبار الرضا عليه السلام بسند عن الحسن بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون يوما و عنده علي بن موسى الرضا عليه السلام و قد اجتمع الفقهاء و اهل الكلام من الفرق المختلفة فسأله بعضهم فقال: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله باي شيء تصح الامامة لمديها؟ قال: بالنص و الدليل، قال له: فدلالة الامام فيما هي؟ قال: في العلم و استجابة الدعوة، قال: فما وجه اخباركم مما يكون؟ قال: ذلك بعهد معهود لبنا من رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فما وجه اخباركم مما في قلوب الناس؟ قال له: اما بلغك قول رسول الله صلى الله عليه وآله: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله على قدر ايمانه و مبلغ استبصاره و علمه، و قد جمع الله للأئمة مناهج فرقه في جميع المؤمنين و قل عز و جل في كتابه العزيز: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ» فأول المتوسمين رسول الله صلى الله عليه وآله ثم... قال: فنظر اليه المأمون فقال له يا أبا الحسن زدنا مما جعل الله لكم اهل البيت، فقال الرضا عليه السلام ان الله تعالى قد أيدنا بروح منه مقدسة مطهرة، ليست بملك، لم تكن مع احد ممن مضى الا مع رسول الله صلى الله عليه وآله و هي مع الأئمة عليهم السلام تسددهم و توفقهم و هو عمود من نور بيننا و بين الله تعالى. وفيه عن معاني الاخبار للصدوق- الهلالي امير المدينة يقول: سألت جعفر بن محمد فقلت له: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله في نفسي مسألة أريد ان أسألك عنها قال: ان شئت أخبرتك بمسألتك قبل ان تسألني و ان شئت فاسأل- قال فقلت له: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله و باي شيء تعرف ما في نفسي قبل سؤلي عنه؟ قال: بالتوسم و التفرس اما سمعت قول الله عز و جل: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ» و قول رسول الله صلى الله عليه وآله: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله.

وفيه عن تفسير العياشي عن جابر بن يزيد الجعفي قال قال ابو جعفر عليه السلام بينما امير المؤمنين عليه السلام جالس بمسجد الكوفة قد احتبى بسيفه و القى برنسه وراء ظهره إذ أتته امرأت مستعدية على زوجها ففضى للزوج على المرأة فغضبت فقالت: لا و الله ما هو كما قضيت، لا و الله ما تقضي و لا تعدل بالرعية، و لا قضيتك عند الله بالمرضية قال: فنظر إليها امير المؤمنين عليه السلام فقام لها ثم قال لها: كذبت يا جرية يا بذيئة، أيا سلسلع أيا سلفع، أيا التي تحيض من حيث لا تحيض النساء، قال: فقلت هاربة و هي تولول و تقول: يا ويلي ويلي ويلي ثلثا، قال فلحقها عمرو بن حريث فقال لها: يا أمة الله أسألك، فقالت: ما للرجال و النساء في الطرقات؟ فقال: انك استقبلت امير المؤمنين عليا بكلام سررتيني به ثم قرعك امير المؤمنين بكلمة فوليت مولولة؟ فقالت: ان ابن أبي طالب و الله استقبلني فأخبرني بما هو كتمته من بعلي منذ ولي عصمتي، لا و الله ما رأيت طمئا من حيث يرينه النساء، قال: فرجع عمرو بن حريث الى امير المؤمنين عليه السلام فقال له يا امير المؤمنين عليه السلام ما نعرفك بالكهانة، فقال له: و ما ذلك يا بن حريث؟ فقال له: يا امير المؤمنين ان هذه المرأة ذكرت انك أخبرتها بما هو فيها و انها لم تر طمئا من حيث تراه النساء؟ فقال له: ويملك يا بن حريث ان الله تبارك و تعالى خلق الأرواح قبل الأبدان بالف عام و ركب الأرواح في الأبدان فكتب بين أعينها كافر و مؤن و ما هي مبتلاة به الى يوم القيامة ثم انزل بذلك قرآنا على محمد صلى الله عليه وآله فقال: ان في ذلك لآيات للمتوسمين، و كان رسول الله صلى الله عليه وآله المتوسم ثم انا من بعده ثم الأوصياء من ذريتي من بعدي، اني لما رأيتها تأملتها فأخبرتها بما هو فيها و لم أكذب.

فالتوسم فى وجه عام هو التفرس للسر من العلىن، ولىس لىعلن لكل احد، وانما لمن ىنظر بنور الله من المتفرسین، فالسىما وسم للمتوسمین كما ىعرف الفقراء غیر السائلین: «تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ إِلَّا حَافًا» (٢: ٢٧٣) وكما ىعرف غیر الموقنین فى لحن القول: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ. وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَ لَعَرَفْتَهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ وَ تَعْرِفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ» (٤٧: ٣٠) كما «وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَيِّمَاهُمْ» (٧: ٤٦) و«سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» (٤٨: ٢٩). فكل من سىما الخىر وسىما الشر لأهلئها بارزة للمتوسمین، وقد ىتفرس المتوسمون دون روة الى سىماهم، وذلك اسمى التوسم لأسمى المتوسمین «وَ إِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُقِيمٍ».

و تلك بصیره لمن ىخرق حجب النور بعد خرقة حجب الظلمات، فلىس جدار الظاهر حاجبا له عن روة الباطن، والتوسمات درجات حسب الدرجات، كما الغفلات دركات حسب الدركات.

ثم ذلك، هنا هو الأمر البعید المدى، عالى الصدى، وهو مثنى البشرى، بشرى الغلام العلىم لإبراهىم، وبشرى العذاب العظىم على قوم لوط المجرمین، آیه لتحقىق الحق، وآیه لإبطال الباطل، وفىها آيات عقلية وفطرية وواقعية، ىتفرسها المتوسمون على قدر أوعىتهم بوعىهم، وواقعية الآيات فى بشرى ابراهىم وبشرى العذاب، واقعة بسبىل مقىم.

وَ إِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦).

ففى إبراهىم نسله المىمون من ولدىه إسماعىل وإسحاق، ولا سىما النسل المحمدى الإسماعىلى، ثم سائر الرسل الابراهىمیین من إسحاق وىعقوب.

فهذه الآیه المباركة منذ إبراهىم مستمرة على مدار الزمن الرسالى، مقىمة بسبىل الرسالات و الى القایم المهدى علیه السلام الذى ىحمل كافة الرسالات وىطبئها فى دولته المباركة العالمية.

وقد ىروى عن أئمة الهدى علیه السلام: «نحن المتوسمون والسبىل فىنا مقىم»^١ و هو السبىل

^١ نور الثقلین ٣: ٢٢ عن اصول الكافى احمد بن مهران عن عبد العظىم بن عبد الله الحسنى عن ابن أبى عمىر قال اخبرنى أسباط بىاع الزطى قال: كنت عند أبى عبد الله علیه السلام فسأله رجل عن قول الله عز و جل: ان فى ذلك لآيات للمتوسمین «و انها لسبىل مقىم» قال: ..

الرسالي مهما لم يكونوا هم من المرسلين، ولا يخرج منا ابدا،^١ إذ لا نبي بعد محمد ولا أئمة بعدهم فالى اين يخرج ذلك السبيل؟ والسبيل طريق الجنة،^٢ إذ لا سبيل إليها إلا دعوة الرسالة والولاية.

و اما الآيات فى قوم لوط، ومنها العلامات الدالات على واقع الواقعة المزمجرة المدمرة، من بقايا الآثار، إنها لسبيل، للعابرين «مقيم» سبيل هو مقيم لم ينمح بعد ولم يعف اثره، فالذين يمرون بين الحجاز والشام يشاهدون تلك الآيات، فان قرى لوط هى فى طريق مطروق بينهما، والسبيل الى الحجاز مقيم ما قام الإسلام، وهى بنفس السبيل.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧).

هناك فى ذلك آيات للمتوسمين، وهنا «آيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ» عله حيث التوسم ظرف للتعرف الى آيات وهو لبالغى الايمان، واما الايمان- فقط- أيا كان، فلاهله «آية»: ان الله «يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ».

و لكننا «المتوسمين» تشمل كافة المؤمنين، لأنهم درجات كما هم، إذا ف «آيات» هى واقع العلامات، و«آية» هى الدالة تبشيرا وإنذارا مهما قلت او كثرت، تعددت ام تفردت.

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩).

«وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبِيعَ كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ» (٥٠: ١٤) «كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» (٢٦: ١٧٨) «فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» (١٩٠)، فأصحاب الأيكة هم من قوم شعيب ف «ان مدين واصحاب الايكة امتان بعث الله إليهما شعيبا»^٣ و الأيكة واحدة الأيك وهو الشجر الملتف بعضه ببعض، إذ كانوا يسكنون فى بقعة كثيفة الأشجار وملتفتها، وقد ذكر مدين فى آيات عشر ولم يذكر اصحاب الايكة إلا فى

^١ المصدر بسند عن أبي عبد الله عليه السلام فى الآية فقال: هم الائمة و انها لسبيل مقيم قال: لا يخرج منا ابدا.

^٢ المصدر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نحن المتوسمون و السبيل فىنا مقيم، و السبيل طريق الجنة.

^٣ الدر المنثور ٤: ١٠٣ اخرج ابن مردويه و ابن عساکر عن ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله ان مدين و اصحاب الايكة ..

اربع دون ان يذكر هنا شعيب إلا هنالك مما يدل على ان المحور الرئيسي لدعوته هم مدین وعلى هامشهم اصحاب الأيكة، ولكلّ عذاب خاص، فأولاء لهم «عذابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ» وهوّاء اخذتهم الصيحة.

و عل «ان، هنا شرطية ام وصلية، إِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ» - «وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ، فسبيلهم كقوم لوط مقيم، فَأَتَتْكُمْ مِنْهُمْ، كما من أولاء، وانهما، معا، لِبِإِمَامٍ مُّبِينٍ، وهو السبيل الممر، فهما فى سبيل واحد بين الشام والمدینة وهذا، امام مبين، ثم إمام فى الاخرى هو كتابهم الذى يَوْمُونه بشمائلهم، وهو رسلهم الذين يعرضون عليهم وعلى كتاباتهم، وهو أئمة الضلال: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ، وكل ذلك مبين فى حقه وباطله، فى أولاه وأخراه. وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠).

الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود قوم صالح، فهم ثمود المذكورون فى القرآن (٢٦) مرة، مما يدل على مدى طغيانهم وعذابهم، فلذلك تتسمى هذه السورة باسم واديهم دون الطغاة الآخرين المذكورين فيها! وكيف هنا وفى اصحاب الأيكة، كذب المرسلين، ولكلّ رسول واحد معروف؟ لأنهم كانوا مكذبين بالرسالة الإلهية عن بكرتها، كانت مع شعيب ام صالح آمن هو، إذا فتكذبيهم برسول واحد تكذيب المرسلين أجمعين، وهناك بين المكذبين من يصدقون رسولا ام رسلا ويكذبون آخرين.

و لان الرسالة الإلهية ذات طبيعة سنة واحدة، فى الحق تصديق بعض وتكذيب بعض لا يساعد حق الرسالة، فالمؤمنون ببعض وهم كفرون بآخرين، فى الحق هم كفرون بالكل، مهما كانوا حسب الظاهر مصدقين بمن يشتهون.

و لكنما الكفر الصراح بأصل الرسالة هو انحسه وأنجسه كما فى اصحاب الايكة واصحاب الحجر، ولذلك يفرد تكذبيهم المرسلين بالذكر، دون المصدقين بعضا.

وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) والإعراض عن آيات الرسالة اعراض عن الرسالة ككل دونما تبغيض، وآياتنا، هنا تعنى خاصة الآيات التى تصلح لهم وتصلحهم دون آيات الرسالات كلها، ام إن آية واحدة لرسالة هى آيات الرسالات كلها، لأنها كلها ذات دلالة واحدة، مهما اختلفت صورها، حيث السيرة واحدة.

وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢).

حيث كانوا يسكنون غيرانا مصطنعة زعما منهم انهم آمنون عن بأس الله ، أ تتركون فى ما هاهنا آمنين. فى جنات و عيون. و زروع و نخل طلغها هضيم. و تنحتون من الجبال بيوتا فارهين، (٢٦: ١٤٩).

فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤).

لمحة لامعة خاطفة، من الأمن فى الغيران الصلبة فى صلب الجبال، الى الصيحة المصبحة المدمرة المزمجرة، دون ان يغنى عنهم ما كانوا يكسبون من حياذ وحائطة .. انها مما تلمس القلوب لمسة عنيفة، وتذكر اصحاب القلوب ان كل شىء لا محالة ذاهب ضائع، فلا وقاية من بأس الله إلا وقاية تقوى الله.

لوط عليه السلام

سورة النمل (٢٧): الآيات ٥٤ الى ٥٨

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨)

عرض خاطف عن لوط وقومه بدء ختم فى معارض الغابرين: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. وَلُوطًا إِذْ قَالَ .. فَصَالِحٌ يَدْعُوا فِى مَفْتَحِ دَعْوَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ حَيْثُ التَّخَلَّفَ الْبَارِزُ فِيهِمْ كَانَ هُوَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَلُوطٌ يَنْهَى عَنِ الْفَاحِشَةِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ هِيَ التَّخَلْفَ الْبَارِزُ فِيهِمْ مَهْمَا كَانُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

فإتيان الرجال شهوة من دون النساء ظاهرة غريبة فى تأريخ الشهوات الجنسية، أن يصبح كقاعدة مطردة بين قوم، بدلا عن إتيان النساء المفطور عليه كل من القبيلين، فقد يشذ الإنسان غير الملتزم بالشرعة الإلهية فى حالات استثنائية ككنكات الجيش التى ليس فيها نساء، أو السجون الطائفة، أم لأمراض نفسية أو ملابسات أخرى وقتية، فيميل الذكور لإتيان

الذكور، وأما ان يشيع ذلك الشذوذ دون أية أسباب أو ملابسات رغم توفر النساء، فهذا هو الحادث الجلل في تاريخ الإنسان، البارز بأشع صورته في قوم لوط المجرمين.

.. أ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ، العملية المنكرة المتجاوزة عن حدها، متجاوزة عن الشهوة الفطرية المتعودة إلى المتخلفة عنها، المنحرفة المنجرفة إلى هواتها البعيدة المدى، العميقة الردى، و متجاوزة عن التستر المتعود في عمل الجنس مهما كانت حلا، إلى أوساط النوادي جهارا بكل إصرار ودون أى إسرار، وهذه كلها معنية من هذه الفاحشة، لأنها المتجاوزة في العصيان المتعود حده.

أ تَأْتُونَ .. وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ، انها فاحشة خلاف الفطرة وخلاف الشرعة الإلهية، وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ، خلفياتها البغيضة الحضيضة خلقيا وجماعيا وإهلاكا للنسل والعائلة وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ، أن أهل نوادي الفاحشة ينظرون إليكم وأنتم تفعلون ما تفعلون، أ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ .. (٢٩: ٢٩)؟، وإتيان الفاحشة بمختلف الإبصار هكذا، وبمسرحة الأبصار، مما يجعلها أفحش الفواحش النكيرة.

فهنا في اللواط المتعود هكذا بين قوم لوط جنبات عدة من الفاحشة، التجاوز عن النساء إلى الرجال، والتعود في ذلك التجاوز كقاعدة مطردة، وإبرازها في ملا النوادي، مما يجعله فاحشة منقطعة النظير، ما سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، مهما لحقهم من لحقهم من انجلترا وسواها الذين سنوا حلها في مجالسهم النيابية! ... بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، أمن الجهل بمدى الفحشاء؟ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ، تطارد جهلهم! بل هو الجهالة أنهم يأتون الفاحشة وهم مبصرون تجاهلا عنها بنزوة الشهوة الطائشة العمياء، ومن جهالتهم الجهلاء الخواء، كخلفية لدعوة صالحة مصلحة من لوط:

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ ٥٦.

و آل لوط، هنا هم لوط نفسه بالرساليين المومنين معه، لا فقط آل النسب أو السبب حيث الأقرب منهم سببا وهي زوجته، فَدَرَّتْهَا مِنَ الْغَابِرِينَ، فلم تكن هي من آله فيما قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ ..، إذ لم تكن ٢٢٨ من، أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ، إذا فهم الأناس المتطهرون، ف آل لوط، هنا هم أهل بيت الرسالة الذين يعيشون جوها، أنسباء كانوا وأقرباء أم بعداء وأغرباء.

و لماذا «أُخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ»؟ ل «إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» تهكما ساخرا بالتطهر من ذلك الرجس البخيس النحيس، فهم يتطلبون جو الحرية الطليقة لهذه الفاحشة المبصرة، دونما أى رادع ولا مانع، فمجرد وجود المتطهرين- وإن لم ينهوا عن هذه العملية- إنه ينغص عيشتهم المتخلفة.

و التطهر تكلف فى الطهارة، فقد يكون صادقا فليكن، أو قد يكون كاذبا ف «اخرجوا...» إذ هم كانوا يرونهم يتكلفون الطهارة عن فاحشة اللواط كاذبين، حيث أصبحت لهم أولاء طبيعة ثانية كأنها هى القاعدة فى حظوة الجنس، إذا فال لوط هم أناس يتطهرون، لا يصلحون للمقام بيننا تكديرا لجو الشهوة الرائجة المائجة فينا.

«فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ، لَا آلَهُ فإِنَّهُمْ أَخَصَّ - كما بيناه- من أهله، حيث يشمل امرأته دون آله إلبا امرأته قَدَرْنَاها، على قدر تخلفها عن بيت الرسالة «مِنَ الْغَابِرِينَ»: الماكثين بعد مضى ما هو معهم من دعوة الحق وشقوة الباطل، دون ان يهتدوا إلى هداهم، فحق عليهم أن يقدروا «مِنَ الْغَابِرِينَ» الماكثين فى عواقب اعمالهم، ومنها هنا «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ» وكما أمطروا فى حياتهم الجهنمية أمطار السوء والبلاء، فقد بدلوا مياه النطف لإحياء النسل، ذريعة لإماتة النسل وإماطة حق العائلة، وكذلك الله بدل مطر الإحياء إلى مطر الإماتة «فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ»!

أ تَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ١٦٥.

«أ تَأْتُونَ الذُّكْرَانَ» تنديد شديد بإتيانهم، و«مِنَ الْعَالَمِينَ» قد تتعلق بالآتين، أنكم أنتم المخصوصون بهذه العملية النكراء بين العالمين: «ما سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ» (٧: ٨٠) وأخرى بالماتيين، فقد تلمح- إذا- «مِنَ الْعَالَمِينَ» دون «الناس العالم الجن، وان قومه منهم كانوا كما الإنس يأتون الذكران منهم، والمعنيان- علهما- معنيان ولكل وجه، مهما كان الثانى أوجه.

و تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦.

و ترى «من» هنا بيانية تبين «ما خَلَقَ لَكُمْ»؟ والصيغة الصالحة لها «أَرْوَاجِكُمْ» أو «المخلوقة لكم»! أم تبعيضية تعنى عضو الجنس من الأزواج؟ وصيغتها السائغة لها «فروج أزواجكم»! إنها قد

تعنيهما بيانا وتبعيضا، والثاني لا يخص القبل، بل والدبر ايضا مهما كان الأصل الصالح هو الأول، ولو كان إتيان أدبارهن محظورا لما اختص التنديد بإتيان الرجال، وأما إذا اختص الرجل إتيان زوجه بدبرها تاركا لآخر ففيه بحث آخر قد نفتى بالتحريم لأنه خلاف مصلحة الولادة الخاصة بإتيان القبل.

و قد تلمح «ربكم» ان قضية الربوبية الخلّاقة، المقتسمة الناس إلى قسمي الرجال والنساء، اختصاص إتيان الجنس بالنساء، وأما الرجال مع الرجال لواطاً أمّا هو، أو النساء مع النساء مساحقةً أمّا هي، فذلك تعد عن طور الخلقة وحكم الفطرة ومصلحة الولادة المقصودة بالزواج «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ» صالح الربوبية، عادون قضيته الفطرة السليمة، عادون الحق المشترك بين الرجولة والأنوثة إلى المجانس.

فالخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط المجرمون هي الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال شهوة من دون النساء: «أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (٢٧: ٥٥) - (.. بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ، (٧: ٨١) (أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ..، (٢٩: ٢٩).

فذلك الإتيان المتخلف جهالة وإسراف وتعد عن طور الفطرة الإنسانية وخلقتها، وقطع لسبيلها التناسلي أو العائلي!

و اما إتيان النساء شهوة قبلًا أو دبرًا أما ذًا؟ فلا محذور فيه لأنهن خلقن للرجال: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» (٢: ٢٢٣) مهما كان أصل الحرث هنا الولادة الحاصلة بالمقاربة العادية، ولكن الأخرى أيضا هي على هامش الحرث، كما التفرج في حرث الزرع هو على هامش الحرث ولكن الأشبه الحرمه.

فقد برأ «ربكم» الذكر للأنثى والأنثى للذكر، وفطر كلا منهما على الميل إلى قسيمه الإنسان تحقيقا للحكمة العالية الربانية في امتداد الحياة الإنسانية من طريق التناسل، فكلما يدفع لتعطيل التناسل كأصل، هو خارج عن أصل الحل، سواء أ كان لواطاً أم مساحقةً، أو عادة سرية، أو إتيان حيوان أو إفراغا للمنى أو استعمال واسطة أمّاهيه من السبل القاطعة للنسل، اللهم إلّا في موارد استثنائية إلّا المنصوص على حرمة إطلاقها كالأربعة الأولى، أم أحيانا

كإفراغ المنى عن الزوجة الدائمة دون رضاها ولا محظور، أو الإفراغ دائما عن القبل، ام إتيانها دبرا كذلك مهما كان برضاها ودون محظور، فانها تخرج بذلك عن كونها حرثا عن بكرتها.

و من المحظور تعقيم الرجل أو المرأة بالوسائل المصطنعة وسواها، إلّا إذا لزم الأمر ترجيحا للأهم على المهم.

فكما ان إتيان الذكور لواط لا يرمى لهدف صالح، ولا يحقق غاية إنسانية، كذلك إتيان النساء النساء، والعادة السرية ككل، وعلى الهامش منع التناسل بأية وسيلة كانت.

و هنا فى «أ تَأْتُونَ .. وَ تَذَرُونَ» لمحّة لامعة لحرمة المذكورات على اختلاف دركاتها، فمبادلة ترك الزوجة بإتيان غيرها محظور، مهما كان المذكور هنا اللواط لشدة المحظور.

و فى إهلاكهم لفعاليتهم لمحّة إلى عذابهم المستحق بها وهو القتل كما هو الثابت فى باب الحدود، وما كان جوابهم عن ذلك التنديد الشديد القرين ببيان الحكمة إلّا أن:

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرُجِينَ ١٦٧.

إخراجا من قرية الدعوة بكل إخراج، دون عودة إلا بانتهاء الدعوة:

«فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» (٢٧: ٥٦)، ويتبين هنا ان آل لوط - وهم لوط والمؤمنون به أقارب وأغارب - كانوا يشاركونه فى الدعوة، وكما لمحت لها «مِنَ الْمَخْرُجِينَ» دون «مخرجا» تهديدا لاستئصال جذور الدعوة عن القرية بأصلها وفصلها، ثم الجواب:

قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ١٦٨.

مقالة تظهر البراءة القاطعة عما كانوا يعملون، أ براءة فى القلب حيث هدّد بالإخراج؟ لو كانت هكذا لما «قالَ إِنِّي ..!» بل هى استمرارية لقالة النهى والتنديد، ثم استنصار من الله تعالى:

رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩.

و «اهلى» هنا ليسوا هم - فقط - أقاربه وأنسابه بل هم الأهلون للنجاه من المؤمنين معه، أقارب وأغارب، ولذلك لم يستثن عجوزه فى الغابرين! وليس «فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ

المُسْلِمِينَ، (٥١: ٣٦) لتدل على أهلية النسب والسبب فحسب، حيث الحالة الكارثة في القرية التي كانت تعمل الخبائث تقتضى جمعية المسلمين معه فى بيت واحد وهم قلة قليلة، ثم عجزوا البيت ما كانت من المسلمين.

نَجِّنِي وَأَهْلِي، من مسئوليات وخلفيات ما يَعْمَلُونَ، أداء لواجب الدعوة دون تساهل و تغافل، ونجاة من أن يمسوا أهلى بسوء ما يعملون، فإنهم هارعون إليه دونما تمييز كما هرعوا إلى ضيفه المكرمين زعما منهم أنهم غلمان، ونجاة من ان يشملهم عذابهم بينهم فَتَجَنَّبْنَا وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ١٧٠.

نجينا... من ثلوث العذاب، وقد صرح بثالث ثلاثة وهو استئصالهم عن بكرتهم و:

إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخِرِينَ ١٧٢.

دليل على أن النجاة ليست فقط عن التدمير، بل وعن كلما كان يخاف منهم، وعجوزاهى امرأته المتخلفة عن شرعته وهده، والغابر هو الماكت بعد مضى ما هو معه، وكانت هذه العجوز ماكتة فى كفرها بعد مضى ما معها من الدعوة الرسالية.

ف الغابرين، هنا هم الماضون فى كفرهم دون رجوع:

فَاتَجَنَّبْنَا وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ، (٢٧: ٥٨) لأنها- رغم كونها امرأة لوط-

كانت من الغابرين رغم ملاصقة الدعوة طيلة حياة الزوجية.

و ترى كيف دَمَّرْنَا الْآخِرِينَ، وهم غير أهله أجمعين وفيهم نساء لسن يقترفن ما اقترف الرجال، وأطفال من القبليين غير مكلفين؟.

النساء البرينات من هذه الوصمة ما كن البرينات من الإدمان على الشرك والتكذيب بالرسالة، فليشملهن مطر العذاب، وأما الأطفال فليس تدميرهم مع الكبار- إن دمروا- عذابا وكما سائر العذاب استئصالا وتدميرا، الشاملة للمذنبين والبريئين.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ١٧٣.

إنه مطر سوء وليس مطر الماء الخير، لأنهم منذرون ومتصلبون على

الكفر: فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ، (١٥: ٧٤).

ج سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٧٦ الى ١٩١ ج

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١٧٩) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأُولَى (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَ إِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)

تأتى «أصحابُ الأيكة» فى أربع هذه منها، و«الأيكة» شجر ملتف، وأصحاب الأيكة نسبوا إليها وهى غيضة وريفه من الأشجار كانوا يسكنونها وهى بلدتهم، ورسولهم شعيب فيمن أرسله إليهم من أهل مدين وهم الأصلاء وهواء فروع ف، و إلى مدين أخاهم شعيباً، (٧: ٨٥) إذ كان منهم، وهنا «إذ قال لهم شعيب» دون «أخوهم» إذ لم يكن منهم^١ وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة.

و لقد كانوا مخسرين الناس، يبخسونهم أشياءهم، عاثين فى الأرض إفساداً، فلذلك بزغت الدعوة الإصلاحية من صالح وفقاً لحالتهم البئسة كما هى سنة الرسالات المستمرة. فهنا أوامر ونواهي ثلاث فى ناحية هذه الدعوة المصلحة، بعد ان طمأنهم برسالته الأمانة: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ١٨١.

فالكيل بين واف وطفيف وزائد، إيفاءه واجب، وطفيفه محرم، وزائده راجح، وهنا أمر بواجب الإيفاء ونهى عن محرم التطفيف والإخسار، ولأن الكيل يخص المكيل فامر ثان يخص الموزون:

وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ١٨٢.

^١ تفسير الفخر الرازي ٢٤: ١٦٣ و فى الحديث ان شعيبا أبا مدين أرسل إليهم و إلى اصحاب الأيكة.

و هو الميزان أيا كان، واستقامته هو اعتداله فى الوزن، وقد يكون القسطاس مستقيما والوزن غير مستقيم، فليكن «المستقيم» وصفا لكلا الوزن والقسطاس، ثم ونهى يحلّق على كل إفسار وبخس كيلا أو وزنا أم أيا كان فى المعاملات الجماعية اقتصادية وثقافية و سياسية وأخلاقية أمأهيه:

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۗ ۱۸۳.

و البخس هو النقص، وأشياءهم، تعم كل أشياءهم فى مخمس النواميس وملحقاتها: نفسا ودينا وعقلا ومالا وعرضا، فالبخس إياها محرم، وتركها تخرم أيضا محرم، ومحاولة التعاون فى كمالها راجحة أم واجبة، فإفسار الكيل واعوجاج القسطاس وبخس أشياء الناس إفساد، والعبث فى الأرض إفسادا وهو السعى فيه إفساد على إفساد، فى أية ناحية من واجب الصلاح والإصلاح من النواميس الخمس.

فالإفساد الاقتصادي له دور هام بين سائر الإفساد، ينهى عنه كما ينهى عنها فى سائر الشرائع الإلهية، إصلاحا للحالة المعيشية التى تلعب دورا عظيما فى صالح الناس، وإبعادهم عن شر النسناس الخناس.

و أخيرا يستجيش شعيب مشاعر التقوى فى نفوسهم كما بدأ، تذكيرا لهم بخالق الخلق أجمعين:

وَأَنْتُمْ الَّذِينَ خَلَقْتُمْ وَ الْجِبَلَةَ الْأُولِينَ ۗ ۱۸۴.

«الجبل»، هى الخليفة المجبولة المطبوعة بطابع الفطرة التى فطر الناس عليها، فهى كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، فمهما تحرك من الإنسان أى من أشياءه عقلا وعلما وجسما، فالفطرة الإنسانية ثابتة كحجة بالغة لا تزول.

فالمؤمنون من الأولين كانوا يتقون، والمتخلفون منهم عن شرعة الله هم المتخلفون عن جبلتهم فلما ذا فقوا آثارهم، فأنتم على آثارهم تهرعون؟! قالوا إئما أنت من المسحجرين ۱۸۵
وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۗ ۱۸۶.

صيغة مطردة مكرورة بين المكذبين برسالات الله، كأنهم تواصلوا به! شيطنة مدروسة مدسوسة بينهم كشریطة تدار على أسمع الدعاء إلى الله.

و لا فحسب التكذيب، بل والتحدى بأن يأتوا بعذاب الله إن كانوا صادقين:

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٨٧ قَالَ رَبِّيَ أَغْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨٨.
«رَبِّيَ أَغْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ، فلست أنا ولا أنتم، وهو أقدر أن يأتيكم بعذاب، وما أنا إلا رسول لا أقترح على ربي أصل العذاب ولا كمه ولا كيفه، إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، (٤٦: ٢٣).

فحتى إن لم يأتكم عذاب لم يدل ذلك على كذبي في رسالتي، فانها رسالة وليست ألوهية تقتضى القدرة على إتيان العذاب، ولا وكالة عن الرب أو نيابة تستدعى استجلاب العذاب.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٨٩.
هنا عذاب يوم الظلة ولمدین الصيحة: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثمين، (١١: ٩٤).

إذا فيوم الظلة هي غير يوم الصيحة كما أن اصحاب الأيكة هم غير أهل مدين مهما كانت الرسالة إليهم واحدة فما هي - إذا - الظلة؟.

يقال هي السحابة المظلة عليهم المظلة، وهم يحسبونها مظلة حيث أخذهم حرّ خانق حانق يكتم الأنفاس ويثقل الصدور، ثم تراءت لهم هذه السحابة الظلة فاستظلوا بها فوجدوا لها بردا، فإذا هي تمطر عليهم نارا، أم صاعقة مجلجلة تفرعهم فدمرتهم تدميرا، وعلى أية حال ليس هنا في النص إلا «يَوْمِ الظُّلَّةِ»، ولا بد انها ظلة سماوية كما «تَنقَنَّا الْجِبِلَّ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، (٧: ١٧١) ولكنها ظلة تدمير وذلة وإِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، توحى بانه كان شعبة من عذاب الجحيم^٢.

^١ نور الثقلين ٤: ٦٤ عن تفسير القمي «عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ» قال: يوم حر و كاتم.

^٢ المصدر في «يَوْمِ الظُّلَّةِ» بلغنا و الله اعلم انه أصابهم حرّ و هم في بيوتهم فخرجوا يلتمسون الروح من قبل السحابة التي بعث الله عز و جل فيها العذاب فلما غشيهم اخذتهم الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين و هم قوم شعيب.

^٣ في الدر المنثور ٥: ٩٣ عن ابن عباس في تفسير يوم الظلة: أرسل الله عليهم سموما من جهنم فأطاف بهم سبعة ايام حتى أنضجهم الحر فحميت بيوتهم و غلت مياههم في الآبار و العيون فخرجوا من منازلهم و محلثهم هاربين و السموم معهم فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤهم فتعشيتهم حتى تقلقت في جماجم و سلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم ثم انشأت لهم ظلة كالسحابة ١. نور الثقلين ٢: ٥١ في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى محمد بن الفضيل عن

ذلك شطر من قصص الرسل والمرسل إليهم، السبعة، وما واجهوهم من التكذيب، وقبلها كلها تلك آيات الكتاب المبين.

شعيب (ع) في رسالته

السوداء فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلمها حتى إذا كانوا تحتها جميعا أطبقت عليهم فهلكوا ونجى الله شعيبا والذين آمنوا معه.

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَ طَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ أَلْمَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَ قَالَ أَلْمَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَ هُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ

أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام حديث طويل يقول في آخره: و ان الأنبياء بعثوا خاصة و عامة، أما شعيب فإنه أرسل إلى مدين و هي لا تكمل أربعين بيتا.

اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ
 أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)
 تِلْكَ الْقُرَى نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا
 كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ
 إِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
 فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)

هنا آيات تسع تتحدث عن رسالة شعيب وما واجهه به قومه وما نعم الله به منهم فكيف
 آسى على قوم كافرين.

يذكر شعيب في إحدى عشر آية بست سور، وهنا تفصيل أكثر وبيان أوفر لرسالته بيعته
 وملابساته، وشعيب هذا من الرسل الإبراهيميين وقد زوج إحدى ابنته موسى عليه السلام حيث فر
 إلى مدين وبقي معه عشر سنين ثم جئت على قدر يا موسى.
 و الرسالة الشعيبية كانت محصورة في مدين وهي قرية صغيرة يروى أنها لا تكمل أربعين
 بيتا.

و لكنها قد تنافى «و اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ» (٨٧) حيث الأربعين ليست كثيرة لأهل
 قرية، اللهم إلا أن تعنى البيت، القبيلة التي قد تكون من مآت الأفراد.
 ثم في أصحاب الأيكة: كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي
 لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا. وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
 الْعَالَمِينَ. أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ. وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ. وَ لَا تَبْخَسُوا
 النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأُولَى. قَالُوا
 إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَ إِنْ نُنْظِقُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ... قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ
 بِمَا تَعْمَلُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَ
 مَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ، (٢٦: ١٧٦ - ١٩٠).

رسالة محصورة في هذين، محسورة عن سائر القوى، إذ لم تكن تحمل ولاية عزم تحلق
 على كل القرى.

ذلك ولقد بلغ من بالغ دعوته في رسالته أن يقول فيه الرسول صلى الله عليه وآله: «ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يرادهم به...»^١

وهنا بين القريتين مشاركات في دعوته الرسولية هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وترك الإخسار والبخس والإفساد في الأرض، ثم ومفارقات هي هنا: القعود بكل صراط إبعادا، والصد عن سبيل الله، وهناك الأمر بتقوى الله وطاعته، وعدم سؤل أجر على رسالته.

فقد كانت مهمة رسالته هنا وهناك الدعوة إلى توحيد الله، وترك الإفساد اقتصاديا، وترك الإفساد في الأرض في كل أبعاده، وهنا إضافة النهى عن القعود بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله، مما يدل على أن القريتين كانتا مشتركتين في الفساد العقيدى والاقتصادى، مهما اختلفتا في بنود أخرى من التخلفات عن شرعة الله.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥).

«أخاهم شعيباً، مواطنه أم وقرابه، وهذه الدعوة الرسولية هي كسائر الدعوات بازغة بالتوحيد بنفس الصبغة والصبغة السائغة، القاعدة التي يعلم أن منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها، كما أن منها تنبثق كل قواعد السلوك والخلق والتعامل، فلا تستقيم الحياة بحذافيرها إلا بقاعدة وحيدة غير وهيذة هي قاعدة التوحيد الحق بحق التوحيد.

و ترى «قد جاءتكم بينة من ربكم، هي بينة الفطرة والعقلية السليمة على توحيد الله؟ وهي ليست بينات كافية لولا أن تتزود بينات رسالية.

^١ الدر المنثور ٣: ١٠٣ - أخرج ابن أبي حاتم و الحاكم عن ابن إسحاق قال: ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا ذكر شعيباً قال: ذلك.. فلما كذبه و توعده بالرجم و النفي من بلاده و عتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة فبلغني أن رجلاً من أهل مدين يقال له عمرو بن حلهاء لما رآها قال: يا قوم ان شعيباً مرسل فذروا عنكم سميراً و عمران بن شداد إني أرى عينه يا قوم قد طلعت تدعو بصوت على صمانة الواد و انه لا يروى فيه ضحى غد إلا الرقيم يمشي بين أنجاد و سمير و عمران كاهنهم و الرقيم كليهم.

ثم فَأَوْفُوا الْكَيْلَ ... تفرعاً عليها تَوَدُّدُ أنها بينة لهذه الرسالة الشعبية، حيث إن أصل التوحيد وما أشبه من أصول الدين ليست قضيتها المستقيمة اللازمة تقبل الفروع!

فقد يتبين من ملابسات «بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» هذه، أنها بينة خاصة لهذه الرسالة، مهما أجمل عن نوعيتها، كما ولم يتبين من آيات أخرى بشأن شعيب ما هي نوعية بينته الرسولية، وهنا البينة الحاضرة هي الرسالة اللامحة من شعيب نفسه وكما قال رسل المسيح عليه السلام: «رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمَرْسَلُونَ» (٣٦: ١٦) حيث الرسالة الربانية ظاهرة فيهم، باهرة في أقوالهم وأفعالهم.

و لأنهم كانوا متورطين في إفساد اقتصادى وآخر عقيدى بحذافيره، لذلك فرع الأمر بإيفاء الكيل والمناهى اللاحقة له ب «قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ».

فقد كانوا يطففون في المكيال والميزان ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها، فركز التنديد- بعد الدعوة إلى التوحيد- على ذلك الثالث السالوس.

و هنا «أشياءهم» المحلقة على كل أشياءهم، دون «أموالهم»- فقط- تلمح أنهم كانوا يبخسون الناس وينقصون كل أشياءهم وهي النواميس الخمس نفساً وعقلاً وديناً ومالاً وعرضاً، وكما يفسره النصاب التاليان: «وَلَا تَقْعُدُوا ... وَ تَصُدُّونَ ...».

و أما «ذِكْرُكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» فهل يعنى حاضر الإيمان كما تلمح له «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»؟ وهم لما يُونُوا كلهم كما هو صراح تالية الآيات! أم يعنى من آمن منهم؟ ولا يختص التكليف بخيريته بهم!

قد يعنى الإيمان هنا جعل أنفسهم فى أمن من زعزعات تطفيف المكيال وبخس الأشياء والإفساد فى الأرض، فإن حياة الأمن مما يهواه كل الأحياء مؤننين رسميين أم كافرين، أم وتعنى «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بأصل الألوهية مهما كان بإشراك، حيث الإيمان بالله مهما كان بإشراك، من قضاياه إتباعه فيما يرجع إلى أمن الحياة ورغد العيش.

أجل فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ ... إنما يوفى حقه بحاضر الإيمان الموحد بالله وبرسالته، فلأن الخطاب هنا يعم أهل مدين كلهم، وفيهم من آمن رسمياً وفيهم من كفر، فقد تعنى «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» لكل حسب إيمانه، وهو لأقل تقدير لغوية الإيمان الطليق أن يُونُوا أنفسهم من

زعزعات الحياة فيأمنوا.

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ
اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦).

كل صراط، هنا تشمل كل جادة جادة، ظاهرية وباطنية، فصراط الفطرة والعقلية السليمة
وصراط الشرعة الربانية، أم صراط العبور للناس إلى حوائجهم، وكل صراط إلى الحيوية
الإنسانية والإيمانية، كلها معنية من كل صراط، حيث توعدون، سالكيها إيعادا، ومنه الصراط
إلى شعيب بدعوته، ومن جراء ذلك الإيعاد الإبعاد، وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ
تَبْغُونَهَا عِوَجًا، بغى القصد وبغى الظلم، أن تسلكوها وتسلكوا إياها عوجا، أم تتخذوها عوجا
لكم ولمن يسلكونها، واذكروا، أنتم البغات

الطغاة، إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا، في عدة وعدة تتخطفون، فكثركم، ربكم فأصبحتم تتخطفون، فبدلتكم
نعمة الله نعمه وكفرا وأحللتكم أنفسكم وقومكم دار البوار. جهنم تصلونها وبئس القرار، و
انظروا، أنتم ولينظر غيركم، كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ، في الأرض، فاعتبروا بالمفسدين
قبلكم كقوم نوح وعاد وثمود: وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَ زَيْنَ لَهُمْ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ. وَ قَارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ لَقَدْ
جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين. فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ
أرسلنا عليه حاصباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذْتَهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا
وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، (٢٩: ٣٨ - ٤٠) - (أ) وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ
أهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ، (٣٢: ٢٦) .. فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ،
(٤٦: ٢٥) (فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا، (٢٨: ٥٨).

وَ إِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ
بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧).

و هنا طائفة لم يؤمنوا، وهم الملائم المستكبرون، قد حسبوا أنفسهم سادة وقادة، فخيّل إلى
المؤمنين ما يخرجهم عن الاضطراب أمامهم، فأمرُوا وإياهم بالصبر، صبرا للذين آمنوا لكي
يروا وعد الله، وصبرا للذين لم يؤمنوا حتى يروا وعيده، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ

الْحَاكِمِينَ، حكما هنا وآخر في الأخرى، ولكن الطغاة ما صبروا حتى قالوا قولتهم وغالوا
غولتهم الهاتكة الفاتكة:

قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ
لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨).

لقد دعاهم شعيب إلى أفضل خطة وأعد لها وهي آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها
خطوة، وهي نقطة الانتظار لعاقبة الكفر والإيمان هنا قبل الأخرى، تريتا وتعايشا بغير ما أذى
وترك كل لحاله وقاله حتى يأتي مآله، ولكن الطواغيت لا يرضيهم إلّا استئصال الإيمان
والمؤمنين حيث يهددون سلطانهم، ويحددون شهواتهم، إذا فليخرجوا سراعا.

و ترى لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا، تعنى أنهم كلهم كانوا فى ملة الإشراك بحذافيره ومخلفاته البئيسة؟
والأنبياء بريئون من الإشراك أيا كانوا وأيانا!

«ملتنا، إن عنت ملة الإشراك فذلك تخيل منهم أنهم كانوا فى ملتهم إذ كان شعيب فى تقيه لا
يظهر إيمانه، ثم جاراهم فى ذلك التخيل ب «إِنْ عُذْنَا فِي مِلَّتِكُمْ»، ولكن القرآن البيان يحيد
عن تلك المجاراة دون تأشير إلى باطل ظنهم، حيث تخيل أن شعيبا كان فى ملتهم كالذين
آمنوا معه!».

أم هو حقيقة وتعنى «لتعودن، عود المجموع لا الجميع حيث كان شعيب داخل جمعهم، ف
«تعودن، تعنى ذلك المجموع وإن ظل شعيب على إيمانه الذى كان حيث اليد الواحدة لا
تصفق، وهذا استعمال متعود أن ينسب فعل البعض أو تركهم إلى المجموعة، فضلا عن
يكون الفاعل أو التارك كلهم إلّا واحدا منهم، إذا ف «أو لتعودن، صادق تماما فى عود الجميع
إلّا واحد هو شعيب، إذ ليست هنا صيغة تستغرق الكل دونما استثناء، وإنما صيغة الجمع «أو
لتعودن، ويكفيه عود جماعة ودون النصف منهم فضلا عن الكل إلّا واحد منهم.

و لكن يبقى سؤل أن «لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ» نص على دخول شعيب فى
ملتهم حيث «لتعودن، تعنيه معهم لذلك النص؟

بل وشعيب نفسه هو رأس الزاوية فى «لتعودن، لاختصاصه بالذكر قبلهم.

أم تعنى الملة السلطة الزمنية إذ هم خرجوا عنها بسطان التوحيد الجاهر بعد تقاء، وهوّاء

يتطلبون منهم العود في تلك السلطة مهما ظلوا مؤنين أم رجعوا- إلا شعيب- كافرين. وعلى أية حال فلا نص هنا ولا ظاهر أو لمحة أن شعيبا كان في مله الإشراك قبل رسالته، و مجرد الاحتمال الصالح حيث تحتمله الآية، كاف في تنجزه، حيث الاصطفاء والاجتباء بحق الرسل، المذكوران لهم في القرآن، إنه برهان صارم لا مرد له، أنهم يصطفون من جموع الموحدين، فسابقة الإشراك لهم تناحر واصطفاءهم.

إذا ف لتعودن، لا تعود بمزرة على شعيب ما دام احتمال عناية السلطة الزمنية من ملتنا، قائمة، أم والمله الروحية بعود الذين آمنوا معها فيها دونه عليه السلام أم وعوده فيها مجاراة لتخيل أنه كان فيها، ثم وليس القرآن ساكتا عن تزييف ذلك التخيل الزائف الهارف الخارف، لمكان عساكر الآيات الدالات على سابقة الرسل السابغة بخالص الإيمان.

فالمرفوض- إذا- بين المحتملات في لتعودن، أنه عليه السلام كان في مله الإشراك فيطلب منه العود فيها حتى لا يخرجن، وتبقى سائر المحتملات قائمة على سوقها، وكلها صالحة للعناية. ف التَّعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا، الزمنية تقيه، لا تمس من كرامة إيمانه من ذى قبل. وكذلك في ملتنا، زعما منهم أنه كان مشركا كما هم إذ كان في تقيه من دينه، والجو الرسولى في القرآن بيان لمحتد الرسل قبل ابتعائهم أنهم مصطفون، فهو نقض لهذه التخيلاء القاحلة.

وهكذا في ملتنا، واقعا حيث يستثنى شعيب نفسه عن المخاطبين ب لتعودن، فانه جمع يتحمل الاستثناء، مهما لم يتحملة، يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ، فإن شعيبا مستثنى بمحتد الرسالة المعنية بالقرآن عن أن يكون قبلها في مله الإشراك.

ذلك، وذلك التطلب البعيد القاحل لم يكن ليختص بقوم شعيب، بل: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَ لَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدِ، (١٤: ١٤).^١

قال أ وَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ، فأنتم تكرهوننا على العود في تلك المله المشركه زنيا أم روحيا أم

^١ راجع تفسير الفرقان آية ٤١: ٤٥ ج ١٣- ١٤

فيهما معا.

و لو، هنا مجازات تعنى حتى على فرض استحالة كراهيتنا للعود فى ملتكم رغم زعمكم، فلتفرضوا أننا لا نكرهه فتفرضوا علينا تلك العوده، ولكن ماذا إذا كنا كارهين كراهية بساطع البرهان، فقاطع الإيمان، ف لو، هنا تنديد بحتمية ذلك العود.

فالحمل على العود فى مله غير مرضية إبطالا لحرية الانتخاب، الحرية لكل إنسان، إنه حمل يخالف الفطره والعقلية والخيره الإنسانية.

فلو أنكم حملتمونا على ذلك العود ببرهان يقنع لكنا عائدين، ففى عودنا دون أى برهان، و هناك ساطع البراهين تمنعنا عنه، إن فيه افتراء على الله، حيث القضية الرسالية وعلى هامشها القضية الإيمانية إن ذلك العود إنما هو بأمر الله:

قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩).

فهذه فريه وقحة على الله، إن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ، على إيماننا، فإن صفة الإيمان - الصالح غير الكالح - وصفته، تمنعان عن العود إلى اللإيمان، فكما أن قالات الإيمان وحالاته وفعالاته هى من قضايا الإيمان، فعودنا إلى ملتكم - إذا - هو أيضا من قضايا الإيمان وذلك افتراء على الله أنه يأمرنا بذلك العود بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا، فقد نجانا من مله الإشراك زنيا وروحيا فكيف نعود - إذا - فيها، وما يَكُونُ لَنَا، بصفة الإيمان ٢١٨

أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا، لكى يكون العود أيضا بصفة الإيمان، على ضوء مشيئة الله، فها نحن مستسلمون لله خروجا أم عودا.

صحيح أن الله لا يشاء ولن. أن نعود فيها، ولكن مشيئته الطليقة بعد حاكمه حكيمة، فلو شاء لنا الإشراك لأشركنا بأمره وهو - إذا - من التوحيد، كما شاء لنا التوحيد فوحدناه بأمره، فنحن على أية حال تحت أمره وإمرته ورهن إشارته ومشيئته قضية كامل الإيمان و شامله.

و ذلك أدب ولى الله مع الله أنه لا يمشى على هواه وإن كانت فى عدم العوده إلى مله الإشراك، فلذلك يستثنى عدم عودته إليها بمشيئة الله! فلأن قضية الإيمان الصادق بالله

ومشيئة الله هي التوحيد لله وعدم الانخراط في سلك المشركين بالله، وما يكون لنا أن نعود فيها، اللهم إلا أن يشاء الله ربنا، أن نعود فيها، فالعودة- إذا- هي قضية الإيمان بالله، وهي من توحيد الله في طاعته وعبادته، كما الخروج عنها قضية الإيمان، وقضية التسليم السليم لله أن نأتمر بأمر الله خروجاً وعوداً دونما وقفه لنفكر ما هو المغزى هنا وهناك، فإنه- إذا- عبادة العقلية والمصلحية، دون خالص العبودية لله.

أجل وذلك هو رسم العبودية الوحيدة غير الوهيدة ألا يمنع العبد أى مانع منها مهما كان قاطعاً لا حول عنه، ومن أمثاله الأمثال قصة إبراهيم فى ذبح إسماعيل، حيث البراهين كلها معسكرة على حرمة، ولكن أمر الله تعالى يغضى كلها، بارزا وحيدا فى الميدان. ففىما تعلم مصلحة فى أمر من الله أو نهى فاطاعة سهلة، وفىما لا تعلم مصلحة ولا مفسدة، فهى صعبة، وأما فيما تكرر الآيات آفاقية وأنفسية أن فيه مفسدة ولكن الله يأمرك به دون ريبه، فاطاعة صعبة ملتوية، وهنا لك البلية العظيمة التى، الساقطون فيها كثير، والناجحون قليل قليل.

و هنا الجمع بين اسمى الله: «الله ربنا، للتدليل على أن قضية ربوبيته الشاملة التسليم له كما يشاء، ولو شاء الإشراك أم أيا كان من ملء من الملل، أو نحلة من النحل. فألوهيته تقتضى توحيدة، كما هو قضية ربوبيته، فهو الواحد إلها وهو الواحد ربا، فلو شاء أن نشرك به وهو الواحد فى ربوبيته، أو أن ندخل فى ملء الإشراك زمنا تقيه أماهيم من مبرر، لكننا داخلين قضية التسليم الطليق لله ربنا.

فنحن المجاهيل ووسع ربنا كل شىء علماً، فلو يعلم أن فى العود فى ملتكم خيرا فأمرنا به لعدنا، ولكنه لا يعلم فيه خيرا إذ ليس فيه إلا شر: «قُلْ أَتَعَلَّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» (٤٩: ١٦) (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ» (١٣: ٣٣) - «قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» (١٠: ١٨). وعدم علمه بشىء يوازى عدم ذلك الشىء.

و لأن الله لا يشاء أن نعود فى ملتكم ولن، فنحن إذا صامدون فى توحيدة وفى الابتعاد عن ملتكم روحيا وزمنا، فلن ندخل - إذا- فى ملتكم أبدا.

كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا: فلم يعمروا هذه الدار ولم يطل مقامهم فيها، وكأن لم يكن لهم فيها آثار، حيث أخذتهم الرجفة بعمارهم وآثارهم مع أنفسهم البئسة التعيسة، فلقد انطوت صحيفتهم عن صفحة الكون مشبعة بالتبكيك والإخمال، والمفارقة والانفصال. و لعل في كتاب حبقوق النبي عليه السلام الباب الثالث الآية السابعة إشارة إلى رجفة مدين السالفة إضافة إلى المدائن الكسروية بميلاد محمد ﷺ ونصها بالأصل الكلداني كالتالي:

«جاردى دكوشن بركد پردد ارعا دمدين»:

لقد تزعزت الجوادر والخيم فى مدين.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣).

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ، وهم فى قبضة الرجفة، ولما يموتوا، كما فتولّى عَنْهُمْ، بعد أن ماتوا وقال لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، أصلية وفرعية بكل بلاغ بالغ وبيان فائق، ثم «وَنَصَحْتُ لَكُمْ» بعد البلاغ، جمعا للنصح إلى بلاغ الحجّة البالغة، تليينا لما تصلّب منكم، من أدمغة وخراطيم مستكبرة فيكم وهى بعد عليكم، ولم آل جهدا فى إنجاءكم، فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ، ولا يعنى الأسى عليهم - إذا - إلا ما عساه نكران لعدل الله وحكمته، أم نقصان فى بلاغ رسالته!

ذلك، وهذا الخطاب العتاب باستفهام الإنكار، عذاب لهم فوق العذاب، سواء أ كان عند نزول العذاب ولما يموتوا، أم وبعد موتهم، إعلانا ببلاغ الحجّة دون قصور فيها أم تقصير، وإعلاما بأن لا مجال للأسى عليهم فإنهم عامدون عاندون فى النكران، فمستحقون لعذاب الاستئصال.

أ فبعد إبلاغ الرسالة والنصيحة يُوْى على قوم كافرين، ولا يُوْى على المستحق بالعدل و الحكمة الربانية، حيث الأسى - إذا - عساها استرحام على من جرى بحقه حكم الله!

^١ غنى فى مكان: إذا طال مكوثه فيه مستغنيا به عن غيره مكثفيا به.

هنا وقفة للتعقيب على ذلك القصص وأضرابه، كشفا عن خطوات ربانية من قدر الله بالمكذابين بالدين كيف يأخذهم في تقلبهم وتغلبهم بزعمهم وهم غافلون يلعبون أو نائمون. وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ. بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، هما الأفعال من البائسة والضارة، وصفان لمحدوف أفضله الحالة، أو الحياة، ثم البأساء بأس في النفوس قلقا واضطرابا، والضراء ضر في الأبدان والأموال والأولاد، فقد شملتا مضره الروح والجسم فيما تحلقان على كل كيان الإنسان. وهذه الأخذه الربانية هي من مخلفات التكذيب بالنبيين، أخذا بالبأساء البائسة والضراء الضارة الضارعة في أحوال وأموال وبنين لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ، إلى الله تائبين، فلما عتوا وبغوا وبقوا على تكذبيهم حيث لم تذكرهم البأساء والضراء: السيئة، جازيناهم بما تزيدهم سيئة العتو والغفلة الغفوة:

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥).

فهنا «مَكَانَ السَّيِّئَةِ» بأساء وضراء المذكورة «الحسنة» الظاهرة المزمجرة أكثر من السيئة حتى عفوا، ونموا في متطلبات حياة الحيونة المريحة، فظنوا أنهم في رحمة من الله مهما عتوا، ويكأن العتو مرضى لله حتى «قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ: ضر وسرور، فهما يمسننا إذ هما فوضى جزاف لا يعنيان كرامة أو مهانة، فلا علينا أن نستمر في الكفر والكفران، ولأننا قد نكون مكرهين بالحسنة مكان السيئة، فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً، أخذه مزمجرة مدمرة، وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ، موقفهم، ولا يشعرون، خطأهم، ولا يشعرون استحقاقهم ولا يشعرون، نزول العذاب عليهم إلا حين نزل إذ كان مباغتا، وعلى الجملة لا يشعرون، إلا فوضى، فلا يعنى بلاء السيئة ولا جزاء في حسنته وسيئته، بأساء وضراء، والحسنة سراء عبثا أن يأخذ الله عبادا له بشدة في أنفسهم وأرزاقهم وأموالهم، ولا لإرواء غلة ولا شفاء اجنة أم يأخذهم بسراء مرحية مرحية تعطفنا عليهم بل هما بلاء مختلفي الصورة، وإنما لإيقاظ فطرة نائمة وترقيق قلوب طال عليها الأمد ما كانت فيها بقية: فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ. كَلَّا... (٨٩: ١٦).

كما ولا تعنى الحسنه مكان السيئه واليسر مكان العسر والنعمه مكان الشظف، وعلى الجملة العفو الزيادة مكان النقيضه، إنها لا تعنى إلا جزاء وفاقا إن لم يضرّعوا بالبأساء والضراء، فبليه الحسنه أصعب من بليه السيئه، ولذلك ترى أكثر الساقطين فى البليات هم من المنعمين حيث يكثرون ويتشرون، مسهلين العيش، متيسرين الحياه، معذّرين تخلفاتهم أمام الله، فقد تعنى «حتى عفوا» إلى جانب غورهم فى زخرفات الحياه، اعتبارهم أنفسهم معفوين عن المسوّيات، إباحيين فى اللذات والشهوات، عائشين - إذا - اللامبالاه الطليقه، فكل ما يصدر منهم عفو بلا أى تحرج أو مبالاة، فقد عفوا فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم نماء، وعفوا عفوا ولأن العفو تأتى بمعانى: الزيادة والانتقاص لازمه، وبمعنى التجاوز متعدية ب «عن» فطليقه «عفوا» كما هنا قد تعنيها كلّها وفقا لأدب اللفظ وعنايه المعنى، فقد «عفوا» بتلك الحسنات بعد السيئات زياده ونموا فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومحاصيلهم، فعفوا انتقاصا على نقصهم فى نقضهم عهد الله، ثم ازدادوا عفوا حيث عفوا عن سيئاتهم أنفسهم بإباحيه طليقه وكأنها مشروعه مرضيه لله، وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ، قصدا إلى أنهما ليستا جزاء وفاقا لسيئات أو حسنات، إذ لم تكن لآبائنا حالتان مختلفتان تستجران الجزائين هذين المتقابلين، وكذلك الأمر فينا نحن، فذلك جريان طبيعى فى إقبال الدنيا وإدبارها دونما رباط لهما بحسنات أو سيئات، أم إن ذلك فوضى جزاف من الله دون أن تكون الضراء والسراء خلفيه ربانيه للسيئات والحسنات.

أم قد بلغ أمرهم فى بليه الحسنه بعد السيئه أنهم تحسّنوا كآبائهم مستحقين للحسنه بتركهم شرعه الله التى يدعيها الأنبياء! إذ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا، فنحن - إذا - ماشون وفق مشيئه الله، ماضون بأمر الله، اعتبارا للإشراك بالله وترك شرعه الله، إيمانا بالله، فتوحيد وتصديق شرعته - إذا - كفر به!

و احتمال آخر أن قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ، تخصهما بهم دون هوّاء الأولاد، حيث

¹ فقد جاء العفو لكلا النمو و الانتقاص فهم انتقصوا في نموهم و نموا في انتقصهم، يقال: عفى الذيب و الشجر قصد تناول الزيادة و عفت آثارها زالت و عفى عنه أزال ذنبه. إذا ف «عفوا» دون أي متعلق نعم عفو الزيادة و النقيضة و معهما العفو عن ذنوبهم كان ذنوبهم معفوه بما عفوا في نعمهم.

بدلت السيئة لهم بالحسنة، فقد عفوا- إذا- عن أنفسهم إصابة السيئة إن كانت هذه الإصابات قاصدة، رعونة لهم كأنهم يستحقون- فقط- الحسنة، فَأَخَذْنَاَهُمْ بِعُنْتِهِ، هِيَ شَرٌّ أَخَذَهُ، إِذْ قَدْ يُوذُ الظالمون بإخبار مسبق كما فى قوم لوط، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ.. فلأن هُوَء الأُنكاد عمدوا إلى سدّ كل المنافذ حتى لا يسمعوا الحق ولا يروه ولا يفهموه، مهما مستهم البأساء والضراء إيقاظا لفظرهم، وهو الخطوة الأخيرة لاهتدائهم دون اختيار لهم، فلم يزداهم إلّا عتوا ونفورا، فلذلك يستحقون مباغته العذاب، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، جِئْتَهُ الْفَجِيعَةُ إلّا عند ما أخذهم، كما لا يشعرون، رغم ما أشعرتهم الضراء والسراء.

و هكذا تكون الدعوة الربانية أنه ما دامت الإمكانية لبلاغ الحجّة لا يضمن بها، فمن خطوة الحجّة البالغة إلى العظة، وإلى الإنذار بالعاقبة، وإلى إيقاظ الفطرة بمختلف الأساليب، وحده الأخير هو إيقاظها رغم تعنت أصحابها، ومن ثم استئصالهم حين استأصلت لهم كل الطرق لانتباههم، إذ لا خير فيهم إلا ضر وشر للإنسانية.

فعندئذ، فى ساعة الغفلة السادرة، والغفوة الغادرة، والعفوة البادرة تباغتهم العاقبة المضمونة، فَأَخَذْنَاَهُمْ بِعُنْتِهِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ..

و هذه سنة جارية ربانية فى إصلاح المتخلفين خطوة خطوة، حتى إذا خطوا الخطوة الأخيرة فى الأخطاء العامدة، ولم يبق إلى قلوبهم نافذة هدى وتبصرة، استأصلهم الله وأحمد نيرانهم تطهيرا للجو عن هُوء الأرجاس الأُنحاس.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦). وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ، (٥): (٦٦).

صحيح أن بركات السماء والأرض وتوفّر النعم لا تستلزم أهلية المتنعمين بها، فقد ترجع النعمة عليهم نقمة ونعمة، ولكن الإيمان والتقوى لزامهما انفتاح بركات من السماء والأرض، واللّا إيمان والطفى لزامهما انغلاق بركات، وما يرى من بركات لأهل الدركات فهى فى الحق

لهم دركات، حيث تعنى لهم إملاء وإملالا: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ» (٣: ١٧٨).

ذلك، وان الخلفية الطبيعية الربانية للتخلفات عن شرعة الله هي انغلاق بركات من السماء و الأرض ظاهريه وباطنيه هما متعاملان فى فلاح الإنسان وصلاحه، ولكن هنا خطوة ثانية ابتلائية هي «بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا» وهذه الحسنه هي أسوء من السيئه بكثير! و ترى لو، هنا تحيل إيمان أهل القرى وتقواهم، وقضيتها هي إحالة فتح هذه البركات؟ و هذه الإحالة تنافى والمشئئه التشريعيه أن يُوْن أهل القرى ويتقوا!.

إنها إحالة نسبيه بسوء الإختيار، دون ذاتيه أم واقعيه مستغرقة، فهي إخبار عن الواقع المتخلف لأهل القرى بسوء اختيارهم، باستثناء واقعين اثنين هما قلة قليلة أمام مسيرة التاريخ الرسالى:

١ أهل القرى كلها زمن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

٢ أهل كل قرية قدر المستطاع، تعبيدا لطريق المهدي عليه السلام وتصليحا لهم أنفسهم، فحين لا يتمكن المؤمنون أن يحصلوا على جو الإيمان الخالص أو الأكثرى فى كل القرى لأنه أمر صاحب الأمر بما وعد الله، فعليهم - إذا - أن يصلحوا مجتمعاتهم المنزليه وفوقها كما يستطيعون، ولكى تنزل عليهم - كجمع - بركات من السماء والأرض.

ذلك، ولا تنافى المشئئه التشريعيه امتناع واقع مشروع باختيار، وإن كان امتناعا مطبقا، فضلا عن المطلق الذى قد يتحقق باختيار.

و هذا الحكم جمعى وليس شخصا أن كل من آمن واتقى تنزل عليه بركات من السماء والأرض - اللهم إلا بركات معنويه - مهما حكم أحيانا للأشخاص أيضا كما يستحقون. فالإيمان والتقى أول ما يصلحان هو الحياة الدنيا أن تصيح حياة عليا حيث المؤمن دنياه آخره.

ذلك، ولأن زمن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه يحلق الإيمان والتقى على أهل القرى إلّا من شذ، فقد تنزل عليهم بركات من السماء والأرض، كما تخرج له الأرض أفايذ كبدها، ويروى فيما يروى بهذا الشأن - عن الإمام الحسين عليه السلام فى حديثه عن الرجعة: «و لتنزلن

البركة من السماء والأرض حتى أن الشجرة لتضيف بما يريد الله فيها من الثمرة وليؤل ثمرة الشتاء فى الصيف وثمره الصيف فى الشتاء، وذلك قوله: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ...!»^١

أجل وهذه ضابطة ثابتة «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (١٢: ١١) وقد تشمل إلى «ما بقوم، ما بشخص، اللهم إلا أن تمنع طوارئ وملابسات حقوق الأشخاص هنا، ولكن حقوق الجماهير محتومة مختومة بما يغيرون إلى خير فخير، أم إلى شر فشر.

و هنا «آمنوا» ناحية منحة إيجابيات الإيمان علمية وعقيدية وعملية ثم «اتقوا» منحاهما السلبيات علمية وعقيدية وعملية، فهما يحلّقان على كافة الواجبات والمحرمات الأصلية والفرعية، الفردية والجماعية، وكلها اختصاراً واحتصاراً فى كلمة الإخلاص «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

و هنا «لفتحنا» دون «خلقنا» وما أشبه، دليل أن هناك بركات فى السماء والأرض هى مغلقة على أهل القرى بما «كذبوا فَأَخَذْنَاَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

فهنا تعامل بين صالح الأعمال الجماهيرية وطالحها، وبين بركات من السماء والأرض ودركات فى الأولى كما فى الأخرى دون أية فوضى جزاف «وَلَا يُظَلَّمُونَ فِتْيَانًا».

و بما أن صالح الإيمان دليل على حيوية الفطرة الصالحة غير المنخرفة المنخرفة، وصدق فى الإدراك، وتصادق مع حق الواقع والواقع الحق، فهو قوة دافعة تجمع جوانب الحيوية الإنسانية كلها متجهة إلى جهة واحدة، مستمدة من قوة الله الذى لا إله إلا هو، فإنها تحررة صالحة بالغنة، عن عبودية آلهة الأرض إلى عبودية إله السماوات والأرض.

ثم وتقوى الله يقظة واعية داعية إلى ترك المحظورات وفعل المحجورات، صائنة عن الاندفاع والتهور والتشتت والتشطط والغرور، وأوثق العرى كلمة التقوى^٢ عروة يتعلق بها فتنهض من المعثر، وتنجى من المزال والمزالق، فهى الحبل المتين، والمستند النضد الأمين.

لذلك فهما جناحان يطير بهما الإنسان إلى أعلى قمم الكمال الممكن لأى كان، حيث يسير بهما الإنسان إلى مصيرات البركات التى وعدّها الله لأهل الله.

^١ نور الثقلين ٢: ٥٢ فى الخرائج و الجرائح عن الحسين عليه السلام

^٢ المجازات النبوية ص ٨٤

و ترى لماذا هنا «بركات» وهناك «حسنة»؟ حيث الحسنة هي ما تلائم المشتبهات خيرة أم شريرة، فهي بين بركات ودركات، بين نعمة هي رحمة وأخرى هي زحمة ونعمة، ولكن «بركات» هي خليصة الخيرات دون تبدل إلى دركات، نتيجة الإيمان والتقوى، فكل حسنة وسينة ابتلاء، و«بركات من السماء والأرض» هي قضية النجاح في الابتلاء بهما.

ذلك، فمن الخيرات ما هي بليات لمون أو كافر مهما اختلفا فيه سقوطا ونجاحا، ومنها ما هي من خلفيات الإيمان والتقوى، فما هي إذا ابتلاءات، ثم ومن الشرور ما هي ابتلاءات بين الخيرين والشريرين، ومنها ما هي عقوبات لأي منهما مهما اختلفا في حدودها.

فالبركات النازلة على أهل الإيمان والتقوى هي بركات في النفوس والنفائس، بركات في المشاعر وكل طبقات الحياة بأسرها، إخراجا لها عن كل أسر لها يطارد الحصر في الله، بركات تنمي الحياة وترفعها إلى قممها المعنوية منها، فليست مجرد وفرة ظاهرة مع شقوة وترد وانحلال.

أ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨).

هنا «أهل القرى» هي الظالمة غير المؤمنة ولا التقيّة، فهي الكافرة الطغيّة، فلا أمن لهم إذ لا إيمان، «أن يأتيتهم بأسنا بياتاً» بالليل، «وهم نائمون» أو «أن يأتيتهم بأسنا ضحى» وضح النهار، «وهم يلعبون» كالطفولة التي لا تعنى صالح الحياة الإنسانية الواقعية، وإنما تنظر إلى ظاهر لها حاضر: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» (٣٠:٧).

و ذلك هو العذاب المبالغ لمن يستحقونه، بعد ما كلت كل المحاولات لإيقاظهم فلم يزد لهم إلا فرارا.

أ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩).

لقد مكروا الله ومكروا المؤمنين بالله بما مكروا فطروهم وعقولهم فما جزاءهم إلا مكر الله كما مكروا جزاء وفاقا، «فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون» الذين خسروا أنفسهم بما صدوا عليها منافذ الفطر والعقول وسائر الفكر، وكأن الله لا يسطع على مكرهم كما مكروا، أم هم لا يستحقون مكر رغم ما مكروا، أم وليس هناك من إله هو يرصدهم.

أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠).

ألم يهد لهم آيات الله آفاقية وأنفسية، أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ
أَهْلِهَا، الهالكين، أو لم يهد لهم ذلك القصص الحق من مضاجع الغابرين المعروضة لهم فى
صحائف التاريخ الجغرافى.

أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، إصابة شاملة، ولكن الدار هى دار العمل ولا حساب، وغدا
حساب ولا عمل، وإنما نصيبهم بالبعض من ذنوبهم الفاحشة التى لا يتحملها المكلفون، فقد
ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ، (٣٠: ٤١).

أو لم يهد لهم أولاء الوارثين الأرض، بأية ورائة جزئية أم شاملة، سياسية أم اقتصادية أم
روحية أمأهيه، أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، إصابة كاملة كما أصبنا الغابرين.

و ترى مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا، تعنى بعد انقراضهم عن بكرتهم؟ ولا سابقة لذلك ولا لاحقة! فالأرض
لا تعنى كل المعمورة، بل هى أرض الحكم سياسيا وما أشبهه، وَمِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا قد يقصد إلى
أهلها الميتين، أهلها الأهلين المغتصبين، وهذا هو الأكثرية المطلقة من ورائة الأرض.

مثلا على ذلك اغتصاب حق الإمام على عليه السلام المنصوص على خلافته فى مآت من
الأحاديث، ولئن يشك فى غضب خلافته هذه، فغضب فدك دليل باهر لا مرد له على غضب
الخلافة فأين فدك المال من خلافة الأمة!.

و هل كانت المطالبة بفدك، غير المطالبة بالخلافة للإمام على، وهل إن اقتطاع فدك من يد
فاطمة هو غير قطع المدد عن المطالبين بالخلافة، وإثبات الأولوية فى غضب الخلافة من
غضب فدك؟!.

و لقد كانت تعلم فاطمة تمام العلم أن المطالبة بفدك لن تعيد إليها الأرض، ولم تكن لتطلب
أرضا فيها نخيل، إنها كانت تطلب بإرث آخر فيه عزة النفس - فيه أصالة الحق - فيه عنفوان
الرسالة - فيه امتداد أبيها الرسول .. هذا هو الإرث الذى جاءت تنادى به فى ساحة المسجد
من خلال مطالبة فدك.

و سيان أ كانت المطالبة بخطاب مدروس مرتجل، أم- حتى- بخطاب لمحمة التنقيح أو الإقحام، كما يطيب القول للادعاء.

فقد يكفي أن تقود فاطمة قدميها إلى باحة المسجد- أن تقف أمام الخليفة بجبة وخمار، أن ترمي إليه نظرة شزراء- أن تحرك يدا بمعصم نخيل- أن توي- أن تقف لحظة ثم تنسحب كما ينسحب الظل ...

لقد شرحت في الخطاب رسالة أيها- لا فقط لتشرح الرسالة المعروفة في أصلها لدى الحاضرين- بل لتعين مركزها ومركز على من الرسالة، منددة بالخليفة أنه مغتصب ميراثها، فهل يصعب إذا أن يغتصب ميراث الخلافة المنصوصة؟.

أجل «أ و لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا ... وهم غافلون بزهوة ميراث الأرض وزهرة الأرض عما يعنى منهم!.

و لكن الحاضر الذي لا حول عنه من العذاب: «و نَطَّبِعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» سمع القلب، فما لم يسمع القلب لا يتقلب الإنسان من الردى إلى الهدى، مهما سمع بأذنه الكثير، فإنه إذا ليس سمع القبول، فسمع الإنسان سمعان، سمع الأذن وسمع القلب، فما لم تسمع القلوب لم تتجاوز العظام الآذان، فهم من الذين «لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا» سمع الإنسان، وإنما هو سمع الحيوان.

فهنا «نطبع» رفعا دون جزم يفصلها عن جزاء الشرط، فهو خلاف جزاءه في قضية «لو» من الغريب عطفه على جزاء الشرط تلحيقا لحكمه به مع اختلاف الصيغة والصيغة!

إذا ف «نَطَّبِعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» محتوم و«أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» محتوم إلّا ما شاء الله، ثم الطبع والختم والرین والكنان والغشاوة والصد والمنع هي بمعنى في هذه الدركات السبع. ٢٣١

ثم «لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا» تختص بالوارثين المذنبين، و«الأرض» هنا هي مطلق الأرض لا الأرض المطلقة، فقد تعنى أى أرض انقرض أهلها وورثها آخرون مذنبون.

تلك القرى نقص عليك من أنبائها و لقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليو منوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين (١٠١).

تلك القرى، الرسالية المكلفة برسالات الله، على مدار الزمن الرسالي، نقص عليك، قصا

تاريخيا بعضا، من أنبائها، أمام الدعوات الرسالية، وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، رسولية ورسالية، ولكن، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا....

فهنا سلسلة موصولة من الرسل والرسالات بكل البسالات والحصالات، وتقابلها سلسلة من التكذيبات.

و هناك ثلوث من غائلاتهم إذ، ما كانوا لِيُؤْمِنُوا بما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ، وذلك: ١ تكذيب من قبل، ٢ فطبع على قلوبهم ثم ٣ (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا، من بعد، لمكان ذلك الطبع بالطبع امتناعا بالاختيار.

فترى أن، من قبل، هنا تعنى قبل ولادهم فى الذر؟ ولا يعنى الذر فى آيته عالما قبل الولاد، فيه واقع التساءل بين الله وبينهم، إذ لا يذكره أحد حتى من كَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ، فكيف يحتج عليهم ب، بلى، فيه، على، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ...! ولا دور للاحتجاج بما هو منسى طليق لن يذكر.

ثم لم يكن فى الذر منهم ومن كل الناس - أيا كان وكانوا - إلّا، بلى، وهنا، بما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ!.

فحتى ولو كان منهم، لا، فلا يستحقون بمجردة أن يطبع على قلوبهم إلّا إذا أصرروا فى التكذيب يوم التكليف! فقد يكفر مكلف بشرعة الله إذا لما وصله حجتها، أم وصلته ولمّا يفكر فيها، أم فكر وكذب بها عجاله دون إصرار، ولمّا يحن حين الطبع فى هذه الثلاث، اللهم إلّا إذا عاش تكذيبا بعلم وعناد ثم طال الأمد وزالت إمكانية الإيمان، فهنا دور الطبع و كما هو باهر فى آياته.

و هنا، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، تنفى كينونة الإيمان منهم بما كذبوا من قبل فى هذه المرحلة الأخيرة من علم وعناد، فطبع الله على قلوبهم بما كذبوا.

ف، لِيُؤْمِنُوا، حذفاً للناصبة: «أن، تعنى، للإيمان، إذا فما كانوا للإيمان بما كذبوا، إذ خرجوا عن إمكانيةه بما كذبوا لحد طبع الله على قلوبهم.

أم هو، من قبل، ابتعاث الرسل؟ وقد ابتدأت البشرية بابتعاث الرسل، إذ بزغت الرسالات بآدم عليه السلام! ثم لا تكذيب قبل الرسل - لو صح التكليف قبلهم - إذ كانوا ضلالا لا على هدى ولا

على ضلال التكذيب بالرسالات ولما تأت، لو كانت البعثات الرسالة بعد ربح من خلق المكلفين.

ثم وليس كل تكذيب بعد بزوغ الرسالات مما يستحق الطبع على قلوب المكذبين، إنما هو التكذيب العائد العائد المستمر الذى لا مجال فيه للاهتداء.

أم تعنى «من قبل، أنهم عاشوا زمنا للرسل أو الرسالات فكانوا مكذبين بها علما وعنادا فطبع الله على قلوبهم، ثم استمروا فى تكذبيهم بعد هذه العيشة المكذبة النكدة، فما كانوا ليؤمنوا، لوقت ما بعد بما كذبوا من قبل، وكل ذلك كان فى حزن الرسل، أو الرسالات، سواء أ كانوا فى فترة من الرسل والرسالات قائمة، كالذين عاشوا بين آدم وإدريس، وبين إدريس ونوح، أم وبين المسيح ومحمد عليهما السلام - كأطول فترة - : «لَتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، (٣٦: ٦) (لَتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ، (٢٨: ٤٦)

فهم «سواءً عليهم أ أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، (٢: ٦) فالفترة بين الرسل، وفيها فتور لبلاغ رسالاتهم لمكان التحريف والتجديف، إن لها دورا دائرا مائرا فى حصاله العناد اللدود. أم وفى غير الفترة كما بين نوح وإبراهيم وموسى وكما فى آيات يونس: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ. ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ، (١٠: ٧٤ - ٧٥).

«وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، (١٠: ١٣) وآية الأنعام:

«وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرْنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، (٦: ١١٠). فالفترة بين الرسل هى من الظروف القاسية العاصية بطبيعة الحال، لحقل التكذيب بالرسل ورسالاتهم، فإذا جاء بعدها فقد يواجهون من قبل هو الالداء بتكذبيات وتعذبيات.

كما وان لتكذيب الرسل فى زمنهم دور قاس فى ملاحقة التّكذيب، علّه أقسى من دور الفترة، فالعائش زمن الرسل برسالاتهم، هو أنحس نكرانا لهم ولها مبدئيا، مهما كان العائش الفترة بين الرسل هو أنحس منه نكرانا بطبيعة الحال، وهما مشتركان فى قساوة التّكذيب، مهما كان البعض أقسى من الآخر لملايسات أخرى، أم لنفس الدور رسوليا وفترة بين الرسل.

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنِ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢).

ذلك العهد هو عهد الفطرة كأول عهد، ومن ثم عهد العقلية الإنسانية والشرعة الربانية حيث يتلوانه، وأكثرتهم، هنا لا تعنى أكثر المكذبين حيث التّكذيب ولا سيما ذلك الصلب الصلت هو بنفسه ترك لمثلث العهود، فقد تعنى «أكثرهم» أكثر المكلفين، وإن هنا مخففة عن «إن» فقد وجدنا أكثرهم لفاسقين، خروجا عن عهد الفطرة وعهد الشرعة، فالخارج عن عهد الفطرة قبل إتيان الرسل هو خارج عن عهد الشرعة بعد إتيانهم بطبيعة الحال.

ثم وأكثرتهم، قد تعنى كافة الناس فى مثلث الزمان فى وجدان علمى ربانى، وعدم وجدانه تعالى لشيء هو عدم وجود ذلك الشيء، ولا تعنى سلبية العهد أصله، فإنهم يعيشون مثلث العهد، وإنما هو استمرارية ذلك العهد تطبيقا له.

ثم «إِنِ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ» دون «كافرين» لكى يشمل كل تخلفه عن العهد إلحادا أو إشراكا أو كفرا كتابيا، أم فسقا فى كل دركاته.

و قد تعنى «من عهد» استئصال العهد لأكثرهم عن بكرته، مهما كان عهدا معرفيا، أو عقيدا، فضلا عن العملى.

فقد تعنى - إذا - أكثرهم، أكثر المكذبين بآيات الله، فالعهد بين حالات ثلاث، ١ مستغرقة إيجابيا كما للرعى الأعلى من المعصومين عليهم السلام، ٢ ومستغرقة سلبيا كما لأسفل سافلين من المكذبين، ٣ وعوانا بينهما تطبيقا لعهد وتركها لآخر، فقد يوجد مكذبون لما تستأصل عهودهم عن بكرتها فهم قد يؤنون أم - ولأقل تقدير - يتركون التّكذيب، ثم الأكثرية منهم يعيشون ترك عهودهم حتى الموت «وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ».

ففى مثلث العهود بدرجاتها، يسبغ الناس بدرجاتهم، فمن واجد عهد الفطرة دون العقل، أم واجد عهد العقل ناس عهد الفطرة، أم واجد عهد الشرعة دون عهد الفطرة والعقل، أم واجد

لها كلها، أم واجد لاثنين منها، فالواجد لها كلها هو القائم بها مهما كان درجات، والواجد لواحد منها هو أضعف الواجدين، ثم الواجد لاثنين منها هو عوان بينهما، كمن وجد عهد الفطرة والعقل، أو العقل والشرعة، أو الفطرة والشرعة، ثم التارك لها كلها هو المصداق الصادق لـ «ما وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ».

ذلك، ولا يخلو أحد من عهد الفطرة مهما كان خلوا من العقل، كما لا يخلو أحد من المكلفين من عهد الشرعة مهما كان زمن الفترة.

فالصراط الوحيد إلى الله هو مثلث العهد فطريا وعقليا وشرعيا، فإن وسيط العقل بين الفطرة والشرعة هو صالح العقل والفطرة والشرعة.

كما أن الوهيد الوهيد هو ترك ذلك المثلث بأسره ف لم نجد له عهدا، حيث لا منفذ - إذا - له إلى الهدى.

و من ثم نجد راحلة - مهما كانت مائلة ماحلة - في العوان بينهما، فالواجد لبعض منها التارك لبعض قد ينجو وينجح بما هو واجده، فالفطرة تدعوا إلى العقلية الصالحة وصالح الشرعة، كما الشرعة تدعوا إلى الفطرة والعقلية الصالحة، والعقل الصالح يدعو إلى الفطرة و الشرعة. ذلك، والفسق عن الفطرة يخلف الفسق عن العقلية، كما الفسق عن العقلية يفسق عن الشرعة، وهكذا الفسق عن الشرعة يفسق عن الآخرين، وكوجه عام وضابطة، يخلف الفسق عن كل من هذه الثلاث فسقا عن الآخرين.

كما وأن صفاوة كل وحفاوته توّر في الآخرين، فهي تتجاوب - دوما - سلبيًا وإيجابيًا في تعامل دائم.

لذلك نرى آية الفطرة تبناها كأصل للدين، وآيات العقل تجعله كوسيط بين الأنفس والآفاق، والشرعة الربانية تتبنى الفطرة كأصل والعقل وسيطا بين الأصلين.

ذلك، ف من عهد، المستأصلة كل عهد، لا تناسب إلّا المكذبين بآيات الله طول التاريخ، فإن أكثرهم ليس لهم عهد، ولأقلهم عهد هو لأقل تقدير عهد الفطرة أو العقلية الإنسانية، فقد يرجى اهتدائهم يوما ما إلى الحق.

فلا تعنى «أكثرهم» كل المكلفين، ولا المكذبين المطبوع على قلوبهم، حيث الأكثرية من

المكلفين قاصرون أم مقصرون دون تكذيب على علم وعهد، أم ومهما كان عن علم وعمد فليس يطبع على قلوب أكثرهم، بل هم القلة العنيدة العتيدة فى التكذيب.

و لا المطبوع على قلوبهم لأنهم كلهم ليس لهم أى عهد، إنما هم مجموعة المكذبين، فإن أكثرهم ليس لهم عهد.

فسلبية العهد المستغرقة كل عهد تجعلهم كأن لا عهد لهم من أصله، بل هم أدنى ممن لم يخلق له عهد إذ يعارضون كل أحكام الفطرة والعقل والشرعة.

ثم «إِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ» المختوم على قلوبهم «لفاسقين، متخلفين عن هذه العهود الثلاثة إلى أضدادها، ف «إِنْ وَجَدْنَا ..» هى كتفسير ل «ما وجدنا، تثبتنا لأصل العهود الثلاثة لهم، ولكنهم عنها فاسقون متخلفون، ولم يقل «كافرون، لأن كل المكذبين بآيات الله كافرون وإنما الفاسقون، عناية إلى خروجهم عن هذه العهود.

ذلك، وكما أن الشيطانات سبع دركات، كذلك الرحمات سبع درجات، وكما الشيطان الأكبر هو الجامع لثالث: الشيطان - البقر - النمر، كذلك الإنسان الأكبر هو الذى يجمع بين هذه العهود الثلاثة، تاركا لثالث الشيطانات.

ذلك، ومن الآيات المحلقة على كل العهود: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» (٣٦: ٦٠) (وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ، ٢: ٤٠) (وَ مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْنَا اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا، ٤٨: ١٠).

و من الخاصة بعهد الفطرة آيتا الذر والفطرة، ومن عهد الشرعة الأصيلة: «وَ عَاهَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ، ٢: ١٢٥) (وَ لَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا، ٢٠: ١١٥).

و من عهدنا فرعيا ما نعاهد ربنا أو يعاهد بعضنا بعضا: «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ، ١٦: ٩١) (وَ الْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، ٢: ١٧٧).

رسالة شعيب (ع)

يذكر شعيب إحدى عشرة مرة فى أربع سور، وينقص «مدین، عن شعيب مرة واحدة، وفى

هذه العشر أربعة منها خالية عن قصة شعيب أم ذكراه، حيث يذكر فيها موسى باتجاهه إليها. ومهما كانت صيغة الدعوة الأصلية لشعيب صيغتها لمن تقدمه من المرسلين، ولكن الصيغة الفرعية تختلف عنها قضية ملابسات مدين إذ كانوا متورطين فى نقص المكيال وبخس الناس أشياءهم وعثيهم فى الأرض مفسدين.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤).

و ترى كيف إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ، وهم مشركون عقيدا وناقصون فى المكيال والميزان وعاثون فى الأرض مفسدين عمليا؟.

إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ، من العقلية الإنسانية فكيف- إذا- تعبدون من دون الله وتذرون ربكم وراءكم ظهريا، تجاهلا عن العقلية والفترة الإنسانية اللتين تحكمان بتوحيد العبودية كما تحكمان بتوحيد الربوبية.

ثم وَإِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ، شرط إصلاح العقيدة والعملية، كما وَإِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ، قابلية لذلك الإصلاح وفاعلية، فالأول بيان حقيقة واقعية، والثانى حقيقة مشروطة، والثالث تشويق وترغيب أَلَّا تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ ضَلَالٍ، فإنى أراكم بخير فى تقبل الحق المرام.

كما وَإِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ، فى الحالة الاقتصادية ورخص الأثمان فلا حاجة لكم ولا رجاحة فى بخس المكيال والميزان، فالبخس فى المكيال والميزان وأنتم بخير وغنى هو أنحس البخس وأنجسه!.

إذا ف إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ، سناد إلى حجة تقضى على هذا التخلف العقيدى والعملى لهم.

ثم وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ، فى تمردكم عن الخير المرام، وكفركم بما عندكم من خير المال، عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ، هنا استئصالا وفى الأخرى وهى أخوف وأنكى.

و من عذاب يوم محيط هو الثورة القاضية من الناس المبخسين فى أشياءهم، سواء بصورة الشيوعية فى ثورتها القاسية، أم بصورة الإستنصار الإيمانى من هُوء المبخسين، وكما قال الله: «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (٢: ١٩٥) فحين يخلف ترك الإنفاق فى سبيل الله وعدم الإحسان إلى عباد الله،

تهلكة مهلكة، فأحرى أن تبخسوا الناس أشياءهم أن يلقىكم إلى تهلكة هي أهلك منها وأحلك.

و هذا المثلث المعنى من يَوْمٍ مُحِيطٍ، دركات مختلفة في مراحل العذاب، متفقه في حيطه العذاب حيث لا مخلص عنه ولا مناص بأى مخلص أو خلاص، لمكان الكفر المعمد المعمم العريق حيث يخلف عريق الحريق.

و إنما وصف اليوم بالمحيط وعذابه هو المحيط، لأنه يوم القيامة بنفسه وعذابه يحيط مستحقه فإنه كالسياج المضروب بينهم وبين الخلاص من العذاب والإفلات من العقاب.
و يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥).

ثالوث من عمل منحوس كانوا فيه متورطين، ورأس زاويته نقص المكيال والميزان الذى يخلف إفسادا فى الأرض، فإن لإنحراف الإقتصاد عن قسطه دورا عظيما فى سائر الإفساد فى الأرض، ولقسطه قسط عظيم من الإصلاح فى الأرض.

و ترى ما هو موقع الأمر بإيفاء المكيال والميزان بعد النهى عن نقصهما؟

لأن الإيفاء هو الإتياء على سبيل الكمال والتمام، فقد يعنى إعطاء قدر زائد عن الحق حائطة فى هذه الزائدة، وبركة فى المعاملة ودركة عن المخاملة، ولكنها ليست مفروضة حيث المفروض هنا من ذى قبل هو نقص المكيال والميزان، فالعوان بين النقص والإيفاء فى المكيال والميزان هو العوان بين المحذور والمجبور، ولذلك أصبح مسكوتا عنه حيث هو المعروف فى ذلك المضمار ككثير من أضرابه.

و وجه آخر أن هذا الأمر تأكيد لترك المنهى عنه كما فى سائر الأمر والنهى المودين بذلك التكرار فى مختلف الصيغ، كما أمر الله بالسعى إلى صلاة الجمعة ثم نهى عن البيع وقتها، تأكيدا أكيدا للسعى إليها.

و الجمع بينهما هو أجمع وأجمل، تأكيدا لأصل المحذور، وبيانا للمجبور، والعوان بينهما عوان ولكل حكمه.

ذلك، والإيفاء فى الكيل والميزان بزيادتهما عن الحق المرام، وهو معاكسة صالحة للبخس

فى المكىال والمىزان، ىجبر كسره، فهو من أسباب الغفران فىصبح لفره مقدره قدر البفس- من معداء الغفران.

فواجب الإفاء الزىاءه هو جبر للنقص والبفس السابق، وراجه هو المحبور على أىه حال. «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَأَشْيَاءَهُمْ دُونَ أَمْوَالِهِمْ مِمَّا يَشَى بَعْنَايَه كُلَّ أَشْيَاءِهِمُ الْقَابِلَهَ للبفس، وهى كل نواميسهم الحىويه الخمس: نفسا وعقلا ودينا وعرضا ومالا، فالبفس فى هذه الخمس بفس فى الحياه نحس، وإفساء فى أرض الحياه ىلّق على كافه الجنباا.

و العىا والعىا مقاربان إّلا أن العىا أكرا ما ىقال فى الفساء المحسوس، والعىا فى غير المحسوس، وكل ىسعمل فى الآخر قلىلا، وقد ىعنى «لَا تَعْتَوُوا» كلا العىا والعىا، لجواز عنايتهما منه، وأن أشىاء الناس لا ىختص بالمحسوس، كما وأن الإفساء غير مخصوص بالمحسوس، بل وهو أنكى وأشجى من المحسوس، فأىن بفس العقلىه والعقىده من بفس المال.

و هنا «لَا تَعْتَوُوا مفسدين» فهى مؤد عن تقصد الإفساء وهو السعى فىه، وعبارته الأخرى «لَا تفسدوا فى الأرض مفسدين» فالإفساء غير المقصد، أو الأىانى منه دون أن ىصبح علىه مفعوده، إنه خارج عن هذا الخطر مهما كان فى أصله محظورا، حىا القصد هنا هو أفساء الإفساء المعبر عنه فى آيه الإفساء ب «وَيَسْعُونَ فى الْأَرْضِ فساداً».

و هنا تقارن التناسب بين «لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوُوا فى الْأَرْضِ مُفسدين» حىا تشملان النواميس الخمس فى البفس والإفساء، فلىس فقط السعى فى الإفساء فى الأرض محظورا، بل والإفساء بأى بفس فى أى من الأشىاء على أىه حال محظور.

و لأن الأصل فى الفساء والإفساء العقىدى هو الإشراك بالله، ثم من الأصل فىهما جماعيا هو البفس فى المكىال والمىزان كما فى قوم صالح حىا تعودوا علىه، لذلك هما ىتقدمان على كل فساء وإفساء فى الأرض كراسى الزوايه فىهما.

أجل، وللانحراف والظلم الاقصادى موقعه العظىم العمىم فى سائر الإفساء فى الأرض حىا ىهلك الحرث والنسل، ولأن صالح الإقصاد هو الحاجه الحاضره للجمىع، فقد ىور صالحه

وطالحه ويعكسان على المجتمع برا وفاجرا.

فالقضية هنا هي قضية الأمانة والعدالة بعد قضية العقيدة، أم هي قضية الشريعة وكل الصلات بين المكلفين بها، التي تنبثق من أصل العقيدة التوحيدية، فنقص الناس في المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم بسرقة أو اغتصاب أم أية حيلة معاملية وسواها، إنها تنافي قضية صالح العقيدة، حيث المفروض أن تنعكس العقيدة على الأعمال فلا تظل صورة خيالية لا خبر عنها في الواقع المرام.

فالأصل الذي تتبناه الحياة السعيدة بكل حقولها الصالحة هو صالح العقيدة، وليس ما يهرسه أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخلاق والعقيدة للعلاقات الاقتصادية، أو الجنسية أماهيه من علاقات غير عقيدية.

هذه تصرفات شريرة مهما خيل إلى أصحابها أنها خير حيث الأكل بالباطل لا يكلف سعيا وراء الحاجات والحاجيات، وحتى إذا كانت خيرة ف:

بَقِيَّتُ اللّٰهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦).

أنتم تتفكرون أن بقية نقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم - حيث تبقى لكم بما تبغون - هي بقية خير، وهي فانية ماضية قاضية على حياتكم، ولكن بَقِيَّتُ اللّٰهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ، بالله، مهما كان إيمانا شركيا، فإنه فيما تعتقدون هو إله الآلهة التي تتخيرون، والبخس نحس أيا كان ومن أي كان، نحس فطريا وعقليا وإيمانيا، وإن في أدنى دركاته.

فهناك بقية الشيطان في نقصكم وبخسكم، بغية شقية لا تأتي بأى خير إلا تخيلا عابرا.

و هنا بَقِيَّتُ اللّٰهِ، وهي الباقية من بيوعكم بحكم الله إن كنتم مؤمنين بالله، ومراعين أمانة الله في شرعته، خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ، عن الأخطاء والأخطار، فإن أنا إلاً رسول ليس على هداكم، ولكن الله يهدى من يشاء، ولا أنا حفيظ عليكم حين يأتيكم عذاب الله، فلا حفيظ عليكم إلا الله ببقيته، حيث الإيمان به والعمل الصالح له هما ضمانان لبقيته هنا وفي الأخرى، وَ الأخره خَيْرٌ وَ أَبْقَى:

فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٦:١٠٤) ذلك والبقية هي صفة لمحذوف هو الحالة أو الحياة المستمرة أو المنفعة، خيرة وشريرة، ومن الأولى أولوا بقية:

فَلَوْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ. وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ، (١١: ١١٧) (وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ...، (٢: ٢٤٨).

ف، أُولُوا بَقِيَّةً، هم الذين يتولون بقية الحياة الخيرة السليمة بما ينهون عن الفساد في الأرض. إذا فمن بَقِيَّتِ اللَّهِ، هنا هو شعيب الذي يستبقى بدعوته الخيرة خير الحياة هنا وفي الأخرى، استبقاء بأمر الله لكن، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ، فإن أصل البقية هو الله، ومنها المنفعة البقية من التجارة، فالبقية الشيطانية شقية غير نقية لا تخلف إلا فسادا أو كسادا لسلب الطمأنينة عن المشترين وبقية الله هي نقية تخلف ربحا لمكان الطمأنينة في المشترين، ومن ثم هي خير في الأخرى، وتلك الشيطانية هي شر فيها مهما تظاهرت بالوفيرة.

فل - بَقِيَّتِ اللَّهِ، مصاديقها حسب ظروفها وملابساتها ومنها بَقِيَّتِ اللَّهِ، في الدعوة المعصومة الرسالية وهي الحجة الأخيرة التي ليست بعدها حجة: القائم المهدي المنتظر من آل محمد عليهم السلام^١ كما أن الرسول صلى الله عليه وآله - وبأحرى - هو بقية الله في حقل الرسل عليهم السلام.

صحيح أن شعيبا بدعوته البقية هو بقية الله، وهكذا النبيون أجمع مع خلفاءهم، وبأحرى محمد صلى الله عليه وآله بخلفائه عليهم السلام^٢، ولكن صاحب الأمر هو بقية أخيرة عالمية، فيه زوايا ثلاث

^١ نور الثقلين ٢: ٣٩٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بسند متصل عن أحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري قال: خرج أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام علينا وعلى عاتقه غلام كان وجهه القمر ليلة البدر من أبناء ثلاث سنين فقال عليه السلام: يا أحمد بن إسحاق لولا كرامتك على الله عز وجل وعلى حججه ما عرضت عليك ابني هذا، انه سمي رسول الله صلى الله عليه وآله - إلى أن قال: فنطق الغلام عليه السلام بلسان عربي فصيح فقال: انا بقية الله في أرضه والمنتقم من أعدائه ولا تطلب أثرا بعد عني ... وفيه بإسناده إلى محمد بن مسلم الثقفي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام حديث طويل يذكر فيه القائم عليه السلام يقول فيه: فإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة واجتمع إليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا فأول ما ينطق به هذه الآية: «بَقِيَّتِ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ثم يقول: انا بقية الله وحجته وخليفته عليكم فلا يسلم عليه مسلم إلا قال: السلام عليك يا بقية الله في أرضه ، وفيه عن كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام: وقد ذكر الحجج، هم بقية الله يعني المهدي عليه السلام الذي يأتي عند انقضاء هذه الفطرة فيملا الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، وفيه عن أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام سأل رجل عن القائم عليه السلام كيف يسلم عليه؟ قال: يقولون: السلام عليك يا بقية الله ثم قرأ «بَقِيَّتِ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

^٢ نور الثقلين ٢: ٣٩١ في عيون أخبار الرضا عليه السلام في باب ذكر مولد الرضا - عليه السلام عن علي بن ميثم عن أبيه قال: سمعت أباي يقول: سمعت نجمة أم الرضا عليه السلام تقول: لما حملت بابني علي لم أشعر بتقل الحمل و كنت أسمع في منامي تسبيحا وتهللا وتمجيذا من بطني فيفز عني ذلك ويهلوني فإذا انتبهت لم أسمع شيئا فلما وضعته وقع إلى الأرض واضعا يده على الأرض رافعا رأسه إلى السماء يجر ك شفتيه كأنه يتكلم، فدخل إليه أبوه موسى بن جعفر عليه السلام فقال لي: هنيئا يا نجمة كرامة ربك، فناولته إياه في خرقة بيضاء فأذن في أذنه الأيمن وأقام في الأيسر ودعا بماء الفرات فحنكه به ثم رده إلي وقال: خذيه فانه بقية الله عز وجل في أرضه.

من بَقِيَّتُ اللّهِ: زاوية مشتركة مع سائر بَقِيَّتِ اللّهِ، هي رمز الإبقاء لحياة سليمة سالحة إيمانية.

و أخريان تختصان به، أولاهما أنه البقية الأخيرة لحقل بَقِيَّتِ اللّهِ، وأخراهما أنه الذي به يملأ الله الأرض قسطا وعدلا بعد ما ملئت ظلما وجورا، وهكذا بقية ربانية تحلق على المكلفين كلهم هي منقطع النظير بين كل بشير ونذير.

و في التالي خطب للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام حول بقية الله المهدي القائم عجل الله تعالى فرجه: يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى ويعطف الرأى على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأى.

.. ألا وفي غد- وسيأتي غد بما لا تعرفون- يأتي الوالى من غيرها عمالها على مساوى أعمالها، وتخرج له الأرض أقاليد كبدها، وتلقى إليه سلما مقاليدها، فيريكم كيف عدل السيرة وتحبي ميّت الكتاب والسنة، (الخطبة ١٣٦).

فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد، ولا تستبطنوا ما يجيء به الغد، فكم من مستعجل بما أن أدركه ود أنه لم يدركه وما أقرب اليوم من تباشير غد، يا قوم هذا إبان ورود كل موعود، و دنوّ من طلعة ما لا تعرفون، ألا وإن من أدركها منا يسرى فيها بسراج منير، ويحذو فيها على مثال الصالحين، ليحلّ فيها ربقا، ويعتق رقا، ويصدع شعبا، ويشعب صدعا، فى ستره عن

وفيه عن أصول الكافي عن أبي بكر الحضرمي قال: لما حمل أبو جعفر إلى الشام إلى هشام بن عبد الملك و صار ببابه قال لأصحابه و من كان بحضرته من بني أمية: إذا رأيتموني قد و بخت محمد بن علي ثم رأيتموني قد سكت فليقبل عليه كل رجل منكم فليوبخه ثم أمر أن يؤن له فلما دخل عليه أبو جعفر عليه السلام قال بيده: السلام عليكم، فعمهم جميعا بالسلام ثم جلس فازداد هشام عليه حنقا بتركه السلام عليه بالخلافة و جلوسه بغير إذن فأقبل يوبخه و يقول فيما يقول له: يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شق عصا المسلمين و دعا إلى نفسه و زعم أنه الإمام سفها و قلة علم، و وبخه بما أراد أن يوبخه، فلما سكت أقبل عليه القوم رجل بعد رجل يوبخه حتى انقضى آخرهم، فلما سكت القوم نهض عليه السلام قائما ثم قال: يا أيها الناس أين تذهبون و أين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم و بنا يختم الله آخركم فإن يكن لكم ملك معجل فإن لنا ملكا مؤلا و ليس بعد ملكنا ملك لأننا أهل العقبة، يقول الله عزّ و جل: و العاقبة للمتقين، فأمر به إلى الحبس فلما صار إلى الحبس تكلم فلم يبق في الحبس رجل إلا ترشفه و حن إليه فجاء صاحب الحبس إلى هشام فقال له: يا أمير المؤمنين اني خائف عليك من أهل الشام أن يحولوا بينك و بين مجلسك هذا ثم أخبره بخبره فأمر به فحمل على البريد هو و أصحابه ليردوا إلى المدينة و أمر ألا يخرج لهم الأسواق و حال بينهم و بين الطعام و الشراب فساروا ثلاثا لا يجدون طعاما و لا شرايا حتى انتهوا إلى مدين فأغلق باب المدينة دونهم فشكى أصحابه الجوع و العطش، قال: فصعد جبلا يشرف عليهم فقال بأعلى صوته: يا أهل المدينة الظالم أهلها أنا بقية الله يقول الله: «بَقِيَّتُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ» قال: و كان فيهم شيخ كبير فأتاهم فقال لهم: يا قوم هذه و الله دعوة شعيب النبي و الله لنن لم تخرجوا إلى هذا الرجل بالأسواق لتؤذن من فوقكم و من تحت أرجلكم فصدقوني في هذه المرة و أطيعوني و كذبوني فيما تستأفون فإني ناصح لكم فبادروا فأخرجوا إلى محمد بن علي عليه السلام أصحابه بالأسواق فبلغ هشام بن عبد الملك خير الشيخ فبعث إليه فحملة فلم يدر ما صنع به.

الناس، لا يبصر القائف أثره، ولو تابع نظره، ثم ليشحدنّ فيها قوم شحد القين الفصل، تجلى بالتنزيل أبصارهم، ويرمى بالتفسير فى مسامعهم، ويغبقون كأس الحكمة بعد الصبح .. قد لبس الحكمة جنتها، وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها والمعرفة بها و التفرغ لها، فهى عند نفسه ضالته التى يطلبها، وحاجته يسأل عنها، فهو مغترب إذا اغترب الإسلام، وضرب بعسيب ذنبه، وألصق الأرض بجرائه، بقيه من بقايا حجته، خليفة من خلائف أنبياءه، (١٨٠).

أجل، إنه البقيه المتميزة بين «أولوا بَقِيَّةٍ، لا فى مقامه السامى، فإن محمدا صلى الله عليه وآله أسمى منه، وإنما فى تحقيق البقيه المحمدية وسائر البقيات النقيات الرسالية على مدار الزمن الرسالى.

هنا فى حقل البقيه «اللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى» (٢٠: ٧٣) ثم بقيه منه هم الدعاء إلى الله، ثم الدعوة إلى الله، ف «بَقِيَّتُ اللَّهِ» - هى فى الأصل - البقيه الربانية من الله، إبقاء على من يتبع شرع الله، ثم الذين يحملون شرع الله برسالته ودعوته، ومن ثم البقيه الباقية من الدعاء المعصومين عليهم السلام إلى الله، وهو بقيه الله فى الأرضين صاحب العصر وحجة الدهر القائم المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله.

ففى حين يصدق على شعيب أنه من «بَقِيَّتُ اللَّهِ» ولكن «ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» يحول الأصل فى هذه البقيه إلى الله، أنه البقيه الحفيظة، وما الذين يحملون رسالاته إلا بقيات منه ويأذنه، وليسوا حفاظا لا فى تحقق الهدى ولا فى تطبيق شرعة، اللهم إنا هدى دلالية معصومة بالله، وبمثل ذلك الأسلوب المرن الحذير، البشير النذير، يشعر المخاطبون بخطورة الموقف وثقل التبعة واقفين وجها لوجه أمام العاقبة التى ترقبهم بلا وسيط ولا حفيظ.

ذلك وَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، تخرج الناقصين فى المكيال والميزان عن الإيمان حين يزعمون أن هذه البقيه الباغية خير من البقيه النقيه الساغية!

فكما أن المتعودين على الربا يقال لهم: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» (٢: ٢٧٩) كذلك الناقصين فى المكيال والميزان يقال لهم: «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

و إنما قالوا «أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ» لأنها أظهر مظاهر الإيمان، وأن شعيبا كان دائب الصلاة لأنها خير موضوع وقربان كل تقى، وهم كانوا دائبى الهزء به إذا مروا به وهو يصلى، فلما وعظهم

ردوا عليه بما كان يفعله، قاصدين أنت شأنك وصلاتك فما يخصك بما نعتقد أو نعمل، أ
صَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أ صَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَوُا
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧).

ردّ مردود في كافة الحقول الإنسانية السليمة، واضح التهكم، بين الهزء. سخرية الجاهل
المطموس المركوس حين لا يجد أى رد عاقل، قَالُوا يَا شُعَيْبُ أ صَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ ..، فما هى
الصلة بين صلاتك، وأن تترك نحن حريتنا في العقيدة والعمل وأن تترك ما يعبد آباءنا أو
أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَوُا، فأنت على شغلك وهو صلاتك ونحن على أشغالنا بستتنا
العريقة التي لسنا لتحلل عنها، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ، يقولونها هازئين، أم ومتسائلين
مستنكرين أن لست حليما ولا رشيدا، أم أن هذه الدعوة لا تناسب الحلم والرشد.

فكما أننا لا نتدخل في صلاتك فلا تتدخل أنت كذلك في صلاتنا العقيدية والعملية أيها
الحليم الرشيد! فليس من الرشيد أن تأمرنا بما لا صلة له بصلاتك وسائر عبادتك وأية
صلاتك، فقد كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوًّا، بالحلم والرشد، فكيف تأمرنا بخلاف الرشيد؟!.

و رغم أن هُوَ الأغباش المجاهيل لم يجدوا بمحضرهم من الهزء في المفصلة التامة إلّا
صلاته وعبادتهم وتجارتهم الباخسة، نرى أن الصلاة الناشئة عن عقيدة التوحيد هى مع سائر
الشوْن الحيوية لحمة واحدة، فالشعائر كلها ومعها المعاملات كلها هى ذات صلة عريقة
قريبة بصالح العقيدة، ف إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ، وَ الْمُنْكَرِ، فهى الأمره بكل عرف
والناهيه عن كل نكر.

ذلك، وقد نرى الجاهلية المتحضرة هى أنكى من الغابرة فى أمثال هذه المواجهات الجاهلة
مع دعاء الحق، ولا فحسب فى الجاهلية الملحده أو المشركة. بل والجاهلية التى تسربت إلى
أدمغة مجاهيل من المسلمين فترسبت فيها لحد خيل إليهم أن لكل من العقيدة و عمليات
الحياة دورها الخاص، قد تجتمعان وقد تفرقان، فقد يتساءلون: ما للإسلام وسلوكنا
الشخصى الذى يخصنا فى صالح الحياة، وما أشبه من تساءلات تشابه، أ صَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ
تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ، تعريضا

بضدهما حيث الحليم الرشيد لا يدعوا لما لا يخصه دون صلة بين اختصاصه واختصاص الآخرين! فليس من الرشد أن ينظر الإنسان إلى مجتمعه من منظره الشخصي، فإذا هو مسلوب الحرية بصلاته أم أية صلته، يحاول أن يسلب - كذلك - حريات الآخرين!. فلا حجة في صلاتك أن نترك نحن الجماهير حرياتنا العقيدية والعملية، فلأن أنفسنا هي أنفسنا وأموالنا هي أموالنا، فكلا التحديد والتهديد لما نعتقد أو نعمل خارجان عن الطريقة السليمة المألوفة بين بنى نوع الإنسان.

ذلك لأنهم أجمع على مختلف دركاتهم لم يعرفوا صلة العقيدة الصالحة بصالح الحياة الإنسانية حاضرة في كل حقولها، فأول ما تصلحه العقيدة الصالحة هو الحياة الحاضرة ومن وراء الأخرى التي هي من خلفياتها «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى».

و هنا يتلطف شعيب كأن لم يسمع إلى هذه السخرية، حاسبا أنهم يتطلبون بيئة يسندون إليها كسائر الدعاة إلى الله الذين يحاولون في حمل الناس إلى الحق دون صغى لباطلهم العاطل، ولا إجابة عن سخرياتهم الهازئة:

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِنِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨).

«عَلَى بَيْتِنِ، كسائر بينات الرسل في المغزى والمعنى، والرسول بنفسه بيئة تبين حق رسالته، ثم «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، فلا أخالفكم في قضية الفطرة والعقلية السليمة أو الشريعة الربانية، ولا أخالفكم بصلاتي إلى ما أنهاكم عنه، فالفطرة والعقلية السليمة ورسالات الله كلها، وصلاتي أنا، كلها عساكر من البراهين لصالح ما أنهاكم وأمركم، «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، دون تأمر عليكم لا يعنى «وَمَا تَوْفِيقِي، في دعوة الحق وتحقيقه، «إِلَّا بِاللَّهِ، فما أنا إلا رسول الله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، لا على سواه، «وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، لا إلى سواه. و هنا في «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، لمحمة صارحة أن إرادة مخالفة الناهي لما ينهى عنه هي من المنكرات، فضلا عن أصل المخالفة ولا سيما إذا كانت جاهرة، وهكذا

الأمر فى الأمر: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (٢): (٤٤) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبِيرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ!». فهذه نصوص ثلاثة تحظر عن مخالفة الأمر والناهى ما يأمر به أو ينهى عنه، وأنه خلاف العقل ومقت كبير.

و لما ذا «أَخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ، دون «فيما أنهأكم عنه»؟
علها المخالفة الناحية منعى النهى، أننى ما أريد مخالفة فى نفسى ناشبة إلى ما أنهأكم عنه حتى تحتجوا على بما أخالفكم، فإن الاقتراف الجاهر للحرام له تأثير عظيم سلبى فى مادة النهى، حيث يحرض المنهى على الإصرار فيه^١.

و هنا «ما أريد» تجعل نفس هذه الإرادة محظورة فضلا عن فعلها خفية أو جهارا، فقد يحظر على ذلك الثالث، فيحظر عن النهى المخالف للإرادة والفعل.

و وجه آخر أننى ما أريد أن أخالفكم فيما تحكم به فطركم وعقولكم قصدا فيها إلى ما أنهأكم عنه، «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ»، وليس إصلاح الفاسد تصرفا معاديا مهما سلب حرية ليست بحرية للإنسان العاقل، إذ ليست كل حرية مجبورة، حيث الحريات الجاهلة والشهوانية التى تصطدم كرامة الإنسان فى شخصه وفى الآخرين، هذه الحرية محظورة يجب على الصالحين تحديدها.

و العقلية الصالحة الحنونة فى الإنسان، المدنى الاجتماعى بالطبع، تقتضى المحاولة فى إصلاح الآخرين العائشين معه كما يصلح نفسه، فضلا عما إذا كان رسول ربه فى الإصلاح. و لأن الحريات الطليقة لأفراد المجتمع متصادمة، فلا بد من تحديدها عن أى تصادم إلى ثلاثم يقوم به صالح المجتمع نفسه، وإنما يقود ذلك التحديد المصلحون الصالحون ولا سيما الرساليون، ومن أمارات ذلك الإصلاح أن يأمر المصلح بما هو مؤمر به، وأن ينهى عما هو منته عنه.

^١ الدر المنثور ٣: ٣٤٧- أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود فقالت: انتهى عن المواصلة؟ قال: نعم، قالت: ففعله فى بعض نساءك، فقال: ما حفظت إذا وصية العبد الصالح: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ».

^٢ المصدر أخرج أبو نعيم فى الحلية عن علي عليه السلام قال قلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله أوصني ...

فالحريّة الحرّية بالإنسان في حياته الإنسانيّة هي المحددة بالفطرة والعقليّة السليمة المكمّلتين بالحدود والقرارات الشرعيّة، حتى يصبح المجتمع الإنساني آمناً عن كافة الاضطرابات والاصطكاكات والتحرّجات:

«وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ، (٢٨: ٦٨) (وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا، (٣٣: ٣٦).

فكما الحرّية الإنسانيّة فطريّة، يتوخاها الإنسان كأصل في حياته، كذلك تحديدها بالحدود الصالحة التي تصلحها، ومثالا لذلك المركبات المقصود منها السير وسرعته، ولكنها- أيضا- بحاجة إلى سواق عقلاء يضبطون مسيراتها ومصيراتها عن الاضطدامات.

أجل، فالمصلح عليه أولاً أن يصلح نفسه ثم يصلح الآخرين بصلاحه وبكل سلاحه الصالح في الدعوة، دون مخالفة أو إرادتها إلى ما يأمر به أو ينهى عنه. ٣٧٥

و لأن إرادة المخالفة لما ينهى عنه إفساد للمنهى والنهى، لذلك قابلها ب «إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَنْطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ».

و هنا لما يقول الإمام على عليه السلام يا رسول الله صلى الله عليه وآله وأوصني، قال: قل ربى الله ثم استقم - يقول - قلت:

ربى الله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، قال صلى الله عليه وآله: ليهنك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً^١.

و توفيق الله هو جعل قال العبد وحاله وفعاله وفقاً لمرضاته فى محبور أو محظور، فعلا لمحبور وتركاً لمحظور^٢.

^١ يقال خالفني فلان إلى كذا قصده و أنت مول عنه، و خالفني عنه إذا ولى عنه و أنت قاصده و يلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفني إلى الماء يريد أنه ذهب إليه و إردا و أنا ذاهب عنه صادراً، و هذا الأخير هو المعنى من الآية كما بيناه.

^٢ نور الثقلين ٢: ٣٩٣ في كتاب التوحيد بإسناده إلى عبد الله بن الفضل الهاشمي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل و فيه: فقلت قوله عزّ و جلّ: و ما توفيقى إلا بالله، و قوله عزّ و جلّ: «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟» فقال: إذا فعل العبد ما أمره الله عزّ و جلّ به من الطاعة كان فعله وفقاً لأمر الله عزّ و جلّ و سمي العبد به موقفاً و إذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله فحال الله تبارك و تعالى بينه و بين تلك المعصية فتركها كان تركه لها بتوفيق الله تعالى ذكره و متى خلى بينه و بينها حتى يرتكبها فقد خذله و لم ينصره و لم يوفقه.

فحين خيل إلى قوم شعيب أنه ينهاهم عما لا صلة له بما هو شغله يرد عليهم صارخا، وما أريدُ أن أُخالفكمُ إلى ما أنهاكمُ عنه، بل أنا أوافقكم في الانتهاء عما أنهاكم عنه، فكما أن صلاتي تنهاني عن الفحشاء والمنكر عقيدا وعمليا، فأنا أنهاكم عن الفحشاء عقيدا وعمليا. ويا قوم لا يجزمنكم شقاي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح و ما قوم لوط منكم ببعيد (٨٩).

أنتم تشاقونني في صالح الدعوة، حيث تجعلونني في شق صلاتي، وتجعلون أنفسكم في شق عبادتكم وفعلكم في أموالكم وكل شقاوتكم كما تشاءون، قاطعي الصلة بين الشقين بكل مفاصلة، كما تجعلون شقا بين رسالتي ككل وما أنتم عليه، ولكن:

يا قوم لا يجزمنكم قطعا قاطعا لا مرد له لثمره الحياة الإنسانية أن يصيبكم من جرأه مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح و ما قوم لوط منكم ببعيد، مثل ما أصابهم بما أجرموا شقا قاطعا.

و قد يعنى نفى بعدهم عنهم زمانيا ومكانيا، فقد كان الفصل الزمنى ثلاثة قرون، ثم المكان هو القرب بين مدين وسدوم.

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠).

أ طلبوا غفره عما مضى رفعا، وعما يستقبل دفعا، طلبا بقال من حال في أعمال، ثم توبوا إليه، بعد كامل الاستغفار ف- «إن ربّي، الذى ربانى بهذه الرحمة والليونة والوداد، رحيم، بكم ودود، لا يرد قاصديه، إذا قصده، ولا مستغفريه إذا استغفروه، فهنا ربى، اعتبارا بخبرته الرسالية أنه رحيم ودود، وهناك ربكم، اعتبارا بالمعرفة العامة ربوبيته، ثم الجمع بينهما جمع بينهم وبينه فى ربوبيته تعالى، ولمحة إلى خاصة ربوبيته له رسولا إليهم.

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ (٩١).

هنا ك لا نفقه، وجوه عدة، منها أن على أذاننا وقر، فلا نصغى إليك حتى نفقه ما تقول، و أخرى أن على قلوبنا أكنه أن نفقه ما تقول كما «و جعلنا على قلوبهم أكنه أن يفقهوه و فى

أَذَانِهِمْ وَقَرَأَ، (٦: ٢٥) وثالثه أننا لا تقنعنا حججك، فإنها داحضة لا تثبت حقا تدعيه، فلا نفهم مدعاك بدعواك، هذه وما أشبهه من عاذرة غادرة من هؤلاء الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا.

ذلك والفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، وليست حجتك وصله حاضرة لبغية غائبة ف «ما نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ...»

أجل «قَالُوا يَا شُعَيْبُ، لَأَنْكَ فِي شِقِّ صَلَاتِكَ وَنَحْنُ فِي شِقِّ آخِرِ فَلَ تَجَاوِبْ بَيْنَنَا وَلَا تَفَاهِمِ، وَلَأَنْكَ لَا تَقُولُ صَالِحًا تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ.»

إذا «ما نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ»، وهكذا تقول الجاهلية المتحضرة نسخة حاضرة عن الغابرة وعلى طول الخط، تقول أمام كافة الحجج الرسالية البالغة، لا نفهم، خطأ لموقعها عن أن تفهم، وأنها لغز وأساطير لا يفهمها الفاهمون، وإعذارا لأنفسهم ألا حجة فيما لا يفهمه المكلفون.

أجل «ما نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ»، فلا قوة لك في الحجة تفهم أو تفحم، «وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا، لَا تَقْوَى عَلَيْنَا، وَلَا تَعْنَى ضَعِيفًا، أَنَّهُ أَعْمَى كَمَا قِيلَ، فَقَدْ يَكُونُ الْأَعْمَى أَقْوَى مِنَ الْبَصِيرِ، وَأَنَّ الْعَمَى لَيْسَتْ نَسْبِيَّةً، وَهِيَ فِينَا، تَخْتَصُّ ضَعْفَهُ بِذَلِكَ الظرف، فلا قوة لك في هذه اللجة تفحم، فتحملنا على قبوله بتأمل أو تعمّل، اللهم إنا رهطك، «وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ، وَهُوَ أَنْحَسُ عَذَابٍ وَأَتَعَسَهُ ثُمَّ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ، لَا عِزَّةَ الْحِجَّةِ وَلَا عِزَّةَ الْقُوَّةِ، فَأَنْتَ بَيْنَنَا ضَعِيفٌ ضَعِيفٌ لَا دُورَ لَكَ إِلَّا كُورٌ، وَإِنَّمَا الْعَزِيزُ الْمَانِعُ مِنْ رَجْمِكَ هُوَ رَهْطُكَ بِعِزَّةِ الْمَنْعَةِ أَمْ عِزَّةُ الْكِرَامَةِ أَمَا هِيَ.»

فحين تفرغ النفوس من العقلية الصالحة وتغرق في الجاهلية الطالحة الكالحة، فإنها تقبع على الأرض بشهواتها ومصالحها الحيوانية، إذا فلا ترى حرمة لدعوة كريمة، ولا تتحرّج عن أي بطش بالداعية الصالحة، إلا أن تكون عصبه تعصبه وتوؤبه، أم قوة مادية أخرى تحميه، وأما حرمة الحق وكرامته فلا وزن لها ولا ظل في هذه النفوس النحيسة الذليلة الفارغة الخاوية!

«فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا هَابُوا جَلَالَ رَبِّهِمْ مَا هَابُوا إِلَّا الْعَشِيرَةَ!»

^١ الدر المنثور ٣: ٣٤٨- أخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب: «وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا»، قال: كان مكفوفًا فنسيه إلى الضعف «وَلَوْ لَا رَهْطُكَ»، قال علي: فوالله الذي ...

و هنا ينبرى شعيب بالغيرة الرسولية على جلال ربه بدعوته الربانية السامية، متحللا عن الاعتزاز برهطه ومن أشبه أو ما أشبه من قوة أرضية، إجابة أخيرة عن شطحاتهم فيها كل قوة وشهامة، إذراء وإزراء بما لهم من قوة ذرو الرياح:

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣).

كلمة أخيرة حاسمة قاصمة تفصل بينه وبين هُوَاء الأنكاد، بعد ما فشلت كافة المحاولات الرسولية حكمه وموعظة حسنة في هُوَاء البعاد، وهي كلمة القوة والغلبة بما قدر الله وقرر لرسله ورسالاته:

أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ، وأنتم تعرفون رهطى وتعرفون الله، وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا، أمام آلهتكم التى ألهتكم، وهو إله الآلهة كما تقولون، إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ، حيطة العلم والقدرة.

و هذا إزراء بازراء، حيث انتقصوه، أ صَلَاتِكَ تَأْمُرُكَ! ... إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ، هزء به ألا حلم لك ولا رشد، أنكم لا عقلية لكم مهما كانت قليلة حيث تحسبون رهطى أعز عليكم من الله!.

إذا ف اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ، والمكانة هى الحالة التى يتمكن صاحبها فيها مما يريد، فأنتم المتمكنون اعملوا فى رجمى أمّا تريدون من القضاء على، بكل طاقاتكم وإمكاناتكم، اعملوا ضدى رجما وسواه من رجوم، إِنِّي عَامِلٌ، كما تعملون، وأين عمل من عمل وأمل من أمل، عمل شيطانى وعمل ربانى و، سَوْفَ تَعْلَمُونَ - عين اليقين - مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ، بيننا أنا أو أنتم، وَ ارْتَقِبُوا، خلقية ما تعملون، إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ، ما أعمل، والذى سوف يصلكم من عذاب الله ويصلنى من رحمته، وإن انتظار الفرج من الفرج،^١ كما انتظار الحرج

^١ نور الثقلين ٢: ٣٩٣ فى تفسير العياشى عن محمد بن الفضل عن الرضا عليه السلام - قال: سألته عن انتظار الفرج من الفرج؟ قال: إن الله تبارك و تعالى يقول «وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ». وفيه عن كتاب كمال الدين و تمام النعمة بإسناده إلى أحمد بن محمد بن أبي نصر قال قال الرضا عليه السلام: ما أحسن الصبر و انتظار الفرج أما سمعت قول الله عز و جل يقول: «وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ».

من الحرج.

و يا لها من حجةٍ أخيرةٍ حاسمةٍ تغمرهم في لجةٍ، فلو لم يكن رسولا من الله لاستراح في تهديدهم إلى رهطه الذين هم يحذرونهم، دون أن يرفضهم ويفرض ما يدعوا إليه من توحيد الله وهم يرفضون.

فالعاقِل يفتنم كل فرصةٍ حاضرةٍ في خضمِّ الأخطار، والغريق يتشبث بكل حشيش، فضلا عما ينجيه دون تشبث، فحين يترك شعيب رهطه الذين هم المنعة الوحيدة عن أخطار قومه، وتشبث بعناية ربه ورحمته من ناحية، ومن عذابه عليهم من أخرى، فذلك الصمود برهان قاطع أخير لا مرد له أن صاحبه رسول من الله دون هواده.

أجل، والمؤمن لا يتعصب بأية عصبية وقوة في الظروف المحرجة إلا بربه، مما يزيده إيمانا على إيمانه، ويزيد أعداءه حجة على حجته، فعصبية المؤمن ليست لأي حول أو قوة أو منعة إلا حول ربه وقوته ومنعته، وهذا هو مفرق الطريق بين التصور الإيماني والجاهلي في كل أزماته وبيئاته.

ذلك، وبعد هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة، فتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ، (٧: ٩٣) ومن ثم العذاب الموعود:

ج سورة هود (١١): الآيات ٩٥ إلى ٣٢١ ج

كَأَن لَّمْ يَعْتَوُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (٩٥) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَتَّبِعُونَ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدُهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَ اتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ (١٠٠) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَ كَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَ هِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ

و قوله: «فَانتظروا إني معكم من المنتظرين» فعليكم بالصبر فإنما يجيء الفرج على اليأس فقد كان الذي من قبلكم أصير منكم، و فيه عن المجمع روى عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال: كان شعيب عليه السلام خطيب الأنبياء.

النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ (١٠٣) وَ مَا نُوحِرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَ أَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هُوَ لِأَنَّ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمَوْفُونَ بِمَا نَصَبْنَاهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفَضَّيْنَاهُمْ وَ إِنَّا لَنَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ (١١٠) وَ إِنَّ كَلِمًا لَمَا لِيُوقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَ لَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَ جَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣).

شعيب

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدَّيْنٍ كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودُ (٩٥).
 «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا، الذي أمرنا وعدا، وهو عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ، (٢٦: ١٨٩) جاء تحقيقا، نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، مما يدل على أنه حصل على مؤننين في حجاجه الطويل الطويل بِرَحْمَةٍ مِنَّا، رحيمية خاصة بالرساليين من عبادنا الصالحين، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ، المدمرة المزمجرة التي خلفت صاعقة العذاب الهون بما كانوا يعملون، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، على الأرض كما يجثم الطائر إذا قعد ولطئ بالأرض ساقطا بصيده، فقد صادت هُوَاءُ الطير الوحش صيحة من عذاب الله وجشمتهم، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا، وسكنوا وقتا ما، إذ ما بقيت لهم من باقية، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودُ، بعدا لهم بعيدا حيث طويت صفحاتهم عن الوجود، وصحيفتهم عن التاريخ، اللَّهُمَّ إِلَّا بِكُلِّ لَوْ وَشَوْ كَمَا تَكَرَّرَتْ فِي هَذِهِ الإِذَاعَةُ الْقُرْآنِيَّةُ.

هذا شعيب عليه السلام في دعوته الصالحة، وقد قال عنه أخوه الأكبر محمد صلى الله عليه وآله: بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمى فرد الله عليه بصره وأوحى الله إليه يا شعيب ما هذا البكاء، أشوقا إلى الجنة أم خوفا من النار؟ فقال: لا! ولكن اعتقدت حبك بقلبي، فإذا نظرت إليك فما أبالي ما الذي تصنع بي، فأوحى الله إليه: يا شعيب إن يكن ذلك حقا فهنيئا لك لقائي، يا شعيب لذلك أخدمتك موسى بن عمران كليما.^١

و موسى عليه السلام هو آخر نبي في هذا العرض المسلسل لأنبياء عدّة، ولكنه خاصر يكتفى فيه بإرساله إلى فرعون وملاؤه بآيات رسولية ورسالية، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ، ثم يقدّم قومه يوم القيامة فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَ بئسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ، وقد يغنى المضى فى «أوردتهم، دون «يودهم، أنه أوردهم النار فى الحياة الدنيا من ذى قبل، فهم يردون النار التى أوردتهموها من قبل، وَ بئسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ».

^١ الدر المنثور ٣: ٣٤٨- أخرج الواحدي و ابن عساکر عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ... و فى البحار ١٢: ٣٨٠ مثله عن الزهري بزيادة مرتين أخرين لبكائه و عماء فرد الله عليه بصره فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه ..

فقد جعل فرعون في هذه الاستعارة اللطيفة، في تقدمه قومه إلى النار، بمنزلة الفارط المتقدم للوارد إلى الورد، كما كان في الدنيا متقدمهم إلى الضلالة وقائدهم إلى الغواية، وجعل النار بمنزلة الماء الذي يورد «وَبِسِّ الْوَرْدِ الْمَوْزُودُ، فإنه ورد لا يجيز الغصة ولا ينقع الغلة.

و بينما نسمع هنا حكاية عن ماض ووعدا عن مستقبل إذا المشهد ينقلب وكأن المستقبل ماض قد مضى، إذ قد مضى أصله، وهو متحقق الوقوع في المستقبل.

و هنا «سُلْطَانٌ مُّبِينٌ» بعد «بآياتنا» توصيف رصيف لآليات، بأن فيها سلطة مبينة، ثم تعميم بعد تخصيص حيث الآيات هي الآيات المعجزات، وسلطان مبين هو كل البنات التي تبين الحق سواء أ كانت هي الآيات المعجزات، أم سواها من حجج بالغه ربانية، فمن السلطان مبين ومنه غير مبين، فالسلطان الفاضل عن الحجة هو قاهر قاصر عن المحجة، و السلطان الفاضل بالحجة هو سلطان على الفطر والعقول، وقد يجتمعان كما في سلطان ثعبان العصي فإنه برهان حسي مخيف، وأفضل منه سلطان القرآن حيث هو مجمع كل سلطان في كل الحقول، فطريا وعقليا وعلميا وحسيا وما أشبه.

ثم الورد هو الماء الذي يرده الحيوان العطاش، وهو المورد لهم، والإنسان بطبيعة الحال له ورد مورود بما يقدمه من أعمال، فإن كانت صالحة فنعم الورد المورد هنا وفي الأخرى، وإن كانت طالحة فبس الورد المورد فيهما، حيث يسقون، الأولون «مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ» (٨٣: ٢٦) ثم الآخرون لهم سقى الزقوم «يُسَجِّبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» (٤٠: ٤٠)

(٧٢): «وَلَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» (٦: ٧٠) حيث «قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ. وَ لَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ» (٢٢: ٢١).

و لأن الورد المورد هو في المصطلح ورد قطع الغنم العطاش بما يودها رعاتها، فهنا اللحمه اللامعة أن قوم فرعون كانوا كقطع الغنم يقدمها راعيها الخائن الفرعوني فأوردها ورد النار بديلا عن الماء، فهو ورد الممات بديلا عن ورد الحياة.

ذلك، فأين ورد مورود من ورد مورود؟ وأين رحيق مختوم من ماء حميم محموم؟.

«وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، حَيْثُ تَلْعَنُهُمْ سَتْتَهُمُ الْبَاقِيَةُ الْبَاطِنَةُ بِمَنْ تَبِعَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ مِنْ سَنٍّ سَنَةٌ سَيِّئَةٌ كَانَتْ عَلَيْهِ وَزَرَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْقُصُ أَوْلَئِكَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ.»
ثم «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَلَعْنَةُ الْعَذَابِ الْحَاضِرِ، بَعْدَ لَعْنَةِ اللَّاعِنِينَ بِمَا التَّعَنَوْا بِهِ مِنَ الطَّالِحِينَ أَمْ لَعْنُوهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَبِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ، وَهُوَ الْعَطِيَّةُ الرَّبَانِيَّةُ جِزَاءَ لَهُمْ وَفَاقًا، بِدِيلَةٍ عَنِ الْعَطِيَّةِ الْمَوْعُودَةِ لِلصَّالِحِينَ، فَكَلَّا الْوَرْدَ الْمَوْرُودَ وَالرَّفْدَ الْمَرْفُودَ هُمَا مِنْ مَخْلَقَاتِ الْمَسَاعِي الصَّالِحَةِ وَالطَّالِحَةِ، وَلَا يُظَلَّمُونَ فِتْيَانًا.»

ذلك، ومن واجهه أخرى كما أن «بِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ، هُوَ وَرْدَ فِرْعَوْنَ بِمَا أَضْلَمَهُمْ، كَذَلِكَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ، هُوَ رَفْدُهُ وَعَطِيَّتُهُ بِمَا وَعَدَهُمْ كَمَا وَعَدَ السَّحْرَةَ جَزِيلَ الْعَطَاءِ، فَهُوَ ذَا رَفْدِهِ لِمَنْ اتَّبَعَهُ، وَذَاكَ وَرْدُهُ لِمَنْ أُوْرِدَهُ.»

ذلك، ولأن حقيقة الرُفْدِ هي العطية وقد جعلت اللعنة بديلة من الرُفْدِ لهم عند انتقالهم من دار إلى دار على عادة المنتجع المسترفد، أو الرجل المتزود، جاز أن يسمى رُفْدًا بوجه المجاز وكما قال تعالى:

«فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، وَالْبَشَارَةُ هِيَ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الْخَيْرِ، وَلَكِنْ لَمَّا جَعَلَ إِخْبَارَهُمْ بِاسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ فِي مَوْضِعِ الْبَشَارَةِ لِغَيْرِهِمْ بِاسْتِحْقَاقِ الثَّوَابِ، جَازَ أَنْ يُسَمَّى فِي ذَلِكَ بَشَارَةً، أَمْ لَوْ كَانَتْ لَهُمْ بَشَارَةٌ فَهِيَ اللَّعْنَةُ الْمَتَّبَعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَضَلَا عَنِ النَّذَارَةِ. ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠).»

النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، وهكذا تكون كل الأنباء القرآنية والقصص المسرودة فيه، فإنه ليس كتابا قصصيا يعنى عرض الأحداث فقط، وإنما يعنى الفوائد العظيمة الرسالية التى تضمها، فلذلك يعبر عنها تارة بالأنباء، وأخرى بالقصص، والقصد إلى قص تاريخى عن طوماره، ما فيه فائدة عظيمة جسيمة.

ف ذلك، الإنباء الرسولى والرسالى هو «مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى، الْمُتَخَلَّفَةُ عَنِ رِسَالَاتِ اللَّهِ نَقْصُهُ عَلَيْكَ، مِنْ غَايِرِ التَّارِيخِ دُونَ سَرْدِ كُلِّ مُحَاصِيلِهِ، ف مِنْهَا، هَذِهِ الْقُرَى الْمَقْصُوصَةُ عَلَيْكَ قَائِمٌ، بِنَفَادِ أَهْلِهَا أَمْ بَقَاءِ بَعْضِ مَنْهُمْ.» ومنها «حَصِيدٌ، حَصَدَتْ مَعَ أَهْلِهَا، فَقَدْ تَعَمَّ قَائِمٌ وَحَصِيدٌ، الْقُرَى بِأَهْلِهَا، بَلِ وَالْقُرَى فِي الْأَصْلِ هِيَ الْأَهْلُونَ، وَتَطْلُقُ عَلَى أَمَكْنَتِهِمْ بِمَجَازِ»

الملايسة.

فالوصفان بالنسبة لأمكنتهم يعينان: منها قائم البناء، خال من الأهل، ومنها منقوض الأبنية ملحق بالأرض تشبيها بالزرع المحصود.

و هما بالنسبة لهم أنفسهم تشبيه للأحياء الباقين بالزرع النامى، وللأموات الهالكين بالزرع الذوى، وذلك أحسن تمثيل وأوقع تشبيه.

أجل، وإن لكم فى القرون السالفة لعبرة، أين العمالقة وأبناء العمالقة، أين الفراعنة وأبناء الفراعنة، أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين، وأطفأوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين، أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا بالألوف، وعسكروا العساكر، ومدنوا المدائن، (من الخطبة ١٨١).

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ (٦٥).

و كيف فعقروها، وإنما عقرها واحد منهم؟ لمكان فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٥٤: ٢٩)؟ ذلك لأنهم نادوه لعقرها راضين عنه مشجعين إياه، فقد عاونوه على عقرها فهم إذا كلهم عاقرون، وهذه معاونة على الإثم والعدوان، تعدد المعاوين كلهم آثمين عادين مهما اختلفت دركاته بين الأصيل والفصيل.

فيا أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقرا ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بعذاب لما عموه بالرضى فقال سبحانه:

فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ، فما كان إلّا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماء فى الأرض الخوارة^١.

فهذه ضابطة عامة مستفادة من فعقروها، أن سبب الجريمة ومباشرها مجرمان اثنان مهما اختلفت دركاتها حسب مختلف حركاتها، فلكل عقوبته جزاء وفاقا، طالما يستثنى عن القود غير القاتل لنفس محترمة ما لم يكن مباشرا، فلا يقتص من غير المباشر اللهم إلّا نصيبا من الدية المفروضة فى مجالاتها، أم إذا كان هو أقوى من المباشر لحد يعتبر هو المباشر.

^١ نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

و هوُاء العاقرون الناقه عقروها بما عقرها صاحبهم المنادى لهم لعقرها وهو، أحمر ثمود^١ كما قال الله: فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ (٧: ٧٧) حيث أمرهم أن ذروها تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ، ولكنهم تعاونوا على إثم العقر وعدوانه نداء لصاحبهم بديلا عن منعه عن عقرها: فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا. وَ لَا يَخَافُ عُقْبَاهَا، (٩١: ١٤).

فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، هِيَ عَذَابٌ قَرِيبٌ، وَ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ. فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦).

و أمرنا، هذا هو صاعقه، (٤١: ١٣) (طاغية: فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلَكُوا بِالطَّاغِيَةِ، (٦٩: ٥) وصيحة كما هنا، صاعقة طاغية، سائغة لهو الطائفه الصاعقة الطاغية.

فقد كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا .. فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا. وَ لَا يَخَافُ عُقْبَاهَا! وهنا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، هِيَ رَحْمَةُ الْإِيمَانِ، وَ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ ثم «وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ» إذ كان عذابا مخزيا، ثم خزي يوم القيامة فإنه أخزى، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، فبقوته وعزته يعذب أهله ويرحم أهلها.

و هو قوى لا بقوة البطش المعروف من المخلوق، ولو كانت قوته قوة البطش المعروف من المخلوق لوقع التشبيه، ولا احتمال الزيادة، وما احتمال الزيادة احتمال النقصان، وما كان ناقصا كان غير قديم وكان عاجزا.

وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثمينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨).

هذه صيحة مدمرة وصاعقة طاغية مدممة مزمجرة، أخذت الَّذِينَ ظَلَمُوا، أخذة قاسية قاضية فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ، وهى قريتهم بدورها وشورها جاثمين حسوما جاسمين، واقعين على

^١ البحار ١١: ٣٧٦ عن عمار بن ياسر قال: كنت أنا و علي بن أبي طالب عليه السلام في غزوة العشيرة نائمين في صور من النخل و دقعاء من التراب فو الله ما أهينا إلا رسول الله - صلى الله عليه واله - فوجدنا رجلين من تلك الدقعاء فقال صلى الله عليه واله ألا أحدثكما بأثنى الناس رجلين؟ قلنا: بلى يا رسول الله صلى الله عليه واله قال: أحمر ثمود الذي عقر الناقة و الذي يضربك يا علي على هذه- و وضع يده على قرنه- حتى يبيل منها هذه- و أخذ بلحيته-

وجوههم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

وى 'كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا: إقامة، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ، فترى دورهم غير دورهم، ودورهم غير دورهم، إذ أصبحوا بدورهم بورا فى دورهم، لا أثر عنهم إلّا حسرات تنادى بها أثرات.
إلّا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ، عن فطرم وعقولهم، حيث كفروا وستروا عن أنفسهم آيات الله آفاقية وأنفسية، فكفروا به وكذبوه وكذبوا رسله، 'إلّا بَعْدَ لَتَمُودَ-، 'إلّا بعدا لعاد كما بعدت ثمود، بعدا عن ذكرى التاريخ إلّا بسوء، وعن آثارهم إلّا دائرة باثرة، وعن مستقبلهم إلّا عذاب الله كما فى ماضيهم.

شعيب (ع)

وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَ جِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعْبُدْنَا إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لِكُنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطِّرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهَا وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أُنْفُودًا فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أُنْفُودُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَ صَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذَلِكِ إِفْكَهُمُ وَ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ (٢٨)

... تسليات عاليات لخاطر الرسول الأقدس محمد صلى الله عليه وآله: بما جرى على هود عليه السلام وعلى قومه بما خانوه وأهانوه وكانوا هم أقوى منهم واطلم وأطغى، فلم (الفرقان - م ٤) تغن عنهم قوتهم ولا طغواهم وثوروتهم شيئا، وبأحرى هوّاء الذين ابتلى بهم الرسول محمد صلى الله عليه وآله.
وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا

إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ^١ وَ أَذْكَرُ زَادَا فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ، وَحِيَادَا عَنِ الْفِشْلِ فِي الْحَصُولِ عَلَى الْبَغْيَةِ أَذْكَرُ أَخَا عَادٍ: هُودَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَا عَادِ الْأُولَى، وَلَا خَبَرَ لَنَا عَنِ الثَّانِيَةِ وَإِنَّمَا الْأُولَى:

أَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى، (٥٣: ٥٠) مِمَّا يُوحَى بِأَنَّهُمْ كَانُوا أَقْوَى مِنْهُمْ وَأَظْلَمَ وَأَطْفَى، فَلَقَدْ كَانُوا أَقْوَى الْأَقْوِيَاءِ وَأَشَدَّ الْأَشْدَاءِ فِي التَّارِيخِ.

أَذْكَرُ أَخَا عَادٍ: اخْوَةٌ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ وَالْإِقْلِيمِيَّةِ وَالْقَرَابَةِ أَمْ مَاذَا إِلَّا صَالِحِ الْعَقِيدَةِ، فَهِيَ بِحِذَافِيرِهَا لَا تَنْفَعُ مَا لَمْ تَكُنْ اخْوَةٌ الْإِيمَانِ كَمَا لَمْ تَنْفَعُ أَخَا عَادٍ وَكَذَلِكَ أَنْتَ مَعَ قَوْمِكَ.

أَذْكَرُ... مَاذَا لَقِيَ مِنْ اخْوَتِهِ مِنْ كُفْرٍ صَارِمٍ، وَتَكْذِيبِ عَارِمٍ، ثُمَّ مَاذَا لَقُوا بِرِيحٍ صَرَّصَرٍ عَاتِيَةٍ... فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ نَخَلٍ خَاوِيَةٍ (٦٩: ٨) وَهَمْ كَانُوا أَقْوَى مِنْ قَوْمِكَ مَكْنَةً وَرِذَالَةً، وَأَنْتَ أَقْوَى مِنْهُ مَكَانَةً وَرِسَالَةً.

أَذْكَرُهُ مَا طَابَ لَكَ وَطَيَّبَ خَاطِرَكَ وَلَقَدْ ذَكَرَ كَمَا أَمَرَ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (يُرْحَمُنَا اللَّهُ وَأَخَا عَادٍ)^٢ أَذْكَرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَخْقَافِ وَتَرَى أَيْنَ الْأَخْقَافِ، وَهِيَ الْكُتُبُ الْمُرْتَفَعَةُ مِنَ الرَّمَالِ الْمَعْوِجَةِ حَيْثُ كَانَتْ مَنَازِلُ عَادٍ؟ هَلْ هِيَ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨٩: ٧) وَقَدْ كَانَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى الْأَخْقَافِ: أَرْضِي الرَّمُولِ وَالصَّخُورِ، الْمَبْنِيَّةُ عَلَيْهَا أَرَمُ ذَاتِ الْعِمَادِ، وَهِيَ بِالشَّامَاتِ، وَعَلَيْهَا قَلْعَةٌ بَعْلَبُكُ، أَوْ أَنَّهَا نَمُودَجٌ مِنْ تَلْكَمِ الْعِمَادِ الْحَجْرِيَّةِ الْمُنْقَطَعَةِ النَّظِيرِ فِي تَارِيخِ الْإِنْسَانِ؟

أَمْ هِيَ وَادٍ بَيْنَ عَمَانَ وَمَهْرَةَ^٣ أَوْ رَمَالَ بَيْنَ عَمَانَ وَحَضْرَ مَوْتِ^٤ أَوْ رَمَالَ مَشْرِفَةَ عَلَى الْبَحْرِ بِالشَّحْرِ مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ^٥ أَوْ مَنْزِلَ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ مِنَ الْقَادِسِيَّةِ^١ أَمْ مَاذَا؟ الْقَدْرُ الْمُسْلِمُ قَرَأْنِيَا

^١ راجع ج ٣٠ ص ٣٠٩ - ٣١٠.

^٢ الدر المنثور ٦: ٤٣ - أخرج ابن ماجه و ابن مردويه عن ابن عباس رض قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ..

^٣ يروى عن ابن عباس كما عنه و الضحاك انه جبل بالشام.

^٤ نقله في مجمع البيان: و قيل رمال فيما بين عمان الى حضر موت.

^٥ عن قتادة قال: ذكر لنا ان عادا كانوا احياء باليمن اهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر.

ان الأحقاف هي أودية^٢ الأراضى التي بنيت عليها ارم ذات العماد، و إذا كانت باقية حتى الآن فقد تكون قلعة بعلبك، العماد المنقطعة النظير فى تاريخ الإنسان، وقد يوحى ببقائها: **تُدْمَرُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَاصْبِرُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ**: السورة- أن دمرت الصرصر العاتية أشياعهم بأشيائهم إلا مساكنهم عبرة للمعتبرين، إلا أن لا يرى إلا هنا، لا تضمن بقاء الروة إلى زمن نزول القرآن، فضلا عن الآن، فقد تختص بوقت العذاب، ولفترة بعد تدميرهم، كما قد توحى له: **فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٦٩: ٨)؟** كلا! لا أشخاصا ولا آثارا، الا دمارا ومخازى وأصارا!! **وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَدْرَأُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٥١: ٤٢)** ثم المساكن هي محال السكن: أعم من البيوت، فقد تعنى محال البيوت، الأودية الأحقاف المبنية عليها ارم ذات العماد، فلو كانت هي البيوت لذكرت كما فى ثمود: **أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا .. (٢٧: ٥٢)**. ولكن البيوت قد يعبر عنها بالمساكن فقد تعنى هي أيضا البيوت: **وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ .. (٢٩: ٣٨)** فهي مساكنهم مبنية زمن نزول القرآن ومرثية، ولا تتميز مساكن المعذبين إلا ببقاء بقايا من بيوتهم الخاوية، لا أرضا مستوية أو عوجاء! فعلها قلعة بعلبك أم ماذا! مبنية لحد الآن ومرثية ولا نجد مساكن لهم غيرها تناسب أن تكون ارم ذات العماد.

و بما أن الغرض هنا لا يتعلق بمكان الأحقاف ارم ذات العماد، وإلا لصرح به، فلنسكت عما

^١ نور الثقلين ٥: ١٨ نقلا عن الخرايج و الجرايح ان المهدي الخليفة أمر بحفر بئر بقرب قبر العبادي: منزل في طريق مكة من القادسية الى العذيب لعطش الحاج هناك، فحفروا أكثر من مائة قامة فبينما هم يحفرون إذ خر قوا خرقا و إذا تحته هواء لا يدرى قعره و هو مظلم و للريح فيه دوي، فأدلو رجلين فلما خرجا تغيرت ألوانهما فقالا: رأينا هواء و رأينا بيوتا قائمة و رجالا و نساء و إبلا و بقرا و غنما و كلما مسسنا شيئا رأيناه هباء فسالنا الفقهاء عن ذلك فلم يدر أحد ما هو! فقدم ابو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام على المهدي فسأله عن ذلك فقال:

هواء اصحاب الأحقاف، و هم بقية من قوم عاد، ساخت بهم منازلهم و نكر على مثل قول الرجلين.
وعن تفسير علي بن ابراهيم القمي قال حدثني أبي قال: امر المعتصم ان يحفر بالبطانية بئرا فحفروا ثلاثمائة قامة فلم يظهر الماء فتركه و لم يحفره، فلما ولي المتوكل امر ان يحفر ذلك البئر ابدا حتى يبلغ الماء فحفروا حتى وضعوا في كل مائة قامة بكرة حتى انتهوا الى صخرة، فضربوها بالمعول فانكسرت فخرج منها ريح باردة فمات من كان يقربها فأخبر المتوكل بذلك فلم يدر ما ذلك فقالوا: سل ابن الرضا عليه السلام و هو ابو الحسن بن محمد العسكري عليه السلام فكتب اليه يسأله عن ذلك فقال ابو الحسن عليه السلام: تلك بلاد الأحقاف و هم قوم عاد الذين أهلكهم الله عز و جل بالريح الصرصر.
أقول: و لم يثبت احد من هذه الوجوه لأنها قبيلات او اخبار أحاد اللهم الا ما يوحيه القرآن كما بينا ..

^٢ لقروله تعالى: **«فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ»** فلتنك الأحقاف هي الاودية التي بنيت عليها ارم ذات العماد.

سكت الله عنه، إلا ما نعرف من أنهم ألام حماقى الطغيان، فأحقافهم من أشر الوديان¹ ثم لا نتأكد من بقاء أثر من عاد.

وَ قَدْ خَلَّتِ التُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ وَ تَرَى مَاذَا يَعْنَى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ؟ هَلْ هُمْ الرسل الذين خلوا قبله مِنْ خَلْفِهِ وَ خَلُّوا فِي إِنْذَارِهِمْ زَمَنَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ: إِذْ عَاصَرُوهُ؟ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. (٤١: ١٤) والرسل هنا هم النذر هناك.

فكما لا يعنى مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ: هنا الرسل الذين أتوا من بعدهم، إذ لم يأتوهم وإنما أتوا من بعدهم، وإنما هم الذين كانوا فى زمنهم، ولا مِنْ خَلْفِهِمْ يعينهم، وإنما الذين أتوا قبلهم، فإنذارهم من قبلهم من آباءهم إنذار لهم.

فكذلك الرسل من بين يدي هود ومن خلفه، دون الذين أتوا من بعده، إذ لا صلة لمن بعده به ولا بهم ولا حجة له ولا لهم، وإنما الذين أنذروهم حاضرين ثم الذين أنذروا آباءهم، فلينذروا برسلمهم حاضرين، أو غابرين حاذرين، فهم أقرب إلى الهدى ممن لم ينذر آباءهم فهم غافلون، كقومك اللد: لَتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٣٦: ٦).

و دعوة الرسالات الماضية والحاضرة- وكذا المستقبله هى فى صيغته واحدة: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ دعوة واحدة إلى إله واحد دونما أى خلاف واختلاف، دعوة مركزة واحدة ثم إنذار واحد: إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

و يَوْمٍ عَظِيمٍ فى هذه الإنذارات هو القيامة الكبرى، وبالنسبة لعاد يضاف يوم الصرصر يوم نحس مستمر، فيوم عذابهم عظيم فى الدنيا كما هو عظيم فى الآخرة.

ف إِنِّى أَخَافُ .. كما هى مقالة سائر المنذرين بين أيديهم ومن خلفهم، كذلك هى مقالة هود لعاد إذ يخوفهم بعذاب الدنيا قبل الآخرة وكما قالوا:

¹ الدر المنثور- اخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال: خير واديين فى الناس وادي مكة و وادية ارم بأرض الهند، و شر واديين فى الناس وادي الأحقاف و واد بحضر موت يدعى برهوت يلقى فيه أرواح الكفار و خير بئر فى الناس زمزم و شر بئر فى الناس برهوت و هى ذلك الوادي الذي بحضر موت. أقول: «ارم» هنا لا يعنى ارم ذات العماد، و إلا كان مطروحا مكذوبا على الامام علي إذ لا يقول ما ينافي القرآن: فان ارم فيه هي بالأحقاف.

قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّأَفِكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

توحى أن وعد عذاب يوم عظيم يختصهم كما طلبوه، وكما يعمهم وسواهم كعذاب عام يوم الآخرة، فقد يعنى اليومين العظيمين معا، أو يختص فى وعد هود يوم الدنيا، بعد ما وعدهم مرارا وتكرارا عذاب الآخرة.

فيا لهذا الحمق الصارم والكفر العارم أن عادا يعكفون على آلهتهم كأنها الحققة القاطعة، دونما خوف من عذاب يوم عظيم، لحد يتهددون نبيهم: «فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ». فلو ان عندهم احتمالا لصدق ذلك الوعد لعدلوا عن آلهتهم، ولكنما القلوب خاوية مقلوبة بما ظلموا، فهم فى نظرة العذاب، ويزعمون أن هودا هو الآتى بالعذاب، وكأنه إله مع الله!

قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّأَفِكُنَا، تصرفنا كذبا وافتراء «عَنْ آلِهَتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» من عذاب يوم عظيم «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» فى نبوتك وانباءك:

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ مَا تَجْهَلُونَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ: لا يعدوه إلى سواه وان كان نبي الله، ف «إِنَّمَا الْعِلْمُ»: علم العذاب الموعود: ما هو؟ كيف هو؟ متى هو؟ كل ذلك عِنْدَ اللَّهِ! وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ من وعد العذاب والوعد فقط، فلست أعلم ما هى حقيقة العذاب الموعود؟ ولا شكله وكيفيته؟ ولا متى يحين حينه، إنما وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ: بلاغا وإنذارا وعذابا أم ماذا! وكما فى نوح وأضرابه: قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١١: ٢٣).

وهذه هى السنة العامة فى معجزات المرسلين، انها من أفعال الله الخاصة وليست من أفعالهم، وانما تجرى بإذن الله على أيديهم أم بوعدهم تثبيتا للحجة، وإيضاحا للمهجة، اللهم إلا ما يظهر الله تعالى على غيبه من يشاء منهم، وكما أرى ابراهيم كيف يحيى الموتى أم ماذا^١.

ف «إِنَّمَا الْعِلْمُ علم المعجزات، كل العلم وبكل المعجزات عِنْدَ اللَّهِ وليس عندى.

^١ قد نشعب البحث عن المعجزات حقه فى محالها الأنسب إنشاء الله تعالى.

(و) انما أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ: من وعد العذاب ووعدته فقط:

وَ لَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ:

فيا لآية العلم هذه من زوايا ثلاث، قارعة حجتهم الداحضة: أولاً بانحصار علم العذاب الآية بالله، ثم انه ليس الا مبلغا عن الله، وأخيرا وَ لَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ: تجهلون لا عن جهل قاصر: الجاهل جهله، وانما عن تجاهل مقصر، وهكذا الأثرية الساحقة من الكافرين، أنهم متجاهلون تقصيرا، لا جاهلون قصورا:

وَ لَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَ حَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيَوْمٍ يَمُونُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (٦: ١١١) إذا فأقلهم جاهلون وهم القاصرون!.

إنه ليس فى حجتى ما ترتابون، ولا عندكم ما به تحتجون وَ لَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ فى كل ما تقولون وتقرحون من أقوالكم وأفعالكم، متخبطين فيها: وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ غُلُوبًا (٢٧: ١٤) وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَ اتَّبَعُوا فى هذه الدُّنْيَا لَغْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بُعْدًا لِعادٍ قَوْمٍ هُودٍ (١١: ٦٠).

أراكم تجهلون وحتى مصالحكم فى الحياة الدنيا، إذ تطالبون أخاكم المرسل إليكم بكل رفق وحنان، تحقيق وعد العذاب عاجلا غير آجل، متهددين إياه: لو لم يأت به فهو كاذب فى وعده!.

ترى كيف تجهلون مدى وعدى؟ فلم يكن إلا وعدا غير موقت، وأن الله يأتى به إذا شاء لا أنا، ولكنكم قوم تجهلون لغة الإنسان، فتستعجلون إلى ما تهوون غضا عما توعدون، ثم تكذبوننى سلفا إن لم آت بما تقرحون، وإن فى ذلك جهالات وحماقات:

١- وعدتكم ان الله يأتى بعذاب، وأنتم تطلبونه منى: فَآتِ بِهَا! ٢- ولم يكن الوعد مَوْتًا وأنتم تستعجلون: فَآتِ بِهَا وإذا لم استعجل فتكذبون: إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ: ثالث الحماقة الجهالة! داحضة بمثلت الحجة البالغة: إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ، وليس عندى علم لا يأتيان العذاب ولا بوقته، وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ، من رسالات الله ومن وعد العذاب من الله غير موقت: وَ

لَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ! فلنفرض اننى ما جئت بالعذاب، فكيف أكون كاذبا وليس التعذيب من شأنى؟ أو أجل عنكم العذاب فكيف لا أكون صادقا وليس التعجيل من شأنى؟. ثم وفى تعجيل العذاب كما عجل به عجاله دماركم فما ذا تريحون، أ فألهتكم هى التى تنجيكم من بأس الله، أ إفكاً ألهة ذون الله تُريدون! كما ولستم فى تأجيله تخسرون وتكذبون، إذ لم يكن الوعد كما تستعجلون، فأنتم أنتم الخاسرون فى عاجل العذاب وآجله، فكيف تحمقون فى مجابهة رسولكم الناصح الأمين، متهددين إياه بالتكذيب لو لم يأت بما تهوون، مواجهة الحجة بالتهديد الهاتك، والتشديد الفاتك .. وَ لَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ! فلو وقفتم عند حد فيما تجهلون! ولكنها مستمرة وحتى إذا جاءكم تحسبونه عارضا يمطركم: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ.

فَلَمَّا رَأَوْهُ: العذاب الموعود، والمستعجل به رأوه عارضا، سحابا يعرض فى الأفق ثم يطبق فى السماء مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ: تستقبل مخازن مياههم وكأنها موجهة لها لتمطرها وتملأها ماء، وذلك بعد ما أصابهم حر وعطش شديد قالوا: استبشارا بعارض ممطر بعد جذب، واستهزاء بهود: «هذا عارضٌ مُّمْطِرُنَا، تنديدا برسولهم وتكذيبا، فإذا بهم يسمعون منه بإعراض عن عارضهم الممطر بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ، من عذاب موعود: ريح، وليس سحابا عارضا، وإنما من ثخنها وتكاثفها خيل إليهم انها سحاب ريح فيها عذاب أليم»: تحمل أليم العذاب.

... وإنما ريح صرصر عاتية. سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٌ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ، (٦٩: ٨). وَ فِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ، (٥١: ٤٢) وهى ريح: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ:

تستقبلهم عاصفة مدمرة مزجرة، وقد بلغوا فى حمقهم لعمقهم أن حسبوها عارضة ممطرة، وهم أولاء ضحايا الزمجرة، فانحسموا حسوما صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية، و رمم بالية

فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ؟ اللَّهُمَّ لَا إِلَا بَاقِيَةً!

إن الصرصر العاتية دمرتهم - كما تدمر كل شيء - بحيث لا يرى إلا مساكنهم:
الأحقاف المبنية عليها ارمهم وبيوتهم، فالتدمير الاستئصال هو من طبيعة الصرصر
العقيم العاتية، ما تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ، فهل إنها ما أتت بيوتهم حين
أتتهم؟! أو أنها لم تكن شيئاً حتى تدمره، أو أنها في غير رميمها تحولت معهم رميماً فلا يرى
إلا الرميم، مساكن وأجساداً، أو بقيت من مساكنهم ما تدل على تدمرهم وتذمرهم، وعله
أولى لما قدمناه!

و من عجيب الأمر أنها خرجت في مثل خرق الإبرة...، أو مثل الخاتم^٢
فدمرت أشياءهم وإياهم وكذلك نَجَزَى الْقَوْمَ الْمَجْرِمِينَ، في دنياهم، فأولى لهم في أخراهم!
و ترى هل كان هو الأغياء ضعفاء ولذلك حسموا؟ كلا! وإنهم كانوا أقوى الأقوياء
وأقوى منكم:

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ
سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^٣.

آية التمكين هذه توحى أن عاداً كانوا أمكن من هوأء وأسمع وأبصر وأفأء، ولأنهم كانوا
يجحدون بآيات الله ويستهزءون ما أغنت عنهم ما فضلوا به من مكنة السمع والأبصار
والأفئدة وسواها، وحق بهم ما كانوا به يستهزءون، فأولى لهم أولاء: قوم الرسول محمد
صلى الله عليه وآله ألا تغنى عنهم مكنتهم وهى أضعف وأقل قدراً، فما هى مكنتهم الأقوى؟ وما هى
قوتهم فى الثلاثة الأخرى؟

^١ تناصراً من آيتي المساكن المرئية لحد الآن و الثانية: «وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ» اللهم الا ان يعني تبين البيان القرآني، لا الأبصار العياني.

^٢ روى الاول ابن بابويه القمي في من لا يحضره الفقيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله و الثاني في الدر المنثور ٦: ٤٤ - اخرج الطبراني و ابو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله. أقول: راجع ج ٣٠ آيات عاد في سورة الفجر و ج ٢٩ من سورة الحاقة.

^٣ لقد ذكرت عاد في ٢٤ موضعا من القرآن، و هذا دليل ان لهم موضعا عظيماً من الكفر و العناد، و من العذاب الشديد.

انهم - مع الآخرين المهلكين - كانوا احسن اثاذا ورءيا: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيَاءً»^١ (١٩: ٧٣) وأشد قوة واثارا: «أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ» (٤٠: ٢١).

ولأن عاداء العن حماقى الطغيان فليكونوا هم من أشدهم قوة واثارا فى الأرض، وأحسنهم اثاذا ورءيا، فأشدهم عذابا فى الآخرة والأولى.

هنا نتبين ان «إن، تنفى عن الحاضرين زمن وحى القرآن المكنة التى كانت عند عاد، فقوله من قال: انها زائدة، فارغة زائدة، إذ تنافى بلاغه القرآن وفصاحته، ولا تلائم الآيات الاخرى التى تؤد أن عاداء كانوا أشد وأقوى، على أن المساواة فى المكنة بين الغابرين والحاضرين لا تفيدهم عبرة.

ثم المكنة الأشد فى عاد تعنى القوى العقلية والعلمية والجسمية: «أَشَدَّ قُوَّةً» وقوى الجمال والمال والاثاث: «أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيَاءً» ومن ثم الآثار أية آثار:

«أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ»: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهَا».

ولعل آثار بعلبك من تلكم الآثار، التى تحدثت عن آصارهم فى حمل هذه الآثار: فكم من ضحايا رضخوا بدمائهم حمل هذه الصخور الضخمة، وكم من أشلاء فرشت لكى تقوم تحتها هذه العماد فى إرم عاد؟!.

ولقد جمعوا الكمال عقلا وجسما، والجمال رأيا ورءيا، أكمل من هواء وأجمل، فلم تك تغن عنهم لا مالهم ولا مالهم من رأى أو رعى، ولا قوتهم فى العقل والمال والجسم .. ولأنهم أذهبوا طبيائهم فى حياتهم الدنيا واستمتعوا بها ..

ثم الثلاثة الاخرى: السمع والأبصار والأفئدة، لا بد وأنها - كذلك - أقوى ولكى تزيدهم قوات إلى قوات، وإلا لم يكن لذكرها مجال، وبعد التمكين فى الأرض قوة واثارا، لأنهم والحاضرين ومعهم الناس، هم مشتركون فى أصول هذه الثلاث، وإنما الاختلاف فى

^١الرءي هو الجمال و المنظر الحسن كما عن الامام الباقر عليه السلام.

الدرجات: **وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، (٦: ١٦٥):** درجات فى مختلف الطاقات: سمعا وأبصارا وأفئدة أم ماذا، وقد تحول إلى دركات كقوم عاد، الذين بدلوا نعمة الله كفرا، **إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ،** ولم يستفيدوا من هذه الدرجات إيماناً بالآيات **وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ،** وكان حقا عليهم ما حاق بهم!

إنهم كانوا أسمع من هواء باذان مداركهم، وأبصر بأبصارها، وأفئد بقلوبهم المتفئدة: المتوقدة بأنوار العلوم المادية، **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ:** ما أغنت عنهم فى دفعهم إلى الإيمان إذ لم يستعملوها فى التسمع لآليات والتبصر بها والتفوءد لها، وإنما أخلدوا بها إلى الحياة الدنيا فجمعوا لها غافلين عن الاخرى، فما أغنت عنهم فى دفع العذاب، كما لم يندفعوا بها إلى الصواب والثواب.

كذلك والحاضرون المتحضرين، الذين بلغوا من المكنة، وفى السمع والأبصار والأفئدة- بلغوا قمتها، فيسمعون الأصوات من مشارق الأرض ومغاربها من الإذاعات، ويبصرون صورها من التلفزيونات، ويعقلون ويعلمون مختلف العلوم والاختراعات بالأفئدة: المتوقدة بأنوار العلم، وعلى أضواء هذا المثلث تمكنوا فيما لم يمكن فيه انسان التاريخ فيما نعلم.

كذلك هواء لا تغنى عنهم حضاراتهم بحذافيرها من شىء، ما هم مكذبون بآيات الله وجاحدون، وسوف يحيق بهم ما كانوا به يستهزئون: **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ** بما يؤعون، (٨٤: ٢٣).

فالعبرة التى يستفيدها كل ذى مكنة، وكل ذى سمع وبصر وفؤد، ألا يغتر ذو قوة بقوته، ولا ذو مال بماله، ولا ذو علم بعلمه، فإنها قوى من قوى الكون، لو لم تجر فى مجاريها، والسنن التى سنها الله، لرجعت عذابا وتبابا تدمر كل شىء، كما فعلت بعاد وثمود! فتلك عاد تدمروا وتدمروا، تسمعون أخبارهم وترون آثارهم، ولكى تعتبروا بهم وبأضرابهم:

وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ترى ما هى الصلة بين **أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ،** و**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ،** ف **هم،** أولاء قوم عاد وكم، هم الحاضرون فى الخطاب؟ ثم وكيف يرجع المهلكون بعد هلاكهم اللهم إلا إلى الله يوم الدين؟.

إن **ما حولكم،** تشمل قرى عاد وسواهم من المهلكين، ولقد صرف الله لهم من آياته قبل أن

يهلكهم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، فلما بقوا على ما طغوا ولم يرجعوا أهلكتهم الله. و من ثم فى «أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ»: المخاطبين بوحى القرآن، تذكير لهم بما جرى على القرون من قبلهم قبلهم لعلهم يرجعون، وإلا فثم الهلاك الدمار كما أهلك ما حولكم فما لكم لا تَوَنُّون؟

و تصريف الآيات هو صوغ آيات النبوات وسائر الآيات فى صيغ مختلفة حسب البيئات أو الطلبات، آيات تتوارد وتترى لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، عن غيهم ولكنهم ... صرفناها لهم لينصرفوا، إلا أن صيغة الكفر المعاند لا تنصرف، إلا إلى جهنم وبئس المصير.

أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ، كعاد بالأحقاف- ارم ذات العماد، وثمرود بالحجر، وسبأ باليمن وفى مدين أم ماذا، وهى من القرى التى كانت حول أم القرى، قريبة منها أو بعيدة عنها، فإنها أم القرى كلها، كما الرسول صلى الله عليه وآله أرسل لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا: كل القرى فإنها أيا كانت فهى حول المركز الرئيسى للدعوة الإسلامية العالمية.

و لكننا القرى الهالكة حولكم، القريبة تكفى عما هى بعيدة عنكم ومنها الأحقاف ومنها .. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ؟ .. وهل نصرتهم آلهتهم أم ضلت عنهم وأهتت؟: فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

و كيف ينصرونهم فى بأسهم وهم أولاء كانوا لهم جندا محضرين، يكفون عنها بأس الحاضرين لكسرها، فهو آء الآلهة القربان، ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، كيف لم تقرب عابديها إلى الله أو تشفع لهم أو تنفعهم حين بأسهم كما كانوا لها جندا محضرين؟: بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ: حين البأس: ضلالا عن كونها إذ دمرت بتدميرهم، وعن كيانها- باحرى- إذ ضلت الوهيتها الموفكة: واقعا إذ ما أثرت، وفى ظنهم: إذ عرفوا أنهم خاطئون، فحين البأس الموت تكشف الحقائق، ثم البرزخ معرض الكشف التام، ثم فى القيامة الأتم: لَقَدْ كُنْتَ فى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ، متحللا عن الكلل التى كانت من علل منك أو من حجاب الحياة الدنيا.

هود(ع) فى رسالته

يذكر هود فى القرآن كله سبع مرات فى حين يذكر عاد وقومه أربع وعشرون مرة، وهم عاد الأولى، (٥٣: ٥٠) وقد بشر به نوح عليه السلام من قبل^١ وصيغته الدعوة الرسالية وصبغها هنا هى صيغتها وصبغتها فى كافة الرسالات، فإنها رسالة موحدة يحملها رسل الله على مدار الزمن الرسالى مهما اختلفت فيها طقوس، حيث الأصل واحد هو الدعوة إلى توحيد الله وشرعته، وبراهين الرسالات هى الآيات الرسالية ومنها الرسل أنفسهم.

هنا هود يدعو عاداً إلى توحيد العبادة ورفض الأنداد بـ «إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ، إِذْ أَنْتُمْ مُعْتَرِفُونَ بِالْإِلَهِ الْأَصْلِ وَلَا بَرَهَانَ لَكُمْ فِيمَا تَدْعُونَ فـ «إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ».

ثم يزدود دعوته التوحيدية التى هى مبرهنه بكافه البراهين الفطرية والعقلية والآفاقية، بأنها لا تدعو لسوأل أجر عليها «إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي، وَإِيَّاكُمْ بِالْفِطْرَةِ التَّوْحِيدِيَّةِ» أ فلا تَعْقُلُونَ، التوحيد الحق وحق التوحيد بقضية الفطرة وسائر الآيات الآفاقية والأنفسية المعسكرة لإثباته دونما أية ريبة!^٢.

و تزويد ثان بإرسال السماء عليهم مدارارا وقد كانوا فى جذب تلمح له: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٤٦: ٢٤)، ثم وازدياد قوة إلى قوتهم مادية ومعنوية، مما يدل على أن «لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ» (٧: ٩٦) إذا ف «لَا تَتَوَكَّلُوا» عن الحق الناصع الناصح «مجرمين، ثمرات الحياة الإنسانية قبل إيناعها، والتوحيد الحق إيناع فى أعلى القمم من الحيوية الإنسانية السامية».

ذلك، ولكن لا حياة لمن تنادى، حيث تغافلوا وتجاهلوا عن بينة التوحيد الرسولية والرسالية

^١ بحار الأنوار ١١: ٣٦٣ عن الصادق عليه السلام قال: لما حضرت نوحا الوفاة دعا الشيعة فقال لهم: اعلموا ستكون بعدي غيبة تظهر فيها الطواغيت و أن الله عزّ و جلّ يفرج عنكم بالقائم من ولدي اسمه هو دله سمت و سكينه و وقار يشبهني في خلقي و خلقي و سيهلك الله أعداءكم عند ظهوره بالريح فلم يزالوا يترقبون هودا عليه السلام و ينتظرون ظهوره حتى طال عليهم الأمد فقسفت قلوب كثير منهم فأظهر الله تعالى ذكره نبيه هودا عند اليأس منهم و تناهي البلاء بهم و أهلك الأعداء بالريح العقيم التي وصفها الله تعالى ذكره- فقال: «ما تَنْزُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ» ثم وقعت الغيبة به بعد ذلك إلى أن ظهر صالح عليه السلام.

فانكروها غائلين قائلين: «يا هُوْدُ ما جِئْتنا بِبَيِّنَةٍ وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ».

هنا «ما جِئْتنا بِبَيِّنَةٍ» تعنى آية بينة على الرسالة التوحيدية، والرسول بأنفسهم فى حالاتهم و حالاتهم وفعالاتهم بينات ربانية وإن لم يأتوا بسائر البينات، وكما قال رسل المسيح عليه السلام جوابا عن شطحات المنكرين «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» (٣٦: ١٦) توجيها وجيها لهم إلى التربية الرسالية الباهرة فيهم، الظاهرة فى دعواتهم.

ثم «وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ» إذ لا حجة فيه، وهم منكرون حجج الرسالات كلها، رامين إياها بالسحر والكهانة على طول الخط، مجتئين جذورها باستبعاد أو استحالة رسالة بشر إلى بشر، وما إلى ذلك من حجج داحضة فى لجج من لججات.

ثم يلخصون قيلتهم هذه ب «إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» غضبا ناقما عليك إذ ترفضهم ولا تفرضهم، وكأنه يُوْنُ بهم فيخالقهم فى ألوهتهم، ف «قالَ إِنّى أَشْهَدُ اللّهُ وَ أَشْهَدُوا أَنّى بَرىءٌ مِّمّا تُشْرِكُونَ»:

أَشْهَدُ اللّهُ، بما ربانى بالدعوة التوحيدية الباهرة، فالله شهيد لرسالاته برسله: «قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» (٦: ١٩) ثم «وَ أَشْهَدُوا» كما تشهدون من دعوتى ودعايتى المتواصلة التوحيدية: «أَنّى بَرىءٌ مِّمّا تُشْرِكُونَ» مِنْ ذُونِهِ، ثم يتحداهم باعترائهم وألتهم إياه بأى سوء «فَكَيْدُونى جَمِيعاً» آلهة ومألوهين «ثُمَّ لا تُنظِرُونَ» وهذه المجاهرة بتلك البراءة استنهاض لهم بألتهم التى ألتهم أن يعترفوا ما أمكنهم، فلما رأوا أيديهم وإياهم فاضية. عن هذه الإرادة السيئة، فليعرفوا بطلان «اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ»! وليكن ذلك التحدى من عديد آيات رسالته البينات إذ فند مدعاهم أن ألتهم على شىء مما يحددونه.

و ذلك «إِنّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّى وَ رَبِّكُمْ ما مِنْ دابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِها» إِنَّ رَبّى عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

هنا «رَبّى وَ رَبِّكُمْ» فى أخذ كل ناصية للتدليل على شمول هذه الربوبية، ثم «وَ إِنَّ رَبّى» الثانية دون «وَ رَبِّكُمْ» لمكان نكرانهم أنه على صراط مستقيم فى ربوبيته، حيث اتخذوا له شركاء، إذا ف «رَبّى» أنا الرسول المربى برحمته وخاصة عنايته، إنه «على صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ما مِنْ دَابَّةٍ تَدْبُ فِي حَيَاتِهَا بَرِيًّا وَبَحْرِيًّا وَجَوِيًّا إِلَّا هُوَ اللَّهُ أَخَذَ بِنَاصِيَتِهَا، وَهِيَ حَيَاتُهَا بِكُلِّ مَلَابَسَاتِهَا، أَخَذًا بِحَيْطَةِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، دُونَ تَفَلُّتٍ لَوَاحِدَةٍ مِنْهَا عَنِ هَذِهِ الْأَخْذَةِ الرَّبَّانِيَّةِ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ، وَلَا تَلَفَّتْ لِرَبِّي عَنْهَا أَبَدًا، وَذَلِكَ «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فِي رَبُوبِيَّتِهِ الطَّلِيقَةِ الْحَلِيقَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ثَلَاثَةٌ، ١ صِرَاطُ الرَّبِّ بِرَبُوبِيَّتِهِ، ٢ وَصِرَاطُ الرَّسْلِ بِرِسَالَتِهِمْ ٣ وَصِرَاطُ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ بِسُلُوكِهِمْ صِرَاطَ الْحَقِّ بِدَلَالَتِهِمْ أَوْلَاءَ وَتَوْفِيقِ اللَّهِ، وَهَذَا دَوْرٌ «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» هُوَ دَوْرُ التَّدْلِيلِ عَلَى أَنَّهُ أَخَذَ بِنَاصِيَةِ كُلِّ دَابَّةٍ، وَلَكِنَّهَا سُلْطَةٌ عَادِلَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ وَليست مثل سائر السلطات قاصرة ومقصرة، فهو عادل حكيم لا ينحرف ولا ينحرف حيث الصراط المستقيم قضية ذاتية لربنا مهما كانت مختارة له دون إجبار.

ذَلِكَ، وَلِأَنَّ الْحَاجَةَ هِيَ السَّبَبُ لِأَيِّ ظَلْمٍ وَانْحِرَافٍ، سِوَاءَ أَكَانَتْ حَاجَةً عِلْمِيَّةً أَمْ كِمَالِيَّةً أُخْرَى فَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى الظلم الضعيف، وَلِأَنَّ رَبِّي أَخَذَ بِنَاصِيَةِ كُلِّ دَابَّةٍ بِحَيْطَةِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ الطَّلِيقَةِ. إِذَا ف «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وَكَأَنَّ قُوَّةَ الْعَدَالَةِ أَوْ الْعِصْمَةَ تَمْنَعَانِ أَصْحَابَهَا عَنِ التَّخَلُّفِ عَنِ صِرَاطِ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمِ، كَذَلِكَ - وَبِأُخْرَى - رَبَّنَا الَّذِي هُوَ الْحَقُّ نَفْسَهُ وَهُوَ الْعَدَالَةُ وَالْعِصْمَةُ غَيْرِ الْمَحْدُودَةِ نَفْسِهَا، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ نَفْسَهُ، وَلِأَنَّهُ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ فِي رَبُوبِيَّتِهِ، لِذَلِكَ يَدُلُّنَا عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ فِي عِبَادَتِهِ، فَلَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمًا فِي أَيِّ حَقْلِ مِنَ الْحَقُولِ، مَعْرِفِيَّةً أَوْ عَمَلِيَّةً إِلَّا وَهُوَ يَدُلُّ عَلَيْهِ وَيُوفِّقُ لَهُ: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ» (٨٩: ١٤) فَلَيْسَ اللَّهُ خَالِقًا فَقَطْ يَذَرُ خَلْقَهُ عَلَى قِصُورَاتِهِمْ وَتَقْصِيرَاتِهِمْ هَدْرًا لَا يَعْأَبُ بِهِمْ، بَلْ هُوَ الْحَفِيفُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ حَافِظُونَ، حَفِيفًا بِرَحْمَةٍ رَحْمَانِيَّةٍ لِكُلِّ الْكَائِنَاتِ، وَبِرَحْمَةٍ مَعَهَا رَحِيمِيَّةٌ خَاصَّةٌ لِلْخُصُوصِ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ سَبِيلَهُ:

«وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً» (٦: ٦١) (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ، (٨٢: ١٠).

أَجَلٌ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذَ بِنَاصِيَتِهَا، فَلَيْسَتْ تَسْتَقِلُّ أَيَّةَ دَابَّةٍ عَنِ اخْتِذِ اللَّهِ، وَهُوَ الْعِلَازُ الشَّدَادُ مِنْ قَوْمِهِ، إِنْ هُمْ إِلَّا دَوَابًا مِنْ هَذِهِ الدَّوَابِّ الَّتِي هُوَ أَخَذَ بِنَاصِيَتِهَا وَيَقْهَرُهَا بِقُوَّتِهِ، فَمَا

خوفى من هذه الدواب، وما احتفالى بها وهى لا تتسلط علىّ- إن كانت لها سلطة- إلا بإذن ربي.

وهذه الحقيقة التى يجدها صاحب الدعوة الربانية فى نفسه النفيسة لا تدع فى قلبه أية مجاله للشك والارتياب فى عاقبة أمره الناجحة مهما كانت إمرا، إذ لا تخرج على أية حال عن أمر الله، إذا:

فَإِنْ تَوَكَّلُوا فَقَدْ وَبَّلْتُمُوهَا مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ، (٥٧).

فَإِنْ تَوَكَّلُوا، أنتم أولاء الأنكاد البعاد، ف، قل، قد أبَلَّغْتُكُمْ ما أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، فمالي غيره ولا لكم سواء، من حجة بالغة تبلغ العقول غير المدخولة وقد أدت واجبي، ثم لا أتحسر من تكذيبكم وتعذيبكم، وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي، مكانكم بعد ما أخذكم بعذابه الموعود، قَوْمًا غَيْرَكُمْ، وَ لَا تَضُرُّونَهُ، فى كفركم إن بقيتم، ولا فى منعتكم من عذابه إن حاولتم ولا نقضا لملكه على أية حال، شَيْئًا، فَإِنْ لَهُ الأمر كله وما أنتم بمعجزين ربي ولا إباى، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ، بعلمه وقدرته وحكمته البالغة.

حفيظ، يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الضياع، وحفيظ، عليكم فلا تفلتون عن أخذته ولا تعجزونه هربا.

وهنا 'يستخلف ربي قوما غيركم، تحديد لخلافتهم أنفسهم عن قبلهم بتهديد، ف 'أذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، (٧: ٦٩) نبهة لهم فى هذه الرسالة، ثم 'يستخلف، تهديد بخلافة أخرى بعدهم حين يستأصلون عن بكرتهم.

ذلك لأن الحياة الأرضية هى حياة الخلائق، حيث يخلف بعضهم بعضا: 'وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ، (٦: ١٦٥) و'خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ، (٣٥: ٣٩) وليس يعنى أنهم خلفاء الله نفسه فى الأرض، إذ ٣٣٤

لا خليفه فى سماء أو أرض، وإنما هم خلائق خلائف يخلف بعضهم بعضا فى الحياة الأرضية، كل خلف لآخر خلفا وغير خلف.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا، باستئصالهم عن بكرتهم ب «الرَّيْحِ الْعَقِيمِ». مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ، (٤٢: ٥١) (بِرِيحٍ صَرْصَرَ عَاتِيَةً. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغْجِرُوا نَخْلًا خَاوِيَةً. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ، (٦٩: ٨).

و هنا «نَجَّيْنَا هُودًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، كما وفي الأخرى «نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ». و هنا مواصفة «عذاب، ب «غليظ، استعارة بالغة الحسن، حيث العذاب لا يوصف بالغليظ لأنه الألم الذى يلحق الحى فى قلبه أو جسمه، وإنما وصفه تعالى هنا بالغليظ إذ يوصف الأمر الهين بالضئولة والدقة كما يوصف الأمر الشاق بالغليظ والشدة، حملا لذلك على عرف المراعاة للشئ الغليظ الكثيف، وقله الحفل بالشئ الدقيق الضئيل، وكما يقال: عرض فلان دقيق وقدره ضئيل.

و وجه آخر أن يعنى بعذاب غليظ هنا عذاب الآخرة حيث يقع بالآلات المستعظمة والأعيان المستنظمة، كمقامع الحديد والحجارة المحمّاة، ومما يؤد أنه عذاب الآخرة ذكر، وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ، بعد «نَجَّيْنَا هُودًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا». و تلك، البعيدون البعيدون «عَادُوا جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، أَفَاقِيَةٌ وَأَنْفُسِيَّةٌ وَعَمُوا عَنْهَا وَصَمُوا، وَ عَصَوْا رُسُلَهُ، مهما عاشوا رسولا واحدا، فإن عصيان رسول واحد بين الرسالة هو عصيان للرسالات كلها فقد:

«كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ، (٢٦: ١٢٤) (وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ، (٤٦: ٢١) فهم كذبوا بهواؤا النذر إذ كذبوا بنذير بهم والسند واحد ولا تُفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، تاركين إتياع رسولهم وسائر رسل الله.

«وَ اتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، بعذابهم البغيض الغليظ، والتعانهم على ألسن الموعنين واحتساب سنتهم السوء عليهم ما بقيت إلى يوم الدين، فاللغات اللفظية من اللاعنين، والعملية من الملعونين بما خلفوه من السنن السيئة هى كلها تلحقهم إلى يوم الدين.

«وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وترى أين هنا البرزخ؟ هذه الدنيا تشمله حيث تشملهم لعنات اللاعنين و مثل أعمال الملعونين بهم وهم فى البرزخ، إذ «نَكُتَبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ وَ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي

إمام مُبِينٍ، (٣٦:١٢).

ثم لعنة يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مستمرة مع الأبد حتى يذوقوا وبال أمرهم، أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ، حيث ستروه عن فطرتهم وعقولهم فكفروا به، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ، بعدا في كل الأبعاد منذ المبدأ حتى المعاد.

فليس كَفَرُوا رَبَّهُمْ، هو كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، إَلَّا كُنْتُمْ، فالذى يكفر ربه عن نفسه احتجابا عنه، هو الذى يكفر به نتيجة كفره إياه، كفرا هو من خلفيات كفر، كما الإيمان بالرب هو من نتائج عدم كفر الإنسان ربه، حيث تظل منافذ فطرته وعقليته مكشوفة غير مقفلة ولا مغلقة.

ذلك، وهوَّاء الذين اتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة كانوا ذوى قوة وبسطة فى الخلق وبطش شديد، لهم تقدم ورقى فى الحضارة، ولهم بلاد خصبة عامرة، وقصور عالية عامرة، وناهيك إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ.

فهم على قوتهم وحضارتهم اتبعوا لعنة فى الدارين بما كذبوا رسل الله، وأشركوا بالله، وهم أظنى الطغات على الله وعلى عباد الله.

رسالة هود(ع)

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوْلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)

تأتى قصة عاد اربع وعشرين مرة فى سور عدة، فى نجمها توصف بالأولى (٥٠) مما يدل على انه اثنان، ولا خبر لنا عن الثانية، حيث الآيات كلها تتحدث عن الأولى، مما يدل على

أنهم كانوا اظلم واطغى، لحد أنسوها الأخرى.

و هنا تكرر المقالة البازغة بداية الدعوة الرسالية مرات خمس، تدليلا على وحدة الرسالات دعوة ومغزى، مهما اختلفت فى أحكام جزئية حسب المصالح الوقتية أما هيه، و هنا بعد عرض الرسالة- كما أسلفنا تفسيراها- يندد هود بقومه فى نبرات^١:

أَتَبْتُونُ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ١٢٨ والريح هو المرتفع الرائع: فكانوا يبنون بكل مرتفع من الأتلال والجبال والغابات، ام مرتفعات صناعية «آية، قصرا يشى بعضهم وصغار الآخرين «تعبتون، بآية الريح مختلف العبت: إسرافا فى زخرفات البنيان زيادة عن الحاجة الحيوية اللازمة بجنب الفقراء المعوزين، الذين قد لا يجدون أكواخا فيها يسكنون، وكما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ان كل ما بينى وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه»^٢

و تظاهرا وتفاخرا فى ذلك التكاثر حيث تبدوا هذه القصور من بعد كأنها علامات، تعلم بها مكانة أصحابها تطاولا ومقدرة ومهارة.

فآية العبت بنيانا إما ذا هى آية الرعونة والترف واللأمبالات فى الحياة، وكأنهم خلقوا عبثا ليعيشوا عابثين.

فالعبت فى آية ظاهرة من مظاهر الحياة هو آية التجاهل عن واقع الحياة ومسيرها ومصيرها، والتغافل عن مسئولياتها تجاه الله وخلقها.

و كيف يسمح الثرى لنفسه ان يعبت بالبنيان والملابس والأمكن والمناكح، على عيون العزل

^١ فى كتاب كمال الدين و روضة الكافي مسندا عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد ابن علي الباقر عليه السلام فى حديث و قال نوح ان الله تبارك و تعالى باعث نبيا يقال له هود و انه يدعو قومه إلى الله عز و جل فيكذبونه و إن الله عز و جل يهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤن به و ليتبعه فان الله تبارك و تعالى ينجيه من عذاب الريح، و امر نوح ابنه سام ان يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة و يكون يوم عيد لهم فيتعاهدون فيه بعث هود و زمانه الذي يخرج فيه، فلما بعث الله تبارك و تعالى هودا نظروا فيما عندهم من العلم و الميراث العلم و الاسم الأكبر و آثار علم النبوة فوجدوا هودا نبيا و قد بشرهم أبوهم نوح به فأمنوا به و صدقوه و اتبعوه فنجوا من عذاب الريح و هو قول الله عز و جل: «وَ إِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا» و قوله: «كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

^٢ فى المجمع- الخبر المأثور عن انس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وآله خرج فرأى قبة فقال: ما هذه؟ فقالوا له أصحابه: هذا الرجل من الأنصار،، فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم فى الناس أعرض عنه و صنع ذلك مرارا حتى عرف الرجل الغضب به و الأعراض عنه فشكى ذلك إلى أصحابه و قال: و الله إنى لأنكر رسول الله صلى الله عليه وآله ما ادري ما حدث فى و ما صنعت؟ قالوا: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فرأى قبته فقال: لمن هذه فأخبرناه فرجع إلى قبته فسواها بالأرض فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم فلم ير القبة فقال: ما فعلت القبة التي كانت ها هنا؟ قالوا: شكى إلينا صاحبها اعراضك عنه فأخبرناه فهدمها فقال: إن كل ما بينى وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه.

من ضروريات الحياة من البائسين المعدمين؟! وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩.

المصنع من الصنع وهو إجادة الفعل، فالمصانع هي المكانات الجيدة الحصينة حفاظا عن أية إصابة أرضية أو سماوية، من قصور حجرية أمأهيه، كالمنحوتة فى الجبال وكأنها تخلدhem فى الحياة أكثر من آجالهم المقدره لهم.

ذلك، وإما اتخاذ المصانع لدفع كيد العدو، أو السارق أماذا من مصالح حيوية عاقله فليس بذلك الممنوع، بل مسموح ممنوح.

وَ إِذَا بَطَشْتُمْ بِطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠.

فالبطشة الجبارة هي الظالمة المستكبره، وأما المدافعة اعتداء بالمثل فهي الحق العدل لكل مهاجم عليه فى أى ناموس من نواميسه الخمس أم نواميس الآخرين المحترمين، ولكنهم غلاظ متجبرون دونما تحرج فى بطشتهم، هجوما بدائيا أو دفاعيا.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا ١٣١.

تقوى عن كل مظاهر الطغوى ومعالمها، وطاعة لرسول الهدى فيما يفعله أو يقوله عن الله.

وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَ بَيْنِينَ ١٣٣ وَ جَنَّاتٍ وَ عَيْونٍ ١٣٤ إِنْى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣٥.

إمدادات ربانية فى تسهيل الحياة، تقتضى شكورا، فكيف تطغون فيما أمدكم، وتسطون بها على عباد الله، فان لم تحذروا حاضر العذاب ف 'إِنى أَخَافُ عَلَيْكُمْ' إذا متم بحالتكم البئسة عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، برزخا ويوم الدين.

أ تراهم اتعظوا بهذه العظات البالغة؟ وهى لا تصل إلى قلوب مقلوبة غليظة جاسية؟:

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ١٣٦.

'سَوَاءٌ عَلَيْنَا أ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وهنا مِنَ الْوَاعِظِينَ، قد تلمح إلى أن الواعظين كانوا عدة، عرضيا يرأسهم هود؟ أم طوليا قبله وبعده فى مثلث الزمان.

أم وحتى ان لم يبعث إليهم إلّا هود فهم بمقالهم هذا يكشفون عن حالهم تجاه الرسالات كلها: 'كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ ...

فتكذيب هود بهذه المثابة هو تكذيب المرسلين أجمعين.

إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلِقَ الْأَوَّلِينَ ۚ ١٣٧.

إن هذا، الذي تعظ به «إِلَّا خُلِقَ الْأَوَّلِينَ» من الواعظين، أساطير مكرورة طوال الزمن، وأكاذيب لصق بعض وتلو بعض.

أو إن هذا، الذي نحن عليه «إِلَّا خُلِقَ» آباءنا «الأولين»، فنحن على آثارهم مهتدون، وما نحن بتاركى خلقنا وهي تراث الأولين.

و قد يعنيهما «هذا» فإنهما من مقال الكافرين بالرسالات، وبناء عليه:

وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ۚ ١٣٨.

رغم ما تعدنا الوعود المكرورة من الواعظين الواعدين.

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۚ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ ١٤٠.

عرض خاطف لمصيرهم الهالك فى مسيرهم الحالك، يطوى فيه أطفى طغاه التاريخ وتطوى آيات كل ريع لهم ومصانعمهم وكل نعيم لهم، إلى عذاب مقيم!

ج سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٤١ الى ٩٥١ ج

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١٤٤) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَ تَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَ عَيْونٍ (١٤٧) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلَعَتْ هَٰضِمِيمٌ (١٤٨) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١٥٠) وَ لَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ ۚ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

ثمود، هم اخوان عاد فى الطغيان ورعونة الحياة، يتشابهان فى دورهم اللعين وكورهم

المهين، ودعوة صالح الرسالية هي نفس الدعوات ثم التنديد:

أُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝١٤٦.

«ما هاهنا، مشروح فيما هاهنا فِي جَنَّاتٍ وَغُيُوبٍ...» وقد اختص «و نخل» من بين شجرات الجنات لأنها أهمها ثمرة وإنتاجا، وكانوا يهتمون بها أكثر من غيرها، والطلع هو الطالع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ، والهضيم هو اللطيف من قولهم فلان هضيم الحشا أى لطيف البطن وأصله النقصان من الشيء كأنه نقص من افتتاح بطنه فلطفت معاقد خصره ومنه «فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَ لَا هَضْمًا».

و هو اليانع البالغ، والذي إذا مسّ تهافت من كثرة مائه ورطوبة أجزائه.

فهو النضيج الذي أرتب ثمره وهذه هي أفضل حالة لطلع النخل بدخول بعضه فى بعض فكأن بعضه هضم بعضا لفرط تكاثفه وشدة تشابكه.

وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۝١٤٩.

الفره هو الأشر، فالفاره هو الأشر البطر، والبيوت الجبلية هي الفره المرحه، يعبث بها حياة الفرح والمرح.

أُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا، من متعة الحياة وشرة اللامبالاه، فى جنات وشهوات «آمنين» من بأس الله الذى هو لا محالة آت؟

أ تظنون انكم «فى ما هاهنا» تتركون لحيونه الحياة، فى كل دعه ورخاء وكل متع الحيوانات؟ أ تتركون، لا يردعكم فوت، ولا يزعجكم موت.

لمسات موقظه تجذبهم إلى التقوى، ابتعادا عن الطغوى، ولكنها لا تلمس تلك القلوب المقلوبه، الجافه الجاسيه، إذ لا تصغى لها ولا تلين بها.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا ۝١٥٠ وَ لَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢.

فطاعة التقوى هي طاعة الله وطاعتي كرسول من الله، وطاعة الطغوى هي طاعة من سوى الله ولا سيما المسرفين فى التخلف عن الله وعن شرعته «الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» ساعين فى إفساد الحياة الأرضية فى كل جنباتها الإنسانية بل والحيوانية، «وَلَا يُصْلِحُونَ» أبدا.

فأصحاب الأمر والإمرة على طوائف ثلاث، مصلحون لا يفسدون وهم الدعاء إلى الله معصومين وسواهم، إلا خطأ من سواهم، ومصلحون قد يفسدون، أو مفسدون قد يصلحون، وهم نحسون حسب دركات إفسادهم، ومفسدون لا يصلحون وهم المسرفون في إفسادهم، وأثر المُسْرِفين، ليس - فقط - ما يقابل النهي، حيث الطاعة المنهية لا تخص هذا الأمر، بل والنهي المسرف أحرى ان تترك طاعته، كما النهي عن المنكر يتقدم الأمر بالمعروف، وانما الأمر هنا فعلهم وشأنهم وإمرتهم وأى أمر منهم بفعل أو ترك أم ماذا؟.

و اختصاص ترك الطاعة هنا لا يحصر النهي في طاعة أمرهم، فطاعة الأمر غير المعصوم صاحبه، أو المأثوم، هذه منهيّة على أية حال، «وَلَا تُطِيعُوا، هنا قضاء حاسم على الأمر الفادح الفاضح كأولى خطوة صالحة إلى الله، ومن ثم الخطى الأخرى التي تتبني الخطوة الأولى! تركا لطاعة من سوى الله ككل، إلبا رسول الله، وكل من يحمل عنه ما حمّله حليما تقيا، لحد يعتبر أمره أمر الله وكما عرف به الله.

فليس من صالح الدعوة الرسالية حمل الشاردين كهؤلاء البعيدين على الشرعة ككل، وانما يورون في البداية وينهون، في أوليات العقائد والأخلاق والأعمال، «وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ المُسْرِفينَ، تكفل هذه البداية دونما إفراط ولا تفريط.

قالوا إئنا إئت من المُسَحَّرين ١٥٣ ما إئت إلبا بشرٌ مثلنا فأت بآية إن كُنت من الصادقين ١٥٤. لقد حصروا كيانه الرسالي في السحر: «إئنا إئت من المُسَحَّرين، ولماذا؟ لأنهم حصروا كيانهم أنفسهم في الشهوات المضللة ضد الرسالات، وبطبيعة الحال ليست ردة الفعل ونبرة القول ل «إنما الضلالة وجاه، إنما الهدى إلا «إئنا إئت من المُسَحَّرين!». إذ «ما إئت إلبا بشرٌ مثلنا، تريد أن تتفضل علينا، وترى المماثلة في أصل البشرية مما يحيل الرسالة إلى البشرية لحد يحنن رسول البشر، أ فليست هنالك تفاضلات بين قبيل البشر، يجعل للفاضل جدارة في كيانه يحلق على المفضولين، وأفضل التفاضلات هي الرباط الروحي بين الإنسان وربّه، علميا وتربويا لحد العصمة بمراتبها، فهل المعصوم بعصمة إلهية لا تحق له الرسالة إلى البشر، لحد يرمى إلى السحر والجنون، ما هذا إلبا تذليلا لساحة الإنسانية وحظا من سماحته لحد لا تليق حمل رسالة إلهية إلى نفسها، فليكن الرسول من غير جنسها أم تبقى ضالا بلا رسول!.

و إنها شبهة تخايل للبشرية المتفلتة الشريرة كلما جاءها رسول، انها لا تستأهل ان يُوَ خبير السماء وهي عائشة الأرض، تغافلا عن القيم المودوعة لخليفة الأرض، وانها موهوبة القدرة على الاتصال بالملا الأعلى وهي مقيمة الأرض.

تبقى هنا آية تدل على ذلك الاختصاص، فليطلب بها مدعى الرسالة قبل رميه بالسحر،

ولكنهم عكسوا الأمر، تقديمًا لتهمة السحر على «فَاتِ بَايَةَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»:

قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ۚ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥٦. هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧: ٧٣) (وَ آتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. (١٧: ٥٩) (إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً

لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ (٥٤: ٢٧) هذه الناقة نفسها آية إذ خلقت دون ولادة متعوده، وكيف خلقت هي آية؟ أخرى بنا ألا نخوض فيه، فنكتفى بما قاله الله ناقةً لله لكم آيةً.

ثم وتقاسم الشرب وهو نصيب الشرب سويًا، آية أخرى، كيف تشرب ناقةً بمفردها كشراب جمهرة الناس المرسل إليهم صالح؟! وقد تكون نبعة الشرب آية ثالثة كما يروى^١ وهل ان هذه الآية المبصرة ابصرتهم؟ كلاً وهم عمى لا يبصرون:

فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ١٥٧.

و العقر هو إصابة الأصل والقعر، وهو بالنسبة للناقة النحر المستأصل نحروها نحرا لآية الرسالة، وأخذًا لشربها، وأكلا للحمها، فأصبحوا بعد ذلك وحين رأوا العذاب نادمين، ولات حين مناص، وتراهم عقروها كلهم؟ وهذا خلاف النص في آية القمر «فَنَادَوْا صَاحِبِهِمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩)»!

فهما كانت الشمس تعمه وسواهم كسائر آيات العقر: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا، (١٤) (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، (١١: ٦٥) - وذلك بعد عقروهم الناقة وتحديدهم صالحا بإتيان العذاب «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ آتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧):

^١ مجمع البيان و روي عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال: انه أول عين نبعت في الأرض هي التي فجرها الله عز و جل لصالح فقال: لها شرب و لكم شرب يوم معلوم.

(٧٨)، ذلك لأنهم شاركوا عاقرها إذ نادوه فتعاطى منهم سيفاً فعقرها كما فى آية القمر، فهم كلهم مشاركون فى درك عن درك، وقد عد عاقرها - فقط - أشقى الأولين.

أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه **فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ**، فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماء فى الأرض الخوارة.

و قد نستلهم من عقروها، أن كلّ مشارك فى ظلم أو معاون ظالماً يجمع معه فى إثمه، كل حسب دوره الفعال فى الجريمة، وحتى فى النية.

فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٥٩.

تعقيب مكرور بصيغة واحدة لمصير المكذبين، وليعلم ان صيغة الرسالات واحدة كصيغة المكذبين بها، سلسلتان متعارضتان فى هذه المعركة المصيرية إلى يوم الدين.

صالح (ع)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ٤٥.

تلخيصه لهذه الدعوة الرسالية ككل - مثل سائر الدعاء إلى الله - فى توحيد العبادة لله، وأخاهم، مما يشدد عليهم الحجة أنه كان يعاشرهم طيلة حياته، معروفًا لديهم غير منكر، دون أن تسبق منه سابقة سوء وضلال، فلم يكن غريباً عنهم مجهولاً لديهم حتى يشبهه أمره، فإذا هم، إثر الدعوة، فريقان، بعد وحدتهم فى الضلال، يختصمون، مع بعض تصديقاً لصالح وتكذيباً، والجمع هنا اعتباراً بالجمعين فى فريقين، فرقة مستكبرة كافرة، وأخرى مستضعفة مؤمنة، ومن اختصاصهم: **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ ٢٢٠**

مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قال الذين استكبروا **إِنَّا بِالذِّى آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** (٧:٧٦).

و **لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ**، هنا دليل ان آخرين منهم ظلوا ضالين تحت نير المستكبرين، فالمختصمون

ضد الرسالة كانوا هم الأكثرية الساحقة، والاختصاص هنا ذو بعدين، اختصا ما لهم مع الفرقة الموقنة، وآخر مع صاحب الرسالة، مهما كانت فجوته متروكة لآية أخرى لا تذكر هنا ان ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، (٢٩: ٢٩):-

قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنه لو لا تستغفرون الله لعلكم ترحموا ٤٦.

فالعاقل اللبيب يستعجل الحسنه دون السيئه، والمتنازل عن عقله كعادة للطائشين يستعجل الحسنه قبل السيئه، خلطا بينهما، والتنازل إلى أسفل الدرجات يستعجل السيئه قبل الحسنه، فبدلا من الايمان ولو تجربه، يكفر ويجرب العذاب المهلك حتى لا يبقى ظرف لحسنه الايمان، إذ لا إيمان بعد نزول العذاب، والمؤمن اللبيب يعيش حياة الاستعجال للحسنه ابتعادا عن أية سيئه، مستغفرا ربه عما أساء لعله يرحم.

فحتى لو كان الايمان بالله ضلالا فهو خير من عذاب الله القاضى على أصل الحياه، فيا لهم ضلالا ما أبعد ان يستعجلوا السيئه: العذاب قبل الحسنه: الايمان الصواب فالثواب، كفرقة أمثالهم من كفار قريش القائلة:

اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأنطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم، (٣٢: ٨) ويا للهول من هول الأوغاد الأنكاد حيث يحملون الجحيم فى أنفسهم نفسها ولما يدخلوها!

قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل ائتم قوم تفتنون ٤٧.

التطير هو التشاءم، وهو من عادات المجاهيل المتبعين الخرافات الجارفة والأوهام الخارقة، حين يهيم أحدهم بأمر يجهل صالحه من طالحه يلجأ إلى طائر يزره فان مر سانحا عن يمينه استبشر ماضيا فى أمره، وإن مر بارحا عن يساره تشاءم تاركا امرا حيث يتوقع ضره، وما يدرى الطير غيب الخير أو الشر وهو حيوان، فهذا الإنسان هو أحون من الحيوان وأضل سبيلاً.

هذا أصل التطير، ثم غلب استعماله فى التشاءم، ولأن الخير والشر راجعان إلى الإنسان بعمله، وأن عمله معه لا يفارقه: أن يطير عنه إلى غيره أم إلى الفناء، يسميه القرآن طائرا كما: «وكل إنسان الرّمناه طائره فى غنّفه ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك

كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا، (١٧: ١٣).

فطائر الإنسان - أيا كان - من خير أو شر، هو معه كما هنا، وهو عند الله كما في آيتنا: «قال طائرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ، حيث الأعمال راجعة طائره إلى الله، محفوظة لدى الله حيث يستنسخها الله: «هذا كتابنا ينطقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (٤٥: ٢٩) إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فكيف «اطيرنا بك وبمن معك، حين لا تصدر اعمالكم خيرة أو شريرة إلّا منكم ف «طائرُكُمْ مَعَكُمْ» ولا يصدر الجزاء الوفاق خيرا أو شرا إلّا من عند الله ف «طائرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» فما منا في هذا الميدان سلب ولا إيجاب، اللهم إلّا دلالة إلى الحق المبين بإذن الله! وليس طائرُكم معنا على أية حال: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ بِجَنَّةِ الْأَوْهَامِ وَظَنِّهِ الْأَحْلَامِ، فإن تعليق الخير والشر بغير العامل نفسه، إفضاء لكل عامل عن استقلالية الأعمال بآثارها، وذلك أنزل دركا وانذل من المكائن الأتوماتيكية، فإن نتائجها ترجع إليها دون اختيار منها، ٢٢٢ و هذا الإنسان الغيبى يحول خيره وشره بآثارهما إلى غيره وهو مختار: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ!» وتراهم اطيروا به وبمن معه بمجرد الدعوة دون أمر سواها؟

و من مواد طيرتهم الاختلاف الناشب بينهم اثر الدعوة! وعل منها إصابة الجوع كما يروى^١. هوّاء المفتنون الهاربون عن الايمان بالغيب الحق، الناسبين اليه الخرافة الحمقاء، نراهم يوتنون بالغيب الباطل الموهوم، من تطير وسواه من الخرافات الجارفة، فنراهم يعلقون همامة ضخمة على العدد (١٣) بنحوسته أيا كان، فالبيت المرقم به يكتب عليه ١٢١، بديلا عن ١٣، ويعلقون على مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم، وعلى كثير من الغيب الموهوم الذى لا سند له، مستبدلين الغيب اللامعقول بالغيب المعقول، مبتهجين متبجحين بما عندهم من الحضارات المادية، والخرافات الروحية «وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا!». «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ، امتحانا بفتنة الله ونعمته، وامتهانا بفتنة الشيطان ونعمته، فالليقظة الدائبة ومتابعة السنن وتتبع الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وبلاء هو الكفيل بتحقيق الخير

^١ نور الثقلين ٤: ٩٣ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية .. «فإنهم أصابهم جوع شديد قالوا: هذا من شوك و شؤ من معك أصابنا هذا القحط، قال طائرُكم عند الله» يقول: خيركم و شرکم من عند الله «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ» يقول: تبتلون بالاختبار.

فى النهاية؁ لا التطير بخلق الله.

فلا صدفه عمياء فيما يحدث من خير أو شر؁ وإنما اصابة قاصده هى من خلفيات الأعمال الفاسده؁ ف «طائرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» و«طائرُكُمْ معكم» ولا ثالث يحمل طائرا لكم أو عليكم.

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ٤٨.

تِسْعَةُ رَهْطٍ من المستكبرين؁ والمستضعفين الضالين تحت نيرهم؁ احزاب عدة مترابطة واحدة فى أصول الإفساد؁ تسعة فى مختلف محاولاته وشكلياته؁ والرهط هو العصابة دون العشرة أم دون الأربعين؁ فهم العصابات المتعصبه ضد الحق؁ الصارمه فى الإفساد الخالص حيث «يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ» وإن فى مجاله أو حالة واحدة؁ مكرسين كل طاقاتهم وإمكانياتهم فى مختلف حقول الإفساد؁ عقيدا وخلقيا أما هو من الإفساد فى النواميس الخمسة؁ التى هى محطات الإصلاحات الرسالية؁ ومن إفساد هواء التسعة أن:

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٤٩.

قالوا؁ فى تشاور بينهم على عديد رهطهم؁ حيث الكفر ملة واحدة مهما اختلفت حقوله و عقوله «تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ»: تشاركوا فى القسم بالله؁ امرا هو حصيلة الشورى اللعينة بينهم؁ و تكفى قالوا؁ أن تكون «تقاسموا» امرا؁ وكيف التقاسم التشارك بالله وهم مشركون بالله؟ لأنهم يؤنون بالله كرب الأرباب مهما أشركوا به سواه؁ فما التقاسم بالله عندهم بأدنى من التقاسم بأرباب سواه؁ بل وهو أحرى وأقوى! وعجبا من هواء الحماقى الأنكاد يتقاسمون بالله لبيتوا داعى الله؁ ويكأن الدعوة إلى عبادة الله وحده هتك لساحة الله حتى يقسم بالله فى قتل الداعية بأهله! وهكذا كان يخيل إلى جماعة من المشركين أن عبادة الله هتك له فليعبد سواه ليقر بهم إلى الله زلفى! «لنبيته» وهو قصد العدو ليلا لقتله «و أهله» هم زوجته وولده وكل من هو تحت عيلوته؁ «ثُمَّ لَنَقُولَنَّ» بعد تبيته لوليه؁ وهو بطبيعة الحال من غير اهله؁ أو غير الأهلين معه فى بيته؁ وهو ولى دمه «ما شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ» دون مهلكه وأهله؁ لأن غير الشاهد لمهلك أهله بأحرى ألا يشهد مهلكه نفسه؟ ولا أولوية فى هذا البين؁ وقد يكون عكس الأمر أولى أننا ما شهدنا مهلكه؁ فبأولى مهلك أهله؁ فإنهم معه بطبيعة الحال ليلا! والنص «مَهْلِكَ أَهْلِهِ»!

ضمير المفرد الغائب في «أهله، الثانى راجع إلى وليه فإنه أقرب مرجعا وأصح معنى، فصالح وأهله هم أهل لوليه، ف «ما شهدنا مهلك أهله، أى القتلى الذين هم أهله، وله المطالبة بدمائهم» وَإِنَّا لَصَادِقُونَ، فى «ما شهدنا».

ثم «مهلك» قد تعنى هنا مثلث المعانى، مصدرا وزمانا ومكانا للهلاك، اجتثا لى لكل بنود الاتهام، فلا خبر لنا إطلاقا عن زمان الهلاك ولا مكانه ولا أصله.

احتيال ساذج غير ناضح يطمئنهم فيما اعتزموه، تخلصا عن صالح ووليه وَإِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ:

وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٠.

«وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» لا مكرهم ولا مكرنا، شعورا بضاللة مكرهم، وشعورا بعاقبته فى مكرنا، وأين مكر من مكر؟ مكر جاهل قاحل، ومكر عالم كافل، مكر عن عجز تبييت، ومكر عن قدرة فى تبييت.

فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاَهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ٥١.

وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ٣٨.

و ليس فقط يزين سوء الأعمال فيرونها حسنا، بل وحسنا حيث يزينها لهم أكثر مما هى، فيعترون بها ولا يبالون بما يعترتهم من سوء:

«و لا يغرنك تزيينه الطاعات عليك فانه يفتح لك تسعة وتسعين بابا من الخير ليظفر بك عند تمام الماء، فقابله بالخلاف والصد عن سبيله والمصادة باستهوائه»^١.

فكلما يزينه الشيطان من أعمال خيرة وشريرة، هى ذريعة للصد عن السبيل، فحذار حذار من تزيينه وتسويله كيلا تقعوا فى فخه وأنتم تحسبون انكم تحسنون صنعا وأنتم مستبصرون تطلبون البصيرة، وتعمى عليكم المسالك بما زين لكم الشيطان أعمالكم، فأنتم - إذا - من الأخسرين اعمالا «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا».

^١ مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام بعد ان ذكر الشيطان: ...

و قد تعنى ، وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ، أن عادا و ثمود كانوا قبل أن رَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَاءَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، كانوا على بصارة وهدى فطرية و عقلية ، أم و شرعية ، إِلا أنها ما كانت ناضجة قويمه ، وعلى أية حال فمسرحة التزيين من الشيطان خطير خطير ، لا ينجو منه إِلا من عصمه الله وهداه ، وهو التارك هو اه إلى هداة إلى الله ، وَ مَنْ يَغْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

وَ قَارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ مَا كَانُوا سَابِقِينَ ٣٩ .

ذلك الثالث المنحوس ، القارونية الفرعونية الهامانية ، فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ، كل على حده و مده ، استكبار الثراء و السلطة الملكية و الوزارة الفرعونية ، ولكنهم مهما زَمَرُوا و أبرقوا و أَرَعَدُوا و عَرَبَدُوا ، ما كانوا سَابِقِينَ ، على مشيئة الله :

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠ .

فكلا ، من هُوَاء و اضربهم فى الاستكبار ، أَخَذْنَا ، ه ، بذنبه ، هنا ، و أخذهم فى الأخرى أخزى ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، وهم قوم لوط :

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ (٥٤ : ٣٤) فَالْحَاصِبُ - إِذَا - حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ ، وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، و منهم ثمود ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ، (٥٤ : ٣١) و منهم عاد : وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ ، (١١ : ٩٤) و منهم أصحاب ياسين بانطاكية إذ

٥٧

كذبوا المرسلين : إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ، (٣٦ : ٢٩) (وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، كَقَارُونَ ، فَخَسَفْنَا بِهِ وَ بَدَارِهِ الْأَرْضَ ، (٢٨ : ٨١) (وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَ فِرْعَوْنَ .

وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ، بما أخذهم بذنوبهم ، وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ، لم يظلمهم الله و لا هم ظلموا الله و إنما ظلموا أنفسهم بما استكبروا فأخذوا هنا اخذة طفيفة بما ظلموا .

و هذه العذابات الأربع: بالصيحة وهي هواء متموج سريعة الإيقاع، قرعا لالذنان وإلى الأعماق، وبالخاصب: حجارة من طين تتبدل نارا بسرعة الإرسال، وبالخسف: غمرا في التراب، وبالإغراق في الماء، هذه هي العناصر المخلوق منها الإنسان وهي الأربعة الشهيرة مهما كانت كل واحدة تشتمل على جزئيات وذرات، فقد أخذوا عذابا بما خلقوا من رحمة، وما عذابهم إلا صورة واقعية من اعمالهم ف «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟» فهوَّاء هم الذين اتخذوا من دون الله أولياء، أصناما وأوثانا وطواغيت، وإليكم مثلا واحدا في هوانهم هو العنكبوت، فكما بيته أوهن البيوت كذلك بيوت الإشراك أيا كانت هي كبيت العنكبوت:

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أ لَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (١٢٦) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أ تَتَّبِعُونَ كُلَّ رِيحٍ أَيَّ تَغْبُثُونَ (١٢٨) وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَ إِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (١٣١) وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَ بَيْنِينَ (١٣٣) وَ جَنَاتٍ وَ عَيْوُنٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ (١٣٧) وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَ إِنْ رَبُّكَ لَهَوَّ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)

تأتي قصة عاد اربع وعشرين مرة في سور عدة، في نجمها توصف بالأولى (٥٠) مما يدل على انه اثنان، ولا خبر لنا عن الثانية، حيث الآيات كلها تتحدث عن الأولى، مما يدل على أنهم كانوا اظلم واطغى، لحد أنسوها الأخرى.

و هنا تكرر المقالة البازغة بداية الدعوة الرسالية مرات خمس، تدليلا على وحدة الرسالات دعوة ومغزى، مهما اختلفت في أحكام جزئية حسب المصالح الوقتية أما هيه، و هنا بعد عرض الرسالة- كما أسلفنا تفسيرها- يندد هود بقومه في نبرات:

^١ في كتاب كمال الدين و روضة الكافي مسندا عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد ابن علي الباقر عليه السلام في حديث و قال نوح ان الله تبارك و تعالى باعث نبيا يقال له هود و انه يدعو قومه إلى الله عز و جل فيكذبونه و ان الله عز و جل يهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤن به و ليتبعه فان الله تبارك و تعالى ينجيهِ من عذاب الريح، و امر نوح ابنه سام ان يتعاهد هذه الوصية عند

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ١٢٨ والريح هو المرتفع الرائع: فكانوا يبنون بكل مرتفع من الأتلال والجبال والغابات، ام مرتفعات صناعية، آية، قصرا يشى بعضهم وصغار الآخرين «تعبثون، بآية الريح مختلف العبث: إسرافا فى زخرفات البنيان زيادة عن الحاجة الحيوية اللازمة بجانب الفقراء المعوزين، الذين قد لا يجدون أكواخا فيها يسكنون، وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «ان كل ما يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه»^١ و تظاهرا وتفاخرا فى ذلك التكاثر حيث تبدوا هذه القصور من بعد كأنها علامات، تعلم بها مكانة أصحابها تطاولا ومقدرة ومهارة.

فآية العبث بناينا إما ذا هي آية الرعونة والترف واللامبالاة فى الحياة، وكأنهم خلقوا عبثا ليعيشوا عابثين.

فالعبث فى آية ظاهرة من مظاهر الحياة هو آية التجاهل عن واقع الحياة ومسيرها ومصيرها، والتغافل عن مسئولياتها تجاه الله وخلقها.

و كيف يسمح الثرى لنفسه ان يعبث بالبنيان والملابس والآمكل والمناكح، على عيون العزّل من ضروريات الحياة من البائسين المعدمين؟! وَ تَخَذُونَ مِصْنَعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩.

المصنع من الصنع وهو إجادة الفعل، فالمصانع هي المكانات الجيدة الحصينة حفاظا عن آية إصابة أرضية أو سماوية، من قصور حجرية أمّيه، كالمنحوتة فى الجبال وكأنها تخلدhem فى الحياة أكثر من آجالهم المقدره لهم.

ذلك، وإما اتخاذ المصانع لدفع كيد العدو، أو السارق أماذا من مصالح حيوية عاقله فليس

رأس كل سنة و يكون يوم عيد لهم فيتعاهدون فيه بعث هود و زمانه الذي يخرج فيه، فلما بعث الله تبارك و تعالى هودا نظروا فيما عندهم من العلم و الايمان و ميراث العلم و الاسم الأكبر و آثار علم النبوة فوجدوا هودا نبيا و قد بشرهم أبوهم نوح به فآمنوا به و صدقوه و اتبعوه فنجوا من عذاب الريح و هو قول الله عز و جل: «وَ إِلَى عادِ أخاهُمْ هُودًا» و قوله: «كَذَّبَتْ عادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودُ أَلَا تَتَّقُونَ».

^١ فى المجمع- الخبر المأثور عن انس بن مالك ان رسول الله ﷺ خرج فرأى قبة فقال: ما هذه؟ فقالوا له أصحابه: هذا الرجل من الأنصار،، فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم فى الناس أعرض عنه و صنع ذلك مرارا حتى عرف الرجل الغضب به و الأعراض عنه فشكى ذلك إلى أصحابه و قال: و الله انى لأنكر رسول الله ﷺ ما ادري ما حدث فى و ما صنعت؟ قالوا: خرج رسول الله ﷺ فرأى قبتك فقال: لمن هذه فأخبرناه فرجع إلى قبتة فسواها بالأرض فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم ير القبة فقال: ما فعلت القبة التي كانت ها هنا؟ قالوا: شكى إلينا صاحبها اعراضك عنه فأخبرناه فهدمها فقال: إن كل ما يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه.

بذلك الممنوع، بل مسموح ممنوح.

وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝۱۳۰.

فالبطشة الجبارة هي الظالمة المستكبرة، وأما المدافعة اعتداء بالمثل فهي الحق العدل لكل مهاجم عليه في أي ناموس من نواميسه الخمس أم نواميس الآخرين المحترمين، ولكنهم غلاظ متجربون دونما تحرج في بطشتهم، هجوما بدائيا أو دفاعيا.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝۱۳۱.

تقوى عن كل مظاهر الطغوى ومعالمها، وطاعة لرسول الهدى فيما يفعله أو يقوله عن الله. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۝۱۳۲ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝۱۳۳ وَجَنَّاتٍ وَغَيْوٰنٍ ۝۱۳۴ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝۱۳۵.

إمدادات ربانية في تسهيل الحياة، تقتضى شكورا، فكيف تطعون فيما أمدكم، وتسطون بها على عباد الله، فان لم تحذروا حاضر العذاب فإني أخاف عليكم، إذا تم بحالتكم البئسة عذاب يوم عظيم، برزخا ويوم الدين.

أ تراهم اتعظوا بهذه العظات البالغة؟ وهي لا تصل إلى قلوب مقلوبة غليظة جاسية؟:

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ۝۱۳۶.

«سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون»، وهنا «من الواعظين»، قد تلمح إلى أن الواعظين كانوا عدّة، عرضيا يرأسهم هود؟ أم طوليا قبله وبعده في مثلث الزمان.

أم وحتى ان لم يبعث إليهم إلا هود فهم بمقالهم هذا يكشفون عن حالهم تجاه الرسالات كلها: «كذبت عاد المرسلين». إذ قال لهم ...

فتكذيب هود بهذه المثابة هو تكذيب المرسلين أجمعين.

إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۝۱۳۷.

إن هذا، الذي تعظ به «إلا خلق الأولين»، من الواعظين، أساطير مكرورة طوال الزمن، وأكاذيب لصق بعض وتلو بعض.

أو ان هذا، الذي نحن عليه «إلا خلق، آباءنا، الأولين»، فنحن على آثارهم مهتدون، وما نحن بتاركى خلقنا وهي تراث الأولين.

و قد يعينهما هذا، فإنهما من مقال الكافرين بالرسالات، وبناء عليه:

وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ۝ ١٣٨.

رغم ما تعدنا الوعود المكرورة من الواعظين الواعدين.

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ ١٤٠.

عرض خاطف لمصيرهم الهالك فى مسيرهم الحالک، يطوى فيه أطفى طغاة التاريخ وتطوى آيات كل ريع لهم ومصانعهم وكل نعيم لهم، إلى عذاب مقيم!

ج سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٤١ الى ٩٥١ ج

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١٤٤) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (١٤٧) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١٥٠) وَ لَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

ثمود، هم اخوان عاد فى الطغيان ورعونة الحياة، يتشابهان فى دورهم اللعين وكورهم المهين، ودعوة صالح الرسالية هى نفس الدعوات ثم التنديد:

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝ ١٤٦.

ما هاهنا، مشروح فيما هاهنا فى جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ ...، وقد اختص «و نخل» من بين شجرات الجنات لأنها أهمها ثمرة وإنتاجا، وكانوا يهتمون بها أكثر من غيرها، والطلع هو الطالع من النخلة كنصل السيف فى جوفه شماريخ، والهضيم هو اللطيف من قولهم فلان هضيم الحشا أى لطيف البطن وأصله النقصان من الشيء كأنه نقص من انتفاخ بطنه فلطفت معاقد خصره

ومنه فلا يخاف ظُلماً ولا هَضْماً.

وهو اللبانع البالغ، والذي إذا مسّ نهافت من كثرة مائه ورطوبة أجزائه. فهو النضيج الذي أرطب ثمره وهذه هي أفضل حالة لطلع النخل بدخول بعضه فى بعض فكأن بعضه هضم بعضاً لفرط تكاثفه وشدة تشابكه.

وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ ١٤٩.

الفره هو الأشتر، فالفاره هو الأشتر البطر، والبيوت الجبلية هي الفرهه المرحه، يعبت بها لحياء الفرح والمرح.

أُتْرِكُونَ فِي مَا هَاهُنَا، من متعه الحياه وشره اللآمبالاه، فى جنات وشهوات «آمنين» من بأس الله الذى هو لا محاله آت؟

أ تظنون انكم فى ما هاهنا، تتركون لحيونه الحياه، فى كل دعه ورخاء وكل متع الحيوانات؟ أ تتركون، لا يردعكم فوت، ولا يزعجكم موت.

لمسات موقظه تجذبهم إلى التقوى، ابتعادا عن الطغوى، ولكنها لا تلمس تلك القلوب المقلوبه، الجافه الجاسيه، إذ لا تصغى لها ولا تلين بها.

فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا ١٥٠ وَ لَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ ١٥٢.

فطاعه التقوى هى طاعه الله وطاعته كرسول من الله، وطاعه الطغوى هى طاعه من سوى الله ولا سيما المسرفين فى التخلف عن الله وعن شرعته، الذين يُفسدون فى الأرض، ساعين فى إفساد الحياه الأرضيه فى كل جنباتها الإنسانيه بل والحيوانيه، «ولا يُصلحون» أبدا.

فأصحاب الأمر والإمره على طوائف ثلاث، مصلحون لا يفسدون وهم الدعاه إلى الله معصومين وسواهم، إلا خطأ من سواهم، ومصلحون قد يفسدون، أو مفسدون قد يصلحون، وهم نحسون حسب دركات إفسادهم، ومفسدون لا يصلحون وهم المسرفون فى إفسادهم، وأمر المسرفين، ليس - فقط - ما يقابل النهى، حيث الطاعه المنهيه لا تخص هذا الأمر، بل والنهى المسرف أحرى ان تترك طاعته، كما النهى عن المنكر يتقدم الأمر بالمعروف، وانما الأمر هنا فعلهم وشأنهم وإمرتهم وأى أمر منهم بفعل أو ترك أم ماذا؟.

و اختصاص ترك الطاعة هنا لا يحصر النهى فى طاعة أمرهم، فطاعة الأمر غير المعصوم صاحبه، أو المأثوم، هذه منهية على أية حال، «و لا تُطِيعُوا، هنا قضاء حاسم على الأمر الفادح الفاضح كأولى خطوة صالحة إلى الله، ومن ثم الخطى الأخرى التى تتبى الخطوة الأولى! تركا طاعة من سوى الله ككل، إلاً رسول الله، وكل من يحمل عنه ما حمّله حلّما تقيا، لحد يعتبر أمره أمر الله وكما عرف به الله.

فليس من صالح الدعوة الرسالية حمل الشاردين كهؤلاء البعيدين على الشرعة ككل، وانما يورون فى البداية وينهون، فى أوليات العقائد والأخلاق والأعمال، «و لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، تكفل هذه البداية دونما إفراط ولا تفريط.

قالوا إنا أنت من المسخرين ١٥٣ ما أنت إلاً بشرٌ مثلنا فأتِ بآية إن كنت من الصادقين ١٥٤. لقد حصروا كيانه الرسالى فى السحر: «إنا أنت من المسخرين، ولماذا؟ لأنهم حصروا كيانهم أنفسهم فى الشهوات المضللة ضد الرسالات، وبطبيعة الحال ليست ردة الفعل ونبرة القول ل «إنما الضلالة وجاه «إنما الهدى إلا «إنما أنت من المسخرين!». إذ «ما أنت إلاً بشرٌ مثلنا، تريد أن تتفضل علينا، وترى المماثلة فى أصل البشرية مما يحيل الرسالة إلى البشرية لحد يجنن رسول البشر، أ فليست هنالك تفاضلات بين قبيل البشر، يجعل للفاضل جدارة فى كيان يحلق على المفضولين، وأفضل التفاضلات هى الرباط الروحى بين الإنسان وربّه، علميا وتربويا لحد العصمة بمراتبها، فهل المعصوم بعصمة إلهية لا تحقق له الرسالة إلى البشر، لحد يرمى إلى السحر والجنون، ما هذا إلا تدليلا لساحة الإنسانية وحطا من سماحته لحد لا تليق حمل رسالة إلهية إلى نفسها، فليكن الرسول من غير جنسها أم تبقى ضالا بلا رسول!». و إنها شبهة تخايل للبشرية المتفلتة الشريرة كلما جاءها رسول، انها لا تستأهل ان يوى خير السماء وهى عائشة الأرض، تغافلا عن القيم المودوعة لخليفة الأرض، وانها موهوبة القدرة على الاتصال بالملا الأعلى وهى مقيمة الأرض.

تبقى هنا آية تدل على ذلك الاختصاص، فليطلب بها مدعى الرسالة قبل رميه بالسحر، ولكنهم عكسوا الأمر، تقديمًا لتهمته السحر على «فأتِ بآية إن كنت من الصادقين: قال هذه ناقة لها شربٌ و لكم شربٌ يوم معلوم ١٥٥ و لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم

عَظِيمٍ ١٥٦. هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ، (٧: ٧٣) (وَ آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. (١٧: ٥٩) (إِنَّا مُرْسَلُونَ بِالنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِقْهُمْ وَ اصْطَبِرْ، (٥٤: ٢٧) هذه الناقة نفسها آية إذ خلقت دون ولادة متعمدة، وكيف خلقت هي آية؟ أخرى بنا ألا نخوض فيه، فنكتفى بما قاله الله نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ..

ثم وتقاسم الشرب وهو نصيب الشرب سويا، آية أخرى، كيف تشرب ناقة بمفردها كشراب جمهرة الناس المرسل إليهم صالح؟! وقد تكون نبعه الشرب آية ثالثة كما يروى^١ وهل ان هذه الآية المبصرة ابصرتهم؟ كلاً وهم عمى لا يبصرون:

فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ١٥٧.

و العقر هو إصابة الأصل والقعر، وهو بالنسبة للناقة النحر المستأصل نحروها نحرا لآية الرسالة، وأخذا لشربها، وأكلا للحمها، فأصبحوا، بعد ذلك وحين رأوا العذاب نادمين، ولات حين مناص، وتراهم عقروها كلهم؟ وهذا خلاف النص في آية القمر، فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ، (٢٩)!

مهما كانت الشمس تعمه وسواهم كسائر آيات العقر: فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا، (١٤) (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، (١١: ٦٥) - وذلك بعد عقروهم الناقة وتحديدهم صالحا بإتيان العذاب، فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ آتِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ، (٧: ٧٨)، ذلك لأنهم شاركوا عاقرها إذ نادوه فتعاطى منهم سيفا فعقرها كما في آية القمر، فهم كلهم مشاركون في درك عن درك، وقد عد عاقرها - فقط - أشقى الأولين.

أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه، فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ، فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخشفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة..

و قد نستلهم من عقروها، أن كل مشارك في ظلم أو معاون ظالما يجمع معه في إثمه، كل

^١ مجمع البيان و روي عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال: انه أول عين نبعت في الأرض هي التي فجرها الله عز و جل لصالح فقال: لها شرب و لكم شرب يوم معلوم.

حسب دوره الفعال في الجريمة، وحتى في النبوة.

فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ ١٥٩.

تعقيب مكرور بصيغته واحدة لمصير المكذبين، وليعلم ان صيغته الرسالات واحدة كصيغته المكذبين بها، سلسلتان متعارضتان في هذه المعركة المصيرية إلى يوم الدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرًا لَكَ فَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَسِّمُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَاقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

تنزل هذه السورة كلها في مكة المكرمة، في فترة محرجة موحشة من هذه الرسالة القدسية، يعانها الرسول صلى الله عليه وآله من الجاهلية الجهلاء القرشية، تهريجا لجو مكة ضده، وتهريجا لصاحب الدعوة، ضربا وشتما وحصر في شعب أبي طالب وفي النهاية تهجيرا الى المدينة، فقد أخرجوه طيلة العهد المكي حتى أخرجوه، فتقص له فيها أحسن القصص توطينا وتوطيدا لخاطره الشريف، حين يسمع قصة أخ له من قبل يعانى صنوف المحن من إخوة له فى النسب، وهذا النبى يعانى المحن من قومه، وعلى الجملة فإن هذه السورة ترسم له من قصصها صورة عسيرة من دعوة سابقة بين حاسدين يتربصون بها كل دوائر السوء، وهى فى ختامها يسيرة حيث يرجع صاحب القصة أميرا كبيرا بيده أزمة امور الملك بعد ما عاش ردحا بعيدا من زمنه عبدا صغيرا يشرى بثمن بخس دراهم معدودة، ثم يزوج فى السجن فى تهمة وقحة! وكذلك أنت يا صاحب الرسالة القدسية- وبأحرى- فإن مع العسر يسرا، سوف ترأس فى مهاجرك دولة الإسلام، ويصبح ختامك خير ختام بحول الله الملك العلام.

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

«الْكِتَابِ الْمُبِينِ» هو القرآن المفصل، وهو المجمل المنزل ليلة القدر، وهو أم الكتاب لدى الله على حكيم!

فان كان هو القرآن المفصل، ف «تلك» المفصلات كهذه السورة وسواها آياته، وإن كان هو المجمل فكذلك الأمر، ولكنها تفصيل آياته، أم إن «تلك» إشارة إلى «الر» أنها آيات الكتاب المبين النازل على الرسول في ليلة القدر، قرآنا على شخص الرسول كبريئة رمزية، لا عربيا في لغته حيث الحروف المقطعة لا تخص لغة دون أخرى، ولا عربيا في تعقله حيث لا يعقلها غير الرسول صلى الله عليه وآله - ولكنها منها وليست كلها، إلا أن ضمنيتها في هذه الثلاث تحل مشكلة التبعض، وقد تكون هذه الأحرف حاملة غير الذي أنزل عليه ليلة القدر، أم تعمهما، ومهما يكن من شيء فإنها مفاتيح كنوز القرآن الخاصة بصاحب الوحي، و هي الكنوز التي لا تفتح بآياته المفصلات، مهما كانت مفاتيح لكنوز أخرى للمرسل إليهم.

ف «إِنَّا جَعَلْنَاهُ»: الكتاب المبين للرسول، المجمل عن غير الرسول «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» لغة عربية ولسانا عربيا: واضحا لا خفاء فيه في أي حقل من الحقول ولكل العقول. ف «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» لا تعنى - فقط - العرب، فإنه «هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» بل تعنى كافة العقلاء.

فالقرآن المبين، المنزل على قلب الرسول صلى الله عليه وآله في هذه الحروف الرمزية أم سواها من رموز، ليس عربيا يعقله غير الرسول، وقد جعله الله بتنزيله للعالمين «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» واضحا مكشوفًا لا تعقيد فيه «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

فهو عربى اللفظ والمعنى، عربى الدلالة والمدلول، عربى فى التفهم والتطبيق، لا تعقيد فيه دعوة وداعية، وقد يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله بشأن العربى قوله صلى الله عليه وآله: أحب العرب ثلاث، لأنى عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى^٢ وليس هذا من حب الذات، وإنما

^١ راجع تفسير الكتاب المبين الى سورة الزخرف تجد تفصيله الثلاث.

^٢ الدر المنثور ٤: ٣- اخرج الطبراني و ابو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس، قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله... واخرج الحاكم عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وآله تلا قرآنا عربيا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألهم إسماعيل هذا اللسان العربى إلهاما وفي تفسير الالوسى ١٢: ١٧٢ عن الشيرازي في كتاب الألقاب بسند عن محمد بن علي بن الحسين عن أبياته عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل و هو ابن اربع عشرة سنة.

حب النبوة السامية، وحب القرآن وحب الجنة، فالقرآن ونبية عريبان واضحان دون خفاء، والجنة عريبة واضحة لأهلها! لعلكم ايها العقلاء تعقلون، فالعقل قد يعقل إذا تعقل وشاء الهدى، وقد لا يعقل إذا لم يتعقل أو شاء الردى، ف لعل، الترجى هنا وفى سائر القرآن، لا تعنى شكا فى ترج لساحة الربوبية، وإنما هما فيمن خوطب بالقرآن، فالهدى محتومة فى دعوة القرآن لأنه غير ذى عوج، وهى غير محتومة فى المدعوين بالقرآن بما فيهم من عوج. نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ (٣).

القص هو تتبع الأثر: «فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا» (١٨: ٦٤) (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه (٢٨: ١١) وهو الأخبار المتتبعه:

فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ، (٧: ١٧٦) وليس جمعا، بل هو جنس الخبر المتتبع والأثر: إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ (٣: ٦٢) وإنما لم يأت باسم الخبر او الأثر حيث القصص هو الخبر والأثر المقصوص المخصوص، فليس القرآن كتاب حكاية، ولا كل خبر وأثر، بل فيه المقصوص من أثر أو خبر «عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ (١١١) (لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ، (٧: ١٧٦).

و قصة يوسف بين القصص هى أحسن القصص بما أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، وهو أحسن حديث فى قصص وغير قصص: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي... (٣٩: ٢٣) ف (إن احسن القصص وأبلغ الموعظة وأنفع التذکر كتاب الله عز ذكره)!

و مهما كان القرآن أحسن حديث، وقصصه أحسن القصص، ولكن قصة يوسف قد احتلت القمة المرموقة بين القصص، حيث فيها «عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ» محلقة على كل الأبواب معرفية وخلقية، فردية وجماعية، اقتصادية وسياسية وثقافية ومن سلطة شرعية او زمنية أما هيه من حقول الدعوة والداعية، والدوائر المتربصة بالدعاة إلى الله.

و بما أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، يعمم الأحسن فى وحى القرآن كله ومنه القصص، وهذا

^١ روضة الكافي خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام و فى الدر المنثور ٤: ٣ و اخرج ابن جرير عن عون بن عبد الله قال: مل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله حدثنا فانزل الله «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ.. ثم ملوا مرة أخرى فقالوا يا رسول الله حدثنا فوق الحديث و دون القرآن يعنون القصص فانزل الله «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ هذه السورة فأرادوا الحديث و أرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص.

الْقُرْآنَ. يميزه عن سائر قرآن الوحي المقر وعلى سائر رجالات الوحي، فما ذا بعد القرآن- إذا- وهو أحسن الحديث واحسن القصص وكما يروى عن نبي القرآن تنديدا بمن نسخ كتابا غير القرآن يا ايها الناس انى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لى اختصارا ولقد آتيتكم به بيضاء نقيه فلا تهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون ...¹.

و قد ذكرت قصص يوسف فى العهد العتيق ولكنه سيئ فى جهات وحسن فى أخرى، وهى فى القرآن أحسن القصص فى بعدية، نسبة إلى التورات، وأخرى إلى سائر قصص القرآن من حيث كونها عبرة لأولى الألباب.

نَحْنُ نَقْصُ ... وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ، فإنه قبل وحى القرآن ما كان ليعلمه، أ بوحى يعلمه؟ ولم يكن يوحى إليه! أم بغير وحى؟ ولم يكن يعلمه أصحاب الوحي من قبل فضلا عن غير وحى! قصص يوسف هنا فى هذا القرآن تمثل النموذج الأكمل لمنهج القرآن فى الأداء الفنى للقصص، قدر ما يمثل نفسيا وعقيدا وتربويا وحركيا، ويوسف هو الشخصية المثالية الرئيسية فى القصة، فى عرض واسع، ذكرنا لما فيه عبرة لأولى الألباب وحذفا لما لا يعنى إلّا تطويل الأبواب.

تذكر خوضه فى مختلف الابتلاءات والبلبات، وخروجه عنها كلها نقيًا متجردا متبلورا خالصا عن كل رين وشين.

و مع استيفاء القصة لكل ملامح الواقعية فى ذلك العرض العريض، حيث أصبحت السورة كلها صورة رائعة عن هذه الشخصية اللامعة، وعرضا لثورة أخلاقية وعقيدية فى معرض الاصطدامات الشديدة، فإنها تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام فى الأداء الفنى الصادق الفائق لواقع القصة.

تظل القصة فى ظلال ذلك الأداء الأمين الرصين نظيفة عن كل خالجة خارجة عن طور

¹ فى الدر المنثور ٤ : ٣ و اخرج ابو يعلى و ابن المنذر و ابن ابي حاتم و نصر المقدسي فى الحجة و الضياء فى المختارة عن خالد بن عرفطة قال كنت جالسا عند عمر- و ذكر انه ضرب رجلا من عبد قيس لأنه نسخ كتاب دانيال و امره بمحوه ثم قال له اجلس فجلس بين يديه فقال: انطلقت انا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب ثم جئت به فى اديم فقال له رسول الله صلى الله عليه واله ما هذا فى بك يا عمر: فقلت يا رسول الله صلى الله عليه واله كتاب نسخته لنزداد به علما الى علم فغضب رسول الله صلى الله عليه واله حتى احمرت وجنتاه ثم نودي بالصلاة جامعة فقالت الأنصار اغضب نبيكم السلاح فجاؤ حتى احدقوا بمنذير رسول الله صلى الله عليه واله فقال صلى الله عليه واله ايها الناس انى قد أوتيت .. قال عمر فقمت فقلت رضيت بالله ربا و بالإسلام دينا و بك رسولا ثم نزل رسول الله صلى الله عليه واله.

الواقع، لتجعل أولى الألباب معتبرين بالأمر الواقع، بعيدة عن التخيلات اللاصقة، والتطفلات اللاحقة، والترنمات الماحقة لأصالة القصة.

فالسورة بكاملها ثورة أخلاقية عقيدية جماعية سياسية اقتصادية أمأهيه، بمن يحتفون بشخصيتها المحورية- يوسف الصديق عليه أفضل الصلاة والسلام- بين يعقوب الوالد الملهوف، وبين الإخوة في كل حقد وموْمره ومناورة، إلى أن شره بثمن بخس دراهم معدودة، وبين عزيز مصر وامراته بكل غرائزها واندفاعاتها الأنثوية الرديئة، وبين النسوة من طبقة عليته في مصر الفراعنة، وبين أصحابه في السجن، وإلى أن أصبح هو عزيزا يرأس بلاد الفراعنة في كل صدق وصفاء وهيمنة الرسالة! إذ قال يُوسُفُ لِأَيِّهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ.

«يوسف» هو ابن يعقوب إسرائيل، وعلى حد تعريف الرسول صلى الله عليه وآله: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم»^١.
و «أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا، أ تراها معيئة لديه معنيئة حين رآها كاتصال الإخوة بالأخوة، وكما الشمس والقمر المعروفان؟ علها هيه كما في رواية^٢.

أم ليست هيه إذ لا تلمح لها الآية، اللهم إلا نسبة بينها وبينه تلوح للأخوة.
و هل السجدة هذه كانت ليوسف عليه السلام؟ ولا يسجد إلا لله! إنما «سجدوا شكرا لله وحده حين نظروا إليه وكان ذلك السجود لله تعالى»^٣ و سجود الكواكب والنيرين هنا علّه سقوطهما على قدميه ليعنى غاية الخضوع، وإلا فهي خاضعة لله منذ تكوينها وفي حرركاتها.

^١ الدر المنثور ٤: ٤- أخرج احمد و البخاري عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ..

^٢ المصدر ٤: ٤- أخرجها بطرق عدة مصححة عن جابر قال جاء بستاني اليهودي الى النبي صلى الله عليه وآله فقال يا محمد اخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام تساجدة له ما اسماءها فسكت النبي صلى الله عليه وآله فلم يجبه بشيء فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى البستاني اليهودي فقال: هل أنت مؤمن ان أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم قال صلى الله عليه وآله: حرثان و الطارق و الذيال و ذو الكفتان و قابس و دثان و هودان و الفيلق و المصبح و الضروح و الفريخ و الضياء و النور رآها في أفق السماء ساجدة له فلما قص يوسف على يعقوب قال: هذا امر مشئت بجمعه الله من بعد فقال اليهودي اي و الله انها لأسمائها.

^٣ نور الثقلين ٢: ٤١٠ في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: تأويل هذه الروا انه سيمالك مصر و يدخل عليه أبواه و اخوته، اما الشمس فأمر يوسف راحيل، و القمر يعقوب، و أما الأحد عشر كوكبا فأخوته فلما دخلوا عليه سجدوا شكرا لله.

و لماذا ، رأيت ، مرتين وهى رُوًا واحدة؟ كأن الاولى هى الرواُ والثانية هى الرواُة فيها فالأبلغ الأوضح تكرارها.

و ترى لماذا بالنسبة للكوكب والشمس والقمر هم .. ساجدين، وهى لا تعقل؟ عله حيث نسب إليها فعل من يعقل ،ساجدين، ناسبها ضمير العاقل، وكما فى أضرابها: و كل فى فلک يسجون، يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ، وَ قَالُوا لِيَجْلُدِهِم لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا، فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ.

فقد حسن استعمال ضمير العاقل فيها لمكان فعل العاقل، وهنا مزيد تحويلًا لتأويل الرواُ و هو أبو يوسف واخوته، فجرى الوصف على تأويل الرواُ ومصير العقبي، فزاد حسنا على حسن.

ثم الرواُة هى الرواُة فى المنام، وهى تعمها وكل ما يرى فى غير حالة اليقظة الكاملة من إغماء، أم حالة بين النوم واليقظة، كما المنام يعم النوم باختيار ودون اختيار، وفى اختياره يعم اختيار مقدمات له، أم اختيار النوم بتجريد النفس وتخليها عن البدن بحواسه الظاهرة، والرواُة تحصل فى كل هذه الخمس مهما كان أكملها النوم التام باختيار أم دون اختيار، فى نوم حيونة الحواس أم إنامتها باختيار.

و المناسب منها لساحة يوسف الصديق هو ما دون الإغماء، والأنسب بين الأخرى هو الإنامة باختيار، ولا برهان لها فيما هنا، فان رُوَّ الأنبياء شعبات من الوحي، كما فى سائر الرواُة الصادقة، فإن فيها لمحات الوحي، حيث ترى سيرة الواقع فى ظلال الصورة المناسبة لها، الوطيدة الصلة بها.

فقد يرى الواقع الغيب بسيرتها وصورتها الحقيقية، وهذه تخص رجالات الوحي ومن يحظو حظوهم، إذ يحذو حذوهم، ام ترى بصورتها

المثالية، فهى بحاجة إلى تأويل، وهذه تعمهم وسواهم ممن يرى الرواُة الصادقة، ورواُة يوسف هذه من الثانية، كرواُة صاحبيه فى السجن:

قالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَ قَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ... (٣٦) و كرواُة الملك: وَ قَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ

عِجَافٌ وَ سَبَّحَ سُبُّلَاتِ خُضْرٍ وَ أُخْرَ يَابِسَاتٍ .. (٤٣).

و قد تكون منها رُوًا ما أوحى إلى أم موسى: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ (٢٠: ٣٩) فإنه وحى الإلهام وعله في الروا كما يروى، أم في اليقظة كما تحصل للصالحين.

و من رُوًا النبوة العليا للرعيل الأعلى: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُوْلَهُ الرُّوْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَهُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ، (٤٨: ٢٧) وإذ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ تَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ، (٨: ٢٣) (و ما جعلنا الروا التي أرىناك إلّا فتنة للناس، (١٧: ٦٠) وفي ابراهيم، إني أرى في المنام أنى أذبحك .. (٣٧: ١٠٢).

و الرسول ﷺ يرى في هذه وتلك صورة الواقع نسخة طبق الأصل، دون المثال الذي يحتاج الى تاويل.

فالنفس تتجرد حالة المنام عن حيونة التعلق ببدنها، فقد تشف أكثر مما كانت قبل المنام، فترجع إلى عالمها المسانخ لها، فترى بعض ما فيه من الحقائق قدر استعدادها وفعاليتها وقابليتها، وقد لا تكشف لبقية التعلق والاتصال بما تحويها من حواجز خارجية او داخلية ليست لتتخلى عنها، فلا تتخلى إذا بالكشف عن الحقائق.

فالنفس الكاملة تدرك الحقائق مجردة عن الصور الطارئة، وغيرها قد تدركها بطارئة الصور التي تأنسها، وهذه الصور قد تكون قريبة الصلة والحكاية عن حقائقها، وهي للأصفياء، أمن يصفو لفترة مصلحية وإن لم يكن من الأصفياء.

و قد تكون متوسطة الصلة أو بعيدتها عن حقائقها، فيصعب تأويلها، حين تختلط وتتخربط الصور المماثلة والمضادة للحقائق، فتضل عنها ولا مَوَّل لها مهما كان لها تأويل، اللهم إلّا من علم تأويل الأحاديث، وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ.

فمن الروا ما هي صادقة حيث ترى فيها الحقائق بصورها الواقعية، او القريبة، ومنها الكاذبة حيث لا ترى فيها الحقائق إلا بصور غريبة بعيدة يصعب تأويلها إليها وهي أضغاث أحلام، ذلك لاختلاف حالات النفس في منامها، ومنها ما هي كاذبة لا تأويل لها إطلاقا، إلّا

حكاية عن طوارئ النفس خارجية وداخلية.

فالروّ المتجردة عن اسباب خارجية طبيعية في اليقظة والنام، وعن اسباب مزاجية او خلقية، هي الصادقة، سواء في الصور المجردة، أم التي لها صلة بالواقع قريبة أم غريبة، والأخيرتان بحاجة إلى تأويل.

و لكنما الروّ المرتبطة بأسباب سوى الواقع، هي المرتبطة البعيدة عن الواقع، وليس لها تاويل أبدا.

و على أية حال فلا مجال لانكار أن هناك الروّ الصادقة^١ حيث تخبر عن الغيب ماضيا او حاضرا او مستقبلا، حين تصفو النفس أصالة كالأصفياء، ام ابتلاء وتذكيرا لفترة او فترات كما في البعض من روّ غير الأصفياء.

فما منا صالحا وطالحا إلّا وقد رأى في منامه ما يكشف له بعض المغيبات، ما لا سبيل إليها بالسبل الطبيعية والكسبية المتعودة، واما روّ الصالحين الصادقة فكثيرة كثيرة، ودرجات الكشف في الروّ حسب درجات أصحاب الروّ، كما وتأويلاتها في صورها المتوسطة والبعيدة بحاجة الى درجات من الكشف لمن يؤلّها إلى حقائقها، ومن أرقاها ما يلهمه الله أو يوحيه وكما ليوسف الصديق «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَّبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ...»

فالروّ الصادقة هي ما تتخطى حواجز الزمان وحواجز المكان وحواجز الأحلام الكاذبة التي يعيشها الإنسان.

و كما تتخفى حواجز الأبدان وعالم الأبدان، فتشفّ الروح اكثر مما كان، فتري الحقائق بسيرتها او صورتها متحللة عن مثلث الزمان، وأبعاد المكان، ثم الكاذبة لا تحكى إلّا عن هذه الحواجز الباقية على قدرها، فلا روّ إلّا ولها تأويل، بين صادقة تكشف عن الواقع الحق، ام كاذبة تكشف عن الواقع المختلق^٢.

^١ و كما يقوله الباحثون الغربيون من علماء الطبيعة حيث لا يرون للروّ حقيقة ولا للبحث عنها و ارتباطها بالحوادث الخارجية و زنا علميا، و لكننا المنامات الصحيحة المتواترة الكاشفة عن المغيبات ليست لتحمل على الصدق و الاتفاقيات، و الا كانت الصدفة انجح من المحاولة القاصدة في الكشف العلمية.

^٢ و صح عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إذا رأى أحدكم الروا يكرها فليصق عن يساره ثلاثا و ليستعد بالله تعالى من الشيطان الرجيم و من شرها و لا يذكرها لأحد فانها لن تضره. وفي تفسير روح المعاني لألّوسي ١٢: ١٨١ و في الصحيح عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إذا رأى أحدكم

و قد تعاضدت الروايات ان الروا^١ الصادقة شعبة من الوحي، او جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وقد تتأيد الأخير بما يروى ان الوحي على الرسول صلى الله عليه وآله كان منذ البداية الى ستة أشهر فى الروا^١ ولو صحت لانطبقت فى الحساب قياساً لستة أشهر الى ثلاث وعشرين سنة زمن الوحي كله، الا ان الثابت قرآنياً وفى السنة ان الاكثرية الساحقة من وحيه فى تلك المدة كانت يقظة، واقله فى الروا^١.

و قال جماعة من المتفلسفة^٢ وآخرون من الصوفية^٣ مقالات حول الروا^١، نصدق المصادق منها مع الكتاب والسنة.

يرى يوسف الصديق رواه الصادقة هذه فيقصها على أبيه، ثم يعقوب التورات ينتهره «ما هذا الحلم الذى حلمت؟ هل يأتى أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟ فحسده أخوته واما أبوه فحفظ الأمر^٤ تكذيباً لرواه فى تنديد وانتهار، حيث يصبح يوسف فى حيرة

الروا^١ يحبها فانها من الله فليحمد الله تعالى و ليحدث بها و إذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هي من الشيطان فليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم و من شرها و لا ينكرها لأحد فانها لن تضره، و فيه و صح عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إذا رأى أحدكم الروا^١ يكرهها فليصق عن يساره ثلاثاً و ليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم و ليتحول عن جنبه الذى كان عليه.

^١ تفسير الألوسي ١٢: ١٨٢ عن عائشة:

^٢ قالوا انها انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، و الصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البن ادنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الى صلة هناك، ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبها فنرسلها الى الحس المشترك فتصير شاهدة ثم ان كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية و الجزئية استغنت عن التعبير و إلا احتاجت اليه:

^٣ قالوا ان الروا^١ من احكام حضرة المثال المقيد المسمى بالخيال و هو قد يتأثر من العقول السماوية و النفوس الناطقة المدركة للمعاني الكلية و الجزئية فيظهر فيه صور مناسبة لتلك المعاني و قد يتأثر من القوى الوهمية المدركة للمعاني الجزئية فقط فيظهر فيه صورة تناسبها و هذا قد يكون بسبب سوء مزاج الدماغ و قد يكون بسبب توجه النفس بالقوة الوهمية الى إيجاد صورة من الصور كمن يتخيل صورة محبوبه الغائب عنه تخيلاً قوياً فتظهر صورته فى خياله فيشاهده و هي أول مبادئ الوحي الالهي فى اهل العناية لان الوحي لا يكون الا بنزول الملك و أول نزوله فى الحضرة الخيالية ثم الحسية و كما يروى عن عائشة انها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وآله من الوحي الروا^١ الصادقة فكان لا يرى روا^١ الا جاءت مثل فلق الصبح.

^٤ فى الاصحاح ٣٧ من سفر التكوين «١ .. و سكن يعقوب فى ارض غريبة أبته فى ارض كنعان ٢- هذه مواليد يعقوب: «يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع اخوته الغنم و هو غلام عند بني بلهة و بني زلفة امرأتى أبيه و أتى يوسف بنميتمهم الرديئة الى أبيهم و اما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصاً ملوناً فلما رأى اخوته ان أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه و لم يستطيعوا ان يكلموا بسلام- و حلم يوسف حلماً فأخبر اخوته فآذوا أيضاً بغضاً له فقال لهم: اسمعوا لهذا الحلم الذى حلمت: فيها نحن حازمون حزماً فى الحقل و إذا حزمتى قامت و انتصبت فاحتاطت حزمكم و سجدت لحزمتى، فقال له اخوته «العلك...».

ثم حلم أيضاً حلماً آخر و قصه على اخوته فقال: انى قد حلمت حلماً أيضاً و إذا الشمس و القمر واحد عشر كوكبا ساجدة لي و قصه على أبيه و على اخوته فانتهره أبوه و قال له: ما هذا الحلم .. فحفظ الأمر».

وانبهار، ثم حفظا لها كأنه يرى لها واقعا! ويا له من تناقض في هذه المواجهة، وانتحارا! واما يعقوب القرآن فيصدقه بكل تكريم وإكبار، ويوبِّلها أحسن تأويل فيحذره عن قصها لإخوته خوفا عن مكيدة وحسد واستكبار:

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ.

ذلك وحتى تحققت رؤاه بتأويلها، وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا... (١٠٠).

أ ترى انه قصها على اخوته، خلافا لصالحه وعصيانا لأمر والده الحنون فحسده إخوته؟ كلا! وإنما ملامح الحب اللامحة منه ليوسف وأخيه، الراجحة على إخوته، هي التي حرستهم على ما حسدوه وافتعلوه، إذ قالوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا... دون تصريحه أو اشارة، أنه يرأسنا كلنا بما رأى من رؤا أولها أبونا، أم رؤا غيرها.

و لكننا التورات تخطأ هنا خطأ ثانيا إذ تصرح أنه قصه على اخوته^١ ثم تعكس امر المواجهة، فلايبه الانتهار، وليس هنا للإخوة أمر، وعلهم وافقوا أباهم في تكذيبه، فلم يأخذوا رؤاه بعين الاعتبار! اللهم إنا رؤا أخرى هي الأولى، تذكرها ما هيه ثم قول الإخوة، أ لعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا؟ وازدادوا ايضا بغضا من أجل أحلامه ومن اجل كلامه؟! «قَالَ يَا بُنَيَّ، هذا التصغير دليل انه صغير ولمَّا يبلغ الحلم خلاف ما نقصه التورات انه ابن سبعة عشر، ووفقا لآيات تالية في نفس السورة .. هذا غلامٌ...»، وَكَمَا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا... وَرَاوَدْتُهُ النَّبِيَّ هُوَ فِي بَيْتِهَا... ثم إنه لمحاه لا تجاه الأب الحنون وجاه هذا الولد الصغير، الكبير الكبير في محتده، المحسود بين إخوته من قصته، ومثل هذه الروا ليست رؤا الطفولات للأطفال، وإنما رؤا البطولات للرجال الأبطال، مما يخطط رسم حياته المنيرة منذ الطفولة حتى الرجولة، محسودة بين الإخوة، محاطة بحبوة رحيمة.

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ... كمبدء وضابطة في قص الروا وعدم

^١ نفس المصدر السابق.

قصّها، ولماذا تقص الروا على حاسدين يتحرضون لكل مكيدة: «فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا، وقد ينسى الحنان الأخوى حين يرون فائقا متوقفا من بينهم عليهم حيث الشيطان ينزع بينهم، إن الشيطان للإنسان عدوٌّ مُبينٌ! إنما تقص الروا على من يوّ لها، أو يتبهج لها كوالد حنون، دون من يتحرّج بها فيحرّج صاحب الروا كأخوة حاسدين.

فلقد عرف يعقوب من هذه الروا ان يوسف هو المختار بين ابنائه من نسل ابراهيم لتحل عليه كل بركة، وتتمثل فيه كل حركة في هذه السلسلة المباركة وكما قال، وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ

لذلك - وحفظا عليه - يوصيه إلّا يقص رواه على إخوته، وبطبيعة الحال لم يكن - بعد - ليقصها حيث يرى في ذلك هدمًا لصرح رواه، وخلافا على أبيه، وكما لا تلمح القصة على طولها أنه قصها عليهم.

و لو أنه قصها عليهم، وقد علم انهم يكيدون له كيدا، فلما ذا يرسله معهم حين يطالبونه؟ أ إرسالًا الى غير محضن ليحققوا كيدهم الذي يعلم لو انهم عرفوا رواه؟! وفي ذلك القص وهذا الإرسال تخطئة لساحة يوسف ويعقوب، ومس من كرامتهما، فلا تصدق الرواية القائلة، فلم يكتف يوسف رواه وقصها على إخوته،¹ فانها من الإسرائيليات.

ولماذا هنا «فَيَكِيدُوا لَكَ» وهو متعد بنفسه كما «فَيَكِيدُونِي»؟ اللام هنا لا تعدى، وإنما تؤد تخصيصًا ان يختصوك بكيدهم بمحاولات قاصدة هادفة، دون استطراد في جمع، وذلك من عداوة الشيطان للإنسان ان ينزع بينهم لحدّ الكيد القتل لأخ حبيب صغير وكما فعل، والأخوة من الظروف الجذرية للتحاسد يتعامل معها الشيطان ما وجد إليها سبيلًا.

¹ تفسير البرهان ٢: ٢٤٢ عن ابن بابويه بسنده عن الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث مفصل فيه قصة رد يعقوب سائلا مؤنا صائما فعاقبه الله في يوسف وفيه فقلت لعلي بن الحسين عليه السلام جعلت فداك متى رأى يوسف الروا فقال في تلك الليلة التي بات فيها يعقوب و آل يعقوب شباعا و بات فيها دميال طاوبا جانعا فلما رأى يوسف الروا و أصبح يقصها على أبيه يعقوب فاغتم يعقوب لما سمع من يوسف و بقي مغتما فأوحى الله عز و جل اليه ان استعد للبلاء فقال يعقوب ليوسف لا تقصص رواك على إخوتك فاني أخاف ان يكيدوا لك كيدا فلم يكتف يوسف رواه و قصها على إخوته ... أقول و في هذا الحديث موارد من النظر، فكيف يحرم يعقوب النبي سائلا وقت الإفطار و عنده كيش مطبوخ و يبقى عنده فضل منه

و الرسول صلى الله عليه وآله يقول «ما آمن بي من بات شبعان و جاره جائع» ثم كيف يؤذ الابن بذنب الأب لو كان ذنبا و طبيعة الحال تقضي ان الاخوة لما يرون يوسف أحب الى أبيهم منهم يحسدونه و يكيدون و لان الملك عقيم و هم يخافون ان يصيح خليفة أبيه بعده؟! ..

وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ يَمُنُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ
كَمَا أْتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

و كذلك، البعيد المدى، العظيم فى الروا، نسخة طبق الأصل، وواقعا وفق الصورة «يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ... وَ يُعَلِّمُكَ ... وَ يَمُنُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ... أ ترى الاجتباء هنا هو الرسالة، أم إنها إتمام النعمة؟ فالاجتباء لها كتقدمه و بينهما تعليم الأحاديث؟ حيث الرسالة هى إتمام النعمة إذ ليست فوقها نعمة! لكننا الرسالة المحمدية وهى القمة العليا من النعمة تتم بفتح مكة: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ... وَ يَمُنُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ... فكيف لا تتم هذه النعمة فيما دونها من رسالات كما فى يوسف وآل يعقوب وفى ابراهيم وإسحاق؟! ف «يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» هو الرسالة قبل إتمام النعمة، فإنها نعمة من الله خاصة، ولها درجات تتكامل فيها فى جنبات، كما وأصل الرسالة والنبوة درجات.

و إذا يسجد له يعقوب الرسول صلى الله عليه وآله مع الساجدين، وذلك سند اجتهائه فى رواه، أ فلا يكون - إذا - رسولا كأبيه أو هو أفضل لمكان السجدة، وذلك هو أصل اجتهائه، ثم يتبناه تعليم الأحاديث وإتمام النعمة.

و قد جاء الاجتباء فى جباية الرسالة كما فى آدم: «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى» (٢٠: ١٢٢) و ابراهيم: «شَاكِرًا لِنِعْمِهِ اجْتَبَاهُ وَ هَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (١٦: ١٢١) بل وحتى اجتباء بعد الرسالة كما فى يونس: «إِذْ نَادَى وَ هُوَ مَكْتُومٌ. لَوْ لَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبَذَ بِالْعُرَاءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (٦٨: ٥٠) وذلك الاجتباء بعد أن «أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» (٣٧: ١٤٧) ثم «ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ثم سجن فى بطن الحوت ثم نجى» فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ ...! «و ما كان الله ليطلعكم على الغيب و لكن الله يجتبي من رسله من يشاء ..» (٣: ١٧٩).

فهو يجتبي رسله و يجتبي من رسله، ثم لا اجتباء فيمن دون الرسل رسالة او فى درجاتها، إلّا اجتباء لأمة على أمة ليست إلّا دون الرسالة كما فى المجاهدين المسلمين حق جهاده: «و

^١ و هم إسحاق- و يعقوب- داود- سليمان- أيوب- يوسف- موسى- هارون- زكريا- يحيى- عيسى- إسماعيل- اليسع- يونس- لوط

جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَهُ أُولَئِكَ
إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ... (٢٢: ٧٨) وكما في إتمام النعمة هنا «وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ
عَلَى آلِ يَعْقُوبَ، حيث النعمة درجات فإتمامها أيضا درجات، وقد فضل آل يعقوب على
سائر الآل لاجتباء الأنبياء منهم لا أنهم كلهم أنبياء.

و حتى فيما يذكر الاجتباء في جماعة الأنبياء، ليس ليدخل فيهم غيرهم، وكما تذكر جماعة
من الأنبياء الإبراهيميين بأسمائهم وجماعة أخرى جملة:

«وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، (٦: ٨٧).

هذا هو الاجتباء قرآنيا، وهو يجاوبه لغويا فإنه جمع على طريق الاصطفاء، ولا اصطفاء إلّا
في الأنبياء، يقال: جبيت الماء في الحوض جمعته، والحوض الجامع له جاييه، وجمعها
جواب «وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ».

و كأن الاجتباء في الأنبياء يعني جمع الشمل، تحفظا عن تفرق الأفكار في متفرق السبل
المفرقة عن سبيله، وتجميعا لها وتوحيدا وتوطيدا على صراط مستقيم، بعد ما جمعت لهم
خاصة النعم الربانية في نعيم مقيم.

ثم «وَيُعَلِّمُكُم مِّنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، موهبة له ثانية بعد اجتباؤه بالنبوة، والتأويل هو الإرجاع،
فليس إلّا فيما له مرجع في مبدء أو منتهى أم بينهما، يرجع إليه الحديث المتشابه، حيث لا
ينبئ ظاهره عن باطنه، بداية ونهاية وبينهما، وهذا هو غاية التشابه ألا يظهر الحديث مرجعه
في مثله.

ثم الحديث هو كل حادث بمظاهرة وآياته كما الله حديث «فَبَأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ
يُؤْمِنُونَ، ام بذاته وتطوراته كما في كل حادث، ويوسف موعود ان يعلم «مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ، لا كل الأحاديث، وقطعا ليس منها حديث ذات الله إذ ليس لها تاويل، ولا كل
مخصوص علمه بالله أمّا ذا من المستحيل كالعلم بكنه الأشياء لحد يساوق القدرة على
إبداعها كما فتاويل الأشياء إلى حقائقها هكذا في مثل الزمان وفوق الزمان والمكان مما
يختص بالله علما وقدرة، وتأويلها إلى شيء من باطن أمرها ماضيا أم حالا و استقبالا، هو
من العلم الذي يعلمه الله من يشاء «وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ، (٢: ٢٥٥).

فمما علّم من تأويله هو تأويل الروا كما أوّل لصاحبي السجن وللملك، ومنه تأويل الطعام منشأ ونتاجا وبأحرى في حاله: قال لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا..

و الروا حديث في حديث، حيث تحدث النفس فيها عن حدث بصورته قريبة أم بعيدة، و سائر الحديث واحد، وكلّ لتأويله محيص، ويوسف إنما علّم من تأويل الأحاديث، وعلّه بعض التأويل من بعض الأحاديث تبعيضا من «من» وفي بعدية، وقد ذكر منها تأويل الروا وتأويل الطعام، وطبعا منه تأويل الأعمال والأحكام، حيث الرسول يعرف مآخذ الأحكام ومآلاتها، فله تفسير التأويل توسيعا وتطبيقا لنصوص الأحكام.

ثم الصور التي يراها الإنسان في يقظته كما في منام هي من ضمن هذه الأحاديث، قد علّم من تأويلها كصور الروا، أ ترى أن الصور التي هي كاذبة لا تحدّث عن واقع، لها ايضا تأويل كما للصادقة حتى يعلمها يوسف كلها؟ اجل ولكن الصورة غير الصورة، فالكاذبة تأويلها الحالة الخاصة التي عليها الإنسان، المتخلفة عن الواقع، ام والجو الكاذب المحيط بالإنسان أما ذا من غير الواقع، تأويل حسب واقعه حقًا أو باطلا.

و من ثم «وَيَمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ، عَلَّهُ سُلْطَنَهُ الزَّمَانِيَةَ إِضَافَةً.

الروحية حتى يتمكن من تمكين الدين وفي جو الفراعنة المتخلف عن الدين، أماهيه من إتمام النعمة وكما أتمها الله على محمد صلى الله عليه وآله بفتح مكة.

و يا له ترتيبا رتبيا في واقعه: اجتباء للرسالة، ثم تعليما من تأويل الأحاديث كمنفذ منقذ عن السجن، ثم «يَمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ، بسلطة زمنية» كما أتمها على أبويك من قبل، أتمها من قبل - على أبويك من قبل، فلست بدعا ممن أتم الله نعمته عليه إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم..

و النعمة هي الحالة الحسنة بخلاف النعمة، فانها السيئة: «ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا، (٧٣: ١١) والمادة في الحالتين واحدة من علم او سلطة او مال وبنين اما هيه من وسائل الحياة، فإذا استخدمت في طريق السعادة، فهي نعمة، ام في طريق الشقاوة فهي نقمة ونعمة ونعمة، هنا هي الخاصة بالمرسلين من عصمة أمأهيه، فإتمامها هو بروزها تطبيقا

لشرعة الله في واقع الحياة في دولة الحق على دويلات الباطل، التي هي ويلات على الحق! و كأن تعليم الأحاديث هو من خلفيات الاجتباء فانه إخلاص واصطفاء، وكلما كان الإنسان أخلص لله وأصفى كان علمه بتأويل الأحاديث اكثر وأوفى، فليكن ابراهيم وإسحاق ويعقوب ممن علمه من تأويل الأحاديث: «و اذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ، (٣٨: ٤٦) وقد أول يعقوب أول ما رأى يوسف من الروا فكان كما أول دون أية ليت او لعل، ثم وإتمام النعمة له صورة شتى تعم السلطة الزمنية كما في يوسف وداود وسليمان ومحمد صلى الله عليه وآله والقائم المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله وهذه من الصور الظاهرة، ثم صور أخرى تناسب كافة الأصفياء الأوفياء.

و من إتمام النعمة في الرسالة دوامها فيمن يحملونها دونما انقطاع، تخليدا لدولة الحق في السلطة الرسالية، وكما تمت يوم الغدير بانتصاب الأمير، وقد قال عنه العلي القدير: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَآتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا، (٥: ٣) فانه يوم تقرير المصير في استمرارية هذه الرسالة السامية لو حملتها حملتها الرساليون الرسوليون كالإمام علي عليه السلام والأحد عشر من ولده المعصومين عليهم السلام ثم فقهاء الأمة الأمثل منهم فالأمثل، وبالأحرى الشورى القدسية بين الرعيل الأعلى أحكاميا وسياسيا لإدارة أمور الامة على ضوء الكتاب والسنة.

وهب هم الأصفياء، أتم نعمته عليهم، فمن هم آل يعقوب، بجنب هوّاء الأربعة الطاهرة: ابراهيم وإسحاق ويوسف ويعقوب؟

علّهم يعقوب ومن معه من نسله، نبيا وسواه، او سويا على صراط الحق وسواه، فلا يعنى إتمام نعمة الرسالة على آل يعقوب وهم إسرائيل وبنوه، أنهم كلهم رسل تمت النعمة فيهم: «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، (٤٥: ١٦) فالنعمة الأصبلة وهي الرسالة، وإتمام هذه النعمة، هما في أشخاص الرسل الإسرائيليين، و من ثم على المرسل إليهم الأول وهم آل إسرائيل مهما صدقوها أم كذبوها: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ، (٢: ٤٠) ولكن اصل النعمة هي للذين أنعم الله عليهم: «مِنَ النَّبِيِّينَ وَالتَّوَّابِينَ وَالتَّوَّابِينَ وَالتَّوَّابِينَ، (٤: ٦٩)

مهما كان الأصل فيهم الأولون: أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم... (١٩: ٥٨) إذا قال يعقوب في إتمام النعمة هم الأنبياء الإسرائيليون من يوسف، وموسى و عيسى ومن بينهما من داود وسليمان أمّن ذا؟ ثم وآله فى شمول هذه النعمة هم المؤمنون منهم، ومن ثم الكافرون حيث اتجهت إليهم وان لم يتجهوا.

هذا إجمال عن أحسن القصص، وهنا يسدل عليه الستار إلى مشهد التفصيل:

ج سورة يوسف (١٢): الآيات ٧ إلى ١٢ ج

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِ الَّذِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْمُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيخْزَنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاوَزَ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاوَزَ عَلَى قَمِيصِهِ بَدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَ لَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِ الَّذِينَ (٧):

لقد، تأكيدان اثنان لما كان، فى سالف الزمان فى يوسف وإخوته آياتٍ للناس، منذ قصصهم إلى ما طلعت الشمس وغربت، آيات دائمة مرّ التاريخ فى مثلت الزمان لكل سائل

عن قصصهم بآياته:

«آيات، وأمارات كثيرة في حظيرة الصديق مع إخوته الحاسدين عليه الحاقدين .. نرى هنالك آيات قدرته الرحيمية على من أخلص له، فكلما كيد من إخوته ومن السيارة ومن العزيز وامراته آمن هو، كاد الله له عليهم بعكس ما لديهم، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

و بجنبها آيات نعمته وإذلاله على من يريدون بمن أخلص الله سوء:

«كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ».

و بينهما آيات عزته في عبده إذ لم تحوله مضادات التحولات، فهو في السجن كما هو على عرش الملك، وهو في قصر العزيز كما هو في الجب، له سيرة واحدة، واتجاه واحد صامد رغم مختلف الصور والظروف المتهافتة المتفاوتة: «وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسئَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ» ثم وآيات تلو آيات تأتي في طيات الآيات، .. آيات للسائلين:

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَضَبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) قولتهم هذه لا سواها تلمح لمسرح من مزيد الحب من أبيهم ليوسف ٣٢ وأخيه، ولو كان الحسد الباعث لما انبعثوا هو من تلك الروا، لكانت أحق بالذكر بلاغة في ذلك المسرح، ودون ذكر لآخي يوسف إذ لا تشمله رواه، ولكنهم يتحدثون عن لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ... ولو كانوا يعلمون رواه لكانت أخرى بذكرهم إياه فقط، وأدعى أن تلهج ألسنتهم بحقدهم.

فإنما ملامح الحب- فقط- ومسارحه او مصارحه هي الباعثة لقولتهم هذه وفعلتهم، ولا سيما أن الحب أصبح يزيد- بطبيعة الحال- لمكان رواه، فقد حان- إذا- حين كيدهم له كيدا، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

ثم «و أخوه، هنا دون أخونا، تلمح أنه وإياه كانا من أم أخرى، ولأنه الأكبر، والحب الأبوى له أكثر، لذلك يتوحد كيدهم عليه دون أخيه، إذ لا مكان له دونه كما كان، وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ».

كَيْسُفٌ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْمَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ...: جماعة يتعصب بعضها لبعض فان أمنا واحدة، ولأننا كثرة وهما قلة، فنحن - إذا - مجموعة قوية تدفع وتنفع وأقوى منهما في بعدين اثنين، ولو كان أبونا يعرف صالحنا وصالحه لكان يحبنا أكثر، أم - لأقل تقدير - لم يفرق بيننا، ففي ترجيحه المرجوح على الراجح والمفضول على الفاضل ضلال وزلة: إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، ضلال مودّ بحر في التأكيد، يبين نفسه بما أبان من حبه لهما أكثر منا.

نحن العصبة القوية ندير شؤون حياة العائلة إيكالا وكلاً وهما صغيران ليس لهما دور فيها إلّا أكلا وكلاً، فلما ذا - إذا - هما أحب إلى أبينا منا، وهذا ضلال مبين عن صراط الحياة البيئية والاجتماعية، مهما كان أبونا نبيا مهديا في الحياة الروحية.

أ ترى ان ذلك الحب الأبوي الزائد كان - فقط - لأنهما صغيران؟ وهو سنة دائبة في كل الآباء والأمهات بالنسبة لصغار الأولاد، فلا يحسد الكبار على ذلك فانه تودد الترحم والتعطف لمكان ضعف الطفولة! وانهم استندوا في ضلال أبيهم المبين إلى كونهم عصبة، فهو ضلال مبين - إذا - في نسبة أبيهم إلى ضلال مبين، حيث الأخ القوي الكبير لا يحسد الضعيف الصغير، ولا يتوقع لنفسه حب الطفولة كما للصغير، إلّا إذا غرب عقله وطفلت نفسه وهذه مهانة بارزة.. وكلّ يذكر طفولته ورجاحة المودة الأبوية فيها، فليسا هما بدعا من الإخوة الأطفال ينحو نحوهما الوالد الرحيم ويحنو لهما أكثر من العصبة، فهو - إذا - صراط مستقيم في جو العائلة وليس من الضلال المبين! إنما ذلك كان حبا زائدا فوق رحمة الطفولة، حب يكشف عن لباقة زائدة فيهما ومستقبل زاهر ليس فيهم، حب دائب يزيد على مرّ المزيد من عمرهما، ولا سيما يوسف لمكان رواده تلك التي أولها باجتماع وعلم وتمام النعمة، وقد نستلهمه من لام البداية التأكيد كَيْسُفٌ وَأَخُوهُ، مما يلمح بدوام ذلك الحب دون زوال.

فقد كان حبا يتخطى رحمة الآباء على الأطفال، ويحلّق على كل حب في كل مجال، فإنه - فقط - حب رسالي في الله، وبأمر الله، دون الحب السائر الدائر قضية الأنساب والأسباب، إلّا سببا إلهيا يحلّق على كافة الأسباب! فهو حب رسالي لا أبوي! ذلك الحب الجذري اللائح لهما، الدائب فيهما، هو الذي يجعلهم يحسدونهما، لحدّ المكيدة في قتل الأحب منهما. أ تراه كان بإمكانه إخفاء ذلك الحب اللائح في مقاله وحاله وأفعاله، ولكى يحافظ على

محبوبه، كما هو الأصلح فى الحفاظ على المحبوب؟.

كلًا حيث الحب يلمح ويرشح مهما كانت الحائطة على إخفاءه، ولا سيما فى حضن العائلة، فالحب المترسب يتسرب، كما الكوز يرشح بما فيه.

أ ترى - بعد - الضلال المبين هو ضلال فى الدين؟ والبين من طيات محاوراتهم طول قصصهم أنهم كانوا من المومنين، معترفين أن أباهم من النبيين، فكيف - إذا - بالإمكان ان ينسبوا أباهم الى ضلال مبين فى الدين؟

انما هو الضلال عن صراط الحياة الظاهرية، والمصلحية العائلية، ان يكونا وهما صغيران، لا يقويان على امر لصالح العائلة، يكونا أحب الى أينا منا بلا اى سبب، حيث الرجاحة المعنوية لهما كانت عنهم خفية، ام لائحة لا يرضون بها لأنهم وهم عصبه أخرى فى زعمهم بتلك الرجالة، وهذه وتلك ضلال مبين! قد يزول بزوال الموضوع، يخل لكم وجه أيبكم و تكونوا من بعده قومًا صالحين، ولو كان - فى زعمهم - ضلالا فى الدين ما زال بزوال يوسف وبنيامين! ام تراهم - بعد - انهم كانوا من النبيين، والحجج متصارعة فى هل أنهم من المومنين أم من الكافرين، لو لا تصريحات بطيات الآيات أو تلويحات أنهم كانوا من المومنين، وليسوا هم من الأسباط حتى يشملهم وحيهم: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّونَا دَاوُدَ رَبُّورًا. وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا» (٤: ١٦٤).

فالأسباط هم من الرسل دون الأبناء إلا يوسف، حيث السبط فتحا انبساط فى سهولة، ويستعمل كسرا فى ولد الولد لأنه انبساط من النسل، ويستعمل فى كافة الأحفاد بوسيط أم وسائط: «وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَىٰ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا» (٧: ١٦) ولم يكن ولد يعقوب لا أسباطا ولا أمما! وهب إن قيلة النبوة المفرطة فيهم باطلة كقيلة الكفر المفرطة والصواب هو العوان بينهما: الايمان: أو ليس المومنون برسول إذا هتكه خرج عن الإيمان، وارتد عن كتلة المومنين؟ ونسبة الضلال المبين الى النبيين مهما لم يكن ضلالا فى الدين، هى أسوء هتك وأنحس مس من كرامتهم! بل هو بالأمل ضلالا فى الدين، حيث الدين يحلق على كافة

العقائد والأعمال، فلم يكن يوسف وأخوه أحب إلى أبيهم منهم إلا قضية الدين، والضلال لهم على أية حال خلاف العصمة، وقد كان يعقوب من المخلصين: «وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا إِبرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَ الْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ» (٣٨: ٤٦) و الضلالة غواية على أية حال، والشيطان قال فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ، (٣٨: ٨٣)!

و لكن كل ذلك لا يثبت عليهم الكفر الصراح، إلا جهالة فى الدين، ونقصانا فى اليقين، ولئن ارتدوا بذلك، فقد استغفروا الله بعد كما استغفر لهم يوسف ويعقوب، والمرتد عن فطرة لا تقبل توبته، فكيف استغفر لهم كما استغفروا هم أنفسهم، فلم يكن بذلك الارتداد الكافر، وإنما عصيان عظيم على جهالة بشأن النبوة السامية! بزهوة القوة العصبية ودافع الحسادة. هو الإخوة العشرة العصبية لم يتحملوا ذلك الحب المتميز ليوسف وأخيه، وحسبوه ضلالا مبينا فى حقل الحب، دون أى سبب أم سبب بزعمهم مزعوم ليعقوب، وكما قالوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ، (٩٥).

لقد نزع الشيطان بين يوسف وإخوته حيث بزغ فى حلومهم استغلالا لذلك الحقد الركين، حيث على وعلى فى مرجله وانتقل من سهله البادى الى معضله حتى تآمروا عليه فيما بينهم لما لم يجدوا سبيلا إلى قلب أبيهم تقبلا منهم فتقلبا إليهم:

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩).

و هذه مرة ثانية فى المومر الذى عقده على ما حقدوه، والرأى المشترك هو نفى يوسف عن محضن العائلة: «وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ» (١٠٢).

مهما اختلفوا فى شاكلة أمرهم الإمر قتل او طرحا له أرضا بعيدة لن يصلوا إليه ولن يصل إليهم:

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا. فان فعلتموه، يَخْلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ، كأنه حين يغيب عن بصره يغيب عن قلبه وبصيرته، فيصبح قلبه خاليا عن حبه فارغا إليكم، ثم «وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ، لتمام الحب من أبيكم، متفرغين إلى صالحكم العائلى ومحضن الحنان الأبوى

دون معارض فيه ولا مشاغب.

أ ترى بعد صالحين، يعنى فيما عناه صالحين، بالتوبة عما أذنبوا؟ كأنه لا، حيث «تَكُونُوا... جزاء ثان للأمر: «اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ» المَوْءِل إلى شرط: إن قتلتموه أو طرحتموه «أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ» وليس صلاح التوبة من نتائج الجريمة، ولا نراهم استغفروا «من بعده، وانما استغفروا توسلا إلى أبيهم: «يا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ» قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ... (٨)

و كما وعدهم يوسف من قبل: «قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» (٩٢) وليس ذلك «من بعده، إلا من بعد بعيد، وبعد أن عرفوا أنهم ليسوا بعده، بل هو قبلهم ومعهم وبعدهم عزيز آثره الله عليهم «لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ... (٩١).

لا فقط لم يكونوا ليستغفروا «من بعده، بل وأصروا واستكبروا استكبارا قبل تبين أمره، حيث قالوا لأبيهم حين قال «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَن تَفَنَّدُونَ، قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ» (٩٥) ! فأين «تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ»؟

ثم «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ» (٤: ١٧) وهو «عملوا السوء دون جهالة، حين يعنى من صالحين، صلاح التوبة، ثم ولم يتوبوا من قريب، ولكن الله تاب عليهم لما استغفر لهم يوسف وأبوه.

ولئن عنى صالحين، فيما عنى صلوح التوبة، كان معنى ضمينا لا يصلح استقلاله ولا مساواته لمعناه، وليست التوبة نتيجة الجريمة، ولا أنها تقبل فى هذه الجريمة العامدة الهاتكة بكل مكيدة حتى على الله، أننا نعصيك ثم نستغفر! قال قائلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠).

هذا القائل هو أعقلهم وأرحمهم بالأخ الصغير، وأحوظهم عليه، حيث يرتأى بما ليس فيه فوت ولا موت، وإنما نفى عن محضن العائلة ل «يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ...» وإذ ليس القتل و الطرح الذى مآله القتل هو العلاج الحاصر، فإلى الرأى العوان بين القتل والطرح.

إنه يبدى رأيه بكل حائطة، لأنه - فقط - واحد من العشرة، لذلك يبديه مشككا غير قاطع،

تحويلا عما اعتزموا لعلهم يرجعون، كما تلمح له **إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ**، وكما نراهم لم يجمعوا على رأيه إلا بعد ما ذهبوا به: **فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ**.. وقد يعنى التشكيك أصل التصميم فى نفيه كأنه لا يرضاه، فان كان ولا بد لا تقتلوه وألقوه ..

فبالفعل - وقبل ان يجمعوا فى امره - هم مجمعون على أن يذهبوا به، وها هم أولاء يحتالون على أبيهم كيف يستلبونه منه.

و تعريف «الجب» دون «جب» دليل أنها كانت معروفة لديهم، جب لها غيابت، هى ممر السيارة، مهما كانت جب القدس أمأهيه.

و الجب، هى البئر التى لم تطو، وهى الجيدة الموضع من الكلاء، وهى الكثيره الماء البعيده القعر، وهى التى وجدت دون ان يحفرها الناس.

و غيابة كل شىء قعره ومنهبطه، أ ترى جب يوسف هى الكثيره الماء البعيده القعر فألقى فى قعرها؟ وهذا أقرب إلى قتله من طرحه أرضا حيث يغرق فى قعرها دون ريب! بل هى القريبه الماء الجيدة الموضع من الكلاء، حيث يقصدها السيارة لنزح الماء، وليست مطوية سوية بالأحجار فلا يمكن المكوث فى خلالها، إذا فغيابتها ليست قعرها إذ يرى فيه ويظهر دونما غيب، فانما غيابتها مكان يمكن المكوث فى خلالها، فلا يرى الماكث فيه، وانما يرى من يدلى إليها فيدنوا هو من الدلو ويتدلى، دون أى خطر ولا ضرر إلا نفيا عن المحضن.

هكذا نلمح من **لا تقتلوا** .. يلتقطه، حيث القطع بسلامته هو الملتقط القاطع للمارة، فليس إلا فى هكذا جب وغيابة.

فهناك **اقتلوا** وهناك **اطرحوه أرضاً**، وهنا **الْقُوَّةُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ**، ولكنما الإلقاء فيها إلغاء عنه. وعن التقاطه إلا ميتا بغرقه، أم مصدوما مكسورا، ولكنه لا يسطع بوحدته أمام الباقيين ان يحول قتله إلى إبقاء مرتاحا، فقد جمع بين الإلقاء وغيابت الجب والتقاط السيارة، حتى يجمعوا حلومهم فيحيدوا عن إلقاءه إلى جعله كما يحيدون عن قتله وطرحه وكما فعلوا: **وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ**، فانها نظرة التقاط السيارة تناسب الجعل دون الإلقاء، وهذه حصيلة طائل الشورى وفيها عاقل، بعد ثلوث القتل والطرح والإلقاء، أن يجعلوه فى غيابت الجب، والشر فى طائل الشورى - ان كان فيها عاقل - يبوء الى أقله، والخير فى طائلها

إلى أكثره، فأصل الشورى تَخْيِرُهُ لصائب الرأي، وطائلها انتقاله الى أصوبه فى الصواب، وأقله محظورا فى غير الصواب.

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢):

لا تأمنا، تصريحة أنه ما كان يأمنهم عليه، ولا يرسله معهم إلى المراعى، والجهات الخلوية المرتادة، حبا له وخشية عليه، ومالك، استجاشة لنفى هذا الخاطر الملحوظ من حيطة الدائبة عليه، ورقابته المتواصلة له.

فهم - إذا - يلتمسون منه فى حوار قاطعة طائئة - وبكل حائطة - أن يرسله معهم، وما أبعد ذلك الحنان المحتاط عما تقوله التورات من تبدل يعقوب يوسف إرسالا مع إخوته الحاسدين دون أن يطلبوا، على علمهم - كما تصرح - بما رأى من رُؤاه، ويكأنه على حبه إياه يبغضه فيهدره^١ ثم البئر المطروح فيها حسب التورات كانت فارغة من الماء، والسيارة لا شأن لها بفارغة الماء! وقد نرى إهمالات وتشويشات، فى تحريفات وتهريفات فى التورات، تأتي فى الهوامش بتصريحاتها مقارنة بالقرآن طوال القصة ومثل ما فى سائر القرآن كما تقتضيه مجالاته.

هنا الاخوة يحتالون بكل ما لديهم من إمكانيات ليذهبوا به، راسمين مربعهم الكائد ليستلبوه منه:

١ - (مالك لا تأمنا ..؟) ليس فينا خلاف أمنه، فما هو عندك ٢ - (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ بمثلث التأكيد وفى مثلث الزمان، فكل خاليج فى خلدك تخيل وظنة دون علمه، إذا ف ٣ - (أَرْسِلْهُ

^١ كما فى الاصحاح ٣٧ من تكوين التورات «و مضى اخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم فقال إسرائيل ليوسف أليس إخوتك يرعون عند شكيم؟ تعال فأرسلك إليهم فقال له: ها انا ذا- فقال له: اذهب انظر سلامة إخوتك و سلامة الغنم ورد لي خيرا فأرسله من وطاء حبرون فأتى الى شكيم فوجده رجل و إذا هو ضال فى الحقل فسأله الرجل قائلا: ماذا تطلب؟ فقال: انا طالب إخوتي اخبرني اين يرعون؟ فقال الرجل: قد ارتحلوا من هنا لاني سمعتهم يقولون: لنذهب الى دوئان فذهب يوسف وراء اخوته فوجدهم فى دوئان، فلما ابصروه من بعيد قبل ما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه فقال بعضهم لبعض هوذا صاحب الأحلام قادم فالآن هلم نقتله و نطرحه فى إحدى هذه الآبار و نقول وحش ردى اكله فنرى ماذا يكون أحلامه؟ فسمع رأوبين و أنقذه من أيديهم و قال: لا نقتله و قال لهم رأوبين: لا تسفكوا دما اطحروه فى هذه البئر التي فى البرية و لا تمدوا اليه يدا لكي. ينقذه من أيديهم ليرده الى أبيه فكان لما جاء يوسف الى اخوته انهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون عليه و أخذوه و طرحوه فى البئر اما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء!؟

مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبُ، وكما تقتضيه حالة الطفولة، وإذا كان معنا «وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ» فلا خوف عليه من أى مخيف ٤- (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، ففى «يا أبانا» استعطف برحمة أبويه تجمعهم فى جامع واحد، وفى «مالك لا تأمنا» استئصال لجذور الاحتمالات غير الآمنة، ثم فى كل من نصحه الدائم وحفظه معهم تأيدات ثلاث، تصد كل منفذ فى تأبى أبهم عن إرساله، اللهم إلاً إنه ليحزنى وأخاف... وهو رد بطريق غير مباشر:

قال إني ليحزني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون (١٣) انه على علمه بميدهم فى يوسف وكيدهم، لا يصارح إخوته بعدم أمنهم خوفا عن صراح العداة فاستلابه بقوة والقضاء عليه، وهذه سياسة حفاظية متينة مكيئة ألا يصارح العدو بعدائه كيلا يصارح او يزيد فى عدائه هياجا فيما اعترم، فهى سياج عما اعترم، وحائطة على ما اعترم. قال إني ليحزني أن تذهبوا به، دون ان يبين سبب الحزن، ولكيلا يذهب مذهب التهريج. أنه يخافهم عليه، لمح إلى سبب له: «وأخاف أن يأكله الذئب» رمية إلى هدفين، بيان سبب، وارشاد الى عاذرة لهم حين يرجعون، فإنهم- ولا بد- سوف يبحثون عن عذر، فليكن: أكله الذئب، فقد قرب يعقوب لهم العلة اعتلوا بها فى يوسف!

وهب إني ليحزني... صدق صراح دونما لى ولا تورية، حيث إن كيدهم فيه، وبعده عن أبيه، كل يسبب حزنه، ولكن «أخاف أن يأكله الذئب» تلقين للكذب حيث الذئب لا يأكل الإنسان وإنما يفترسه، وحتى إذا يأكله وكما يروى عن النبى ﷺ لا تلقنوا الناس فيكذبوا فإن بنى يعقوب لم يعلموا ان الذئب يأكل الإنسان فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب^٢.

ان «يأكله الذئب» صدق فى ناحية حيث الافتراس أكل، وتعليم لعاذرة، حائطة لكى لا يقتلوه ويكتفوا فى امره بان اكله الذئب من أخرى، فقد لقنهم هذا الجواب، وتلقين الكذب حفاظا على النفس فرض لا محالة، قضية الدوران بين واجب كبير ومحرم صغير، بل ليس محرما

^١ نور الثقلين ٢: ٤١٥ ح ٢٠ عن علل الشرايع باسناده الى عمر بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ان بنى يعقوب لما سألوا أباهم يعقوب ان يأذن ليوسف في الخروج معهم قال لهم: «أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون» فقال عليه السلام: قرب...

^٢ نفس المصدر.

على أية حال حيث الذئب يفترس ويأكل، ام إن أخاف، ينحو منحى خوفه عما يفعلون، ثم يفعلون «فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ».

و لكي لا يصارح في «أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ» قولهم «إِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ» يلحقه ب «وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ» انصرافا إلى أشغالكم، لا تقصيرا فى الحفاظ عليه.

و لكنهم لم يرضوا ب «وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ» على أية حال، حيث يمس من كرامة العصبية فى الإخوة، ورحمة الأخوة، فرموا رميتهم الأخيرة:

قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤).

فالغفلة عن الأخ الصغير «وَأِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ»، «وَأِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ» هذه خسارة فى الأخوة بين الإخوة العصبية، فنحن - إذا - خاسرون كل شىء، فلا نصلح لكبيرة ولا صغيرة، فلا نصلح لحياء كريمه، فإذا نغفل عن أخ لنا كريم وهو أنفس من أنفسنا، فقد خسرنا - وبأحرى - أنفسنا ونفائسنا، فكيف ندير - إذا - شؤنا وشؤون العائلة.

و ذلك فى الحق تهديد أكيد لتهدم العائلة إن كان أبونا يخاف أن يأكله الذئب ونحن غافلون! فسواء أألا يأمننا عليه خيانة منا ونكايه، أم عجزا فى حفظه، ونحن عصبية، وذلك أشد علينا وأنكى! «وَأَنْتُمْ عَنْهُ عُصْبَةٌ»: أسد الفلوات والغابات، شجعان فى كل المجالات، فكيف «أَكَلَهُ الذَّئْبُ» ونحن حضور وكلنا عليه عيون! أم كيف نغفل عنه وهو أخونا وأمانة أبنائنا! وامنية عائلتنا! وهكذا يستسلم الوالد الرحيم الحكيم بعد ذلك الإحراج لإخراجه عن محضنه «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ».

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥).

و بالأمل ذهبوا به، و أجمعوا، بعد شتات آرائهم «أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ» كما ارتآه قائل منهم وهو كبيرهم، وكما تودّه تنديده بهم فى قصة الصواع «وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ» وإنما ارتآى ان يجعلوه فى غيابت الجب حيطة عليه، ولأنهم كانوا مصممين على أمرهم الإمر وما كان له بينهم أمر إلا ما أمر! «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ» وهو فى الغيبة «لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا» الإمر بشأنك «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» بأمرهم، وهم لا يشعرون ماذا يفعلون، وتنبئهم وهم لا

يشعرون أنك لأنك يوسف: «قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون» (٨٩)؟ وهم لا يشعرون بذلك الوحي: ثالث اللأشعور للإخوة الحاقدين على يوسف الصديق^١. والإجماع هو العزم الحاصل عن شور، فالآن وقد ذهبوا به لتنفيذ المومرة النكراء، وقد جعلوه في غيابت الجب، وهيمن عليه كل بائسة يائسة، الآن يأتيه - لأول مرة - الوحي الحبيب: أنه ناج، ثم ينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون، وحي يطمئنه عن كل نائبة ومحنة، إلى كل راحة ونعمة، وعلى حد المروري عن الرسول صلى الله عليه وآله: «لما ألقى يوسف في الجب أتاه جبرئيل عليه السلام فقال يا غلام من ألقاك في هذا الجب؟ قال: إخوتي، قال: ولم؟ قال: لمودة أبي إياي حسدوني، قال: أ تريد الخروج من هاهنا؟ قال: ذاك الى إله يعقوب، قال: قل اللهم انى أسألك باسمك المخزون المكنون يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تغفر لى ذنبي وترحمنى وأن تجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا، وأن ترزقنى من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب، فقالها فجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا ورزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب، فقال النبى صلى الله عليه وآله ألفظوا بهؤلاء الكلمات فإنهن دعاء المصطفين الأخيار^٢.

فقد نبى يوسف وهو فى الجب على صغره ولما يبلغ الحلم، ولكنها نبوءة دون حكم وعلم البلاغ: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (٢٢) وذلك قبل ان تراوده امرأة العزيز، وبعد قوله لها «أكرمى متوا»، فقد طالت سنون منذ اشترائه وهو طفل قبل الرهاق^٣ إلى بلوغ أشده ولكى يصلح لمرأوده جنسية.

^١ على الاول «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» حال لامرهم فلا يشعرون أمرهم، و على الثاني حال الإنباء فلا يشعرونك، و على الثالث حال لأوحينا، و الكل مقصود صالح لأن يعنى ادبيا ومعنويا، و قد أخرج الثالث فى الدر المنثور عن مجاهد و قتادة و ابن عباس و الثاني عن ابن جريح ورواه القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام فى الآية بقول: لا يشعرون أنك أنت يوسف أتاه جبرئيل فأخبره بذلك.

^٢ الدر المنثور ٤: ٩ - أخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله .. أقول و فى اصول الكافي بسند عن أبي عبد الله ما فى معناه بزيادة، ان تصلى على محمد و آل محمد، قبل ان تجعل له من امرى ... وفى امالي الصدوق باسناده الى أبي بصير قال قلت لابي عبد الله عليه السلام ما كان دعاء يوسف فى الجب؟ فانا قد اختلفنا فيه؟ فقال: ان يوسف عليه السلام لما صار فى الجب و أيس من الحياة قال: اللهم ان كانت الخطايا و الذنوب قد أخلقت وجهي عندك فلن ترفع لى صوتا إليك و لن تستجيب لى دعوة فاني أسألك بحق الشيخ يعقوب فارحم ضعفه و اجمع بيني و بينه فقد علمت رفته على و شوقى اليه.

^٣ تفسير العياشي عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان ابن سبع سنين.

هنا نودع يوسف فى غيابت الجب فى تصارع بين ظلماتها وأهوالها وبين نور الوحي الأمين، لنرى بماذا يرجع إخوته إلى أبيه وما هى ردة فعله:

وَ جَاؤُا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَ جَاؤُا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨).

هؤلاء الإخوة احتالوا من قبل كل الحيل لأن يذهبوا به، والآن هم فى احتمالات لتغشيه أمرهم الأمر على أبيهم، وأتى ينجو الكاذب ويفلح، ويكاد المريب أن يقول خذونى، فقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبب الكذب، متسرعين فى اصطناعه كما تسرعوا فى استلاب يوسف من أبيه، فالتقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليل على التسرع، فقد كان أبوهم بالأسس يحذّرهم منها وهم ينفون، ويكادون عليه يسطون ويتهمون، إذا فكيف يتركون يوسف وهم يستبقون؟.

«وَ جَاؤُا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ، فرجوعهم عشاء حيلة أولى، ولئلا يتطلب منهم أن يتحسسوا عنه فورهم، حيث العشاء ظلام لا يبين، وخطر أخطر من ذئب النهار، ومن ثم «يكون، حيلة أخرى يتسترون وراءها، تبرئة لهم عما يتهمون، حيث القاتل لا ييكى على مقتوله وهم «يكون! قَالُوا يَا أَبَانَا، نداء تجمعهم ويوسف فى أخوتهم من أب واحد، وتستجيش رحمة الأبوة عليهم «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ، فى عدو، ولم يكن أخونا الطفل ليسطع سباقا، ولا معنا رفاقا، ثم من ينظر متاعنا «وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ! ولكن ما لهم والاستباق وخطر الذئب حادق فى البرية زعمهم، وهم أكدوا لأبيهم من قبل أكيد الحفاظ عليه، لكيلا يأكله الذئب، ثم ويوسف الطفل الذى لا يسطع مصاحبهم فى سباقهم كيف يسطع مقاتلة السارق وقد أول له روه من قبل «وَ كَذَلِكَ يَخْتَبِكُ رَبُّكَ..، فيكف يصدقهم أنه أكله الذئب؟ وهذه كلها آيات بينات لكذبهم المختلق الجاهل، دونما تفكير سدا لثغراته، وصدا عن تهماته.

و لكنهم لكى يبعثوا كذبهم ويقربوا صدقهم، يتظاهرون بمظهر المظلومين المهضومين فى قولة ماكرة: «وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا، تَوْنٌ لَنَا قَوْلُنَا «وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ، على فرض المحال، و لو، هنا، المحيلة صدقهم فى تنازلهم، لها موقعها فى تشكيك يعقوب لأقل تقدير، فبطبيعة

الحال أنت تكذبنا حيث الشغف البالغ في حب يوسف يمنعك عن تصديقنا، وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ، وثبت لديك صدقنا، كيف وأنت متشكك فينا، أم وتتهمنا أننا كاذبون.

و لكي يثبتوا صدقهم، وَ جَاوُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ..، لائح كذبه، لاختلافه عن دم الإنسان، وليس في نفس الدم أثر الافتراس، بل هو نرح، والقميص السليم غير الممزق شاهد ثالث أنه دم كذب فهم تورطوا بفعلة واحدة في ثالوث الكذب.

صحيح أن الدم لا يوصف بالكذب، ولكنه كان مكذوبا فيه لحد كأنه تجسيد للكذب، حيث الدعوى التي علقت به كانت في غاية الكذب، وعلى حد المروري عن يعقوب، اللهم لقد كان ذنبا رفيقا حين لم يشق القميص^١، ويا يوسف لقد أكلت ذئب رحيم، أكل لحمك ولم يشق قميصك^٢، فما أرحمه بقميصه، وأشقاه به! ولماذا، وَ جَاوُ عَلَى قَمِيصِهِ، دون بقميصه؟ لأن «بِدَمٍ كَذِبٍ، متعلق ب «جاوُ»، فالترتيب المعنوي، وَ جَاوُ بِدَمٍ كَذِبٍ عَلَى قَمِيصِهِ، وعلى هنا تلمح ان الدم كان بظاهر القميص دون باطنه، مما يوّد كذبهم، حيث الافتراس يدمى باطن القميص قبل ظاهره، ولا يبقى على قميصه إلّا ممزقا مخترقا.

فقد أدرك يعقوب من دلائل الحال، ومن شغاف القلب، حيث القلب يهوى إلى القلب، أن دعواهم كذب: قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا، فأنفسكم الحاسدة سولت لكم وزينت أمركم الأمر وأنتم تحسبون أنكم تحسنون صنعا، وليس منى في هذه الداهية إلّا «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ»: لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر^٣، وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ، صبر جميل في الله واستعانة فيما يصبر عليه بالله، دونما شكوى إلى غير الله، ولا استعانة بغير الله.

ليس الصبر في ميزان الحق خنوعا على الظلم وخشوعا لدى الظالم يفعل ما يشاء، فانه ظلم ذو بعدين، فانما هو استقامة في القلب، وحفاظ على النظام النفسى من التبعض، وانضباط

^١ نور الثقلين ٢: ١٧٤ في تفسير العياشي عن أبي جميلة عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أوتي بقميص يوسف الى يعقوب فقال: اللهم ..

^٢ المصدر في المجمع و روى انه القى ثوبه على وجهه و قال: يا يوسف ...

^٣ الدر المنثور ٤: ١٠ بإسناد عن حبان بن أبي جميلة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن قوله «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» قال: لا شكوى ... وفي هامش نور الثقلين ٢: ١٧٤ نقلا عن كتاب سعد السعود لابن طاووس نقله من تفسير أبي العباس بن عقدة عن عثمان بن عيسى عن الفضل عن جابر قال قلت لابي عبد الله عليه السلام ما الصبر الجميل؟ قال: ذلك صبر ليس فيه شكوى الى الناس.

للجمعية الداخلية من التفرق والتمزق والتعثر، وعدم الخروج عن الاعتدال بحق الله وحق الناس، حينما تكلّ الأسباب عن دفع النازلة.

فعدم التصبر عند هذه النوازل، يخلف كل تعثر وتعثر، فهو نائبة فوق نائبة، ونازلة تلو نازلة، قد تربوا على أصل النازلة، كمن لا يملك نفسه عند هياج النوازل فيقول في ربه ما لا يحمد، ويفعل بعباد الله ما لا يجوز.

ثم وذلك الصبر منه جميل ومنه غير جميل، كمن يشكوا بلواه إلى غير الله متفجعا، والجميل: **تَمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحَزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**، (٨٦) .. **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**، (٨٣).

فيا لله، ما أصبره على فقد يوسف، إذ لا يجابه إخوته إلا بجميل الجواب ومجمله: **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ**، فلا أمر لي معكم، وإنما هو الله، أستعينه عليكم فيما تصفون ..

هذا يعقوب القرآن في صبر جميل، ولكنه في التورات يمزق ثيابه ويضع مسحا على حقويه قائلا: **إني أنزل إلى ابني نائحا إلى الهاوية مصدقا أنه افترسه وحش رديء** ..^١

و أين الصبر لجميل في هذه الداهية على علمه بحياته تحقيقا لتأويل رُوَاه، والنوح عليه إلى الهاوية كأنه مفترس تجاهلا عن تأويل رُوَاه؟.

لحد الآن حققوا ما حسدوه، ثم وما ليوسف المحسود بعد ذلك الحقد الحقود؟ وبعد ان رأى رُوَاه فأكرمه أبوه أكثر من الإخوة.

إنه في مرحلة ثالثة يصبح سلعة وبضاعة بثمن بخس دراهم معدودة، من إخوته أمّن ذا ممن شروه، ثم إلى مثواه المكرم، ثم المتهمّس لحريم البلاط، ومن ثم السجن لردح بعيد من

^١ في الاصحاح ٣٨ من تكوين التورات تلوما مضى من قصته: «ثم جلسوا لياكلوا طعاما فرفعوا عيونهم ونظروا و إذا قافلة اسماعيليين مقبلّة جلعاد و جمالهم حاملّة كثيراء و بلسانا ولادنا ذاهبين لينزلوا بها الى مصر فقال يهوذا لإخوته: ما الفائدة ان نقتل أخانا و نخفي دمه تعالوا فنبيعه للإسماعيليين و لا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا و لحمنا فسمع له إخوته- و اجتاز رجال مديانينون تجار فسحبوا يوسف و اصعدوه من البئر و باعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فاتوا بيوسف الى مصر و رجع رأوبين الى البئر و إذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ثم رجع الى إخوته و قال: الولد ليس موجودا و انا الى اين اذهب- فأخذوا قميص يوسف و ذبحوا تيسا من المعزى و غمسوا القميص في الدم و أرسلوا الملون و احضروه الى أبيهم و قالوا: وجدنا هذا حقا قميص ابنك هو ام لا، فتحققه و قال:

قميص ابني وحش ردي اكله افترس يوسف افتراسا فمزق يعقوب ثيابه و وضع مسحا على حقويه و ناح على ابنه أياما كثيرة فقام جميع بنيه و جميع بناته ليعزوه فأبى ان يتعزى و قال: **إني أنزل الى ابني نائحا الى الهاوية و بكى أبوه**.

الزمن، ثم العزة العزیزة، وفي ثامنة المراحل، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، تحقيقاً حقيقاً له من رُوَاهُ، بعد ما اجتاز هذه السبع وكلها رزايا في مختلف القضايا!.

و من هنا يسدل الستار على يعقوب والإخوة، عيادة ليوسف، وعودا سريعا إليه فى الجب، لنرى وعد الله له فى وحيه:

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَةً قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً وَاللَّهِ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠):

«سيارة» وهى كثيرة السير، توحى بان الجب كانت على طريق القوافل، المعبدة، حيث يبحث عن الماء والكلاء، وهو تأييد ثان أن الجب هى بئر الماء بين الكلاء، وواردهم، هو قاصد الماء بينهم، الموظف لسقيهم، فأدلى دلوة: أرسل دلوه فى الجب، فإن أدلى ودلى متعكسان إدخالا وإخراجا، والمناسب هنا الإدخال، ام والإخراج بمناسبة البشرى: قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ، يبشر به السيارة أن حصل على غلام حين نزح الماء، ام يعنيهما معا حيث ادخل دلوه وأخرج، مهما كانت البشرى للإخراج. وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ وَ شَرَوْهُ ...

أ ترى من هم الذين أسروه وشروه، أهم إخوته؟ وقد أسدل الستار عليهم إلى السيارة! ولماذا يسرونه بضاعة وهو لهم! وهم لم يذهبوا إلى مصر حتى يشروه بثمن بخس! ام هم أسروه بضاعة والسيارة شروه؟ فكذلك الأمر! ثم كيف هم يسترونه والسيارة يشرونه بدل ان يشروه، ثم يشروه فى مصر! ام هما السيارة أسروه بضاعة مخافة ان يأتى صاحبه فيأخذه، ثم شروه بثمن بخس حيث الملتقط لا يشرى غاليا وكما يسوى فى السوق الحر، ولأنه قد ياتى صاحبه فيأخذه ممن اشتراه فليبخس فيه لذلك من اشتراه، ولأنه كانت عليه ملامح الحرية دون أية لمحة من الرقية، فلذلك كله تشرى هذه البضاعة بثمن بخس دراهم معدودة، وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ! فيا لله «قد كان يوسف بين أبويه مكرما ثم صار عبدا حتى يبع أخس وأوكس الثمن ثم لم يمنع الله ان يبلغ به حتى صار ملكا!».

و البخس هو نقص الشيء على سبيل الظلم، وذلك ظلم بالغ من السيارة بحقه بعد ظلم

^١ نور الثقلين ٢: ٤١٨ ج ٣٧ العياشي عن عبد الله بن سليمان عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: قد كان ...

اخوته، فإن ملامح الرقية فيه منفية، ومظاهر الحرية ثابتة، ولم يكن يوسف ليسكت - لأقل تقدير - عن أنه حرّ، فكيف يشرى وهو حرّ، ولماذا بثمن بخس إذا هو ورق؟ مظالم بعضها فوق بعض.

و الدراهم هي النقود الفضيّة، والمعدودة هي الخفيفة حيث الثقيلة توزن ولا تعد، وهذه قلة في قلة، قلة في أوزانها، وقلة في أعدادها، يشري بها من لا يسامى بأعلى ثمن «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» بحقه من بخس وإهانة ومسّ من كرامته، وهذه نهاية المحنة الأولى في حياة ذلك النبي الكريم.

ينتقل من محضن العائلة، الى الجب بأيدي أئيمة من إخوته، ثم بضاعة إلى أيدي السيارة رقا يشري وأدنى من سائر الرق، ومن ثم إلى الذي اشتراه من مصر، يد طامعة فيه:

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَكَدًّا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١).

هذه حلقة ثانية من حلقات القصة، يصل فيها يوسف إلى مصر ويشري بثمن بخس دراهم معدودة، ولكن الذي اشتراه يتوسم فيه كل خير على صباه، حيث الخير لائح في الوجوه الصباح، وبخاصة حين ترافقها الأخلاق الملاح.

فرغم أنه اشتراه بثمن بخس، يراه ثمينا لائحاً فيه كل بصمات الخير، متحللاً عن كل وصمات الشر، ولذلك يوصى العزيز عزيزته فيه بكل خير: «أَكْرِمِي مَثْوَاهُ» دون أكرميته، والرق أيا كان لا يكرم، ولا سيما في بيت العزيز ذي السلطة والجبروت، فضلا عن أن تتصدى إكرامه سيده البلاط، البعيدة عن جزئيات الأمور وسفاسفها، وهي هنا تتصدى إكراماً لمثواه، مكانه ومكانته، إكرام الشخصية ذي أبعاد وظلال، دون إكرام الشخص - فقط - في مأكّل ومشرب وملبس ومنام، فليكرم في ذلك البيت بقمّة الإكرام، لحد كأن السيدة خادمته والسيد خادمه، فهو - إذا - أعز من العزيز والعزيزة ولماذا؟ «عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَكَدًّا» ينفعنا ما نبغيه من مختلف المنافع، كأن نشره بأعلى الأثمان، أو نستخدمه لأعلى المناصب، أم - وبأحرى - نتخذه ولدا يرثنا، إذ لم يكن لهما ولد، وهذا الغلام أحرى من يتخذ لهما كولد.

و حق للعزیز أن یتفرس فیہ تلك الفراسۃ العالیۃ، إذ كان ذا جمال قمۃ یبهر الأبصار، ویولہ ذوی الأبصار، لطیف الحركات، ملیح اللمحات، عالی الصفات، لحد تقول عنه نسوۃ فی المدینۃ «ما هذا بشرأ إن هذا إلاً ملكاً کریماً! فضلاً عن العزیز والعزیزۃ.

«وَ كَذَلِکَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ... فَاَلْمَمَكْنَ فِي بِلَاطِ الْعَزِيزِ:

رئیس الشرط ام رئیس الوزراء أمن ذا، هذا الذی له العزۃ الوحیدۃ، غیر الوهیدۃ، فی مصر، و علہ الملك، أم ولی عهدہ، والممکن هنا، المکرّم مثواه فی ذلك البلاط، هو - دون هوادۃ - ممکن فی کل البلد.

هذه ظاہرۃ الأمر، ولكنها محنۃ من ناحیۃ أخرى جارفۃ لا یقف لها إلا من رحم اللہ، لیس السجّن إلا أدناها: «رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، فَاِنْ جَوَّ الْبِلَاطِ بِمَا يَغْشَاهُ مِنْ اسْتَهْتَارٍ وَفَجُورٍ، وَفِي إِصْرَارِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، ثُمَّ نَسُوۃً فِي الْمَدِينَةِ، هُوَ جَوُّ الْمَحْنَةِ وَالْبِلَاءِ، إِلَّا لِمَنْ رَحِمَ اللَّهُ وَعَصِمَ.

ذلك، ولكن التمكين المكين في الأرض، وإيتاء الحكم والعلم، يتطلّب سلوك طريق شاقّة ملتویۃ، مليئۃ، بالأشلاء والدماء، فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا! وَ كَذَلِکَ مَكَّنَّا ... وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، حيث التأويل كان السبب الأخير لنجاته، واحتلال عرش العزۃ والملك «وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ:

إخوته أرادوا عليه امرا، والسيارة امرا، والعزیز ثالثا كلها في ثالثها إمرا، واللّٰه أراد أمرا «وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، لا غالب على أمره ولا يسامى، مهما كان أمره يتخلل أمورا كلها إمرا «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، حيث ينظرون ويعلمون ظاهراً من الحياه الدنيا و هم عن الآخرۃ هم غافلون،

فيحسبون كل أمر نافذا إلا أمر الله، كأنه مغلوب على أمره! رغم «إِنَّ اللَّهَ بِالْعُمْرَةِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، (٣:٦٥) وقد يعنى «أمره» هنا أمر يوسف في ظلال أمره تعالى، فلا غالب على أمر يوسف الا الله.

و هذه بداية تمكينه في الأرض، كوسيلة لتمكّنه بعد ربح، ولما انتصب على خزائن الأرض تم ذلك التمكين: «وَ كَذَلِکَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، (٥٦) فليس تمكّنه

فى بيت العزيز هو فقط تمكينه فكما ، وَ لِنَعْلَمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ كَانَ يَسْتَقْبَلُهُ ، كَذَلِكَ
تمكينه المكين يستقبله .

و الواو فى ، و لنعلمه، عطف على محذوف معروف وغير معروف كما حقق الله تعالى فيه من
أمره، كإيتاء الحكم والعلم أماذا من مكانات روحية ومكررات بجانب المكانة الزمنية.

ج سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٢ الى ٤٣ ج

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَاوَدْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي
بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا
يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ
السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ
أَلْقَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
(٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ
وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا
رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَ
اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ
فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَ آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَ قَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ
أُكْبِرْتَهُ وَ قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ
فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَكِن لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيْسَ جَنًّا وَ
لَيْكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي
كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)

ظل يوسف الصديق يتعرع، وفى خدمته العزيز والعزیزة، فقد دخل عبدا خادما، وظل سيدا
مخدوما.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢).

و الأشد جمع الشدّ، وأقله ثلاث، شد العقل والجسم وشد الرشد الاجتماعي وهو الحكمة^١ شدات ثلاث تصلح ظرفا صالحا- على شروطها- لإيتاء الحكم والعلم، ولأن الأنبياء أكمل الخلق خلقا وخلقاً، فالمعنى من أشدهم دون قرينة، هو بلوغ خمسة عشر سنة، ثم من الأشد المستوى الوسط كما فى موسى، «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» (٢٨: ١٤) ومن الأشد بعد الوسط بلوغ الأربعين: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ» (٤٦: ١٥) ولو لا قرينة، أربعين، هنا، واستوى، هناك كان الأشد فيهما كما فى يوسف، ثم ولا يعقل تصبر امرأة العزيز فى غريزتها المتعطشة الطائشة بعد بلوغ الحلم إلى ثلاثين أو أربعين وقد مضى شطر عظيم من ثورة الجنس فيهما! وللحكم الموى والعلم درجات حسب درجات الإحسان، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، أ ترى أن حكمه هنا هو نبوءته؟ وقد نبئ قبله وهو فى الجب: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ! وقد يقرن بالنبوة والكتاب: «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة» (٣: ٧٩) (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة» (٦: ٨٩)!

و قد يوى الحكم دون نبوة ولا كتاب كما فى طالوت حيث أوتى ملكا يحكم به على شعب إسرائيل، ولكن لا نبوة إلّا ومعه حكم شرعى وقضاء مهما لم يكن معه حكم زمنى، فالحكم إذا هو تحكيم الفضائل بسلطة شرعية عامة، او زمنية، ام قضاء خاص، وهو فى يوسف يجمع الثلاث إضافة إلى علما، فليكن حكمه حكم الله فى أى من الثلاث، وعلمه فيما يرتبط بالدعوة إلى الله من علم الله، فلا خطأ- إذا- لا فى حكمه ولا فى علمه، ف- إن الحكم إلّا لله أمرآلّا تعبّدوا إلّا إياه» (٤٠) وقد يواه من ارتضاه الله كما هنا فى يوسف، وفى سائر الحكم لسائر النبيين أمن هم من الحاكمين كطالوت وأئمة الدين المعصومين عليهم السلام.

و قد تلمح جمعية الصفات فى آتيناها، أن حكما وعلما يجمعان الثلاث مع بعض فى يوسف الصديق عليه السلام.

^١ راجع ج ٢٦ ص ٣٥ من الفرقان حول الآية «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ...» تجد بحثا فصلا حول الأشد.

«وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، مَنْحَهُ الْحُكْمَ وَالْعِلْمَ جِزَاءَ إِحْسَانِهِمْ وَعَلَى حُدِّ إِحْسَانِهِمْ دُونَ مَا فَوْضَى جِزَاءً!».

ثم كل قبيل من الإحسان يتطلب حكمه وعلمه وفقهه، من إحسان العقيدة والأخلاق، والسيرة والسلوك، والعلم والفهم أما إذا من درجات الإحسان، فالمؤمنى حكم النبوة وعلمه هو المحسن بما يصلح لها، ولكن ليس كل من أحسن بالغاً ما بلغ يؤى ذلك الحكم، فإنه كسبى كظرف صالح، وانتصابى كما يراه الله فى كل زمن حسب حاجة المرسل إليهم. و من حكمه الموهوب تمكينه فى الأرض يتبوا منها حيث يشاء:

«وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ، كَمَا مِنْ عِلْمِهِ الْمَوْهُوبِ عِلْمَ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا الْمَوْعُودِ لَهُ مِنْ قَبْلِ: «وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، إِضَافَةً إِلَى سَائِرِ الْحُكْمِ وَالْعِلْمِ الْمَعْلُومَانِ مِنْ طَيِّبَاتِ الْقِصَّةِ، كَحُكْمِ النَّفْسِ إِحْكَامًا لَهَا وَتَوْطِيدًا أَمَامَ الشَّهَوَاتِ، وَهُوَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَمَلِيَّةِ وَالْعِلْمِ بِتَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَهُوَ مِنَ الْحِكْمَةِ النَّظَرِيَّةِ، حُكْمِ عَالِمٍ، وَعِلْمِ حَكِيمٍ يَجْتَمِعَانِ فِي هَذَا النَّبِيِّ الْعَظِيمِ «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ!» وَعَلَى أَيَّةِ حَالٍ فَكُلُّ حُكْمٍ بَالِغٍ وَعِلْمٍ سَابِقٍ هُوَ مِنْ مَخْلَقَاتِ النَّبُوَّةِ، فَالْحُكْمُ هُنَا حُكْمُ اللَّهِ وَالْعِلْمُ عِلْمُ اللَّهِ لَا جَهْلٌ يَدَاخِلُهُ وَلَا بَاطِلٌ يَزَاوِلُهُ.

لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، آتَاهُ اللَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، يَسِرًا فِي الْمَعْرِفَةِ الْوَاصِبَةِ الْخَالِصَةِ، وَهَلْ يَحْصُلُ يَسْرٌ بِلَا عَسْرِ؟ كَلَّا! فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، لِذَلِكَ نَرَاهُ يَبْتَلِي بِامْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَنَسُوهُ فِي الْمَدِينَةِ مِنْذُ أَشُدَّهُ، كَمَا ابْتَلَى بِأَخُوْتِهِ مِنْذُ رُؤْيَاهِ إِلَى جَبِّهِ، وَرَطَاتٍ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدٍ وَلِيَتَحَقَّقَ وَعَدَّ اللَّهُ فِي هَذَا الْبَيْنِ «آيَاتِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا، وَمَنْ ثُمَّ «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ...».

هنا تبدأ حلقة ثالثة هي أخطر الحلقات وأبلاها، وأخطر من هدر النفس والنفس، فانه جو تهذر العصمة والخلوص لله، «لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّي!»:

«وَرَأَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)».

«الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا، هِيَ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ، وَهَذِهِ صَيْغَةُ سَائِعَةٍ عَنْهَا وَعَنْ مَوْقِفِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ دُونَ «امْرَأَةَ الْعَزِيزِ، فَالْبَيْتُ بَيْتُهَا، وَهُوَ فِي بَيْتِهَا وَتَحْتَ إِمْرَتِهَا وَمَلِكَتِهَا، مِمَّا تَزَايِدُهَا سُلْطَةً عَلَيْهِ وَتَأْمُرُ،

وتزيده عجزا عن المقاومة وتذمرا.

وبطبيعة الحال فى يوسف، وهو فى بداية الحلم وقوة بالغه فى فوره الجنس وثورته شابا فى غليان الشهوة وفوران الشبق، فى بلاط ملكى له كل وسائل العيش وأسباب الرياحه والترح، كان له ان يراودها، وهى بطبيعة الحال شابه جميله تائقه فى غرامها، متزينه- على جمالها- بأرقى زينها، متدلله متعجنه تتوق إليه نفسها، مشغوفه بحبه، والهه تائهه فى وصاله! فائقه الجمال، عزيزه العزيز، عشيقه والهه تتوق إليها النفوس، فتانه رنانه حثانه، لا يرد رأيها ولا يثنى أمرها، وقد ربته كما أمرت فى إكرام بالغ لمثواه، ولكنه- رغم كل هذه وتلك- لم ينظر إليها نظره شهوه، ولا خلد بخلده لها لهوه ولا لحظه، فهى هى التى تراودها عن نفسه، مما يزيده إليها هوى، والمراده من الرود: التردد فى طلب شىء برفق ولينه، بكل سعى وإصرار وحيله، والرائد الذى يرسل فى التماس النجعه وطلب الكلاء، والمراده عنه استلاب المراد ممن هو عنده، قالوا سنراود عنه أباه، استلابا عنه بتردد والتماس، ف «راودتته .. عن نفسه، استلاب نفسه عنه حتى لا يملكها وهى تملكها فتفعل ما تشاء.

فقد احتالت له مرارا وتكرارا فى قوله وفعله، مراوده إياه عن نفسه رغم تمنعه وتمعنه فيما تهوى، فلم تنجح لما تهوى فان نفسه كانت مربوطه متعلقه بعصمه إلهيه مطمئنه بالله، راضيه عن الله مرضيه عند الله. فكيف تراود عنه؟ اللهم إنا ألى يرى برهان ربه وقد رأى! ولكى تسد أمامه كل ثغرات الفرار، وكافه الأعذار «وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ، وَعَلَّهَا أَبْوَابَ الْفِرَارِ إِلَى بَابِ الدَّارِ حَيْثُ أَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ، دُونَ الْأَبْوَابِ، أَمْ وَإِذَا كَانَتْ لِمَخْرَجِ الْبَيْتِ أَبْوَابَ، فَلَا يَكْمُلُ الْهَدَفَ - فَقَطْ - بِإِغْلَاقِهَا مَا دَامَتْ أَبْوَابُ الْأَعْذَارِ بَاقِيَةً لِلْفِرَارِ، إِذَا ف «عَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ، تَعْمُ كَافَةَ الْأَبْوَابِ، الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا وَيَخْرُجُ عَنْهَا، فَلَمْ يَبْقِ بَابٌ لِعِذْرِهِ إِلَّا مَغْلَقَةً، وَالشَّهْوَةُ فِي الشَّابِّ وَالشَّابَّةِ حَاضِرَةٌ، وَالْمَوَانِعُ فِي مِيزَانِهَا زَائِلَةٌ، وَلَكِنَّهَا - بَعْدَ - لَمْ تَنْجِحْ فِي بَغِيَّتِهَا فَرَأَتْ فِيهِ تَأْيِيًا وَصُمُودًا، فَعِنْدَئِذٍ صَرَخَتْ عَلَيْهِ «وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ، وَالْأَرْجَحُ أَنَّهَا مِنْ أَسْمَاءِ الصَّوْتِ الْعِجَابِ وَقَدْ تَعْنَى هَاهُ هَا! وَيَلِكُ وَيَلَاكُ! مِنْ ذَلِكَ الصُّمُودُ كَالْحَجَرِ الصَّلْدِ، وَالْجَبَلِ الشَّامِخِ الصَّلْبِ، لَا تَحْرِكُهُ الْعَوَاصِفُ وَلَا تَزِيلُهُ الْقَوَاصِفُ، لَا يَتَحَسَّسُ لَهَا وَلَا يَمِيلُ إِلَيْهَا وَلَا يَكْلَمُهَا فِي كُلِّ هَذِهِ الطَّائِلَاتِ الْغَائِلَاتِ، إِنْ كَلِمَةٌ تَكَلَّمُهَا، وَتَفْتَحُ كَافَةَ الْأَبْوَابِ الَّتِي عُلِّقَتْهَا:

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣).

إنه في هذه المرحلة التائهة الحساسة لا يسايرها في معاذ ليقول: معاذ العزيز حيث أحسن مَثْوَايَ، فما العزيز بعزير أمام ربه العزيز، فإنما مَعَاذَ اللَّهِ، فقط لا سواه، مهما اعترفت به العزيرة أم أنكرت، والبيت بيت الشرك والشهوة، جو لا منفذ فيه لتوحيد الله، ولكن يوسف هو الآن كما كان وسوف يكون، نبيا وإلهها في الله، متمما في حب الله، لا يجلو له جمال دون جماله، ولا جلال أمام جلاله.

فهب إنها غلقت الأبواب التي كانت بيدها مفاتيحها، فهل لها أن تغلق باب قلبه إلى الله، الملىء من حب الله، الخالي عما سوى الله، فلا يستمسك في هذه الهزاهز بأسباب غير الله، إلّا بعروة التوحيد: مَعَاذَ اللَّهِ.

فما أبعد قلبا عن قلب، قلبا لامرأة العزيز مقلوبا غزيرا من الشهوات واللّهوات، حيث أسعرت في سرها كل لهيب إلى علانيتها، وأججت كل نار حتى استغرقت في حب فتاها، وتولت في غرامه، واشتغلت به عن كل شيء، فهو بداية منطقها ونهايته، وهو في ضميرها حين تسكت، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا، حيث دخل شغاف قلبها!

و قلبا ليوسف الصديق لا يحن إلّا إلى الله، وليس فيه إلّا حب الله، متناسيا عن حب من سواه إلّا فيه، فكيف يعشق امرأة ذات بعل مهما كان لجمالها ومالها من جواذب.

لذلك يقول في جوابها مَعَاذَ اللَّهِ، لأنه الله وإِنَّهُ رَبِّي، لا سواه، أَحْسَنَ مَثْوَايَ، لا سواه، فقضية ألوهيته أن يتقى، وقضية ربوبيته أن يتقى، ولأنه أحسن مَثْوَايَ، وإن كان ربك العزيز أمرك أن أَكْرِمِي مَثْوَا، فان ذلك ايضا في ظلال ربوبية الله، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، يكرم مَثْوَى عبده عند من يعبد سواه، وكما أكرم موسى في بلاط فرعون.

هذا وذاك وذياك ومن ثم إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، ولا سيما في ثالث الظلم، أن أظلم نفسي، وأظلم العزيز في غيبه، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ،

^١ في معاني الاخبار باسناده عن أبي حمزة الثماني عن السجاد عليه السلام في حديث يوسف الطائل قال عليه السلام وكان يوسف من أجمل اهل زمانه فلما راهق يوسف راودته امرأة الملك عن نفسه فقال: معاذ الله إنا اهل بيت لا يزنون فغلقت الأبواب عليها و عليه وقالت لا تخف و لقت نفسها عليه فأقلت منها هاربا الى الباب ففتحه فلحقته فجدبت قميصه من خلفه فأخرجته منه فأقلت يوسف منها في ثيابه فالقيا سيدها..

وأظلم حق ربي وإن كان هو لا يظلم، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، (٦٥: ١).

فهل أخترق عصمة العبودية، وأظلم ثالوثه، لان العزيزة يعشقني؟

كلا! إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. - وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ.

و ما أسخفه تفسير «ربي» بالعزيز، ومعاذَ الله، يقدمه، فكيف يرجع إلى غيره «إنه؟ ومهما كان العزيز أحسن مثواه، ولكنه من إحسان الله، وليس العزيز محور الاحترام، فان ربوبيته له بالنسبة للرب احترام، ثم لم تكن للعزيز بالنسبة إليه أية ربوبية تحترم، فانه أوصى العزيزة بإكرام مثواه انتفاعا منه كتاجر! ثم قد أهان مثواه روحيا بجنب الله، مهما أكرم مثواه ماديا وكما تهواه! ثم المرابي أيا كان لا يسمى في منطق الموحدين ربا! ولم يكن رقا حتى يعتبره بذلك ربا! وإنما هو رب في منطق الشرك وكما قال لأحد صاحبيه في السجن: «اذكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» (٤٢) وقال لرسول الملك: «ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ» (٥١) وأما عن ربه، فَسُئِلَهُ مَا بَالُ النُّسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥١)! وفي الآية التالية، لو لا أن رأى برهان ربه.. وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤).

ان العزيزة لم تقنع بذلك الحجاج، واصرت على ما تهوى بكل إصرار ولجاج، وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، بكل ما للهم من معنى وكما يوِّده حرفا التأكيد عدَّة وعدة، همت به لحد علقته به، وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ... والهمَّ ارادة صارمة بهمة عارمة، لو لا دافع عنه او مانع لتحقق المهتم به، وهم الزنا سوء وهي نفسها فحشاء، وهذه العزيزة سيده البلاط.

و أما يوسف وَ هَمَّ بِهَا، كما همت به، لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهم بها، فالأسباب الطبيعية، وتجاذب الجنس مع تغلق الأبواب، كانت كالعلة التامة لذلك الهم من يوسف، ولكنه رأى بُرْهَانَ رَبِّهِ، فلم يهم بها سوء فضلا عن الفحشاء! وهنا مع كل الأسى نرى زمرة من المفسرين القدامى والحدثاء، وآخرين من المحدثين ساروا في هممه عليه السلام وراء الإسرائيليات التي حتى التورات المحرفة منها براء^١ مصورين يوسف في هذه الحلقة

^١ ففي الاصحاح ٣٩ من تكوين التورات تصريحة ببرائته على تحرفه في جهات اخرى قائلا بعد ما مضى في قصته: «و اما يوسف فانزل الى مصر و اشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط.. فوكله الى بيته و دفع الى يده كل ما كان له .. و لم يكن يعرف معه الا الخير .. و حدث بعد هذه الأمور ان امرأة سيده رفعت عينيها الى يوسف و قالت: اضطجع معي فأبى و قال لامرأة

الخطيرة هائج العزيرة، مائج الشهوة، فالله يدفعه ببرهان منه فلا يندفع، حتى أخرج شهوته من أنامله، ويرى هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضا على إصبعه بقمه يندد به، ولوحات كتبت عليها آى من الذكر الحكيم توبّه وتردعه فلا يرتدع، حتى خرجت شهوته من أنامله، وإلى أمثال هذه وتلك من الأسطورات النكراء المكراء بحق يوسف الصديق! وهنا شهود سبع على براءته بين صديق وعدو وعوان بينهما:

فَاللّٰهُ تَعَالٰى اَوَّلُ شَاهِدٍ لِّبِرَائَتِهِ: كَذٰلِكَ لِنُصَرِّفَ عَنْهُ السُّوْءَ وَالفَحْشَاءَ اِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِيْنَ، بعد ما صرف عنه سوء الهمّ بها، وَهَمَّ بِهَا لَوْ لَا اَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، ولا ريب أن هكذا همّ من أسوء السوء وهو من غواية الشيطان وسلطانه: اِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلٰى الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَعَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ، (١٦: ٩٩) ومن أفضلهم المخلصون ويوسف منهم: اِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِيْنَ! وشاهد ثان هى راودتني عن نفسي، - رَبِّ السَّجْنُ اَحَبُّ اِلَيَّ مِمَّا يَدْعُوْنِيْ اِلَيْهِ وَ اِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ اَصْبُ اِلَيْهِنَّ وَ اَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِيْنَ. فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ... (٣٤) (ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ اَنِّيْ لَمْ اُخْنَهُ بِالْغَيْبِ وَ اَنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِيْ كَيْدَ الْخٰثِلِيْنَ، (٥٢) - اِنَّهُ مَنْ يَّتَّقِ وَيَصْبِرْ فَاِنَّ اللّٰهَ لَا يُضِيْعُ اَجْرَ الْمُحْسِنِيْنَ، (٩١) وهو يعنى نفسه وأخاه حين قال: اَنَا يُوسُفُ وَ هٰذَا اَخِي ...

و صاحبة القصة الثالثة: لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا اَمْرُهُ لَيْسَجَنَّ وَ لَيَكُوْنًا مِنَ الصّٰغِرِيْنَ، (٣٢) (الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ اَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِيْنَ، (٥١).

و العزيز الراغب فى تهمة هو الرابع: اِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ اِنْ كَيْدِكُنَّ عَظِيْمٌ. يُوسُفُ اَعْرَضَ عَنْ

سيده هو ذا سيدي لا يعرف معي ما فى البيت .. و لم يمسك عني شيئا غيرك لأنك امرأته فكيف اصنع هذا الشر العظيم و أخطى الى الله و كان إذ كلمت يوسف يوما فيوما انه لم يسمع لها ان يضطجع بجانبها ليكون معها. ثم حدث نحو هذا الوقت انه دخل البيت ليعمل عمله و لم يكن انسان من اهل البيت هناك فى البيت فأمسكته بثوبه قائلة: اضطجع معي فترك ثوبه فى يده و هرب و خرج الى خارج و كان لما رأت انه ترك ثوبه فى يدها و هرب الى خارج انها نادت اهل بيتها و كلمتهم قائلة: انظروا قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا، دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم، و كان لما سمع اني رفعت صوتي و صرخت انه ترك ثوبه بجانبى و هرب و خرج الى خارج، فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده الى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة: دخل الي العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني و كان لما رفعت صوتي و صرخت انه ترك ثوبه بجانبى و هرب الى خارج. فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك ان غضبه حمى فأخذ يوسف بيده و وضعه فى بيت السجن المكان الذي كان اسرى الملك محبوبين فيه و كان هناك فى بيت السجن، أقول: على اختلاف مواضع منها مع ما قصه القرآن نراها لا تتهم الصديق ان هم بها، فالويل لمن اتهمه و كذب عليه ما التورات المحرفة منه براء!

هَذَا وَاسْتَنْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩).

و الشاهد من أهلها هو الخامس، وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَ إِنْ كَانَ ... فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ... (٢٨).

و نسوة في المدينة هن السادس: وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، (٣٠) وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، (٥١).

و إبليس هو السابع حيث قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ، (١٥): (٤٠) كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ.

شهود سبعة بين صديق وعدو وعوان بينهما كلهم يشهدون ببرائة صاحبة الصديق من السوء والفحشاء، فلئن كان هؤلاء المختلقون يتبعون كاذبا عدوا للصديق حتى الشيطان، لكان عليهم ان يبرؤا! ساحته كما قال الشيطان: إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ! فلتغسل كتب إسلامية عن تلكم الأسطورات التي تسود وجه النبوات وتعارض كافة المقاييس والله منها براء! يوسف منذ نبئ كان يرى برهان ربه والبرهان هو آكد الأدلة وأوضحها وأثبتها، من بره يبره إذا ابيض دون مخالطة، فهو هنا العصمة الإلهية، والحضور التام عند ربه، دونما غفلة ولا لحظة، ولا سيما في مواضع الزلّة، ولو لا .. تحيل له عدم الرويّة، وبالنتيجة تحيل همّه بها ولبرهان الرب مراحل ثلاث ولكلّ درجات، علم اليقين - عين اليقين وحق اليقين، فحقه لا يخالطه أيّ شك وباطل، ولقد رأى يوسف درجة من حق اليقين، وكما تطلّب إلى ربه درجة أعلى منها لما ابتلى بكيد نسوة في المدينة: وَ إِيَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ... في مرحلة حق اليقين تتحلى حقايق الأشياء دون ستار، منخلعة عن صورها المستعارة، و كما يروى في اجابة الصديق عن همها!

^١ في تفسير روح البيان ١٢: ٢٣٦ روى عن ابن عباس كان يوسف ... فقالت له يا يوسف انما صنعت هذا البيت المزين من أجلك فقال يوسف يا زليخا انما دعوتني للحرام و حسبي ما فعل بي أولاد يعقوب اليسوني قميص الذل و الحزن يا زليخا اني أخشى ان يكون هذا البيت الذي سميت به بيت السرور بيت الأحزان و الثبور و بقعة من بقاع جهنم فقالت يا يوسف ما احسن عينيك! قال: هما أول شيء يسيلان الى الأرض من جسدي، قالت: ما احسن وجهك! قال: هو للتراب يأكله، قالت ما احسن شعرك قال: هو أول ما ينتشر من جسدي، قالت ان فراش الحرير مبسوط فقم فاقض حاجتي قال: إذا يذهب نصيبي من الجنة، قالت: ان طرفي سكران من محبتك فارفع طرفك الى حسني و جمالي، قال: صاحبك أحق بحسبك و جمالك مني، قالت هيت لك!

و انما يحسن وَ هَمَّ بِهَا، ولن يهم، تلويحا بأن الأسباب العادية تمت في همّة بها، حيث القمّة القاضية من تجاذب الجنس حاضرة، ولكنه حيث «رأى بُرْهَانَ رَبِّهِ» لم يهم بها كذلك، التأثير الخارق للعادة من رُوِّته برهان ربه لِتَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ، لا لنصرفه عن السوء والفحشاء، إذ لم يكن ليهم بهما وإنما السوء الهاجم عليه، والفحشاء الحادثة به المحلّقة عليه، لا بد لهما من صرف الهى - حينما تعجز المحاولة البشرية - وقد صرف إِيَّاهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ، وهكذا يكون دور المخلصين في صرف إلهي بعصمة إلهية على طول الخط، فساحتهم من وصمات السوء والفحشاء براء، وفناءهم من بصمات الخير والسعادة بيضاء، وفي الحق ان رضا الناس لا يملك وألستهم لا تضبط وكيف تسلمون مما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله عليهم السلام، أ لم ينسبوا يوسف إلى أنه هم بالزنا؟^١

و هكذا تقول الروايات الصادقة وفق القرآن كما يروى عن الامام الرضا عليه السلام قوله في تفسير آية الهم: لقد همت به ولو لا أن رأى برهان ربه لهم بها كما همت به لكنه كان معصوما والمعصوم لا يهم بذنب ولا يأتيه...^٢.

^١ نور الثقلين ٢: ٤١٩ عن امالي الصدوق باسناده الى أبي عبد الله عليه السلام أقول و من المؤسف انه روى هذه الفرية الفريقان و كما في نور الثقلين ٢: ٤٢٠ في تفسير العياشي عن محمد بن قيس عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول: ان يوسف لما حل سراويله رأى مثالا يعقوب عاضا على إصبعه و هو يقول له: يوسف! قال: فهرب ثم قال ابو عبد الله عليه السلام و لكني ما رأيت عورة أبي قط و لا رأى جدي قط و لا رأى جدي عورة أبيه قط قال و هو عاض على إصبعه فوثب فخرج الماء من إبهام رجله، أقول و من أعور العورات نسبة هذه الرواية الى صادق آل محمد عليه السلام و لا موقع هنا للتقية حيث الكتاب مصرح ببرائته عليه السلام و كما فيه عن العياشي ٤٧ عن بعض أصحابنا عن أبي جعفر عليه السلام قال: اي شيء يقول الناس في قول الله عز و جل «لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» قلت يقولون: رأى يعقوب عاضا على إصبعه. وفي الدر المنثور ٤: ١٣ و ١٤ روايات عدة غير مسنودة الى النبي صلى الله عليه وآله اللهم الى علي عليه السلام أن هم بحل التكة، او جلس منها مجلس الخائن اما ذا من سفاسف الافتراءات على الصديق العظيم، و الله منها براء و الرسول و الائمة النجباء عليهم السلام.

^٢ نور الثقلين ٢: ٤١٩ ح ٤٢ عن عيون الاخبار في باب مجلس آخر للرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء باسناده الى علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال: بلى قال فما معنى قول الله عز و جل- الى ان قال- فاخبرني عن قول الله تعالى: «و لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» فقال الرضا عليه السلام ... ثم أضاف: و لقد حدثني أبي عن الصادق عليه السلام انه قال: همت بان تفعل و هم بان لا يفعل فقال المأمون لله درك يا أبا الحسن.

أقول الجملة الأخيرة في ظاهرها لا تلائم الآية بل تعاكسها، ف «هم الا يفعل» بتتمة الآية «لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» يجعله فعل حيث رأى برهان ربه، و روة البرهان تدفع الهم دون ان تدفع الى الهم، الا ان تَوَلَّ بانه تفسير النتيجة الحاصّة عن «هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» فانتفى- إذا- همه بها الى همه الا يفعل و هو تأويل حسن.

و اما المجلس الآخر عند المأمون عند الرضا عليه السلام في نفس الآية: فانها همت بالمعصية و هم يوسف بقتلها ان أجبرته اعظم ما تداخله فصرف الله عنه قتلها و الفاحشة و هو قوله: كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ، يعني القتل و الزنا، فلا يلائم الآية حتى تأويلا بانه لم يهم بها كما همت بل هم بقتلها، حيث القتل في نظائر هذه الموارد لا يجوز في الشرعة الإلهية، غاية الأمر الا يستجيبها و يفر عنها كما فر.

فبرهان ربه هو العصمة الإلهية التي يجعلها في مقام الحضور الدائب لدى الرب كما يقول الامام الصادق عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه، وليست المعصية إلّا عن جهالة وغفلة، وساحة النبوة منها براء».

هذه ثالث المحاولات الإبليسية من العزيزة^١ ليوسف، مراودة عن نفسه. ولمّا تفشل، تترجع لرابعتها توسلا الى القوة، وأين لها وكيف تقوى على طغوى من حياته كلها تقوى: وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥).

إنّ هياجها الحيوانى المسعّر دفعها إلى إعمال القوة فى إطفاء الشهوة فلحقته بعد ما مسّكته و فرّ «وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ» مما يدل على إقبالها إليه فإدباره عنها. فالقدّ هو الشق طولاً والقطّ هو عرضاً، والإلقاء مباحته اللقاء خلاف الوجدان فانه لقاء مقصود محاول، وسيدها- هنا- بطبيعة الحال هو العزيز، فلم يقل: سيده او سيدهما، إبعاداً عن مزعمة أنه ربّه، وتأبيدا للمعنى من أن «انه ربي» هو الله لا سواه.

«و استبقاء» يوسف وامرأة العزيز «الباب» الممكن فتحها بعد غلقها، أم يكسرها ويخرج نجيا، وفى ذلك الاستباق يوسف يسرع إلى الباب فرارا عن كيدها وإصرارها، وامرأة العزيز تسرع إليه لتأخذه، والى الباب لتمنع عن فتحها، ولما سبقها الى الباب أخذت قميصه ايقافاً له عن الخروج قضاء لحيونته الشهوة، ولكنه استمر فى السباق «وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ» شقا فى طوله «و ألفيا» فى مباحته «سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» وهنا انقلبت حركة المراودة والاستباق، إلى موقف التحقيق فى حيرة وبهرة من هوّاء الثلاث.

لم يكن يوسف فى هذه المفاجئة الفاجعة ليسبق العزيز والعزيزة فى شىء من بيان الواقعة، لأنه خلاف الشرعة ان تبدى خطيئة مخفية، وقضية الحال لو لا الإيمان أن يبدى- ولأقل تقدير- حياطة عليه وسياجا على مكيدة قد تكاد، ولكنما الايمان قيد الفتك.

و نرى البادئ هنا صاحبة الجريمة، تجد حاضر الجواب بكل مكيدة على السؤل الذى

^١ هي راودته- غلقت الأبواب- وقالت هيت لك.

يهتف به المنظر المريب، ولكنها بصورة عامة قد تحافظ فيها على عشيقها الذى شغفها حبا،
علها تصل الى بغيتها فيه بعد ربح من الزمن ف: «قالت ما جزاء من اراد باهلك سوءا اإلا أن
يسجن أو عذاب أليم» فلو أنها لم يكن لها فيه هوى لقطعت فى حكمها بقتله، أفتى مملوكا
مونا على البلاط مكرما مثواه، يمس من كرامة صاحبة البلاط؟

و لكنها حكمت أولا «أن يسجن» الظاهر فى فترة دون ان يكون من المسجونين اللائح فى
ربح بعيد من الزمن، ومن ثم تبين منها أن حكم السجن مكيدة لها عليه فى حائطة: «ولئن لم
يفعل ما أمره ليسجنن و ليكونا من الصاغرين» (٣٢) وهنا «أو عذاب أليم» عله سياج على
المكيدة، وأن فى إبهام العقوبة نوعا من الفرج، وإن كان فى «بأهلك» هياجا حارضا على
مواخذته، ولكنه من وجه آخر كان حيلة فى صرفه عن مواخذتها، ثم لها سبيل فى صرفه
عن مواخذة يوسف تلك الصعبة الملتوية القاضية عليه.

ا ترى يوسف البرىء هنا يتفجر فيفجر فى الجواب، ويخرج عن نجد الصواب؟ كلاً! فلا
يجهر إلا بقدر من الواقع فيه براءة ساحته، دون أن يدنسها أكثر مما كانت، ولا كما كانت،
حيث اختار من ثلوث مكيدتها أولاها: «وراودته التى هو فى بيتها» وأما تغليق الأبواب،
وقولة «هيت لك، ومن ثم الاستباق، فلا ف: قال هى راودتني عن نفسى...» (٢٦).

دفاعا عن نفسه بأقل الواجب، وليس فيه تأكيد من قسم وسواه، ولا تملق او تعلق بأمر سواه،
تديلا على طمأنينة أمينه فى نفسه، وهكذا يكون البرىء الأمين، لا يقول إلا صراح الحق،
دون تشبثات بخلاف الحق.

... «و شهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت و هو من الكاذبين» (٢٦) وإن
كان قميصه قد من دبر فكذبت و هو من الصادقين» (٢٧).

أ ترى العزيز كان مكفوف البصر ليحتاج بيان الموقف إلى شاهد يشهد بما هو مشهود لكل
ذى بصر؟ كلاً، ولكن المنظر المفاجأ ما كان ليفسح مجالاً لفحص ونظر، حيث يرى صاحب
البلاط صاحبه فى ذلك المنظر الرهيب مما يريب ويهيب، فكان - ولا بد - لبراءة يوسف
الصديق من خارقة تجلب النظر، فعله لم يسمع كلام يوسف، أم لم يحل محله فى سمعه،
فمدعية - هى عزيزته وكريمته: أنها هتكت فى غيبه من فتاه، ومنكر لم يأت بشيء إلا دعوى

خالية وجاه دعواها، وطبيعة الحال قاضية أنها القاضية الماضية فى دعواها، أم- و لأقل تقدير- يبقى الموقف مريبا مترددا.

هنا قد نصدّق الرواية القائلة أن الشاهد كان طفلا فى مهده وهو من أهلها¹ وقد كانت شهادة مثلثة: رضيع يشهد، وهو من أهلها، وشهادته مشهودة فى قميصه، فطفولته وجّهت وجه العزيز إليه حائرا ذعرا لسمع مقالته، وكونه من أهلها لا من أهله أوجب للحجة وأوثق للبراءة وأنفى للشبهة، وقدّ القميص من الدبر جعله يقطع دون ريب بكيدها وبرائته، لا سيما وبدأه باحتمال كذب يوسف، **إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**، كسياسة حيادية فى الشهادة تجعل السامع لها تائقا إليها، ناظرا فيها، مرتاحا بها، ثم عطفنا إلى احتمال ثان هو المبان فى المشهود له: **وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**.

و بالنتيجة نظر العزيز إلى القميص قبلًا ودبرا ليحظو حظوة من الشهادة فلما رأى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) أ فكان يجرأ شاهد بالغ من أهلها ان يشهد لغير صالحها وفيها هتفه ام سقوطه عن أهليته؟!.

و لم تكن هذه الشهادة لتحتمل خلاف الواقع، أن تحمّل على الموقف تعبدا ام تقبلا عرفيا، و إنما هى شهادة بمشهود حاضر غاب عن الناظر قضية الموقف الخطير الرهيب، الذاهب بلب العزيز وبصيرته فضلا عن بصره وروّته، فهى شهادة مصحوبة بواقع المشهود وبسند الشهادة، والشاهد طفل ليس ليتكلم كلام الطفولة وهو يشهد شهادة الرجولة البالغة، ثم هو من أهلها، مقدما لها ما يحتمل به نجاحها، فلم يكن بد للعزيز إلّا حكمه القاطع فى عزيزته: **إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ**، إدخالا لها فى جمعهن تخفيفا عنها أنها ليست بدعا فى مكرها **إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ!**

فأخيرا تبين فى مشهد العزيز والعزيزة بشاهد من أهلها أنها هى الخائنة، وهنا تبدو صورة من

¹ فى الدر المنثور ٤: ١٥- اخرج احمد و ابن جرير و البيهقي فى الدلائل عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: تكلم اربعة و هم صغار ابن ماشطة فرعون و شاهد يوسف و صاحب جريج و عيسى بن مريم و مثله دون اسناد اليه صلى الله عليه وآله عن سعيد بن جبير وفى نور الثقلين ٣: ٤٢٢ ح ٥٣ عن القمي حدثني أبي عن بعض رجاله رفعه قال قال ابو عبد الله عليه السلام لما همت به- الى ان قال فى تفسير الآية- فألهم الله عز و جل يوسف ان قال للملك سل هذا الصبي فى المهد فانه سيشهد انها راودتني عن نفسي .. فانطق الله الصبي فى المهد ليوسف ..

الطبقة الراقية المترفة في الجاهلية قبل آلاف من السنين - كما هي اليوم أرقى - تبدو رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية مع تميل إلى كتمان التمتع عن المجتمع، وأنسى منها الكتمان وقد تسرب الخبر وشارع في سراع الى نساء في المدينة!.

و ترى كيف «إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» ومع «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا» (٤: ٧٦)؟ إنه عظيم وجاه كيد الرجال، ولكنهما معا ضعيفان بجانب كيد الشيطان، ثم العظيم عند الناس أضعف من الضعيف عند الله، ثم وعظم الكيد منهن من قالة العزيز، ولا يرد عليه القرآن لعظمه نسبة الى الرجال، لا على أية حال! يُوسُفُ أَعْرَضُ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩).

هل الحاكم هنا بعد الشهادة هو الشاهد؟ «وَشَهِدَ شَاهِدٌ» دون حاكم لا يناسبه، ثم الحكم في مثل هذا الموقف ليس إلّا عزيزه الكبير، النافذ قوله في فتاه والعزيزة! فهو إذا ليس إلّا العزيز. يبدأ ييوسف المنتصر المحكوم له في المشهد كملتمس منه، ألّا يذيع ويشيع الكارثة: «يُوسُفُ أَعْرَضُ عَنْ هَذَا» الذي حصل، ولكنه لا يكفي كاتما ما دامت العزيزة أسيرة سعار الشهوة، وقد تتكرر منها المراودة فتفشوا، أم تتسابق على لسانها في فلتاتها، ام تظهر على وجهها في لفتاتها فتشيع، فلذلك يثنى الوصية بعده إليها «وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ» و هل كانت مونة بالله لتستغفره عن ذنب، ام كان هو مونة ليأمرها به؟ وطبيعة البلاط وجوه التميع واللأمبالاة حتى في المسلمين فضلا عن بلاط الفراعنة المشركين!.

أم أمرها أن تستغفر العزيز نفسه لذنبها؟ وماذا يفيد وكيدها عظيم! ولو كان في الحق ذنبا عندهما لكانت هي البادئة في استغفاره قبل أمره!.

علّه بمناسبة الموقف هو طلب الغفر الستر على ذنبها، وهو ما يستوخم عقباها، أن تحاول في ستره والحفاظ عليه كما تستطيع حتى لا يذيع، أم بمناسبة «إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ» يطلب إليها أن تصلح حالها فلا تراوده؟ وعلهما معا معنيان، وفي مناسبة الموقف هما بيان.

ولماذا «الخطئين» بدل «الخطئات» علّه لتعميم أكثر وتعمية لخطأها ضمن خطايا الآخرين رجالا ونساء، أم إنهم الطبقة الارستقراطية من رجال البلاط ونساءه حيث تعمهما هذه الأخطاء، ثم وفي «الخطئين» تلويحة أخرى أنها كانت مستمرة في مراودتها في ستره ملحة،

حيث كان يتحسسها منها ولا يصارحها بشيء إلا هذه المرة المريرة المفجأة، كما وقالة النسوة: «امراتُ العزیز تُراوِدُ فتاها عن نفسه، بالصيغة المضارعة دون: «راودتها» تدل على ذلك الاستمرار المكّار الجبار، فهو ضمن ما يحكم عليها بالخطاء يحكم لها أنها ليست بدعا في الأخطاء التي هي طبيعة الجو في البلاط، ولذلك نراها تصرح بمراودتها أمام نسوة في المدينة «الآن حصن حصن الحق أنا راودته عن نفسه... دونما تخوف من ذباغ الخبر وضياعها في جو البلاط، فانما كانت تستر وتتصبر تفتشا عن مجال لائق مقبول لمراودتها حتى لا يقال «تراوِدُ فتاها»: الرق - مما يدل على خساستها، منزلة عن خصاستها وعليها!.

و هنا يسدل الستار على مشهد المراودة، ولكنه لم يوّبها أو يعاقبها، أم - ولأقل تقدير - يفصل بينهما، فتمضى الأمور في طريقها، مما يدل على نقصان الغيرة أو زوالها من جو البلاط، وهكذا تمضى الأمور في القصور، في كل تقصير وقصور، ذلك وإلى أن تسربت القصة إلى نسوة في المدينة:

وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠).

هنا لأول مرة نعرف رسميا صراحا ان المرأة هي امرأة العزیز، والذي اشترى يوسف من مصر هو العزیز، فالقرآن يكتفى في ذكر الأشخاص من سماتهم كما يقتضيه الموقف، دون تهدير في ذكرها تطويلا بلا طائل، فهناك الذي اشترى وامراته، وهناك «ألفيا سيدها» و هنا، «امرأة العزیز» ومن ثم قال المَلِكُ... وقد نتبين بعد أنه عله هو العزیز أم سواه.

ولماذا قال نسوة، دون قالت؟ لأنها اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى؟ وتأنيثه على أية حال حقيقى! أو لأن تقديم الفعل يسمح لإسقاط علامة التأنيث كسقوط علامة التثنية والجمع؟ وهذا قياس خلاف القياس الأدبى، أن الموث الحقيقى فعله او صفته موث على أية حال! إلا أن يقال أن أدب القرآن هو المقياس لكل قياس، فتذكير فعل الموث الحقيقى قبله هنا يوذ قياسا مطردا في أضرابه، دون إصغاء الى سائر الأدب!

ام أضف إلى ذلك المحتمل أن قاله نسوة هنا تجسّما على عزيمة البلاط هي قوله الرجولة،

فناسبهن ضمير الرجال، وكما ياتي ضمير العاقل لغير العاقل بمناسبة فعل العاقل: «وَكُلُّ فِى
فَلَكِ يَسْبَحُونَ»: الأرض والقمر والشمس، حيث السباحة العاقلة دون غرق ولا اصطدام هى
فعلة العاقل.

و على أية حال «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ .. وطبعا هن نسوة معروفات بامكانهن تلك الرجولة
فى قاله على العزيرة، وطبيعة الحال فيهن التحسد عليها، فلا تحسد نساء الطبقة السافلة
الجماعة عزيرة البلاط، ولا يخلد بخلدهن تلك المحاسده، فهن - إذا - سيدات فى المدينة
عزيرات راعنات مثلها متهوسات متغنجات متولهاات والهات للشهوات واللهوات، يسمحن
لأنفسهن تعبير صاحبة البلاط.

و كيف تسربت القصة إليهن؟ أنها «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ» دون «راودت»؟ فلأنهن عشيرات
العزيرة ورفيقاتها، فالمخالطة المرادة بينهن تجعلهن يتفرسن تلك المرادة المستمرة ولا
سيما تلك المرة الجاهرة التى تسربت - بطبيعة الحال - إليهن، من فلتات لسانها وصفحات
وجهها إما ذا من لفتات وفتلات.

هن يعين العزيرة كيف «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ» ولما يرين يوسف إلاً روائية، واين روائية من
دراية؟ والبيان من العيان؟ واين هى والفتى المملوك؟ وبطبيعة الحال إذا كان صاحب جمال
ليس بالذى يفوق جمال الفتيان فى جو البلاط، فكيف تعشق العزيرة فتاهها ولحد «قَدْ شَغَفَهَا
حُبًّا؟»

اختلفت أحوالها القلبية كما القالبية! فقد شق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى فؤدها، متفئدا
بنيران العشق، حارقا كلا القلب والقالب! ..

و الحب الشغف هو أبلغ الحب، فهنا العشق الحب المفرط، وهناك السكر والهيمان، وهنالك
الشغف وهو غشاء القلب، فقد يعنى أن حبه تغلغل إليها حتى أصاب شغافها وهو غشاء
قلبها، فأصبحت مسلوبة الشغاف، أم إن شغافها أحاط حبه وأحاطه حبه فلم يبق فى قلبها إلاً
حبه، فلا تهوى إلاً إياه، ولا ترى إلاً رواده، ولا تنظر إلاً مرآه، وكأنها أصبحت كلها إياه،
حيث حجب عنها كل شىء، كأنها لا تملك لنفسها إرادة إلاً مرادته، ولا تحب إلا رواده،
إذ قد حجبها حبه عن الناس فلا تعقل غيره، والحجاب هو الشغاف والشغاف هو حجاب

القلب،^١ حب قاتل لا يعرف صاحبه إلا محبوبه، فإنه اللازق بالقلب، اللازم معه! إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، حيث تبين هي كل ذلك وهو لا يبين بل لا يبين!

فهبها تحب فتاها شذوذا في الحب، فلما ذا تبين هي، وأما هو فلا يكاد يبين، ترغب إليها وهو لا يرغب، لحدّ التسابق وقد قادت قميصه من دبر وشهد شاهد من أهلها، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، حيث ظلت تراوده فضلت كذلك المبين! وضابطة المراودة الجنسية ان الرجل يراود المرأة التي هي بمبلغه، وتلك المراودة فيها تخلفات عدة، ١- أنها تراود، ٢- واستمرار، ٣- فتاها المملوك لسيدها، ٤- وقد شغفها حبا، فهي - إذا- مراودة تربو في مربعها على سائر المراودة، مما تزيدها قحة على قحة، فتصبح فعلتها في قمة الوقاحة.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١).

و بالأمل، سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ، كما سمعن مكرها، وكيف يصبح بيان الواقع مكرها وهي معترفة بأصل المراودة، وليس الاغتياب مكرها إلا التهمة؟

علّه، مكرهن، من جهة تضخيم القحة بغيا منهن لها، حسدا وابتغاء فضحها في المدينة، والتذرع به إلى مواجهة يوسف لكي يحظون به حظوها، وهي ترى مراودته طبيعة الحال في ذلك الجمال، وكما أثبتت لهن حتى اعترفن «ما هذا بشراً..!»

«سَمِعَتْ ... أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ...» كلهن دون إبقاء، مما يدل على أنهن نسوة خصوص كانت تعرفهن وتعارف معهن، «أرسلت .. واعتدت لهن متكأ .. وتري ما هو متكأ، وما هي الصلة بينه وبين «سكينا»؟

المتكأ هو ما يتكأ عليه من كرسى أو نمرق، متعود عليه في بيوت المترفين تلك الزمن، والإعتاد دليل أنه متكأ خاص، دون الحاضر في محاله على أية حال، إذ كن من نساء الطبقة الراقية المسامطة للعزیز، فهن اللواتي يدعين إلى مآدب لكل الأمرب المترفة في القصور،

^١ نور الثقلين ٢: ٤٢٣ ح ٥٧ في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: «قد شغفها حبا يقول: قد حببها...».

ويؤذُن بتلك الوسائل المتميزة، يأكلن ويتفكهن وهن متكئات على الوسائد والحشايا والنمارق كعادة الشرق في تلك الزمن.

و مهما صح عناية الأترج من المتكأ، إضافة إلى ما يتكأ، فهنا لا تصح، فان متكأ، ظاهرها الوحدة، وكيف تكفى لهن أترجة واحدة! ومن قبل، أعتدت، لمحة أن، متكأ، ما كان حاضرا، وحضور الأترج وسائر الفاكهة في بيوت المترفين أمر متعود لا يحتاج إلى إعداد، ف، متكأ، بوحدته يلمح لمجلس واحد كله متكأ، وطبعا للأكل والشرب والمحادثة، فيكفى بوحدته دلالة على حضور أنواع الأمكل والفواكه.

«وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا... واستعمال السكاكين في الأكل في تلك الزمن البعيدة، يصور المدى البعيد، عن الترف والحضارة المادية، ..

فيبينهن منشغلات بتقطيع اللحوم والحلويات والفواكه، تمكر مكرها إذ تفاجئهن بيوسف مباغته دون سابقة إعلام: «وَقَالَتْ أَخْرُجْ عَلَيْنَهُ».

و لماذا، أخرج، بديل، أدخل، علّه لأنه كان منزويا في زاوية أو غرفة تخوفا عن استمرار المراودة، أم وكيد النسوة المدعوات، أم إنها أخفته في مخدع داخل المأدبة المتكأ ف، «قَالَتْ أَخْرُجْ عَلَيْنَهُ»، فخرج بطبيعة الحال، إذ ما كان يملك تأبيا وهو في ملكتها وتحت سلطتها وسيطرتها، أم لو لم يخرج لأخرجناه معها وأتى له التأبى عن خروجه في هذه المعركة الصاخبة، وهلا خافت عليه منهن أن يفتنهن كما هي، فبشاركنه فيما تشتهى؟ لأنها مولاه وقد تملكه، فلا يدعه يهوى الى هواتهن، وهي تعلم أنه لا يصبو إليهن وقد عصم نفسه منها وهي أجملهن، ثم لا تسطع أن تقضى على كيدهن إلا أن يرينه كما رأت فيغيرن من كيدهن اعترافا بحقها فيه وقد فعلت.

فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١).

و لماذا لا يكبرنه وقد أعطى حسنا منقطع النظير وكما يروى عن البشير النذير، أعطى يوسف وأمه شطر الحسن،^١

^١ الدر المنثور ٤: ١٧- أخرج احمد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الحاكم عن انس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: ... وفي المجمع عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصف يوسف حين رآه في السماء الثانية، رأيت رجلا صورته صورة القمر ليلة البدر قلت يا جبرئيل من هذا! قال: هذا أخوك يوسف.

أكبرنه، عما كن يزعمن أنه - فقط - فتاها المملوك، أم وأى فتى جميل، ولكنه منقطع النظر
فى قبيال البشر، لذلك «أكبرنه» وَ قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، لدهشة مفاجئة غير منتظرة، ولقد كان ذلك
الإكبار لحدّ أصبحن فى أنفسهن صاغات مائرات لحدّ فقدن بالمرّة شعورهن وإحساسهن،
فجذبن أعينهن إليه عما يقطعن من أكل وفاكهة، فقطعن أيديهن، فإن كانت العزيزة شغفها
حبا لحد تلك المرادة فى مدة طائلة فهن قد أصبحن أشغف منها فى أوّل وهلة، فقالت لهن
العزيزة «أتنن من ساعة واحدة هكذا صنعتن فكيف أصنع أنا! ومن خلفيات الإكبار الأثنوى
أمام جمال رائع منقطع النظر - الحيض، وكما تعنيه لغة الإكبار أحيانا: أكبرت المرأة إذا
حاضت، فسواء أ حاضت لكبر فى عمرها كبداية اغتلامها، ام لإكبار فيما ترغب إليه من
شهوة فائقة وقد تمنى، حينذاك، فقد تعنى «أكبرنه، فيما تعنيه: حضن وأمنين، مناسبة لأدب
اللفظ والمعنى.

و من خلفيات ذلك الإكبار أن «قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» فى تصاغر قوالبهن كما فى قلوبهن، حيث أثر
إكبارهن قلبا وقالبًا، لحد أخطأن الفاكهة وسائر المأكول إلى أيديهن، حيث قطعنها فاقدات
الشعور والأحاسيس، اللهم إلّا إحساسهن ليوسف لا سواه، دون أن يدركن إلّا إياه.
و هذه سنه سارية فى الإنسان، أن الروح إذا انشغل عن البدن تماما فلا يحس ما يصاب فى
البدن، سواء أ كان انشغالا فى الله فأحرى وأتم، أم انشغالا فى غير الله وكما حصل فى
نسوة فى المدينة.

فلقد كان ذلك الإكبار لحد فقدان الشعور المدبر للبدن، المدرك لمصابه، وليس «قطعن» تعنى
جرحن، والاختلاف بينهما فادح، وهل كن يجرحن الطعام والفاكهة حتى يستبدلن أيديهن
عنهما؟ فإنما تقطيع بديل تقطيع، وصيغة التفعيل هى للتكثير، كثرة فى عدد عدد أيديهن،
وأخرى فى قدد حيث قددن وشققن أجزاء من أيديهن كما تقطع الفاكهة، وهن لم يشعرن

¹ الدر المنثور ٤ : ١٦ و اخرج ابن أبي حاتم من طريق دريد بن مجاشع عن بعض أشياخه قال قالت للقيم ادخله عليهن و اليسه ثيابا
بيضا فان الجميل احسن ما يكون في البياض فادخله عليهن و هن يحرزن ما في أيديهن فلما رأينه حرزن أيديهن و هن لا يشعرن
من النظر اليه فنظرن اليه مقبلا ثم اومأت اليه ان ارجع فنظرن اليه مدبرا و هن يحرزن أيديهن بالسكاكين لا يشعرن بالوجع من
نظرهن اليه فلما خرج نظرن الى أيديهن و جاء الوجع فجعلن يولولن و قالت لهن: أنتن ...

حين قطعن حتى هنيئة رجعن إلى ما كنّ فرأين أيديهن مقطعة.

فَقَطَّعْنَ ... وَ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ...! وهي كلمة تنزيه لله، اندهاشا من خلق الله، فهن مهما كن مشركات في عبادة الله، ولكنهن في نفس الوقت موحدات في خالقية الله: «وَلَكِنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَتَى يَوْمَ فَكُونَ؟».

ففى حسن البشر حد تعرفه نساء الطبقة العليا، المترفة بجمال الرجال، فإذا لم يجدن مثله فيما رأيته، إذ ف «ما هذا بشرًا، أيا كان» إن هذا إلاً ملكًا، ليس كسائر الملك على حسنهم وجمالهم وكمالهم بل هو بينهم «كريم» واسع فى الملكية جمالاً وكمالاً، خلقا وخلقاً، صورة وسيرة، فلو كان بشرا لرأينا مثله، أم انجذب إلى نسوة جميلات مترينات بأعلى الزين، متزيات بأرقى الأزياء، فلا خلقه يشبه بشرا ولا خلقه، إذا ف «ما هذا بشرًا إن هذا إلاً ملكًا كريمًا».

أ ترى أنهن رأين ملكا كريما حتى ظننه ملكا او مثله بملك؟ كلاً! ولكن السيرة منذ القديم جرت على أن صورة الملك أفضل الصور كما وسيرته أحسن السير، فضلا وحسنا فوق التصور، فيمثل به كل حسن لا يقدر بقدر، وهو منقطع النظير فى قبيل البشر! وهكذا قدرن فى يوسف ما هذا بشر إذ لا يرين فيه انجذابا الى أنثى البشر وهن وهى فى حسنهن القمة، وفى دلالهن وغنجهن ما لا تغمض عنه عين بشر! لذلك «إن هذا إلاً ملكًا كريمًا».

و لكن الحق فى «ملكًا كريمًا» ألا يطمع فيه طمع الجنس، وليكرم إكراما فوق الإنس، دون تهمة وقحة وفى رغبة الجنس، فكيف تكون الحالة الملكية عاذرة لامرأة العزيز؟ الحق انه مبالغه منهن فى جمال الصورة وكمال السيرة والسريرة، مما يزيد النساء رغبة فيه وشغفا إليه، لذلك نراها تعتذر به وهن يقبلن العاذرة، وإلاً لانقلب سناد العذر ضده، وقلب الأمر عليها أشده.

و ترى أن تقريرهن فى «إن هذا إلاً ملكًا كريمًا» ولزامه أن الملك أفضل من البشر، هلاً يعارض «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» فلا أحسن منه فى تقويم مهما كان له مثل فى تقويم «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» حيث القليل منهم له مثل؟

و لكن هذا تصريح دون معارض وذلك - على أكثر تقدير - تقرير، فليقدر بقدره غير المعارض للتصريح، وعله ان الحالة الفعلية الدائبة لملك كريم أفضل منها لبشر، مهما كان

الإنسان في استعداده وفاعليته تحصل له فعليه هي من الملك أكثر بكثير، وكما في الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله حيث فاق بجسمه على جبرئيل ليلة معاجه، فضلا عن روحه! فلا تثبت الآية أن الملائكة أفضل من الإنسان، اللهم إلاً في عرف عام قياساً إلى العوام.

فامرأة العزيز تخلق ذلك الجو العجيب الرهيب كيدا بكيدهن، وجواباً مجسداً عن قولهن امرأتُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ...

فلقد كان هذا منهن في كيدها جواباً عن كيدهن حاضراً، فانتصرت في المعركة إذ قالتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، ذلكن الملك الكريم الذي تقطع بمجرد روثه الأيدي، هوذا الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، فلا تلمن إلاً أنفسكن حيث بهرت وانقهرت هكذا في لقاء واحد ولاول مرة، أ فلا أراوده أنا المسكينه وقد عاشرتة طول سنين حتى إذا بلغ أشده:

قالتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَ وَ لَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢).

في ذلك الموقف القاهر والمشهد الظاهر الشاهر تجد مجالاً للاعتراف بالمرادة مفتخرة بها، متجهة فيها بعد تجسد الجواب عن مكرهن: وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ، حيث بهرنى كما بهركن، فاستعصم، معانيا فيه تحرزا عما يعاينه، وهو في الحق استعصام بالعصمة الإلهية وهي برهان ربه، بعد الاستعصام بكل الطاقات البشرية.

و ليست هي الآن لتكنفى بهذه وتلك، إلاً ان تنهيهما بثالث الثالث بتهديد له بالغ، حيث تظهر سيطرتها عليه أمامهن بتبجح المرأة في ذلك الوسط دون احتجال، فلا ترى بأساً من التجاهر بنزواتها الأنثوية مكشوفة، وبكل افتخار في معرض النساء: وَ لَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَ وَ لَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ، فهي في بداية الفضيحة أمام العزيز تردد الأمر في غير تأكيد بين، أن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، طالبة منه أحد الأمرين، وهنا تود بنفسها عليه الأمرين في تأكيدين لَيُسْجَنَ وَ لَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ، كأنها هي الأمرة والعزيز يطبق أمرها كما تريد.

أ فتأى هذا الذي ربيته وأكرمته يستعصى أمرى وهو من المكابرين، فليسجن إذا وليكونن من الصاغرين، لكيلا يكابرني بعد فيما أمره.

و إلى ذلك الحد الحديد الشديد تصل القحة في البلاط وقصور المترفين، ولا سيما في

الوقت الذى تجد صاحبة البلاط صاحباتها فى سعار أكثر منها فما يصنع - إذا- يوسف الصديق:

قَالَ رَبُّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤).

تحاشى يوسف هنا أن يجاوبها والنسوة، وانصرف إلى ربه ملتتمسا داعيا أن يصرف عنه كيدهن، ففى دوران أمره بين أن يصبوا إليه أو أن يسجن ويكون من الصاغرين، هو يستحب السجن دون صبو ولا صغار:

«رب، الذى ربيتنى وخلصتنى حتى الآن من كل سوء وفحشاء، السجن أحبُّ إليَّ ممَّا يدْعُونَنِي إِلَيْهِ، فذلك سجن للبدن حفاظا على حرية الروح فى عبوديته، وهذا سجن للروح ورقية للهوى وفيه حظوة الجنس وحرية الشهوات بضروبها، ولكنى رجل الروح قبل الجسم، فما الجسم إلَّا ليحمل الروح فى صالحه.

أ تراه دعى على نفسه بالسجن وهو عار أن سببه التهمة، ولا سبيل إليه إلَّا هيه؟ كلا! وإنما هو بيان حال أن لو انحصر أمرى بين واقع العار وتهمته فالسجن التهمة أحب إلى فرارا عن واقع العار!.

إذا فلما ذا لم يطلب إلى ربه صرف كيدهن عنه بلا أن يسجن، صرفا للمحظورين وإِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ؟

ذلك، وعله استسلام للرب وابتعاد عن المحظور حتى إن قدر أن يسجن، ومحور الدعوة إلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ... ولو بالسجن، ولم يستجب ربه إلَّا فى ذلك الصرف: فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ... لا أن قدر سجنه وصرف الكيد عنه!

و كيف يحتاج يوسف- بعد ما رأى برهان ربه فلم يهم بالعزيزة- أن يصرف ربه عنه كيدهن، وفى برهان الرب وهو العصمة كفاية هنا كما هناك؟

ذلك لأن العصمة والقوة القدسية المفاضة على يوسف، ليست بالتى هو يملكها، دونما حاجة بعد إلى عناية إلهية متواصلة: «وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَنَّاكَ لَفَدَّتْ كِدَّتْ تَرَكَّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا» (١٧: ٧٤)! ثم البلية هنا قد زادت بمكایدات نسوة فى المدينة، وتهديدات صاحبة البلاط، فقد دعونه

إلى ما دعتة إليه «مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ» مما زاد في الطنبور نعمة أخرى، وتفاقم الأمر مرة أخرى أكثر بكثير من الأولى.

فإن كانت روتة برهان ربه هناك تصده أن يهيم بها، وهي فعله مهما كان البرهان من ربه، ولكنه هنا- وقد علت النبرة وازدحمت النسوة في المكيدة- هو بحاجة إلى برهان أقوى، و صرف من الله «وَأَلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ» مكيدة لا يقوى عليها إلا الله حيث تكل كل القوى، وتختل الموازين كلها، اللهم إلا صرفا من الله.

«أَلَّا تَصْرِفَ عَنِّي... لا تصرفني عنهن» إذ لم يكن ليهواهن، وإنما هن اللاتي يكدنه لحد يكاد يصبو إليهن.

و الصبو هو تميل صبياني عن جهل وتفلت عقل، وصبا يصبو صبوة إذا نزع واشتاق وفعل فعل الصبيان، فإن المكائد الأنثوية تصل لحد يطير بها العقل وينوبه الجهل «أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ» وهو القائل: «وَمَا أَبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» فهو يستدعي من ربه في ذلك الموقف الهرج المرج أن يخصه برحمة خاصة تصرف عنه كيدهن «فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ» دعاءه «فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ» ثم لم يمنع ويردع عن سجنه «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» للدعاء «العليم» ما يصلح الداعي، وقد كان يكفيه هنا أن يصرف عنه كيدهن وإن بلبية السجن، وهي في نفس الوقت من أطفاه الخفية، حيث كان ذريعة لاستئصال التهم عنه على طول الخط، واستقطابه لأن يجعل على خزائن الأرض، والسجن- فقط- طريق لهما قاطعة! «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» ولكن صرفه شيء، وسجنه المفصول عنه ب «ثم شيء آخر، ويستمر صرفه في طياته.

و كيف ينقم بسجنه الذي ارتضاه ابتعادا عن صبوه إليهن ولأمير المؤمنين علي عليه السلام به أسوة إذ قال: رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ...!

¹ نور الثقلين ٢: ٤٢٣ ج ٥٨ في كتاب علل الشرايع بإسناده إلى ابن مسعود قال: احتجوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما بال أمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة و الزبير و عائشة و معاوية؟ فبلغ ذلك عليا عليه السلام فامر ان ينادى الصلاة الجامعة فلما اجتمعوا سعد المنبر فحمد الله و اتنى عليه قال: معاشر الناس! انه بلغني عنكم كذا و كذا؟ قالوا: صدق امير المؤمنين عليه السلام قد قلنا ذلك، قال: ان لي بسنة الانبياء أسوة فيما فعلت قال الله تعالى في محكم كتابه: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» قالوا: و من هم يا امير المؤمنين؟ قال: أولهم ابراهيم عليه السلام- الى ان قال- ولي بيوسف أسوة إذ قال: رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه، فان قلتم ان يوسف دعى ربه و سأله السجن بسخط ربه فقد كفرتم، و ان قلتم انه أراد بذلك لنلا بسخط ربه عليه و اختار السجن فالوصي اعذر.

و كيف لا يرتضى السجن إن كان ولا بد- لصرف كيدهن عنه، وقد تعلقن به جميعاً ترأسهن العزيزة كما تصرح «مما يدعونني إليه- وكيدهن» دون «ما تدعونني إليه وكيدها» فهن جميعاً مشتركات في الدعوة والمكيدة سواء بالقليلات واللفتات، او الحركات والتغنجات أو الاستباقيات أماذا من دعوات مكيدات¹.

ففى هذه الغائرة الحائرة المائرة لا مناص له ولا خلاص إلا ان يستنجد ربه بمزيد من رحمة العصمة ان يصرف عنه كيدهن كيلا يقع فى حبالهن خيفة ان يضعف أمام الإغراء، و يتضاعف عما كان من امرأة العزيز فى «همَّ بها لو لا ...»

و ها هى دعوة الإنسان العارف بحده، القاصر فى مده وشده، الذى لا يغتر بعصمته، فيريد مزيداً من عناية ربه وحياطته بحيازته «فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن...» لا أن يسجن بالفعل، حيث التراخى بين ذلك المشهد العارم وبين سجنه قائم كما تلمحه «ثم بدا لهم...»

و هكذا يجتاز الصديق محنته العارمة فى هذه الحلقة الثالثة، بعد غياب الجب وبعد العزيزة، ثم تبدء الحلقة الرابعة وهى سجنه حتى حين:

ج سورة يوسف (١٢): الآيات ٣٥ الى ٢٤ ج

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجْنَتَهُ حَتَّىٰ جِئَ (٣٥) وَ دَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

¹ فى تفسير القمي فى حديث جمعها النسوة و تقطيعهن أيديهن قال: فما امسى يوسف عليه السلام فى ذلك اليوم حتى بعث كل امرأة رآته تدعوه إلى نفسها فضجر يوسف فى ذلك اليوم فقال: «رَبِّ السَّجْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ...»

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمْمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَ أَمَا الْآخَرُ فَيُصْنَلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ (٤٢)

هنا يوسف السجين يجد مجالاً لائقاً وجواً فائقاً للدعوة الى التوحيد حين يرى صاحبي السجن بحاجة إلى تأويله، وهما يريانه من المحسنين، فهل سجن إلاً قضية الإيمان، فليدع إلى الايمان أيا كان، وليس السجن لأهل الله سجننا لحرية الدعوة، فإنما هو استلاب لحرية الجسم حللاً وترحالا، وأما الروح فقد يصبح بالسجن أروح، وتبرز شفافيته ولباقته أريح وأنجح!

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥).

ف، ثم، هنا تلمح إلى فصل غير قريب بين ذلك المشهد وسجنه، والبداء ظهور رأى خلاف ما كان، والآيات هي الدالات على براءة يوسف، من براءته الذاتية المشهودة في عشرته، وأن العزيزة راودته وقدت قميصه من دبر، وكما شهد شاهد من أهلها واعترف العزيز بكيدها، وصرحت العزيزة بميدها في مشهد النسوة، أما هيه^١.

و هذه كلها آيات قاطعة لبراءته وقحتها، مما يجعله يكرم أكثر مما كان، فضلا عن السجن حيث فيه يهان.

و لكنما الحق الواقع شيء، والمصلحية في الأوساط الراقية والمترفة شيء آخر، يفدون بكل حق ناصع حفاظا على مصلحية.

فلقد شاعت قصة المراودة في أوساط المدينة ولاكتها الألسن وتلققتها في الأوساط الشعبية، واستطارت - بطبيعة الحال - أكثر مما كانت، كما هي السنة في كل حادثة تدخل قائلها بين الجماهير، فأصبحت حديث اليوم، وتزداد شياعا فضياعا للبلد يوما بعد يوم، مما تجعل قحة العزيزة وفضيحتها سنة تفتدى في كل الأوساط، فإن ذلك الحسن الذي أوله سيده البلاط

^١ نور الثقلين ٣: ٤٢٤ ج ٦٠ القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: و الآيات شهادة الصبي و القميص الممزق من دبر و استباقهما الباب حتى سمع مجادبتها إياه على الباب فلما عصاها لم تنزل مولعة بزوجها حتى حبسه.

وأقرانها من السيدات، من طبعه ألا يلبث دون أن يقيم في المدينة بلوى وفوضى.

لذلك **بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ**، بدا للعزیز حفاظا على سمعة البلاط وحرمة وحریمه، وبدا للعزیزة وقد كانت تهدده من قبل **لَيْسَجُنَّ ..** فبعد ان تصبرت ردحا من الزمن واستمرت فيما حاولت فشلت وفشلت فأصرت على العزیز أن يسجنه بعد ما احتالت في تلبیس الأمر علیه كما يلوح من **ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النُّسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**، وما رده الملك عليهن: **«مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ، وَقَوْلُهُنَّ «حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، وَأَخِيرًا تَصْرِيحُهُ ثَانِيَةً مِنَ الْعَزِيزَةِ: «الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ».**

فلو لا تلبيسها أمره على العزیز لمن يكن لقولها الآن: **«الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ...»** مجال، وقد حصحص من قبل في مشهد النسوة إذ قطعن أيديهن، مما يدل على أنها كادت واحتالت في تعمية الأمر على العزیز لحد صمم على سجنه، أم إن المصلحية والتعمية هما الباعثان على ان **لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ**، وتراهم من هم غير العزیز والعزیزة؟ عليهم هما ونسوة في المدينة وسائر أصحاب البلاط، مهما يرأسهم العزیز وترأسه العزیزة، بدا لهم كلهم من بعد ما رأوا الآيات.

وعل **«حين»** هو حين التناسي عن جريمتها، وحين النسيان عنه، وحين استتباب أمر البلاط رجوعا إلى ما كان قبل المراودة، أم وحين ظهور الأمر بعد إخفاءه.

و كأن فاعل **بَدَا لَهُمْ** محذوف حيث **ليسجننه**، فعل لا يصلح فاعلا ولا مفعولا، فالفاعل **أمر** ورأى غير ما كان، بموجه **لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ**، سجن مود في بعدين، محدد لا يعلم إلا أنه غير مود، فحتى تحفظ سمعة البيوتات المستهتره، وتسمع كلمة عزیزة البلاط، حين يعجز رجالها عن صيانتها، يبدو لهم أن يسجن فتى برىء، كل جريمته برائته ونزاهته، وأنه لم يستجب نزوة الشهوة للعزیزة، أن لو كان يستجيب لكان أعز من العزیزة! وهذه شيمه شنيعة في الأوساط الارستقراطية والجاهلية، تعاميا عن فضائل الكرامات وفواضل الصفات، استئصالا لها وتأصيلا للشهوات والمصلحيات، فإلى حلقة رابعة من حلقات البليات لصاحب الشيم الكريمة والقيم العالية:

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنُ فَتَيَّانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أُرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أُرَانِي أُحْمِلُ

فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)!

فتيان، هما عبيدان من خدم البلاط كما تلمح له، فَيَسْتَقِي رَبَّهُ خَمْرًا، فأحدهما ساقيه، والآخر خبازه، ويا لها من معية بارعة تخلق ظرفا صالحا لتخلص يوسف من السجن، وقد يخصص السياق أمره معهما دون أن يحصره ولأن أمرهما هو الأساس في تبرزه في تأويل رؤاهما، وهما اللذان رأياه من المحسنين تفرسا فارسا مارسا من عشرته قلت أم كثرت، فأهل الفراسة يتفرسون الإحسان وسواه في صفحات الوجه وفتلات اللسان ووجنات الأركان.

و علّ قال، دون عطف تلمح إلى وصل القول بالدخول دون فصل، أم فصلا ليليل او قدر من النوم يصلح لرؤاهما، ولأن فصله كان قريبا وفي نفس الوقت غريبا لـ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، إحسانا جعله موضع ثقة المساجين، متوسمين فيه من طيبة، وصلاحا وإصلاحا. و لماذا، أراني، هنا دون رأيت، كما في رؤا يوسف؟ كأن فاعله المنام، فهو الذي أراني دون اليقظة، أراني ما كنت فاعله للملك وشاغله وأنا الآن في سجنه، أراني أَعْصِرُ خَمْرًا، إراءة لهذه الحالة.

و، أَعْصِرُ خَمْرًا، والخمر لا تعصر وإنما يعصر لها العنب، هذا تعبير رائع هائج عن عصر عصير كثير وكما: خبزت خبزا وطبخت آجرا، اعتبارا بالآمل، عطفاه على الحال، وكأن الآمل حال قضية تأكد الاشتغال.

الفتيان يذكران رؤاهما، راغبين وتأويلهما حقا، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، والمحسن يرى بشفافية روحه ما لا يراه المسيء، ويحسن إلى سجين مثله ما لا يرجى من المسيئين. و هل يتندر يوسف بالتأويل، عجاله في إحسانه دنيويا قبل إحسانه إليهما روحيا وأخرويا؟

^١ في تكوين التورات الإصحاح ٣٩ يقول: «فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حمى فأخذ يوسف سيده و وضعه في بيت السجن المكان الذي كان اسرى الملك محبوسين فيه و كان هناك في بيت السجن، و لكن الرب كان مع يوسف و بسط اليه لطفًا و جعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن فدفع رئيس السجن الى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن و كل ما كانوا يعلمون هناك كان هو العامل و لم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما في يده لأن الرب كان معه و مهما صنع كان الرب ينجحه، ثم في الإصحاح ٤١، تسوق قصة صاحبي السجن و رؤاهما و رؤا فرعون مصر و ملخصه: انهما كانا رئيس سقاة فرعون و رئيس الخبازين اذنباه فحبسهما فرعون في سجن رئيس الشرطة عند يوسف فرأى رئيس السقاة في منامه انه يعصر خمرا و الآخر أن الطير تأكل من طعام حمله على رأسه فاستفتيا يوسف فعبّر رؤا الأول برجوعه الى سقي فرعون شغله السابق و الثاني بصلبه و أكل الطير من لحمه و سأل الساقى ان يذكره عند فرعون لعله يخرج من السجن لكن الشيطان أنساه ذلك ...

كلًا، فعلى رجالات الحق انتهاز الفرص للدعوة إلى الحق، وكونه سجينًا لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة، وإصلاح الأوضاع الكاسدة، التي تقوم على حق الربوبية لآلهة الأرض، وإبطالها لإله السماوات والأرض! فهل يبدأ يوسف بدعوته تعامياً عما يتطلبان؟ وفيه إبعاد عن الحق لأنه خلاف غايتها القصوى! والسياسة الصالحة هنا في الدعوة تتطلب تقديم رجاء واطمئنان لهما أنه سوف يقضى طلبتهما، وهنا جو صالح بين الأمرين لكي يبين سبب كونه من المحسنين ليجذبهم إحسانه كما هو.

و لكي يطمئنهما أكثر مما يريان، يبين موقفه من تأويل، أنه ليس فقط للروّ، بل وله علم تأويل الطعام:

قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِيَّايَ تَرَكْتُ مَلَكَةً قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧).

و هكذا يدخل يوسف في نفوس صاحبي السجن بكل سياسة وكياسة في تنقل الحديث، حيث يود لنفسه عليهما من العلم اللدني أكثر مما يريان حيث قال لا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ، أيا كان وأيان ومن أي كان، من السجن أو خارجه، إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، وذلك من إنباءات النبوات كما في المسيح عليه السلام «وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (٣: ٤٩).

فحتى لا يظن أنه خبير بتأويل الروّ - فقط - في ظنون كسواه من المعبرين، أم أنه - فقط - معبر الروّ كذى فنّ مثل سائر الفنون مهما كان بعيدا عن الظنون، ولأنه يزعم المصاحب الثاني تأويلا لروّاه بصلبه، لهذه كلها وحكم أمثالها أخذ يبين موقفه من العلم الرسالي، ومن هوامشه تأويل الروّ، لكي يقع تأويله موقعه من القبول، وعلّ الذي يصلب يوّن بذلك قبل صلبه فلا يموت مشركا، وحين يوّن فلا يهيمه الصلب أم يبقى حيا، وكذا الذي ينجو يحظوا بالإيمان فلا يعد ساقى ربه، ويذكره عنده علّه ينجو من تهمة.

و على الجملة فداعية الحق عليه في كل مجال أن يتذرع لدعوته ذريعة، وهى الآن تأويل روّ صاحبي السجن، فلما يوّنها لهما وهما فيه بحاجة إليه مدقعة، ولتكن الفترة بين قائلهم وتأويله مجاله مناسبة لدعوته بأدائه ببيان كيانه في العلم، ومن هوامشه تأويل الطعام فضلا

عن الروي، هنا يأخذ كلامه مجامع الأسماع والقلوب، وهنا يفعل ما يشاء من الهدى مقلب القلوب.

فليس السجن لأصحاب الدعوات الرسالية ومن يحملونها من سواهم، إنه ليس سجنا لدعواتهم، بل تعلق فيه نبراتها، وتشع أكثر وأكثر من خارج السجن أثارها، حيث السجن للأبرياء، وحتى سواهم، هو جو الانقطاع إلى الله عن كل ما سوى الله.

فعبثا يفكر الطغاة ويحاولون ان سجن الأبدان للدعات هو سجن للدعوات! وهنالک ليوسف مربع من الإنبئات الغيبية، ١ تأويل كل طعام قبل أن يأتيهما في مثلث الزمان ٢: ابن مصدره وأنى، ٣ وكيف هو لما يأتي وماذا اثره؟، ٤ وما يؤل إليه بالآمل، حيث التأويل هو المرجع بداية او نهاية ام في الحال، فأنا أنبئكم ما سيأتيكم من طعام قبل إتيانه، و ماذا أثره، هل يضر او ينفع، هل هو سم^١ قاتل يقطع ام غذاء ينفع، فأنا- إذا- بتأويل الروي أقدر، وقد تعنى بتأويله،- ضمن ما تعنى- تأويل رويهما، وإنما أفرد الضمير في تذكير اعتبارا بمرجعه الأصيل، طعام، وأما أن تعنى الروي فقط فخلاف أدب اللفظ والمعنى^٢.

و ذلكما العلم الواسع ليس يحصل - بطبيعة الحال - من دراسات رسمية، بل ذلكما البعيد المدى، الشاسع المحتد، ممّا علّميني ربّي، بجنب علوم أخرى تتبناها الرسالة الإلهية، فهذه كآيات تدل على اختصاص صاحبها بالله، وتلك الرسالية الأخرى هي مادة الرسالة ومبناها ومدعاها وحجرها الأساس، نبراسا ينير الدرب على السالكين.

ولماذا هكذا علمني ربي دونكم وسائر الناس ل «إني تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، نفيا يمثل لا إله، ومن ثم إثبات يمثل إلا الله، واتبعت ملّة آبائي ...»
فرغم أنني ربّيت منذ الطفولة حتى بلوغ أشدّي في جو الشرك والإلحاد، ونوازع الشهوات و الحيوانات، «إني تركت ...» وبكل إصرار وإجهار، وكفاني موقفي من امرأة العزيز ونسوة في

^١ الدر المنثور ٤: ١٩- اخرج ابو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله: «لا يأتينكما طعام...» قال: كره العبارة لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريهما ان عنده علما و كان الملك إذا أراد قتل انسان صنع له طعاما معلوما فأرسل به اليه ...

^٢ أما ادب اللفظ فلان الروي مؤث و الضمير مذكر، و هي هنا اثنتان و الضمير مفرد، و اما المعنى فلان تأويل الروي لا صلة له بإتيان طعام يرزقانه.

... تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَبِطَبِيعَةِ الْحَالِ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، لَا سِوَاهُمْ،
حَيْثُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَدْفَعُ لِلإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ، «إِنِّي تَرَكْتُ...: فَلَا إِلَهَ: ثُمَّ «إِلَّا اللَّهُ»:

وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ
فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨).

فتلكما ملّة التوحيد، وهوّاء من دعائه الأصول، فأنا اتبعت ملّة هوّاء الآباء الأكارم نسخة
طبق الأصل وما كان لنا أن نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ... ف «ما كان» تضرب إلى أعماق الماضي،
تثبيتاً لكيان التوحيد العريق العميق في ذواتنا، دون «أن نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ»، غير الله، لا
إشراكاً في الربوبية ولا في العبودية أمّا هيه من مختلف دركات الإشراك، من رياء وسمعة
إلى عبادة الأوثان وبينهما عوان.

و ذلك، العظيم العظيم «مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا، أَنْ جَعَلْنَا مِنْ دَعَاةِ التَّوْحِيدِ وَنِفَاءِ الشَّرِكِ» وَعَلَى
النَّاسِ، حَيْثُ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَمْثَالُنَا مِنَ الْمُخْلِصِينَ الصَّامِدِينَ فِي التَّوْحِيدِ، وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ، تِلْكَ النِّعْمَةُ الْعَالِيَةُ الْغَالِيَةُ ف «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا!» ملّة ابراهيم وهي
سنّة التوحيد الخاص، بعيدة عن إفراط أو تفريط، نائية عن تسرب الشرك بدركاته، هذه الملّة
هي المتبعة للأنبياء الإبراهيميين ولكافة المسلمين على طول الخط الرسالي، وحتى خاتم
النبیین، وهو في أعلى قمم التوحيد: «قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. دِينًا قِيمًا مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (٦: ١٦١) (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا،
(٣: ٩٥) (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، ٤:
١٢٥)! وهنا يوسف في السجن بين السجناء المشركين يقرر خطه المستقيم وصراطه القويم:
«وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ
فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ» (٣٨). ثم بعد التعريف بملته
يأخذ في دعوة التوحيد، ٩٦ حيث الداعي الى الحق عليه أولاً ان يحققه في نفسه ويبينه:

يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩).

أيا صاحبي سجن البدن، لماذا أنتم في سجن الروح وهو أسجن وألعن، ألا فتحرروا من ذلك

السجن اللعين، .. أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، سَوَّلَ يَهْجُمُ عَلَى أَعْمَاقِ
الْفِطْرِ وَالْفِكْرِ وَالْعَقُولِ، فَيَهْزِئُهَا هَزْءَ مَوْقِظَةٍ، فَالْفِطْرَةُ لَا تَعْرِفُ إِلَّا إِلَهًا وَاحِدًا هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ، وَالْعَقْلُ النَّاصِحُ الَّذِي يَتَّبِعِي الْفِطْرَةَ وَسَائِرَ الْآيَاتِ آفَاقِيَّةً وَأَنْفُسِيَّةً، كَذَلِكَ لَا تَعْرِفُ إِلَّا
اللَّهَ الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ، وَالْكَوْنُ بِوَحْدَةِ تَدْبِيرِهِ وَنِظَامِهِ دُونَ تَفَاوُتِ يَشْهَدُ أَنَّهُ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

ثم وفي مواصفة الأرباب، ب «متفرقون، ومواصفة الله، وجاهاها ب «الواحد القهار» دليل إجمالى
فيه تفاصيل الأدلة على بطلان الشرك وضرورة التوحيد.

فالأرباب المتفرقون الذين لا يملك كل نفسه فضلا عن عباده، ولا يقهر شركائه فيتوحد، و
هى متقسمة الأقدار، مختلفه المقادير، متشاكسة فيها، هذه المتفرقة المفرقة لا تجدى نفعاً إلا
تبعثا فى الحياة، وتعثرا فى متطلبات الحياة، فلا خير فيها- إذا- إلا شر.

و ترى كيف تتأتى هنا صيغة الخير وهى أفعال تفضيل يقابلها ما فيه قليل الخير، والأرباب
المتفرقون لا خير فيهم لا كثيرا ولا قليلا؟

الخير فيما لا يعدى بمن لا يعنى الأفعال، بل مقابل الشر، فإما الأرباب المتفرقون خير والله
الواحد القهار شرًا! أم الله خير وهم أشرار وقد يوى بالخير الأفعال مقابل الشر مسaire فى
الحجاج، دفعا عن اللجاج، وأخذاً بأقل تقدير بين الأمرين أن أحدهما المدعى أفضل فليترك
أمامه المفضل مهما كان فيه فضل.

أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ، فى ربوبياتهم، كرب العلم ورب القدرة ورب الحياة، ورب السماء ورب
الأرض، ورب الشمس والقمر، ورب البحار، ورب الحسن ورب الحب ورب الأمن و
الخصب، وهم- على زعمهم- ملائكة الله حيث هم حملة تعينات ذات الله وصفاته- ثم
الأرباب الجن وهم- على زعمهم- مبادئ الشر، ومن ثم أولياء الله، وهذه الثلاث كأصول
الأرباب، وكل متفرقون فى عديدهم وربوبياتهم ومربوبيهم، تفرقات فوق تفرقات، ظلمات
بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكدرها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور؟.

أ هُوَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ- الْوَاحِدُ- الْقَهَّارُ، ف «الله، واحد فى ألوهيته الأصيله لدى الكل وفى
خالقيته، وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

فمن ثم هو واحد فى ربوبيته ومعبوديته، كوحده الحقيقه فى سائر الجهات والحشيات

الذاتية والصفاتية والأفعالية.

واحد فى مثلث الزمان وقبله وبعده، لم يكن عديدا ثم توحد، كما ليس هو الآن فى عدد، و ليس يتعدد، وواحد فى ذاته حيث البساطة المطلقة، دون بعد ولا أبعاد، ولا حد ولا حدود، وواحد فى صفات ذاته أنها عين بعض، وكلها عين الذات دون تعدد إلا فى تحبير اللغات. و على الجملة هو واحد فى عمق الأزل والأبد والسرمد، واحد لا بعدد ولا عن عدد ولا بتأويل عدد، ويستحيل عليه العدد ذاتا وصفاتا وكيانا فلن يتعدد، وذلك قضية كونه «الوَاحِدُ الْقَهَّارُ». ٩٨

«قهار، يقهر التعدد أيا كان وأيان، ويقهر شركاءه المخلوقون، ويقهر كل نقص وركس، قهارا فى كافة الحقول دون ان يقهر بإشراك او تنقيص أو أفول، فهو واحد فى قهاريته، قهار فى واحديته «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ».

«أَرْبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ، لا يقهرون شركاءهم ولا عبادهم، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، (٦: ١٨)! (وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً، (٦: ٦١). و ليسوا ليخلقوا شيئا حتى يقهروه، قُلِ اللّٰهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، (١٣: ١٦) ثم يوم القيامة قهار كما هو اليوم قهار، وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، (١٤: ٤٨) (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، (٤٠: ١٦).

فسبحانه «سُبْحَانَهُ هُوَ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، (٣١: ٤٠) ليس فى سائر الآلهة الأرباب إلا دمار و بوار «جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَ بِئْسَ الْقَرَارُ! ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّٰهِ أَلَمْ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكِ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠).

الأرباب المتفرقون التى تعبدون، ما يملكون من الربوبية أمرا «إلا أسماء، ليست لها مسميات، تسميات جوفاء خواء «سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ، ما لم يأذن به الله، ولم يسمها الله إذ «ما أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، لا سلطان الدليل والبرهان، فلا برهان من الله على ربوبيتها، ولا سلطان العلم والقدرة، فكيف تشركون بالله ما لم ينزل به سلطانا، ثم عساكر البراهين آفاقية وأنفسية هى كلها سلطانه على أنه «هُوَ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

ف إن الحكم لربوبية سواه لو أمكنت، وسائر الحكم إلاً لله، ومن حكمه المستمر طول الرسالات خلاف ما تزعمون وتشركون «أمرأً أآ تَعْبُدُوا إلاً إِيَاهُ، أمر الحكم إمرة دون ما يقابل النهى، فقد حكم ذلك الحاكم الوحيد فى الكون «أآ تَعْبُدُوا إلاً إِيَاهُ، فى كلمة مطردة، لا إله إلاً الله».

و ذلك، الأمر الحكم هو «الدينُ أَلِيمٌ، دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ أَلِيمٌ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ، ودين ناموس الكون بوحدة النظام والتنسيق الدالة على وحدة المنظم «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ، جهلا فى تقصير طال أم قصر حيث الإشراك بالله لا يقبل القصور، إلاً تقصيرا فى تجاهل أو جهالة بمختلف الدركات! فدين التوحيد هو الدين القيم، القوى القائم لإدارة شؤون الأفراد والمجتمعات، دون تززع ولا فشل ولا عوج.

فإذ ليس وراء الأسماء التى سميتها أنتم وآباءكم المشركون، إلاً ادعاء هباء وخواء، فما تعبدون من دونه إلاً أسماء وعبادة الاسم خواء وهباء، وحتى إذا كان اسم الله فضلا عن الشركاء، فهى إذا عبادة خاوية فى بعدين هباء على هباء.

و عبادة المعبود إن كانت لألوهيته فى ذاته؟ فإنه هو الله لا سواه! وان كانت لربوبية معطاة من قبل الله؟ فما أنزل الله بها من سلطان، وحتى لو كان فكيف يسوى فى العبادة بينها وبين الله، بل تترك- بالمرء- عبادة الله، ويوحّد الأرباب المتفرقون فى عبادتهم، دون الله!: توحيد الشرك! أن يعبد الشركاء دون الله.

ثم العبادة إن كانت طاعة فى مصالحيات الحياة، فالأصلح فيها عبادة الله الذى خلق الشركاء! بل هى الصالحة دون سواها، فإنهم أرباب متفرقون، قاصرون فى توجيهاتهم- لو كانت- وقاصرون فى ربوبياتهم

المتخيلة، إذ تفرقت، والحياة الوحيدة المطمئنة ليست إلاً على ضوء عبادة «الله الواحد أَلَهَّارُ، ويده ملكوت كل شىء وناصيته! ف ذلك الدين أَلِيمٌ، فى الحياة وبمختلف الحقول، ولدى كل الفطر والعقول «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ، فانما «يَعْلَمُونَ ظاهراً من الحياة الدنيا وَ هُمْ عَنِ الأخرى هُمْ غافلون»، (٧: ٣٠).

ف «الدِّينُ الْقِيَمُ» هو الدينونة الحقيقية لله وحده، الخضوع له وحده، واتباع أمره وحده، سواء في شعيرة تعبدية أو سياسية، أخلاقية أو ثقافية أو اقتصادية أما هيه من قضايا الدينونة المطلقة، التي تحلّق على كافة الحقوق الحيوية منذ الولادة حتى الممات.

و لقد رسم يوسف الصديق في هذه المجالّة القليلة، بهذه الكلمات القلّة الناصحة الناصعة الجميلة، رسم بها فيها كل معالم الدين القيم، وكل مقوماته «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

فقد نرى يوسف السجين بأيدى المشركين يخطط في السجن ويرسم هندسة القضاء على حكم الفراغنة والطواغيت، متذرعا إليه بتعبير الروى، وإلى استلام عرش الحكم «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيَمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»:

فأخيرا يجهل الطغمة الحاكمة والمحكوم عليهم، تجهيلا للمرسوم الملكى الجبار الفرعونى، أنه اغتصاب لحكم «اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» الذى هو المدار وعليه الطمأنينة والقرار.

و هنا بعد ما تتم الدعوة في كل إجمال وجمال يبدأ الصديق بتأويل روى صاحبه السجن بكل رياحة حال واطمئنان بال حيث قال:

يا صاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدَكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَ أَمَا الْآخَرُ فَيُصْنَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١).

التأويلان ظهران فى تناسبهما مع روىهما، ولكن ترى ما هو موقف قضى الأمر الذى فيه تستفتيان؟

هل إنه يلمح بتكذيب منهما لروىهما؟ فكيف اصغيا لدعوته الرسالية قبل تأويلهما! وما هو الدافع لاختلاق روى عند من يريانه من المحسنين! ولم يكن يدعى من ذى قبل أننى عالم بتأويل الروى حتى يجرباه امتحانا او امتهاننا! وقوله للذى ظن انه ناج منهما اذكرنى عند ربك، ثم سكوته عما يكذبه فى تأويله لكذبه فى روىه، دليل لا مرد له على صدقه فى روىه! وكيف يلهم نبى الله تأويل الروى ولا يلهم كذبها وفيه فضح الرسول ونقض الرسالة! أو أنه - لأقل تقدير - لمحة بتكذيب الآخر روىه إذ هو له ما اوله من صلبه؟ فكذلك الأمر! ثم ولم يكن التهويل إلا لآخر فلما ذا يجمع معه الأول فى تستفتيان؟! ومن ثم كيف يتحقق تأويل روى كاذبة، فما رواية كذبه أو كذبها إلا كاذبة، لا تلائم الآية و ساحة النبوة ولا

عدل الربوبية، أن الكذب في رُوِّ جزاءه الصلب! قد يعنى «قُضِيَ الأَمْرُ...» القضاء على الحيرة الحاصلة للاول بتبشيريه ولآخر بإنذاره، وعلّ الآخر أخذته الريبة فى تأويله تخوفاً، والآخر أخذته تبجحا وتنشفاً، لذلك يُوَد صدق فتواه فى تأويله بقضاء الأمر ومضيه، والأمر المستفتى فيه هو الروُّ، وقضاهه تحقق تأويله، وهذا أولى بأدب اللفظ وحق المعنى، دون تحميل على الآية ولا تأويل دون دليل! وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢). ١٠٢

و قال، يوسف بعد قضاءه أمر صاحبي السجن وإفتاءه ما أفتى للَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا، أ تراه هو الذى ظن فيما أفتاه وقضاه؟ والقضاء علم! ولا سيما أنه من تعليم الله: «ولنعلمنه من تأويل الأحاديث! فهل إن الله يظن كما الخلق؟ أم إن النبي يظن فيما يقضى به بالوحي؟.

أم الذى أفتى بنجاته هو الذى ظن؟ وقد يُوَدّه «قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ، حيث يلمح أنهما لم يصدقاها تماما، وهو طبيعة الحال فيمن لم يُوْن بالوحي والرسالة، فإنما آمن بما قضى له ظنا إذ كان لصالحه، وهو قضاء رجل محسن صالح «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

و قد يعنى فيما عناه ظن يوسف أيضا، حيث العلم الظاهر هو فى الحق ظن، إذ «يَمْخُوا اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ، اللهم إلّا فى أحكام الشرعة فلا محو فيها إلّا نسخا، فرغم أن يوسف كان يعلم بما علمه الله أنه ناج، ولكنه مما يتحمل المحو والإثبات فعلمه يمحو او علمه يثبت، فلذلك يصح التعبير أنه ظن، ولكن أين ظن من ظن؟ ظن الناجى قصورا لعدم الإيمان، وظن يوسف عالما لقمّة الإيمان، أن لله أن يمحو ما علمه وقضاه.

قال ... اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ، لما نجوت، أذكر أننى فى سجنه حيث أنسونى بتهمة المراودة «حَتَّى حِينٍ، واذكر حالى «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وعلمى بتأويل الرويا، علمه يحتاجنى فلا يحتاجنى وييقينى على تهمتى فى السجن «حَتَّى حِينٍ، وحين يعلم ربك أننى من المحسنين والعالمين بتأويل الروى، وأننى كما بينت من النبيين، علمه يغير رأيه: أننى من الخائنين والجاهلين ومن الناس العاديين.

فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ .. وترى من هذا الذى أنساه الشيطان ذكر ربه؟ هل هو يوسف الصديق؟ وهنا شهادات سبع - كما هناك - فى «هم بها، على برائته، وأن الشيطان إنما أنسى

الناجى منهما أن يذكره عند الملك.

فَأَنسَأُ الشَّيْطَانَ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ .. شاهد أول على برائته حيث الإنساء هنا مفرع على قال للذى .. ولو كان الإنساء ليوسف لكان «فأنساه» مفرعا عليه، وقلبت العبارة لتدل واضحة عليه: فَأَنسَأُ الشَّيْطَانَ ذِكْرَ رَبِّهِ ... فقال حتى يكون قوله نتيجة إنساء الشيطان، و هو الآن يعاكسه، فإنما الشيطان أنسى الناجى ذكر ربه، وبالنتيجة «فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ» ما لو ذكره لم يلبث بضعها.

٢ وشاهد ثان «وَأَذْكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ..» (٤٥) بعد آيتين هنا، وبعد مضى بضع سنين، والمدكر هو الناجى، وليس الادكار إلا بعد النسيان، فليكن إنساء الشيطان له حتى «أَذْكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ» دون يوسف المظلوم الصديق الذى ظلمه العدو والصديق.

٣ وشاهد ثالث «وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ..» فلو كان «أَذْكَرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» توسلا منه إلى غير الله، ونسيانا لذكر الله، لكان يستجيب الملك فور وصول الرسول، وهذا مما يدل أن «أَذْكَرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» كان منه ذريعة إلى برائته عن سجن التهمة، وذلك قضية الإيمان وذكر الرب، دون نسيان لذكر الرب.

٤ وشاهد رابع «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» (٥٢) فما قولى للناجى «اذكرنى» إلا لهذه الغاية، ليعلم العزيز أنى لم أخنه، وهم زوجونى فى السجن بتهمته الخيانة، وهذا من خلفيات ذكر الرب دون نسيانه، حيث المحاولة فى البرائة عن الخيانة ولا سيما عن ساحة النبوه، هذه قضية قوة الإيمان دون ضعفه أو نسيان لذكر الله.

٥ وشاهد خامس أن إنساء الشيطان لذكر الرحمن من أنحس السلطان على قلوب العباد، و ليس للشيطان اى سلطان على عباد الله المخلصين كما فى آيات، وفى يوسف «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» (٣٤)

و إنساء الشيطان من أسوء السوء وأفحش الفحشاء، لأنه مفتاح كل سوء وفحشاء، أ فيزعم مختلقو التهم على يوسف أن ربه كذب فما صرف عنه إنساء الشيطان، أو نسى أنه من عباده المخلصين؟ ٦ وشاهد سادس أنه لم يهتم بها إذ «رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» ولا صبا إليهن إذ «صرف عنه كَيْدَهُنَّ» وهذان الموقفان من أخطر مواقف الامتحان وأزورها للأقدام، ويوسف الصديق لا

ينسى فيهما ربه، فأحرى ألا ينساه في السجن، وهو أحب إليه مما يدعونه إليه! فكيف يتوسل في الخروج عنه دخولا في سجن النسيان.

٧ وشاهد سابع أن التوسل إلى غير الله فيما لا يجوز، كخلفية لإنساء الشيطان هو من الشرك، وهو القائل لصاحبي السجن «ما كان لنا أن نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، وهذا هو «من شيء» ومن أشنع شيء! وهو القائل «وَأَتَّبَعْتُ مَلَكَ آبَائِي إِبرَاهِيمَ... وابراهيم لم يبرز حاجته لجبريل وهو على المنجنيق إلى النار حيث يقول له: أما إليك فلا، فكيف يتوسل متبعه في ملته بفرعون لخلاصه بوسيط فرعوني مشرك؟! ثم إن ذكر الله والإخلاص لله لا يستوجب ترك التوسل بالأسباب للتوصل الى ما يرضاه الله، يوسف يدخل إلى سجنه حيث أحبه فرارا عما يدعونه إليه، ولكنه سجن بتهمة المراودة، وهي أقل المحظورين بالنسبة له، فهلّا تجب عليه محاولات متعددة مشروعة لإبعاد التهمة الملتصقة به، فلو كان سجننا بلا تهمة لم يكن ليتوسل بمن توسل، اللهم إلّا لراجعة او واجبة اخرى.

ففي الحق ليست قاله الصديق للذي ظن أنه ناج: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ، إلّا تحقيقا لأمر الحق بحقه حفاظا على ساحة الرسالة القدسية من تهمة الخيانة وخيانة التهمة، وكما أمر الله «وَأَتَّبِعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ، وإذا كان خروجه من السجن بهذه الذكرى الصالحة فهي وسيلة إلى الله خلاصا له من السجن وكما قال الله... وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنَ السِّجْنِ... (١٠٠).

أ فيحق بعد ذلك كله أن يتهم بإنساء الشيطان له ذكر ربه! ام يندد به لماذا توسل بما توسل لبراءته؟ إن هذا إلّا افك قديم وشيطنة مدروسة وهرطقة مدسوسة ضد ساحة الرسالة القدسية وان تظافرت به الروايات^١ فانها مضروبة عرض الحائط لمخالفتها كتاب الله! اذْكُرْنِي عِنْدَ

^١ الدر المنثور ٤: ٣٠ اخرج بعدة طرق عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال: رحم الله يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك ما لبث في السجن طول ما لبثت او: لو لا ان يوسف استشفع على ربه ما لبث في السجن طول ما لبثت و لكن إنما عوقب باستشفاعه على ربه، او لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث بيتغي الفرج من عند غير الله تعالى. وفي نور التقلين ٢: ٤٢٧ عن المجمع و قد روي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال: عجبت من اخي يوسف كيف استعاث بالمخلوق دون الخالق، وعن تفسير العياشي عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال الله ليوسف: الست حبيبك الى أبيك و فضلناك على الناس بالحسن، او لست بعثت إليك السيارة و أنفذتك و أخرجتك من الجب؟ او لست الذي صرفت عنك كيد النسوة؟ فما حملك على ان ترفع رغبتك او تدعو مخلوقا دوني فالبت لما قلت في السجن بضع سنين. أقول: ليس في شيء من هذه و تلك أن الشيطان أنساه ذكر ربه، وإنما نكاية عليه لما توسل الى مخلوق ما، و هذا تهديد لكافة الأسباب التي يجوز التمسك بها او يجب لأمر جائز او واجب، إذا فهي كلها من الموضوعات وضعتها الأيدي الاثيمة الاسرائيلية، فتسربت الى أحاديثنا و أخذت موضعها من القبول لدى من لا يؤلون القرآن في حجته، و هذا غريب من الاكثرية الساحقة في كافة الحقول العلمية الاسلامية كيف يعتمدون على روايات مخالفة لكتاب الله و هم يحسبون انهم يحسنون صنعا؟!

رَبِّكَ، لا يعنى إلّا مجرد ذكره عند الملك ليخرج عن التناسى المعمد بحقه على ذكر تهمة الخيانة المتداولة على الألسن، دون أية وساطة بينه وبين الملك، او التماس عفو أمّا إذا مما لا تناسب ساحة العبودية فضلا عن سماحة الرسالة، فإنما اذكرنى، والذكر فقط، ولو كان أمرا وراءه قال: عند الملك، ام: عند الرب أم: عند ربنا، ليستجيش رحمته عليه، ولكنه عِنْدَ رَبِّكَ، إعلانا بان ربوبيته وسلطته ليست على ذلك السجين، وإنما على ربه والذين استخفهم فأطاعوه.

و حتى إذا أرسل إليه الملك ائتوني به، يقول لرسوله ارجع إلى ربك، دون استجابة لدعوة الخروج، ولا امتنان منه، فإنما ارجع... فسئل... ليأخذ البرائة وهو فى السجن، فيكون خروجه عن سجن التهمة قبل هذا السجن الذى قال عنه: رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ.

فَأَنسَأُ الشَّيْطَانَ ذِكْرَ رَبِّهِ، انشغالا بما كان من سقاية الخمر للملك، وتناسيا تلك الفترة الرحيمة فى سجنه مع يوسف الصديق، حيث الشيطان يحاول دوما فى إبقاء الصديقين فى السجن بتهمة الخيانة أمّا هيه من تهمة، ومن مخلفات ذلك النسيان:

فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ، والبضع فوق الثلاثة ودون العشرة، ثم لا نرى يوسف أن يعود فى التوسل، حيث طبق واجبه الإيماني والرسالي وعلّ فى تكراره مع السجناء الآخرين مزرئة بساحة الرسالة، فيصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، ولم يكن طائل السجن له فى باطن أمره إلّا لصالحه، فعله لو خرج قبل بضعه لكان فيه تهدد لبضعه من كيد امرأة العزيز ونسوة فى المدينة! ١٠٧

أو عله تنبيهه له أن ربه هو الذى يذكر ناجى السجن لوقته الصالح، دون ان يذكر هو بما ذكر، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد خارج عن ربة عبوديته، ولا سبب يرتبط بعبد، وذلك من اصطفائه وإكرامه!

ج سورة يوسف (١٢): الآيات ٤٣ الى ٧٥ ج

وَ قَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخْرَ

يَابِسَاتِ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبْرِيُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

مضت السنون البضع، سبعا أو زاد ولم يذكر الذي ظن أنه ناج أن يذكر الصديق عند ربه، وهذه طبيعة الحال للناس النسناس على أية حال، إلّا ان يحظو حظوة مادية من هذه الذكريات.

لقد كان يوسف بأيدى اخوته ضحية الحقد الماكن فى قلوبهم فجعلوه فى غيابت الجب، وبأيدى السيارة متاعا يشرى وبثمن بخس، وعند العزيز عسى أن ينفعنا أو نتخذة وكدا، وللعزيزه شغفا فى متعة الجنس، وللسجينين معبرا للربيا، ثم الذى نجا لا يذكر أمره إلّا بعد بضع من السنين يحتاجه لمره أخرى معبرا لروا الملك عليه يزداد عنده شأنا ومزبدا! وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رءياى إن كنتم للرءيا تعبرون (٤٣).

أ ترى «الملك» هنا- وللتالى تتمه القصص- هو العزيز؟ كأنه لا، فإن مختلف التعبير بمختلف الأفعال تعبير عن مختلف الفواعل، فلو كان هو العزيز لقال «و قال العزيز، أم قال فى قصة المراودة «امراه الملك!» ثم «امراهُ العَزِيْزِ» فى قصة الملك دون امراه الملك، و لمّا يستخلص يوسف لنفسه يصبح هو العزيز «يا أَيُّهَا العَزِيْزُ مَسَّنَا وَ أَهْلَنَا الضَّرُّ» هذان يوْ دانه، وأن العزيز هو الشخصية الثانية فى المملكة وقد عزل أو مات أو قتل فأصبح الصديق هو العزيز.

و قد تلوح «إنى أرى، بتكرر الروُّ»، حيث المضارعة فى بيان الروُّ الماضيه تلمح إلى المداومه، والسمان جمع السمينه كما العجاف للعجفاء الهزيله، أرى سبعين مختلفين فى السمن والهزال، ومن العجاف أن العجاف يأكلن السمان، وأرى سبع سنبلات خضر وسبعا آخر منها يابسات.

«يا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِيْ فِي رُءْيَايَ» من الفتوى والفتيا وهو الجواب عن حكم المعنى، والجواب عن نفس المعنى.

فليس من الفتيا، وتعبرون، هو العبور عن المعنى الظاهر إلى حكم الباطن، كما العبارة عبور عن اللفظ الى معناه، فتأويل الروُّ هو العبور إلى حقيقتها المعنيه منها.

و لحد الآن فى ذلك القصص تمر بنا روُّ ثلاث، من يوسف وصاحبي السجن والملك، والاهتمام بها وتأويلها يعطينا صورة من جو العصر آنذاك فى مصر وخارجها، فالهبة اللدنيه الموهَّاه ليوسف من علم تأويل الروُّا كانت تناسب جو العصر وروحه، حيث يحتاجه الموهَّون وسواه سواء.

يطلب الملك- فى اضطراب بال وسوء حال مما يراه- إلى الملاء من الكهنه والحاشيه الملكيه، وهم يحددون عن تأويلها جهلا او تجاهلا على طريقه ١١١ رجال الحاشيه فى إخفاء ما يسوءه وإظهار ما يسره واختلاق الجو المساعد لهواه.

و «إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ» يعبر عن تهديده لهم ليفكروا جيدا حتى يعبروا، ولكنهم رغم اضطراب الملك وتهديده:

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وهذه أحسن عبارة وأبلغ استعاره عما يعنون فى حيدهم وميدهم، فالأضغاث هى الخلائط من الحشيش المضموم

بعضها إلى بعض، كالحزمة وما يجرى مجراها، يشبه هنا اختلاط الأحلام، وما يمر به الإنسان من مكروه ومحبوب والمساءة والسرور، باختلاط الحشيش المجموع من أخفاف عدة وأصناف متعددة.

فأضغاث من أحلام، يخلط بعضها ببعض، دون رباط ظاهر، ليس لها تأويل، وكما الأحلام ليس لها تأويل، «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ» لأنها أحلام تستجر من اليقظة إلى المنام، فليست - إذا - لتكشف عن حقيقة وراءها سوى نفسها، أم وحتى إذا كانت لها حقائق ف «مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ» فضلا عن أضغاثها وهي ظلمات بعضها فوق بعض! وتراهم كيف يتجرءون على التعبير عن رُؤيا الملك ب «أضغاث أحلام» وفيه حط من ساحته ومس من كرامته؟ عله للحفاظ على اطمئنان خاطره ألا يشوش بما يرى، وإعذارهم أنفسهم ألا يتساءلهم كيف لا تعبرون ما أرى «إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ» وقضية الحفاظ على الأمرين هي إبعاد الرؤيا عن كونها ذات حقيقة، فسواء أ كانوا يعلمون تأويلها أم يجهلون فصيانة الموقف تقتضى ما قضوه.

و اللوحة الظاهرة من هذه المنامة في نظرة سطحية هي استيلاء الضعيف على القوى، وذلك يهدد السلطة الفرعونية بالزوال، ولو كانوا يعلمون ما أوله ١١٢

يوسف لكانوا يتسابقون في تأويله حظوة عند الملك كما حظى الصديق، ولكنهم علموا ظاهرا منه سطحية فهابوا الملك أن يؤوه بما علموا وقالوا أضغاث أحلام...!

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥).

«الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا» هنا هو «الَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا» هناك، حيث قال له يوسف «اذكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ» وهو الآن «اذكر» ما ذكر قبل «بعد أمة» منه، ولأن له حظوة ومنزلة في تأويله .. قال «بكل جرأة وطمأنينة» «أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ» تجهيلا للملأ، وتثبيتا أن ما راه الملك ليس من «أضغاث أحلام» وحتى لو كان منها فان له تأويلا يعرفه أهله «فأرسلون» أيها الملأ، دون «فأرسلني» إذ لم يكن هو من الملأ المخاطبين المطلوبين، فهو ساقى الملك وأنى له أن يكون من الكهنة ورجال الحاشية.

و إنما يجرئه على ذلك رغم الملأ، حيث جرب يوسف من قبل فوجده عليما بتأويل الروى

صادقا في الحق وحقا في الصدق، وعله استفاد من يوسف - لأقل تقدير- ان لكل روبا تأويلا مهما كان من أضغاث أحلام، وإلا فكيف يورط نفسه فيما ورط واهل التأويل يقولون ان ليس لها تأويل؟! «أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون، والنبا خير ذو فائدة عظيمة، وهو على فيما ترسلون، وبطبيعة الحال أرسلوه بأمر الملك وتأكيده.

و قد تلمح «و اذكر بعد أمه» انه ذكر الصديق بفضله وعلمه بتأويل الروب عند ربه، وانه الذي اول روبا هما فكان كما كان، إذا فمن ذا الذي يجرأ عند الملك ان يعارك الساقى: ما أنت والانباء بما جهلنا، او ما ليس له تأويل؟ «أنا أنبئكم ... فأرسلون، فأرسلوه الى الصديق فأخذ يتلطف معه في هذه المواجهة وبعد امه من السنين:

يوسفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتِ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَ سَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرِ وَ أُخْرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦).

هنا لعلمهم يعلمون، تصرحة منه ان الملاء كانوا يجهلون حق التأويل، مهما كانوا يعلمون ظاهرا منه يعرفه كل احد، أن هناك حادثة أليمة في أركان الملك تعم الرعية، وفي ذلك فضحهم أن روبا أضغاث أحلام، بل أنتم الأضغاث وأنتم الأحلام، وليس الملك ليرى أضغاث أحلام! ..

ثم ومما لعلمهم يعلمون، هو فضله وبرائه إذ سجنوه على جهالة مدروسة من الحاشية الملكية، وبعكس ذلك خيانة امرأة العزيز والحاشية التي زجته في السجن.

ف «أيتها الصديق، في البداية، ثم لعلمهم يعلمون، في النهاية تأكيد وتشجيع كيلا يتمنع يوسف من تأويل نكايه عليه، لماذا لم تذكرني عند ربك طول هذه الأمة فلبثت في السجن بضع سنين؟ ولكنه لم يلفظ بشطر كلمة حول القضية، مما يدل على نبوة مقامه وبرائه عما افتري عليه من نسيانه هو ذكر ربه، والتنديد عليه لماذا توصلت إلى عبد؟!، ولا شرط أن يخرجوه حتى يفتي في روبا الملك خلاف ما يروي بشأن الرسول صلى الله عليه وآله وهو أخرى من يوسف،

^١ في نور الثقلين ٣: ٤٣١ عن المجمع و روى عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال: لقد عجبت من يوسف و كرمه و صبره و الله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف و السمان، و لو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط ان يخرجوني، و رواه مثله العياشي في تفسيره عن اiban عن محمد بن مسلم عنهما قالا إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ... أقول و ليضرب عرض الحائط لمخالفته نص القرآن في يوسف فالرسول صلى الله عليه وآله أخرى!.

وتراه إذا كان على علم من علم يوسف تأويل هذه الروايات كسائر الرئي فلما ذا لعلّى أرجع ... لعلّهم يعلّمون؟ علّه لأنه ليس على علم برجوعه، فقد يموت فى الطريق او تقتله الحاشية قبل وصوله، وحتى إذا وصل فعلّهم لا يقبلون تأويله، او برائته، ولا سيّما خيانة امراه العزيز ونفس الحاشية.

و لأن المرجو هنا عظيم عظيم فقد يقاوم ما علّه ينقم منه: لماذا حرّج موقف الحاشية، لا سيما وأن الملك بجنبه ولو لم يأت بشيء إذ تكفيه محاولة لتأويل رواه! وهنا نراه بعد ما يسمع الروايات يفتى للساقى ودون تمهل ولا شكاه ولا تطلب نجاه بتوسل ثان:

قال تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨).

أ تراه أفتى - فقط - تأويلا لروايات الملك؟ كلا! حيث حكم على ضوء تأويله بما حكم، صادرا عن مصدر القيادة العليا وهو فى السجن بتهمة الخيانة، وهذه هى الفتوى الكاملة، وقد كان المستفتى ليكتفى بالبند الأول فإنه - فقط - تأويل رواه، ولكنه يزيده حكما صالحا لفتواه، ليأخذ بذلك أزمة قلوب الملك والحاشية لعلّهم يعلّمون.

و لأنها روايات الملك يأخذ سبع بقرات سمان وسبع سنبلات خضر، مثالا عن الحالة الاقتصادية الخصبة فى جميع أنحاء المملكة، حيث البقرة تمثل وافر النعمة، وهى فى روايات من يملك أمر الرعية، النعمة العامة الشاملة، ثم سبع عجاف وسبع آخر سنبلات يابسات، مثالا عن الحالة الشديدة الضيقة بعد الأولى.

و دأبا، هو استمرار فى الحركة الزراعية وتعب إذ يعنيهما لغويا فهما معنيان هنا معا، وإلا لجيء بلفظه الخاص - استمرارا او تعب - وقد يود جمعهما فتح عين الفعل اللامح للجريان والدوران: تزرعون سبع سنين متتالية سنة وسنوات، مما تنتج أخصب الزرع وأكثره عدّة وعدّة.

و هذه الفتوى الأولى بحكمه، فان تزرعون، خير يعنى الأمر ومن ثم فتوى الحكم .. فما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ، (٤٧) فالكثير الذى لا يؤول، بل يسرف او يبذر أم يباع، ذلك الكثير فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ، حفظا عن السوس والمورّات الجوية أمّا هيه،

ذخرا للبيع الشداد، وتأكلون، هنا، ك 'تزرعون، أمر بصيغته الإخبار، مما يحتمه أكثر من صيغته، فعليكم فى السبع الأولى الزراعة دأبا فى مواصلة وتعب، وعليكم ألا تأكلوا مما حصدتم إلّا قليلا فيه بلغة الحياة ..

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ (٤٨).
و إنها سبع لا زرع فيها والأكل نفس الأكل، وهن 'يأكلن ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا، زائدا عن الضرورة وهو 'مِمَّا تَحْصِتُونَ، عن الإسراف والتبذّر، عن الالتهام والتبعثر.
إلى هنا يتم تأويل الروا سبعا بسبع، ثم يزيد الصديق مما علمه ربه وأنبأه ما ليس فى الروا:

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩).
و لكيلا تبقى لهم أية باقية من زمجرة السبع الشداد يخبرهم الصديق بذلك العام المغيث، بغيث السماء وغيث الأرض ومنه كلاءها، ولو كان - فقط - المطر لجيء بلفظه، والغيث المطر ليس غيثا إلّا لأنه يغيث وينجى البائسين، أم ان 'يغاث، من كلا: الغيث والغوث، فليس الغيث المطر والكلاء - فقط - بالذى يكشف الكرب ويمنع الجذب، إذ قد يوازيه برد قارص، ام برد كارث قبل نضوج الحرث ام عنده، او ربح صرصر كارث، او زلزال مارس، أماذا مما قد يساعده الغيث على الكارثة المزمجرة، والحادثة المدمرة.

فالقول ان فيضان النيل كان يكفيهم عن المطر، تقاوله السبع الشداد والنيل هى النيل، ثم هل للنيل ان تنال بفيضاناتها كل الخيرات وتنيل، وهناك كربات وصعوبات سماوية وأرضية لا تدفع إلّا أن يغاث الناس بغوث إلهى ضمن فيضان وغيث، لا سيما وان الفيضان نفسه ليس إلّا بالغيث الذى يمدّه من مجاريه عن بلاده.

'فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ، غيثا وغوثا، وَفِيهِ يَعْصِرُونَ، الفواكه، مما يلّمح إلى كثرتها لحد الإعصار بعد الإعصار، فلا يعنى - فقط - يعصرون الخمر، بل ولا يعنيه فيما يعنيه، إذ تجل ساحة النبوة ان يبنى فيما يبنى عما فيه شهوات النسناس بخمر تخمر الناس، وتبغض إله الناس! فان لم يدل تأويله الروا على نبوته وتسديده بالوحى، فليدل إنباءه ب 'عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ، فليس تمام السبع الشداد مما يدل عليه، إلّا عاما غير شديد، كما قبل السبع الأولى،

عام يكفى نفسه كتقدير معتاد، وأما ان فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ، فزيادة لا تعلم إلّا بالوحي.

و هنا يحذف السياق ما يعلم من المساق او هو غير ضرورى فى القصة، وينتقل إلى مشهد الملك وتأثره عن تعثره فى سجن الصديق، فلنسمع الملك كيف ينهاز إلى خلاصه بكل إخلاصه والتماسه:

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْتَلَّهُ
مَا بِالْأُنثَى اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠).

يا عظماء لذلك الصديق العظيم، يطلب إليه الملك ليخرج عن السجن ويدخل عليه فلا يستجيب، وطبعاً ما كان الإتيان به إشخاصاً لاستجواب يعود بعده إلى السجن، فإنه أمر قاطع لا مرد له ولا قبل أمامه، وإنما هو إحضار عن عفو وإغماض، فله أن يقبل وله ألا يقبل. هنا نرى يوسف السجين وقد طال سجنه بضع سنين لا يستعجل إجابة الملك فى الخروج، حتى يخرج قبله عن تهمة الخيانة، ويعلن متهموه برائته من الوشايات والمكائد التى أدخلوه السجن بظنتها.

فلو خرج من فوره لكان خارجاً عن طوره، متهما فى توسله بالساقى، وقد تبقى عليه وصمة الخيانة أن يظن بخروجه عفو الملك وإغماضه عما كان، بما ظهر منه الآن. ولكنه مسبوك بذلك الأدب الرائع، والسكينة والثقة والطمأنينة فى قلبه البارع، فلا يعود عجولاً ولا معجلاً، تقديماً لخروجه عن سجن الروح فى تهمة الخيانة، على سجن البدن، وإن بقى فيه بضعا أخرى، ذلك يوسف ولم يكن ممن دارت عليهم الرحى، فبأحرى إمام المرسلين و خاتم النبيين وأفضل الخلق أجمعين محمد صلى الله عليه وآله لو كان مكانه لكان أمتن منه وأمكن خلاف ما اختلق على ساحته من روايات^١ كما على أخيه الصديق!

^١ كما فى الدر المنثور ٤: ٢٣ عن أبي هريرة قال تلا رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الآية: «فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ...» فقال: لو كنت انا لأسرعت الإجابة و ما ابتغيت العذر! و فى اخرى عنه انه صلى الله عليه وآله قال: يرحم الله يوسف ان كان لدا أتاه لو كنت انا المحبوس ثم أرسل إلي لخرجت سريعا، و عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عجبت بصبر أخي يوسف و كرمه و الله يغفر له حيث أرسل إليه ليستفتى فى الرؤا و ان كنت انا لم افعل حتى اخرج، و عجبت من صبره و كرمه و الله يغفر له أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره و لو كنت انا لبادرت الباب و لكنه أحب ان يكون له العذر! و عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وآله قال: رحم الله أخي يوسف لو انا اتاني الرسول بعد طول الحبس لا سرعت الإجابة حين قال: ارجع الى ربك، فأسأله ما بال النسوة!

و أيا كان رسول الملك، أهو الساقى الناجى وعله أنسب لكونه أرفق وبصاحبه أليق؟ أم هو رسول تنفيذى يكلف بمثل هذا الشأن، لمكان قوله «أَتُونِي بِهِ، دُونَ آتَنِي بِهِ، فَبطبيعة الحال ليس هذا الرسول إلا عظيما من الحاشية يليق بهذه الرسالة، لا نعرفه من هو؟ ولا فائدة فى أن نعرفه. فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ، وعرفه رسالته، قال أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، لا الملك، ولا الرب، او ربنا، كما يقوله السجناء بغية الخلاص، وإنما إِلَى رَبِّكَ، ثم فاسئله، كأنه من قبلك نفسك، لا عنى، ولأنه لا يجرأ الساقى وأضرابه على سؤال الملك من نفسه، اللهم أَلَا رسول خاص، له اختصاص بالسدة العليا، يتأيد أنه غير الساقى. فَسَأَلَهُ مَا بِالِالنُّسوةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ».

فانظر إلى ذلك السجين كيف يستجوب الملك والنسوة فى مسألة واحدة، بكل حائطة واحشام، حيث لا يذكر مراودة امرأة العزيز، وإنما النسوة والنسوة فحسب، إذ كان أمرهن واضحا فى المملكة وضح النهار، وأمرها يظهر ضمن أمرهن كما ظهر، فبالهن وخطبهن ذريعة إلى خطبها وبالها، وهو لم يذكرها بسوء ولا إياهن إلا قدر الضرورة التى هى مفتاح براءته: «إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِيهِنَّ عَلِيمٌ»، وسوف تعلمون فى ذلك الاستجواب وعل من كيدهن أنهن لما يسن عن مراودتها القين حبل التهمة الوقحة على عاتقه، فى وشاية دائبة وجناية صارحة سارحة، لحد شككن الملك والعزيز فى أمره!.

و البال هو الأمر العظيم والشأن الخطير، وهو للنسوة هنا أخطر من أيديهن وأعظم حيث نسيتها لبالهن، وليس إلا الشغف الهالك الحالك فى حبه، لحد أنساهن أنفسهن فقطعن أيديهن، مكان الأكل والفاكهة التى بأيديهن.

فلما يعرف ذلك البال يعرف واقع الحال منهن ومن امرأة العزيز وكفاه ذلك السوّل ظهورا لبراءته فى الحال وبكل استعجال.

قال ما خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١).

و الخطب هو جلال الأمر ومصابه، فالصديق يتغاضى عن مراودتهن احتشاما حتى يصرح بها وبخطبهن الملك، ويصرخن ببراءته، مما يدل على أنه كان يعلمها من ذى قبل، او استقصى قبل إحضارهن فعلمها، وهذه قضية الحال فى كل استجواب ولا سيما بالنسبة للعظماء،

ليكون المستجوب للحال على بينة من الأمر، والظروف المحيطة به قبل الخوض و الانغمار فيه، فهنا لك يواجه النسوة على بينة من واقع المراودة وخطبهن فيها: «ما خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ؟ أَهوَ الَّذِي أَوْعَدَكُنَّ فِي خَطْبِكُنَّ وَمَرَاوَدْتَهُ أَمْ أَنْتُنَّ مَنِ أَنْفَسَكُنَّ؟ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، لا سوء المراودة، ولا سوء النظرة، ما عَلِمْنَا عَلَيْهِ، امر يعلوه او يظهر فيه، من سوء، إلا حسنا وجمالاً، ما هذا بَشْرًا إِنَّ هَذَا إِلَا مَلَكٌ كَرِيمٌ، حقيقة ليست لتنكر او تستر ولو من مثل هوّاء النسوة المترفات المتجبرات الارستقراطيات اللاتي لا يحنّ إلى معروف ولا يقررن بمنكر فعلمن.

و هنا لا تملك المراودة الأولى، الخائنة الأولى، لا تملك نفسها فى جو المصارحة بين النسوة ان تختصه بالتهمة فتتقدم النسوة فى مصارحة المراودة، قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ، ظهورا لا يحتمل أى خفاء ولا يتحمل، مهما تحمله من ذى قبل بما حملناه، أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، (٥١) شهادة ناصعة دون أية ريبة ولا شائبة، يقال حصحص البعير فى بروكه إذا تمكن واستقر فى الأرض، وكأن اشتقاقه من الحصاة حيث بان حصة الحق عن حصة الباطل بكل تمكن واستقرار، ولا تبالى الشاهدة هنا أن تشهد له على نفسها، مستهينة ما وراءها مما يلم بها نفسها، ومن ناحية أخرى هى طبيعة الحال فى الأوساط النسائية فى المترفين، لحد قد يتفاخرن بتلك المراودات إذا كان المراد معترفا بلياقتهم وصلوحه للمراودة، حيث التحلل والتميع وحيونة السعار الجنسى المرتدى ثياب الارستقراطية، لها مقاييس فى الحياة غير ما للشعوب المحطمة المظلومة.

و لقد تمت هنا الشهادة من الملك والنسوة وامراه العزيز على براءة الصديق وبرايعته، وقد شهد العزيز فى أول وهلة: «إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ، فهل كان هنا غائبا عن المشهد أم ميتا ولذلك لم يشهد، أما ذا؟ القدر المعلوم انقطاع خبره منذ الوهلة حتى آخر القصة وقد كانت فى شهادته الأولى كفاية، إضافة إلى شاهد من أهلها وشهادة القميص أمن ذا ممن قد مضى؟ والتوراة على تحرفها شاهدة لصدقة مهما اختلف التعبير أو تهافت فى بعض

المواضيع!

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ
النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣).

أ ترى من هو القائل لِيَعْلَمَ ... وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي؟ هل هي امراه العزيز؟ فمن هو الذى لم تخنه؟ أهو العزيز وقد خانته فى مرادوات واهتمامات بالغيب وكما صرحت بصدق الصديق فى خيانتها وبراءته! أم هو يوسف؟ وقد خانته فى الحضور والغيب، حيث احتالت عليه حتى أدخلته السجن بتهمة الخيانة! ثم ولم تكن موحدته حتى تقول: «وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» او تقول «إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» ثم وما برئت نفسها إلا «وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» وقد فضحت بشهادة الشاهد من أهلها، وإنما برئت نفس يوسف فى مشهد النسوة مرتين، فلم تكن فى موقف التبرئة لنفسها حتى تنفيها عن نفسها! ثم وماذا تعنى - إذا - من ذلك؟ أ تعنى أن ذلك الاعتراف ببراءة الصديق وخيانتها ليعلم او يعلم العزيز أنها لم تخنه بالغيب؟ وهو اعتراف منها بخيانتها بالغيب! اللهم إلا فى ذلك الغيب الأخير بمشهد الملك وغياب يوسف! ولم تكن امراه العزيز بالتي لا تخون يوسف وقد خانت العزيز! ولا أن علم الصديق بعدم خيانتها إياه بالغيب يههما لحدّ تفضح له نفسها أمام النسوة والملك أم والعزيز!

إنها - دون ريب - من كلام يوسف إجابة عن سؤال مقدر، لماذا لم تحضر عند الملك فور إحضاره، وطائل السجن كان يوّد التهمة عليك فضلا عن زيده؟ فيجيب، ذلك

^١ بالفى تنمة الاصحاح ٤١ من سفر التكوين الذي أوردناه من ذي قبل ... و سأل الساقى ان يذكره عند فرعون لعله يخرج من السجن لكن الشيطان أنساه ذلك «أقول: «لكن» هنا يؤد ما أيدناه بالأدلة السبعة» ثم بعد سنتين رأى فرعون فى منامه سبع بقرات سمان حسنة المنظر خرجت من نهر و سبع بقرات مهزولة قبيحة المنظر وقفت على الشاطئ فأكلت المهازيل السمان فاستيقظ فرعون ثم نام فرأى سبع سنابل خضر حسنة سميئة و سبع سنابل رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابته وراها فأكلت الرقيقة السميئة فهال فرعون ذلك و جمع سحرة مصر و حكماءها و قص عليهم رؤاه فعجزوا عن تعبيره و عند ذلك اذكر رئيس السقاة يوسف فذكره لفرعون و ذكره ما شاهده من عجيب تعبيره للمنام فامر فرعون بإحضاره فلما ادخل عليه كلمه و استفناه فيما رآه فى منامه مرة بعد اخرى فقال يوسف لفرعون حلم فرعون واحد قد اخبر الله فرعون بما هو صانع: البقرات السبع الحسنه فى سبع سنين و سنابل سبع الحسنه فى سبع سنين هو حلم واحد، و البقرات السبع الرقيقة القبيحة التي طلعت و اراءها هي سبع سنين و السنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية يكون سبع سنين جوعا.

هو الأمر الذي كلمت به فرعون قد اظهر الله لفرعون ما هو صانع هوذا سبع سنين قادمة شعبا عظيما فى كل ارض مصر ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعا فينسى كل السبع فى ارض مصر و يتلف الجوع الأرض و لا يعرف السبع فى الأرض من اجل ذلك الجوع بعده لأنه يكون شديدا جدا، و اما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلان الأمر مقرر من عند الله و الله مسرع لصنعه فالآن لينظر فرعون رجلا بصيرا و حكيمًا و يجعله على ارض مصر يفعل فرعون فيوكل نظارا على الأرض، و يأخذ خمس غله ارض مصر فى سبع سنين الشبع فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة و يخزنون قمحا تحت يد فرعون طعاما فى المدن و يحفظونه فيكون الطعام خبيرة للأرض لسبع سنين الجوع التي تكون فى ارض مصر فلا تنقرض، الأرض بالجوع ...

لِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ أَنِّي لَمْ أَخْنُهُ بِالْغَيْبِ، فلو خرجت دون استجواب النسوة لظلت تهمة الخيانة على لزاما، وهو استبقاء في سجن التهمة، فسواء أخرجت أم بقيت إلا أن تحصل هذه الحصص في حقي أمام الجماهير، فيعلم العزيز أنني لم أخنه بالغيب.

أتراه لم يعلم أنه لم يخنه بالغيب وهو القائل لدى الباب بعد شاهد من أهلها، إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ؟

أجل إنه أخذ يعلم ولكنها بدلته من بعد علم جهلا، كما هددت الصديق مرارا وتكرارا، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ، وهكذا يأخذ مكائد النساء بأزمة قلوب الرجال، فقد فعلت ١٢٣

و افتعلت حتى دفعته أن يسجنه بتهمة الخيانة، وظل بضعه في سجنه في ظل هذه التهمة الوقحة، فكيف يخرج دون ان يقضى عليها؟.

أجل لقد كان لزاما على يوسف قوله، لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ، نذرعا إلى رفع التهمة، ولزاما عليه إلا يخرج بطلب الملك إلا بعد زوال التهمة، وذلك القول وعدم الخروج إلا ببرائته، ليعلم، العزيز ومعه من معه من الملك وسواه، أَنِّي لَمْ أَخْنُهُ، في قصة المراودة «بالغيب»، إذ كان غائبا.

و ليعلم، على علمه، أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ، كامراته ونسوة في المدينة، ومعهم العزيز والملك في خيانتهم المكرسة وشيظتهم المدروسة، فلو أنني كنت من الخائنين، والجهاز الفرعوني مصر على أنني خائن فكيف اهتديت إلى برائتي بشهادتهم هو؟ أنفسهم؟ ثم، وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ، ضابطة تضرب إلى مثل الزمان ومختلف الكائن والمكان، وقد أقام الله تعالى فيها كيد الخائنين مقام الخابط في طريق ليصل الى مضرة المكيدة وهو عنه غافل، فأعلمنا سبحانه انه لا يهديه حيث لا يوفقه لإصابة الغرض، ولا يسده لبلوغ المقصد، بل يدعه يتخبط في ضلاله ويتسكع في متاهه، حيث يسرى في معصية الله فلا يستحق ان يهدي لرشد او يتسدد لقصد.

و لأنهم كانوا خونة بحقي بكل المكائد الفرعونية، نسائية ورجالية، لم يكن الله ليهدي كيدهم إلى بغيتهم: دراسة متينة ونصيحة مكيئة من الصديق السجين لرجال البلاط ونساءه ولما

يخلص من السجن! ولأن «أنتي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» تلمح كأنه بحوله - فقط - وقوته ترك تلك الخيانة فلم يصب إليهن، يثنيها بما يزيل غشاوة الإيهام والإيهام بقوله: «وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي» عن الخيانة وهمها ل «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» نفسى وسواها «إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» وقد رحمني بما أراني برهانه: «وَهُمْ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» وصراف عنى كيدهن: «وَالْإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ» إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ، يغفر برحمته ويستتر زلات المخلصين والمخلصين، فلو لا غفره بما أراه برهانه وصراف عنه كيدهن لهم بها وصبا إليهن وكان من الجاهلين، وذلك غفر قبل حلول العصيان، وهكذا كلَّ غفر للمعصومين، كما هنالك غفر بعد حلوله كما لغير المعصومين.

فإذا كان يوسف الصديق لا يبرئ نفسه وهو من المخلصين، فيربط برائته برحمته ربه، فبأحرى لمن دونه من الصالحين، فلو لا رحمة الرب لكنا من المهلكين «وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ» (٣٧: ٥٧)! ف «النفس» هنا هي الشهوانية وهي بطبعها «لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» إِلَّا برادع من نفس مَوْئِة مطمئنة بالله، تكرر كافة طاقاتها سياجا صارما على أمر السوء وفعله، مستعينة بالله وحتى النفس المعصومة، حيث العصمة الإلهية وتثبيتته يحولان بين النفس وشهواتها «وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتِنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا».

و صحيح أن النفس لا يصح ان تأمر بسوء، فإنما تشتهي السوء، ولكن الإنسان لما كان بطبعه يتبع دواعيها إلى الشهوات، وينقاد بأزمتها إلى المقبحات كانت بمنزلة الأمر المطاع، و الإنسان بمنزلة السامع المطيع، والمبالغة في «الأماره»، مَوْئِة باللام تحاكي صفتها بكثره الدفع إلى المهاوى والقود إلى المغاوى.

ثم وهذه الأماره بالسوء - بطبيعه الحال - تتدرج على ضوء المحاولة البشرية والرحمة الإلهية من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، إلى لوامة بدرجاتها، ومن ثم مطمئنة بدرجاتها، مخلصه لا تخلو من أخطاء اللمم، ثم مخلصه معصومة بعصمة إلهية، وهذه رحمة خاصة تخص المخلصين، وقبلها عامة تعم المخلصين، ويوسف من الأولين «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» والرسول محمد صلوات الله عليه وآله هو إمام المخلصين «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ» لحد يقول عن نفسه «شيطاني أسلم بيدي - جزناها وهي خامدة».

فِإِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، استثناء متصل يعنى إلَّا النفس التى رحمها ربى فليست أماره ولا أمره بالسوء بل لوامه أو مطمئنه: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي».

و ليست لنا إلَّا إحدى هذه الثلاث، وهى مختلفه حالات الروح، واجتماعها فى هذه الحالات، ام تعددها كل بحالتها، ذلك اجتماع الأضداد المتنافره، أو المحالات المتهاتره. «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» وأمثالها هى من براهين وحدتها دون تعدد فى ذواتها، ولا اجتماع فى حالاتها!. ثم ومع الأسى نرى هنا كما هنالك ترسم أيدى الخيانة ما يمس من كرامه الصديق وليضرب عرض الحائط لمخالفته كتاب الله المصرح فى آيات عدة ببرائه يوسف ويراعته! و هكذا ينتهى دور السجن لمن كرمه الله واصطفاه، بريئا عن تهمة الخيانة، جريئا على الخونه، مما يدفع الملك أن يطلبه إليه مرة ثانية:

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤). و هكذا يتجلى الإنسان فى أكمله وأنقصه فى قصص القرآن التى لا تقص لمجرد قص التاريخ وأداء الفن القصصى، بل لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، فانما تساق لتعالج قصة العقيدة والداعية عبرة وعظة، فى واقعة تناسق فيها جميع المورّات والمورّات والواقعات فى نفوس بنى الإنسان.

هنا يصدر الأمر الملكى مرة ثانية «أُتُونِي بِهِ، ولكنه فى هذه المرة يستخلصه لنفسه حيث يرى إخلاصه فى علمه ودرايته وأمانته: «أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي، فلو استجاب فى الأولى لم يستخلصه إذ لم يعرفه بذلك الإخلاص والأمانة والرزانه، واستخلاص الملك هو الصدارة الثانية بعده كرئاسة الوزراء اما ذا من القمة الثانية.

^١ الدر المنثور ٤: ٢٣ عن أبي صالح في الآية قال: هذا قول يوسف عليه السلام لم يخن العزيز في امرائه، فقال له جبرائيل: و لا حين حلت السر اويل؟ فقال يوسف عليه السلام: «و ما أبرئ نفسي..» أقول أليس حل السر اويل للعزيزة بغيب العزيز خيانة، ثم و في القيلة المنسوية الى جبرائيل تكذيب لقول يوسف اضافة الى تهمة الخيانة! و الصحيح ما أخرجه ابن أبي حاتم و ابو الشيخ عن الحسن في الآية قال: خشي نبي الله ان يكون زكى نفسه قال: و ما أبرئ نفسي الآية.

إنه في هذه المرة خلاف الأولى لا يطلبه ليرى مأول الرو، أو لیسمه كلمة الرضا لصاحب السموم الملكي، ولیعفو عنه وبطلق سراحه، وإنما لیستخلصه لنفسه معتذرا إليه عما كان علیه، ومفوضا إليه ما سیکون.

.. هنا الملك یطلب إلى من لا یتهافت على خروجه من السجن، ولا یتفاوت عنده السجن و خارج السجن، إلا أن یرج قبل خروجه عن تهمة الخيانة، وإلا فالسجن أحب إليه من عفوه دون براءة، كما كان أحب إليه مما یدعونه إليه.

یطلب الانسراح عن السجن ممن أخذ یفتی برواه لصالح المملكة، ویحكم كقائد اول لإصلاح الحالة الاقتصادية عند توترها وتبعثرها وتعثرها، وهكذا یكون رجالات الحق والصدق والدعاء الى الله، لا یخضعون للأمر الواقع المفروض عليهم أيا كان. فلا یذلون عن عزهم، ولا یتذلون أمام السلطات الباطلة المفروضة عليهم، ولا یحيدون عن موقفهم الرسالي، ولا یفرق لديهم السجن وخارجه، ولكی یرزوا الحق كما یلیق به ویحق، دون مس من كرامته وكراماتهم، ودون نكص على عقبيهم انتقاصا لحق الدعوة والداعية.

فيا لیت رجالا- ولا رجال- یمرغون كل كرامة على أقدام الطغاة- بمطلق سراحهم- متسابقين متهافتين على نظرة رضى وكلمة ثناء، لیتهم یعتبرون بأحسن القصص، ولیعلموا أن العزة والإباء یدرّ عليهم أضعافا من إدرار التمرغ والتزلّف والانحناء أمام ذوی السلطة والكبرياء، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ... وَلَأَجْرِ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، (٥٧).

.. فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ، خلاف ما قبل اليوم لما طلب إليه للمرة الأولى «أتتوني به! لست أنت اليوم الفتى العبراني المشرى بثمان بخرس دراهم معدودة، لعبة العزيز وامراته، وإنما أنت اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ، ذو مكانة عالية مرموقة، ولا أنت المهتدّ بالسجن أو عذاب اليم، وإنما أنت «لدينا اليوم أمين»، وتراه في ملتقاه مع الملك أخذ يتملق له بقوله او فعلة كما يفعله رجال الحاشية؟ كلا ولا في شطر كلمة، فالنص، فَلَمَّا كَلَّمَهُ فَالملك هو البادئ بالكلام دونه، اللهم إلا بسلام والسلام، وفي ذلك الكلام الملكي الهام: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» نرى كل مراتب العزة والإكرام، دون ألفاظ مرسومة خاوية في المواجهات العادية،

وإنما كلام مكين أمين، حيث الملك ليس ليهاب أحدا أو يماريه حتى يجاريه فى كلمة خاوية المرام.

هنا مثلث التأكيد للمكانة والأمانة، المستفاد من حرف التأكيد وتقدم الظرفين، يوّد له المكانة والأمانة الخاصة المتميزة، والسلطة الصالحة لإدارة أمور المملكة بحاجة جذرية ماسة إلى تلك المكانة والأمانة، ولا سيما فى تلك الظروف الحرجة الهرجة، وفى الحق يلمح من كلامه هذا حكم صدارته العليا بعده، قالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥). إِنِّي حَفِيظٌ لِّشَتَاتِ الْأُمُورِ وَمَتَفَرِّقَاتِهَا لِأَجْمَعِ شَمَلُهَا، ولمجموعاتها عن تمزقها وشتاتها، حفيظ للمعادلة الاقتصادية فى السبعين الرخوة والشداد، حفيظ فى كلما تحتاجه خزائن الأرض من صالح الإنماء والمصرف، فالحفيظ على الحرمات والنواميس فى تلك الظروف المحرجة، هو بأحرى حفيظ على المصالح الاقتصادية! إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ، فمن حفيظ غير عليم، يحاول فى الحفظ ولكنه لا يعلم، فقد يكون ما يفسده على جهله أكثر مما يصلحه كصدقة، ومن عليم غير حفيظ، يعلم ويخالف علمه إلى جهالة، أم لا يحافظ على المصلحة الجماعية، إذ لا يلاحظ إلّا شخصه وشخصيته وصالحه، ولكنى حَفِيظٌ عَلِيمٌ، كركنين أساسيين لمن يجعل على خزائن الأرض.

و تراه لماذا يتطلب إلى الملك ذلك المنصب دون أن يصبر حتى ينصبه هو كما يراه؟ علّه ما كان ليعلم أية مصلحة فى الملك هى أصلح ليجعله عليها؟ فهو - بعد ما يتأكد أنه لديه مكين أمين، وبطبيعة الحال يحتاجه لأمر ما لمصلحة البلد - فهو يدلّه على ما هو الأصلح فى تلك الظروف الصعبة المتلوية، كمواصلة صالحة لما يريد منه الملك، حيث الأزمة القادمة وسنو الرخاء التى تسبقها، هى بأمسّ الحاجة إلى الحفظ والصيانة على علم واسع و دراية، لذلك يختار ذلك المنصب المناسب الضرورى لحفظ البلد عن التفكك، الذى لا بديل عنه، كما هو عليه السلام لذلك المنصب، فلا يطلب إلى الملك وزارة البلاط الملكى، ولا أية وزارة إلّا وزارة الإقتصاد والتنمية والإصلاح الزراعيّة، التى كانت تحلّق حينذاك على كافة الوزارات، وفى الحق هى رئاسة الوزارات كلها حسب الظروف الراهنة! فبالرغم من أنّ تصدى أمر الإقتصاد فى ذلك الظرف الحرج تورّط فى مختلف الصعوبات، يختاره الصديق لنفسه، وهناك أمور

أريح، ولصالحه الشخصي أصلح، لأنه حسب واجبه الرسالي كان حصينا في اختيار اللحظة المرهقة ذات التبعة الضخمة، فيكون مسئولاً عن إطعام شعب بكامله والشعوب المجاورة، ليؤي واجبه الرسالي عدلاً ناصحاً ناصحاً للجماهير، وعله على ضوئه يجلب أنظار المحاويع إلى شرعة الله.

فليس من السهل تكلف ذلك العبء الثقيل، ولأقل تقدير في أربعة عشر سنة التي قد تكلف في مصطرح المراجعات والمنازعات رأس الرئيس وحياته ومصرعه، المنصب الذي يحيد عن تقبله سائر الحاشية الملكية، حيث ترجح الأريحية وحياء الترف والرعوننة.

أ فبعد ذلك كله يخلج ببال، أن كيف يزكي الصديق نفسه والله تعالى يقول: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، يَزْكِي قَائِلًا: «إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ»؟ أم كيف يطلب إلى فرعون المشرك الظالم أن يجعله على خزائن الأرض؟ ومعونته الظالمين حتى في عدلهم هي من المحرمات القطعية؟!.

إن أمر الصديق هنا أبعد أعماقاً وأوسع آفاقاً من هذه الضوابط الناظرة إلى الناس العاديين، فإنه يرتكن على ركن الرسالة والدعوة إلى الله، ولا بد للرسول أن يزكي نفسه بما زكاه الله تعالى لتحل رسالته محلها من القلوب، وإنما التزكية المحرمة هي للنفوس غير المزكاه، أو التي تأخذها بتزكيتها رعونات وطننات، دون النفوس المطمئنة بالله التي زكاه الله بما رحمها «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، أو ليست النفس المرحومة بالله مزكاه!.

و لأن زكاه النفس من نعمه الرب فلا بد لصاحبها أن يحدث بها «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ، لا سيما في مقامات الضرورة لإظهار الحق والدعوة إليه وتطبيقه، دون التظاهر بالحق وأنت مبطل أو معجب: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظَلِّمُونَ فِتْيَلًا، (٤: ٤٩) (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى، (٥٢: ٣٢). وقد زكى الله نفس الصديق وهو أعلم به وهو يريد مكانته وتمكنه في الأرض: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ...»^١.

و من ثم ليس طلبه إلى الملك أن يجعله على خزائن الأرض إلا ليعدل حسب الشرعة الإلهية

^١ نور الثقلين في تفسير العياشي و قال سليمان قال سفيان قلت لابي عبد الله عليه السلام ما يجوز ان يزكي الرجل نفسه؟ قال: نعم إذا اضطر إليه اما سمعت قول يوسف «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» و قول العبد الصالح: «وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ».

فيمن لا يقرون بحق الله وشرعته، وإزالة الظلم ثم تقليبه من المفروض على عواتق الدعاة إلى الله! وليجد ظرفا صالحا للدعوة الرسالية وذلك من أهم الظروف الواسعة والمجالات الفاسحة.

ثم الضرورات تبیح المحظورات، فحتى لو كانت قيادة خزائن الأرض والرئاسة عليها في الملكية الفرعونية محظورة للصدیق، لكانت أقل المحظورين حيث الضرورة الرسالية تفرضاها.

و قد قبل الإمام الرضا عليه السلام ولاية عهد المأمون لنفس الضرورة وأخرى، فلما يسأل: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله إن الناس يقولون: إنك قبلت ولاية العهد مع إظهارك الزهد في الدنيا؟ يقول عليه السلام: قد علم الله كراهتي لذلك فلما خیرت بين قبول ذلك وبين القتل اخترت القبول، ويحهم أما علموا أن يوسف عليه السلام كان نبيا ورسولا فلما دفعته الضرورة إلى تولى خزائن الأرض قال: اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ^١ ودفعتنى الضرورة إلى قبول ذلك على إكراه وإجبار بعد الإشراف على الهلاك، على أنى ما دخلت فى هذا الأمر إلّا دخول خارج منه فالى الله المشتكى وهو المستعان^١ و اين ضرورة من ضرورة، والحكمة فيهما والحكم واحدة على اختلاف الدرجة.

والامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام يقول لأقوام يظهرون الزهد ويدعون الناس ان يكونوا معهم على مثل الذى هم عليه من التقشف: أين أنتم عن سليمان بن داود عليه السلام ثم يوسف النبى عليه السلام حيث قال لملك مصر اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ، فكان من أمره الذى كان أن اختار مملكة الملك وما حولها إلى اليمن، وكانوا يمتارون الطعام من عنده

^١ نور الثقلين ٣: ٤٣٢ ج ٩٩ في عيون الاخبار باسناده عن الريان بن الصلت الهروي قال: دخلت على علي بن موسى الرضا عليه السلام فقلت له يا بن رسول الله ان الناس يقولون ... وفيه حجاج اخرى له مما شاة و مجارات عن عيون الاخبار باسناده عن الحسن بن موسى قال: روى أصحابنا عن الرضا عليه السلام انه قال له رجل: أصلحك الله كيف صرت الى ما صرت اليه من المأمون- وكانه أنكر ذلك عليه- فقال له ابو الحسن الرضا عليه السلام يا هذا أيهما أفضل النبي او الوصي؟ فقال: لا بل النبي، قال: فأيهما أفضل مسلم او مشرك؟ قال لا بل مسلم، قال: فان العزيز عزيز مصر كان مشركا و كان يوسف عليه السلام نبيا و ان المأمون مسلم، و انا وصي، و يوسف سأل العزيز ان يوليه حين قال: اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» و أنا أجبرت على ذلك، و قال عليه السلام في قوله: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» قال: حافظ لما في يدي عليم بكل لسان.

لمجاعة أصابتهم وكان يقول الحق ويعمل له فلم نجد أحدا عاب ذلك عليه!¹
و فى الحق إنما الحكم لله ومن يمثل حكم الله من رسله وأوليائه، والحاكمون على الشعوب
دونهم كلهم طغاة، ومن المفروض على من له أهلية الحكم تكريس الطاقات فى كافة
الحلقات لإزالة هذه السلطات وتأسيس الحكم الحق قدر المستطاع، أم- ولأقل تقدير-
التقليل من ظلمهم فى سلطاتهم، فإزالة السلطة الظالمة المغتصبة وتقليلها هما مفروضان دوما
على عواتق المؤمنين بالله وبرسالته.

فمن يندد بمثل يوسف الصديق والإمام الرضا عليهما السلام كفقيه ينقد أئمة الفقه ورسله، إنه فى
الحق ليس له فقه بطبيعة الفقه ورسالته الجماهيرية، وفقه الإسلام الناصح هو فقه الحركات و
البركات، محلقا على كل فقه وفقهه، ومطبقا شرعة الله فى سياسته الجماهيرية والسلطة
الشرعية والزمنية، دون فكاك له عن السياسة، وهو الذى يفصلون الدين عن السياسة فى
الحق لم يعرفوا الدين ولا السياسة، وبهذه الجهالة فسحوا كافة المجالات القيادية الزمنية
لرجال السياسة غير الدينين، ورجال الدين هم فى الوقت نفسه وعاظ السلاطين، والفقهاء
الذين يحصرون الشرعة الإلهية فى مدارس وأوراق وحلقات الدروس وفى المساجد
وحفلات الوعظ والتعزية، التى هى تحت هذه السلطات السياسية الجهنمية.

إن الفقه الإسلامى لم ينشأ لينشئ أمة فى فراغ، ويعيش ويعيش فى فراغ، لا تتمثل فيه عناصر
المواقف الخاصة بأجوائها، والبيآت والملابسات التى ينشأ فيها، منعزلا عن السياسات
والملابسات والأحكام الزمنية، مدروسا فى فراغ مثالى لا يمثل فى المجتمع حتى نفسه.

لقد جاء الإسلام بشرعة كاملة الجهات ليحكم بها العرض الجغرافى فى الطول التاريخى، أ
فبالإمكان تطبيق هذه الشريعة بلا قيادات زمنية تتجمع فيها كافة الصلاحيات للحكم على
الشعوب؟! وكذلك كل شرعة إلهية فى كافة الرسائل، فلم يكن ليوسف الصديق- بعد
تمشيه فى هذه الطريق الملتوية الشاقة الطويلة- لم يكن له أن يبقى مكتوف اليدين عن أية
عملية إصلاحية، والجو الملكى يستقبله ويستدعيه: «وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي

¹ المصدر الكافي القمي باسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه لا قوام ...

فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ، وحين يصل أمره إلى ذلك المكانة والتمكين، عليه كواجب رسالى أن يرشد الملك إلى الأصلاح للشعب من المناصب المطروحة لديه ويقول: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ»¹.

و لئن سئلنا كيف بالإمكان تطبيق النظام الإلهي في التراكيب العضوية الجاهلية واللا دينية، فلا تحرك الشرعة الإلهية في ذلك التركيب العضوي العام إلّا ضدها، كما ولا تتحرك في فراغ، فلنصبر لإصلاح التركيب العضوي حتى يصلح الحكم على أساسه ولا يكون ذلك إلا في زمن المهدي القائم من آل محمد ﷺ! فالجواب أن الناس على دين ملوكهم، فالسلطة هي التي تصنع أعضائها وتراكيبها الصالحة مهما طال الزمن، ومهما ظلت بعض الأعضاء فاسدة، فما لا يدرك كله لا يترك كله! وإذا كان الإصلاح الرسالى قائما على أساس التركيب العضوي الصالح، وذلك الصلاح ليس إلا على ضوء الرسالات الإلهية، فهو الدور المصرح المستحيل، بل والرسالات التي تحمل أعباء الاصلاحات لا تحلّ إلّا في مجتمع فاسد هو بحاجة إلى إصلاح، وحملة الرسالات هم الذين يصنعون التركيب العضوي الذي هو من أسس الحكم، ثم يحكمون بحكم أوسع، كما صنعه الرسول ﷺ بادي بدء في العهد المكي، ثم في العهد المدني أنشأ دولة الإسلام بذلك التركيب الذي أنشأه من ذى قبل ووسّعه في المدينة.

و الصديق يرى الجو يومذاك صالحا لإصلاح ما حيث الحاجة إليه في الإصلاح الاقتصادي ذريعة تفرض عليه كونه على خزائن الأرض، ليمتلك بها قلوب أهل الأرض، فيحكم بشرعة الله في الأرض.

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧).

و كذلك، الذي فعله يوسف في رحلته الشاقة الطويلة، منذ البئر حتى البلاط الملكي مستخلصا للملك، و كذلك، الذي فعلنا بيوسف من تعليم الأحاديث وأنباء الغيب الرسالية،

¹ نور الثقلين في تفسير العياشي و قال سليمان قال سفيان قلت لابي عبد الله عليه السلام ما يجوز ان يزكي الرجل نفسه؟ قال: نعم إذا اضطر اليه اما سمعت قول يوسف «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ» و قول العبد الصالح: «وَ أَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ».

وإرائته برهاننا وصراف السوء عنه والفحشاء.

و كذلك، الذي فعله اخوته والعزیز وامراته ونسوة في المدينة، والذي ظن أنه ناج والملك. وحتى 'كذلك، المكانة التي حصلنا له في الجو الفرعوني، بهذه المعدات المثبتة المقدره المقررة من قبلنا.

كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ... مكانة مكينة، وإمكانية متينة، حيث يجعل على خزائن الأرض فيصبح عزيزا لحد يتوارى في ظله العزيز، فلا نسمعه حتى نهاية القصص إلا له، دون الذي اشتراه من مصر حيث يخاطبه إخوته: «يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا...» (٧٨) - (يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَ أَهْلَنَا الضَّرُّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعِهِ مُزْجَاءً...» (٨٨).

أ ترى العزيز الأول مات او قتل او عزل فاحتل الصديق مكاتته؟ لا فحسب بل وتوارى الملك ايضا إلا مرة: .. ما كان لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ...

أجل إن مكانة يوسف وإمكانيته في الأرض جعلته هو العزيز في كل المملكة لحد توارى كل عزيز من ملك فضلا عن العزيز! أ ترى تلك المكانة المرموقة ليوسف كانت من الله؟ فلما ذا تطلبه الصديق من الملك! أم كانت من الملك؟ فكيف ينسبها الله إلى نفسه! ولا دلالة هنا على أنه جعله على خزائن الأرض.

كَذَلِكَ مَكَّنَّا... تدل أن الملك استجابته إلى مطلوبه، وأنه كان من تمكين ربه، فالعبد يدبر و قد دبر الصديق بما قدم وما سئل، والله يقدر كما قدر تمكينه في الأرض بما دبر، مما يبرهن بوضوح أن سوله ذلك من الملك كان بمرضات الله تدبيرا، فكان من مرادات الله تقديرا، وتوافق الأمر ان في تمكينه في الأرض! حيث حول قلب الملك ووجهه إلى تلك الواجبه. فكان ما سأله وأراده الله.

نرى في طول الخط تتحول أسباب ذله إلى عزه برحمة خفية إلهية تجلت آخر أمره! فقد حسده إخوته فجعلوه في غيابت الجب ليغيب عن ذلك الإكرام والحب، فأخذته السيارة ليشروه للعزيز، فأكرم الله مثواه في بيت العزيز، وكادت به النسوة وامراه العزيز لإدخاله في صغار الفجور أو لِيَسْجَنَنَّ وَ لِيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ، فأصبح عزيزا في السجن، يوّل الروى، وقد جعله الله ذريعة لتخلصه عن التهمة وخلصه عن السجن، لحدّ يثنى الملك تطلبه إليه

ويستخلصه لنفسه، ويجعله على خزائن الأرض، فيتوارى في ظل عزته العزيز الذي أذله، وكل عزيز.

لقد مكن الله ليوسف أول مرة حين دخل بيت العزيز حيث قال لامرأته «أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣١) (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، (٢٢)). وكأنه آنذاك - فقط - تمكين الخلاص عن غيابت الجب إلى أرض البلاط، والتمكين العلمي والرسالي ولما يحن حين تمكين لسلطته الزمنية تطبيقا عزيزا لرسالته.

و لكننا الآن يمكنه بعد ذلك التمكين في الأرض، أرض المملكة وحواليها، لحد يتبوأ منها حيث يشاء، دون مشية فوقية تحده فيما يشاء، إذ أصبح مطلق الإختيار في كل أرض المملكة، كأن له السلطة العليا، ولم يكن الملك لو كان له كون - إذ ذاك - أو كيان، إلّا صورة فاضية وسلطة خاوية ليست له إرادة دون إرادته ولا مشيئة فوق مشيئته!

لقد تعاضدت أعضاد الدولة والملء بأسباب قاطعة وتظاهرت وتواترت لخفضه فلم يزدادوه إلّا عزا، ولم يكن إلا ما أراه الله، «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. ١٣٧ و هنالك حصحص حق الآية: «إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، (١٠: ١٠٧).

أ تراه لماذا «مَكَّنَّا لِيُوسُفَ، دون «مكناه، كما في آخرين في آيات أخرى؟:

إن التمكين له، أوسع مكانة وإمكانية من تمكينه، فقد مكن - بوجه عام - كل من في الأرض فيها: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ... (٧: ١٠) وهذا من تمكين إمكانية استعمار الأرض واستثمارها دون منع عنها وتمنع منها، ومن ثم مكانة فوقها تخص الماكن فيما يتوجب عليه دون إخراج او إخراج: «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ، (٢٢: ٤١) وهذا التمكين على قدر الماكن من تطبيق واجبه الشخصي، وآخر جماعي لا يحوجه إلى أكثر من تطبيق ما قل او كثر، دون حاجة إلى سلطة زمنية، وإلا لما وجبت هذه الأربع على الأمة، حال «وَلَتَكُنَّ

مِنْكُمْ أُمَّةٌ...!

ثم التمكين له، نراه في يوسف كما هنا، وفي ذى القرنين: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا» (١٨: ٨٤) حال أن فيه نفسه بالنسبة لصناعة السد، غير المحتاجة الى سلطة واسعة زمنية يقول:

«ما مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ» (١٨: ٩٥) دون «ما مكنى له».

و في السلطة العالمية للذين آمنوا «وَلِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ...» (٢٤: ٥٥) دون «نمكنهم في دينهم»، كما وفي وعد الإمامة ووراثه الأرض للمستضعفين المومنين: «وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَتُكِنُّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ» (٦: ٢٨).

و ذلك التمكين لهم هو السلطة الصالحة لأنبياء إسرائيليين، كموسى وداود وسليمان ومن تبعهم بإحسان، ويوسف هذا يقدمهم فيه: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ» وهو يسبق هو^١اء كلهم في ذلك التمكين المكين الأمين.

«وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ...» وليس فقط تبوء الدار المكان، بل وتبوء الإيمان ورفع أعلامه، فإن تبوء الدار حاصل لمن يشترها أيا كان، فذلك - إذا - تبوء وتمكن رسالة الإيمان على ضوء النبوة السلطة الزمنية، بإمكانية واسعة و مكانة شاسعة دونما تحدد أو تهدد!

«نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ، لَوْ أَنَّهُ يَشَاءُ وَيَعْمَلُ لَهُ فَيَصْلِحُ لِإِصَابَةِ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»^١ «وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ» «وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ، لَأَنَّهَا هِيَ دَارُ الْأَجْرِ وَالْجِزَاءِ، وَهِيَ دَارُ التَّكْلِيفِ وَالْبَلَاءِ لِلَّذِينَ آمَنُوا، لَا فَحَسَبَ الْإِيمَانِ كَعَقِيدَةٍ مَخْبُوءَةٍ فِي الْجَنَّةِ بَلْ وَكَانُوا يَتَّقُونَ، عَلَى طَوْلِ الْخَطِّ فِي مَعَارِكِ الْحَيَاةِ، يَتَّقُونَ الْمُحَاطِرَ فَرْدِيَّةً وَجَمَاعِيَّةً، وَلِيَرَفَرُوا أَعْلَامَ التَّقَى، وَيَخْفَضُوا مَنَارَاتِ الطَّغَى، وَمِنْ «رَحْمَتِنَا» هُنَا هِيَ جَمَاعٌ مِنْ

^١ في الإصحاح ٤١ من تكوين التورات تباعا لما سلف ما يلخص كالتالي: «ان فرعون استحسن كلام يوسف و تعبیره و أكرمه و أعطاه أمانة المملكة في جميع شؤها و خلع عليه بخاتمه و البسه ثياب بوض و وضع طوق ذهب في عنقه و اركبه في مركبه الخاصة و نودي امامه ان اركعوا و أخذ يوسف يدير الأمور في سني الخصب ثم في سني الجذب احسن ادارة.

المكانتين الروحية والزمنية كما حصل ليوسف و أضرابه، وليس كل المحسنين ليصابوها، وليس حرمان المحرومين عنها ضياعاً لأجرهم، فلهم أجرهم في الآخرة عياناً وبيانا، وأجرهم في الدنيا وبدون سلطة زمنية هو النصر الإلهية في غلب البرهان، والتصبر على كل حرمان في سبيل الإيمان: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ! فَاطْلُبُوا الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ كُلَّهُ وَتَعَرَّضُوا لِنَفْحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَفْحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ وَيُوْنِ رُوعَاتِكُمْ»^١.

و قد تلمح نصيب، بأن الجمع بينهما في الدنيا ليس إلا كصدفة قاصدة، من نشاء، حسب ما تقتضيه المصلحة الجماعية، ولسوف تصبح الرحمتان هامتان وعامتان ومنقطعتا النظير في زمن القائم المهدي من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين! من هنا تدور عجلة زمن سلطته الزمنية طوال السبع الأولى سنوات الرخاء، دون أن تذكر القصص ما هو دور الصديق فيها، ولا كيف أدار جهاز الدولة المخولة إليه، اللهم إلا ما أفاده من قبل: «إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ» ثم ولا يذكر العزيز ولا الملك إلا مرة مشيرة: «فِي دِينِ الْمَلِكِ فَضْلًا عَنْ رِجَالِ الْمَلِكِ وَالْحَاشِيَةِ، مِمَّا يَلْمَحُ أَنَّ الْأَمْرَ بِكَامِلِهِ وَكُلَّهُ صَارَ إِلَى يَوْسُفَ، بَارِزًا مَبَارِزًا عَلَى مَسْرَحِ الْحَوَادِثِ وَمَصْرَعِ الْكَوَارِثِ، كَأَنَّهُ هُوَ الْأَمْرُ النَّاهِي لَا سِوَاهُ، حَيْثُ يَضْطَلَعُ بِالْأَعْبَاءِ كُلِّهَا فِي الْأَزْمَاتِ الْخَائِفَةِ، فَقَدْ تَصَدَّقَ - عَلَى ضَوْءِ هَذِهِ التَّلْمِيحَةِ - الرَّوَايَةُ الْقَائِلَةُ بِعَدِّ مَقَابِلَةِ طَائِفَةٍ أَنْ قَالَ لَهُ الْمَلِكُ إِنَّ ذَلِكَ لَشَرَفِي وَفَخْرِي أَلَّا أُسِيرَ إِلَّا بِسِيرَتِكَ، وَلَا أَحْكَمَ إِلَّا بِحُكْمِكَ، وَلَوْلَاكَ مَا قَوِيْتُ عَلَيْهِ وَلَا اهْتَدَيْتُ لَهُ وَقَدْ جَعَلْتُ سُلْطَانِي عَزِيزًا مَا يَرَامُ وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّكَ رَسُولُهُ فَأَقِمْ عَلَيَّ مَا وَلَيْتَكَ فَإِنَّكَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ»^٢.

^١ الدر المنثور ٤: ٢٥- اخرج الحكيم الترمذي و ابن أبي الدنيا في الفرج و البيهقي في الأسماء و الصفات عن انس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: ...

^٢ لقد مضى ما يشبهه من التورات و الرواية في نور التقلين ٣: ٤٢٥ عن المجمع عن الطبرسي في كتاب النبوة بالإسناد عن احمد بن محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن الياس قال سمعت الرضا عليه السلام يقول: و اقبل يوسف على جمع الطعام في السبع السنين المخصبة مكبسة في الخزائن فلما مضت تلك السنون و اقبلت السنون المجدية اقبل يوسف على بيع الطعام فباعهم في السنة الاولى بالدراهم و الدنانير حتى لم يبق بمصر و ما حولها دينار و لا درهم الا صار في ملك يوسف. و باعهم في السنة الثانية بالحلي و الجواهر حتى لم يبق بمصر و ما حولها حلي و لا جواهر الا صار في ملكه، و باعهم في السنة الثالثة بالدواب و المواشي حتى لم يبق بمصر و ما حولها دابة و لا ماشية الا صار في ملكه، و باعهم في السنة الرابعة بالعبيد و

يا عظماه كيف يصبح العبد السجين مالكا لمولاه فيعبده لله؟ اجل وان الحر حر على جميع احواله، ان نابته نائبة صبر لها وإن تداكت عليه المصائب لم تكسره، وإن أسر وقهر واستبدل بالعسر يسرا كما كان يوسف الصديق الأمين عليه السلام لم يضر حرите ان استعبد وقهر وأسّر، ولم يضره ظلمة الجب وحشته وما ناله- أن من الله عليه فجعل الجبار العاتى له عبدا بعد أن كان له مالكا فأرسله ورحم به أمة، وكذلك الصبر يعقب خيرا، فاصبروا ووطنوا أنفسكم على الصبر توجروا.¹

ج سورة يوسف (١٢): الآيات ٥٨ الى ٢٨ ج

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْتَقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا

الإمام حتى لم يبق بمصر و ما حولها عبد و لا امة إلا صار في ملكه و باعهم في السنة الخامسة بالدور و الفناء حتى لم يبق في مصر و ما حولها دار و لا فناء إلا صار في ملكه، و باعهم في السنة السادسة بالمزارع و الأنهار حتى لم يبق بمصر و ما حولها نهر و لا مزرعة إلا صار في ملكه و باعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر و ما حولها عبد و لا حر إلا صار عبدا ليوسف-

فملك احرارهم و عبيدهم و أموالهم و قال الناس ما رأينا و لا سمعنا بملك أعطاه الله من الملك ما اعطى هذا الملك حكما و علما و تدبيرا، ثم قال يوسف للملك: ما ترى فيما حولني ربي من ملك مصر و أهلها؟ اشر علينا برأيك فإني لم أصلحهم لأفسدهم و لم انجهم من البلاء ليكون وبالاً عليهم و لكن الله نجاهم على يدي، قال الملك: الرأي رأيك. قال يوسف: اني اشهدك ايها الملك اني قد اعتقت اهل مصر كلهم و رددت عليهم أموالهم و عبيدهم، و رددت عليك الملك و خاتمك و سريرك و تاجك على ان لا تسير الا بسيرتي و لا تحكم الا بحكمي، قال له الملك: ان ذلك ...

¹ نور الثقلين ٣: ٤٣٤ ح ١٠٨ في اصول الكافي باسناده عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول ...

مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ مَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ
 فَلْتَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
 شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَعْلَمُونَ (٦٨) وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا
 الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَ
 لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ رَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَ
 مَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي
 رِحْلِهِ فهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا
 مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ
 دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَكَ مِنْ قَبْلُ
 فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يَبْدِهِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)
 قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ
 مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا
 نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي
 يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)
 ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَ مَا كُنَّا لِلْغَيْبِ
 حَافِظِينَ (٨١) وَ سَأَلَ الْقَرِيئَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَ الْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) وَ جَاءَ
 إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨).

بين مجيئهم هذا ومجيئهم يومذاك ليجعلوه في غيابت الجب أمة بعيدة من الزمن، عليها لا
 تقل عن عشرين عاما^١ وبعد ما يجتاح الجذب والمجاعة مصر وما حولها بكنعانها، فيحتاج

^١ فيبينه و بين ان بلغ أشده في بيت العزيز سنة او سبع سنين إذ كان حين اشتراه العزيز قرابة التسع ثم بضع السجس سبع، ثم السبع
 الأولى و هي سني الرخاء.

أهلوها إلى فائض غلة مصر المتسامع أنه من السبع السمان الرخاء،^١ (جاء إخوة يوسف وطبعا في أوليات سنّي السبع الشداد! وما نحن ممن نشهدهم أولاء فدخلوا عليه، ويا لروعة المشهد حينذاك بعد هذا الفصل الطويل؟ أظن أنه لا يعرفهم كما لا يعرفونه؟ كلا! فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ.

تراه كيف عرفهم والفصل طائل، وسعار الملك حائل؟ إنه عرفهم، كما هي طبيعة الحال في كل مظلوم يعرف ظالمه مهما طال الزمن وتطاوت المحن، فضلا عن يوسف النبي حيث يعرف الأغارب بسيماهم فضلا عن الأقارب، ومن ثم فهذه معرفة قاصدة إلى تعرف أبويه بمكيدة إلهية، ان يوسف قد اجتباه الله كما في تأويل رُوَاه، ينبه بذلك أباه، ثم ولم يكن من هوّاء الملوك الذين يزدهون بزهوة الملك، فيحول بينه وبين إخوته سعاره وكباره! و

^١ و هنا تستمر التورات في الاصحاح ٤٢-٤٣ من التكوين القصص ما تلخصه كالتالي: انه لما عمت السنة ارض كنعان امر يعقوب بنيه ان يهبطوا الى مصر فيأخذوا طعاما فساروا و دخلوا على يوسف فعرفهم و تنكر لهم و كلمهم بجفاء و سألهم من اين جنتم؟

قالوا: من ارض كنعان لنشتري طعاما قال يوسف: بل جواسيس انتم جنتم الى أرضنا لتفسدوها قالوا: نحن جميعا أبناء رجل واحد في كنعان كنا اثني عشر أبا قدمنا واحد و بقي أصغرنا ها هو اليوم عند آبينا و الباقون بحضرتك و نحن جميعا أمناء لا نعرف الفساد و الشر- قال يوسف: لا و حياة فرعون نحن نراكم جواسيس و لا نخلي سبيلكم حتى تحضرون أخاكم الصغير حتى نصدقكم فيما تدعون فامر بهم فحبسوا ثلاثة ايام ثم أحضرهم و أخذ من بينهم شمعون و قيده امام عيونهم و اذن لهم ان يرجعوا الى كنعان و يجيبوا بأخيهم الصغير- ثم امر ان يملأ أو عيئهم قمحا و ترد فضة كل واحد منهم الى عدله ففعل فرجعوا الى أبيهم و قصوا عليه القصص فأبى يعقوب ان يرسل بنيامين معهم و قال: اعدمتوني الأولاد يوسف مفقود و شمعون مفقود و بنيامين تريدون ان تأخذوه لا يكون ذلك ابدا و قال: قد اسأتم في قولكم للرجل: ان لكم أبا تركتموه عندي قالوا: انه سأل عنا و عن عشيرتنا قائلا: هل أبوك حي بعد؟ و هل لكم أخ آخر! فأخبرناه كما سألنا و ما كنا نعلم انه سيقول: جيبوا إلي بأخيكم، فلم يزل يعقوب يمتنع حتى أعطاه يهوذا الموتق ان يرد اليه بنيامين فانذ في ذهابهم به و معهم و أمرهم ان يأخذوا من احسن متاع الأرض هدية الى الرجل و ان يأخذوا معهم اصرة الفضة التي ردت إليهم في أو عيئهم ففعلوا.

و لما وردوا مصر لقوا وكيل يوسف على أموره و اخبروه بحاجتهم و ان بضاعتهم ردت إليهم في رحالهم و عرضوا له هديتهم فرحب بهم و أكرمهم و أخبرهم ان فضتهم لهم و اخرج إليهم شمعون الرهين ثم أدخلهم على يوسف فسجدوا له و قدموا اليه هديتهم فرحب بهم و استفسرهم عن حالهم و عن سلامة أبيهم و عرضوا عليه أخاهم الصغير فآكرمه و دعا له ثم امر بتقديم الطعام فقدم له وحده و لهم وحدهم و لمن عنده من المصريين وحدهم- ثم امر وكيله ان يملأ أو عيئهم طعاما و ان يدس فيها هديتهم و ان يضع طاسه في عدل أخيهم الصغير ففعل فلما أضاء الصبح من غد شدوا الرجال على الحمير و انصرفوا.

فلما خرجوا من المدينة و لما يبتعدوا قال لوكيله أدرك القوم و قل لهم: بنس ما صنعتم جازيتم الإحسان بالاساءة سرقتم طاس سيدي الذي يشرب فيه و يقال به: فبهتوا من استماع هذا القول و قالوا: حاشانا من ذلك هوذا الفضة التي وجدناها في أفواه عدلنا جننا بها إليكم من كنعان فكيف نسرق من بيت سيدي فضة او ذهب من وجد الطاس في رحله يقتل و نحن جميعا عبيد سيديك فرضي بما ذكروا له من الجزاء فبادروا الى عدو لهم و انزل كل واحد منهم عدله و فتحه فأخذ يفتشها و ابتداء من الكبير حتى انتهى الى الصغير و اخرج الطاس من عدله.

فلما رأى ذلك اخوته مزقوا ثيابهم و رجعوا الى المدينة و دخلوا على يوسف و ادعوا عليه قولهم معتذرين معترفين بالذنب و عليهم سيماء الصغار و الهوان و الخجل فقال: حاشا ان تأخذ الا من من وجدنا متاعنا عنده و اما أنتم فارجعوا بسلام الى أبيكم فقدم اليه يهوذا و تضرع اليه و استرحمه و ذكر له قصتهم مع أبيهم حين أمرهم يوسف بإحضار بنيامين فسألوا أباهم ذلك فأبى أشد الأباه حتى أتاه يهوذا الميثاق على ان يرد بنيامين اليه و ذكر انهم يستطيعون ان يلاقوا أباهم و ليس معهم بنيامين و ان أباهم الشيخ لو سمع منهم ذلك لمات من وقته ثم سأله ان يأخذه مكان بنيامين عبدا لنفسه و يطلق بنيامين لتقر بذلك عين أبيهم المستأنس به بعد فقد أخيه من امه يوسف ...

هُم لَهْ مُنْكَرُونَ، كما أنكروه حين جعلوه في غيابت الجب، وهم الآن لا يخلد بخلدهم أنه حى، وحتى في حياته فأين غلام عبرانى يشرى بثمان بخرس دراهم معدودة وذلك الملك العظيم فى هيله وهيلمانه وحيطة واسعة له من غلمانه، ومهابة مهيبة لسلطانه، وحتى لو عرفوه ف هُم لَهْ مُنْكَرُونَ، أن يعرفهم وهم ظالموه وهو فى سطوته وجبروته! وقد أخبره الله تعالى بذلك من ذى قبل وهو فى غيابت الجب كأول ما أوحى إليه، لَتَبَيَّنَّهُمْ بِأَثَرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وذلك إنباءهم بما فعلوا بيوسف وهم لا يشعرون، هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ، (٨٩)؟ فأتى لهم معرفته من قبل إذ واجهوه لأول مرة ولما يعرفوه بزمن بعدها؟! فى ذلك المشهد الرائع ليس يوسف ليكشف عن نفسه ولا يلمح لهم بحاله إذ لا بد لهم منذ لقاءه من دروس يدرسونها، وبيات يتلون بها بما قدمت لهم أنفسهم، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِى بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَمْ لَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوْفِى الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩).

جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ الذى كانوا يطلبون وفق بضاعتهم، وطبعا طلب إليهم تعريفهم بأنفسهم وأهلهم حتى يفصح بقوله: أَتُنُونِى بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ، فإن فى إفصاحه دونما استفساره تلميحا لهم فاستلهم منهم أنه من هو؟ وعليه فى ذلك المسرح التخفى عن كل ملمح ليكيد كيده، فقد أنزلهم لما جاءوه خير إنزال، وتركهم يأنسون إليه بكامل الأنس، واستدرجهم حتى عرفوه بأنفسهم لحد عرف أن لهم أخا من أبيهم لم يأتوا به، فلما جهزهم بحاجيات الرحلة بإيفاء كيل وخير إنزال، قَالَ أَتُنُونِى بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ، ولما تلمح منهم أن أباهم ضنين عليهم بأخيهم، ظنين، وبخاصة بعد افتقاد يوسف أخيه، فليس أمره ميسورا لهم، يثنى دعوته

^١ نور الثقلين ٢: ٤٢٨ فى تفسير العياشى عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يحدث قال: لما فقد يعقوب يوسف عليه السلام اشتد حزنه عليه و بكائه حتى ابيضت عيناه من الحزن و احتاج حاجة شديدة و تغيرت حاله و كان يمتاز القمح من مصر فى السنة مرتين فى الشتاء و الصيف و انه يعث عدة من ولده ببضاعة يسيرة الى مصر مع رفقة خرجت فلما دخلوا على يوسف و ذلك بعد ما و لاه العزيز مصر فعرفهم يوسف و لم يعرفه اخوته لهيبة الملك و عزته فقال لهم هلموا بضاعتكم قبل الرفاق و قال لفتياناه عجلوا لهواء الكيل و أوفروهم فإذا فرغتم فاجعلوا بضاعتهم هذه فى رحالهم و لا تعلموهم بذلك ففعلوا ثم قال لهم يوسف قد بلغنى ان لكم اخوان لأبيكم فما فعلا؟ قالوا: اما الكبير منهما فان الذئب اكله و اما الصغير فخلفناه عند أبيه و هو به ضنين و عليه شفيق قال: فاني أحب ان تأنوني به معكم إذا جنتم لمتارون «فإن لم تأنوني به...»

بتأكيد فى ترغيب: «أَ لَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ، فَلَكُمْ إِيفَاءَكُمْ وَلَهُ إِيفَاءُهُ ففیه المزید وكما قالوا بعد: «وَ نَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ». وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ، منقطع النظر فى إنزال المراجعين وتكریمهم، فلا خوف إذا من بخس مكیال ولا ركس فى مقال أو حال.

و هنا «خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» يعصف بتهمة إياهم بالتجسس عبر الرياح خلافا لما يروى، وكما فى التورات، ولأن إيفاء الكيل لا يلائم رواية الزيادة لأخيه وأبيه وهذه سنة سنیه لاجتلاب القلوب واجتذاب العواطف العادیه أو المتفلة، لترجع إلى طلبه موفى الكيل وخير المنزلين، مهما كانت العقبات والصعوبات والالتواءات ثم يود تأكيد بهتديد:

فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) لا كيل فضلا عن إيفاءه، ولا إنزال فضلا عن خيره، كلمة قاطعة ملكية لا مرد لها أبدا، جامعة بين الترغيب والترهيب! ولذلك تراهم يتقبلون عبء الإتيان بأخيه من أبيهم ضرورة المعيشة فإن الضرورات تبيح المحظورات!:

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١).

هناك تراوده امرأة العزيز عن نفسه، وهنا إخوته يراودون عن أخيه أباه، وأنى مراودة من مراودة؟ ومراودتهم هذه فى مختلف احتمالاتهم لاستلاب بن يامين كوعد قاطع منهم ليوسف لا مرد له، «وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ»، المراودة المثمرة والإتيان به فى المرة الآتية. وأباه، هنا دون أبانا، تلمح أنهم عرفوه بأبيهم وأخ لهم من أبيهم هو أحب إلى أبيه منهم، ولذلك لم يصاحبهم فى رحلتهم هذه، مما يود أنه سألهم عن حالهم وبالهم، حاضرهم وغائبهم، وهو طبيعة الحال فى مثل ذلك اللقاء المقصود.

و ليود الصديق واقع مطلوبه منهم، ويشجع أباه على إزالة العقبات دون السماح لمجيئه يرجع بضاعتهم بصورة خفية إليهم:

وَ قَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢).

من هنا يبدأ كيد الله ليأخذ الصديق أخاه وليبلغ مناه، كذلك كيدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله... (٧٦)! فلا تثريب على يوسف أو تعيب لماذا كادهم ذلك

الطائل الغائل، حيث كان بمرضات الله وإرادته شرعة وتكويناً.

وقال، يوسف لفتيانه، عبيده وغلماؤه اجعلوا بضاعتهم، التي سلموها لجهازهم، فى رحالهم، وطبعاً بصورة خفية وغير مرئية لعلهم يعرفونها إذا أنقلبوا إلى أهلهم فإنها التي أدوها، فبطبيعة الحال يعرفونها، على احتمال بعيد ألا يعرفوها أنها هبة، ولذلك نترجى قريباً لعلهم يعرفونها... فإذا عرفوها تشوقاً لرجوعهم مع أخيهم من أبيهم بداعيةً ثالثة إضافة إلى ذلك الترغيب والترهيب سلفاً لعلهم يرجعون.

و«العل» الثانية فى ترجيها، علها ترمى هدفين، أولهما تعلقها ب«العلهم» يعرفونها، حيث الترغى لا يخلف إلا ترجياً مثله، وثانيهما تعلقها بواقع المعرفة، فقد يعرفونها، ومع الوصف لا يرجعون، أم لا يستطيعون، فما أحسنه تعبيراً أدبياً فى حساب المستقبل إذ لا يحتم شيئاً من الأمرين إلا رجاء على رجاء.

فها هم الآن يرجعون إلى أهلهم ومعهم بضاعتهم فى رحالهم وجهازهم بإيفاء كيل وخير إنزال مما يرغبهم، ولكنهم على وعد أن يأتوه بأخيهم مما يرغبهم، عائشين فى هذا البين بين الخوف والرجاء، متشاورين فى طريقهم كيف يراودون أباهم عن أخيهم، وسابق مرادتهم إياه عن يوسف قد يحول بينه وبين هواهم! هنا ندع يوسف فى مصره، ولنشهد مشهد الجمع بينهم وبين أبيهم ماذا يقولون وكيف يفعلون؟

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣).

فى هذه المرة لا تعنى المرادة احتيالا لاغتيال، وإنما اكتيالا لأنفسهم وآخر لأخيهم، ولماذا هنا يتقدم «منع من الكيل»، وهو الأخير فى ترهيب بعد ترغيب؟ علله لأنه الحاسم لموقفهم والمحرض لسؤلهم: لماذا منع الكيل؟ ثم الجواب يضم الأولين: «أنى أوفى الكيل وأنا خير المُنزِلين»، وقد يعنى «منع» فيما عناه كيل أخيهم أم أبيهم، فمهما كان أبوهم شيخاً كبيراً لا يأتبه، فأخوهم لا يعذر إذا لم يأت به فلا كيل له، وقد يشير له «وَنَزِدَاكَ كَيْلًا بَعِيرًا».

ولو لا عرضهم لما حصل عن تفصيل لم تكن صلة مقبولة بين منع الكيل وإرسال الأخ للاكتيال، وهنا «أخانا، دون ابنك، مزيد تأكيد لإرساله بتعطف أخوى، وتأكيد ثانٍ، وَإِنَّا لَهُ

لحافظون..

و هم بذلك الطلب العارم الجازم يستثيرون كوامن يعقوب حيث وعده من قبل فى يوسف نفس الوعد بنفس الصيغة، وقد خالفوه! فكيف يأمن لهم بسابق كيدهم وميدهم؟ ولذلك نجده: ١٥٢

قَالَ هَلْ أَمَّنُّكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَّنْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۖ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤).

خلونى خلونى من وعودكم الفارغة وكلماتكم البارقة، والعاقل لا يلدغ من حجر مرتين، و قد لدغت لأول مرة والجرح لما يندمل، فقد أمنتكم على أخيه من قبل حين صدقتكم، فكيف آمنكم عليه الآن، ثم وليس وعد الحفظ منكم بالذى يؤننى ولو كنتم صادقين، إذ قد تنجرفون بعد صدق أو يحاط بكم على صدق، فالله خير حافظاً، من سواه، وهو أرحم الراحمين، سواه، فقد لا ترحمونه وهو الراحم، أم ترحمون ويحاط بكم، واللّه غالب على أمره..

إنه خير حافظاً، له ولأخيه، وهو أرحم الراحمين، به وبأخيه، فكيف تقولون فى بت وقاطعية، وإنا له لحافظون؟

و قد يشير بحفظ الله ورحمته بعد التنديد بهم فى وعدهم لبعديه^١ أنه لو أرسله معهم فليس إلا امتحانا وإيماننا بحفظ الله، دون وعدكم البارق الفارغ.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥).

هنا يتبعون بضاعتهم المردودة إليهم لحجة على ما يدعون ويعدون:

قالوا يا أبانا، نحن وأخينا، ما نبغى، بعد من العزيز وقد أوفى لنا كيلنا دون بضاعة حيث ردها خفية، وأنزلنا عنده خير إنزال، ووعدنا مزيدا، ف، هذه، التى تراها وتعرف هى، بضاعتنا ردت إلينا، ثم من بعد ذلك إذا أرسلت معنا أخانا، نمير أهلنا، ميرة الزاد فلا يظنون جياعا، ونحفظ

^١الأول هل أمنكم والثاني لستم أنتم بحافظين إذ قد يحاط بكم.

أخانا، هنا من الجوع وهناك من أية حادثة، كيف لا وهو عزيز على العزيز، فحتى ولو أردنا به سوء فهو المدافع عنه، ثم «وَزَادُوا كَيْلَ بَعِيرٍ» لأخينا وذلك الميرة والزيادة كيل، هو «عَلَيْنَا يَسِيرٌ» غير عسير.

و هذه محاولة تضم في جنباتها ترغيبات وترهيبات، ان كان يعقوب يحب البقية على العائلة ومنهم بنيامين فلا بد له أن يرسله معهم.

و قد يعنى «يسير» فيما يعنيه - يسير من العزيز الذى رد علينا بضاعتنا، ام ويسير قليل، وهنا ذلك، يعنى غير ما عناه «ذلك، هناك، فإنه هنا ذلك» الذى أعطانا من قبل كيل علينا، على كثرنا «يسير، قليل، وهو إذا أرسلت معنا كثير حيث «وَزَادُوا كَيْلَ بَعِيرٍ».

يبدو هناك من قولهم «أرسله معنا نكتل»، وهنا «نَمِيرُ أَهْلُنَا ... وَ زَادُوا كَيْلَ بَعِيرٍ» أنهم اعتبروا أخا يوسف متاعا لهم فى حاجة مدقعة يسهلون به ميرة الزاد لأنفسهم ثم «وَزَادُوا كَيْلَ بَعِيرٍ» وكما يوسف من قبل «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً وَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَاهِدِينَ» فكل غال ورخيص عندهم فيما يهوونه رخيص بخيس.

كما ويبدو من «وَزَادُوا كَيْلَ بَعِيرٍ» أن يوسف عليه السلام كان يعطى كل من حضر كيل بعير، دون ان يبيع المشتري كل ما يريد، وإنما لكل رأس شرط الحضور، او التأكد من محظور لعدم الحضور، وتلك حكمة حكيمة فى سنن الجذب والمحاصرة الاقتصادية، تنظم بها نظام العيشة العادلة للشعب، دون أن تتحكم فى مزيد الميرة زيادة مال، او قوة وجلال.

أ ترى نبي الله يعقوب هل يستسلم بغيه ما يرمون من هدف الميرة وزيادة كيل بعير؟ وهل إن طلب المعاش يبرره هدر نفس محترمة له سابقة من قبل كما فى يوسف؟ كلا! قال «لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» (٦٦) ف «لن» تحيل إرساله معهم على أية حال، فليس نبي الله يعقوب بالذى يجعل ابنه متاعا لميرة حتى عند الضرورة، فضلا عن هدره نفسا، علما أو ظنا، ولكنه يرسله على شرط يصرح به «حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ» دون أية إشارة إلى ميرة الأهل وازدياد كيل بعير ببضاعة أو دونها.

أ تراه كيف يرسله معهم بموثقهم ولا ميثاق لهم كما تبين له من قبل؟ عله لما كان يعلمه

بتأويل رُوَاهُ: «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ، أَنْ يَوْسُفُ مَوْجُودِ الْآنَ بَعْزُهُ، أَوْ أَنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ، فَبَارِقَةُ الرَّوِّ بِبَارِقَةِ النَّبِوَةِ خَارِقَةٌ تَخْرُقُ حِجْبَ الْغَيْبِ عَنِ يَوْسُفَ وَبَعْدَ زَهَاءِ الْعَشْرِينَ.»
ثم «اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.» - «وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ،» سياجان على ما قد يحاط به أو بهم، وهذه الثلاث يصاحبها في هذه السفره طلب الميره الضرورية، مما يرجح له أن يرسله معهم.

و ترى ما هو «مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ،» حيث يعتبره أصلا يحول مستحيله:

لن، إلى ممكنه الراجح حيث أرسله؟ ثم «وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ،» دليل أن موثقهم قول يوثق به، ولا يوثق بقول ما لم يرتبط بالله من حلف بالله أو عهد مع الله، ولذلك فالوكيل أيضا هو الله، وثقة يعقوب بموثقهم وقد نقضوه من قبل عليها لأنهم تحولوا عن حالتهم الأولى إلى الحسنى، ثم ولم يكن منهم فيها موثق إلا «إِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ.» كعاهده معه لا مع الله. و على أية حال أصبح واثقا بموثقهم بسائر الوثائق التى تحوطه لحد يرسله معهم غير مجازف ولا هارف أو خارف، وإنما إرسال نبي على بصيره مما يجوز عما لا يجوز.

و لماذا «اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ،» دون «شهيد؟» عله لأنه يعنى رباط موثقهم بالله فى تحقيقه، كما نيظ بالله فى عقده «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.»

فإرساله - إذا - كان على ضوء شرعه الله، والتكلان فيه على الله، فمهما لا يأمنهم يعقوب على ابنه فهو مَوْثِقٌ بالله متكل على الله فيما يقدم عليه، وقد سمح له فى شرعه الله، فليس الاتكال على الله مما تتعامى معه الأسباب وتبطل ولا التوسل بالأسباب مما يغنى عن الله، فإنه على كل شىء وكيل، وهو القائل «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ،» بجنب القول «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا»
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

لذلك نرى نبي الله يعقوب يأخذ فى إرساله ابنه بكل حائطه، دون اتكاليه فيها إبطال الأسباب والتغاضى عنها، ودون تحميم عليهم أن يأتوه به باستقلال الأسباب، فمحاولة منهم كما يقدرون «إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ،» فلا تستطيعون حيطه بكم فلا ترجعون، أم لا يرجع أخوكم، فإنما المحذور التقصير فى واجب الإتيان به لا القصور.

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ

مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧).

و ترى ما هو باب واحد وأبواب متفرقة؟ هل هي أبواب القصر؟ فما هو الفارق بين دخولهم من أبواب متفرقة أم باب واحد كما دخلوا من ذى قبل، أما هيه من أبواب؟ قد تعنى أبواب القصر المتفرقة خوفاً من عين او حسد، ان يحاط بهم جميعاً أو الثلاثة كلها فإنها كلها مخيفة، إلا أن «ما كان يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، لا تلائم الأولين، إذ لم يحسدوا ولا اخذتهم عين، بل أحيط بهم فى أخيبهم.

«وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ دَلِيلٌ عَلَى خِيفَةٍ مَا عَلَيْهِمْ لَا مَرَدَّ لَهَا، وإن الحكم - المتوكلون، تبصرة لهم منه أن هذه الحائطة ليست لتغنى عنكم من الله من شيء، ولكن التوسل بالأسباب لزام كل سلب وإيجاب، على علم أنه «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، لا للأسباب، لذلك و عليه، لا سواه «فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ، فالمسموح لنا إنما هو التوسل بالأسباب، لا والتوكل عليها، بل هو على الله ف «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ».

فالإتكال - الاستقلال - على الأسباب إشراك بالله، والاتكال على الله فيما له أسباب دون توسل بها انعطال لها يخالف أمر الله: «وَأَتَّبِعُوا لِيَّهِ الْوَسِيلَةَ، ويخالف تكوين الأسباب فى دار الأسباب، فإنما هو توسل صالح بالأسباب المناسبة المعنى لما تروم متوكلاً على الله، عارفاً بأنه «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ».

ف «العين حق»^١ وتأثير الحسد حق: «وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، شراً بفعله عن حسد، ام تأثيراً من نفس الحاسد وكما تور العين، فليست أسباب الشر لتتخصص فى أعمال الجوارح، وتنحصر عن أعمال الجوانح، بل هى أقوى منها أحياناً، وكلما كانت الأرواح أقوى فى خير أو شر فتأثيراتها كذلك أقوى من خير أو شر، فى تقوى أم طغوى.

^١ بتفسير الفخر الرازي ١٨: ١٧٣ قوله صلى الله عليه وآله و العيين حق و لو كان شيء يسبق القدر لسبقت العين القدر» و فيه ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعوذ الحسن و الحسين فيقول: أعينكما بكلمات الله التامة من كل شيطان و هامة و من كل عين لامة، و فيه روى عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فى أول النهار فرأيتته شديد الوجع ثم عدت اليه آخر النهار فرأيتته معافى فقال: ان جبرئيل عليه السلام أتاني فرقاني فقال: بسم الله أرقبك من كل شيء يؤيك و من كل عين و حاسد الله يشفيك قال صلى الله عليه وآله فأفقت و فيه روى ان بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلماناً بيضاً فقالت أسماء يا رسول الله ان العين إليهم سريعة فأبسترقي لهم من العين فقال صلى الله عليه وآله لها: نعم و فيه دخل رسول الله صلى الله عليه وآله بيت ام سلمة و عندها صبي يشتكي فقالوا: يا رسول الله أصابته العين فقال: أ فلا تسترقون من العين. و فى المجمع عن النبي صلى الله عليه وآله ان العين حق و العيين تستنزل الحالق.

و لئن سئلنا كيف تَوُر العين وأضرابها وَإِنَّ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ؟ فالجواب أن لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، فكما أن سائر الشرور من سائر الأشرار ليس ليمنعها الله تكويننا إلا لحكمة كما في نار إبراهيم، كذلك شر العين والحسد أماذا.

و مع كل هذه التفاصيل في تأثير العين والحسد، فلا عين ولا أثر من عين ولا حسد إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها:

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوِّ عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨).

دخولهم من حيث أمرهم أبوهم من أبواب متفرقة، ما كان يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، حيث أحيط بهم في أخيهام من أبيهم، بل وهكذا دخول فصح المجال ل «حاجة في نفس يعقوب قضاها، وهو لقا يوسف ولا معدله ظاهريا إلا «أوى إليه أخاه، وليس أمرا عاديا إلا أن يدخل هو من غير الأبواب التي دخلوها، فله أن يستقبل أخاه ويؤويه إليه دونهم من حيث لا يعلمون، ثم «وَإِنَّهُ لَدُوِّ عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ، قد لا تمت بصلة لحاجة في نفس يعقوب إلا أن يكون لقا يوسف مما علمه كخليفة من خلفيات إرسال ابنه ودخولهم من أبواب متفرقة، وهنا يتأكد انه لم يرسله لمجرد موثقهم ليأتمته به.

أما أن دخولهم من أبواب متفرقة مخافة عين أو حسد أو حيطه، هو - فقط - «حاجة في نفس يعقوب قضاها، فلا يناسب «وَإِنَّهُ لَدُوِّ عَلِيمٍ، وهو كسبب ل «حاجة، وتعليل لها، ولا أن حاجته قضيت بذلك إذ «ما كان يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، وليست هذه الحائطة التي تخلفت عن النتيجة حاجة مقضية.

إذا فاللامح من جنبات الآية هو أن دخولهم من أبواب متفرقة قضى حاجة في نفس يعقوب، حيث سهل أمر المكيدة الصالحة ليوسف في إبقاء أخيه عنده وإلى لقا والديه معه. ١٥٨ «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، أن هذه الأسباب والحيطات في ترتيبها لا يغني عن أصحابها من الله من شيء ف «إِنَّ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، وأن دخولهم هكذا قضى حاجة في نفس يعقوب، وأن يعقوب «لَدُوِّ عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ، من طريقة لقضاء حاجته.

و احتمال آخر هو الآخر، أن دخولهم كما أمر ما كان يغني إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها

دون أن يعلم، فقد قدم حيلة لرجوع ابنه ما لم يقضه، بل قضى حاجته الأصلية دون أن يعلم،
«وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ...» إذا يعنى ان أمره أيا كان كان عن تعليم إلهى مهما لم يعلم أن النتيجة هى
حصول أصل الحاجة.

و هذه من الرحمات الخفية الإلهية أنه قد يتلى عباده الصالحين بما ظاهره العذاب ولكن
باطنه من قبله الرحمة، يطلب أمرا ويدعو له ويقدم للحصول عليه كل إمكانياته، ويقضى الله
له أمرا آخر دونه وهو حاجة أصلية، وما تطلبه بالنسبة لها كمقدمة من حيث هو لا يعلمها.
و هنا ندرس أآ مغنى عن الإنسان أيا كان من الله من شىء فى الأسباب التى يتوسل بها،
حيث الإذن تكويننا فى كل خير أو شر انما هو من الله ف «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، دون أية علة أو
اسباب، فهو تمام العلل وتمامها، كما هو خالقها ومعللها، دون ان يكون هناك جبر كما لا
تفويض، وانما امر بين أمرين.

كما وندرس ان على الإنسان تقديم كافة المحاولات والإمكانيات والحائطات للوصول الى
مرامه ومرامه دون استقلالية فيها ولا اتكالية عليها ولا على الله بترك الأسباب، اللهم إآ فيما
لا حول له ولا قوة فالدعاء من الله والاستدعاء.

و أخيرا ندرس من «لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، أن الحائطة فى قضاء الحاجة، لا سيما الملتوية
الخطرة، أن توى من أبواب متفرقة، فان سدت باب أو أبواب، فهناك أبواب أخرى أو
باب.

و هذه الحائطة الحكيمة تحلق على كافة المتطلبات الهامة سلبا وإيجابا، فالذى عنده نقود
يخاف عليها، عليه أن يحافظ عليها فى مكانات متفرقة، حتى إذا سرقت ام ضاعت من مكان،
نظل البقية الباقية محفوظة.

إذا فهذه الحائطة ضابطة سارية المفعول فى كل الحقول، تبعد عاملها عن الخسار، ويقربه
إلى اليسار، كسبب ظاهرى، والله من وراءه حفيظ.

«وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩).
«وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ، من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم، وطبعا من إحدى عشر بابا
«آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ، من أبويه، أ تراه يعجل بإيوائه قبل استقبالهم جميعا وقبل كل شىء، و فور

دخولهم عليه؟ لا شك ان ذلك أول خاطر يساور يوسف عند دخولهم عليه وروته لأخيه بعد الفراق الطويل، ولا يكاد يصبر لشيء إلا أن يوبه إليه، ففي دخولهم عليه من أبواب متفرقة- وهو عليهم رقيب- مجال له غير مريب أن يوبه إليه أخاه قبل أن يستقبلهم، وقد آواه وكلمه غير طائل: «قال إني أنا أخوك، تعريفا له بنفسه في تأكيدات ثلاث، وفرع عليه: فَلَا تَبْتَسِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، فاترك كل أسي وبوبه بما كانوا منذ ذلك الزمن الطويل يفعلون بي وبك وبأبينا، فقد حظوت الحظوة التي رأيتها في روبي وأولها أبونا» وكذلك يَجْتَنِبُكَ رَبُّكَ ...»

هنا يطوى السياق كلما حصل مما ليس له أصل في القصص وعبرة لأولى الأبواب، ليواصل ماله أصل، وهو الدرس الذي يلقيه على أخوته ليعتبروا به إن كانوا من أولى الأبواب. فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُوْسَىٰ ذُنَّ أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠).

السقاية هي المشربة وطبعا كان لها قيمتها الغالية، لولاها لم يوبه موسى بما أذن حيث الرخيص لا أذان فيه عند الملك الذي يرد عليهم بضاعتهم من ذي قبل، فلتكن ذهيته مرصعة أماهيه؟

و الرحل هو ما يوضع على البعير للركوب والحمل، والعيير هم القوم الذين معهم أحمال الميرة أماهيه، اسما للرحال والجمال الحاملة للأحمال ميرة وغير ميرة، فليس العير حميرا لذلك ولمكان لمن جاء به حمل بعير، خلاف ما يروى، وكما في التورات. و هنا جاعل السقاية هو يوسف حيث الضمائر المفردة كلها راجعة إليه، ولكن المون هو غيره لمكان مون، دون أذن، كما جعل، وليس مون- بطبيعة الحال- يوبه في هذه المهمة الفادحة إلا بأمره الصراح¹ إذا فذلك من أذانه حيث كان يذنه، أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ، وحتى إذا لم يكن يذنه فسكوته عن ذلك إذن منه صراح وهو الممكن في

¹ المصدر ج ١٣٤ في كتاب علل الشرايع بلسناده الى صالح بن سعيد من رجل من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل في يوسف «أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» قل انهم سرقوا يوسف من أبيه الا ترى .. أقول: فقول الله في يوسف أَيُّهَا الْعَيْرُ، دليل انه من مقاله لا المؤمن من عند نفسه، وكذا قول أبي جعفر عليه السلام فيما مضى ولقد قال يوسف «أَيُّهَا الْعَيْرُ ..».

الأرض، فكيف يترك النهى عن المنكر، وتقريرات الأنبياء كمقالاتهم وأفعالهم حجة، فسواء أ كان الأذان الإعلام بإذنه الصّراح وهو طبيعة الحال فى موقفه العظيم، أم لم يكن، بخلاف الحال، فهو على أية حال مرضى عنده مباح.

لقد كانت حيلة من الصديق حيث يدس صواع الملك فى رحل أخيه، تنفيذًا لتدبير إلهى يخصه فى ذلك المشهد المثير المغير، ولكن ما هو مصير «أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ»؟ ولم يكونوا سارقين ولا واحد منهم فى رحله صواع الملك! والمكيدة الإلهية بعيدة عن الضعف والكذب والظلم، قاصدة جزاء العدل الوفاق للظلم، كيد عادل قاصد هو جزاء كيد ظالم فاسد كاسد، فما ذا يعنى - إذن - ذلك الأذان المعلن أمام الجماهير، متهما ولد نبى الله يعقوب «إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ»؟ فيرتاع إخوته لذلك النداء وهم أولاد النبى وأحفاد شيخ المرسلين! أ كان وجود الصواع فى رحل أخيه - دون سرقة منه - يسمح لاتهامهم كلهم «إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ»؟ وحتى لو كان سارقا فى الحق فنسبتها إلى العير - وهم أحد عشر - تهمة جمعية ومس من كرامة البراء العشرة، وحق القول فى مثله، واحد منكم سارق، حيث لا يسرق صواعا واحدا إلا واحد، ف «أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ»، إذا فريه قاطعة حتى لو كانت هناك سرقة، ولكنه كذب وفريه إذ لم تكن سرقة بتة، وكما لم تكن البتة! إنهم فى هذا المسرح ما سرقوا شيئا، وما كذب الصديق، حيث الحيلة كانت بأمر الله، وهو نبى الله فكيف يكذب، وإنما ورى توريه صادقة حيث عنى من «إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ»، أن سرقوا يوسف من قبل! وكما يروى تصديق الصديق عن الصادق: «ما سرقوا وما كذب يوسف وإنما عنى سرقتم يوسف من أبيه»^١، ألا

^١ نور الثقلين ٢: ٤٤٢ - القمي فى حديث سنن الصادق عليه السلام عن قوله عز و جل «أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» قال: ما سرقوا و ما كذب يوسف فانما عنى سرقتم يوسف من أبيه وفيه ٤٤٤ ح ١٢٩ فى اصول الكافي بإسناده عن عطا عن أبي عبد الله عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله لا كذب على مصلح ثم تلا «أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» ثم قال: و الله ما سرقوا و ما كذب ثم تلا «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ»، ثم قال: و الله ما فعلوه و ما كذب. أقول: ما كذب دليل التورية، حيث الكذب كذب مهما كان مسموحا فى الإصلاح و الضرورة، وفيه عن علل الشرايع بإسناده إلى أبي بصير؟؟؟ قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لا خير فىمن لا تقية له و لقد قال يوسف «أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» قال: ما سرقوا و ما كذب،

أقول: التقية هي وقاية الأهم بتفدية المهم و هي لا تسمح للكذب ما أمكنت التورية كما هنا و فيه ١٣١ عن روضة الكافي بإسناده عن أبي بصير قال قيل لأبي جعفر عليه السلام و انا عنده ان سالم بن أبي حفصة و أصحابه يروون عنك انك تكلم على سبعين وجها لك منها المخرج فقال: ما يريد سالم منى أ يريد ان اجيء بالملائكة و الله ما جاءت بهذا النبيون و لقد قال يوسف عليه السلام أيتها العير انكم لسارقون «و الله ما كانوا سارقين و ما كذب».

ترى انه قال لهم حين قالوا «ما ذا تَفْقِدُونَ» قَالُوا نَفِدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ، ولم يقولوا «سرقتم صواع الملك، إنما عنى انكم سرقتم يوسف من أبيه» وهم لا يشعرون!

هنا ندرس من أذان الصديق درسين اثنين: أحدهما أن التورية مسموحة إرادة الإصلاح^١ وإلّا فهي كذب إذ ينتج نتاجه مهما أضرر قائله صدقا، فالضرورات تقدر بقدرها، فلا يسمح للكذب المطلق ما دامت التورية ممكنة، ولا ضرورة لله ولنبي الله في كذب والتورية موريّة صادقة! مهما كان «لا كذب على مصلح»^٢ وليست الغاية التي يبتغيها الصديق درسا لإخوته بالتى تبرر هذه الوسيلة الهائلة، فإنها على أية حال مكيدة إلهية وليس الله ليضطر فى كيدته الى ما حرّمه من كذب وتهمة! وثانيهما أن استلاب نفس محترمة هو من السرقة، وكيف لا تكون سرقة واستلاب شطر من دينار سرقة مهما اختلف الحكم بين سرقة وسرقة، وهم قد استلبوا يوسف من أبيه إخراجا عن ملكته وملكه أبيه، بمكيدة خائنة، وهم مجمعون ان يجعلوه فى غيابت الجب، أ وليست هذه سرقة، وهى أسرق سرقة تضم معها كذب حين استلبوه، وحين رجعوا إلى أبيهم وقد تركوه فيما تركوه، وألقوه فى غيابت الجب إساءة إليه وعلّ فيها هتف نفسه، وهذه ثالث منحوس تحيط بأصل السرقة، أ ليسوا يستحقون بعد هذه الأربع أن ينسبوا إلى واحدة منها «أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» ومهما كان بن يامين بريئا وقد شملته العير، فالعشرة الآخرون كانوا سراقا وخونة، وقد أسرّ يوسف إلى أخيه هذه المكيدة، ليستثنى عن العير السارقين، فكان يرضى ذلك التعميم أو يوّده وصولا إلى «حاجّة فى نفس يعقوب» قضاها، فهل إن ذلك التعميم مس من كرامته، ام خارج عن أدب التعبير فى أحد عشر رجلا واحد منهم برىء والباقون خونة سارقون؟ .. وقد نحتمل أن يوسف عرف رجال

^١ نور الثقلين ٢: ٤٤٢: القمي بإسناده عن الحسن الصيقل قال قلت لابي عبد الله عليه السلام انا قدر روينا عن ابي جعفر عليه السلام في قول يوسف: «أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» فقال: و الله ما سرقوا و ما كذب و قال ابراهيم «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفُونَ» فقال: و الله ما فعلوا و ما كذب قال فقال ابو عبد الله عليه السلام ما عندكم فيها يا صيقل؟ قلت: ما عندنا الا التسليم قال فقال: ان الله أحب اثنين و ابغض اثنين أحب الحضر فيما بين الصفيين و أحب الكذب في الإصلاح و ابغض الحظر في الطرقات و ابغض الكذب في غير الإصلاح ان ابراهيم عليه السلام قال: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» ارادة الإصلاح، و دلالة على انهم لا يفعلون. و قال يوسف عليه السلام ارادة الإصلاح.

أقول: هنا سميت التورية الصدق كذا مسموحا للإصلاح، و في روايات اخرى انه ما كذب و ما سرقوا و الجمع ان التورية صدق من جهة تخفى و كذب حسب الظاهر، و لا يجوز الكذب المطلق ما دامت التورية في موارد الإصلاح.

^٢ مضت روايته عن الرسول صلى الله عليه وآله.

الحاشية بموقف المكيدة، فلم يكن في ذلك الشمول مهانة لأخيه في نفسه حيث عرفه! ولا في أنفس رجال الحاشية أن عرفهم، وأما في أنفس إخوته فليس ليهمه ذلك أمام البغية المهمة، كيف وقد علموا- في ظنهم- أنه سرق، وشهدوا بذلك عند أبيهم «إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ» ولم يكن له في هذه وتلك تغير حالة فان الضرورات تبيح المحظورات، حتى ولو كان ذلك له مخطورا.

ذلك ولكن «ما كان لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» دليل أنه ما عرفهم ولا حتى المون مكيدته، إذ لو عرفهم كان يعرفه الملك، وكيف يأخذ أخاه بمكيدة يعرفها الملك؟. ولئن سئلنا أن الشرعة الإلهية لا تسمح الجهر بالسوء وقد جاهرهم به، اللهم إلا شهادة بشروطها عند الحاكم، ولم تكن هناك من يوسف شهادة ولا حكم؟ فالجواب «لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ» وقد ظلم يوسف بأقبح الظلم فكيف لا يجهر بسوء ما ظلم، وهو كاتم ظلمه طيلة سنين حتى أتى دوره الصالح لمكيدة بأمر الله، فقد صدق فيما جاهر وترك كثيرا حين قال مؤنه: «أُتِيَتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ».

قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقِدُ صَوْاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢).

«وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ» تلمح أن المون أذن وهم يرجعون، ثم أقبلوا عليهم، وماذا تَفْقِدُونَ، إشارة منهم أننا لسنا بسارقين، فلعله فقد عنكم صواع الملك، والمحتملات فيه ثلاث ثالثها أنه عند أحدنا، وقبل ذلك قد يكون تحت طعام أمّاذ، أو عند أحدكم أمن ذا، فلا تحتموا أننا سرقناه. ورجال الحاشية بمن فيهم المون، هنا لا يكررون القولة الأولى بصيغة أخرى «سرق منا صواع الملك، وإنما نفقد، مما يود أن الأولى تورية لا تعنى سرقة الصواع، ثم رغبوا لمن جاء به حِمْلُ بَعِيرٍ، كجعالة على وجدان الضالة، وأنا، الذي هو طبعاً المون به زعيم، كفيل ضمين، أم قائم بأمره رئيس، وعلى أية حال فقد تكفل هذا الجعل لمن جاء به، ولو كانت سرقة فجزاءه غير جزائه، «جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ» كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ». فقد تحول مسرح السرقة وجزاءها إلى مسرح وجدان الضالة وجعله وأين سرقة من جعالة؟. أ ترى نفقد، ليس كذبا وهم ما فقدوه حيث هو «جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ»؛ نفقد- في

نفسها- تعنى ليس هو عندنا، علمنا مكانه أم جهلنا، وغاية أمره أن يكون تورية كالأولى فقدانا على علم بمكانه، ثم والقائلون 'نُفقد' جماعة فليس هو الصديق ام ولا المون، فقد يجوز أنه ما أخبرهم، ولا المون بما فعل، كما يدل عليه 'ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك'، كما وقد يقربه أن الصديق هو الذى 'جعل السقاية في رخل أخيه' دونهم، ولا حتى المون، فقد أمر أن يون: 'أيتها العير إنكم لسارقون'، ثم أمروا أن يغيروا القول فى مسرح الصراحة 'نُفقد صواع الملك'، ثم 'ولمن جاء به حملٌ بعير' انصراف عن اتهامهم فى سرقة الصواع ومجاراتهم فى 'ما ذا تُفقدون'، إذا ففتشوا عنه ولمن جاء به جعله، وطبعاً ليس المجيء به عن سرقة أو من الإخوة تفتيشاً لأنفسهم بعض البعض، وإنما من غيرهم أم فى نفس القصر، مما يود أن تهمة السرقة الجاهرة لا تتجه إلى صواع الملك.

و على أية حال فهم مستيقنون ببراءتهم، فيستندون إلى ثقتهم فيهم فى ماضيهم وحالهم واستقبالهم:

قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ، (٧٣).

قسماً بالله لقد علمتم، من حالنا وحلنا وترحالنا 'ما جئنا لنفسد فى الأرض' فى رحلاتنا إلى هاهنا حالا، ولقد علمتم، أننا 'ما كنا سارقين'، ماضياً، وتراهم كيف تاكدوا من علمهم فيهم لحد الحلف بالله، براءة لهم فى حالهم وما مضى، وهذه حجة صارمة- لو علموا- على براءتهم فى إنكارهم واستنكارهم سرتهم؟.

قد تتخذ ذلك دليلاً أنهم عرفوا الصديق بأنفسهم بما قالوا وما فعلوا وعاملوه من مظاهر الصدق فى نياتهم وسجياتهم، ولحد يضيفهم أحسن ضيافة ويضيف لهم إلى متاعهم بضاعتهم، وعلمهم- كما يروى- ردها إليه، مما يبرهن أنهم ليسوا من المفسدين فى الأرض ولا سارقين! ولأنهم فى الحق فاقدون صواع الملك، ولم يبقوا احتمالاً أنه مخبوء هنا وهناك أم هو عند أحد من رجال الحاشية، فرغم علمهم بسابق حالهم فالمحتوم- إذا- أنه عندهم على أية حال، كما المحتوم عند الإخوة خلافه، معلومان يتعارضان، فلا سبيل- إذا- لتكشف الحال الغامضة الا تفتيش رجالهم لبيان حالهم فإذا:

قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤).

فما جزاء من وجد فى رحله؟ وترى 'إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ' هى فى نكران سرقة الصواع؟ وهم فيه صادقون! فلما ذا يهددون!- أم فى نكران اى إفساد فى الأرض وسرقة طول حياتهم؟ اللهم نعم فإنهم فيه كاذبون، ومن أقل الجزاء لهم ألا يرجعوا بأخيهم، فيختجلوا عند أبيهم ويرتكبوا بما ارتكبوا.

و لكن حيث كانوا كاذبين فلما ذا الجزاء على من ليس منهم؟ إن ذلك- فى الحق- جزاءهم، وأما جزاءه فهو ظاهرة موراة مجاراة لحقل الجزاء، و'جزاءه، مفردا عن 'كُنْتُمْ كَاذِبِينَ' جمعا، هو أجمل تلميحاً لاختلاف المجزى عن الكاذبين، فإن للكاذب- لو كان هو بن يامين- جزاءه وللصادقين سواه ليس هنالك جزاء ما هم غير عارفين أنه سرق.

فحصالة المعنى منها: فما جزاء من وجد فى رحله إن كنتم أنتم كاذبين، لا من وجد فى رحله فإنه صادق هنا وعلى طول الخط، وإلا فليكن 'إن كان كاذبا، ولأنه لم يكن كاذبا لم يكن وجدانه فى رحله يسمح لأن يوذ إلا بكذب صراح فى حقه أنه كاذب دون مجال فى ذلك لأية تورية.

قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥).
و قد حكموا حسب شرعتهم أن جزاء السارق هو نفسه أن يسجن أو أن يسترق، والظالمين، تعمم هذا الحكم إلى سائر الظالمين بحق الناس.
و لماذا التكرار فى 'جزاءه، مبتدء مرة وخبرا اخرى؟ علّه للتأكيد انه هو جزاءه لا سواه، أم هو وسواه، إنما هو جزاءه ليس إلا إياه.

و بطبيعة الحال كل هذه الحوار كان بإذن يوسف ومنظره ومسمعه فإنه من كيد المسموح بإذن الله: 'كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ، ولكن من هذا الذى يمد يده إلى أوعيتهم تفتيشا؟ ليس ذلك إلا يوسف نفسه إكراما لبيت النبوة واحتشاما للإخوة، ولأنه هو الذى 'جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ، فليكن هو الذى يستخرجه بخاصة كيد من وعاء أخيه:

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦).

بدأه بديعة تزدود عنه كل تهمة وريبة، فبداهه بوعاء أخيه مريبة قريبة، واستخراجه منه بين أوعيتهم مريبة بعيدة، ولكن استخراجه منه بعد أوعيتهم كلهم تطوى كل ريبة وتزيل كل شبهة وتهمة، أن هناك مومرة وحيلة مدروسة.

كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ، فكل ما حصل فيما هنالك من مكيدة وتورية كان من كيد الله ليوسف، ما لولاه ل «ما كان لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ، اللَّهُمَّ إِلَّا بدينه أو دينهم، وقد حكموا هو جزاءه، فليأخذه الصديق إذ كانوا هم كاذبين، وهو في الحق جزاء كذبهم، وحسب الظاهر جزاء من وجد في رحله.

«ما كان لِيَأْخُذَ... إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وقد شاء الله وفق شرعته واراوته في مكيدته، كيد دون اي ضعف او كذب او ظلم، بل هو شطر من جزاءهم عن مريع ظلمهم في يوسف، فقد «مَكْرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ، وَ دِينَ الْمَلِكِ، كما سلف دليل لا مرد له أن ذلك الكيد كان خفيا عن سوى الصديق.

و انه لكيد يرفع من كيان يوسف ويضع من كيان إخوته «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ، مهمما تظافرت عساكر خفضته وضعته، «وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

و ترى وما هي الصلة بين «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ، وما قبلها؟ علها لأن الإخوة كانوا في هذه الرحلة كلهم عيوننا مفتحة حفاظا على أخيهم ليأتن به أباهم، حاسبين لكل صغيرة و كبيرة حسابها، ولكن الصديق بوحدته فوقهم في علم، ما لم يكونوا له حاسبين، ثم وهذه ضابطة سارية في حقل العلم إذ ليس له حد ولا حدود، ففوق كل ذي علم عليم حتى يصل إلى علم بلا حدود، فلا فوق له ولا قرين حيث اللانهاية لا تتكرر.

لذلك لا يحق للعالم - أيا كان - زعمة الزعامة العامة في حقل العلم وإن في تخصص خاص، فعل فوقه عليم، حتى وإن كان نبيا يوحى إليه، إلا من أوحى إليه أن ليس فوقه في كل الخلق عليم كالرسول محمد صلى الله عليه وآله اللهم إلا ربه تعالى جدّه.

ف «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ، تحكم برفعة الصديق عليهم في درجات ومنها درجة العلم ف «فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ، وكما فوق كل ذي فضل فاضل، حتى يصل إلى خالق الدرجات والفضائل فلا فوق له في أي شيء ولا قرين حتى يقارنه فضلا عن أن يفوقه.

وقد «سأل رجل عليا عليه السلام عن مسألة فقال فيها، فقال الرجل ليس هكذا ولكن كذا وكذا، قال علي عليه السلام أحسنت واخطأت وفوق كل ذي علم عليم»^١ ولا يعنى ذلك الجمع إلا خطأه فى مسألته، وإن كان صواب فهو قول الله «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» فانا فوقك علما كما أن فوقى عليم حتى ينتهى العلم إلى الله، فمنه نبداً وإليه نعود.

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧).

هنا- ولكى يخلصوا عن الورطة نجيا- يظهر كامن حقدهم الدفين على يوسف وبنيامين، يجعلونهما فى خط دون خطهم تبرئة لساحتهم أنفسهم:

«إن يسرق، هو فله سابقة من أخيه من أمه وأبيه، فقد سرق أخ له من قبل، فليسرق هو من بعد نسخة طبق الأصل، حيث الأم لها دورها فى التربية مهما اشركنا فى أيينا.

و تراهم هنا يصدقون وهم فى ورطتهم، وقد كذبوا من قبل لاستلاب الصديق عن أبيه وهم فى حريتهم؟ إنهم يعنون بهذه الفرية أن يلطخوا ساحة أخويهم من أبيهم فيضيفون تهمة سرقة لأخ له من قبل إلى هذا الذى ظنوه سارقا من بعد، وكأنهم لا يشعرون أنهم يكذبون بذلك قولتهم من قبل: «وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ» ضاربة إلى أعماق الماضى إلى الحال، فكيف الحال فى سرقة فى الحال وأخرى يدعونها فى الماضى؟

أجل هناك شىء تتلمح من «أسرها»، فإنها لا مرجع لها إلا سرقة مستفاداً من فعلها، فقد «أسرها»، هنا «يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا، بعينها لهم، لكيلا يتكشف أمره هنا حتى حين، وإنما لَمَحَ بصيغته عامة لشر مكانهم فى قولهم وما فعلوه من قبل، وعلى ضوءه لخير مكانه فى قوله فيهم وما يفعله الآن: «قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا» ثم أرجع العلم بما يصفون من سرقة سابقة إلى الله «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ».

ففى ذلك الموقف تتلمح من كلام الصديق «أَنْتُمْ شَرٌّ...» وقول الله فيه «فَأَسْرَهَا...» وَلَمْ يُبْدِهَا، أنه كانت له سرقة ولكنها صالحة وليست شريرة طالحة، فلو أنهم كانوا فى قولتهم عنه

^١ الدر المنثور ٤: ٢٨- اخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال سأل رجل ...

صادقين، لم تكن - في الحق - تثبت عليه إلا فضيلة لا رذيلة، ولكنهم عرضوها هنا رذيلة لو أنهم يعنون تلك السرقة الفضيلة.

وعلمها ما يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله «سرق يوسف عليه السلام صنما لجده أبى امه من ذهب وفضة فكسره وألقاه فى الطريق فعيره بذلك إخوته،^١ فهذه أمأهيه من سرقة لا تحمل منها إلا لفظتها، كما المكيدة من الله أمأهيه من أفعال صالحة يعبر عنها بعبارات متشابهة فتفسرها الآيات المحكمة.

فالسرقه قد تكون واجبه حيث يضر المسروق بصاحبه ولا يتخلى عنه، فليسرق منه نجاه له عن ورتته، اى يوذ منه ما يضره من مال او حال على غفلة منه صدا عن اى تمنع.

ثم «انتم شر مكانا واللّه أعلم بما تصفون» ذود عن كرامته ما يمسه من سرقة محرمة، رجعا لشرها إليهم وأنهم يجهلون ما يصفون او يتجاهلون، وهنا أخذوا يلتجئون إليه ويسترحمون:

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩).

و نرى الصديق هنا لا يلفظ بشطر كلمة تمس من كرامة أخيه حتى فى تورية إذ يقول «مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ» دون «من سرق متاعنا، ثم «متاعنا» دون «صواع الملك» تحمل تلميحاً مليحة - فيما تحمل - أن أخاه هو متاعه، متعة معنوية بلقاء أخوى ممتع! فقد وجدنا متاعنا هذا عنده، وهو نفسه الغالية، كما وجدنا صواع الملك عنده، واين متاع من متاع؟

و فى التعبير عن يوسف ب «العزیز» دليل على انه أصبح مكان العزيز بعزله، او موته، وأنه غير

^١ الدر المنثور ٤: ٢٨ - اخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله فى قوله تعالى: ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل قال: .. و اما ما يروى انه كانت لإسحاق النبي منطقة يتوارثها الأنبياء و الأكابر و كانت عند عمه يوسف و كان يوسف عندها و كانت تحبه فيث إليها أبوه ان ابغثه إلى و أرده إليك فبعثت اليه ان دعه عندي الليلة أشمه ثم أرسله إليك غدوة فلما أصبحت أخذت المنطقة فربطته فى حقوه و ألبسته قميصا و بعثت به اليه و قالت سرقن المنطقة فوجدت عليه و كان إذا سرق احد فى ذلك الزمان دفع الى صاحب السرقة فأخذته فكان عندها ..

و قد نقله فى نور الثقلين ٢: ٤٤٤ عن الخرائج و الجرائح باسناده عن داود بن قاسم الجعفري قال: سئل ابو محمد عن قوله تعالى: و ان يسرق، و عن تفسير العياشي عن إسماعيل بن همام قال قال الرضا عليه السلام كما هو المتن الذي نقلناه، و أخرجه مثله فى الدر المنثور ٤: ٢٨ بعدة طرق عن جماعة دون إسناد إلى النبي صلى الله عليه وآله. أقول: و لكنه لا يلائم أصولنا المستفادة من الكتاب و السنة، ١ فقد كان يوسف عليه السلام دون التكليف و لا حكم لسرقة الصغير (٢)، و مع الغرض عن الصغير فكيف يقبل نبي الله يعقوب شهادة امرأة واحدة على ابنه الذي يعرفه بصدق و صفاء؟ (٣) و ان يوسف حسب الآيات كان عند يعقوب حتى اخذه منه اخوته.

الملك لاختلاف التعبير مهما ملك ما كان يملكه الملك حيث طوى عن ذكره كأصل
واندرج درج الرياح.

و «إِنَّ لَهُ أَبًا، استعطف له خاص أن له مكانة عند الأب ليست لنا، فكأنه هو - فقط - ابنه، فَخُذْ
أَحَدَنَا مَكَانَهُ، كيلا يأسى بفقدته أبوه الشيخ الكبير، فأجاب عن اقتراحهم، مَعَاذَ اللَّهِ ... إِنَّا إِذَا
لظالمونَ، أن نأخذ بديله غيره، وهو متاعنا وبغيتنا، وهو الذى وجدنا متاعنا عنده.

أ ترى أن ذلك - فى الحق - كان ظلما ولا سرقة فى البين حتى يثبت حق أصلا او فرعاً؟ إنه
مجاراة لهم فيما قالوه وقرروه: «جَزَاوَهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ، تورية فى مسرحه. وَإِنَّا إِذَا
لظالمونَ، قد تعنى تورية، لو أنا تركنا مَنْ وَجِدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ، ظلمنا أنفسنا فانه هو بغيتنا
ومتاعنا فى ذلك الكيد الأمين المكين، كما وظلمنا حسب دين الملك، ما كان لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي
دِينِ الْمَلِكِ، وكما فى دينكم، مثلث من الظلم مجاراة، مهما انفلت البعض منها مواراة، فقد
صدق الصديق فى «إِنَّا إِذَا لظالمونَ، على أية حال!

و تراهم كيف يستفدونهم بأحدهم وهم من نعرفهم من شقوة ليوسف من قبل ولأبيهم؟ علّه
لأن استلاب يوسف من أبيه كان عن حقد لا يعرف شفقة إلّا شقوة، وأخذهم لأخيه لم يكن
إلّا شفقة للعائلة ككل، وقد آتوا أباهم موثقهم من الله ليأتته به، ففدوا بأحدهم مكانه تخلصا
عن ورطة مستقبلة أمام أبيهم، وهم عارفون بعض الشيء أن العزيز ليس ليأخذ أحدهم مكانه.
ثم وما هى الرباط بين «فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ، وَإِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا؟، له أبا، تختصه بأبيهم اكثر
منهم، كأنه فقط ابنه، فهذه زاوية أولى لاستعطافه، ثم «شَيْخًا كَبِيرًا هِىَ الثَّانِيَةُ، حيث الشيخ
المتقدم فى العمر أحوج إلى ولد يُوَسِّسُهُ من سواه، ويزيده انعطافا كونه شيخا كبيرا بساير
معانيه، محتدا وعلمنا وإيماننا وعائلة وعشيرة، فهو يستحق العطف من جهات شتى، ومن ثم
الزاوية الثالثة «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وهنا أظرف ظروف الإحسان، ويعنى الإحسان فيما
يعنى إحسانا يناسب تحرير رق، ولأقل تقدير «فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ! وقد كان - كما يروى - انه
حرر نفرا عظيما ممن شراهم الطعام بأنفسهم حين نفدت بضائعهم.

و ما أجمل جواب الصديق وأحوطه إذ لم يقل «معاذ الله ان نأخذ برينا بجريرة سارق»، وإنما
«أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجِدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ، ثم يعتذر عن كل هذه الزوايا المتعطفة ب «إِنَّا إِذَا

لظالمونَ، وهل يظلم المحسن؟ أم إن غاية الإحسان تبرر وسيلة الظلم؟!
فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ
وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠).

الاستيأس هو من اليأس والإيأس، ولأنه استفعال فقد يزيد على «أيسوا، وعله تطلب الإيأس،
وما أدقه تعبيراً وألفظه على حالتهم الراجية، المتعمقة في قلوبهم، المستكنة في افئدتهم، لحد
ما كان يخلد بخلدهم يأس عن إحسان الصديق، ولكنه قطع كل آمالهم بكلمة تهديد: «إنا إذا
لظالمونَ، حيث تهددهم فتحدد موقفه منهم مما آيسهم، وكأنهم حينذاك تطلبوا الإيأس من
أنفسهم رغم ما كانوا يظنون، كما وخوفهم، ولذلك «خلصوا نجياً».

و «نجياً، تستعمل جمعاً كما هنا، ومفرداً: «و نادينا من جانب الطور الأيمن و قرئنا نجياً، (١٩:
٥٢) وهى واوية تعنى النجوى، ويائية تعنى النجاة، وقد تعنيهما هنا «نجياً» المكان «خلصوا،
فالثانية النجاة، وحيث «قال كبيرهم... فالأولى النجوى، ولو عنت نجى النجوى فالصيغة
الفصحى - إذا- النجوى نفسها كما: «و إذ هم نجوى، (١٧: ٤٧).

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ، من يوسف أن يسمعهم ومن أخيه أن يردده إليهم «خلصوا، من حضرته
على تخوف أن يلحقهم مزيد مما لحقهم «نجياً، نجاة من ملاحظته، و«نجوى بينهم فى أمرهم
كيلا يسمعهم هو» فيما يتناجون، ومن نجواهم «قال كبيرهم أ لم تعلموا أن أباكم قد أخذ
عليكم مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ؟

أ ترى لماذا «أباكم - عليكم - فرطتم، تغاضيا عن نفسه وقد كان معهم فيما كان منهم وهو
كبيرهم؟ عله إشارة إلى أن كبيرهم هذا ما كان ليرضى عما فعلوا، ويشهد له أنه حملهم على
أن يجعلوه فى غيابت الجب، فلا يقتلوه، ولا يطرحوه أرضاً ولا يلقوه فى غيابت الجب، بل
يجعلوه «يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ».

فهو مهما كان يشاركهم بعض الشيء فى نفي الصديق، كان أخفهم اجتراما بحقه وأنقلهم
احتراما له، يحاول فى تآمرهم عليه، الحفاظ على نفسه وسلامته، اقتصاراً على الأقل فيما
يرمون، وعله ان لم يسايرهم بعض الشيء وأخبر يعقوب بتآمرهم عليه، قضوا عليه.

علّه لذلك كله تحقق له هذه المصارحة في مثلثها: «أباكم قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ ... وَ مِنْ قَبْلِ مَا فَرَطْتُمْ، فقد كان التفريط في يوسف منهم دونه، وبطبيعة الحال «مَوْتَقاً مِنَ اللَّهِ، مأخوذ عليهم دونه، أو أن تفريطه لم يكن فارطاً فالتا مثلهم، وأن موتقه لم يكن كموتقهم، ولذلك نراه هنا لا يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله، مما يدل على أن «مَوْتَقاً مِنَ اللَّهِ، يشمله مهما كان في أخفه.

ثم «أبي، دون، أبونا، هي رابعة الأضلاع في تلك المفاصلة بينه وبينهم في التفريط والميثاق، فهو «أبي، فوق ما هو «أبوكم، حيث أراعى الحرمة الأبوية له وأنتم لا تراعون، فأنا- إذا- ناظر أحد أمرين «حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي، لكى أبرح الأرض للقائه دون اختجال لمكان برائتي، «أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي: بخلاص أخى فأبرح معه الأرض إلى أبى، أو يوحى إلى أبى برائتى أنا فيرضى عني، أم- ولاخر تقدير- بموتى حتى لا أرى أبى كئيباً ينظر إلى نظرتي إلى من خانته وشانه، وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، لا يحكم إلّا خيراً.

ثم بعد هذا التنديد الشديد بهم يأمرهم بالرجوع، ويرشدهم كيف يواجهون أباهم في مقال: ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَ مَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَ سَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢).
ارجعوا، دونى أنا إذ لا أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى «إلى أبيكم، دون أينا، حيث المقام مقام استنهاض الرحمة الأبوية لهم دونه، فانه ليس معهم لا فى رجوعهم ولا فى كل ذنبهم، فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ، كأول قالة لهم بعد السلام والإكرام جبراً للمفاجأة من فقده، حجة لهم حاضرة عليها تقنع أباهم بفقده، ولأنه ليس ليقبل هذه التهمة الوقحة لابنه الحبيب يحاولون تثبيت دعواهم بما حاولوا.

أب مفجوع بابنه يوسف من قبل، يفضى إليه بنياً فظيع لابنه الثانى، وأفظع من فقده، فريئة السرقه، فليواجهوه فى ذلك المشهد الرعب الرهيب بحجة قيمة تعذرهم، وتسد كل منافذ ظنة الخيانة عنهم وقد فعلوا:

«وَ مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا، كأنه جواب عن أسوّه مطوية كالتالية:

لماذا شهدتم بحكم السارق فى شرعتنا ليجعلوه مسكاً فى إمساكه، ولن يجعل الله للكافرين

على الموثقين سبيلاً؟ أو شهدتم بسرقة لديهم فأمسكوا ولدى أنا إمساكاً عنكم؟ والجواب: «وَمَا شَهِدْنَا، بِحَكْمِ شَرَعِنَا، إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا، مِنْهُ فَلَا مَحْظُورَ، وَإِلَّا بِمَا عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْرِقْ وَلِذَلِكَ شَهِدْنَا، وَإِلَّا بِمَا عَلِمْنَا، أَنَّهُ سَرَقَ لَوْ جُودَ الصَّوَاعُ فِي رَحْلِهِ، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ، مَا كُنَّا نَحْفَظُ غَيْبَ أَنَّهُ سَارِقٌ حَتَّى لَا نَأْخُذَهُ مَعَنَا، أَوْ لَا نَشْهَدُ بِحَكْمِ السَّارِقِ عِنْدَنَا حِفَافًا عَلَيْهِ، وَلَا لِلْغَيْبِ الْمُتَخَلِّفِ عَنِ عَلْمِنَا بَأَنَّهُ سَرَقَ لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَسْرِقْ إِذْ لَا نُوَرُّ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا دُونَ الْغَيْبِ الَّذِي جَهِلْنَا، فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الشَّهَادَاتُ الثَّلَاثُ بِمَا عَلِمْنَا، شَهَادَةً بِالْحَكْمِ، وَشَهَادَةً بِالسَّرْقَةِ عِنْدَهُمْ وَأُخْرَى عِنْدَكَ، وَالْعِلْمُ عَازِرٌ فِي الشَّهَادَاتِ مَهْمَا تَخَلَّفَ عَنِ الْوَاقِعِ إِذْ «مَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ».

«وَسَأَلْنَا الْقَرِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا، عَنِ مَسْأَلَتِنَا، وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا، وَهُمْ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ لَنَا: «وَأَنَا لَصَادِقُونَ» حَتْمًا فِيمَا نَقُولُ وَنَشْهَدُ.

و لكن ذلك شهادة بحكم الشرعة بما علموا، فكيف يشهدون بالسرقه بما علموا كما يدعون وهي بحاجه إلى شهود السرقه، فلكل مشهود به شهاده تخصصه، كما ويندد يعقوب بشهادتهم هذه:

«قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً... سَوَّلَتْ أَمْرَ السَّرْقَةِ فِي أَخِيهِ حِينَ قَلْتُمْ فِيمَا شَهِدْتُمْ: «إِنَّ يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ»... شَهَادَةُ ذَاتِ بَعْدِينَ بَعِيدِينَ عَنِ أَيِّ عِلْمٍ أَمْ أَيْهَ حِجَّةٍ شَرِيعِيَّةٍ، فَكَيْفَ شَهِدْتُمْ أَنَّ يَوْسُفَ سَرَقَ مِنْ قَبْلِ، ثُمَّ كَيْفَ شَهِدْتُمْ أَنَّ أَخَاهُ سَرَقَ بِمَجْرَدِ مَا وَجَدْتُمْ الصَّوَاعَ فِي رَحْلِهِ، وَعَلَيْهِمْ جَعَلُوهُ فِي رَحْلِهِ لِأَخْذِهِ، فَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الشَّهَادَةُ لَا عَنِ شَهَادَةٍ وَلَا عَنِ عِلْمٍ «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً»...

هنا علم، وهناك شهادة، وهنالك غيب، فنحن وإن كنا لا نور بالغيب، فإن أمره بيد من يعلم الغيب، ولكن الشهادة هي عوان بين العلم والغيب، وأكثرها توافق الغيب، فالعلم غير المسنود إلى شهادة وحضور في المعلوم المشهود به، قد يحصل من تسويل نفس، ممن له نكايه على المشهود، فيحصل له علم بقرائن غير قطعية، وحتى إذا كانت بقرائن قطعية فليست كالمشهود لدى الجريمة، فلا حجة فيه على المتهم بجريمته.

و كما أن الشاهد لدى الحاكم ليست له شهادة بعلم إلا سنادا إلى شهوده وحضوره على

شروطه، كذلك الحاكم نفسه ليس له حكم بعلمه، إلاً بشهادةً سالحةً، وكما هو ثابت بنصوص الكتاب والسنة.

ج سورة يوسف (١٢): الآيات ٨٣ الى ٢٩ ج

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يَوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُونََا تَذَكَّرُ يَوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا تَبَاسُؤَا مِنْ رَوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبَاسُ مِنْ رَوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيَوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يَوسُفَ قَالَ أَنَا يَوسُفَ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَا اللَّهُ عَلَيْنَا وَ إِنَّ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣).

^١ هنا تستمر التورات في القصة تاركة قصة رجوعهم الى ابيهم بابقاء بنيامين عند يوسف قائلة بعد ذكر التماسهم ان يرسل معهم اخاهم: «فلم يستطع يوسف ان يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده فصرخ اخرجوا كل انسان عني فلم يقف احد عنده حين عرف يوسف اخوته بنفسه فاطلق صوته بالبكاء فسمع المصريون و سمع بيت فرعون و قال يوسف لإخوته: انا يوسف احي ابي بعد؟ فلما يستطع اخوته ان يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه- و قال يوسف لإخوته تقدموا الي فتقدموا فقال: انا يوسف احوكم الذي بعتموه الى مصر و الآن لا تتأسفوا و لا تغتاظوا لأنكم بعتموني الى هنا لاستبقاء حياة أرسلني الله قدامكم لأن للجوع في الآن سنين و خمس سنين ايضا لا يكون فيها فلاحه و لا حصاد فقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض و ليستبقي لكم نجاة عظيمة فالآن ليس أنتم أرسلتموني الى هنا بل الله و هو قد جعلني أباً لفرعون و سيدي لكل بيته و متسلطاً على كل ارض مصر. اسرعوا و اصعدوا الى ابي و قولوا له هكذا يقول ابنك يوسف: انزل الي لا تقف فتسكن في ارض جالسان و تكون قريبا مني أنت و بنوك و بنو بنيك و غنمك و بقرك و كل مالك، و أعولك هناك لأنه يكون ايضا خمس سنين جوعا لنلا تقفقر أنت و بيتك و كل مالك و هوذا عيونكم ترى و عينا اخي بنيامين ان فمي هو الذي يكلمكم و تجزون اني بكل مجدي في مصر و بكل ما رأيتم و تستعجلون و تنزلون بابي الى هنا ثم وقع على عين بنيامين اخيه و بكى و بكى بنيامين على عنقه و قبل جميع اخوته و بكى عليهم- ثم تقول: انه جهزهم احسن التجهيز و سيرهم الى كنعان فجاءوا اباهم و بشروه بحياة يوسف و قصوا عليه القصص فسر بذلك و سار باهله جميعا الى مصر و هم جميعا سبعون نسمة و وردوا ارض جالسان من مصر و ركب يوسف الى هناك يستقبل اياه و لقيه قائدا فتعانقا و بكى طويلا ثم أنزله و بنيه و أقرهم هناك و أكرمهم فرعون إكراما بالغا و آمنهم و أعطاهم ضيعة في أفضل بقاع مصر و عالمهم يوسف ما دامت السنون المجدية و عاش يعقوب في ارض مصر بعد لقاء يوسف سبع عشرة سنة. أقول و هذا كله ملخص ما فصله التورات يقارن بما في القرآن ليرى البون البعيد بين الكتابين.

قال، ليس كما تزعمون «ما شهدنا إلا بما علمنا، فلا علم هناك، بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً، وزينته فأصبح علما عن تسويل فهو ظَنُّهُ رديئةٌ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» وهي كلمته الأولى يوم فقد يوسف، ولكنه هنا يضيف إليها وطيد الأمل: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً» والجميع هم الأخوان وكبيرهم الذى ما برح الأرض «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» مما يدل على أنه بعد راج فى حياة يوسف والعلِيمُ الْحَكِيمُ، ياتى على لسانه أول ما أول رُوَاهُ: «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ... إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» وفيما هنا ثانى مرة، ثم يوسف هو الذى يتلثهما عند اللقاء: «وَرَفَعَ أَبْوَتِهِ عَلَى الْعَرْشِ ...»

إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» (١٠٠) وذلك مما يوحى بتأكد الرجاء وأن المرجو قضية علمه تعالى وحكمته.

أ تراه يرجوه بما أوحى إليه؟ عله نعم، وعله لا، حيث الرجاء بالله والأمل الوطيد فى الله شعور يتجلى دوما فى قلوب الصفوة المختارة، لا سيما وهو الذى أول رُوَاهُ: «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ، ولكنه أمل راجح دون يقين، فعله يجتبيه دون علمه بمكانه، وعله ميت الآن بعد تحقق رُوَاهُ، ولكن العلات على علاتها ليست لتزلزل من صرح رجاءه، وقد يأتى نبأعلمه بحياته بعد حين فى آيته: «يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ...»

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ» (٨٤).

هنا يختص يوسف بذكراه إذ لا يتأكد بعد من حياته أو أن يأتيه، ولكن أخاه وكبيرهم بعد موجودون بمكان معلوم، ثم ويوسف هو القمة العالية الغالية فى حبه، وما فاصل الزمان البعيد بالذى ينسيه، لا سيما والحادث الجلل الجديد يذكر جلل القديم.

«وَتَوَلَّى عَنْهُمْ» اعتراضا عليهم وإعراضا عنهم، منقطعا إلى الله «وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ» إذ ما هونت من مصابه طائل السنون، والنكبة الجديدة فى أخيه ثم كبيرهم تجده أكثر مما كان طيلة السنين، وذلك غاية الأسف والأسى على أعز الأبناء وأغرمهم الذى تتلوه غائلة فوق غائلة، فهنا «وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ» حيث أذهب الحزن بسواده فانظّم فى سائر بياضه، ولكنه على حزنه الذى بلغ به إلى العمى لم يكن ليشكوا حزنه إلى أحد إلا لله «فَهُوَ كَظِيمٌ» غيظه وحزنه عن سوى الله، هضم عيب مصابه لله: «نَمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ»

ممن أحزنتى وخاننى لا من الله.

أ ترى أن الحزن، وعلى أثره البالغ منه: ابيضاض العين، ذلك لا يلائم الصبر الجميل؟ إنه لو كان شكوى من الله لخرج عن الإيمان بالله، فضلا عن الصبر الجميل، ولكنه إذا كان شكوى إلى الله من بأس الظالمين، فهو قضية الإيمان، وصبر جميل، حيث لم تخرجه عن الرجاء بالله والأمل فى رحمة الله.

و فى نائبة يوسف واجهتان، من إخوته خيانه وظلما حسدا من عند أنفسهم، فيها وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ...

و أخرى تجاه الله وفيها «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ... فَهُوَ كَظِيمٌ ... نَمَّا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ... اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ... وكتاهما قضية الإيمان، رحمة ابوية على أفضل أولاده، ونقمة على حاسديه، وثقة وإيماناً بالله ورجاء به، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا.

وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وآله فى قوله: كان له من الأجر أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة من ليل أو نهار،^١

و ما هو موقف الفاء فى «فَهُوَ كَظِيمٌ»؟ علّه كعله ل «ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ» فالحزن الظاهر المتظاهر يخفف عبء الباطن المتكاثر، وأما إذا كان مكظوما لا يظهر، فهو صادر عن القلب ووارد فى القلب، فيحرق القلب ويؤر على القلب، ولماذا عيناه؟ طبعا لمزيد البكاء، وطبعا ابيضض سائر شعره مع عينيه، واحدودب ظهره، وكل ذلك لعظم الحزن وأنه كظيم لا يظهر حزنه.

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥).

«تفتو»، هنا منفى بأداته المحذوف (لا)، المدلول عليها، بترك اللام ونون التأكيد فى جوابه،

^١ الدر المنثور: ٤: ٣١- اخرج ابن جرير عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وآله انه سئل ما بلغ وجد يعقوب على ابنه؟ قال: وجد سبعين تكلى، قيل: فما كان له من الأجر؟ قال: اجر مائة شهيد ... وفي نور الثقلين ٢: ٤٥٢ عن القمي عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال له بعض أصحابنا: ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف؟ قال: حزن سبعين تكلى، وفيه فى الخصال عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يصلي فى اليوم و الليلة الف ركعة الي ان قال- و لقد بكى على أبيه الحسين عليه السلام عشرين سنة ما وضع بين يديه طعام إلا بكى حتى قال له مولى له: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله اما أن لحزنك ان ينقضى؟ فقال له ويحك ان يعقوب النبي عليه السلام كان له اثنا عشر ابنا فغيب الله عنه واحدا منهم فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه و احدودب ظهره من الغم و كان ابنه حيا فى الدنيا و انا نظرت الى أبي و اخي و عمي و سبعة عشر من اهل بيتي مقتولين حولي فكيف ينقضى حزنى؟

فإنهما لزامان الجواب القسم فى الإثبات.

قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوُونَ: لا تنقطع تَذَكُّرُ يُوسُفَ، أسفا حزينا كثيرا، كلمة حانقة خائفة مستنكرة،
ظاهرها فيه الرحمة تعطفًا على أبيهم، وباطنها من قبله العذاب تنديدا شديدا بأبيهم، كيف
يأسى على يوسف الفقيد منذ سنين؟

تدأب فى ذكر يوسف حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا: مشرفا على الهلاك كما هلكت عيناك، أَوْ تَكُونَ
مِنَ أَهْلِ الْكَيْنِ، والحرص ما لا يعتد به ولا خير فيه، وهذه هلكة الإنسان فى كيانه قبل هلاكه
بموته، فلا هو حى كالأحياء، ولا ميت كالأموات! وهكذا يتظاهرون لأبيهم فى مظهر الناصح
المشفق ألا يتدوَّب بذكر يوسف الفقيد حيث ذهب دون عودة، ولكنه يرد عليهم ردا حازما
حاسما جازما: أنه لا يشكو إليهم ما كان منهم ولا يجزع لديهم:

لَإِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦).

البث المقارن للحزن هو الحزن المبتوث حين يغلى مرجه فينبث باختيار ودون اختيار، حيث
يظهر فى ملامح الوجه وفتلات اللسان ومعارض الأركان، والحزن همّ دونه حيث يملك
ستاره، وشكوى البث والحزن هى الاختيارى منهما وقد اختاره يعقوب إلى الله، لا سواه،
لمكان، إنما، فلا يشكوهما إلى أحد حتى أهله وولده، وهذه هى قمة الشعور بمقام الربوبية
فى قلب منقلب إلى الله، موصول النياط بالله، فى لألاء باهر وجلال غامر.

فليس بعد الزمان، واستنكار الولدان لذلك التطلع الدائب بعد هذا الأمد البعيد، ليسا هما
وأمثالهما من مَوَسَاتٍ بالتى تَوُرُّ فى أمل الرجل الصالح الواثق بربه، فإنه يعلم من الله ما
لا يعلمون هوَاء المحجوبون.

ولذلك يدأب فى شكواه بئا وحزنا إليه، ويمضى حياته عليه، ولحد ايضاض عينيه من كمد
البكاء دون لفظه قول ولا لحظة عين ولا أية إشارة فى شكواه إلى غير الله، وهنا نضرب
بالرواية القائلة خلاف الآية عرض الحائط حين تقول: كتب يعقوب بكتاب له إلى العزيز
يشكو فيه كل شكواه، فحتى لو كان يعلم أنه يوسف ما كان له أن يشكو إليه، ولكنه لم يعلم^١

^١ نور الثقلين ٣: ٤٦١ ج ١٨٢ فى امالى شيخ الطائفة باسناده الى أبى جعفر محمد بن على الباقر عليه السلام قال: فلما كان من أمر،
اخوة يوسف ما كان كتب يعقوب الى يوسف و هو لا يعلم أنه يوسف ...

أنه هو فكيف يشكو إلى العزيز الذي هو بطبيعة الحال مشرك ويستجده ويسترحمه في نفسه؟ ويطلب منه أن يتصدق عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أصبح حزينا على الدنيا أصبح ساخطا على ربه ومن أصبح يشكو مصيبة أنزلت به فإنما يشكو الله ومن تضعف لغنى لينال من دنياه أحبط الله ثلثي عمله...»^١، و من بث لم يصبر^٢، وقد قال يعقوب: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، فقد صبر جميلا ولم يبت إلا إلى الله لا سواه، وهكذا يكون من عند الله، مطمئنا بالله، مجاهدا في الله، جاحدا لغير الله إلا في أمر بأمر الله، وكما أمرهم: يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَ لَا تَيَأَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَأَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَاْفِرُونَ (٨٧).

فليست الثقة بالله والتكلان على الله بالذي يبطل التوسل بالأسباب، ويعطل ابتغاء الوسيلة إلى رحمة الله وكما قال الله: «وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ! وهنا يتجلى - وضح الشمس في رابعة النهار - أنه كان على علم بحياة يوسف^٣ وطبعا بوحى من الله، وكما أوّل رُوَاهُ في الأوّل: «وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ...» وقد كرر قوله: «إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، لما ارتد بصيرا: «فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ آفَاءَ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، فكان مما يعلم من الله حياة يوسف!

و كأنّ التحسس والتجسس سواء في معنى التفتيش لكننا الأوّل في غير شر والثاني في الشر، فالتفتيش عن عورات الناس وأسرارهم المخبوءة التي لا يرضون كشف الستر عنها هو التجسس، وقد منع عنه باتا، «وَ لَا تَجَسَّسُوا، واما التفتيش عما سواها، ولا سيما الأشياء أو الأمور التي تخصك من حقك، فهو التجسس، أن تبالغ في استعمال حواسك ظاهرة وباطنة

^١ الدر المنثور ٤: ٣١- اخرج البيهقي في الشعب عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله و في آخره: و من أعطي القرآن فدخل النار فأبعده الله.

^٢ المصدر- اخرج ابن عدي و البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: .. ثم قرأ الآية.

^٣ نور الثقلين ٣: ٤٥٥ ج ١٦٦ في كتاب كمال الدين و تمام النعمة و قال الصادق عليه السلام ان يعقوب قال لملك الموت: اخبرني عن الأرواح تقبضها مجتمعة أو متفرقة؟ قال: بل متفرقة، قال: فهل قبضت روح يوسف في جملة ما قبضت من الأرواح؟ فقال: لا، فعند ذلك قال لبيته «يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا...» و رواه مثله في العلل باسناده الى حنان بن سدير عن أبيه قال قلت لابي جعفر عليه السلام ...

لتجد ضالتك المنشودة، وهكذا يأمر يعقوب بنيه.

.. اذهبوا، إلى مذاهب التحسس ومطائه فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ، فكبيرهم لا يتحسس فإنه فى نفس الأرض التى تركتموها، وأخى يوسف الموقوف عند العزيز لا يدرى مسيره ومصيره فليسأل عنه العزيز، ويوسف نفسه يسأل عنه العزيز وغير العزيز، فالمذهب الأول فى ذهابكم هو العزيز وكما ذهبوا إليه.

اذهبوا فَتَحَسَّسُوا ... وَ لَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، كما يستم لحد تنصحووننى ألا أذكر يوسف، فروح الله غير ما يوس منه إلا لمن يكفر بالله، أو يستر عن معرفة الله بروحه ورحمته: «وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ»، (١٥: ٥٦).

الروح والروح هما من أصل واحد هو الحياة، واختص الأولى بالنفس كلها، والثانية بنفسها وراحتها، وللروح كما الروح نسبة إلى الإنسان وأضرابه كما فى الواقعة: فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ، فَرَوْحٌ وَ رِيحَانٌ وَ جَنَّةٌ نَعِيمٌ، (٥٦: ٨٩) وأخرى إلى الله كما هنا رَوْحِ اللَّهِ، تنفيسا منه عن كرب، كمن يتنفس عن خنق، فيستريح بعد عذاب، فروح الله - إذا - هى رحمته بعد نقمته، بتنفيسه بعد خنقه وحنقه لخلقه، حيث الروح هو تنسيم الريح التى يلذ شميمها ويطيب نسيمها، فشبه الفرج الذى يأتى بعد الكربة ويترك بعد اللزبة، بنسيم الريح الذى تراح القلوب له وتتلج الصدور به، وكما يروى ان الريح من نفس الله، أى من تنفيسه عن خلقه، وهذا روح فى الظاهر، ومن ثم روح فى الباطن ينسم على الروح نسمة الراحة بعد الكربة. فالكافرون بالله بدركاته آيسون من روح الله بعد كربه، ولكننا المومنون بالله بدرجاتهم لا يياسون من روح الله ورحمته، ولو أحاط بهم كل كربة ومصيبة، مستظلين فى ظل روحه من الكرب الخانق حيث ينسم على أرواحهم من نسمة روح الله الندى، حيث يشعرون فى طمأنينة بنفحاته المحيية الرخيئة المنفسة عن كل كرب.

و روح الله المستكن فى أبدان المومنين، هو الكافل لروح الله، روح فى روح وروح يضمن الروح، فهما لصق بعض فى المومنين، كما هما منفيان عن الكافرين! أجل و الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يوسهم من روح الله ولم يوسهم

مكر الله^١، فإن القنوط من رحمة الله في حد الكفر بالله، فهو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله^٢.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨).

إنه لم يكن في أمر يعقوب أن يذهبوا إلى العزيز إلّا ضمن ما يتحسس عن بنيامين عنده، فضلا عن أن يكتب إليه بكتاب يمس من كرامة النبوة والإيمان كما يهرفه المحرفون الخارفون، فضلا عن أن يطلبوا إليه تصدقا عليهم شكوى إليه من الضر الذي مسهم وأهلهم، وهم في هذا اللقاء لم يطلبوا إليه تسريحا لبنيامين لا ظاهرا ولا تصريحاً، وإنما المطلوب أولا وأخيرا إيفاء الكيل ببضاعة مزجاة وتصدقا زائدا على الإيفاء، اللهم إلّا أن تشملته تصدق، وليس بذلك البعيد، ولكنه - إذا - مطلوب ضمنى في آخر المطاف، وليكن أولا لأنه أولى من إيفاء الكيل.

وعلّهم لأنهم في هذه الجيئة الفجيعة لا يرجون من العزيز تعزيزهم لسابق السرقة من أحدهم فيما يزعمون، لا ينطلق ألسنتهم لإطلاق سراح أخيهم صراحا، فعلمهم يجربونه بتقديم بيان حالهم وأهلهم، فإذا عرفوا انعطافا طلبوا إليه طلبهم الأصيل، وقد تطلبوه في «وَصَدَّقْ عَلَيْنَا». دخلوا عليه للمرة الثالثة، ولكنها مرة فالسة كالسة، وقد أضرت بهم المجاعة، ومستهم وأهلهم الضر والضراوة، ونفدت منهم كل بضاعة إلّا مزجاة مقلعة، يدخلون منكسرين منحسرين ما لم يعهد لهم من ذي قبل وعند ذلك تمت كلمة الربوبية: «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ، فِي واجهته أمام الإخوة حيث ذلوا وانكسروا أمامه.

و«بِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ» كأنها الكاسدة غير الطائفة من متاع قليل رث، لأنها البقية الباقية مما يملكون، حيث المزجاة من الإزجاء الإقلاع قلة إلى قلة كما أن «اللَّهُ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ» فالسحاب مزجاة مقلعة من مختلف الأبخرة الجوية، قليلة قليلة، فإذا ألفت

^١ نور الثقلين ٣: ٤٥٦ عن نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين علي عليه السلام.

^٢ المصدر في الفقيه في باب معرفة الكبائر التي أوعده الله عز وجل عليها النار عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام، بعد ان ذكر الشرك بالله وبعده اليأس من روح الله لان الله عز وجل يقول: إِنَّهُ لَا يُيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْفُؤْمُ الْكَافِرُونَ».

كثرت، مهما بان البون بين مزجاء ومزجاء! فبضاعة مزجاء من هواء الذين مسهم وأهلهم
الضرر ليست إلا ١٨٩

ما يجمع منهم كأخريات البضاعات المتبقية لديهم حيث قلت في مس الضرر، ورئت ببأسه،
فلم تحصل في هذه المزجاء إلا قلة في كم وقلة في كيف، فهم حين لم يكونوا واثقين ان
يعطوا كيلا ببضاعة مغلاة لسابقهم السوء، يتطلبون إليه أن يوفى لهم الكيل ببضاعة مزجاء، ثم
ويتصدق عليهم، حيث لمسوا فيه سايق العطف من إيفاء كيل وإنزال خير، حين كانت
بضاعتهم وافية، فكيف إذا كانت تافهة مزجاء، فعلة - إذا - يرحمهم ثم ويتصدق عليهم.

هنا - وقد بلغ بهم الأمر إلى ذلك الحد الحاد من استرحام في تضييق وانكسار
وانحسار - لم يملك يوسف نفسه أن يمضى في تمثيل دور العزيز، فقد انتهت الدروس
واندرست عليهم معالم بيت النبوة في ذلك الشخوص كل دروس، وحان حين المفاجأة
العظمى التي لا تخطر لهم ببال .. فهنا يتلمع في لمحة لائحة كأنه هو يوسف:

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩).

يرن في آذانهم رنة تجرسهم في أعماقهم، تذكرة لها نبراتها على علاقتها في يوسف وأخيه إذ
هم جاهلون، فهل إنه هو يوسف حيث يخبرنا بما فعلنا بيوسف وأخيه؟ وهو في سمت
العزيز وأبهته! وتراهم فعلوا بيوسف وأخيه ما فعلوه وهم جاهلون يوسف وأخاه، ام جاهلون
نكر ما فعلوه؟ فهم إذا معذورون؟ كلاً، حيث الجهل هنا التجاهل على عمد، فكل ذنب
عمله العبد وإن كان عالماً فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربه،^١

و «هَلْ عَلِمْتُمْ» تنديد بهم فيما جهلوا ثم الآن علموا بما فعلوا، علما بمدى العصيان في ذلك
الطغيان حيث وقعوا في فخره الآن فكيف بما يأتيهم بعد الآن؟! وفي «إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ» تبرير
لموقفهم الآن أنهم ليسوا بجاهلين، فان جهالة الصبا والغرور مضت والآن وقت النبهة والعلم
فالتوبة عما كان.

ثم وفي ذلك تصديق لما أوحى إليه من قبل: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَثَرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا

^١ مجمع البيان و روى عن أبي عبد الله عليه السلام انه قال: كل ذنب ... فقد حكى الله سبحانه قول يوسف لإخوته «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ
يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ» فنسبهم الى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله.

يَشْعُرُونَ، وقد نبههم الآن بما كان وهم لا يشعرون أنك لانت يوسف حتى شعروا بذلك
الإنباء ثم علموا بعد ما سألوا:

قَالُوا أَيْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ
اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠).

سُئِلَ استفهام بكل استعجاب حيث يرونهم أمام يوسف - الصغير الطريد الشريد - صغاراً و
صغاراً، وهو الآن ذلك الرجل الكبير الكبير، فأين «تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ»؟! وهنالكَ
لمعة التصديق أننا لما نفاجاً بقاء القائم المهدي روى وأرواح العالمين لترات مقدمه الفداء
نقول لقد رأيناه مرارا وتكرارا والآن كما كان، ف «في القائم عليه السلام شبهه من يوسف في غيبته
ومعرفته، وكما في متظافر الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام عليه السلام»^١.

و أكرم بيوسف وأعظم بعطفه على إخوته حين يعرف بنفسه وأخيه إخوته، دون أن يعلنهم
بما فعلوه إلّا في إجمال مضي، وليكون ذريعة منبهة لتعريفه، وإنما يذكرهم بما من الله عليه
وعلى أخيه بما أحسنوا في صبرهم وتقواهم، وفيه لمحة بتنديدهم حيث أساءوا بما طغوا إذ
لم يصبروا ولم يتقوا.

و ترى ما هو موقف «و هذا أخى» تعريفا بمن يعرفونه حيث الفصل قصير وهم عارفون أنه
عنده؟. علّه إلحاق قاصد بنفسه لكي يشملهما معا كل ما ياتي به من تبجيل وتجليل، وأن
دورهما واحد في البراءة، وما حسدوا وما من الله عليهما، ولكي يزيدوا به معرفة كما عرفوا
يوسف بمحتده.

و التاكيدات الثلاث في سوّ لهم: «أَيْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ» تكشف عن مدى حيرتهم في أبعاد
بعيدة، ثم الجواب دون تأكيد «قَالَ أَنَا يُوسُفُ» لعدم الحاجة فيه، حيث العزيز أعز من أن

^١ نور الثقلين ٢: ٤٥٩ ج ١٧٧ في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى سدير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: في القائم
شبيهة من يوسف عليه السلام قلت: كأنك تذكر خبره او غيبته؟ فقال لي: ما تنكر من هذه الامة أشباه الخنازير؟ ان اخوة يوسف كانوا
أسباطا و أولاد أنبياء تاجروا يوسف و بايعوه و هم اخوته و هو أخوهم فلم يعرفوه حتى قال لهم: انا يوسف، فما تنكر هذه الامة ان
يكون الله عز و جل في وقت من الأوقات يريد ان يبين حجته، لقد كلن بينه و بين والده مسيرة ثمانية عشر يوما فلو أراد الله عز و
جل ان يعرفه مكانه لقدر على ذلك و الله لقد سار يعقوب و ولده عند البشارة مسيرة تسعة ايام من بدوهم الى مصر فما تنكر هذه
الامة ان يكون الله عز و جل يفعل بحجته ما فعل بيوسف ان يسير في أسواقهم و يطأ بسطهم و هم لا يعرفونه حتى يأذن الله عز و
جل ان يعرفهم نفسه كما اذن ليوسف حتى قال لهم: هل علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه إذ أنتم جاهلون. قالوا ءانتك لانت يوسف قال
انا يوسف و هذا اخي...» و رواه مثله عن سدير عنه عليه السلام في الكافي باختلاف يسير.

يكذب، ثم لا يحترق في أمر نفسه حتى يود.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢).

و ذلك منهم اعتراف بفضيلته ورذيلتهم حيث آثره الله عليهم وأذلهم أمامه خلاف ما كانوا يظنون.

و ترى هل يأخذه فرح الإيثار وترحه باستكبار، كلًا ما ذلك الظن بذلك العبد الصالح، فإنه يقابلهم بكل تكريم وإكبار، ناجحًا في ابتلاءه بالنعمة كما نجح في ابتلاءه بالنقمة، وهذه هي شيمه الرجال الكرماء وكما فعله الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله في فتح مكة حيث «صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل مكة ماذا تظنون؟ ماذا تقولون؟ قالوا نظن خيرا و نقول خيرا ابن عم كريم قد قدرت، قال فاني أقول كما قال أخى يوسف: لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ^١ .. فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام^٢.

ذلك مهما كان البون بين يوسف ومحمد كما البون بين إخوته واهل مكة، ولكن الكرم نفس الكرم وإن كان درجات.

قال لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ، والثرب شحمة رقيقة هي غاشية الكرش، والتثريب هو إزالة هذه الغاشية فيبين الكرش، فهو هنا التقرع والتعييب بالذنب، وكما يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يثربها، فإن في تثريبها مع جلدها اعتداء عليها بأكثر من ذنبها، وفي تأنيبها دون جلدها تبديل حكم الله إلى غيره! بذلك الصفح ينهى موقفهم المخجل الشائن وكأنه هو الذى يعتذر منهم، فقد انتهى أمرى على أمره ولم تعد له

^١ الدر المنثور ٤: ٣٤- اخرج ابن مردويه عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح مكة صعد المنبر ...

^٢ المصدر اخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح مكة طاف بالبيت ركعتين و صلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال ماذا تقولون و ماذا تظنون قالوا نقول ابن أخ و ابن عم حلیم رحيم فقال صلى الله عليه وآله أقول كما قال يوسف: لا تثريب .. فخرجوا ..
وفي نور الثقلين ٢: ٤٦٠ ح ١٨٠ في الكافي بإسناده عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله مكة يوم افتتاحها فتح باب الكعبة فأمر بصور في الكعبة فطمست فأخذ بعضادتي الباب فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده ماذا تقولون ...

جذور، و إذا كان من حقى اعتداء بالمثل فأنا أرجح العفو، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ..

ذلك خطأكم عندي و لا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ، وأما عند الله فقد يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، لأنى قد غفرت لكم واستغفرت وإذا أنا- العبد المربوب- أرحمكم وأغفر لكم، فبأن يرحمكم الله و يغفر أخرى وأحق، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، لا سيما وأن غضبه لم يكن إلا لاغتصابى باغتصابى عن أبى! ثم يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، قد تجمع بين الإخبار والإنشاء وما أحلاه جمعا وما أجمعه حلوا. و هكذا يكون حق الناس، أن الله لا يغفر لمن ضيعه إلا ان يغفره صاحب الحق، وما أحسنه إذا كان الغافر له هو المستغفر له بجنب استغفار الخاطى لنفسه بعد اعترافه بالخطيئة.

لا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ، منى كصاحب الحق الأصيل، ولا ممن سواى وبأحرى حيث الدخيل زائل بزوال الأصيل، لا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ، مهما كان عليكم قبل اليوم تثرىب ونخجيل كما كان من يعقوب من ذى قبل بحق القول: قَالَ هَلْ أَمَنْتُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ... (٦٤)

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً، (٨٣) وكما كان منى أنا لَمَّا اتَّهَمْتُمُونِي وَأَخِي بِالسَّرْقَةِ: قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ، (٧٧).

فمهما كان قبل اليوم عليكم تثرىب منى ومن أبينا، ولكننا اليوم لا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ، فيه إذ قد مضى دور الامتحان والامتحان، وحن حين اللطف والحنان، منا ومن الرب الملك المنان.

ف اليوم، إنما هو ظرف ل لا تَثْرِبَ ..، دون يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، فان قضيته أديبا تأخيره: يغفر الله لكم اليوم، ليكون نصا لمظروفه دون تردد، ولان غفر الله لهم ما تمت شروطه بعد ولما يغفرهم يعقوب ويستغفر لهم! وكما طلبوا إليه، يا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، (٩٨)، ومن ثم فذلك من سوء الأدب والجرأة على الرب أن يقال عنه يغفر الله لكم اليوم، ولا يملك أحد غفره ولا وقته حين يغفر، وإنما على العبد أن يستغفر دون تحديد لأصل الغفر أو وقته!

و إذا كان اليوم يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، فما لهم يطلبون إلى يعقوب ان يستغفر لهم وهو يعدهم، وهذا تكذيب منهم ومن يعقوب ل اليوم يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ!.

و إنها لضابطة أخلاقية ضابطة على الإنسان زهوة القدرة والرئاسة، وزهرة النصره فى المعركة، وقد ازدهى يوسف وازدهر حيث أصبح عزيزا فى بلد الفراغة، فجاءت إخوته متصاغرين أمامه، معتذرين، ولكنه ينهى أمرهم ويعذرهم لا فى حقه فحسب: لا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ، بل وتطلبا من الله أن يغفر لهم: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، ثم البقية الباقية هى غفرة واستغفارة من أبيهم وقد فعل: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي.

و من ثم لا نسمع من يوسف صغيرة بعد ولا كبيرة بحق الإخوة، إلا محاولة مسرعة فى تفرج الكربة عن أبيه بشارة عملية وقولية:

ج سورة يوسف (١٢): الآيات ٩٣ الى ٢٠١ ج

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَ اتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَ قَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَ رَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَ قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَ جَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبُّ قَدْ آتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمَنِي مِمَّنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَ لِي فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ تَوْفِيقِي مُسْلِمًا وَ الْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَ اتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤).

أ ترى ما هو بِقَمِيصِي هذا؟ أهو الذى جاؤ عليه بدم كذب؟ وقد جاؤ عليه وما رجعوه لأنهم ما عرفوه حتى عرفهم نفسه! إذا فهو قميص آخر عله كان شعاره، وهم جاؤ على

قميصه الدثار بدم كذب! ومن ثم ترى كيف يجد ريح يوسف من قميصه لما فصلت العير، و بينهما زهاء ثمانين فرسخاً؟ وكيف يرتد بصيرا بعد ما كان ضريرا لما يلقى على وجهه؟ إنهما من عجاب أمر النبيين الكريمين ولا عجب، فإنهما اتقيا الله وصبرا لله وأن الله لا يضيع اجر المحسنين.

بِقَمِيصِي هذا، في هذه الإضافة المشرقة دليل على أن القميص اكتسب منه ما اكتسب، مهما كان له سابق فضل وسابغة أن نزل به جبرئيل من الجنة لإبراهيم فكان لابسه حين ألقى في النار، ثم انتقل إلى إسحاق فيعقوب فيوسف، ولكن الجنة ليست بأشرف من هواء النبيين بل هم أشرف وأعلى، وأعرف منها وأنبي! فكل بنفسه جنه لبس قميص الجنة، فكان جنه عن نار إبراهيم، وعن جب يوسف، وتوارثه النبيون حتى وصل إلى خاتم النبيين صلى الله عليه وآله ومنه إلى أوصيائه المعصومين، وهو الآن عند القائم المهدي من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين^١.

ولقد وجد الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله ريح أو يس القرنى على حد قوله صلى الله عليه وآله: «تفوح رائحة الجنة من قبل قرن وا شوقاه إليك يا أويس القرنى ألا ومن لقيه فليقرأه مني السلام ..»^٢ هذا ولما رآه الرسول صلى الله عليه وآله ولما رأى هو الرسول صلى الله عليه وآله. فانما الأصل روضة المعرفة الروحية.

هذان نبيان يشمان ريح محبوب من مسافة بعيدة، وقد يشمها بعض المؤمنين وليس بذلك

^١ نور الثقلين ٢: ٤٦٣ ج ١٨٧ في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى مفضل بن عمر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: أتدري ما كان قميص يوسف؟ قال: قلت لا. قال: ان ابراهيم لما أوقدت له النار نزل اليه جبرئيل عليه السلام بالقميص و البسه إياه فلم يضر معه حر و لا برد فلما حضرته الوفاة جعله في تميمة و علقه على إسحاق و علقه إسحاق على يعقوب فلما ولد له يوسف علقه عليه و كان في عضده حتى كان من امره ما كان فلما أخرج يوسف بمصر من التميمية وجد يعقوب ريحه و هو قوله عز و جل حكاية عنه «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَن تُفَنِّدُون» فهو ذلك القميص الذي انزل من الجنة، قلت جعلت فداك فالي من صار هذا القميص؟ قال: الي اهله ثم يكون مع قائمنا إذا خرج، ثم قال: كل نبي ورث علما او غيره فقد انتهى الي محمد و آله.

^٢ سفينة البحار ١: ٥٣ روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه كان يقول: تفوح ... فقيل يا رسول الله صلى الله عليه وآله من أويس القرنى؟ قال: ان غاب عنكم لم تفتقدوه و ان ظهر لكم لم تكثرثوا به يدخل الجنة في شفاعة مثل ربيعة و مضر، يؤن بي و لا يراني و يقائل بين يدي خليفتي امير المؤمنين علي بن أبي طالب، في صفين وفيه عن امير المؤمنين عليه السلام انه أخبره النبي صلى الله عليه وآله انه يدرك رجلا من أمته يقال له اويس القرنى يكون من حزب الله يموت على الشهادة يدخل في شفاعة مثل ربيعة و مضر. أقول: انه احد الزهاد الثمانية من أخص جوارى امير المؤمنين عليه السلام.

الغريب من فضل الله لمن يتقى الله!

«ذَهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا، إِلَى أَبِي، فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا، كَمَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ ضَرِيرًا» وَ «أَتَوْنِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ، بِأَبْوِينَا وَسَائِرِ أَهْلِكُمْ أَزْوَاجًا وَبَنِينَ وَبَنَاتٍ وَأَحْفَادًا لِمَكَانِ أَجْمَعِينَ».

«وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ، وَطَبَعَا مِنْ حَضْرَةِ الصَّدِيقِ فَإِنَّهُ الْفَصْلُ الْأَوَّلُ لِلْعِيرِ، دُونَ مَفَارِقِ الطَّرِيقِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ فَإِنَّ عِبَارَتَهُ: «وَصَلَّتْ، دُونَ:

فَصَلَّتْ، وَلِمَاذَا نَفَصَلَ نَصَ الْخَارِقَةِ الْإِلَهِيَّةِ عَنْ نَفْسِهَا، وَصَلَا بِظَاهِرَةِ عَادِيَّةٍ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا تَحْوِيرًا لَا يَبْقَى دَلَالَةٌ قَائِمَةٌ لِنَصِّ أَوْ ظَاهِرِ.

«وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ، وَبَيْنَهُمَا وَبَيْنَ يَعْقُوبَ لِيَالٍ عَشْرٍ، قَالَ أَبُوهُمْ، لِمَنْ تَبَقَّى عِنْدَهُ مِنْ أَبْنَاءِهِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ مَا ذَهَبُوا لِيَتَحَسَّسُوا عَنْ يَوْسُفَ إِلَّا نَفَرَ مِنْهُمْ، قَالَ: «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يَوْسُفَ لَوْ لَا أَنْ تُفَنِّدُونِ، كَمَا فَنَدْتُمُونِي مِنْ قَبْلِ: إِذْ قَالُوا لِيَوْسُفَ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْنَا وَ نَحْنُ غَضَبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، (٨).

والتفنيد هو نسبة الإنسان إلى الفند وهو ضعف الرأي، وقد نسبوه إليه من ذى قبل وفيما هاهنا مزيد: قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم (٩٥). حيث زادوا على القديم، تالله، لأنه زاد في آيات الشغف من حبه، «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يَوْسُفَ»، مما يدل على خارقة فيه إلهية، رغم أن يوسف - بزعمهم - أدرج إدراج الرياح، فأين يوسف حتى يوجد ريحه من بعيد أو قريب، لا سيما وأن أبناءه الحضور ليس لهم علم ولا احتمال بحياة يوسف، لذلك جن جنونهم بحقه ونسبوه إلى ضلال مبين في وجهه، بدل أن يداروه ويماروه عله يأنس - في زعمهم - بظنه، وتراهم كفروا مرة بعد أخرى بنسبة الضلال المبين إلى أبيهم النبي الكريم؟ إنها إن كانت نسبة الضلالة في الدين كانت خروجاً ارتداداً عن الدين، ولكنها - بمناسبة الحال - ليست إلا ضلالاً في حب يوسف وأخيه، إذ كانوا يرونهم أنفسهم - وهم عصبه - أحق من يوسف وأخيه في ذلك الحب، فظنوا - بجهلهم - أن أباهم ضال عن الحكمة الأبوية بين ولده تقديمًا

^١ قال لي صديق تقي من اهل المعرفة ان فلانا من اهل الله اتاني الى منزلي في المشهد المقدس الرضوي في بعض سفراتي فاستغربت ذلك و قلت له من ذلك على بيتي و لم ادل عليه أحدا؟ قال: دلتني ربحك اشتممت فشممت ربحك فأنتك!

لمفضولهم على أفاضلهم أم ترجيحاً دون مرجح، دون علم بأن ذلك أيضاً كفر بالوحي، إذ لا يقول النبي ولا يفعل إلا بوحي! إلا أن ذلك أيضاً خروج عن الإيمان بهذه الرسالة السامية كما يحق، فأصبحوا - على حدّ تعبير الامام الصادق عليه السلام - «و لا بررة أتقياء»¹ بل هم فسقة أطغياء، وكما يدل على ذلك استغفار يوسف وأبيه لهم، والمرتد عن فطرة لا غفران له إلا قتلا.

مضت أيام السفرة الراجعة، ووقعت مفاجأة بعيدة فوق المفاجأة، وليعلموا أن وعد الله حق وأن الله لا يهدى كيد الخائنين، ولقد كان ذلك الريح الذي وجده من روح الله الذي أمرهم برجائه:

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦).

وعلّ البشير هو الكبير بينهم وله سابقة سابقة من بينهم حيث دلهم على «أن يجعلوه في غيابة الجب» دون أن يلقوه فيه أو يلغوه يذهب هباء، وأخيراً قال لهم: «فكن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي، فبطبيعة الحال يتخبه الصديق لهذه البشارة السارة وكما في رواية. و هنا نرى يعقوب يقول لهم بديلاً عن أي تنديد أو تثريب: «ألم أقل لكم إنني أعلم من الله ما لا تعلمون» من حياة يوسف، ووجدان ريعه؟

تنبيهها لهم بموقفه من الله فلا ضلال فيه أيا كان وأيان.

قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨).

يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا، عي في الاستغفار لعظم الذنوب، وأنها أضرت بحقه ومست من كرامته، فليكن هو الذي يستغفر لهم بعد ما استغفروا لأنفسهم، ولأنه نبي مستجاب الدعوة و كما في نبينا: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا لله واستغفر لهم الرسول»

¹ في تفسير العياشي عن نشيط بن صالح البجلي قال قلت لابي عبد الله عليه السلام أكان إخوة يوسف عليه السلام أنبياء؟ قال: لا ولا بررة أتقياء، كيف و هم يقولون لأبيهم يعقوب «تالله إنك لفي ضلالك القديم». وفيه عن سليمان بن عبد الله الطلحي قال لابي عبد الله عليه السلام ما حال بني يعقوب هل خرجوا من الإيمان؟ فقال: نعم قلت: فما تقول في آدم؟ قال: دع آدم.

لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا، (٤: ٦٤).

و من آداب الاستغفار الاعتراف بالخطأ وقد اعترفوا، وترى كيف يسوّف أبوهم الاستغفار لهم؟ وخير البرّ ما كان عاجله، وهو وعدهم آجله!

و لكن ليس عاجل الخير دوما خيرا من آجله، حيث الخير الآجل يفوق عاجله، فالاستغفار في نفسه خير وعاجله خير على خير، إلا أنه خير منه في الآجل المستجاب، وكما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله، أخرهم إلى السحر لان دعاء السحر مستجاب،^١ أو «حتى تأتي ليلة الجمعة، او حتى نجتمع بيوسف لأنه صاحب الحق اخرج الترمذى وحسنه و الحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال جاء علي بن أبي طالب الى النبي صلى الله عليه وآله فقال: بابي وامى تفلت هذا القرآن من صدرى فما اجدنى اقدر عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله يا أبا الحسن أ فلا أعلمك كلمات ينفعك الله يهن وينفع الله يهن من علمه ويثبت ما تعلمته في صدرك؟ قال: اجل يا رسول الله صلى الله عليه وآله فعلمنى - قال صلى الله عليه وآله: إذا كانت ليلة الجمعة فان استطعت ان تقوم ثلث الليل الأخير فانه ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال اخى يعقوب لبنيه «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، فان لم تستطع فقم في وسطها فان لم تستطع فقم في أولها فصل اربع ركعات تقرأ في الركعة الاولى بفاتحة الكتاب وسورة يس وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان وفي الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب والم تنزيل السجدة وفي الركعة الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله واحسن الثناء مع الله وصل على وعلى سائر النبيين واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولاخوانك الذين سبقوك بالايمان ثم قل في آخر ذلك اللهم ارحمنى الأصيل، لا لان قلب الشاب ارق من قلب الشيخ!^٢

^١ الدر المنثور ٤: ٣٦- اخرج ابو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله لم أخرج يعقوب بنيه في الاستغفار؟ قال: أخرهم .. و رواه مثله في الكافي عن المفضل بن أبي قرة عن أبي عبد الله و الفقيه عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام و العياشي مرسل عنه عليه السلام و زاد: قال يا رب انما ذنبيهم فيما بيني وبينهم فأوحى الله اني قد غفرت لهم.

^٢ المصدر ٤٦٥ ج ١٩٦ في العلل باسناده الى إسماعيل بن الفضل الهاشمي قال قلت لجعفر بن محمد عليه السلام اخبرني عن يعقوب عليه السلام لما قال له بنوه: يا أبانا استغفر لنا... فأخر الاستغفار لهم و يوسف عليه السلام لما قالوا له: «تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَ إِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» قال: لان قلب الشاب ارق

ام ليختبرهم هل استغفروا خالصا وتابوا توبة نصوحا حتى يستغفر لهم، وكل صالح لتأجيل الاستغفار والجمع أجمل.

وما أجمل تعبير يوسف حيث استغفر لهم: **يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ**، دون **غفر الله**، فإنه فى وجه الإخبار يضرب إلى المستقبل حين لقياً أبيه، لأنه أيضا صاحب حق، وهو فى وجه الإنشاء مشروط بشروطه ومنها أن يغفر الأب ويستغفر، والصيغة العاجلة للاستغفار هى **غفر الله لكم**، والشاملة لها **واللجلة** هى: **يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ**.

ف **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي**، تسوّف استغفاره لهم لتحقق الغفر تماما، وأما هو فقد غفرهم حالا دون نظرة الاستقبال، وهنالك يتم الاستغفار بشروطه وقتا وحقا وحقية.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبُوئِهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبُوئِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠).

و تراهم **دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ**، فى قصره؟ فما ذا يعنى - إذا - بقوله **ادْخُلُوا مِصْرَ**.. وهم داخلون، فان قصره فى أدخل دواخل البلد وأفضله؟ **أدخلوا**، لمحة لامعة أنه استقبلهم إلى خارج مصر و**دخلوا**، توحى بانه أعد لهم خارجه بيتا أم فسفاطا يليق بنزولهم. و يا له من مشهد لطيف عطيف فى اللقيا الأولى بعد كرور الأعوام بامتحانات وامتهانات، و بعد الأشواق المضنية والأحزان الكامدة الهامدة، واللهورف الظامئة، حافل بخنقات وانفعالات، وفرحات ودموعات.

ذلك المشهد الختامى السامى، الموصول بالمطلع الدامى، مما يحير العقول ويذكر أولى الألباب.

هناك من يوسف خطوات أربع رائعات بين فعلة وقالة، كلها تكريمات لهم ولا سيما أبويه، و بينهما فعلة منهم لديه. ١ (أوى إليه أبويه، ضمهما إليه يطمئنهما بمأواهم لديه وعلى يمينه،

من قلب الشيخ، و كان جنابة ولد يعقوب على يوسف و جنابيتهم على يعقوب انما كانت بجنابيتهم على يوسف فيادر يوسف الى العفو عن حقه و آخر يعقوب العفو لان عفو انما كان عن حق غيره فاخرهم الى السحر ليلة الجمعة.

حيث الإيواء ضم إلى مأوى وملجأ ومن الدليل عليه:

٢- (وَ قَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ، دخولا إن شاء الله،

و آمنين إن شاء الله، فان فى سماح الدخول الى بلد الفراعنة- فضلا عن الأمن فيه- ما فيه، ولذلك يصدر أمره كملك للمملكة إزاحة لكل الحواجز وإراحة لخواطر الوافدين ليأمنوا كل الأمن منذ وفودهم، وانه ليست زيارة مؤنة بحاجة إلى تاشيرة خاصة، فإنما هو الوفود الخلود مدى الحياة ما دام لملكه وجود.

٣- (وَ رَفَعَ أَبُو يَهُ عَلَيْهِ الْعَرْشُ، فعلة الثالثة هى أرفع من الأولين حيث رفعهما إلى عرشه ما لم تسبق له سابقة فى زمرة الملوك، وما أدرى هل ارتفع هو على عرشه لما رفعهما عليه أم بقى تحت العرش؟ لا دلالة هنا ولا تلميح نفية وإثباتا، ثم العرش بطبيعة الحال هو عرش الملك الكائن مكان القصر دون خارج البلد حيث استقبلهم.

٤- (وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا.

خروا، جمعا تعنيهما مع إخوته وكما رأى فى المنام، أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ، وهنا يقول بعد خروور السجدة، يا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ...،

أ تراهم- بمن فيهم من أبيه وأمه- سجدوا له سجدوا له سجدوهم لله؟ وذلك من المحرمات القطعية الأولية فى كافة الشرايع الإلهية! أم سجدوا له كعادة عائدة إلى سنة الفراعنة حيث كانوا يسجدون لهم؟ وليس يوسف فرعوننا يسجد له كما لفرعون! وليس نبى الله يعقوب ممن يساير المشركين فى الطقوس الشركية! أم سجدوا له احتراماً لديه دون عبودية وعبادة؟ وسجدة الاحترام لغير الله اخترام لساحة الله وتسوية بالله: تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ! ثم الوالد النبى كيف يحترم ولده لحد السجود،

و لو جاز أن يسجد أحد لأحد لكان يوسف هو الذى يسجد لأبويه لعظم حرمة الوالدين! أم كان يوسف قبله لهم فى ذلك السجودة دون عبودية ولا احترام؟

و سجود القبلة سجود إليها، لا سجود لها، وهنا خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا! ثم القبلة توقيفية وليست فوضى جزاف، ولكل شرعة قبله يشرعها الله! أم- وعلى حد المروى عن الإمام الرضا عليه السلام- «أما سجود يعقوب وولده فإنه لم يكن ليوسف وإنما كان من يعقوب وولده طاعة لله

وتحيةً ليوسف كما كان السجود من الملائكة لآدم ولم يكن لآدم وإنما كان منهم ذلك طاعةً لله وتحيةً لآدم، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم الم تر أنه يقول في شكر ذلك الوقت: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ...؟!»^١

فكما ان آدم كان مسجوداً له شكراً لله، لا مسجوداً له عبادةً له واحتراماً كما لله، كذلك يوسف كان مسجوداً له شكراً دون عبادة او احترام، لا سيما إذا كان ساجداً معهم! أ ترى - بعد - ان يوسف انتقص من حرمة أبويه أن «دخله عز الملك فلم ينزل إليه، حتى يجزى بانقطاع النبوة عن نسله؟^٢ وقد استقبلهما إلى خارج مصر وقال ما قال وفعل ما فعل بحرمتهم وكرامتهم! أو تراه لم يترجل لأبيه حين لقيه وقد ترجل له أبوه؟ أن «أَخَذْتَهُ الْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَكَيْسَ الْمُهَادِّ، (٣: ٢٠٦) و«أَوَى إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ، تركل وترجل ذلك الترجل المدسوس الذي يمس من كرامة النبوة! ففي ذلك الإيواء كل مراحل التكريم والتعظيم، ومن ثم «رَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ، تكمله له وتتميم! فكيف «أَخَذْتَهُ الْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ؟! ولم تزدده عزة

^١ نور الثقلين ٣: ٤٦٨ ج ٢٠٩ - القمي حدثني محمد بن عيسى ان يحيى بن أكثم سأل موسى بن محمد بن علي عن مسائل فعرضها على أبي الحسن عليه السلام وكان أحدها: اخبرني عن قول الله عز وجل «وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» سجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء؟ فأجاب ابو الحسن: اما سجود ...

أقول «وهم أنبياء» يؤل الى يوسف ويعقوب دونهم ام يطرح كما يطرح ذيل الحديث: «فنزل عليه جبرئيل فقال له يا يوسف اخرج يدك فأخرجها فخرج بين أصابعه نور فقال يوسف ما هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذه النبوة أخرجها الله من صلبك لأنك لم تقم الى أبيك فحط الله نوره و محى النبوة من صلبه وجعلها في ولد لاوى اخي يوسف وذلك لأنهم لما أرادوا قتل يوسف قال: لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابت الجب» فشكره الله على ذلك لأنهم لما أرادوا ان يرجعوا الى أبيهم من مصر وقد حبس يوسف أخاه قال: «فَلَنْ أُبْرِخَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتَنِي لِي أَبِي ..» فشكر الله له ذلك وكانوا أنبياء بني إسرائيل من ولد لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم وكان موسى من ولده وهو موسى بن عمران بن بهصر بن واهث بن لاوي. ثم أقول وفقاً لصدر الحديث بروى القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما دخلوا عليه سجدوا شكراً لله وحده حين نظروا اليه وكان ذلك السجود لله وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: كان سجودهم ذلك عبادة لله.

^٢ نور الثقلين: ٢: ٤٦٦ ح ٢٠١ في اصول الكافي عدة من أصحابنا عن احمد بن محمد عن مروك بن عبيد عن حدثه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ان يوسف لما قدم عليه الشيخ يعقوب عليه السلام دخله عز الملك فلم ينزل اليه فهبط جبرئيل عليه السلام فقال يا يوسف ابسط راحتك فخرج منها نور ساطع فصار في جو السماء فقال يوسف يا جبرئيل! ما هذا النور الذي خرج من راحتي؟ فقال: نزلت النبوة من عقبك عقوبة لما لم تنزل الى الشيخ يعقوب فلا يكون من عقبك نبي.

^٣ المصدر ح ٢٠٣ في كتاب علل الشرايع بلسناده الى يعقوب بن يزيد عن غير واحد رفعوه الى أبي عبد الله عليه السلام قال: لما تلقى يوسف يعقوب ترجل له يعقوب ولم يترجل له يوسف فلم ينفصلا من العناق حتى أتاه جبرئيل فقال له: يا يوسف ترجل لك الصديق ولم تترجل له ابسط يدك ...

وبلسناده الى هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما اقبل يعقوب الى مصر خرج يوسف ليتقبله فلما رآه يوسف هم بان يترجل ليعقوب ثم نظر الى ما هو فيه من الملك فلم يفعل فلما سلم على يعقوب نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال له يا يوسف ان الله تبارك وتعالى يقول لك، ما منعك ان تنزل الى عبيد الصالح ما أنت فيه؟ ابسط يدك ... فقال ما هذا يا جبرئيل فقال: انه لا يخرج من صلبك نبي ابدا عقوبة لك بما صنعت بيعقوب إذ لم تنزل اليه.

الملك إلا تواضعا وتواظنا.

ولئن دخله عز الملك - لا سمح الله - فلم ينزل إليه ولم يترجل فهل يستحق بذلك انقطاع النبوة عن نسله؟ «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، لو كان هناك وزر! وهل كان وزره المفتري أوزر من وزر لاوى أخيه الأكبر وقد شاركهم فى استلابه عن أبيه، وأفجعه طيلة سنين حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم واحدودب ظهره فهو هضيم؟ حيث يجعل الله النبوة فى نسله شكرا لما نهاهم عن قتله، ولأنه لم يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه! ولئن كان مشكور - وهو مشكور - كان ذلك على هامش الحفاظ على حياة يوسف، واحترام أبيه بعد احترامه، فكيف - إذا - يشكر هو دون يوسف، فتقطع النبوة من نسله وتوضع فى نسل اللاوى وكيف يفترى على الصديق انه ترك الإحسان إلى أبويه أو أهانهما، تركا لأعم الواجبات وأهمها أمام الوالدين! ثم انتسال النبوة من صلب دون صلب لا يفضل الأول تنديدا بالآخر، فهل كان فى انتسال الإمامة من صلب الحسين عليه السلام تفضيلا له على أخيه الحسن، وتنديدا بالحسن، والحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا».

و بعد ذلك كله كيف تنتزع النبوة المقدره فى نسل عنه وهو تخطئة فى التكوين والتشريع معا، فهلا علم الله ذلك من يوسف فقدّر النبوة فى نسله، ثم لما حصل ما حصل فصلها عن نسله؟ ثم النسل ليس إلا فى الصلب فكيف سلبه جبرئيل من راحته؟! إن هذه إلا خرافات إسرائيلية اختلقت فى أحاديثنا بأيدى الجعل والتجديف، فليعرض عرض الحائط لمخالفاتها لكتاب الله وضرورات من دين الله.

«... وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا... وهذا، تعنى كل ما حصل ما من اجتناء واصطفاء ومنه، «خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، ثم يذكر قسما من فواضله: «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ، وهذا دليل براءته عن فريئة إنساء الشيطان إياه ذكر ربه، فان خروجه من السجن كان من نتائج «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ... وليس إحسانه تعالى به مجرد إخراجه من السجن وإلا كان إدخاله فيه إساءة وهو الذى طلبه فاستجيب له: «رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ... فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ... وإنما هو إحسان إذ أخرجه إخراجا حسنا تصحبه براءته مما أدخله السجن، فلم يقل «أحسن بى أن أخرجنى، بل «إِذْ أَخْرَجَنِي، إحصانا فى كيفية الإخراج دون أصله، وكما

أحسن إليه إذ دخل السجن حيث صرف به عنه كيدهن.

«وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ، حَيْثُ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْبَدْوِ فَأَسْكَنَهُمْ يَوْسُفُ فِي مِصْرَ، مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْتِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، وَذَلِكَ الَّذِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، يَعْطِفُ بِالْقَصَصِ إِلَى أَوْلِهِ إِذْ قَالَ يَعْقُوبُ حِينَ أَوَّلَ رُؤْيَاهُ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، خَتَامُ الْمَسْكَ كِبْدَايَةٌ.

و ما أطفه تعبيرا عما حسده إخوته وأجرموا بحقه، مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْتِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، فالشيطان هو الشرير الأصيل في ذلك المسرح، والنزغ هو الدخول في أمر لإفساده، فقد دخل الشيطان فيما حسدوا فدخل حتى عمقه إذ حمقهم، وَإِذَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، (٤١: ٣٦).

قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢).

و هذه شيممة الصالحين الذين لا تأخذهم العزة بالإثم، فلا ينسون في ملكهم وعزتهم ربهم، ولا تأخذهم زهوة الملك وزهرته، فكيف يفترى على الصديق أن دخله عز الملك فلم ينزل إلى أبيه؟! وصاحب الملك المسلم، المعترف برحمته، يطلب الزيادة في ملكه، ولكن هذا الملك الصديق بعد ما يعترف بالعطية الإلهية كنعمة دنيوية:

«رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ، وبأحرى هي نعم العلم النبوة: «وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، عَطْفًا بِهِمَا إِلَى عَطْفِهِ وَلَطْفِهِ لِأَنَّهُ «فَاتِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، واعترافا بولايته المطلقة عليه: «أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فأنت المدبر أمرى فيهما، ليس لي إلا ما دبرت وقدرت، دون أن أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فأنت أنت الولي لا ولي سواك، وأنا العبد المولى لك لا أعبد سواك.

بعد ذلك كله لا يطلب منه إلا إسلاما في الدنيا وصلاحا في الآخرة:

«تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ، والتوفى هو الأخذ وافيا على أية حال، في الدنيا وحسين الموت وفي الآخرة حالكوني «مسلمًا، كما طلبه أبي إبراهيم:

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ، وأنا من ذريته، وذلك الإسلام هو مرتبة بعد كمال الايمان، دونما كان قبل الايمان او معه، فإنما الإسلام الخالص الناصع بقمته العليا، فخذني وافيا بإسلام، و ألحقني، هنا وفي الآخرة بالصالحين، وهذا من غاية التواضع عند الله أن صالحا كالصديق يطلب منه إلحاقه بالصالحين وهم - بطبيعة الحال - من هو أصلح منه في مثلت الزمان، فلم يكن الصديق يطلب هنا موته كما يقال، فان حياة الرسول نعمة له وللمرسل إليهم، ولم يكن سواه في توفيه مسلما إلا تثبينا له في إسلامه طول خط الحياة حتى الممات، لا أنى مسلم فتوفنى موتا، ولا اجعلنى مسلما حين أموت، ولا أن أحدا من الأنبياء لم يسأل الموت إلا يوسف! حيث يسأله كل الصالحين: رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَ تَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، (٣: ١٩٣) .. رَبَّنَا أفرغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، (٣: ١٢٦) .. فحتى إذا كان ذلك سوا لا للوفاة فليس إلا لأجله المسمى، أن يكون حال الإسلام، استمرارية لحد الوفاة.

و لقد وردت روايات أن يوسف عليه السلام عاش بعد لقياه ردحا كثيرا من الزمن^١ وقد تشير له الآية:

«وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا، (٤٠: ٣٤) فليعش يوسف في بنى إسرائيل فترة حتى يصدق لَقَدْ جَاء، وليس ذلك إلا منذ ذلك اللقيا لفترة طائلة تناسل فيها آل إسرائيل، ام بعد وفاة يعقوب^٢!.

^١ نور الثقلين ٢: ٧٣٣ في كتاب كمال الدين و تمام النعمة، باسناده الى محمد بن جعفر عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عاش يعقوب بن إسحاق مائة و أربعين سنة و عاش يوسف بن يعقوب عليه السلام مائة و عشرين سنة، أقول أكثر ما كان في بيت العزيز و في السجن و في ملكه قبل لقياه بابويه عشرون و كان قبله مرافقا دون تكليف زهاء تسعة الى ثلاثة عشر فذلك دون الأربعين فيبقى ثمانون و كما في المجمع في كتاب النبوة بالإسناد الى محمد بن مسلم- الى قوله- و بالإسناد عن أبي خالد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: دخل يوسف السجن و هو ابن اثني عشرة سنة و مكث فيه ثماني عشرة سنة و بقي بعد خروجه ثمانين سنة فذلك مائة سنة و عشرين سنين. أقول: ليس دخوله السجن إلا بعد بلوغه الحكم و بالإمكان كونه الثاني عشر من عمره.

^٢ مجمع البيان في كتاب النبوة باسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت له: كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر؟ قال: عاش حولين قلت: فمن كان الحجة لله في الأرض يعقوب ام يوسف؟ قال: كان يعقوب و كان الملك ليوسف فلما مات يعقوب حمله يوسف في تابوت الى ارض الشام فدفن في بيت المقدس فكان يوسف بعد يعقوب الحجة قلت: فكان يوسف رسولا نبيا؟ قال: نعم اما تسمع قوله عز و جل: «لَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ..»؟ ..

أ تراه- بعد- يزهو بزهوة الدنيا وزهرتها لحد ينسى أبويه فلا يترجل لهما أن دخله عز الملك.

و مما يحير العقول نقل هذه الأحاديث الزور من المختلقات الإسرائيلية في جوامعنا الروائية والتفسيرية دون نقد، ويكأنها هي الأصل وكتاب الله هو الفرع، فإذا ورد حديث في شيء لا يسأل عن آيته وإن كان ضعيفا فضلا عن صحته في سنده، وإذا وردت آية يسأل عن حديثها الذي يفسرها، فان لم يرد حديث يبطل معنى الآية! وإن ورد ولا سيما بسند صحيح - فهو الذي يفسر الآية وإن كان خلاف ظاهرها أو نصها، وهذا هو التعامى عن أصالة الكتاب إلى أصالة الحديث، وذلك ترك للأصليين وهجر للقرآن وفيه، «وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا»، والآن كما كان وعلى طول الخط في التاريخ الإسلامي مما سبب اختلاف المذاهب واختلاق البدع الجارفة.

ذلك، الذي قصصنا عليك هو «مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ» فالتوراة ينقله محرفا منكوسا، والأحاديث - إلّا ما وافق القرآن - تأتي به مندرسا مركوسا.

و اما أنت يا رسول الهدى «وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ اجْتَمَعُوا أَمْرَهُمْ» الأمر في الصديق «وَهُمْ يَمْكُرُونَ» ماذا يفعلون، وليكونوا من بعده قوما صالحين.

هكذا يقص الله من أحسن القصص في يوسف وإخوته آيات للسائلين، فما صار بعد العزيز وامرأته والملك بعد ما أصبح يوسف هو العزيز بل والملك؟ لا ندرى إلا ما تدرينا أحاديث حول امرأة العزيز ومنها ما يروى عن باقر العلوم عليه السلام قال: لما أصابت امرأة العزيز الحاجة قيل لها لو أتيت يوسف بن يعقوب عليه السلام فشاورت في ذلك فقبل لها: إنا نخافه عليك قالت: كلا إني لا أخاف من يخاف الله فلما دخلت عليه فرأته في ملكه قالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكا بطاعته، وجعل الملوك عبيدا بمعصيته فتزوجها فوجدها بكرا فقال: أليس هذا أحسن؟ أليس هذا أجمل؟ فقالت: إني كنت بليت منك بأربع خصال: كنت أجمل أهل زمانى، وكنت أجمل أهل زمانك وكنت بكرا وكان زوجي غنياً!

¹ نور الثقلين ٣: ٤٧٣ ج ٢١٩ في أمالي شيخ الطائفة باسناده الى أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: ... أقول وفيه ٤٧١: ٢١٧ في كتاب علل الشرايع باسناده الى عبد الله بن المغيرة عن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: استأذنت

و ليس بذلك البعيد ان يتزوجها يوسف تركيزا لركيزة الإيمان فى قلبها ولأنها- على خيانتها- صدقته أمام نسوة فى المدينة وأمام الملك: «الآن حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَا بَدَ لَهَا مِنْ يَدِ بَيْدِهَا وَلَا سِيْمَا حِينَ الْيَأْسِ وَالْإِيَّاسِ وَلَا تِ حِينَ مَنَاصِ، فَتَجَدَّ عِنْدَ مَنْ خَاتَمَتِ الْخَلَاصَ فَتَوَّنَ بِاللَّهِ بِكُلِّ إِخْلَاصٍ!»

واذكر عبدنا أيوب

وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢).

أ ترى أن الله يسلم الشيطان على عبده و رسوله أيوب أن يمسه بنصب و عذاب، و «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ» و هو «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ»؟. هنالك سلطة ممنوعة للشيطان على المخلصين هي على عقولهم و أرواحهم و أعمالهم، لكيلا تبطل حجج الله على عباده، و هنا سلطة ممنوحة على أبدانهم و أموالهم هي من الابتلاءات الربانية الشاملة لعباد الله الأمثل منهم فالأمثل.

و السلطة الشيطانية على أيوب فى ربح من زمن المحنة لم تكن إلا على الناحية المادية، و

زليخا على يوسف فقيل لها: انا أنكره ان تقدم بك عليه لما كان منك اليه قالت: اني لا أخاف من يخاف الله فلما دخلت قال لها: يا زليخا ما لي أراك قد تغير لونك؟ قالت: الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصية عبيدا و جعل العبيد بطاعتهم ملوكا فقال لها: ما الذي دعاك الى ما كان منك قالت: حسن وجهك يا يوسف فقال: كيف لو رأيت نبيا يقال له محمد صلى الله عليه وآله يكون في آخر الزمان أحسن مني وجهها و أحسن مني خلقا و أسمح مني كفا؟ قالت: صدقت قال: و كيف علمت اني صدقت؟ قال: لأنك حين ذكرته وقع حبه في قلبي فأوحى الله عز و جل إلى يوسف إنها قد صدقت و اني قد أجبتنا لجمها محمدا فأمره الله تبارك و تعالى أن يتزوجها. وفيه ج ٢١٨ في تفسير القمي حدثني محمد بن عيسى ان يحيى بن أكنم سأل موسى بن محمد بن علي بن موسى مسائل فعرضها على أبي الحسن و كان أحدها اخبرني عن قول الله عز و جل «وَرَفَعْنَا أَيْوُبَ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا»- و قد سبق صدر الحديث- قال عليه السلام و لما مات العزيز في السنين الجدية افتقرت امرأة العزيز و احتاجت حتى سألت فقالوا لها: لو قعدت للعزيز- و كان يوسف سمي العزيز و كل ملك كان لهم سمي بهذا الاسم- فقالت استحي منه، فلم يزالوا بها حتى قعدت له فاقبل يوسف في موكبه فقامت اليه فقالت: سبحان الذي جعل الملوك بالمعصية عبيدا و جعل العبيد بالطاعة ملوكا فقال لها يوسف: أنت تيك؟ فقالت: نعم- و كان اسمها زليخا- فقل لها: هل لك في؟ قالت: دعني بعد ما كبرت أ تهزأ بي؟ قال: لا- قالت: نعم فأمر بها فحولت الى منزله و كانت هرمة فقال لها: الست فعلت بي كذا و كذا فقالت يا نبي الله لا تلمني فاني بليت ببلية لم يبيل بها احد قال: و ما هي؟ قالت: بليت بحبك و لم يخلق الله لك في الدنيا نظيرا و بليت بانته لم يكن بمصر امرأة أجمل مني و لا اكثر مني مالا فرعا مني و بليت بزواج عنين فقال لها يوسف: فما تريدين؟ فقالت: تسأل الله ان يرد علي شبابي فسأل الله فرد عليها شبابها فتزوجها و هي بكر.

قد بلورت فيها السماحة الروحية إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ.

فيا لهذا العذاب الجسداني من عذوبة روحية حين يصبر العبد عليه دونما شكوى ولا نكوى، وكما نراه في سائر الصالحين طول الزمن الرسالي من مختلف النصب التي تنصب لهم، والعذاب الذي يقصدهم في سبيل الدعوة، أم في طريق التكملة الرسالية لتكامل الدعوة، وهذه الثانية تمثلت لأيوب بِنُصَبٍ وَعَذَابٍ.

«وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ» (٢١: ٨٣-٨٤).

نصان في سائر القرآن يتحدثان عن بلوى أيوب وصبره عليها، باختصار في الأنبياء، وفصلا هنا.

ذلك النبي العظيم الذي طمع الشيطان في تضليله بنصبه وعذابه، أن يصدّه عن عبادة ربه أم ينقصه، ولم يصدّه ربه امتحانا لعبده، فعمل في ذلك واعتمل ولم يرجع عنه على طول المدة وطائل النصب والعذاب إلّا خاسئا وهو حسيرا! أجل، وليكن أيوب قبسا وهاجا في الإيمان، ومثلا عاليا وحيدا في الصبر واليقين، حيث ينكص الشيطان على أعقابهِ ويجمع شياطينه المردة، ويوحى لهم أن الله ليس ليصدهم عن أية أذى يريدونها بأيوب، فقالوا:

نجرّده عن أهله وماله وصحة حاله ليعود مجردا عن إيمانه حيث تشغله بليته باله هنا يريد الله بذلك السماح إمتحان عبده، ويريد الشيطان امتهانهُ، «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» ولقد سلط الشيطان على قصوره فجعلها قبورا، وعلّ على ولده أيضا فبدلهم ميتا، وعلى مواشيه وأمواله، وعلى بدنه، فقلبه في حظوظه المادية ظهر بطن لا يبقى له شيئا ولا يذر إلّا أطاح به ودمّر.

يريد الشيطان ليضطر عبد الله أيوب إلى اختراق ثوب الاضطراب إذا تهدمت عليه أركان حياته، في ماله وأولاده ودوره وحاله، ويريد الله ليجعل من أيوب عبدا صبورا أوأبا شكورا، تصبح قصته ذكرى للعابدين وعبرة للمصابين، وعزاء للمكروبيين، وسلوى للمرضى والزمنى والمجروحين.

مرت الأيام، وتحدرت الأعوام وأيوب لا يزال على شكاته حتى هزل جسمه وذهب لحمه،

وأصبح منقوف الوجه شاحب اللون، لا يقر على فراشه من الآلام. فرّ عنه الصديق، وجانبه الرفيق، ورغبت عنه شيعته ومن حوله إلّا زوجه الروف العطوف الحنون حيث تحننت عليه ما وسع قلبها الحنان، وعنيت به ما استطاعت إليه سبيلاً، ورقّت عليه بجناحيها، وبسطت له أكناف قلبها، وما شكت إلّا هموما تساورها من آلامه، و مخاوف تتحذرها على حياته، ولكنها ظلت أيام مرضه حامدة راضية، مؤنّة محتسبة. لهذا أعى أمر أيوب عبد الله إبليس عدو الله، ولم يجد إليه سبيلاً إلّا من قبل زوجه، فانطلق إليها وهى فى بعض شأنها مع أيوب، فتمثل لها رجلا وقال: أين زوجك؟ قالت: هوذا عميدا وقيذا، يتضور من الحمى، ويتقلب مما ألح عليه من الداء، فلا هو حى ولا هو ميت.

هنا طمع اللعين فى إغوائها فأخذ يذكرها بما كان لزوجها فى صدر شبابه وغضاضة إهابه من صحة وعافية ونعمة صافية، فأعادت لها الذكرى الأشجان، وأثارت لديها كوامن الأحزان، ثم أخذ يدركها الضجر وينساب إلى قلبها اليأس فذهبت إلى أيوب قائلة: حتى متى تعذب، أين المال؟ أين الجمال، أين الحال والعيال، أين شبابك الذاهب، أين عزك القديم؟! فأجابها قائلاً: أراك قد سوّل لك الشيطان أمرا، أتراك تبكين على عز فائت، و ولد مائت؟

فقالت: هلا دعوت الله أن يكشف عنك حزنك ويزيح بلواك؟

قال: كم مكثت فى الرخاء؟ قالت: ثمانين، قال: وكم فى البلاء؟

قالت سبعا.

قال: أستحى من ربي أن اطلب إليه كشف بلائى، ولما قضيت فيه مدة رخائى، ولكن يخيل لى أنه قد بدأ يضعف إيمانك، ويضيق بقضاء الله قلبك، ولئن برئت وأتنتى القوة لأضربنك مائة سوط، وحرام على أن آكل من يديك بعد اليوم طعاما أو أشرب شرابا، أو أكلفك أمرا، فاغربى عنى حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا! أصبح أيوب -الآن- وحيدا فريدا وقد اشتدت آلامه، وتضاعفت أسقامه، ففزع إلى ربه داعيا متحننا، لا شاكيا متبرما ف نادى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ، أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٢١: ٨٣) وذلك فى آخر

الامتحان، وكما تدل الآية التالية «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ...» استجابةً دون فصل! يشكو ربه الرحيم من الشيطان الرجيم دون أن يصارحه في كشف ضره، وإنما عرضاً لحاله «أَنْتَى مَسَّيَ الشَّيْطَانُ...» وقرنا لرحمته تعالى إلى حاله «وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَإِنْ رَأَيْتَ فَارْحَمْ عَبْدَكَ، وَإِلَّا فَأَنَا مِنَ الصَّابِرِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَوَرَّ عَرَضَهُ «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ...».

أجل! ولحد الآن يصمد أيوب لوسوسة الشيطان، فيرتقى إلى ذروة الإيمان «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ». «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ» - وليس الركض حسب العادة إلا برجل - فذلك لمحبة إلى مدى مرضه لحد لم يك يمشى برجل، ولكنه الآن «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ» عدوا قفزة أولى إلى الصحة، ثم وثانية إلى العافية: «هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ» فلم يكن يسطع قبل لاغتسال ولا شرب شراب.

فما شرب واغتسل حتى اندملت قروحه ظهر بطن، وبرئت جروحه، وكأن باردا الماء كان مرحما ملحما، رغم أنه يضر بالجروح في عادية الأحوال!

و لقد كانت زوجته رق قلبها وحدثت عليه ولم تطاوعها نفسها الكريمة الحنوننة أن تتركه و شأنه، وقد لزمته منذ أول بلائه على طول المدة وطائل المحنة، فرجعت إليه كعادتها تعاود إصلاح شأنه فتري عجبا حين ترى شابا مكتمل الشباب، غض الإهاب، مكتنز اللحم، وافر المنة والقوة، فحمدت الله على ما ردت إليه من عافية.

فهل إن أيوب يتركها ويستبدل بها غيرها، بعد أن يضربها مائة سوط كما عهد من ذى قبل؟ ما هكذا الظن به ولا المعروف من فضله، أن يتناسى حنانها الدائب، وحضورها الواصب. و حين لا يتركها فما ذا يفعل بعهد عليها وهو بلاء على بلاء وعناء على عناء، إذا يأتى الوحي الحبيب من الحبيب:

وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤).

خذ حزمة من القش والريحان تشتمل على مائة باقة واضرب بمجموعها زوجك مرة واحدة، حفيفا رقيقا رفيقا، رخصة لك فى يمينك، ورحمة بهذه المخلصة الصالحة التى احتملتك فى مرضك، وشاركتك فى الآمك!

و لئن سئلنا كيف يبتلى أيوب بمثل هذه البلية التى تنفر عنه الطباع، أ بذنب؟ والأنبياء لا

يذنبون، أم بغير ذنب فأسوء وأنكى، ومن لزامات الرسالات بقاء الرسل في حالة جذابة غير منفرة، والروايات تقول أصبح بدنه كله منتنا مدوداً.

فلنضرب بروايات متخلفات ومختلقات - تمس من ساحة نبي الله أيوب وتنتقص من سماحته - نضربها عرض الحائط، كما هو مصير آيات مختلقات متناقضات في العهد القديم، فقد طغت إسرائيليات في رواياتنا هنا وهناك فشوهت الحقيقة الناصعة التي أتى بها القرآن العظيم، ولا نوْن إلا بما جاء نصه في الذكر الحكيم.

و القول الفصل في الجواب في أصوب الصواب تجده عند باقر العلوم عليه السلام: ان أيوب عليه السلام ابتلى من غير ذنب، وإن الأنبياء لا يذنبون، لأنهم معصومون مطهرون، لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنبا صغيرا ولا كبيرا، وان أيوب عليه السلام مع جميع ما ابتلى به لم يتن له رائحة ولا قبحت له صورة، ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح ولا استقذره أحدا رآه، ولا استوحش منه احد شاهده، ولا تدود شيء من جسده، وهكذا يصنع الله عز وجل بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه، وإنما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره

^١ ففي حين يصفه حزقيال ١٤: ١٤ و ٢٠ بكمال العبودية و الايمان و انه تحمل ألوان الرزايا صابرا محتسبا- و: ليس كمثلته احد في كمال الاستقامة و التقوى أيوب ١: ٨ و ٢: ٣ و ٣: ٢٨ و ١: ٤٠ و ١: ٦ و ٤٢: ٧. نجده يصفه بما يناقضه: (قد كرهت نفسي حياتي، اسبب شكواي، أتكلم في مرارة نفسي قائلا لله: لا تستدلي، فهمني لماذا تخاصمني؟ أحسن عندك أن تظلم، ان تزدل عمل يديك و تشرف على مشورة الأشرار، ألك عينا بشر ام كنظر الإنسان تنظر ... حتى تبحث عن إثمي و تقتش على خطيئتي، في علمك إني لست مذنبا و لا منقذ من يدك ... ان ارتفع تصطادني كاسد ثم تعود و تتجبر علي، تجدد شهودك تجاهي و تزيد غضبك علي، نوب و جيش ضدي فلما ذا اخرجتني من الرحم ... (أيوب ١: ١٠-٨). أشكو بمرارة نفسي ... قد ذبت لا الى الأبد أحيأ ... ما هو الإنسان حتى تعتبره و تضع عليه قلبك و تتعهده كل صباح و كل لحظة تمتحنه، حتى متى لا تلتفت عني و لا ترخيني ريثما ابلع ريقى ... لماذا جعلتني عاثورا لنفسي حتى أكون على نفسي حملا ... (أيوب ٧: ١١-٢١).

فاعلموا ان الله قد عوجني ولف عليّ احبولته، ها اني اصرخ ظلما فلا استجاب، ادعوا و ليس حكم، و قد حوط طريقي فلا اعبر، و على سبيلي جعل ظلاما، ازال عني كرامتي و نزع تاج رأسي، هذمني من كل جهة فذهبت، و قلع مثل شجرة رجائي، و اضرم على غضبه و حبسني كاعداء معا جاءت عزاته و ادعوا على طريقهم و حلوا حول خيمتي، قد ابعد عني اخوتي، و معارفي زاغوا عني، اقاربي قد خذلوني، و الذين عرفوني نسوني، نزلاء بيتي و امنائي يحسبونني أجنيا، صرت في أعينهم غريبا ... نكهتي مكروهة عند امرأتي، و قممت عند أبناء احشائي، الأولاد ايضا رذلوني، إذا قمت يتكلمون عليّ كرهني كل رجالي و الذين أحبهم انقلبوا عليّ عظمي قد لصق بجسمي و لحمي و نجوت بجلد اسناني، ترأفوا ترأفوا انتم عليّ يا اصحابي، لأن يد الله قد مستني، لماذا تطاردوني كما الله، و لا تشبعون من لحمي، ليت كلماتي الآن تكتب، يا ليتها رسمت في سفر و نقرت الى الأبد في الصخر بقلم حديد و برصاص ... (١٩: ٦-٢٤).

«... من يعطيني أجده فأتي الى كرسيه، احسن الدعوى امامه، و أملاً فمي حججا فأعرف الأقوال التي يجيبني و افهم ما يقوله لي ... ها أنا ذا اذهب شرقا فليس هو هناك و غربا فلا أشعر به، شمالا حيث عمله فلا انظره، يتعطف الجنوب فلا أراه» (٣: ٢٤-٨) (حي هو الله الذي نزع حفي و القدير الذي امر نفسي) (٢: ٢٧). هذا! و لكن ربه يناقضه في هذه التهم «فقل الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي أيوب لأنه ليس مثله في الأرض رجل كامل و مستقيم يقني الله و يجيد عن الشر» ١: ٨ (الى الآن هو متمسك بكماله و قد هيجنتني عليه لأبتلعه بلا سبب (٢: ٣) فانظر الى هذه الشطحات المتناقضات في التوراة و الروايات المتأثرة بها ثم انظر الى القرآن الحكيم فاقض ما أنت قاض.

لجهلهم بماله عند ربه تعالى من التأيد والفرج، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: أعظم الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

ابتلاه الله بالبلاء العظيم الذي تهون معه على جميع الناس، لئلا يدعوا معه الربوبية إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظام نعمه متى شاهدوه، وليستدلوا بذلك على ان الثواب من الله تعالى ذكره على ضربين استحقاق واختصاص، ولئلا يحتقروا ضعيفا لضعفه، ولا فقيرا لفقره، ولا مريضا لمرضه، وليعلموا انه يسقم من يشاء، ويشفى من يشاء متى شاء بأى سبب، ويجعل ذلك عبرة لمن شاء، وشقاوة لمن شاء، وسعادة لمن يشاء، وهو عز وجل فى جميع ذلك عدل فى قضائه، وحكيم فى أفعاله، لا يفعل بعباده إلا الأصلح لهم ولا قوة لهم إلا به^١.

ثم فى إِذْ نَادَى رَبَّهُ، تلميحاً أنه ناداه استرحاما تربويا كما يراه الرب صالحا دونما اقتراح عليه أمرا، إِلَّا أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ. هنا وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فى الأنبياء. و نصب، هى مختلف التعب، و عذاب، فوق التعب وقد عبر عنهما فى الأنبياء ب أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ.

و قد يعم ضره الدعاية على رسالته تذرعا إليها بمرضه وذهاب ماله وولده، وذلك صورة عامة عن السيرة الرسالية لسائر المرسلين: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ» (٢٢: ٥٢).

و قد يعنى النصب سائر أتعابه الظاهرية، و عذاب، هو العذاب الروحى حيث كان الشيطان ينفر خلصائه القلائل وحتى زوجه الحنون، فيؤيه ضلالهم أشد مما يؤيه ضره! إن الله تعالى عافاه بمغتسل بارد وشراب فور دعائه، لا فحسب، بل: وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤).

أهله، تشمله زوجه، وبأحرى من سائر أهله، وقد كانت معه طيلة مصابه، فكيف وَوَهَبْنَا لَهُ

^١ تفسير البرهان ٤: ٥٣- ابن بابويه القمي بسند عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام.

أَهْلَهُ، ثم ماذا تعنى «وَمِثْلُهُمْ مَعَهُمْ»؟

هذه الوهبة الربانية تشير إلى انفصاله بينه وبين أهله ضمن مصابه الواصل إلى قمته، فرجعها الله إليه قبل دعاءه- كما رجع سائر أهله، ثم أتم وهبتها إليه بعد استجابته، حيث لم يرفضها، وعالج موقفه من يمينه أن يضربها ولا يحنث.

ثم الميئون من أهله خلال المحنة أحياءهم الله وهم تتمه من أهله، وعلّ مثلهم معهم عديد كأمثالهم ماتوا من ذى قبل فأحياءهم معهم¹ (رَحْمَةً مِنَّا، زائده على زحمة حصلت «وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ، أن الله لا ينسى الصابرين يوم الدنيا كما لا ينساهم يوم الدين.

و قد تعنى «مِثْلُهُمْ مَعَهُمْ» أنه أولد له مثلهم من ولده، وزوجة مثل زوجته، اللهم إلا هيه لو أنها ترفض الثانية فإنها على كونها رحمة له ولكنها- حسب العادة- لها زحمة ومشقة! ولكن «معهم» تلميحة لمعية الأهلية فليكونوا أهلين لعشرتهم، ساهلين فى عشيرتهم.

و لأن النص لا يشير إلى إحياء ميت من أهله، ولا أنهم أو بعضهم ماتوا فى هذه الفتنة، وأن «وهبنا، بعيدة عن إحياء، فقد تعنى الهبة إرجاع أهله إليه كما كانوا قبل الابتلاء، ثم أولد له مثلهم معهم.

ثم وفى أخذ الضغث- أن يضرب به ولا يحنث- دليل أنه كان ما حلف به مسموحا له غير ممنوع، تأديبا لزوجته فى محنته، إلا أنها لما رجعت عما صدر منها خفف الله عنها، وليس ذلك حيلة شرعية فان الله ليس ليحتال لنفسه وهو طرف الحلف، وإنما احتراما للحلف والحالف والمحلوف له كضابطة ثابتة فى كافة الالتزامات، أن يحافظ عليها، مهما يخفف عن وطئتها حينما يخف سببها.

و فى ذلك لمحة إلى مدى التخفيف عن مجازاة المجرمين، حين يخف الإجمام، أم فى العقوبة زيادة على الاستحقاق كما فى الزانيين الذين لا يتحملان الحد المقرر لهم أو

¹ تفسير البرهان ٤: ٥٢ محمد بن يعقوب باسناده عن يحيى بن عمران عن هارون بن خارجه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام فى الآية قلت: أحيا له ولده كيف اعطى مثلهم معهم؟ قال: أحيا له من ولده الذين ماتوا قبل ذلك بأجالهم مثل الذين هلكوا يومئذ.

ومرض^١.

ج سورة ص (٣٨): الآيات ٤٥ الى ٨٤ ج

وَ اذْكُرْ عِبَادَتَا اِبْرَاهِيمَ وَ اِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ اُولَى الْاَيْدِي وَ الْاَبْصَارِ (٤٥) اِنَّا اَخْلَصْنَاهُمْ
بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَ اِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْاَخْيَارِ (٤٧) وَ اذْكُرْ اِسْمَاعِيلَ وَ
الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِّنَ الْاَخْيَارِ (٤٨)

اذكر ابراهيم في مختلف بلواه وصبره الحكيم، وإسحاق في محتته، ويعقوب في يوسفه، وأولى
الأيدي: الطاقات الروحية في مختلف شئون الاضطراب والعبودية، وأولى الأبصار، وبصائر
القلوب، حيث كانوا يبصرون نفاذا إلى الأعماق، وقد تعنى الأيدي الأعمال الصالحة، و
الأبصار، النظر الصائب الثاقب والفكر السديد.

اِنَّا اَخْلَصْنَاهُمْ، فهم- إذا- من المخلصين الذين ليس للشيطان إليهم سبيل، كما درسناه هنا
في أيوب، أ ترى، أخلصناهم، دون مقابل وظرف صالح؟ كلاً، وإنما بخالصه، حيث هم
أخلصوا أنفسهم فليس، أخلصناهم، إلّا، بخالصه، وإنما خالصتهم هي ذكرى الدار، ذكرى
خالصة دون شائبة: ذكرى الله في الدار الدنيا، وذكرها أنها دار مجاز وممر، وذكرى ٢٦٥
الدار الأخرى، انها هي الحقيقة والمقر، وقد تكون خالصة صفة للأيدي والأبصار، أعمالاً
خالصة، وأبصاراً خالصة، تجتمعان في، ذكرى الدار.

فهذه الذكرى ذات العلاقتين بالنشأتين، هي التي جعلتهم يخلصون أنفسهم لله، ولكن
بخالصة ليس ليخلصهم لحد العصمة المطلقة، فإنها إخلص من الله يخالطه هي ذكرى
الدار، فليدركهم إخلص من الله.

فالعصمة الربانية هي في ظرف العصمة البشرية دونما فوضى جزاف، ولا ترجيحاً دون
مرجح! ثم، ذكرى الدار، هنا تذكر لهم ثم تذكير لغيرهم دون اختصاص بهم، وإلّا لم يصلحوا

^١ الدر المنثور ٥: ٣١٧- اخرج احمد و عبد بن حميد و ابن جرير و الطبراني و ابن عساکر عن سعد بن عبادة قال: كان في أبياتنا
انسان ضعيف مجدع فلم يرع اهل الدار الا و هو على امة من اهل الدار يعيب بها و كان مسلماً فرجع سعد شأنه الى رسول الله
صلی الله علیه و آله فقال: اضربوه حده فقالوا يا رسول الله صلى الله عليه وآله انه اضعف من ذلك ان ضربناه مائة قتلناه! قال: فخذوا له عتقاً فيه
مائة شمراخ فاضربوه واحدة ففعلوا!
أقول: ان صح النقل فلا بد من اثبات شرعي للزنا حتى يحكم الرسول صلى الله عليه وآله بما حكم و هنا روايات اخرى بألفاظ اخرى
يجمعها التخفيف عن الضعيف.

لإخلاص العصمة الخاصة بالدعوة المعصومة.

«وَ أَذْكَرُ إِسْمَاعِيلَ، بن ابراهيم صادق الوعد، وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلُّ مَنْ الْأَخْيَارِ، وقد نجد لهم نبأ في الأخبار!».

هو الرسل هم اقطاب الاصطبار في الله على مختلف درجاتهم، فلتكن ذكراهم تسليئة لخاطر النبي الأقدس وتقوية له في سفره الشاق الطويل الطويل، فهم رفاقه القدامى الذين عبدوا له سبيل السلام والإسلام عليهم السلام.

وأيوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر

وَ أَيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ٨٣ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ ٨٤.

و قصة أيوب مفصلة في «ص» ومجملة هنا، وقد فصلناها هناك كما فصلت، ونجملها هنا كما أجملت، وهي دعاء واستجابة ومزيد، وما الطفه وانظفه دعاء لا يتطلب فيه المبتلى كشف بلاءه، وانما هو عرض بلاءه: «أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ، وعرض الرب بعلياه «وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» فلا يدعو بتغيير حاله، ولا يقترح شيئا على ربه، تأدبا معه وتوقيرا وصبرا على بلائه، فهو من أفضل النماذج للعبد الصابر في بليته، دون اى تملل!

ثم نرى الاستجابة «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، سَوْهَ الْمَعْلُومِ عَنْ عَرْضِهِ وَسَوْهَ لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ، والضر ضما يختص بما يمس غير الروح، وليس للشيطان سبيل الى أرواح النبيين «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ» (٤١: ٣٨) وهي فتحا يعمهما، وضما كما هيه يخص غير الروح،

^١ في البحار عن الاحتجاج والتوحيد والعيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمد النوفلي عن الرضا عليه السلام فيما احتج به على جاثليق النصارى ان قال: ان اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى عليه السلام مشى على الماء وأحيى الموتى وأبرأ الأكمة والأبرص فلم يتخذ أمته ربا- الخير.

وعن قصص الأنبياء الصدوق عن الدقاق عن الاسدي عن سهل عن عبد العظيم الحسيني قال: كتبت الى أبي جعفر الثاني عليه السلام اسأله عن ذي الكفل ما اسمه؟

و هل كان من المرسلين؟ فكتب عليه السلام بعث الله عز و جل مائة الف نبي و اربعة و عشرين الف نبي مرسلون منهم ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا و ان ذا الكفل منهم و كان بعد سليمان بن داود و كان يقضي بين الناس كما يقضي داود و لم يغضب الا الله عز و جل و كان اسمه عوبديا و هو الذي ذكره الله جلّت عظمته في كتابه حيث قال: «وَ أَذْكَرُ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلُّ مَنْ الْأَخْيَارِ».

وعلى العذاب عبارة عنه اخرى.

وعلى «اهله» يعم زوجه وولده، أم وكل من كان يعوله من أقربائه وانسبائه، سواء الذين هلكوا في ضره، ام تفرقوا عنه، ف «آتيناه» تعم إحياء من هلك، ورجوع من سلك، ثم «وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ» قد تعنى مماثلة الكم والكيف، والمعية وهي الملائمة الموافقة، قد تلمح ان الزوجة الثانية انضمت الى الاولى بكل وئام واحترام، وكل ذلك «رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا لِأَيُّوبَ الصَّابِرِ فِي مُحَنِّتِهِ» وَ ذِكْرِي لِلْعَابِدِينَ، على مر الزمن ليقتفوا اثره في الصبر على الضر لله وفي الله، دونما شكوى على الله! وهنا اللمحة اللامعة ان العبودية كلما ازدادت وتقدمت ازداد العبد بلاء، ولكي يرتقى العابد بذلك المرقى ما لا يرتقى بسواه.

وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ٨٥ وَ أَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ٨٦

و اذكر «إسماعيل» ابن ابراهيم «وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ» في حياتهم الرسالية ف «كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ» ولا سيما إسماعيل إذ قال له أبوه «يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ».

فلذلك الصبر البالغ ذروته «وَ أَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ» فالصبر الصالح والصالح الصابر داخل في رحمة الله، والصبر مفتاح الفرج^١.

وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ٨٧ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَ كَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ ٨٨

«ذا النون» هذا وهو يونس بن متى النبي، يضرب هنا مثلا مذكرا لقصور الصبر اللائق في تطبيق الرسالة، بعد التذكير بأنبياء صابرين، وكما يلمح في «القلم»: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَى وَ هُوَ مَكْتُومٌ. لَوْ لَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (٦٨: ٥٠) والقصة مذكورة فيها وفي يونس والصفات، وفي كل تفصيل كما تعنيه آيتها، وهنا كما هيه، دون اعادة شاملة للثلاثة الباقية.

^١ راجع تفسير قصة إدريس في «مريم» و إسماعيل في «الصفات» و ذي الكفل في «ص».

و تراه هنا «إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا، ممن؟ أمن ربه؟ وهو كفر به، واين يذهب مغاضبا من ربه وليس له مكان، فانه محيط بكل كائن ومكان، وهو مع كل انس وجان! ثم «مغاضبا، تعنى غضب المتناولين، فليس غضبانا حتى يعنيه هو على ربه وسبحانه، وانما «مغاضبا، وطبعا مع من كانوا معه فى قريته، فقد غضب عليه قومه لكرور دعوته وصموده فى دعايته، فأيس منهم وغضب عليهم ف «ذَهَبَ مُغَاضِبًا، غضبا على قومه فى ذات الله إذ غضبوا عليه لدعوته الدائبة الى الله، فأيس من ايمانهم بالله، ولكنهم كان لهم استعداد للايمان ما كان يعلمه يونس ولا رجاء:

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ، (١٠: ٩٨).

فلان الموقف كان موقف الإياس من ايمانهم، فلم ير- إذا- بأسا من الذهاب عنهم مغاضبا، ولان ذهابه كان ذهاب المغاضب دون فرار عن الدعوة ام تمهل فيها، فظن، حسن ظنه بربه، أن لن نُقَدِرَ عَلَيْهِ، تضيقا فى ذلك الذهاب، فليس، نقدر، من القدرة، بل هو القدر الضيق كما «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، فى آيات عدة^١، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ، (٦٥: ٧).

فقضية الموقف الحاسم، ان لن تضيق عليه بذهابه عنهم مغاضبا، فلم يكن يرى فى ذلك الذهاب بأسا، بعد ما استعصى عليه قومه وهو مستقص فى دعوتهم، فغادرهم مغاضبا ولم يصبر على معاناتها بمماداتها وعرقلاتها، ظانا ان الله لن يضيق عليه الأرض، فهى فسيحة و القرى باقوامها كثيرة، وانه لن يضيق عليه توييخا لذهابه عنهم، إذ رأى نفسه معذورة فى ذهابه.

هذا الذى ظنه ذا النون، ولكن الرسالة الإلهية لها مسئوليتها الخطيرة، المحلقة على سائر المسوِّليات، فليس لصاحب الدعوة الرسالية ان يتركها، او يترك جو الدعوة بسند الإياس

^١ و هي ١٣: ٢٦ و ١٧: ٣٠ و ٢٨: ٨٢ و ٢٩: ٦٢ و ٣٠: ٣٧ و ٣٤: ٣٦ و ٣٩ و ٣٩: ٥٢ و ٤٢: ١٢، ثم لانجد «لا يقدر» بمعنى القدرة الا فى ٢: ٢٦٤ و ١٤: ١٨ و ٥٧: ٢٩، مما يجعل الترجيح للمعنى الاول عند التردد، فضلا عن موضع اليقين كما فى ذا النون. ٢: ٢٦٤ و ١٤: ١٨ و ٥٧: ٢٩، مما يجعل الترجيح للمعنى الاول عند التردد، فضلا عن موضع اليقين كما فى ذا النون.

عن تأثيرها، فانها ليست - فقط - نذرا، بل «عُذْرًا أَوْ نُذْرًا»، فحتى إن أيقن الداعية بعدم تأثير الدعوة فعليه المواصلة فيها حتى النفس الأخير، ولا يسمح له بالذهاب عنهم إلّا إذا خاف على نفسه عذابهم الناكل ام عذاب الله عليهم، ام مسا من كرامة الدعوة، فهناك المهاجرة حفاظا على الدعوة والداعية، لا إراحة لنفسه عن الدعوة غير المَوْرّة.

إذا فقد كان من ذا النون بعض التقصير فى الدعوة الصامدة، مهما يعذره بعض الإعذار ظنّه ان لن يضيق عليه ربه فى ذهابه عنهم مغاضبا، ولكنه كان ظنا بغير حساب ولا صواب، حيث الموقف الصالح لذلك الظن او اليقين بعدم التضييق هو تمام الدعوة، ولا تتم بنفس الإياس الا إذا واجه امرا أهم إمرا من واجب الدعوة العاذرة غير المَوْرّة، كالخطر على الدعوة او الداعية، وقد هاجر الرسول صلى الله عليه وآله أرض الدعوة الاصيلّة الى اخرى لما هجره وأرادوا ليقتلوه، فانقلب واجبه المقام الى المهاجرة الى المدينة، حتى أسس فيها دولة الإسلام ورجع فى نهاية امره الى مكة فاتحا محبورا مشكورا.

و هاجر موسى ومن معه فرارا من بأس فرعون وملئه، و ابراهيم ولوط حيث نجا هما الله الى الأرض المباركة، ولوط حيث نجى باهله عن قومه الهاجم عليهم الخطر الناجم عن تكذيبهم «فَأَسْرَبَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ!».

و اما ان يذهب الداعية عن جو الدعوة بمجرد انهم بالفعل لم يتأثروا بها، فلا، عليهم يتأثرون فى المستقبل، ام تلزمهم الحجّة الدائبة عليهم إذا كانوا ممن «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»، ولكن الدعوة المتواصلة ليست سواء عليك وانما عليهم.

فأصحاب الدعوات رسولية ورسالية لا بدل لهم ان يتحملوا تكاليفها، صبرا على التكذيب بها والإيذاء من أجلها، ومهما كان تكذيب الصادق الأمين مريرا عليه ولكن الصبر عليه هو بعض تكاليف الرسالة.

لا يجوز للداعية ان يياس من إصلاح النفوس المتمردة، فإذا كانت المئات لم تصل الى القلوب فلتكن ألفا وآلاف، فقد تصل مرة الى القلب مهما كان كرور الدعوة المستمرة مرة، وحتى إذا أيقن - وكيف له ذلك وأنى - انه سواء عليهم الإنذار وتركه، فليواصل فى دعوته عذرا، كما كانت قبل نذرا.

اجل، وان طريق الدعوات ليست هينة ولا استجابة النفوس يسيرة، فهناك ركام من مختلف الشبهات والشيطانات تجثم على القلوب لا بد من إزالتها بكرور الدعوة، باية وسيلة ممكنة، تلمّسا لكافة المراكز الحساسة، محاولة العثور على العصب الحساس، وقد تصادف إحدى اللمسات ذلك

العصب فيتحول تحولا، وكما قوم يونس آمنوا لما رأوا بأس الله، ايمانا صالحا لدفع العذاب، رغم ان الايمان عند رُؤ البأس لا يفيد: «فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْتَسَّرَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ» (١٠: ٩٨). ان الدعوة هي الأصل «عُذْرًا أَوْ نُذْرًا» لا شخص الداعية ام شخصيته، اللهم الا فيما أصبحت الدعوة في خطر بالقضاء عليها ام على الداعية، فالى المهاجرة حفاظا على أصلها واستمراريتها في مجالات اخرى.

لقد سجن ذا النون في بطن الحوت النون تأديبا له أديبا لماذا استعجل عن قومه «فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ» ظلمة بطن الحوت وظلمة الليل وظلمة البحر^١، «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» إقرارا بالتوحيد «سبحانك، تنزيها لله عن كل ما يمس من كرامته وعن ان يظلم عبده في ظلماته، ثم إقرارا بظلمه: انتقاصا عن واجب الدعوة «إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» ظلما بنفسى لمكان نقصى كرسول. و تراه كيف ناله عهد من الله رسالة «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» إذا كان ظلما قبل الرسالة، وهو ظالم حين الرسالة؟ «وَإِنْ يُؤْتَسَّرَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ» إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (٣٧: ١٤٠)!. ان «عهدى» الذى لا ينال الظالمين هو عهد الإمامة دون مطلق الرسالة، والظلم الذى ينافى الرسالة هو المعتمد الخائن فى حمل الرسالة او أدائها، دون الانتقاص عن كمالها، المجبر بتأديب الله، ولا سيما إذا كان الله يمتحن الرسول بذلك الانتقاص، تنبيها له انه ليس على شىء لولا رحمة من الله وعصمة وتسديد، وقد يصدق فيه ما يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله فى دعائه «اللهم ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين ابدا، فسألته ام سلمة فى ذلك فقال صلى الله عليه وآله

^١ البحار ١٤: ٣٨٣ فى رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال فى تفسير الظلمات ... و فى ٣٨٧ روى مثله عن الإمام الرضا عليه السلام.

يا ام سلمة وما يؤننى وانما وكل الله يونس بن متى الى نفسه طرفه عين فكان منه ما كان^١ و قد يشبهه ظلمه هذا ظلم موسى قال رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ (٢٨: ١٦) مهما كان ذلك قبل رسالته، وهما على أية حال أدنى من ظلم آدم حين عصى ربه فغوى. ثم وعلها لابن متى كما لموسى كانت رسالة تدريبية تجريبية، حتى إذا اكتمل بعثه لرسالة اصلية، وقد تشهد له «وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» بعد قوله بعده آيات «وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» ولكي يثبت على حاق رسالته وحقها دون اى تفلت عنها او تفلت! فلما أناب ذا النون الى ربه بما أناب «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ» دعاءه «وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ» عما قصر «وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» حين يدعون كذلك الذى دعى ذا النون. و لقد تكاثرت الروايات وتضاربت حول قصة يونس، بين ما تكذبها الآيات ام لا تصدقها، وما تصدقها الآيات، فلا نصدق منها إلا ما صدقته، ولا نكذب إلا ما كذبتة، ثم نتردد فى عوانها لا مصدقة ولا مكذبة.

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ٨٩. ان قصة ولادة يحيى العجيبه مضت فى سورة آل عمران ومريم، وهنا لا تَذَرْنِي فَرْدًا استدعاء لولد «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» (١٩: ٦). و لما كانت هذه الوراثه المطلوبه توهم أن لولاها لم تكن هناك وراثه والله خير الوارثين، يلحق دعاءه بتلك الوراثه الإلهية، وانه يطلب وارثا من جنسه حتى يرثه فى حمل الرسالة الإلهية، فحتى ان لم ترزقنى ولدا ف «أَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ» وان رزقتنيه ايضا ف «أَنْتَ خَيْرُ

^١ البحار ١٤: ٣٨٤ عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد الله ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله في بيت ام سلمة في ليلتها فقدته من الفراش فدخلها من ذلك ما يدخل النساء فقامت تطلبه في جوانب البيت حتى انتهت اليه و هو في جانب من البيت قائما رافعا يديه بيكي و هو يقول: اللهم لا تنزع مني صالح ما اعطيني ابداء، اللهم و لا تكني الى نفسي طرفه عين ابداء، اللهم لا تشمت بي عدوا و لا حاسدا ابداء، اللهم لا تزدني في سوء استنفذتني منه ابداء، قال: فانصرفت ام سلمة تبكي حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله اليها فبكت لها ما يبكيك يا ام سلمة؟ فقالت: بابي أنت و امي يا رسول الله صلى الله عليه وآله و لم لا ابكي و أنت بالمكان الذي أنت به من الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر، تسأله ان لا يشمت بك عدوا ابداء و ان لا يردك في سوء استنفذك منه ابداء و ان لا ينزع منك صالح ما أعطاك ابداء و ان لا يكلك الى نفسك طرفه عين ابداء فقال يا ام سلمة ... نقلناه بكامله عن الهامش نقلا عن الأصل. وفيه (٣٨٧) عن الكافي ٢: ٥٨١ عن ابن أبي يعفور قال سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول- و هو رافع يده الى السماء- رب لا تكني الى نفسي طرفه عين ابداء» لا اقل من ذلك و لا اكثر، قال: فما كان بأسرع من ان تحدر الدموع من جوانب لحيته، ثم اقبل علي فقال: يا ابن أبي يعفور ان يونس بن متى و كله الله عز و جل الى نفسه اقل من طرفه عين فأحدث ذلك الذنب قلت: فيبلغ به كفرا أصلحك الله؟ قال: لا و لكن الموت على تلك الحال هلاك.

الوارثين.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ٩٠.

و أصلحنا، زوجه عن عقرها إذا كانت عاقرا، ثم «و وهبنا له يحيى» من قبل، قد تعنى فيما عنت إصلاح حاله عن كبره إذ قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا... وإني خفت أموالى من ورأى و كانت امرأتى عاقرا فهب لي من لدنك وليا.

هذه تبين لنا ان المسارعة فى الخيرات والدعاء رغبا ورهبا والخشوع لله، ان فى ذلك مادة الاجابة الخارقة للعادة فى الادعية الصالحة، وكما نرى السابقين والمقربين وشطرا من اصحاب اليمن تستجاب لهم دعواتهم العجيبة.

و العبادة «رغبا» هى الرغبة فى الله ثوبا ولقاء ورضوانا، ورهبا، هى الإشفاق من الله خوفا ورهبة وفرقا منه، والدرجة العليا من الرغب والرهب تناسب السابقين والمقربين الذين يعبدون الله حبا له، ثم سائر الناس عبيد «رهبا» ام تجار «رغبا».

و الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ٩١.

و الروح المنفوخ فيها هو المسيح، وفى الطلاق «و مریم ابنت عمران الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا...» (١٢) بيانا ان الموضوع المنفوخ فيه الروح منها هو فرجها لا سواها، و قد فصلناه فى محالها الأنسب كالطلاق وسواها.

و ترى كيف جعلنا هما «آية للعالمين» لا «آيتين» والمسيح بنفسه آية إلهية بما معه من آيات؟ القصد من «آية» هنا هى الذاتية الكونية، وهذه الولادة المنقطعة النظر آية واحدة، قائمة بكلا الولد والوالدة، لولا أحدهما لم يكن الآخر آية، إذا فهما آية نظرا الى هذه الولادة القائمة بهما كليهما، آية واحدة فذة فى تاريخ الإنسان على مر الزمان، ومثل واحد من ذلك النوع يكفى تأملا للإنسانية فى اجيالها على طولها وعرضها فى سماءها وارضها، لمسا معرفيا

^١ نور الثقلين ٣: ٤٥٧ فى كتاب الخصال عن يونس بن ظبيان قال قال الصادق عليه السلام ان الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه فطبعة فطبعة يعبدونه رغبة فى ثوابه فتلك عبادة الحرصاء و هى الطمع و آخرون يعبدونه فرقا من النار فتلك عبادة العبيد و هى الرهبة و لكنى اعده حبا له فتلك عبادة الكرام. أقول: و لان هواء الرسل هم من الكرام فعبادتهم رغبا و رهبا لا تعنى ما عنته هذه الرواية.

وواقعيا ليد القدرة الطليقية المطلقة الإلهية التي تخلق النواميس، دون حصر واحتباس داخل النواميس! وروحنا، هنا هي روح المسيح اضافة الى جسمه وقد جرت من مجراها فى مريم نفخا دون علوق من ذكر، ولا انتقال من طبق إلى طبق، وأضيفت الى الله لمزية الاصطفاء بالتكريم والاختصاص بالتعظيم فى بعدى خرق العادة لخلقها، والميزة على سائر الأرواح، اللهم الا التي ساماها بل فضلت عليها كروح محمد والمحمدين من عترته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.